تتمة المنتهى
في
تاريخ الخلفاء

هويّة الكتاب

تتمة المنتهىٰ في تاريخ الخلفاء

تأليف .... شيخ عباس القمي

المترجم .... نادر التقي

الناشر .... انتشارات انوار الهدى

القطع .... وزيري

عدد المطبوع .... ١٢٠٠ نسخة

سنة الطبع .... الاولىٰ ـ ١٣٨١ ـ ١٤٢٣ هـ . ق

عدد الصفحات .... ٥٩٢ صفحة

المطبعة .... بقيع ـ عزيزى

السعر .... ٣٠٠٠ تومان

ISBN: 964 - 6223 - 71 - 0

شابك: ٠ - ٧١ - ٦٢٢٣ - ٩٦٤

تتمة المنتهى
في
تاريخ الخلفاء

المجلد الثالث من كتاب منتهى الآمال
ويضم كتاب طبقات الخلفاء وأصحاب الأئمة والشعراء

تأليف
ثقة المحدثين الشيخ عباس القمّي (رض)

تعريب
نـــادر التــقي

بسم الله الرحمن الرحيم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمة الكتاب

من الكتب المعتبرة ذات الفائدة الكبيرة، والتي قلما زانها جمال الطباعة كتاب «تتمة المنتهى» بقلم ثقة المحدثين المرحوم الحاج الشيخ عباس القمي رضوان الله تعالى عليه، والدي الكبير، وتأتي فائدته سواء من حيث أهمية موضوعه، وهو تاريخ الخلفاء والوزراء ومعاصريهم من العلماء، أو من حيث إتقانه باعتباره عديم النظير والمثيل بين الكتب الفارسية، خاصة وأن كاتبه من المحققين المدققين، ذوي الذوق الرفيع، وقد جمع موادّه من مصادر معتبرة عديدة فجاء في غاية الإحكام والإتقان، كما جاء ـ مع مراعاة الاختصار ـ موافقاً لأذواق الجميع، وهذا ما سيلمسه القراء الأفاضل بعد مطالعته والتدقيق فيه.

هذا ومع الإيجاز الذي هو سمة هذا الكتاب، فهو يحتوي على مواضيع عميمة النفع، وحكايات فائقة الجاذبية، وقصص محبّبة، حتى ليمكن القول: إن القارىء ما إن يشرع بقراءة طرف منه حتى يفتتن به، ويغدو أسيراً لقلم كاتبه، بحيث يعجز ـ مختاراً ـ عن قطع حبل المطالعة، فيستغرق في القراءة ساهياً عن نفسه، غافلاً عن الوقت الذي ينفقه، وبعد أن يستكمل مطالعته ـ على ما هو عليه من اختصار، وعلى ندرة مثاله بين الكتب الفارسية ـ يحس بالأسف لتركه، وهذا بالطبع يعود إلى تلك الكتابات العلمائيّة، التي يُعرف كتّابها في المجتمع بصدقهم، وصحة أقوالهم، وبعدهم عن الغرض.

صرف مؤلف هذا الكتاب جلّ اهتمامه إلى الكتب الصحيحة المعتبرة، وعلى الخصوص كتب أهل السنّة والجماعة كأسد الغابة، وتاريخ الطبري، والكامل لابن الأثير، وسائر كتب التاريخ المعتبرة المتقنة.

مؤلف الكتاب: المرحوم ثقة المحدثين، المحدث القمي، كانت ولادته في مدينة قم سنة أربع وتسعين ومئتين وألف من الهجرة، قضى فترة طفولته وشبابه في مدينة قم، وقد أكمل تحصيله لفنون الأدب طبقاً لما كان معمولاً به في ذلك الزمان، إلى أن تشرّف وهو في الثامنة عشرة بالورود إلى النجف الأشرف حيث كان الارتباط أقوى بالأحاديث المروية المشتملة على العلم الموروث عن أهل بيت العصمة والطهارة، وكما درج الأوائل من السلف العظام والعلماء على القيام بتلك الأسفار، وتجشم المصاعب في سبيل الإحاطة بعلم الحديث والاستفادة من مشايخه وأساتذته.

لهذا فقد اختار أن يكون بخدمة خاتم المحدثين وثقة الإسلام والمسلمين جناب الحاج الميرزا حسين النوري رحمه الله، وأن يتتلمذ على يديه، وقضى بجانب ذلك العالم الكبير مدة نهل فيها من نبعه العلم والفوائد، ووفقاً لما يقوله المؤلف في كتابه: «الفوائد الرضوية في تراجم علماء الإمامية» (الذي سنضعه ـ بمشيئة الله وتوفيقه ـ بين أيدي القراء في القريب العاجل) يقول ضمن ترجمة أستاذه المرحوم المحدث النوري: كنت دائماً ـ عند ملازمتي لأستاذي في السفر والحضر، وفي الليالي والأيام ـ أجني منه الفوائد الوفيرة، حتى وافاه الأجل. وصورة إجازة أستاذه له مثبتة في أغلب مؤلفاته.

وبعد مدة من إقامته بالنجف الأشرف، وعلى أثر عارض مزاجي وضيق نفسي ابتلي به ـ وهذه العلة لازمته حتى آخر عمره ـ عاد إلى قم، ليتخذ من مكان مولده وموطنه الأصلي مقاماً له، وأنجز طوال إقامته هناك تأليف العديد من الكتب، حتى وافت سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمئة وألف ـ وبسبب أضرار وابتلاءات باطنية ـ رحل إلى المشهد الرضوي المقدس، واتخذ من تلك الأعتاب المقدسة موطناً له، مجاوراً موئل العلم والفضيلة، وببركة مجاورته

لتلك الأعتاب الطاهرة استطاع تأليف وتصنيف العديد من الكتب ذات الفوائد الجمة. وكان في أوقات الفراغ ـ وخاصة أيام مجالس العزاء ـ يتحف الناس بمواعظه اللطيفة وأحاديثه المفيدة، والحق أن لأحاديثه نكهة وأثراً مختلفين، وجاذبية تستحوذ على القلوب، وتستميلها إليه، وكانت أخلاقه وزهده وتقواه وطهارته ـ دون مبالغة ـ مثالاً وقدوة لكل أحد في المجتمع، حتى ليمكن القول: إنه كان نموذجاً للأولين والعظماء، فهو طيلة عمره.. في شبابه وشيبته، لم يتخذ سوى عبادة الحق سبيلاً، ولم يقصّر آناً في وفائه بتكاليفه. فطوبى لقوم عرفوا تكاليفهم فوفّوا بها ولم يقصّروا.

في سنة اثنتين وخمسين وثلاثمئة وألف تشرّف بالعودة ثانية إلى النجف الأشرف قاصداً زيارة أمير المؤمنين عليه السلام، والحظوة بمجاورة تلك الأعتاب المقدسة، واشتغل طوال تلك المدة ـ وكانت في أواخر أيام عمره ـ بالتأليف، وأخرج عدة كتب أخرى.

وفي سنة تسع وخمسين وثلاثمئة وألف اشتدت عليه أعراض ذلك الخمول، والضعف المتواصل، ووهن المزاج، حتى وافته المنية في الليلة الثالثة والعشرين من شهر ذي الحجة، وانتقل إلى رحمة ربه في النجف الأشرف، ودفن في صحن الأمير المطهر في الإيوان الثالث من الأواوين القائمة شرقي باب القبلة، بجانب قبر أستاذه المرحوم المحدث النوري رضوان الله تعالى عليه.

مؤلفات المرحوم المحدث القمي

نشير هنا إلى عدد من المجلدات من كتب المؤلف المشهورة، ونحيل من أراد التفصيل إلى كتاب «الفوائد الرضوية»:

١ ـ سفينة البحار ومدينة الحكم والآثار.

٢ ـ منتهى الآمال.

٣ ـ مفاتيح الجنان.

٤ ـ هدية الأحباب في المعروفين بالكنى والألقاب.

٥ ـ الأنوار البهية.

٦ ـ الفوائد الرضوية.

٧ ـ نفس المهموم.

٨ ـ الكنى والألقاب.

إلى غير ذلك من المؤلفات التي يتناول كل منها موضوعاً، وهي تنوف على ثمانين كتاباً.

علي بن المحدث القمي

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمة المؤلف

الحمد لله كلما وقب ليل وغسق، وصلى الله على محمد وآله ما لاح نجم وخفق.

وبعد.. يقول العبد الفقير المتمسّك بأذيال أحاديث أهل بيت الرسالة «عباس بن محمد رضا القمي» ختم الله لهما بالحسنى والسعادة:

لمّا شملني التوفيق الإلهي فألّفت ـ وأنا الضعيف أسير أشراك الأماني والآمال ـ كتاب «منتهى الآمال» في مصائب النبي والآل، حيث انقطع حبل الكلام فيه عند ذكر أحوال السبط الأكبر لرسول الله صلى الله عليه وآله، الإمام الحسن المجتبى عليه السلام، أردت أن أورد موجزاً عن أحوال بني الحسن، وشرح مقاتلهم، ولما كتبت مقداراً منها رأيتني قد خرجت عن موضوع الرسالة، ففكرت أنه يحسن بي أن أكتب رسالة مستقلة في مقاتل بني الحسن وسائر آل أبي طالب، تكون تكملة وتتمة لكتاب «منتهى الآمال»، فاستعنت بالله تعالى وكتبت هذه الرسالة، وأسميتها: «تتمة المنتهى في وقائع أيام الخلفاء» وعنونتها بذكر أيام الخلفاء تتخللها مقاتل الطالبيين بصورة مختصرة.

وعلاوة على ذلك فقد أتيت على ذكر وقائع أيام الخلفاء، ووفيات المعروفين من أصحاب الأئمة عليهم السلام، وعلماء الفريقين، ومشاهير وأعيان العصر، وطرف من خصائصهم ونوادر آثارهم، مع موجز عن وقائع

وأحداث أخرى جرت في أيام الخلفاء الأمويين والعباسيين، وقد ذكرتها باختصار وإتقان، إذ أن في مطالعة أحوال الماضين والمسير في وقائع أيامهم فوائد كثيرة ومنافع لا حصر لها.

وكفى لذلك قول أمير المؤمنين عليه السلام في وصيته لولده الحسن عليه السلام:

«إني وإن لم أكُ قد عمّرت عمر من كان قبلي فقد نظرت في أعمارهم، وفكرت في أخبارهم، وسرت في آثارهم حتى عدت كأحدهم، بل كأني بما انتهى إليّ من أمورهم قد عمرت مع أولهم إلى آخرهم، فعرفت صفو ذلك من كدره، ونفعه من ضرره».

ولا شبهة في أن السير في آثار السلف يبعث على اعتبار ووعي الخلف، ويوجب الزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة.

لهذا فقد أشار الإله المجيد في كتابه الشريف إلى أحوال السلف وآثارهم، وأمر أن ننظر في عواقب أمورهم. وأن نأخذ منهم العظة والعبرة، وقد أتت الإشارة إلى هذا الأمر بكثرة في خطب أمير المؤمنين عليه السلام وكلماته.

وها نحن نفتتح الرسالة بذكر خطبتين شريفتين تيمّناً وتبرّكاً، ثم نشرع بعد ذلك بما قصدنا إليه.

قال عليه السلام:

«فإنه والله الجد لا اللعب، والحق لا الكذب، وما هو إلا الموت أسمع داعيه، وأعجل حاديه، فلا يغرّنّك سواد الناس من نفسك، فقد رأيت من كان قبلك ممّن جمع المال، وحذر الإقلال، وأمن العواقب ـ طولَ أمل واستبعاد أجل ـ كيف نزل به الموت فأزعجه عن وطنه، وأخذه من مأمنه، محمولاً على أعواد المنايا، يتعاطى به الرجال حملاً على المناكب، وإمساكاً بالأنامل، أما رأيتم الذين يأملون بعيداً، ويبنون مشيداً، ويجمعون كثيراً، كيف أصبحت

بيوتهم قبوراً، وما جمعوا بوراً وصارت أموالهم للوارثين، وأزواجهم لقوم آخرين، لا في حسنة يزيدون، ولا من سيئة يُستعتبون؟.

فمن أشعر التقوى قلبه برز مهله، وفاز عمله. فاهتبلوا هبلها، واعملوا للجنة عملها، فإن الدنيا لم تخلق لكم دار مقام، بل خلقت مجازاً لتزوّدوا منها الأعمال إلى دار القرار، فكونوا منها على أوفاز، وقرّبوا الظهور للزيال».

وقال عليه السلام أيضاً:

«دار بالبلاء محفوفة، وبالغدر معروفة، لا تدوم أحوالها، ولا تسلم نزالها، أحوال مختلفة، وتارات متصرفة، العيش فيها مذموم، والأمان منها معدوم، وإنما أهلها فيها أغراض مستهدفة، ترميهم بسهامها، وتفنيهم بحمامها.

فاعلموا عباد الله أنكم وما أنتم فيه من هذه الدنيا على سبيل من قد مضى قبلكم، ممّن كان أطول منكم أعماراً، وأعمر دياراً، وأبعد آثاراً، أصبحت أصواتهم هامدة، ورياحهم راكدة، وأجسادهم بالية، وديارهم خالية، وآثارهم عافية، فاستبدلوا بالقصور المشيّدة والنمارق الممهّدة الصخور والأحجار المسنّدة، والقبور اللاطئة الملحّدة، التي قد بني بالخراب فناؤها، وشيد بالتراب بناؤها، فمحلها مقترب، وساكنها مغترب، بين أهل محلة موحشين، وأهل فراغ متشاغلين، لا يستأنسون بالأوطان، ولا يتواصلون تواصل الجيران، على ما بينهم من قرب الجوار، ودنوّ الدار، وكيف يكون بينهم تزاور وقد طحنهم بكلكله البلى، وأكلتهم الجنادل والثرى، وكأن قد صرتم إلى ما صاروا إليه، وارتهنكم ذلك المضجع، وضمّكم ذلك المستودع، فكيف بكم لو تناهت بكم الأمور، وبعثرت القبور، هنالك تبلو كل نفس ما أسلفت، ورُدّوا إلى الله مولاهم الحق، وضلّ عنهم ما كانوا يفترون».

وهذا أوان الشروع في المقصود. فأقول مستمداً من الله الرؤوف الودود:

خلافة أبي بكر بن أبي قحافة

كان أول من تسربل بلباس الخلافة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله عبد الله بن عثمان بن عامر بن كعب بن سعد بن تيم بن مرّة بن كعب بن لؤي وكان معروفاً بأبي بكر ابن أبي قحافة، وقد وقع هذا في يوم الاثنين الثامن والعشرين من شهر صفر سنة عشر من الهجرة، الموافقة لسنة ست وثلاثين ومئة وستة آلاف من هبوط آدم عليه السلام، وقد امتدت أيام خلافته إلى سنتين وأربعة أشهر تنقص أياماً، وكانت وفاته في السنة الثالثة عشرة من الهجرة، وذلك ليلة الثلاثاء بين صلاتي المغرب والعشاء لثمان ليال بقين من شهر جمادى الآخرة، عن عمر بلغ ثلاثاً وستين سنة، بعد أن دسّ اليهود سمّاً في طعام معدّ لأبي بكر والحارث بن كلدة، أما الحارث فقد أصيب بالعمى من تأثير السمّ، وأما أبو بكر فقد وقع مريضاً لخمسة عشر يوماً فارق بعدها الحياة.

قال وهو في حال احتضاره: «إني لا آسى على شيء إلا على ثلاث وددت أني لم أفعلهنّ»... وعدّ منها: «وددت أني لم أكشف بيت فاطمة، وتركته وإن أغلق على الحرب»[١].

وإجمالاً فإن أحداً لم يتبوأ سدة الخلافة وأبوه على قيد الحياة سوى أبي بكر[٢] فأبوه كان حيّاً أيام خلافته، وتوفي في خلافة عمر سنة ثلاث عشرة أو أربع عشرة من الهجرة، عن عمر بلغ تسعاً وتسعين سنة.

---

(١) لسان الميزان: ج ٤ ص ١٨٩.

(٢) الآخر هو الطائع لله الذي كان أبوه المطيع لله حيّاً، وقد خلع من الخلافة، كما سيأتي. منه (ره).

وكان لأبي بكر من الأبناء الذكور عبد الله وعبد الرحمان ومحمد، وأمّ محمد هي أسماء بنت عميس، وكان محمد يلقب بعابد قريش بنسكه وزهده لنسكه. وتربيته في كنف أمير المؤمنين عليه السلام. وفي أيام معاوية بن أبي سفيان اغتاله معاوية بن خديج بأمر من عمرو بن العاص، ثم وضع جثته في جلد حمار.. وأحرقه.

وكان لأبي بكر من الإناث اثنتان: عائشة، وأسماء ذات النطاقين أمّ عبد الله بن الزبير.

وفي عهد أبي بكر، في السنة الثانية عشرة من الهجرة توفي زيد أخو عمر وأبو حذيفة، وسالم مولى حذيفة، وثابت بن زيد خطيب الأنصار، وأبو دجانة سماك بن خرشة، وأبو العاص بن الربيع القرشي زوج زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وآله، وفي السنة الثالثة عشرة من الهجرة توفي أبان بن سعد بن العاص الأموي.

خلافة عمر بن الخطاب

لما توفي أبو بكر خلفه عمر بن الخطاب بناءً على وصيته، وامتدّ حكمه عشر سنوات وستة أشهر وأربع ليال، وكان مقتله ـ وفقاً للمصادر التاريخية ـ يوم الأربعاء السادس والعشرين من شهر ذي الحجة سنة ثلاث وعشرين من الهجرة، وذلك على يدي فيروز غلام المغيرة بن شعبة المعروف بأبي لؤلؤة، ودفن إلى جانب أبي بكر، عن عمر يوافق عمر أبي بكر، وكان عمر أول من لقّب نفسه بأمير المؤمنين، وأول من دعاه بهذا اللقب على المنبر أبو موسى الأشعري.

أبناء عمر: عبد الله وحفصة وعاصم وفاطمة وزيد وعبد الرحمان وإناث أخريات، وكان عبد الرحمان الأصغر بين إخوته. وهو من أجري عليه حدّ شرب الخمر، وعاصم هو جدّ عمر بن عبد العزيز المرواني لأمّه.

في عهد عمر، وفي السنة الرابعة عشرة من الهجرة توفي أبو عبيدة والد المختار، وأبو قحافة والد أبي بكر، وفي هذه السنة أمر عمر بصلاة التراويح، كما أن فتح الشام كان في السنة نفسها.

وفي السنة الخامسة عشرة من الهجرة توفي عكرمة بن أبي جهل، والفضل بن العباس، وخالد بن الوليد، وعمرو بن أمّ مكتوم، الأعمى، وأبو زيد الأنصاري، وسعد بن عبادة.

وفي السنة السادسة عشرة من الهجرة تمّ فتح الأهواز، وفتح جلولاء، وقد وضع التاريخ الهجري في هذه السنة.

وفي السنة السابعة عشرة من الهجرة تمّ فتح تستروسوس.

وفي السنة الثامنة عشرة توفي معاذ بن جبل، وأبو عبيدة بن الجراح، ووقع في هذه السنة قحط عظيم وطاعون «عمواس» بالشام، أودى بحياة خمسة وعشرين ألفاً من الناس، وكان في عدادهم بلال مؤذن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

روي أن بلالاً أبى أن يبايع أبا بكر، وأن عمر أخذ بتلابيبه وقال له: يا بلال، هذا جزاء أبي بكر منك أن أعتقك فلا تجيء تبايعه؟ فقال: إن كان أبو بكر أعتقني لله فليدعني لله، وإن كان أعتقني لغير ذلك فها أنا ذا، وأما بيعته فما كنت لأبايع من لم يستخلفه رسول الله صلى الله عليه وآله، والذي استخلفه بيعته في أعناقنا إلى يوم القيامة.

فقال له عمر: لا أبا لك، لا تقم معنا.

فارتحل إلى الشام، وتوفي بدمشق بالباب الصغير، وله شعر في هذا المعنى.

وعن (يه) روى أبو بصير عن أحدهما عليهما السلام أنه قال:

«إن بلالاً كان عبداً صالحاً، فقال: لا أؤذّن لأحد بعد رسول الله صلى الله عليه وآله، فترك يومئذٍ: حي على خير العمل».

وفي السنة التاسعة عشرة من الهجرة توفي أبيّ بن كعب، وزينب بنت جحش، وأبو الهيثم بن التيهان، وأسيد بن حضير، وأبو سفيان بن الحرث بن عبد المطلب، وفي هذه السنة سالت «حرة ليلى» ناراً، فأمر عمر بالتصدق، وفي هذه السنة خرج عمر للحج.

وفي السنة العشرين من الهجرة تمّ فتح مصر على يدي عمرو بن العاص، كما تمّ فتح الاسكندرية.

وفي السنة الحادية والعشرين جرت وقعة نهاوند، وتم فتحها على يدي

أبي موسى، كما تمّ فتح دينور وهمدان، وبذلك كان الشروع بفتح ممالك الأعاجم في أيام «يزدجرد»، كما تمّ فتح أصفهان، وقد ولد في هذه السنة الشعبي، والحسن البصري.

وفي سنة اثنتين وعشرين تمّ فتح أذربيجان، وقيل إن هذا وقع سنة ثماني عشرة بعد فتح همدان والري وجرجان، وفي هذه السنة تمّ فتح قزوين وزنجان وقوس وخراسان وبلخ وغيرها، والله العالم.

خلافة عثمان بن عفان ومقتله

لما أوشك عمر على الارتحال عهد بأمر الخلافة بين ستة أشخاص أوصاهم أن يكون هذا الأمر شورى بينهم، وحدّد للشورى زمناً هو ثلاثة أيام، والأشخاص الستة هم:

أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، وعثمان بن عفان، وطلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوّام، وسعد بن أبي وقّاص، وعبد الرحمان بن عوف.

وبعد أن فارق عمر الحياة تأخر البتّ بأمر الخلافة ثلاثة أيام بسبب الشورى، وفي اليوم الرابع الذي صادف غرّة المحرم من السنة الرابعة والعشرين من الهجرة تسربل عثمان بقميص الخلافة، وامتد حكمه اثني عشر عاماً إلا قليلاً، انتهت بمقتله في أواخر السنة الخامسة والثلاثين من الهجرة، وكان ذلك عصر يوم الأربعاء.

روي أنه كان عند خازنه يوم مماته مئة وخمسون ألف دينار، وألف ألف درهم من المال، وقدّرت قيمة ضياعه في وادي القرى وحنين بمئة ألف دينار، إلى ما خلّفه من خيل وإبل لا تحصى، وقد غدا العديد من الصحابة في أيامه من ذوي الثراء جرّاء عطاياه أمثال الزبير بن العوام الذي بنى بيوتاً فارهة، وخلّف بعد مماته خمسة آلاف دينار، وألفاً من الخيل، وألف عبد وألف أمة، إلى غير ذلك، وأمثال طلحة الذي بلغ ثراؤه حدّاً أضحت معه غلاله من العراق تدرّ ألف دينار في اليوم، وقيل بل أكثر من ذلك، ثم غيرهما عبد الرحمان بن

عوف، وكان يمتلك مئة من الجياد، وألفاً من الإبل، وعشرة آلاف من الشياه، وقدّر ربع ماله بعد موته بأربعة وثمانين ألفاً، إلى آخرين أمثال سعد بن أبي وقّاص، وزيد بن ثابت، وغيرهما. أضف إلى ذلك أن عثمان كان يغدق الكثير من الأموال على أقاربه وخواصّه من بني أمية.

يروي الواقدي أن أبا موسى الأشعري بعث إلى عثمان بمال عظيم من البصرة، فقام عثمان بقسمة هذا المال بتمامه بالقصاع على أهله وذويه، حتى راح دمعه يسيل من شدة التحديق، كما نقل أنه وهب الحكم بن أبي العاص ثلاثمئة دينار، ووهب سعيداً بن العاص مئة ألف درهم ممّا جعله هدفاً لطعن الناس به وملامتهم له، كما وهب الحارث بن الحكم إبل الصدقة، أمّا حكايات عطاياه لمروان بن الحكم وأنسبائه وغيرهم فمعروفة.

ونقل عن صاحب «الاستيعاب» أن عثمان ترك بعد مقتله ثلاث زوجات، وقيل أربعاً، ورثت كلّ منهن من ثُمن تركته ثلاثة وثمانين ألف دينار.

كان عامل عثمان على مصر عبد الله بن أبي سرح، وعلى الشام معاوية بن أبي سفيان، وعلى البصرة عبد الله بن عامر، وعلى الكوفة الوليد بن عقبة بن أبي معيط، وكان أخاه لأمه، كان الوليد معروفاً بالفسق والفجور الشديدين، وكان يجهر أمام الناس بفسقه وفجوره وشربه للخمر، حتى أنه قدم يوماً إلى صلاة الصبح في المسجد وهو سكران، وصلّى فريضة الصبح أربع ركعات وقال: إن شئتم المزيد زدتكم، وعلى قول: إنه أطال السجود وهو يقول: اشرب واسقني، وشاع عنه من أمثال هذا السلوك الكثير، قدم أهل الكوفة إلى عثمان وشهدوا بفسقه وشربه للخمر، فاستدعاه عثمان إليه، لكنه لم يقم عليه الحد، وبعث بسعيد بن العاص بدلاً عنه، ولما بلغ هذا الكوفة، أبى أن يرتقي المنبر ما لم يقوموا بغسله، وكان يقول: كان الوليد نجساً ورجساً فأردت تطهير المنبر، ولم يمض عليه في إمارته للكوفة سوى القليل حين بدأت المنكرات تظهر منه، مما دفع الأشتر النخعي إلى التوجه إلى المدينة مطالباً بعزله وتولية أبي موسى الأشعري مكانه.

هذا وقد ظهرت من عثمان في أيام خلافته أمور كانت ذات وقع أليم على الناس، منها ما فعله مع عبد الله بن مسعود وعمار بن ياسر، وإخراجه أبا ذرّ من المدينة ونفيه إلى الربذة، ومنها ما جرى منه مع أهل مصر، فقد قدموا إلى المدينة يشتكون إليه ويتظلمون من أفعال عامله عبد الله بن أبي سرح، فولّى عثمان محمد بن أبي بكر مكانه وأشخصه إلى مصر معهم. وبينما هم ببعض الطريق رأوا رسولاً من عثمان يريد مصر، فرابهم أمره وفتّشوه فوجدوا معه كتاباً إلى عبد الله بن أبي سرح فإذا فيه أمر بقتل محمد بن أبي بكر، وحلق رؤوس ولحى بعض أصحابه. وحبس وصلب آخرين، فلما رأى المصريون ذلك قفلوا عائدين إلى المدينة، وانضموا هناك إلى قبائل بني زهرة وهذيل وبني مخزوم وغفار، وأحلافهم من أنصار ابن مسعود وعمار وأبي ذرّ، وأحاطوا بدار عثمان فحصروه ومنعوا عنه الماء، ولما بلغ أمير المؤمنين عليه السلام خبر ذلك بعث إليه بثلاث قرب من الماء على عجل.

وامتدّ حصار عثمان تسعة وأربعين يوماً، وفي آخر الأمر تسوّر محمد بن أبي بكر مع اثنين آخرين دار عثمان من سطح أحد بيوت الأنصار ودخلوا إليه، فقبض محمد على لحيته وأراد ضربه، لكنه أمسك وتراجع عنه، غير أنّ الآخرين عاجلاه فقتلاه، فلما شهدت زوجته ما جرى هرعت إلى سطح البيت وهي تعول وتصيح: قتل أمير المؤمنين.

تدافع الناس إلى الداخل، ولما وصلوا إلى عثمان كان قد فارق الحياة، وكانت هذه الواقعة لثلاثة أيام بقين من ذي الحجة سنة خمس وثلاثين من الهجرة.

ومن الأشخاص الذين كانوا معه مروان بن الحكم مع سبعة عشر آخرين، وبقي جسده مسجّى على الأرض ثلاثة أيام تم بعدها دفنه بالمدينة في موضع يعرف بـ «حش كوكب» وذلك قبل ظهر يوم السبت، وهناك اختلاف كبير في مقدار عمره الذي تراوح بين اثنين وستين عاماً إلى تسعين عاماً كما قيل، وأبناؤه هم: عبد الله الأكبر، وعبد الله الأصغر، وأبان، وخالد،

وسعيد، والوليد، والمغيرة، وعبد الملك، وأم أبان، وأم سعيد، وأم عمر، وعائشة. وكان أبان أحول أبرص، أما الوليد فكان شارباً للخمر شجاعاً، وروي أنه كان حين مقتل أبيه ثملاً.

في عهد عثمان تم فتح الاسكندرية وإفريقية وغيرها، وذلك سنة خمس وعشرين، وفي سنة ست وعشرين قصد عثمان مكة معتمراً، وأمر بتوسيع البيت الحرام، وفي سنة تسع وعشرين قصدها حاجّاً، وصلّى الركعتين أربعاً، وسنّ بذلك بدعة، وفي هذه السنة تمّ توسيع المسجد النبوي.

وفي سنة ثلاثين أمر عثمان بجمع المصاحف فجمعت، كما كتبت عدة مصاحف بُعث بنسخة منها إلى كل من الكوفة والبصرة والشام ومكة واليمن والبحرين.

وفي سنة إحدى وثلاثين توفي أبو سفيان بن حرب، والحكم بن أبي العاص، كما قتل في هذه السنة يزدجرد آخر ملوك فارس، وبمقتله انقرضت مملكة آل دارا التي امتدت إلى مئتين وخمسين سنة، أو أربعمئة سنة.

وفي سنة اثنتين وثلاثين توفي العباس عم رسول الله صلى الله عليه وآله، وقبره بالبقيع، وقد دفن في البقعة نفسها أئمة البقيع عليهم السلام. كما توفي في هذه السنة أبو ذرّ الغفاري رضي الله عنه، وعبد الرحمان بن عوف، وعبد الله بن مسعود.

وفي سنة ثلاث وثلاثين توفي المقداد بن الأسود الكندي رضوان الله تعالى عليه بالجرف، وهو على بعد فرسخ من المدينة، فحمل جثمانه إلى البقيع ودفن هناك، أمّا القبر الذي ينسب إليه في شهروان فلا واقع له[1]، نعم يحتمل أنه قبر الفاضل المقداد السيوري، أو قبر أحد شيوخ العرب،

(١) والقول نفسه يجري على القبر الذي ينسب إليه أيضاً والقائم قرب «ببّيلا» من ضواحي دمشق (المعرّب).

والمقداد بن الأسود أحد الأركان الأربعة الذين قال فيهم رسول الله صلى الله عليه وآله:

«**أمرني ربّي بحبّ أربعة من أصحابي، وأخبرني أنه يحبهم**» فقيل: يا رسول الله، من هم؟ قال: «**علي، والمقداد، وسلمان، وأبو ذرّ**». وقال: «**الجنة تشتاق إليك يا علي، وإلى عمار وسلمان والمقداد**».

زوجة المقداد ضباعة بنت الزبير بن عبد المطلب، شهد جميع غزوات الرسول صلى الله عليه وآله مجاهداً، الأخبار في فضله كثيرة، ويكفي في هذا الباب الرواية التي نقلها الشيخ الكشّي عن الإمام الباقر عليه السلام إذ قال:

«**ارتدّ الناس إلا ثلاث نفر: سلمان وأبو ذرّ والمقداد**». قال الراوي: فقلت عمار؟ قال: «**كان جاص[١] جيصة ثم رجع**» ثم قال: «**إن أردت الذي لم يشكّ ويدخله شيء فالمقداد**».

كانت وفاة المقداد قبل وفاة سلمان بسنوات ثلاث، فقد توفي سلمان سنة ست وثلاثين بالمدائن، حسب ما جاء عن القاضي نور الله في «مجالس المؤمنين».

(١) بالمهملتين، وحكي بالمعجمتين أيضاً، أي: جال جولة يطلب الفرار (منه ره).

خلافة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام

وبيان قتاله للناكثين والقاسطين والمارقين

في اليوم الذي قتل فيه عثمان أجمع الناس على بيعة أمير المؤمنين عليه السلام بالخلافة، فلم ينزل عليه السلام عند رغبتهم إلاّ بعد اللتيّا والتي... وامتدت خلافته أربع سنوات وتسعة شهور وعدة أيام، انشغل خلال أكثر هذه المدّة بقتال الناكثين والقاسطين والمارقين، وشرح هذه الوقائع يطول، غير أن من المناسب ـ في هذا الكتاب المستطاب ـ الإشارة إلى كلّ منها باختصار.

موجز عن وقعة الجمل

في سنة ست وثلاثين توجّه أمير المؤمنين عليه السلام إلى البصرة لمواجهة أصحاب الجمل، وفي العاشر من جمادى الأولى من هذه السنة جرت وقعة الجمل وسقط فيها من جيش عائشة ثلاثة عشر ألفاً من القتلى مقابل خمسة آلاف من أصحابه عليه السلام.

كانت بداية هذه الحرب عندما نكث طلحة والزبير بيعتهما وخرجا من المدينة متوجهين إلى مكة بحجة العمرة، وكانت عائشة إذ ذاك في مكة، كما فرّ إليها أيضاً عبد الله بن عامر عامل عثمان على البصرة، وذلك بعد مقتل عثمان وبيعة الناس لأمير المؤمنين عليه السلام الذي عيّن عثمان بن حنيف عاملاً له على البصرة، وقد بادر عبد الله بالتوجّه إلى مكة لإمداد طلحة والزبير وعائشة، وأحضر معه جمله واسمه «عسكر» وكان قد ابتاعه باليمن بمئتي دينار، فقدّمه إلى

عائشة التي تحركت نحو البصرة، ولما بلغوا «الحوأب» نبحتهم كلابها وهاجمت جمل عائشة. فسألت عائشة عن اسم ذلك الموضع فأجابها سائق الجمل: إنه الحوأب، فاسترجعت بعد أن ذكرت قول رسول الله صلى الله عليه وآله حين أخبرها بهذا الأمر وحذّرها منه، إذ قال صلى الله عليه وآله:

«والله لا تذهب الليالي والأيام حتى تتنابح كلاب ماء بالعراق يقال له «الحوأب» امرأة من نسائي في فئة باغية» إلى آخر الواقعة التي ذكّرتها بها أم سلمة رضوان الله تعالى عليها، وإذ ضحكت عائشة التفت إليها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: **«ممّ تضحكين يا حميراء؟ إني أحسبك هي»**!.

ذكرت عائشة ذلك فقالت: ردّوني إلى المدينة، فشهد ابن الزبير وطلحة مع خمسين آخرين شهادة كاذبة فقالوا: هذا الموضع ليس «الحوأب» وقد أخطأ من قال ذلك! ثمّ تحرك الركب نحو البصرة.

ولقد أجاد الجاحظ إذ قال في حقّهم:

جاءت مع الأشقين في هودج — تزجي إلى البصرة أجنادها
كأنّها في فعلها هرّة — تريد أن تأكل أولادها

ولما بلغوا البصرة تدفقوا ليلاً إلى دار عثمان بن حنيف عامل أمير المؤمنين عليه السلام فأسروه بعد أن ضربوه ضرباً مبرحاً ونتفوا لحيته، ثم قصدوا بيت المال فحاول أمناؤه دفعهم غير أنهم فشلوا بعد أن جرح بعضهم فعجزوا عن المقاومة، وقتلوا سبعين نفراً، خمسون منهم قتلوا صبراً، كما قتل الحكيم بن جبلة العبدي ظلماً، وكان من سادة عبد القيس.

بعد أربعة شهور من خروج طلحة والزبير تحرك أمير المؤمنين عليه السلام نحو البصرة بسبعمئة فارس من جملتهم جماعة من البدريين والأنصار، والتحق به جيش من المدينة لنصرته، ولما بلغ عليه السلام الربذة كتب إلى أبي موسى كتاباً، وكان إذ ذاك عامله على الكوفة، يأمرهُ فيه بدعوة الناس إلى الجهاد، لكنّ أبا موسى أقعدهم عن الجهاد وخذّلهم، فلّما بلغه ذلك عيّن

قرظة بن كعب الأنصاري عاملاً له على الكوفة، وكتب إلى أبي موسى أن اعتزل عملنا مذموماً مدحوراً، فهذه ليست أول أذيّة تنالني منك، وسأرى منك بعدها مصائب.

وهذه إشارة - كما يبدو - إلى ما سيكون من أبي موسى أيام نصب الحكمين، وهما أبو موسى وعمرو بن العاص.

لما بلغ أمير المؤمنين عليه السلام محلّة «ذي قار» بعث بالإمام الحسن عليه السلام وعمار بن ياسر إلى الكوفة يستنهضان أهلها لجهاد البصريين، فلما بلغاها انضم إليهما من الكوفيين ما يقارب سبعة آلاف فالتحقوا بأصحاب أمير المؤمنين عليه السلام، ومن ثم توجه الأمير عليه السلام نحو البصرة وبصحبته أبو أيوب الأنصاري، وخزيمة بن ثابت ذو الشهادتين، وأبو قتادة، وعمار بن ياسر، وقيس بن سعد بن عبادة، وعبد الله بن عباس. وقثم بن عباس، والحسنان عليهما السلام، ومحمد بن الحنفية، وعبد الله بن جعفر، وبنو عقيل، وكوكبة من فتية بني هاشم، ومشايخ بدر من المهاجرين والأنصار..

ولما اصطف الفريقان للقتال بعث عليه السلام مسلماً المشاجعي يحمل مصحفاً إلى حيث البصريون ليتلو عليهم حكم القرآن، فما كان من البصريين إلا أن سددوا إليه سهماً فأردوه قتيلاً، ولما حمل جسده إلى أصحابه، وكانت أمه ممن حضر الواقعة أنشدت في رثائه:

يا ربّ إنّ مسلماً أتاهم ... بمصحف أرسله مولاهم

يتلو كتاب الله لا يخشاهم ... وأمّه قائمة تراهم

فخضبوا من دمه ظباهم

أمر أمير المؤمنين عليه السلام أصحابه أن لا يبدأوهم بقتال، فلا يسدّد أحد سهماً أو سناناً، وبينما هم يرقبون ما يجري إذا بعبد الله بن بديل بن ورقاء الخزاعي يحمل جثمان أخيه من ميمنة الجيش، وقد قتله البصريون، كما حُمل من الميسرة جثمان آخر أصابه البصريون بسهم. فخرج عمار بن ياسر

إلى ما بين الصفين يعظ القوم علّهم يعودون عن ضلالهم، فقابلوه بسيل من سهامهم، فقفل عائداً وقال: يا علي، ما الذي تنتظره، فالقوم لا غرض لهم سوى الحرب؟

خرج أمير المؤمنين عليه السلام إلى ما بين الصفين أعزل من السلاح، راكباً بغلة رسول الله صلى الله عليه وآله، فدعا الزبير إليه، فاقترب الزبير منه شاكَ السلاح، فخافت عائشة عليه من مواجهة الأمير عليه السلام وصاحت: واثكل أسماء! فقيل لها: لا تراعي، فالأمير أعزل، فسكن روعها.

وإجمالاً فقد دار بينهما حديث مؤدّاه:

قال له الإمام عليه السلام: ما الذي أخرجك لقتالي؟ قال: خرجت أطالب بدم عثمان! فقال: قتل الله من شرك في دم عثمان، يا زبير، أتذكر يوم مررت مع رسول الله صلى الله عليه وآله، وكان يركب حماراً، فنظر إليّ وضحك، فضحكت وقلت: لا يدع ابن أبي طالب زهوه! فقال لك: صه، إنه ليس به زهو، هل تحبّه؟ قلت: إي والله أحبه، قال: والله لتقاتلنّه وأنت له ظالم؟!.

ما إن سمع الزبير هذا حتى قال: أستغفر الله. لقد نسيت، ولو ذكرت ما سرت مسيري هذا! والآن ما العمل وقد قضي الأمر وتقابل الجمعان، واعتزالي القتال ـ والحال هذه ـ عار عليّ! فقال له عليه السلام: العار خير من النار.

رجع الزبير إلى ابنه عبد الله وقال: لقد ذكّرني علي أمراً كنت أنسيته فلن أقاتله أبداً، قال له ابنه: لا والله.. إنما خفت سيوف ورايات ابن أبي طالب، والحق أنها أسنّة طوال حداد يحملها فتية أنجاد! قال: لا والله.. إنه ليس الخوف، لكني اخترت العار على النار، ثم أردف: أي بني.. تلوّمني بالخوف؟ هاك فانظر ما يصنع أبوك. ثم أشرع سنانه وحمل على ميمنة الأمير عليه السلام، فلما بصر به قال: كفّوا عنه فالزبير لا يقصد الحرب، وبعد أن

كرّ الزبير على الميمنة حمل على الميسرة، ثم ضرب في القلب، ثم قفل عائداً إلى ابنه عبد الله وقال: أو يصنع الخائف ما صنعت؟.

ثم إنه أدار له ظهره، ومضى إلى وادي السباع، وكان في ذلك الوادي الأحنف بن قيس مع طائفة من بني تميم ينشد الاعتزال، قال له أحدهم: هذا الزبير مقبل! فقال: وما شأننا بالزبير؟.

ولما التحم الجمعان راح الزبير ينشد السلامة، فلحق به جماعة من بني تميم يتقدمهم عمرو بن جرموز، الذي دنا من الزبير فرآه يريد الصلاة، ولما شرع الزبير بالصلاة استدبره عمرو فطعنه فأراده، وعلى قول: إنه قتل أثناء نومه، ونزع منه خاتمه وسلاحه، وقيل إنه حمل رأسه وأقبل به إلى أمير المؤمنين عليه السلام، رفع الأمير عليه السلام السيف بيده وقال: **«سيف طالما جلا الكرب عن وجه رسول الله صلى الله عليه وآله»**. فالزبير لم يكن شخصاً ضعيفاً، **«لكنه الحين ومصارع السوء، وقاتل ابن صفية في النار»**.

فلما سمع ابن جرموز هذه البشارة بالنار قال منشداً:

أتيت علياً برأس الزبير وقد كنت أرجو به الزلفة
فبشّر بالنار قبل العيان وبئسَ بشارة ذي التحفة
لسيّان عندي قتل الزبير وضرطة عنز بذي الجحفة

وكان الزبير عند مقتله قد بلغ الخامسة والسبعين من عمره، وقبره بوادي السباع. أما طلحة فقد أصابه مروان بن الحكم بسهم في أكحله، فنزف دماً كثيراً فمات، ودفن بالبصرة.

وإجمالاً فقد كان لواء أمير المؤمنين عليه السلام بيد ولده محمد، فأمره أن يحمل على جند البصرة. فقابله البصريون بسيل من السهام، وكان محمد ذا مقدرة وشجاعة غير أنه تريّث ريثما يخفّ تدفّق السهام نحوه، فقال له أبوه: «احمل بين الأسنّة، فإن للموت عليك جُنة». فحمل محمد على القوم لكنه ما بين الأسنة والسهام تردّد، فهرع إليه عليه السلام فضربه بقائم سيفه وقال:

«أدركك عرق من أمك»! ثم انتزع الراية من يده وحمل على القوم حملة كما الريح العاصفة التي تثير حولها العجاج، وحمل معه أصحابه حملة عظيمة فتبعثر جند البصرة أمامهم، وكان كعب بن سور القاضي - وقد علّق حمائل مصحفه - يحيط مع طائفة من بني ضبّة بجمل عائشة، وكانوا يرتجزون:

نحن بنو ضبّة أصحاب الجمل ننازل الموت إذا الموت نزل

والموت أحلى عندنا من العسل

وقد بترت في هذه الواقعة سبعون ذراعاً كانت تأخذ بزمام الجمل فكان كلما بترت يد أحدهم خلّى الزمام فأخذ به آخر، كل هذا والجمل في مكانه لا يريم، حتى وصلوا أخيراً إلى قوائمه فقطعوها، ثم انهالوا عليه بالسيوف فعقروه، فانهزم أهل البصرة، وتحدد مصير الحرب.

تقدم أمير المؤمنين عليه السلام من هودج عائشة، وراح يضرب عليه بقضيب في يده وهو يقول ما مؤدّاه:

يا حميراء.. أو أمرك رسول الله صلى الله عليه وآله بالخروج لقتالي؟ أم أمرك بلزوم بيتك فلا تبرحينه؟ فوالله ما أنصف من دعوك إلى الخروج وخلّفوا نساءهم وراء الستور.

ثم تقدم أخوها محمد بن أبي بكر فأخرجها من الهودج، ثم أمر أمير المؤمنين عليه السلام بنقلها إلى بيت صفية بنت الحارث بن أبي طلحة.

جرت وقعة الجمل في يوم الخميس العاشر من جمادى الآخرة سنة ستّ وثلاثين من الهجرة في البصرة، في موقع يعرف بالحربيّة، وقد قتل فيها من أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام خمسة آلاف، ومن أصحاب الجمل ثلاثة عشر ألفاً، وكان من شهدائها: زيد بن صوحان، وكان معدوداً من الأبدال، ولما وقع وقف أمير المؤمنين عليه السلام على رأسه فقال:

«رحمك الله يا زيد، فقد كنت خفيف المؤونة عظيم المعونة».

جاء في كتاب «الرجال» أن زيداً وأخويه سيحان الخطيب وصعصعة شهدوا حرب الجمل، وكان سيحان صاحب لواء أمير المؤمنين عليه السلام، فلما استشهد تسلم الراية زيد، فلما استشهد تسلّمها صعصعة، وقد توفي صعصعة بالكوفة أيام معاوية.

ثم إن أمير المؤمنين عليه السلام دخل البصرة وخطب أهلها، وكان ممّا جاء في هذه الخطبة:

«يا جند المرأة، يا أتباع البهيمة، رغا فأجبتم، وعقر فانهزمتم، أخلاقكم رقاق، وأعمالكم نفاق، ودينكم زيغ وشقاق، وماؤكم أجاج وزعاق».

وفي خطب أخرى لأمير المؤمنين عليه السلام تعرّض لذمّ أهل البصرة، غير أنه على العموم مال إلى سبيل العفو والصفح بعد الحرب، فأمر بإعادة عائشة مكرمة إلى المدينة، كما عفا عن عبد الله بن الزبير، والوليد بن عقبة، وأبناء عثمان وسائر بني أمية، وصفح عنهم، كما شفع الحسنان عليهما السلام لمروان بن الحكم فعفا عنه وأعطاه الأمان.

هذا والكلام عن واقعة الجمل يطول، فنكتفي بهذا الإجمال، والله هو العالم.

موجز عن وقعة صفين وشهادة عمار وغيره

في الخامس من شهر شوال سنة ست وثلاثين من الهجرة عزم أمير المؤمنين عليه السلام على التوجّه إلى صفين لصدّ معاوية، فاستخلف أبا مسعود عقبة بن عامر الأنصاري على الكوفة، وتحرك مع أصحابه عن طريق المدائن والأنبار حتى بلغوا الرقة، حيث أقاموا جسراً هناك ليعبره عليه السلام مع جيشه الذي بلغ تعداده تسعين ألفاً، بينما أعدّ معاوية على الجانب الآخر خمسة وثمانين ألفاً لقتال أمير المؤمنين عليه السلام.

اقترب عليه السلام من صفين، وكان معاوية قد سبقه إليها واستولى على

مشرعة الفرات، وأوكل حمايتها إلى أبي الأعور السلمي على رأس أربعين ألفاً، فلما بلغ أمير المؤمنين عليه السلام صفين، وكان العطش قد غلب على أصحابه، فطلبوا الماء فمُنعوه، فقال عمرو بن العاص لمعاوية: خلّ بين علي وأصحابه وبين الماء، وإلا فإن القوم لن يظمأوا وأنت ريّان، وفي أيديهم أعنّة الخيل.

قال معاوية: لا والله حتى يهلكوا عطشاً كما مات عثمان عطشاً!.

فلما اشتدّ العطش على أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام أمر الأشعث فقصد الشريعة مع أربعة آلاف، ولحق به الأشتر في أربعة آلاف، وتحرك الأمير عليه السلام خلف الأشتر بسائر أصحابه.

حمل الأشعث على أصحاب معاوية، واستطاع أخيراً أن يجلوهم عن الشريعة بعد أن هلك الكثير منهم غرقاً، فلما رأى معاوية زحف القوم بأجمعهم نحوه لم يطق على البقاء صبراً، فانسحب من موقعه، وأخذ أصحاب الأمير عليه السلام مكانه، واستولوا بذلك على الشريعة.

خاف معاوية العطش، فبعث إلى الأمير عليه السلام يستأذنه في الحصول على الماء، فأذن له، وأمر أصحابه ألا يمنعوهم الماء.

بعد يومين من ورود الأمير عليه السلام إلى صفين حلّ شهر ذي الحجة، فبعث إلى معاوية يدعوه إلى الدخول في الجماعة، وتوحيد الكلمة، ويحذره من شق صفوف المسلمين، وتواترت الرسل بينهما حتى استقرّ الأمر أخيراً على الحرب، بعد انقضاء محرم الحرام.

ولما بلغ المحرم منتهاه، وأشرق صباح الأربعاء غرة صفر سنة سبع وثلاثين اصطف جيش العراق في مواجهة جيش الشام، وخرج الأشتر من بين الصفوف، فخرج إليه من جيش معاوية حبيب بن مسلم الفهري، وشهد هذا اليوم قتالاً شديداً سقط فيه من الفريقين خلق كثير ما بين قتيل وجريح.

اليوم الثاني: خرج هاشم بن عتبة بن أبي وقاص المرقال، ابن أخي

سعد بن أبي وقاص من بين صفوف جند العراق يطلب البراز، فخرج إليه من جند الشام سفيان بن عوف المعروف بأبي الأعور السلمي، وامتد القتال بين هذين وأصحابهما طيلة ذلك اليوم، حتى بلغ النهار منتهاه مخلّفاً الكثير من القتلى من الجانبين.

اليوم الثالث: برز إلى القتال في هذا اليوم أبو اليقظان عمار بن ياسر عليه الرحمة، مع طائفة من البدريّين والمهاجرين والأنصار، فخرج إليهم من جند معاوية عمرو بن العاص ورجاله، واقتتل الفريقان، واتّصل القتال حتى حل الظهر، إذ ذاك حمل عمار حملة شديدة اضطرت عَمْراً ورجاله إلى التراجع عن مواقعهم حتى بلغوا معسكر معاوية، وقتل من جند الشام في هذا اليومَ الكثير.

اليوم الرابع: خرج محمد بن الحنفية إلى القتال مع رجال من همدان، وخرج إليه من جند الشام عبيد الله بن عمر مع طائفة من حمير ولخم وحذام، أما علة التحاق عبيد الله بن عمر بمعاوية فهي أن أبا لؤلؤة قاتل أبيه كان فيما سبق غلاماً للهرمزان في بلاد العجم، فأقدم عبيد الله على قتل الهرمزان دون سبب قائلاً: سواء في المدينة أم في غيرها فهو رجل فارسي ولن أدعه حتى أقتله! فلما تسلّم أمير المؤمنين عليه السلام مقاليد الخلافة خشي عبيد الله أن يقيم عليه حدّ القاتل بدم الهرمزان، فولّى هارباً والتحق بمعاوية بالشام حتى يومه هذا الذي برز فيه إلى قتال محمد، واشتدّ بينهما القتال، وجاء آخر هذا اليوم بالظفر إلى أهل العراق، بينما نجا عبيد الله بحياته.

اليوم الخامس: خرج عبد الله بن عباس عازماً على القتال، فبعث إليه معاوية بالوليد بن عقبة بن أبي معيط، وحمي الوطيس بينهما، وراح الوليد يشتم بني عبد المطلب، وكان هذا اليوم يوماً عصيباً انتهى بالغلبة لابن عباس.

اليوم السادس: برز إلى القتال سعيد بن قيس الهمداني سيّد همدان، فأخرج إليه معاوية ذا الكلاع، ونشب بين الفريقين قتال شديد.

اليوم السابع: وقعت قرعة القتال على الأشتر النخعي، فخرج إليه من جند معاوية حبيب بن سلمة الفهري، وجرى بينهما قتال شديد.

اليوم الثامن: عزم أمير المؤمنين عليه السلام على القتال، فقام يحث أصحابه على الجهاد، وقد اعتمّ بعمامة بيضاء، وركب بغلة رسول الله صلى الله عليه وآله، وأنشأ يعلّم أصحابه آداب القتال فيقول:

«**إنكم بعين الله، ومع ابن عمّ رسول الله، عاودوا الكرّ واستقبحوا الفرّ، فإنه عار في الأحقاب، ونار يوم الحساب، ودونكم هذا السواد الأعظم، والرواق المطنّب، فاضربوا نهجه، فإن الشيطان راكب صعيده، معترض ذراعيه، قد قدّم للوثبة يداً، وأخّر للنكوص رجلاً، فصبراً جميلاً حتى ينجلي عن وجه الحق، وأنتم الأعلون، والله معكم ولن يتركم أعمالكم**».

وفي هذا اليوم أبلى أمير المؤمنين عليه السلام أعظم البلاء[1]، حتى حجز الليل الفريقين عن القتال.

اليوم التاسع: للمرة الثانية، برز أمير المؤمنين عليه السلام إلى القتال، ودارت بين الفريقين معركة شديدة، وفي هذا اليوم تبدّت من عمار رجولة وشجاعة، وكان يقول:

«**إني لأرى وجوه قوم لا يزالون يقاتلون حتى يرتاب المبطلون، والله لو هزمونا حتى يبلغوا بنا سعفات هجر[2] لكنّا على الحق، وهم عى الباطل**».

ثم حمل على القوم وقاتل قتالاً شديداً، ثم عاد إلى موضعه فاستسقى وقد غلب عليه العطش، فأتته امرأة من بني شيبان بإداوة فيها ضياح من لبن، فلما رأى اللبن قال:

---

(١) روى المسعودي في «مروج الذهب» عن أبي مخنف أنه ذكر أن معاوية لما نظر إلى عساكر أهل العراق وقد أشرفت، وأخذت الرجال مراتبها من الصفوف، ونظر إلى علي عليه السلام على فرس أشقر، حاسر الرأس، يرتب الصفوف كأنه يغرسهم في الأرض غرساً، فيثبتون كأنهم بنيان مرصوص، قال لعمرو: يا أبا عبد الله، أما تنظر إلى ابن أبي طالب وما هو عليه؟ فقال له عمرو: من طلب عظيماً حاضر بعظيمهم (منه ره).

(٢) هجر: ناحية في البحرين.

«الله أكبر . . اليوم ألقى الأحبة محمداً وحزبه».

وحمل على القوم وهو يرتجز، فحمل عليه أبو الهاوية (العادية ـ خ ل) وأبو حواء السكسكي، فطعنه الأول، واحتزّ الثاني رأسه، واستشهد رضوان الله تعالى عليه عن ثلاث وتسعين سنة.

كان لشهادة عمار أكبر الأثر وآلمه على أمير المؤمنين عليه السلام، فصلّى عليه، وتم دفنه رضوان الله تعالى عليه في صفين.

جاء في «مجالس المؤمنين» أن أمير المؤمنين عليه السلام وقف على جثمان أبي اليقظان عمار بن ياسر، بعد أن تذوّق شهد الشهادة، فوضع رأسه على ركبته المباركة وأنشد يقول:

ألا أيّها الموت الذي ليس تاركي أرحني فقد أفنيت كلّ خليل
أراك بصيراً بالذين أحبّهم كأنك تنحو نحوهم بدليل

ثم استرجع وقال:

«إنّ امرؤ من المسلمين لم يعظم عليه قتل ابن ياسر، وتدخل به عليه المصيبة الموجعة، لغير رشيد. رحم الله عماراً يوم أسلم، ورحم الله عماراً يوم قتل، ورحم الله عماراً يوم يبعث حيّاً».

ثم قال عليه السلام:

«لقد رأيت عماراً وما يُذكر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله ثلاثة إلاّ كان عمار رابعهم، وما يذكر أربعة إلاّ كان عمار خامسهم، وما كان أحد يشكّ أن عماراً قد وجبت له الجنة في غير موطن ولا اثنين، فهنيئاً لعمار بالجنة. . إن عماراً مع الحق والحق معه، كما قال فيه رسول الله صلى الله عليه وآله: «يدور مع عمار حيث دار»، ثم قال عليه السلام: «وقاتل عمار في النار».

ثم تقدم عليه السلام فصلى على عمار ودفنه بيديه المباركتين. «رحمة الله ورضوانه عليه وطوبى وحسن مآب».

وعلى العموم فبعد استشهاد عمار وقع الاضطراب والهياج في صفوف أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام، فتقدم سعيد بن قيس الهمداني على رأس بني همدان، وقيس بن سعد بن عبادة الأنصاري على رأس الأنصار وربيعة، كما تقدم عديبن حاتم على رأس طيّء، وحملوا جميعاً على جيش الشام. وكان الهمدانيون أشدّهم في القتال، حتى بلغوا فسطاط معاوية.

روي أن خزيمة بن ثابت الملقب بذي الشهادتين(١) قد حضر صفين ولم يقاتل، فلما استشهد عمار قال: قد بانت لي الضلالة، ثم دخل فسطاطه، وطرح عنه سلاحه، واغتسل، ثم تناول سيفه وقال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «عمار تقتله الفئة الباغية» ثم قاتل حتى قتل، رحمه الله.

وفي صفين دعا أمير المؤمنين عليه السلام الأشتر كي يتقدم مع القرّاء لقتال أهل حمص وقنّسرين، فحمل الاشتر عليهم، وقتل منهم مقتلة عظيمة.

كما تقدم هاشم المرقال وشدّ على أهل الشام مع أصحابه، وقاتلهم قتالاً شديداً، وحمل على ذي الكلاع وأصحابه من حِمْيَر فقتل صاحب لوائه مع سبعة عشر منهم، ثم حمل حملة صادقة على سائر أصحاب ذي الكلاع وأورد الكثيرين منهم الهلاك حتى استشهد أخيراً، وقد قتل في هذه الحملة ذو الكلاع نفسه، وبعد استشهاد المرقال سارع ابنه إلى رفع رايته، وتابع القتال، وبعد استشهاد عمار والمرقال استشهد صفوان وسعد ابنا حذيفة بن اليمان، كما استشهد عبد الله بن الحارث أخو الأشتر مع عبد الله وعبد الرحمان ولديْ بُديْل بن ورقاء الخزاعي، مع طائفة كبيرة من خزاعة.

وأما من قتل من وجوه جند معاوية فبالإضافة إلى ذي الكلاع فقد قتل جمع غفير بينهم عبيد الله بن عمر الذي قتل على يدي الحريث بن جابر الجعفي، وعلى قول: على يدي الأشتر النخعي، وبينما كانت جثته مرميّة على

---

(١) السبب في تلقيبه بذي الشهادتين هو أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم اعتبر شهادة له يوماً بشهادتين (منه ره).

الأرض أقدم أحدهم على شدّ طنب خيمته إلى قدم الجثة مستعيضاً بها عن الوتد، وقد طالبت زوجته، ابنة هانىء بن قبيصة الشيباني، باسترداد جثته، فردّت إليها.

وروي أنه لما جرح هاشم المرقال وسقط أرضاً وهو في حال الاحتضار وقع نظره على عبيد الله بن عمر ملقى على الأرض، فزحف نحوه بجهد جهيد وهو على حاله تلك، حتى جثم فوقه، وتناول ثديه بأسنانه وعض عليه حتى خلّف أثر أسنانه فيه، ثم أسلم الروح.

وإجمالاً فبعد استشهاد عمار والمرقال وآخرين من وجوه أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام قام بالناس يدعوهم إلى القتال، فأقبل على ربيعة وقال: «أنتم درعي ورمحي»، ثم نادى:

«أيها الناس. . من يشر نفسه يربح، إن هذا اليوم له ما بعده، إن عدوّكم قد مسّه القرح كما مسّكم، فانتدبوا لنصرة دين الله»[1].

فانتدب له ما بين عشرة آلاف إلى اثني عشر ألفاً وضعوا سيوفهم على عواتقهم، فشدّ بهم على أهل الشام وقد تقدمهم على بغلته وهو يقول:

أيّ يومـيّ من الموت أفرّ يوم لا يُقدر أم يوم قُدر

وحمل وحمل معه الآخرون فلم يبق لأهل الشام صفّ إلا وانتقض، وعلي عليه السلام يضرب الناس بسيفه قدماً قدماً، ولا يمرّ بفارس إلاّ قدّه، حتى أفضوا إلى مضرب معاوية، فناداه علي عليه السلام:

علام يُقتل الناس بيننا ابرز إليّ وأعف الفريقين من القتال، فأيّنا قتل صاحبه كان الأمر له.

فقال عمرو لمعاوية: لقد أنصفك الرجل.

فقال معاوية: أمّا أنت فلم تنصفني المشورة، وإنك لتعلم أنه لم يبارزه رجل قطّ إلا قتله!.

---

(١) إضافة من المعرّب.

واشتدّ الجدل بينهما حتى انتهيا إلى أن أقسم معاوية على عمرو إلاّ ما خرج إلى علي عليه السلام، ففعل كارهاً، فما إن عرفه أمير المؤمنين عليه السلام حتى أصلت عليه سيفه، وقبل أن يتلقّى عمرو الضربة وقع أرضاً كاشفاً عن عورته، فأشاح عنه عليه السلام بوجهه، وكانت فرصة اهتبلها عمرو فسارع بالهرب مهزوماً غير مصدق أنه نجا بروحه من سيف أمير المؤمنين عليه السلام.

وقد سطّر الرواة قصصاً عن واقعة مبارزة عمرو لعليّ عليه السلام، وفراره، وما دار بين معاوية وعمرو في هذا المقام من كلام يعرّض فيه كلّ منهما. بجبن صاحبه، مما لا يتسع المقام لتفصيله.

وإجمالاً فقصة حرب صفين طويلة.. وفيها وقعت «ليلة الهرير» ومقتل حوشب ذي الظليم من أصحاب معاوية، وكانت ليلة جمعة، وفيها استعر القتال واختلط الناس حتى لم يميّز أحد أحداً، واقتتلوا حتى تقصّفت الرماح ونفد النبل وفني السلاح، وتبادل الرجال الصفعات واللكمات، وأمير المؤمنين عليه السلام يسير فيما بين الميمنة والميسرة يقدّ ويقطّ أبطال الرجال حتى بلغ عديد من أورده الهلاك خمسمئة وثلاثة وعشرين منهم، وكان كلّما قتل واحداً كبّر. واقتتل الناس تلك الليلة كلّها حتى الصباح، وغطّى الغبار الفضاء حتى لم يميز الناس مواقيت الصلاة، وكان الأشتر في الميمنة يبلي أشد البلاء وأحسنه، وأسفر الصبح عن بوادر النصر والفتح، حتى صرخ مشايخ أهل الشام: ما لكم بالله عليكم.. فعلى هذه الحال لن تتركوا وراءكم سوى اليتامى والأيامى!!.

هذا ومعاوية ـ وقد لاحت له الهزيمة ـ يحثّ عَمراً على إخراج ما في جعبته من حيل... وإلا فالهلاك مؤكد لا محالة، ووعده بولاية مصر!.

أما عمرو المعجون بالمكر والخديعة فقد نادى في الناس: أيها الناس عليكم بالمصاحف فارفعوها على رؤوس الرماح! فارتفع ما يقرب من خمسمئة مصحف، ورجال معاوية يصيحون: هذا كتاب الله بيننا وبينكم!.

وفي هذه الحادثة قال النجاشي بن الحارث:

فأصبح أهل الشام قد رفعوا القنا عليها كتاب الله خير قرآن
ونادوا علياً: يابن عمّ محمد أما تتقي أن يهلك الثقلان

مرّت هذه الخديعة على الكثيرين من جند أمير المؤمنين عليه السلام، ومالوا إلى المسالمة وقالوا لعلي عليه السلام: معاوية نطق بالحق، ودعاك إلى كتاب الله، فأجبه إليه! قال عليه السلام: امضوا على حقّكم وصدقكم، لا يخدعنّكم القوم، فما رفعوا المصاحف إلا خديعة ووهناً ومكيدة، فقالوا: ما يسعنا أن ندعى إلى كتاب الله عزّ وجلّ فلا نجيب، فقال لهم:

ويحكم! فإني إنّما قاتلتهم ليدينوا بحكم هذا الكتاب، فإنهم قد عصوا الله عزّ وجلّ في ما أمرهم، ونسوا عهده، ونبذوا كتابه، إن معاوية وعَمْر بن العاص وابن أبي معيط وحبيب بن سلمة وبني النابغة ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن، وأنا أعرف بهم منكم!.

وتبودل كلام كثير من هذ القبيل بينهم، وكلّما قدّم عليه السلام لأولئك التعساء النصيحة ردّوها وأمعنوا في ضلالهم، حتى انتهى الأمر بالأشعث وقومه إلى تهديد أمير المؤمنين عليه السلام! قالوا:

يا علي... أجب إلى كتاب الله إذ دعيت إليه، وإلا دفعناك إلى القوم! أو نفعل كما فعلنا بابن عفان! يعني أن يقتلوه ذليلاً مهاناً! وجرى بينهم وبين الأشتر النخعي جدال عنيف، وتبادلوا أقسى الكلام، فنطق الألم بكلمات قالها عليه السلام:

«إني كنت أمس أميراً فأصبحت اليوم مأموراً»!.

ثم إن الأشعث أتى معاوية فقال له: يا معاوية.. لأي شيء رفعتم هذه المصاحف؟ قال: لنرجع نحن وأنتم إلى ما أمر الله عزّ وجلّ به في كتابه! تبعثون رجلاً منكم ترضون به، ونبعث منا رجلاً، ثم نأخذ عليهما أن يعملا بما في كتاب الله لا يعدوانه، فيختاران واحداً يتسلّم أمر الأمة، فقال له الأشعث: هذا هو الحق! قد رضينا وقبلنا.

ثم إن أهل الشام اختاروا عَمرَ بن العاص حكماً، فقال الأشعث وأولئك القوم الذين صاروا خوارج بعد: فإنا قد رضينا بأبي موسى الأشعري.

قال لهم عليه السلام: فإنكم قد عصيتموني في أول الأمر فلا تعصوني الآن، إني لا أرى أبا موسى يصلح لهذا الأمر، فقال الأشعث وأصحابه: نحن لا نرضى إلا به!.

فقال عليه السلام: فإنه ليس لي بثقة. قد فارقني وخذّل الناس عني، ثم فعل كيت وكيت. ولكن هذا ابن عباس نوليه ذلك، فأبوا، قال: فهاكم الأشتر فولّوه، قالوا: لا نرضى عن أبي موسى بديلاً!!.

فلما رأى أمير المؤمنين عليه السلام أنه لا علاج لعنادهم قال: فقد أبيتم إلا أبا موسى؟ قالوا: نعم، قال: فاصنعوا ما أردتم. فبعثوا إلى أبي موسى فطلبوه للتحكيم.

وفي سنة ثمان وثلاثين التقى الحكمان في دومة الجندل، وما جرى بينهما من خداع عمرو لأبي موسى في خلع أمير المؤمنين عليه السلام ونصب معاوية مشهور، ولا يتّسع المقام لتفصيله.

وهناك خلاف بين المؤرخين حول عدد قتلى صفين، فيحيى بن معين يقول: إن قتلى الطرفين في بحر مئة وعشرة أيام بصفين بلغوا مئة وعشرة آلاف، منهم عشرون ألفاً من أهل العراق، وما بقي فمن أهل الشام. والمسعودي يقول: كان عدد القتلى مئة وخمسين ألفاً من الفرسان غير الخدم والأتباع، وجميعهم ثلاثمئة ألف، وقيل غير ذلك.

وأما من آل أبي طالب فقد استشهد محمد بن جعفر بن أبي طالب على قول أبي الفرج، إذ التحم مع عبيد الله بن عمر حتى أخذ كل منهما بعنق صاحبه، وسارع إلى معونة كلّ منهما جماعة من أصحابه، فقتلا كلاهما متعانقين. ويقول فريق من المؤرخين إن محمداً وأخاه عوناً قُتلا في «شوشتر» وهي محلة قرب «ديزفول»، والله هو العالم.

موجز عن وقعة النهروان

عندما رفع أهل الشام المصاحف على الرماح بتدبير من عمرو بن العاص؛ وانتحى الأشعث وسائر الخوارج الذين كانوا في جيش أمير المؤمنين جانباً، ونفضوا أيديهم من القتال؛ واستقر الأمر على تنصيب الحكمين ظهر الخلاف بين القوم حول واقعة التحكيم، حتى تبرأ الأخ من أخيه، والابن من أبيه.

ولما أيقن أمير المؤمنين عليه السلام من وقوع الخلاف وتباين الآراء، وأنّ الأمور غدت عصيّة على الانتظام أمر بالرحيل، وقفل الجميع عائدين إلى الكوفة، ومن الجانب الآخر رجع معاوية وجيشه إلى دمشق، فلما بلغ أمير المؤمنين عليه السلام الكوفة اعتزله اثنا عشر ألفاً من القراء وغيرهم، ونصب شبيب بن ربيع التميمي نفسه أميراً عليهم، كما تمّ تنصيب عبد الله بن الكوّاء اليشكري إماماً على جماعته، وتوجهوا من الكوفة إلى حروراء، فدُعوا لذلك بالحروريّة.

خرج إليهم أمير المؤمنين عليه السلام فناظرهم، فعاد فريق منهم إلى الكوفة على منهج عدائهم له عليه السلام، حتى كانوا يتجرأون حيناً بعد حين على إسماعه القاسي من القول، فمرة ـ وكان على المنبر ـ نادوه قائلين:

«يا علي، جزعت من البلية، ورضيت بالقضية، وقبلت الدنية، لا حكم إلا لله».

فقال عليه السلام في الرد عليهم: إني أنتظر حكم الله فيكم. قالوا:

﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾

فتلا عليه السلام ـ رداً عليهم ـ قوله تعالى:

﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾.

وإجمالاً. . فقد كان من خرج عليه منهم أربعة آلاف، بايعوا عبد الله بن وهب الراسبي وانحازوا إلى المدائن، فقتلوا عبد الله بن خباب عامل أمير المؤمنين عليه السلام على المدائن، وبقروا بطن زوجه الحامل، كما قتلوا غيرها من النساء.

وكان أمير المؤمنين إذ ذاك قد نفر في خمسة وثلاثين ألفاً من الكوفة، كما رفده ابن عباس عامله على البصرة بعشرة آلاف، منهم: الأحنف بن قيس، والحارثة بن قدامة السعدي، وذلك سنة ثمان وثلاثين من الهجرة، وقد توقف عليه السلام في الأنبار حتى يجتمع إليه سائر جيشه.

ثم قام فيهم عليه السلام يحثّهم على قتال معاوية فامتنعوا وأصروا عليه أن يبدأ بقتال الخوارج، فما كان منه إلا أن أمر بالتوجه صوب النهروان لحسم أمر الخوارج، ثمّ قدّم أمامه رسولاً إليهم يدعوهم إلى أمر سواء، فقتلوه، وبعثوا إليه:

إنّا حكّمنا فأثمنا، وكنّا بذلك كافرين، وقد تبنا، فإن تبت كما تبنا فنحن منك ومعك، وإن أبيت فاعتزلنا، فإنّا منابذوك.

فبعث عليه السلام إليهم أن ادفعوا إلينا قتلة إخواننا منكم نقتلهم به، ثم أنا تارككم وكافّ عنكم حتى ألقى أهل الشام، فلعل الله يقلّب قلوبكم ويردّكم إلى خير مما أنتم عليه من أمركم.

فبعثوا إليه فقالوا: كلّنا قَتَلَتُهم، وكلّنا نستحلّ دماءهم ودماءكم!.

عند هذا أمر أمير المؤمنين عليه السلام أصحابه بالتهيّؤ لقتال الخوارج، وأقسم لهم إنه لن ينجو منهم أكثر من عشرة، وإنه لن يقتل منكم عشرة، ولما تواتر إليه أن الخوارج عبروا النهر أنكر، وأقسم أنهم لم يفعلوا ولن يفعلوا، وأن قتلهم سيكون في الرميلة أو في النهر.

ثم إنه تحرك مع أصحابه حتى قدم النهروان، وهناك رأوا أن الخوارج قد عسكروا في الرميلة دون النهر كما أخبرهم، فقال عليه السلام:

«الله أكبر: صدق رسول الله صلى الله عليه وآله».

ثم اصطف الفريقان، وتقدم عليه السلام يدعو الخوارج إلى التوبة والإنابة، فأبوا وأمطروا جنده بالنبل، فعرض الأصحاب الشروع في قتالهم، فأبى وأمرهم بالكفّ عنهم، وأن لا يبدأوهم بقتال حتى يكرروا فعلتهم ثلاثاً، وأخيراً أتوه برجل وقد قتل بنبل الخوارج، فقال عليه السلام: الله أكبر! الآن حلّ قتالهم، ثم أمر بالقتال.

تقدم جماعة من الخوارج وفي عزمهم قتل أمير المؤمنين عليه السلام، فكان الواحد منهم يدعوه للبراز وهو أمامه، فلا يلبث حتى يورده دركات الجحيم، وحمل أبو أيوب الأنصاري على زيد بن الحصين فقتله، كما قُتل من وجوه الخوارج عبد الله بن وهب الراسبي وحرقوص بن زهير السعدي.

هذا ولم يلبث القتال أن همد، وقتل من أصحاب الأمير عليه السلام تسعة رجال، ولم ينج بروحه من الخوارج سوى عشرة. ثم أمر عليه السلام أصحابه أن يجوسوا خلال قتلى الخوارج التماساً «للمخدج ذي الثدية» فلم يعثروا عليه، فدنا عليه السلام من القتلى وأمرهم بتفريقهم عن بعضهم، ففعلوا، فعثروا بينهم على «ذي الثدية»، فقال عليه السلام:

«الله أكبر! والله ما كذبت ولا كُذبت».

في إشارة إلى حديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ثم إنه عليه السلام أخرج قدمه من ركاب فرسه وترجل إلى الأرض ساجداً شكراً لله.

كان «ذو الثدية» رجلاً أخدج قصير اليد دون عظم، وقد اجتمع اللحم على منكبه كأنه ثدي المرأة يتحرك إذا تحرك، وله حلمة عليها شعيرات سود.

ثم ركب عليه السلام وراح يجوس خلال قتلى الخوارج ويقول:

«بؤساً بكم! لقد ضرّكم من غرّكم».

قيل: ومن غرّهم يا أمير المؤمنين؟ قال عليه السلام: **«الشيطان وأنفس السوء»**.

ثم جرى جمع ما تخلف من سلاح ودواب في معسكر الخوارج، وتمت قسمته بين المسلمين، وأما ما تبقى من متاع وعبيد وإماء فرُدّ على أهله.

ثم قام عليه السلام خطيباً، وبعد أن حمد الله وأثنى عليه قال:

إن الله عزّ وجلّ قد أحسن إليكم وأعزّ نصركم، فتوجّهوا من فوركم هذا إلى عدوكم.

قال الأشعث وقومه: يا علي.. قد نفدت نبالنا، وكلّت سيوفنا، ونصلت أسنّة رماحنا، فارجع بنا إلى مصرنا، فلنستعدّ بأحسن عدّتنا!!.

فأقبل عليه السلام حتى نزل النخيلة، فأمر الناس أن يلزموا عسكرهم، ويوطّنوا على الجهاد أنفسهم، غير أنهم كانوا قد أضمروا الغدر، فراحوا يتسللون من المعسكر فرقة إثر فرقة حتى لم يبق في المعسكر سوى القليل من وجوه الناس.

كما أن الحرث بن راشد الناجي ارتدّ مع ثلاثمئة من قومه واختاروا النصرانية، فبعث عليه السلام معقل بن قيس الرياحي لقتالهم، فلقيهم في «سيف البحر» فقاتلهم حتى قتل رجالهم وأسر عيالهم وذراريهم، وساقهم حتى بلغ بهم بعض نواحي الأهواز، وكان مصقلة بن هبيرة الشيباني عامل أمير المؤمنين عليها، فالتمست الأسيرات من مصقلة أن يمنّ عليهنّ بإطلاقهنّ منّ الأسر، فاشتراهنّ مصقلة بثلاثمئة ألف درهم، وفي رواية: بخمسمئة ألف، ثم أطلقهنّ، غير أنه لم يدفع من هذا المال سوى مئتي ألف، ثم فرّ هارباً والتحق بمعاوية، ولما بلغ أمير المؤمنين عليه السلام ما صنع مصقلة قال:

«قبّح الله مصقلة، فعل فعل السيد، وفرّ فرار العبد».

كانت واقعة النهروان سنة ثمان وثلاثين من الهجرة، وفي السنة نفسها كانت ولادة الإمام علي بن الحسين عليه السلام.

شهادة محمد بن أبي بكر ومالك الأشتر

في سنة ثمان وثلاثين من الهجرة بعث معاوية بعمرو بن العاص إلى مصر عاملاً عليها، وكان يصحبه معاوية بن خديج وأبو الأعور السلمي على رأس أربعة آلاف من الجند. ومن الجانب الآخر بعث أمير المؤمنين عليه السلام بمحمد بن أبي بكر إلى مصر عاملاً له كذلك، والتقى العاملان في طريقهما إلى مصر بموضع يعرف بالمنشأة، ونشب بينهما القتال، فلم يلبث محمد أن تفرّق عنه أصحابه حتى بقي وما معه أحد منهم، فمضى حتى انتهى إلى موضع في ناحية من الطريق فأوى إليه، ولم يلبث جند عمرو أن كشفوا مخبأه، وأحاطوا به، فخرج إليهم فتلقّاه معاوية بن خديج وعمرو بن العاص فأمسكا به، وفي موضع يقال له «كوم شريك» تم وضعه في جوف حمار وأحرق.

فلما بلغ معاوية خبر شهادة محمد وأصحابه سرّ سروراً عظيماً، بينما كان وقع الخبر على أمير المؤمنين عليه السلام مؤلماً، وبلغ به الحزن عليه مبلغه، وقال:

أما إن حزننا عليه على قدر سرورهم به، لا بل يزيد أضعافاً. ثم قال عليه السلام: ألا إني مذ دخلت هذه الحرب لم يبلغ بي الحزن على مقتول قدر ما بلغ بي على محمد، فقد ربّيته وأحللته محل أبنائي، وكان بي برّاً وفيّاً.

يقول المؤلف: يقوم قبر محمد الآن بمصر حيث دفنت أشلاء هذا الولي الصالح في موضع قتله، وهو مهجور، وقد جرت عادة أهل السنّة إذا مرّوا بقبره على أن يزوروا عنه، ويقرأوا الفاتحة لأبيه أبي بكر!

وهنا مورد مثل يقول: الخير في البيت يهدي إليه صاحبه.

هذا وقبل شهادة محمد كان قد بدا لأمير المؤمنين عليه السلام ضعفه عن حكم مصر، فبعث بالأشتر النخعي على رأس جيش إلى مصر، فلما بلغ معاوية ذلك عظم عليه، فبعث إلى صاحب العريش (وكان من أهل الخراج) يمنّيه إن كفاه الأشتر أن يعفيه من الخراج عشرين عاماً!! فلما بلغ الأشتر

العريش استقبله صاحبها واستضافه، واستعلم عمّا يفضّله الأشتر من طعام وشراب فقيل له: العسل، فأتاه بشربة من عسل قد جعل فيها سمّاً، وراح يمتدحه له ويزيّن له فوائده، وكان الأشتر صائماً فمالت نفسه إلى العسل، فما إن استقرّ في جوفه حتى هلك من السم «رضوان الله تعالى عليه».

يقول بعضهم: كانت شهادة الأشتر في «القلزم»، وإن نافعاً مولى لعثمان هو من قام بدسّ السمّ له.

ولما بلغ معاوية خبر استشهاد الأشتر فرح فرحاً لا يوصف حتى لم يعد جلده يتّسع له، وحتى ضاقت الدنيا الواسعة عن احتواء فرحته، وقال: إن لله جنوداً من عسل!!.

أما أمير المؤمنين عليه السلام فقد شقّ عليه استشهاد الأشتر رضوان الله تعالى عليه، وغمره حزن شديد وقال:

«لقد كان لي كما كنت لرسول الله صلى الله عليه وآله».

وقال أيضاً:

«رحم الله مالكاً.. وما مالك؟ لو كان صخراً لكان صلداً، ولو كان جبلاً لكان فنداً، وكأنه قدّ منّي قدّاً».

شهادة أمير المؤمنين عليه السلام

بعد أن مضى وجوه أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام، ولم يبق معه سوى قلّة لا تغني، ويغلب على أكثر أفرادها عدم الوفاء، فمنهم من اتخذ سبيل الخوارج، ومنهم من اتخذ النفاق سبيلاً، فكيف يقوم أمثال هؤلاء على قتال معاوية؟! ولطالما دعاهم إلى الجهاد فتخاذلوا وقدموا بين يديه أعذاراً لا تقوم على قدمين، حتى ضاقت به الدنيا من عصيانهم، وتجرع غصص الألم من نفاقهم، وامتلأ قلبه من نكولهم وتخاذلهم قيحاً، فلا عجب أن حفل الكثير من خطبه بنفثات الألم، حتى راح يسأل الله الموت، وطفق يشير المرة تلو المرة إلى أمر شهادته على يدي ابن ملجم، إلى أن وافت سنة أربعين.

شهدت هذه السنة اجتماع نفر من الخوارج بمكة، راحوا يتذاكرون أمر النهروان، ويبكون قتلاهم فيها ويندبونهم، ثم توافق ثلاثة منهم على قتل أمير المؤمنين عليه السلام ومعاوية وعَمرَ بن العاص في ليلة واحدة، فقال عبد الرحمان بن ملجم ـ وكان واحداً منهم ـ: أنا أكفيكم علي بن أبي طالب، وقال البرك بن عبد الله: أنا أكفيكم معاوية بن أبي سفيان، وقال زاذويه: وأنا أكفيكم عَمراً، ثم تعاهدوا وتوافقوا على أن يكون ذلك ليلة التاسع عشر من شهر رمضان، ثم توجه ابن ملجم نحو الكوفة، بينما توجه الآخران إلى الشام ومصر.

لما بلغ ابن ملجم الكوفة كتم أمره، ثم قصد ذات يوم بيت رجل من تيم الرباب، فلقي هناك امرأة منهم هي قطام ابنة الأخضر التيمية، وكان أمير المؤمنين عليه السلام قد قتل أباها وأخاها يوم النهروان، وكانت امرأة فائقة الحسن والجمال، فخطبها إلى نفسه، فقالت: حتى تقدم لي مهري ثلاثة آلاف درهم وعبداً وقينة وقتل علي بن أبي طالب! قال: لك ما طلبت.. إلا قتل علي فليس ذلك بمقدوري، قالت: التمسه وهو عنك غافل فعاجله بضربة من سيفك، فإن أصبته شفيت نفسي ويهنك العيش معي، وإن قتلت فما عند الله خير ثواباً مما في الدنيا. قال ابن ملجم: والله ما جاء بي إلى هذا المصر إلا قتل علي، فلك ما سألت.

ثم إن قطام بعثت إلى رجل من قومها تيم الرباب يقال له وردان بن مجالد ليكون عوناً لابن ملجم، كما دعا ابن ملجم إلى نصرته شبيب بن بجرة الخارجي فأجابه، ولبثوا يرصدون ليلة تسع عشرة حتى وافت تلك الليلة فقصد الثلاثة مسجد الكوفة، وكانت قطام معتكفة هناك تحت خيمة لها، فكمن الثلاثة في خيمتها، فدعت بالحرير فشدّته حول صدورهم، وناولتهم أسيافاً مسقية بالسم، ثم قعدوا عند الباب الذي يأتي منه أمير المؤمنين عليه السلام إلى المسجد، وكان سبق لهم أن أفضوا بمكنون سرهم إلى الأشعث بن قيس الخارجي فوافقهم، وحضر إلى المسجد لنصرتهم.

في تلك الليلة كان حجر بن عدي عليه الرحمة يبيت ليلته في المسجد، فإذا به يسمع الأشعث وهو يقول: عجّل يابن ملجم واقض ما عزمت عليه، فالصبح قد دنا، وسيفتضح أمرك!.

ما إن سمع حجر هذا القول حتى عرف ما يبيتون، فقال للأشعث: أيها الأعور اللعين.. إنما أردتم قتل علي عليه السلام! ثم سارع إلى بيت الأمير ليحذره، غير أن القضاء سلك به طريقاً أخرى غير الطريق التي سلكها أمير المؤمنين عليه السلام، ولما قفل عائداً كان الأمر قد حمّ والناس يقولون: قتل أمير المؤمنين.

وفي التفاصيل أنه ما إن دخل أمير المؤمنين عليه السلام المسجد وهو يرفع صوته ويقول: «يا أيها الناس.. الصلاة» حتى حمل عليه ابن ملجم ورفيقاه وهم يقولون: الحكم لله.. لا لك يا علي!.

أما شبيب فقد وقع سيفه بعضادة الباب أو بالسقف. بينما ناله سيف ابن ملجم في مفرقه المبارك فشقه، وخضب دم رأسه لحيته الشريفة.

جرت هذه الواقعة صباح الأربعاء التاسع عشر من شهر رمضان سنة أربعين من الهجرة، أما شهادته فكانت ليلة الجمعة الحادية والعشرين من الشهر المذكور.

وقد فصّلنا في كتابنا «منتهى الآمال» واقعة شهادته عليه السلام، وقَتْل ابن ملجم اللعين، مع تعداد بنيه عليه السلام، إلى شرح أمور أخرى، وعلى طالبيها الرجوع إليها هناك.

خلافة الإمام الحسن

السبط الأكبر لرسول اللّه سلام اللّه عليهما وثناؤه

بعد استشهاد أمير المؤمنين عليه السلام تمت البيعة للإمام الحسن عليه السلام بالخلافة، واستقر في هذا المنصب ستّة شهور أبرم بعدها صلحاً مع معاوية بتفصيل أوردناه في كتابنا «منتهى الآمال»، وكان ذلك لخمسة أيام بقين من شهر ربيع الأول سنة إحدى وأربعين من الهجرة، وأعقب الصلح دخول معاوية إلى الكوفة محققاً أطماعه وما كان يهدف إليه، بينما ارتحل الإمام الحسن عليه السلام إلى المدينة متجرعاً غصص الألم، كاظماً غيظه، ملازماً بيته يترقب أمر الله تعالى، حتى دسّت له جعدة ابنة الأشعث السم، فبقي بعدها أربعين يوماً يصارع المرض حتى فعل به السمّ مفعوله، وانتقل إلى جوار ربه في شهر صفر من سنة خمسين من الهجرة، ودفن بالبقيع إلى جوار العباس عمّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وكان عمره الشريف سبعاً وأربعين سنة على المشهور، وعلى قول المفيد ثماناً وأربعين، بينما يقول المسعودي في «مروج الذهب»: إن عمره كان خمساً وخمسين سنة. وفي «منتهى الآمال» شرح ضافٍ لأحواله عليه السلام وأحوال ذريته.

حكم معاوية بن أبي سفيان

وموجز عن حال أبويه

بعد أن تم الصلح بين الإمام الحسن عليه السلام ومعاوية، وما أعقبه من استيلاء معاوية على الخلافة، بقي في الحكم تسعة عشر عاماً وثمانية شهور، فتكون مدة ملكه ما بين الإمارة والخلافة حوالي أربعين سنة، وكانت وفاته في منتصف شهر رجب سنة ستين من الهجرة عن عمر بلغ ثمانين عاماً، ودفن في «الباب الصغير»[1] بدمشق.

وفي أيام حكمه، وفي سنة إحدى وأربعين استعمل معاوية المغيرة بن شعبة عاملاً له على الكوفة، وفي تلك السنة شرع بسبّ أمير المؤمنين عليه السلام.

وفي عيد الفطر من سنة ثلاث وأربعين توفي عمرو بن العاص عن تسعين عاماً، بعد أن حكم مصر عشرة أعوام وأربعة شهور، وتوفيت حفصة سنة خمس وأربعين، وفي سنة تسع وأربعين انتشر الطاعون بالكوفة فهرب واليها المغيرة «فطعن فمات».

وفي سنة خمسين كانت شهادة الإمام الحسن عليه السلام على القول المشهور، وفي سنة إحدى وخمسين كانت شهادة حجر بن عدي الكندي،

---

(١) يقوم قبره الآن بدمشق بالقرب من الجامع الأموي إلى ناحية الجنوب منه، حيث كان يقوم قصره، وقلّما يزار (المعرب).

وفي سنة اثنتين وخمسين توفي أبو موسى الأشعري، وفي سنة ثلاث وخمسين هلك زياد بن أبيه، وفي سنة خمس وخمسين توفي سعد بن أبي وقاص.

وفي سنة سبع وخمسين كانت ولادة الإمام محمد الباقر عليه السلام، وفيها كانت وفاة عائشة وأبي هريرة، وعلى قول: كانت وفاة عائشة بعدها بسنة. وفي سنة تسع وخمسين كانت وفاة أم سلمة، وسعيد بن العاص أمير الكوفة، وجرول بن إياس المعروف بالحطيئة الشاعر، والحطيئة بالتصغير تعني الرجل الدميم القصير، وكان كثير الهجاء، وروي أنه هجا الزبرقان بن بدر بقوله:

دع المكارم لا تنهض لبغيتها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

فاستعدى عليه عمر بن الخطاب، فقال له عمر: ما أراه هجاك.. ألا ترضى أن تكون طاعماً كاسياً؟! ثم بعث عمر إلى حسان بن ثابت فسأله عن البيت هل هو هجاء، فقال: ما هجاه.. ولكن سلح عليه! فحبسه عمر وقال له: يا خبيث، لأشغلنك عن أعراض المسلمين، فما زال في السجن إلى أن شفع فيه عمرو بن العاص فخرج، وله عند موته كلمات لطيفة لا مجال لنقلها.

وفي شهر رجب سنة ستين كانت وفاة معاوية، وكان أول خلفاء بني أمية، ويجدر الحديث في هذا الموجز عن أحوال معاوية وأمه وأبيه:

أمّ معاوية هي هند ابنة عتبة بن ربيعة بن عبد شمس، وكانت تجهد في العداء لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وقد شهدت معركة أُحد، وكانت ما تفتأ تردد هذا الرجز:

نحن بنات طارق نمشي على النمارق
إن تقبلوا نعانق أو تدبروا نفارق
فراق غير وامق

كانت تحرّض المشركين على قتال المسلمين، ونقل عن ابن أبي الحديد

وابن عبد ربه، أنها كانت متهمة بالزنى، وتروي كتب التاريخ أنها كانت من شهيرات الزواني.

وينقل عن هشام بن السائب الكلبي النسّابة أنها ـ لما قتل وحشي غلام جبير بن مطعم سيد الشهداء الحمزة عليه السلام في معركة أُحد ـ قدمت إلى جثمانه الشريف فاستخرجت كبده تريد أن تلوكها، غير أن الكبد ـ وبقدرة الله تعالى ـ قست وصلبت، فلم تترك أسنانها فيها أثراً، فلفظتها، ثم انصرفت إلى التمثيل بالجسد الشريف فقطعت منه قطعاً نظمتها بحبل وجعلت منها قلادة علقتها حول جيدها! واقتدت بها نساء قريش فصنعن مع سائر الشهداء صنيعها، الأمر الذي شقّ على رسول الله صلى الله عليه وآله، وآلمه أشدّ الألم، فهدر دمها، وبقيت الحال على ذلك حتى عام الفتح حيث اضطر أبو سفيان إلى إشهار إسلامه نفاقاً، فأشهرت هند إسلامها كذلك، وشملها عفو رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في سياق رحمته التي عمّت الجميع، فلما أقبلت تبايعه مع المبايعات ذكر شرطاً من شرائط البيعة جري عادته مع سائر النساء وهو: أن لا يزنين.. قالت هند: «وهل تزني الحرة»؟ فأشاح صلى الله عليه وآله وسلم بوجهه صوب عمر وضحك، ولعلها كانت إشارة منه ذات معنى في الرد على سؤالها وتعجبه(مع طهارة الذيل ونقاء الجيب)!!.

وإجمالاً فقد أقامت هند على النفاق بعد إسلامها إلى اليوم الذي توفي فيه أبو قحافة والد أبي بكر أثناء خلافة عمر، حيث حزمت بدورها متاعها إلى جهنم، ومنذ اليوم الذي لاكت فيه كبد حمزة سيد الشهداء عليه السلام حملت لقب «آكلة الأكباد» هذه اللعنة التي لزمتها ولزمت سلالتها، إلى يوم القيامة.

ومن هنا كانت إشارة عقيلة خدر الرسالة والهداية، ورضيعة ثدي النبوة والولاية زينب بنت علي عليهما السلام، في خطبتها بمحضر يزيد بالشام إذ قالت:

«وكيف يرتجى مراقبة من لفظ فوه أكباد الأزكياء، ونبت لحمه من دماء الشهداء»!.

وهذا الجاحظ المعروف بمجاهرته في عدائه لأمير المؤمنين عليه السلام، وفي رسالة قارن فيها بين بني هاشم وبني أمية يقول:

«وأكلت هند كبد حمزة، فمنهم آكلة الأكباد، ومنهم كهف النفاق، ومنهم من نقر ثنيتي الحسين بالقضيب».

ولقد أجاد الحكيم السنائي في ما قال:

لسليل هندٍ قصّة تروى فهو   وثلاثة من آله آذى الرسول
فأبوه في أُحدٍ برى سنّ الرسو   ل وأمّه لاكت حشا عمّ الرسول
وعدا على حقّ الوصيّ أخي الرسو   ل وعلجُه قد جزّ رأس ابن الرسول
أفعال قوم لَعْنُهم زلفى وقر   بٌ من ثناء وفي رضى ربّ الرسول[1]

هذه أحوال هند، وأما أحوال أبي سفيان: فاسمه صخر بن حرب بن أمية، وأمه صفية بنت مروان الهلالية، وكانت ولادته قبل عشر سنوات من عام الفيل، كان دأبه العداء لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وسعيه في إجلاب الحروب وسوق الجنود عليه، لم تقم في قريش فتنة إلا وكانت له فيها قدم راسخة ومساع بالغة إلى أن انتهى به الأمر عام الفتح إلى إشهار إسلامه قهراً، وراح يتقلب في النفاق عمره.

نقل أنه كان في ركب بالطائف فأصيبت إحدى عينيه بسهم فعميت، وأما عينه الأخرى فأصيبت باليرموك وتركته قريباً من العمى، وفي هوازن حيث بذلت العطايا للمؤلفة قلوبهم كان نصيبه منها مئة بعير وأربعين أوقية من الفضة، كما بذل لابنيه يزيد ومعاوية كذلك، أما ابنه الآخر حنظلة الذي يكنى

---

(١) تعريب من المعرّب لأبياتٍ أربعة للحكيم السنائي (بتصرف بسيط) والأبيات هي:

داستان پسر هند مگر نشنيدى   كه از و وسه كس او بپيمبر چه رسيد
پدراو در دندان پيمبر بشكست   مادراو جگر عم پيمبر بمكيد
او بناحق حق داماد پيمبر بستاد   پسراو سرفرزند پيمنبر ببريد
بر چنين قوم تو لعنت نكنى شرمت باد   لعن الله يزيداً وعلى آل يزيد

به فقد وصل مع طليعة جيش أبيه وأخيه وذوي قرباه في بدر إلى جهنم على يدي أمير المؤمنين عليه السلام.

وأبناء أبي سفيان هم: معاوية وعمر وعتيبة، وصخرة وهند ورملة وآمنة وأم حبيبة وجويرية وأم الحكم، وحنظلة وعنبسة ومحمد، وزياد باستلحاق معاوية له، ويزيد ورملة الصغرى وميمونة.

كانت وفاة أبي سفيان سنة ثلاثين من الهجرة عن اثنين وثمانين عاماً، وكان حسان بن ثابت ـ أيام المهاجاة بين المسلمين والمشركين ـ قد نظم في هجائه أشعاراً كثيرة منها:

عضضت بأير من أبيك وخاله   وعضّت بنو النجار بالسكر الرطب

ومنها أيضاً:

ولست من المعشر الأكرمين   ولا عبد شمس ولا نوفل
وليس أبوك بساقي الحجيج   فاقعد على الحسب الأرذل
ولكن هجين منوط بهم   كما نوّطت حلقة المحمل

وهذه الأبيات صريحة في بيان خبث مولده وفساد نسبه، فقد نُفي نسبه عن عبد شمس وعُدّ منوطاً بهم.

أما حاله في النفاق والعداء لأهل بيت الرسالة فأوضح وأبين من أن تنكر، ونصُّ الكتاب الكريم في آية الرؤيا شاهد على لعنه، فهو في الحقيقة أصل هذه الشجرة الملعونة، وهذا ما أثبته مؤرخو الخاصة والعامة في كتبهم، كما أشير في «توقيع المعتضد العباسي» إلى أنه ـ بعد أن رسا أمر الخلافة على عثمان ـ قدم إلى داره حيث كان جماعة من بني أمية هناك ـ وقد ضمّهم مجلس بهجة وفرح ـ وقد سُدّ باب البيت فلا يدخله غريب، إذ ذاك نادى أبو سفيان[1]: هل بينكم أحد من غير بني أمية قالوا: لا، فقال:

---

(١) علماً بأنه كان أعمى (المعرب).

«يا بني أمية، تلقفوها تلقف الكرة، فوالذي يحلف به أبو سفيان ما من عذاب ولا حساب، ولا جنة ولا نار، ولا بعث ولا قيامة»!!.

فلما سمع عثمان هذه المقالة خاف أن تصل إلى أسماع المسلمين فتقوم فتنة، فأمر بإخراجه من المجلس، وهذا من مشهور القول رواه البيهقي والزمخشري، ونقله عنهما ابن أبي الحديد.

وروي في «توقيع المعتضد العباسي» عن ثقات أن أبا سفيان كان يوماً يركب حماراً بينما كان معاوية يسوق به ممسكاً بالعنان، ويزيد (أخوه) يقود من الخلف، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: **«لعن الله الراكب والقائد والسائق»**!.

كما روي أن مجلساً في بيت معاوية ضمّ عَمراً بن العاص، وعتبة بن أبي سفيان، والمغيرة بن شعبة، فبعثوا إلى الإمام الحسن عليه السلام يدعونه إلى مجلسهم، فلما حضر عليه السلام راح كل منهم يجترىء عليه، فالتفت سيد شباب أهل الجنة مخاطباً معاوية، مذكراً إياه بأن رسول الله صلى الله عليه وآله لعن أبا سفيان في سبعة مواطن، وعدّها له موطناً فموطناً، ومن شاء التفصيل فليرجع إلى «شرح النهج» لابن أبي الحديد، حيث أوردها نقلاً عن كتاب «مفاخرات الزبير بن بكار».

وإجمالاً فحال أبي سفيان ظاهرة لكل منصف محقق، مع أن أهل السنة ملتزمون بالقول بعموم عدالة الصحابة، فمن عدائه لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، إلى استمراره في النفاق وقوله لابن عباس: **«لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيماً»**! إلى وقوفه عند (ثنية أحد) متوكئاً على عصاه، وكان قد عمي، وقوله: **«ها هنا رمينا محمداً وقتلنا أصحابه»**! إلى قوله يوم الفتح عندما رفع بلال الأذان من فوق الكعبة معلناً الشهادة على رسالة محمد صلى الله عليه وآله، إذ قال: **«لقد أسعد الله عتبة بن ربيعة إذ لم يشهد هذا المشهد»**! إلى سائر ما تنطوي عليه أقواله من الكفر، وهذا كله لا يتعارض مع العدالة!!.

وليس من الغرابة أن يتفق لأبي سفيان أن يكون بمواجهة رسول الله صلى الله عليه وآله، ويتفق لمعاوية أن يكون بمواجهة أمير المؤمنين عليه السلام، ويتفق لابنه يزيد أن يكون بمواجهة سيد الشهداء سلام الله عليه، فعداء كل من الثلاثة من السفور بمكان لا تفيد معه الحيطة! وما أصحّ ما قاله الحكيم السنائي: «لسليل هند قصة..» الخ.

أما معاوية فهو ابن هند من أبي سفيان حسب الظاهر، غير أن المحققين يعتبرونه ابن زنى، فالراغب الأصفهاني قال في «المحاضرات»، كما نقل ابن أبي الحديد عن «ربيع الأبرار» للزمخشري:

إن معاوية ادّعاه أربعة رجال: مسافر بن أبي عمرو، وعمارة بن الوليد بن المغيرة، والعباس، والصبّاح الذي كان منشد ومغنّي عمارة بن الوليد!.

كان أبو سفيان بالغ القبح والقصر، وكان خادمه الصبّاح شاباً وسيماً، فتعلقت هند بالفتى ودعته إلى نفسها، ويقول علماء الأنساب: إن عتبة بن أبي سفيان من الصبّاح أيضاً، كما قالوا إن هنداً لمّا حملت بمعاوية كرهت أن تضع حملها في البيت، فقصدت طرف جبل «أجياد» حيث وضعته هناك، ومن هنا إشارة حسان بن ثابت إلى حال معاوية أيام المهاجاة، إذ قال:

لمن الصبيّ بجانب البطحاء — في الترب ملقى غير ذي مهد

وينقل آية الله العلامة، نضّر الله وجهه، عن الكلبي النسّابة، وهو من الثقات عند علماء السنّة، كما يقرر ابن روزبهان كذلك أن معاوية كان ابناً لأربعة هم: عمارة، ومسافر، وأبو سفيان، ورجل آخر لم يسمّه، وأن هنداً أمه كانت من ذوات الأعلام، وكانت أكثر ما تلبّي شهوتها بمعاشرة الغلمان السود، وكانت كلّما وضعت مولوداً أسود قتلته، وكانت لحمامة، إحدى جدات معاوية، راية في سوق المجاز، وقد بلغت في الزنى الغاية!.

من هنا يغدو نسب «أبي سفيانهم» معروفاً! وقد أورد السبط بن الجوزي في «التذكرة» من كتاب «الكلبي» شرحاً وافياً في هذا المقام ذيّله بقول الإمام الحسن عليه السلام لمعاوية: **«ولقد علمتَ الفراش الذي ولدتَ عليه»!**.

وجاء في «نهج الحق» أنه لما هدر النبي صلى الله عليه وآله وسلم دمه في فتح مكة قدم مضطراً قبل وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بخمسة شهور وطرح نفسه في وجه العباس ملتمساً شفاعته، فشفع له، وأعلن إسلامه، كما حصل بشفاعة العباس على الإذن بالكتابة، فكان يبعث أحياناً برسائل إلى الرسول صلى الله عليه وآله. ومن هنا فاعتباره من «كتّاب الوحي» إن هو إلا افتراء واختلاق.

وإجمالاً: لما أمر أبو بكر بتسيير الجيش وبعث العساكر إلى الشام أمّر يزيد بن أبي سفيان على الجيش، وجعل معاوية وأبا سفيان كليهما تحت إمرتهِ، فلما استلحق معاوية بأبويه عيّنه أميراً على الشام، واستقلّ فيها بالولاية في ما تبقّى من عهد أبي بكر وطيلة عهد عمر وعثمان، وسعى إلى إحداث البدع وإحياء السنن الكسروانية والقيصرانية، وإظهار معالم التجبر والتبختر، حتى قال له عمر يوماً: **«أنت كسرى العرب»!**.

ولما أصبح أمير المؤمنين عليه السلام زينة سدّة الخلافة ـ وكانت شهرة معاوية بالظلم والطغيان، والفسق والعصيان قد طبقت الآفاق ـ لم يقرّه في الولاية، بينما قام من جانبه ـ متعلّلاً بالطلب بدم عثمان! ـ بانتهاج طريق حرب حجّة الله وإمام الزمان، فشهر السيف وأشهر الحرب على أمير المؤمنين عليه السلام، حتّى مضى عليه رضوان الله تعالى بقلب كليم، وصدر طافح بالقيح من مفاسد معاوية، ومكائده مع عمرو بن العاص، واستراح منهما بتجرّعه جرعة الشهادة! ثم شرع معاوية بحرب الإمام الحسن عليه السلام حتى وقع الصلح بينهما.

امتدت إمارة معاوية عشرين سنة، أعقبها عشرون أخرى تفرّد فيها بالحكم، فيكون قد حكم الشام أربعين سنة.

وفي وقعة صفين بين أمير المؤمنين عليه السلام وبين معاوية طال بينهما تبادل الرسل والرسائل، وفي مكتوب من مكاتيبه عليه السلام إلى معاوية ذكر

له الكثير من الأخبار الغيبيّة التي أخبره بها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ومن جملتها: أنه سرعان ما تخضب لحيته الشريفة بدم رأسه، فيخلو لمعاوية الجوّ، ويتفرّد بحكم الأمة، ثم أنه يغدر بالإمام الحسن عليه السلام فيقتله بالسمّ الناقع، وأن ابنه يزيد ـ بمساعدة ابن الزانية عبيد الله بن زياد ـ يقتل ابنه الحسين عليه السلام، ثم يتسلّط على الأمة بعده اثنا عشر من أئمّة الضلالة، من أولاد ابن العاص ومروان بن الحكم، وذلك طبقاً للرؤيا التي أُرِيَها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وقد أُرِيَ فيها أئمّة الضلالة قردةً تَنزو على منبره، وترتدّ الأمة عن الشريعة على أعقابها.

ثم أردف عليه السلام يقول ما مؤدّاه: إن قوماً يكون شعارهم رايات وأعلاماً سوداً ينتزعون الحكم والسلطان منهم، ويقضون على كل من تقع أيديهم عليه، فيقتلونه بكل مذلّة وهوان.

ثم طفق عليه السلام يخبر بمغيبات كثيرة عن أمر الدجّال، وطرف عن ظهور قائم آل محمد عجّل الله تعالى فرجه الشريف.

وجاء في ذيل المكتوب ما مؤداه:

إني أعلم أن هذه الورقة لن تكون ذات نفع لك أو فائدة، ولن يكون حظّك منها سوى أن تظهر الفرح لما أخبرتك به من حكمك وحكم ابنك، غير أن ما بعثني على الكتابة إليك هو أني أمرت كاتبي بنسخها، علّ شيعتي وأصحابي يجنون منها نفعاً، أو أن فرداً واحداً ـ ممن هم بطرفك ـ يقرأها فينصرف عنك، وينهج سبيل الهداية، وأن تكون أيضاً حجّة لي عليك!.

وإجمالاً فقد مرّ في الكلام عن حال أبي سفيان الحديث عن لعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم له، وجاء في «نهج الحق» للعلامة، كما اعترف ابن روزبهان وأقرّ بأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يلعنه دائماً ويقول:

«اللعين ابن اللعين، والطليق ابن الطليق».

كما نقل عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في «توقيع المعتضد العباسي» أنه قال: «**إذا رأيتم معاوية على منبري فاقتلوه**».

وجاء نقلاً عن صحاح أهل السنة: «**الخلافة بعدي ثلاثون، ثم يعود ملكاً عضوضاً**» (أي شديداً).

ومن هذا الجانب فقد اعترف ابن روزبهان أن معاوية ليس من الخلفاء، بل هو من الملوك، وقد وقع سائر الآخرين في ضيق خناق التأويل فلفّقوا وجوهاً شتّى تخلص نتيجة قسم منها إلى أن الملك درجة أدنى من الخلافة، ولا يتنافى مع تحقيقه لصدق الخلافة! وهذا الوجه باطل لعدة أسباب، منها: أن السيوطي يروي في كتاب «تاريخ مصر» أن عمر قال:

«والله ما أدري أخليفة أنا أم ملك! فإن كنت ملكاً فهذا أمر عظيم».

قال قائل: يا أمير المؤمنين إن بينهما فرقاً، قال: ما هو؟ قال: الخليفة لا يأخذ إلا حقاً، ولا يضعه إلا في حقّ، وأنت بحمد الله كذلك؛ والملك يعتسف الناس فيأخذ من هذا ويعطي هذا.

فهذه الرواية التي تتضمّن إقراراً من عمر صراحة في تبيان الفرق بين الخليفة والملك، إذ يتضح منها أن المراد بالملك: المتعسّف الظالم، وهذه الرواية تفيد الحكم ببطلان خلافة معاوية وخلافة المتأخرين.

وينقل ابن الأثير في «أسد الغابة» عن عبد الرحمان الزبيري أن عمر قال:

«إن هذا الأمر في أهل بدر ما بقي منهم أحد، ثم في أهل أُحُد ما بقي منهم أحد، ثم في كذا وكذا. وليس فيها لطليق، ولا لوليد طليق، ولا لمسلمة الفتح شيء».

يظهر من هذه الرواية أن الخليفة الثاني ينفي الخلافة عن معاوية بعناوين ثلاثة: كونه كان طليقاً، وابن طليق، ومن مسلمة الفتح.

وجاء أيضاً في «أسد الغابة» كما نقل كثيرون عن ابن عباس مسنداً أنه قال:

كنت منشغلاً باللعب مع الصبية وإذ برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يحضر، فتواريت خلف أحد الأبواب، فوضع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يده على ظهري وقال: ادع لي معاوية، فذهبت ثم رجعت وقلت: إنه يأكل، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: **«لا أشبع الله بطنه»**!.

وقد أورد ابن خلكان في ترجمة النسائي صاحب «الخصائص» الذي يوصف بالحافظ وإمام العصر في الحديث، أنه سئل عما يرويه في فضائل معاوية، فقال: **«لا أعرف له فضيلة إلاّ لا أشبع الله بطنه»**!

وينقل ابن حجّة الحموي في «ثمرات الأوراق» عن الإمام الحسن عليه السلام أنه قال في مجلس تفاخر:

«أنشدكم الله والإسلام.. أتعلمون أن معاوية كان يكتب الرسائل لجدّي، فأرسل إليه يوماً، فرجع الرسول وقال: هو يأكل، فردّ الرسول ثلاث مرات كلّ ذلك وهو يقول: هو يأكل، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «لا أشبع الله بطنه»؟ أما تعرف ذلك في بطنك يا معاوية»؟!.

وأورد السيد الشهيد عن «تاريخ اليافعي» أن معاوية ابتلي بمرض الجوع بدعاء النبي صلى الله عليه وآله وسلم. وهذا من المسلمات؛ فمعاوية كان يأكل حتى يبلغ به الجهد مبلغه، فلا يشبع. ويقال إنه كان يأكل جملاً كاملاً!.

وقال الراغب وابن أبي الحديد وغيرهما: كان معاوية يأكل حتى يربع[١]، ثم يقول: ارفع ما شبعت، أكلت حتى مللت! قال الشاعر:

وصاحب لي بطنه كالهاوية كأنّ في أمعائه معاوية

---

(١) يربع: يتوقف وينتظر.

وروي في «نهج الحق» عن ابن عمر أنه قال: كنت في حضرة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فسمعته يقول: سيقدم عليكم رجل يموت على غير سنّتي، فدخل معاوية!.

والأخبار متواترة متكاثرة في كفر ونفاق مبغض أمير المؤمنين عليه السلام، وقد وردت في الطرق الصحيحة لأهل السنّة. وفي ذيل حديث الغدير المتواتر: **«اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه»**. وإن عداوة معاوية وسبّه لأمير المؤمنين عليه السلام أظهر مما يمكن شرحه.

وقد نقل أبو المؤيد الخوارزمي، وسبط بن الجوزي أن الأصبغ بن نباتة ورد مجلس معاوية يوماً، فرأى جماعة من اللئام يتحلقون حوله، بينما جلس أبو هريرة وأبو الدرداء مع آخرين مقابله، فقال الأصبغ مخاطباً أبا هريرة:

يا صاحب رسول الله، إني أحلّفك بالله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة، وبحق حبيبه محمد المصطفى صلى الله عليه وآله إلاّ أخبرتني: أشهدت غدير خمّ قال: بلى شهدته، قلت: فما سمعته يقول في عليّ؟ قال: سمعته يقول:

«من كنت مولاه فعليّ مولاه، اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله».

قلت له: فأنت إذاً واليت عدوّه، وعاديت وليّه! فتنفّس أبو هريرة الصعداء وقال: إنّا لله وإنّا إليه راجعون.. الخ.

وقد ورد في أخبار كثيرة من طرق معتبرة أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال لعمار: **«تقتلك الفئة الباغية»**، وقد قتله جند معاوية، فلما ثارت الغوغاء بين أهل الشام بسبب هذا الحديث الشريف الذي ينبىء ببغيهم وطغيانهم قال معاوية بمحض التدليس: لقد قتل عماراً من جعله طعمة للسيوف والرماح، وهو علي! ولما بلغ هذا الكلام أمير المؤمنين عليه السلام قال: لئن كان الأمر كذلك فحمزة أيضاً قتله رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وإجمالاً، فإن الأخبار والآثار الواردة في ذمّ معاوية فاقت حدّ الحصر. فقد حكي عن بعض فضلاء الهند المتتبعين أنه نقل مئتي خبر عن طرق معتمدة عند أهل السنّة في مذمته، وفي الخلاف بينه وبين أمير المؤمنين عليه السلام على أنه يماثل الخلاف بين أبي جهل والنبي، وهو ثابت بالضرورة، والجمع بين المتضادين محال، فيلزم هنا إمّا محبته مع العداء لعلي، وإمّا عكس ذلك، وبهذا اللحاظ كان الناس يأخذون على أبي هريرة موقفه، ويسألونه بتعجب: كيف جَمْعُك بين الضدين.. ففي حين تكون وقت الطعام إلى مائدة معاوية نراك تؤدي الصلاة خلف أمير المؤمنين عليه السلام؟! فما كان من أبي هريرة إلا أن قال بلا محاباة: إن مَضيرة[1] معاوية أدسم وأطيب، والصلاة خلف علي أفضل!! فكان يقال له: «شيخ المضيرة». وهذا الخبر ورد عن الزمخشري في الباب الرابع من «ربيع الأبرار».

وقد أورد المؤرخ الأمين والمعتمد من كلا الفريقين، المسعودي، في «مروج الذهب» في ذيل أحوال المأمون، كما أشار ابن أبي الحديد أيضاً، أنه في سنة اثنتي عشرة ومئتين نادى منادي المأمون أنه لا أمان لمن يذكر معاوية بخير، أو لمن يقدّمه على أحد من الصحابة! فتنازع الناس في سبب هذا الأمر، وقيل الكثير من الأقاويل المختلفة في هذا الباب، ومنها: أن أحد ندمانه أخبره بحديث يروونه عن مطرف بن المغيرة بن شعبة، وهذا الخبر أورده أيضاً الزبير بن بكار الزبيري في كتاب الأخبار المعروف بـ «الموفقيات» الذي كتب باسم الموفق بالله على الشكل الآتي: يقول:

سمعت عن المدائني أنه كان يقول: قال مطرف بن المغيرة: وفدت على معاوية مع أبي المغيرة، وكان أبي يذهب إلى معاوية ويروح عنه وهو يثني على ما يمتلكه من عقل وملك، فجاء ذات ليلة حزيناً مهموماً، حتى أنه لم يتناول طعامه. تريثت قليلاً وفي ظنّي أن سانحة عرضت في أموالنا وأعمالنا

---

(١) المضيرة بفتح الميم: طعام يطبخ باللبن، والمَضِر: اللبن الحامض (المنجد).

فسألته: ما الذي جرى حتى أراك هذه الليلة مغموماً قال: قدمت من عند أسوأ الناس، قلت: فما الذي جرى؟ قال: قلت لمعاوية:

لقد نلت ما تصبو إليه، وحققت أغراضك، فليتك الآن تنشر ألوية الإشفاق، وتبسط بساط العدل، فقد بلغت من العمر مبلغاً، وليتك أيضاً تنظر في أحوال إخوانك من بني هاشم، فتصل أرحامهم، فلم يتبقّ لديهم والله ما تخشاه منهم!.

فما إن سمع معاوية هذا حتى قال: هيهات.. هيهات.. فهذا أخو تيم (يعني أبا بكر) قد تأمّر وامتهن العدالة، وصنع ما صنع، فوالله ما هو أكثر من أن مات، ومات اسمه، إلا أن يقول قائل: أبو بكر! وهذا أخو عدي (يعني عمر) قد ملك وجهد جهده، وساد عشر سنين، فوالله لم يَعْدُ أن هلك، وهلك ذكره، إلا أن يقول قائل: عمر! وأعقبه في الملك أخونا عثمان، فلم يرع النسب أحد مثله، ثم صنع ما صنع، فجوزي من الناس حتى هلك، وهلك ذكره، كما لم يبق ذكر لما فعلوه به.

وأما أخو هاشم (يعني الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله) ففي كل يوم يهتفون باسمه خمس مرات ويقولون:

«أشهد أنّ محمداً رسول الله، فأي عمل يبقى مع هذا لا أمّ لك؟ والله إلاّ دفناً دفناً»!!.

يعني أنه بعد موت الخلفاء الثلاثة (وخمول ذكرهم) في حين أنه ينادى باسم محمد خمس مرات كل يوم، فما العمل بعد هذا سوى أن يدفن اسم محمد أيضاً، ويعفى أثره!!.

لما سمع المأمون العباسي هذا أمر مناديه أن ينادي بما جاء في صدر هذه الحكاية، كما جرى تدبيج الرسائل إلى الآفاق بالحضّ على لعن معاوية، فاستعظم الناس هذا العمل وأكبروه، واضطربت العامة، ورأت المصلحة في التخلي عنه، وهكذا كان.

كان هذا ما أورده المسعودي في «مروج الذهب» وهو أخو ثقة معتمد عند أهل السنّة، وكتابه يحظى باعتبار كبير، وقد طبع في مطبعة بولاق في القاهرة، علاوة على أسناده التي ذكرها، كما أن كتاب «الموفقيات» للزبير بن بكار يعدّ من الأصول المعتمدة والمراجع المعتبرة عندهم.

وإجمالاً فمعاوية ابتدع العديد من الأمور وجاءت كتب التاريخ على ذكرها، منها:

أولاً: إنشاؤه للبريد.

ثانياً: وضعه الأساس لديوان الخاتم.

ثالثاً: اتخاذه مقصورة خاصة به في المسجد.

رابعاً: قراءته الخطبة من جلوس.

خامساً: خروج الريح منه على المنبر وعلى ملأ من الناس.

سادساً: نقضه للعهد علانية دون مداورة، كما فعل بعد صلحه مع الإمام الحسن عليه السلام، إذ قال في الكوفة ومن فوق المنبر:

«إني شرطت للحسن شروطاً، وكلها تحت رجلي»!.

سابعاً: مخالفته للحديث الشريف: «الولد للفراش، وللعاهر الحجر»، وذلك بإعلانه زياداً بن أبيه أخاً له بناءً على شهادة أبي مريم السلوليّ الخمّار، ثم بعث بأخته إلى زياد حاسرة الرأس كاشفة شعرها، وقال: أنت أخي كما أخبرني أبو مريم!.

ثامناً: كونه أول من روّج سبّ أمير المؤمنين عليه السلام.

تاسعاً: إقدامه على قتل ذرية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وقتله للحسن عليه السلام بالسمّ.

عاشراً: أخذه البيعة لابنه يزيد وتنصيبه خليفة له، كأن أوزاره لم تكن كافية حتى تحمّل أوزار الفاسق يزيد!.

حادي عشر: اتّخاذه الخصيان لخدمته الخاصة.

ثاني عشر: وضعه اسم (غالية) للطيب المعروف.

ثالث عشر: إذنه بتجريد الكعبة المشرفة من كسوتها، وكانوا قبله يلبسونها الكسوة بالتدريج دون تجريدها منها.

رابع عشر: إحياؤه اسم الأكاسرة وجلوسه على العرش.

خامس عشر: قتله في الإسلام صبراً، كما صنع بحجر بن عدي[1].

سادس عشر: رفعه الرأس في الإسلام على سنان الرمح، كما صنع بعمرو بن الحمق[2].

سابع عشر: كونه أول من تختّم باليسار، وتابعه في ذلك أهل السنة.

وغير ذلك الكثير مما هو مسطور في كتب التاريخ.

---

(١) كان حجر بن عدي الكوفي رضوان الله تعالى عليه من أفاضل الصحابة، وكان مستجاب الدعوة، وفي وقعة صفين كان في جانب أمير المؤمنين عليه السلام أميراً على كندة، كما كان في وقعة النهروان كذلك، وفي سنة إحدى وخمسين قتله معاوية مع كوكبة من أصحابه بسعاية من زياد بن أبيه، ويقوم قبره المنوّر في قرية عذراء على بعد فرسخين من دمشق (منه رضي الله عنه).

(٢) عمرو بن الحمق رحمه الله يعدّ من حواريّي أمير المؤمنين عليه السلام، وقد أورد حكاية استشهاده الشيخ الكشي في «الرجال» (منه رضي الله عنه).

إمارة يزيد بن معاوية

مع موجز عن قبائح أعماله لعنة اللّه عليه

أخذ معاوية بن أبي سفيان البيعة لابنه يزيد من الناس أيام حكمه، وجعله ولياً لعهده، فلما فارق الحياة حل يزيد محله، فبقي في الحكم ثلاث سنوات وتسعة أشهر، وذكر السيوطي أن ولادته كانت سنة خمس وعشرين أو ستّ وعشرين من الهجرة، والمشهور في تاريخ انتقاله إلى دركات الجحيم أنه كان ليلة الرابعة عشرة من ربيع الأول سنة أربع وستين، ودفن في محلة تدعى «حوارين» وقد أجاد من قال:

يا أيها ذا القبر في حوارينا ضُمِّنت شر الناس أجمعينا

وقد عدّوا ليزيد ثلاثة عشر ابناً وأربع بنات، أما أحوال وخصائص أبيه وجدّه وجدّته فقد سمعتم منها القدر الذي يناسب هذا الموجز، وإليكم فاسمعوا زبدة الكلام عنه:

أمّ يزيد «ميسون» ابنة بجدل الكلبي، وقد جاء في «البحار» عن «إلزام النواصب» وغيره أن «ميسون» مكّنت غلاماً لأبيها من نفسها فحملت بيزيد اللعين، ويشير النسّابة الكلبي إلى هذا فيقول:

فإن يكن الزمان أتى علينا بقتل الترك والموت الوحِيّ[1]
فقد قتل الدعيّ وعبد كلب بأرض الطفّ أولاد النبي

---

(١) الموت الوحيّ: الموت السريع العاجل (من المعرّب عن المنجد).

ومراده بالدعيّ: ابن زياد، وبعبد كلب: يزيد، ويؤيد هذا الأخبار الواردة عن أهل بيت الرسالة عليهم السلام إذ قالوا إنّ قاتل الحسين بن علي عليه السلام ابن زنى، وقاتل الحسين عليه السلام عنوان يشمل الشمر وابن سعد وابن زياد ويزيد عليهم لعائن الله، وكانوا جميعهم أبناء حرام كما هو ثابت في مقامه.

موجز عن قبائح أعماله

قضى يزيد عمره في اللعب بالقردة والفهود، ومعاقرة الخمرة، وممارسة أنواع القمار، إلى هتك حرمات المسليمن، وقتل الذرية الطاهرة، وكشف الستر عن نساء المهاجرين والأنصار، وتدنيس الحرم النبوي الشريف، وسفك دماء أهل المدينة، واسترقاق الأحرار من كبار التابعين، وهدم البيت، وإحراق كساء الكعبة، وليس كلّ ما صنعه يزيد موضع بسط وبيان، فكلّ فعل منها بلغ الغاية في الشهرة والانتشار في محلّه، فهو من نشر وأشاع فنون الفسق، وهو من جهر بشرب الخمر والاستماع إلى الغناء.

قال المسعودي: كان يزيد يدعى بـ «السكران الخمّير»، وابن الجوزي في «رسالة تجويز اللعن» يقول: إن وفداً من أهل المدينة قدموا إلى الشام، ولما رجعوا جهروا بشتمه ولعنه، وقالوا:

«قدمنا من عند رجل ليس له دين، يشرب الخمر، ويعزف بالطنابير، ويلعب بالكلاب».

ونقل عن عبد الله بن حنظلة قوله في حقّه:

«إن رجلاً ينكح الأمّهات والبنات والأخوات، ويشرب الخمر، ويدع الصلاة.. الخ».

من هذه العبارة وأمثالها يتضح أن أعمال يزيد كانت شرب الخمر وترك الصلاة، واللعب بالكلاب، والعزف على الطنبور والناي، ووطء الأمهات والأخوات والبنات.

جاء في «مروج الذهب» أن يزيد ـ بعد قتل سيّد الشهداء ـ جلس إلى

بساط الشراب، وأحضر المغنين وأجلس ابن زياد إلى يمينه، ثم التفت يخاطب الساقي منشداً:

اسقني شربة تروي مشاشي ثمّ صِلْ فاسْقِ مثلها ابن زياد
صاحب السرّ والأمانة عندي ولتسديد مغنمي وجهادي

ثم أمر المغنين بالغناء.

وفي «مروج الذهب» أيضاً أن يزيد أحضر قرداً خبيثاً كان يدعوه «أبا قيس» إلى مجلس ندمانه. وطرح له متكأ في محفله ذاك، وكان بين الحين والآخر يُركبه أتاناً جرى ترويضها وتطويعها لأجل هذا العمل، ويُطرح عليها سرج ولجام، وتُنزل إلى حلبة السباق مع الخيول، وحدث يوماً أن أتان أبي قيس حازت على «قصب السبق» فأُدخل أبو قيس إلى ملجس يزيد وهو يعلو الأتان ويرفع رمحاً بيده، وقد طُرح عليه قباء من الديباج الأحمر والأصفر، مع قلنسوة من الحرير الملون على رأسه، في حين زيّنت الأتان بالحرير الأحمر المنقوش والمحلّى بالألوان، بينما راح أحد شعراء الشام ينشد هذين البيتين:

تمسّك أبا قيس بفضل عنانها فليس عليها إن سقطتَ ضمان
ألا من رأى القرد الذي سبقت به جياد أمير المؤمنين أتان

والأخبار في ذمّ يزيد كثيرة، ويروي السيوطي في «تاريخ الخلفاء» عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال:

«لا يزال أمر أمتي قائماً بالقسط حتى يكون أول من يثلمه رجل من بني أمية يقال له يزيد».

كما نقل عن أبي الدرداء أنه قال: سمعت النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول:

«أول من يبدّل سنتي رجل من بني أمية يقال له يزيد».

وإجمالاً فقد حكم يزيد مدة ثلاث سنوات وتسعة شهور، وفي السنة

الأولى من حكمه قتل سيد الشهداء عليه السلام مع كوكبة من آل أبي طالب وغيرهم، كما جاء بالتفصيل في «منتهى الآمال». وفي السنة الثالثة من حكمه وكانت سنة ثلاث وستين من الهجرة جرت واقعة الحرة، وقتل في تلك الواقعة جمع غفير من أهل المدينة مع العديد من آل وأبناء أبي طالب، ونورد قصتها ملفقة بإيجاز من «مروج الذهب» و «تذكرة السبط» وغيرهما.

واقعة الحرة وإحراق البيت

اعلم أنه لما شمل ظلم يزيد وظلم عماله وطغيانهم أقطار العالم الإسلامي؛ وظهر فسقه وفجوره للناس؛ وبعد شهادة الإمام الحسين عليه السلام سنة اثنتين وستين توجه جماعة من أهل المدينة إلى الشام وشاهدوا بأمّ العين انصراف يزيد المستمر إلى معاقرة الخمر واللهو بالكلاب. وكيف كان حليفاً للقمار والطنابير وآلات اللهو واللعب؛ فلما قفلوا عائدين إلى المدينة نقلوا إلى أهلها ما شهدوه من قبائح فعاله.

ثار أهل المدينة فطردوا عامل يزيد عليها عثمان بن محمد بن أبي سفيان مع مروان بن الحكم وسائر الأمويين منها، وجهروا بسبّ يزيد وشتمه، قائلين: إنّ امرأً قاتلاً لأبناء الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، ناكحاً للمحارم، تاركاً للصلاة، وشارباً للخمرة لا يصلح للخلافة، ثم بايعوا عبد الله بن حنظلة «غسيل الملائكة»، فلما بلغ هذا يزيد اللعين بعث بمسلم بن عقبة المري[1]، وكان يلقب بالمجرم والمسرف؛ بعث به على رأس جيش كبير من الشام إلى المدينة، فلما اقترب مسرف بن عقبة مع جيشه من المدينة، وفي أرض صخرية كانت تعرف بـ «حرّة واقم» على بعد ميل من

---

(١) في «الكامل» لابن الأثير أن يزيد أراد أن يبعث بعمرو بن سعيد لقتال أهل المدينة فنكص عمرو عن ذلك فبعث إلى ابن زياد بذلك فأبى وقال: «والله لا جمعتهما للفاسق، قتل ابن الرسول وغزو الكعبة»! فبعث إلى مسلم بن عقبة المري وكان شيخاً كبيراً مريضاً فأرسله.
قيل إن معاوية قال ليزيد: «إن لك من أهل المدينة يوماً، فإن فعلوا فارمهم بمسلم بن عقبة، فإنه رجل قد عرفت نصيحته» (منه رضي الله عنه).

مسجد الأنبياء الكبير وكان أهل المدينة قد خرجوا لصدّهم ومنعهم من دخولها، أمر مسرف جنده فأعملوا السيف فيهم، وجرت بين الفريقين وقعة عظيمة راح ضحيتها عدد غفير من أهل المدينة. وكان مروان بن الحكم يحرّض مسرفاً تحريضاً متواصلاً على القتل حتى أسفرت المعركة عن مقتلة عظيمة، وعجز أهل المدينة عن المقاومة فراحوا يتدافعون نحو المدينة، واتخذوا من الروضة النبوية المطهرة ملجأ، ومن قبر الرسول المنوّر صلى الله عليه وآله وسلم ملاذاً.

تقاطر جند مسرف أيضاً نحو المدنية فدخلوها، ولم يرعوا ـ بأي وجه من وجوه الحياء ـ حرمة القبر المطهر، فداسوا بسنابك خيولهم الروضة المنوّرة، وجاسوا بخيولهم خلال مسجد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وهم يعملون القتل بأهل المَدينة حتى سالت الروضة والمسجد بالدماء، وبلغ سيلها قبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، كما دنّست الخيول الروضة المشرّفة بروثها وبولها، تلك البقعة المنوّرة التي هي روضة من رياض الجنة القائمة بين القبر والمنبر.

ويروي المدائني عن الزهري أن سبعمئة من وجوه قريش ومن الأنصار والمهاجرين ومواليهم قد نالهم القتل، عدا من هو غير معروف من سائر الناس ما بين رجل وامرأة، وحرّ وعبد، حتى ناهز عدد القتلى عشرة آلاف.

يقول أبو الفرج الأصفهاني: استشهد في وقعة الحرة اثنان من آل أبي طالب، أحدهما أبو بكر بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، والآخر هو عون الأصغر، وهو أيضاً ابن عبد الله بن جعفر، وأخو عون الأكبر الذي استشهد في كربلاء، وأمه جمانة بنت المسيب بن نجيّة الذي خرج على ابن زياد يطلب الثأر للإمام الحسين عليه السلام فقتل في عين الوردة.

يقول المسعودي: إن جعفر بن محمد بن علي بن أبي طالب عليه السلام استشهد أيضاً في وقعة الحرة، كما استشهدت كوكبة من بني هاشم من غير آل أبي طالب، كالفضل بن العباس بن ربيعة بن الحارث بن

عبد المطلب، والحمزة بن عبد الله بن نوفل بن الحارث، والعباس بن عتبة بن أبي لهب، وغيرهم من سائر قريش والأنصار، وجماعة آخرين من المعروفين، وقد بلغ قتلاهم أربعة آلاف، وذلك غير من لم يعرف من القتلى.

ثم إن مسرف بن عقبة أطلق يد التعدّي على أعراض الناس وأموالهم، كما أباح لجنده أموال ونساء أهل المدينة ثلاثة أيام كاملة، ينهبون ما تصل إليه أيديهم من المال، ويغتصبون ما شاؤوا من النساء والعذارى!.

لا شكّ أن جند الشام لا دين لهم، فبحكم القاعدة: «الناس على دين ملوكهم».. فهم لم يعرفوا شريعة غير شريعة يزيد، فانطلقوا يستبيحون أموال المسلمين وأعراضهم، وأباحوا لأنفسهم ألوان الفسق والفساد والزنى، حتى روي أنهم ارتكبوا الزنى في مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم!!.

ويروي المدائني أن ألف امرأة ممن لا أزواج لهنّ وضعن بعد وقعة الحرة أبناء زنى فأسمينهم «أولاد الحرّة»، وعلى قول آخر: عشرة آلاف امرأة، وفي «أخبار الدول» للقرماني أن ألف بنت باكر قد جرى اغتصابهن!!.

ونقل شيخنا المحدث النوري طاب ثراه في كتاب «كشف الأستار» عن تاريخ عبد الملك العصامي ما هذا لفظه:

«إن رجلاً من أهل الشام وقع على امرأة في مسجد النبي صلى الله عليه وآله وسلم في واقعة الحرة..» الخ. فسبحان من أمهلهم ولم يهلكهم بصاعقة من السماء، أو بحجارة من سجّيل، وإنما يعجل من يخاف الفوت.

قلت: وذكر الشيخ سليمان النقشبندي في «ينابيع المودّة» ما لفظه:

وأخيف أهل المدينة أياماً، فلم يمكن لأحد أن يدخل المسجد، حتى دخله الكلاب وبالت على منبره! تصديقاً لما أخبر به النبي صلى الله عليه وآله وسلم. (انتهى موضع الحاجة). ونقل نحوه ابن حجر بزيادة الذئاب بعد الكلاب.

وإجمالاً.. فما إن استكمل مسرف أعمال القتل والزنى حتى أخذ من الناس البيعة ليزيد، على أن يكونوا عبيداً له وخولاً، ومن أبى قتل، فأقرّ أهل

المدينة كلهم بالعبودية ليزيد خوفاً، وبايعوا على هذا الأساس، إلا الإمام زين العابدين عليه السلام، وعلي بن عبد الله بن عباس، أمّا لماذا لم يتعرّض مسرف لعلي بن الحسين عليه السلام وعلي بن عبد الله بن عباس فذلك لأن أقارب علي بن عبد الله لأمّه كانوا في عداد جند مسرف، فحالوا دونه وذلك، أما السجّاد عليه السلام فقد لاذ بقبر جده، وأوثق نفسه إلى القبر، وقرأ هذا الدعاء.

«اللهم ربّ السماوات السبع وما أظللن، والأرضين السبع وما أقللن، ربّ العرش العظيم، ربّ محمد وآله الطاهرين، أعوذ بك من شرّه، وأدرأ بك في نحره، أسألك أن تؤتيني خيره. وتكفيني شرّه».

ثم توجه عليه السلام نحو ابن عقبة، وقبل أن يبلغ مكانه كان اللعين يتميّز حنقاً وغضباً، ويرمي الإمام وآباءه الكرام بأبشع الأقوال، فما إن بلغ الإمام عليه السلام مجلسه ووقع نظر مسرف عليه حتى وقع في قلبه الرعب منه، وأخذته الرعدة، ولم يملك إلا أن وقف وأوسع له مكاناً إلى جانبه، وراح بكل خضوع يعرض عليه أن يطلب منه حاجاته، فكل حاجة له مقضيّة، وهكذا فكل من شفع له عليه السلام عند مسرف تجاوز عنه، وفارقه عليه السلام معزّزاً مكرّماً.

وإجمالاً فهذه القصة قد أوردها السنّة والشيعة في كتبهم، وكان وقوعها في شهر ذي الحجة من سنة ثلاث وستين من الهجرة، وذلك قبل هلاك يزيد بثلاثة شهور(١).

---

(١) ذكر ابن قتيبة واقعة الحرة في كتاب «الإمامة والسياسة» ومما ذكر فيه قال: «.. وأول دور انتهبت ـ والحرب قائمة ـ دور بني عبد الأشهل، فما تركوا في المنازل من أثاث ولا حلي، ولا فراش إلا نقض صوفه، حتى الحمام والدجاج كانوا يذبحونها.

فدخلوا دار محمد بن مسلمة، فصاح النساء، فأقبل زيد بن محمد بن مسلمة إلى الصوت، فوجد عشرة ينهبون، فقاتلهم ومعه رجلان من أهله، حتى قتل الشاميون جميعاً، وخلصوا ما أخذ منهم، فألقوا متاعهم في بئر لا ماء فيها، وألقي عليها التراب. ثم أقبل نفر من أهل الشام =

ولما انتهى مسرف بن عقبة من عمله بالمدينة وعزم على الارتحال إلى مكة لمواجهة عبد الله بن الزبير وأهل مكة بأمر من يزيد، وعبد الله بن الزبير

= فقاتلوهم أيضاً، حتى قتل زيد بن محمد أربعة عشر رجلاً، فضربه بالسيف منهم أربعة . .

ولزم أبو سعيد الخدري بيته، فدخل عليه نفر من أهل الشام فقالوا: أيها الشيخ من أنت؟ فقال: أبو سعيد الخدري صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقالوا: ما زلنا نسمع عنك، فحظّك أخذت في تركك قتالنا، وكفك عنا، ولزوم بيتك، ولكن أخرج إلينا ما عندك! قال: والله ما عندي مال، فنتفوا لحيته، وضربوه ضربات، ثم أخذوا كل ما وجدوه في بيته حتى الثوم، وحتى زوج حمام كان له.

وكان جابر بن عبد الله يومئذٍ قد ذهب بصره، فجعل يمشي في بعض أزقة المدينة وهو يقول: تعس من أخاف الله ورسوله، فقال له رجل: ومن أخاف الله ورسوله؟ فقال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: **«من أخاف المدينة فقد أخاف ما بين جنبي»**. فحمل عليه رجل بالسيف ليقتله، فترامى عليه مروان فأجاره، وأمر أن يدخل منزله، ويغلق عليه بابه.

ثم ذكر قتل جماعة من الأشراف صبراً، إلى أن قال: فبلغ عدة قتلى الحرة يومئذٍ من قريش والأنصار والمهاجرين من وجوه الناس ألفاً وسبعمئة، وسائرهم من الناس عشرة آلاف سوى النساء والصبيان.

قال أبو معشر: دخل رجل من أهل الشام على امرأة نفساء من نساء الأنصار ومعها صبي لها، فقال لها: هل من مال قالت: لا والله ما تركوا لي شيئاً، فقال: والله لتخرجنّ إليّ شيئاً أو لأقتلنك وصبيّك هذا، فقالت له: ويحك! إنه ابن أبي كبشة الأنصاري صاحب رسول الله، ولقد بايعت رسول الله معه بيعة الشجرة على أن لا أزني ولا أسرف ولا أقتل ولدي، ولا آتي ببهتان أفتريه، فما أتيت شيئاً، فاتّق الله، ثم قالت لابنها: يا بني، والله لو كان عندي شيء لافتديتك به! قال: فأخذ برجل الصبي والثدي في فمه، فجذبه من حجرها فضرب به الحائط، فانتثر دماغه في الأرض!! قال: فلم يخرج من البيت حتى اسودّ نصف وجهه، وصار مثلاً.

وقال في ذكر موت مسلم بن عقبة: إنه ارتحل عن المدينة يريد مكة وهو يجود بنفسه، فمات فدفن في ثنيّة المثلل، فلما تفرق القوم عنه أتته أم ولد ليزيد بن عبد الله بن زمعة، وكانت من وراء العسكر ترقب موته، فنبشت عنه، فلما انتهت إلى لحده وجدت أسود من الأساود منطوياً على رقبته فاتحاً فاه، فتهيبته، ثم لم تزل به حتى تنحّى لها عنه، فصلبته على المثلل.

قلت: ويزيد بن عبد الله المذكور هو الذي قتله مسلم بن عقبة لعنه الله بأن ركضه برجله ورماه من فوق السرير فقتله، وكان يزيد بن عبد الله جدّته أمّ سلمة زوج النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وكان ابن بنتها جاء به عمرو بن عثمان بعد أن أخذه من أمّ سلمة بعهد وميثاق أن يردّه إليها. وحكى في موضع آخر أن أم ولد يزيد بن عبد الله لما نبشت قبر مسلم بن عقبة أحرقت عليه النار، وأخذت أكفانه فشقّتها وعلقتها بالشجرة، فكل من مرّ عليه يرميه بالحجارة (منه رضي الله عنه).

من الأشخاص الذين لم يطأطئوا الرأس لبيعة يزيد بعد موت معاوية، واختار ملازمة الكعبة، وبايعه الناس، فلما توجّه مسرف نحو مكة وافاه الأجل، وهوى إلى دركات الجحيم في الموضع المعروف بالقديد.

وكان مسلم بن عقبة ليزيد، وما عمل بالمدينة في واقعة الحرة، كما كان بسر بن أرطأة لمعاوية، وما عمل بالحجاز واليمن. . «من أشبه أباه فما ظلم»:

نبني كما كانت أوائلنا تبني ونفعل مثل ما فعلوا

تسلّم الحصين بن نمير إمارة الجند، وقصد بجيشه مكة، فضرب حولها الحصار، ولجأ عبد الله بن الزبير والمختار بن أبي عبيدة، مع جمع آخر ممّن كانوا قد بايعوا عبد الله بن الزبير. . لجأوا إلى بيت الله فاتخذوه ملاذاً، أما جند الشام فقد اعتلوا شعاب مكة المشرفة على البيوت والمسجد الحرام، ونصبوا هناك المنجنيق، ثم راحوا يصبّون وابلاً من الحجارة على مكة وبيوتها ومسجدها، إضافة إلى قذفها بالخرق والكتان الملوّث بالنفط المشتعل حتى أحرقوا الكعبة المشرفة، وهدموا بنيانها، ودكّوا جدرانها فوق بعضها، كما احترق قرنا الكبش المعلقان في سقفها، والذي كان سيق فداء لإسماعيل عليه السلام، وفي هذا يقول أبو حرة المديني:

ابن نمير بئس ما تولّى قد أحرق المقام والمصلّى

كانت بداية هذه الواقعة يوم السبت الثالث عشر من ربيع الأول سنة أربع وستين، قبل موت يزيد بأحد عشر يوماً، وإجمالاً فتحت وطأة الصخور والنار والسيف وسائر التعديات التي نزلت بأهل مكة من جيش الشام فقد اشتدّ الأمر عليهم، إلى أن عاجل الله عزّ وجلّ يزيد فلم يمهله وألحقه بجهنّم، وبلغ خبر موته مكة، فنفض الحصين بن نمير يديه من الحرب عن طريق مهادنة ابن الزبير، وتوجه نحو الشام بجيشه، فأراح أهل مكة من بلائه.

وجاء في «أخبار الدول» أن يزيد أصيب في شهر ربيع الأول سنة أربع وستين بداء ذات الجنب وهلك في حوران، فحملت جنازته إلى دمشق حيث جرى دفنه في مقبرة الباب الصغير، وها هو قبره وقد تحوّل إلى مزبلة، وكان

قد بلغ من العمر سبعاً وثلاثين سنة، بعد أن استمر حكمه ثلاث سنين وتسعة شهور.

جواز لعن يزيد والرد على مخالفة ذلك

تذييل وتعليق: اعلم أن في جواز لعن يزيد خلافاً بين علماء أهل السنّة، فأحمد بن حنبل ومعه جمع كبير أجازوا لعنه، علاوة على أن ابن الجوزي ألّف في هذا الباب كتاباً أسماه كتاب «الردّ على المتعصّب العنيد المانع عن لعن يزيد»، مع أنه كان من اللائق أن لا يقع خلاف في أمّة محمد صلى الله عليه وآله وسلم في أن شخصاً يقتل فلذة كبد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ويأسر عياله ويجوب بهم الأطراف والنواحي دون أن يرعى الاحترام الواجب لهم، كأنهم من أسرى الكفار، ويرتكب في حقّهم ما لا يجوز ارتكابه في حق أي مسلم، في أن شخصاً كهذا يستوجب اللعن بطبيعة الحال.

لكن.. ومع كل هذا فالغزالي الذي يتباهى بمتابعته للشريعة، علاوة على ادّعائه الوصول والشهود، واعتباره شخصه منبع العلم والعمل، وأنه وصل إلى أقصى مراتب المنى والأمل.. هذا الغزالي منع لعن يزيد منعاً أكيداً، وحرّمه تحريماً شديداً!! وتبعه على ذلك قوم أتوا بعده، فقصّروا في حق العترة الطاهرة، وحرّموا لعن يزيد.

وعبارة الغزالي في هذا المقام مسطورة في كتاب «آفات اللسان» من المجلد الثالث «إحياء العلوم»، وفي «تاريخ ابن خلكان» في ترجمة علي بن محمد الطبري المشهور بـ «الكياء» وفي «حياة الحيوان» للدميري في لفظة «فهد» وغيرها.

وخلاصة كلامه في الجواب لسائل عن لعن يزيد، وعن صحّة قتل سيد الشهداء عليه السلام على يديه، وعن جواز الترحّم عليه، يقول:

إن لعن المسلمين غير جائز، ويزيد مسلم!! وإن نسبة القتل، أو الأمر أو الرضى بقتل الحسين عليه السلام إليه يعدّ من سوء الظن بالمسلمين، وهذا

بحكم الكتاب والسنة حرام! وكل من يتوهّم صحة هذه النسبة إليه إنما هو في غاية الحمق! فماذا لو أنّ سلطاناً أو أميراً أو وزيراً يقتل شخصاً في هذا الزمن، فإن الوقوع على حقيقة أنه القاتل أو الآمر أو الراضي غير مقدور، ولو كان ذلك السلطان قريباً منه ويشاهده بوضوح، فكيف إذا كان الزمان بعيداً والمكان شاسعاً، وقد مضى على الحدث ما يقرب من أربعمئة سنة؟ فهذا أمر لا يمكن العلم بحقيقته أبداً، ومع عدم العلم ينبغي إحسان الظن بأهل الإسلام!.

وعلى فرض أنه ثبت على مسلم قتل مسلم فهذا عند «الأشاعرة» لا يوجب الكفر، وكان من الممكن أن يموت القاتل بعد التوبة، ولعن الكافر بعد التوبة غير جائز، فكيف بالقاتل، وكيف نعلم أن يزيد لم يتب؟ فلعن أي مسلم إذاً غير جائز، وكل من يلعنه فهو فاسق مرتكب للمعصية، ولو كان لعنه جائزاً أيضاً فأمسك عن لعنه، فلن يحسب في عداد العصاة، ولو أن شخصاً أمسك عن لعن إبليس على مدار أيام حياته فلن تترتب عليه أيّ مسؤولية، فإذا لعن فإنّ سؤالاً يطرح نفسه: من هو الملعون البعيد عن الرحمة الإلهية؟ ومن أين يعلم أنه بعيد؟ والإخبار به إنما هو تعرض لأخبار الغيب، إلا إن كان في حق شخص مات على الكفر، وأمّا الترحّم على يزيد فجائز، بل هو مستحب، علاوة على أنه داخل في عموم: **«اللهم اغفر للمؤمنين والمؤمنات»** الذي نقرأه في كل صلاة، ويزيد كان مؤمناً!!.

هذه كانت حصيلة تحقيق الغزالي، وإنها، والحقّ، لكبيرة وثقيلة على المسلم الموالي لأهل البيت أن يدّعي شخص إيمان يزيد، ذاك الذي قتل أولاد النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وطاف بنسائه وبناته على الجمال العارية من مدينة إلى مدينة، ومن بيداء إلى بيداء، كأنهنّ أسرى الترك أو الديلم، يشهَّر بهنّ في الآفاق، ويشار إليهنّ بالبنان، في العراق والشام والحجاز، ويعلّق رأس ابن النبي أمام الملأ على باب دار حيناً، أو يضعه في طست ويشرب عليه الخمرة حيناً آخر، ويريق عليه ما فضل منها معلناً بهجته وسروره، أو ينكث شفتيه وثناياه بقضيب من خيزران استهزاء به وتوهيناً له، إنها لأعظم المصائب عند الإنسان الغيور!!.

والعجب العجاب كلّه، الزعم بأن امرأً هذه فعاله هو امرؤ مؤمن، وأنّ الدعاء له مستحبّ! وإن تعجب فأعجب من «الغزالي» الذي يعدّه علماء السنّة جميعاً حجّة الإسلام، إذ يعتبر يزيد مؤمناً ويعتبر لعنه حراماً! وفي حال كان إسلام يزيد أول الكلام، فما بال أقواله وأفعاله ينطق كلّ منها بكفره، مع انتفاء أي سبب لانتقاله إلى الإسلام؟!.

أما دلالة أقواله فأوضح من أن تذكر، فمن يرجع إلى كلامه وأشعاره يجد هذا الأمر واضحاً بيّناً، وليس هذا الموجز مقاماً لبسطها، ولكن من باب المثال تحسن الإشارة إلى بعضها، فمن جملة أشعاره الدالّة على كفره وزندقته شعره المعروف في وصف الخمرة إذ يقول:

شميسة كرم برجها قعر دنّها ... ومشرقها الساقي، ومغربها فمي!
فإن حَرُمت يوماً على دين أحمدٍ ... فخذها على دين المسيح ابن مريم!!

قال جماعة من المؤرخين: إنّه بعد إحضار أهل البيت إلى مجلس ذلك الميشوم راح يتمثّل بهذه الأبيات التي هي سجلّ ناطق على كفره:

لعبت هاشم بالملك فلا ... خبر جاء ولا وحي نزل!
لست من خندف إن لم أنتقم ... من بني أحمد ما كان فعل!
ليت أشياخي ببدرٍ شهدوا ... جزع الخزرج من وقع الأسل
لأهلّوا واستهلّوا فرحاً ... ثمّ قالوا يا يزيد لا تشل!

كذلك ينقل عن ديوانه، ويشهد به السبط بن الجوزي، وهو معروف في كتب المقاتل: أنه بعد وصول أهل البيت إلى الشام وإشراف ركبهم على محلّة «جيرون» وهي مجاز في الجامع الأموي، أنشدَ هذين البيتين اللذين ينطقان بكفره القديم ونفاقه العتيق:

لمّا بدت تلك الحمول وأشرقت ... تلك الشموس على ربى جيرون
نعب الغراب، فقلت نُح أو لا تنُح ... فلقد قضيت من النبي ديوني!!

وعنه أيضاً:

معشر الندمان قوموا ... واسمعوا صوت الأغاني

واشـــــربـــــوا كـــــأس مـــــدام   واتـــركـــوا ذكـــر الـــمـــعـــانـــي
شغلتني نعمة العيدان عن صوت الأذان
وتـــعـــوّضـــت عـــن الـــحـــور   عـــجـــوزاً فـــي الـــدنـــان
إلى غير ذلك. . .

وأما دلالة أفعاله على كفره: فيكفي قتله سيّد الشهداء عليه السلام، ريحانة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وسيّد شباب أهل الجنة، ومحبوب حبيب الله، علاوة على ما فعله من استخفاف بالعترة الطاهرة، بعد قتله فلذة كبد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: من نهبٍ وأسرٍ وسوقٍ إلى الديار، **«وليس معهنّ من حماتهنّ حميّ، ولا من وُلاتهنّ وليّ، يتصفّح وجوههنّ القريب والبعيد، والشريف والوضيع»**!!.

يقول ابن الجوزي في رسالته: «الردّ على المتعصّب العنيد»:

«ليس العجب من فعل عمر بن سعد، وعبيد الله بن زياد، وإنما العجب من خذلان يزيد، وضربه بالقضيب على ثنيّة الحسين عليه السلام، وإغارته على المدينة! أفيجوز أن يفعل هذا بالخوارج؟ أوَ ليس في الشرع أنهم يدفنون؟ أما قوله: لي أن أسبيهم، فأمر لا يقنع، لفاعله ومعتقده اللعنة. ولو أنّه احترم الرأس حين وصوله، وصلّى عليه، ولم يتركه في طست، ولم يضربه بقضيب.. ما الذي كان يضرّه، وقد حصل مقصوده من القتل؟ ولكن.. أحقاد جاهليّة، ودليلها ما تقدّم من إنشاده: «ليت أشياخي ببدرٍ شهدوا»!.

ودليل آخر على كفره: واقعة الحرّة، وانتهاك حرمة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. أضف إلى ذلك هتكه للكعبة المعظمة، كما سبق وأشرنا.

وقد روي أنه بعد شهادة سيّد الشهداء عليه السلام كتب ابن عباس إلى يزيد كتاباً جاء في إحدى فقراته:

«وإنّ من أعظم الشماتة حملك بنات رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأطفاله وحرمه من العراق إلى الشام أسارى مجلوبين مسلوبين، تُري

الناس قدرتك علينا، وأنك قهرتنا واستوليت على آل رسول الله، وفي ظنّك أنك أخذت بثأر أهلك الكفرة الفجرة يوم بدر، وأظهرت الانتقام الذي كنت تخفيه»؟! إلخ. . .

ويقول المسعودي في «مروج الذهب»: إن فرعون كان في رعيته أعدل من يزيد، وصار حكمه عبئاً كبيراً على الإسلام.

وقال أبو العلاء المعرّي:

أرى الأيام تفعل كل نكر ... وما أنا في العجائب مستزيد
أليس قريشكم قتلت حسيناً ... وكان على خلافتكم يزيد؟!

وإجمالاً فإن الكلام عن كفر يزيد وزندقته وإلحاده، إلى أشعاره الناضحة بالكفر، ولعن أبي الفرج الجوزي له على منبر بغداد قد فاضت بها الكتب، كما أن لفيفاً من أهل السنّة والجماعة أيضاً يعتقدون بكفره:

ففي «الصواعق» عن ابن حجر: إن أهل السنّة اختلفوا في كفر يزيد، فراحت طائفة إلى القول بكفره بسبب قول السبط بن الجوزي لا غيره، إذ قالوا: المشهور أنه لما أحضروا الرأس المبارك جمع أهل الشام وراح يضربه بقضيب الخيزران ويقرأ هذه الأبيات: «ليت أشياخي» الخ. .

ثم إنه نقل قول ابن الجوزي الذي نقلناه عن كتاب «تذكرة السبط»، وإن مذهب مجاهد والإمام أحمد والملاّ علي القاري هي أيضاً على كفر يزيد، وسيأتي ذكر أقوال التفتازاني عما قريب إن شاء الله تعالى، وإجمالاً فهذا المذهب ليس من بدع الرافضة!.

وأمّا أن يعتبر الغزالي نسبة قتل الإمام الحسين عليه السلام إلى يزيد، أو أمره بالقتل، أو رضاه به من سوء الظن فقد ذكر أمراً بالغ العجب، وهذا الملاّ سعد التفتازاني الذي ملأ صيت فضله أسماع العالمين قد كفانا مؤنة الرد عليه، فقال في «شرح العقائد النسفيّة»:

«الحق أن رضى يزيد بقتل الحسين عليه السلام واستبشاره بذلك، وإهانة

أهل بيت رسول الله ممّا تواتر معناه، وإن كان تفصيله آحاداً، فنحن لا نتوقف في شأنه، بل «عدم ط» في إيمانه؛ لعنة الله عليه وعلى أنصاره وأعوانه».

ويقول أيضاً في «شرح المقاصد»:

«ما وقع بين الصحابة من المحاربات والمشاجرات على الوجه المسطور في كتب التواريخ، والمذكور على ألسنة الثقات يدل بظاهره على أن بعضهم قد حاد عن طريق الحق، وبلغ حدّ الظلم والفسق، وكان الباعث له الحقد والعناد والفساد والحسد واللداد، وطلب الملك والرياسة، والميل إلى اللذات والشهوات، إذ ليس كل صحابي معصوماً، ولا كلّ من لقي النبي بالخير موسوماً، إلا أن العلماء ـ لحسن ظنهم بأصحاب رسول الله ـ ذكروا لها محامل وتأويلات بها تليق، وذهبوا إلى أنهم محفوظون عما يوجب التضليل والتفسيق، صوناً لعقائد المسلمين عن الزيغ والضلالة في حق كبار الصحابة، سيّما المهاجرين منهم والأنصار، والمبشَّرين بالثواب في دار القرار.

وأما ما جرى بعدهم من الظلم على أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم فمن الظهور بحيث لا مجال للإخفاء، ومن الشناعة بحيث لا اشتباه على الآراء، إذ يكاد يشهد به الجماد والعجماء، ويبكي له من في الأرض والسماء، وينهدّ منه الجبال وتنشقّ الصخور. ويبقى سوء عمله على كرّ الشهور ومرّ الدهور، فلعنة الله على من باشر أو رضي أو سعى، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى.

فإن قيل: فمن علماء المذهب من لا يجوّز اللعن على يزيد، مع علمهم بأنه يستحقّ ما يربو على ذلك ويزيد.

قلنا: تحامياً عن أن يرتقي إلى الأعلى، فالأعلى كما هو شعار الروافض على ما يروى في أدعيتهم، وتجري في أنديتهم، فرأى المعتنون بأمر الدين إلجام العوامّ بالكليّة طريقاً إلى الاقتصاد في الاعتقاد، بحيث لا تزلّ الأقدام عن السواء، ولا تضلّ الأفهام بالأهواء، وإلا فمن يخفى عليه الجواز والاستحقاق؟! وكيف لا يقع عليها الاتفاق»؟!.. إلى آخر ما قال.

من هذا الكلام اتّضح أن هذا العلاّمة العظيم الشأن عند أهل السنّة قد اعترف بظهور الفسق والظلم الناشئين عن حقد الصحابة وعنادهم، وبأن ما جرى من ظلم على أهل البيت بلغ حدّاً شهدت به الجمادات والحيوانات، وأبكى سكان السماء والأرض، وأن علماء السنّة متفقون على لعن يزيد، وجاء المنع بحجّة أن لا يسري اللعن فيتعدّى يزيد إلى سائر الآخرين.

وأما ما قاله الغزالي من أنه كيف يُعلم أن يزيد لم يتب؟ فجوابه هو أن ما ظهر من إصراره على إهانته أهل البيت بعد قتلهم، واستبشاره بذلك، ثم جلوسه مجلس الشراب مع ابن زياد، وأمره للساقي بأن يزيده شراباً، ومدحه إيّاه ونعته بالأمين وصاحب السرّ، كما في ما تقدّم من أشعار، ليكفي في إثبات المراد.

وقد نقل السبط بن الجوزي شرح هذا الأمر وتفصيله على الوجه الآتي:

بعد قتله الإمام الحسين عليه السلام بعث يزيد في طلب ابن زياد، وقدم له أموالاً وفيرة وتحفاً عظيمة، وأدنى مجلسه، ورفع من مكانته ومنزلته، وأدخله على نسائه، وجعله نديماً له، وقد سكر ذات ليلة فأمر المغني أن يغني تلك الأبيات التي أنشدها يزيد على البديهة:

اسقني شربة تروي مشاشي ثمّ صل.. فاسق مثلها ابن زياد
صاحب السر والأمانة عندي ولتسديد مغنمي وجهادي
قاتل الخارجيّ.. أعني حسيناً ومبيد الأعداء والحسّاد

وعن «الفتاوى الكبيرة» وهو من الأصول المعتمدة عند أهل السنّة، روي:

«اكتحل يزيد يوم عاشوراء بدم الحسين عليه السلام وبالإثمد ليقرّ عينيه»!.

هذا إضافة إلى أنّه لم تُنقل عنه توبة، بينما حكم كفره ثابت حتى يقوم دليل على خلافه، وليس لدينا دليل على وجوب قبول توبة كلّ عاص، ذلك أن وجوب قبول التوبة ليس عقلياً بل هو بموجب وعد، ولا يوجد مثل هذا الوعد في حق يزيد.

ولقد أجاد ابن الجوزي حيث قال:

«وأنين العباس وهو مأسور ببدر منع النبي النوم، فكيف بأنين الحسين عليه السلام؟! ولمّا أسلم وحشي قاتل حمزة قال له النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «غيّب وجهك.. فإني لا أحب أن أرى من قتل الأحبة». وهذا الإسلام يجبّ ما قبله، فكيف بقلبه أن يرى من ذبح الحسين عليه السلام، وأمر بقتله، وحمل أهله على أقتاب الجمال»؟! انتهى.

من هو المسلم الذي يرضى ـ على فرض المحال بأن يزيد تاب ـ أن يغفر له ربّه في حين أن حقّ كل مسلم في هذه الواقعة ثابت عليه، ولو على فرض نفعِ مسقطِ حقَّ الله فليس مسقطاً لحق الناس؟!.

وأما ما قاله الغزالي من أن لعن أيّ مسلم غير جائز فهذا محض باطل، ذلك أن الله تعالى لعن في القرآن الكريم طوائف تندرج تحت عناوين جميعها ينطبق على يزيد، ويتضح منها جواز لعنه، علاوة على الآية الشريفة: **«والشجرة الملعونة في القرآن»** التي تجوّز لعن جميع بني أمية، كما سيأتي تحقيقها لاحقاً إن شاء الله تعالى، ونكتفي هنا بذكر ثلاث آيات شريفة:

الآية الأولى: ـ «ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها، وغضب الله عليه ولعنه، وأعدّ له عذاباً عظيماً».

الآية الثانية: ـ «فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطّعوا أرحامكم، أولئك الذين لعنهم الله فأصمّهم وأعمى أبصارهم».

روى ابن الجوزي عن صالح بن أحمد بن حنبل أنه قال: قلت لأبي: إن قوماً ينسبون إليّ موالاة يزيد، قال أبي: يا بني.. وهل يحب المؤمن يزيد؟ قلت: لماذا لا تلعنه؟ قال: ومتى رأيتني ألعن شيئاً؟ ألا تلعن شخصاً لعنه الله تعالى في كتابه؟ قلت: وأين لعنه في القرآن؟ فتلا أبي هذه الآية المباركة: «فهل عسيتم» الآية.. حينئذٍ قلت: وهل من فساد أعظم من القتل؟!.

الآية الثالثة: ـ «إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة، وأعدّ لهم عذاباً مهيناً».

إن تطبيق العناوين التي تشتمل عليها هذه الآيات على يزيد لا يحتاج إلى بيان، وعلاوة على هذه الآيات الشريفة فإن لعنه في أقوال الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ثابت أيضاً، كما روى ابن الجوزي عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «**من أخاف أهل المدينة أخافه الله، وعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه يوم القيامة صرفاً ولا عدلاً**». ويزيد أخاف أهل المدينة في واقعة الحرة، كما صرح بذلك جمع من العلماء، وقرع سمعك آنفاً.

خلافة معاوية بن يزيد بن معاوية

وعبد الله بن الزبير

لما آذنت حياة يزيد بن معاوية بانقضاء، وذلك في يوم الأربعاء الرابع عشر من ربيع الأول سنة أربع وستين، وغدا رهين أعماله، حلّ ابنه معاوية بن يزيد محله، وامتد حكمه في الشام أربعين يوماً، اعتلى المنبر بعدها وخطب خطبة ذكر فيها أعمال آبائه. . ووفقاً لروايات كامل البهائي فقد استنزل اللعنات على جده وأبيه، وتبرأ من أفعالهما، وراح يبكي بكاءً شديداً، ثم خلع نفسه من الخلافة. .

إذ ذاك وقف مروان بن الحكم عند أدنى درجات المنبر وقال: أما والحال كذلك، وأنت عازف عن الخلافة، فاجعل أمرها شورى كما صنع عمر بن الخطاب يا أبا ليلى! و «أبو ليلى» كنية كانت تطلق على مستضعفي العرب!.

قال معاوية مجيباً: أنا لم أتذوق حلاوة الخلافة. . فكيف أرضى بتذوق مرارتها وحقارتها؟! وعلى قول: إن معاوية أفضى بهذا الكلام عند موته، وذلك حين طلب منه بنو أمية تعيين خلف له.

ثم إن معاوية نزل عن المنبر ولزم بيته، وانصرف إلى البكاء. دنت منه أمه وقالت: أي بني. . ليتني كنت خرقة حيض ولم أسمع كلماتك المنبريّة تلك! وعلى قول: ليتك كنت دم حيض فلم تأت إلى الوجود كي لا أرى منك يوماً كيومك هذا! فقال لها: أي أم. . لكم والله كنت أحب لو كنت كذلك، إذاً فلم أتقلّد هذا الأمر، فهل أحمل وزر هذا العمل ووباله ويفوز بنو أميّة بحلاوته؟ لا، فهذا لن يكون.

وكان سبب خلع معاوية لنفسه من الخلافة كما ذكر الشيخ أحمد بن فهد الحلي رحمه الله، أن معاوية سمع يوماً جاريتين من جواريه تتنازعان، وكانت إحداهما في الغاية من الحسن والجمال، قالت لها الأخرى: لقد جعلك جمالك تتكبرين تكبّر السلاطين! فأجابتها ضاحكة باشّة: وأي سلطان أفضل من سلطان الحسن والجمال؟ بل إن واقع السلطنة فيهما، فالجمال هو الحاكم على جميع الملوك والسلاطين، وجميعهم واقعون في أسره. قالت لها الأخرى: ما الذي في السلطنة من حسن وخير في حين أن السلطان إما أن يقف نفسه لرعاية حقوق السلطنة فينال حمد الرعية وإقبالها عليه، وهو في هذه الحال لن يفوز بلذة أو راحة، فعيشه منغص على الدوام، وإما أن يجري وراء شهواته ويختار ملذاته فيضيع حقوق السلطنة والرعية، وسلطان كهذا مكانه في النار. وإذاً، فليس في مقدور السلطان أن يجمع راحة دنياه وأخراه.

تركت أقوال الجارية أثرها في قلب معاوية، ولهذا السبب أقدم على خلع نفسه من الخلافة، وإجمالاً لمّا فعل ذلك قالت طائفة من بني أمية لعمر بن مقصوص (قوصي خ .ل) مؤدب معاوية: لقد أدّبته على حب علي وبغض الأموية، فقال: لا . . . فالأمر ليس كذلك، إنّما هي جبلّته، لكنهم لم يصغوا إلى قوله، وأمسكوا به ودفنوه حياً، وبعدها لم يلبث معاوية خمسة وعشرين أو أربعين يوماً أن فارق الحياة بدوره، وقال بعضهم: إنه مات من سمّ دُسّ له في شرابه، وكان له إذ ذاك من العمر اثنتان وعشرون سنة، ثم إن الوليد بن عتبة بن أبي سفيان قام ليصلّي عليه، وكان طامعاً بالخلافة، فلما بلغ التكبيرة الثانية وجّهت إليه طعنة ألحقته بمعاوية، فصلى عليه شخص آخر ودفن بدمشق، وبموته انقرضت دولة آل أبي سفيان وانتقل الحكم إلى مروان وآله.

حكم عبد الله بن الزبير:

لما تسنّم يزيد بن معاوية سدّة الحكم امتنع بضعة نفر عن بيعته ومن جملتهم عبد الله بن الزبير الذي رفض بيعته وسارع بالخروج إلى مكة. فلما فرغ يزيد من وقعتي الطف والحرة أمر جيشه بالتوجه إلى مكة لصدّه، وفي الأيام التي

كان الفريقان مشتبكين في القتال هلك يزيد إلى دركات الجحيم وأضحى ابن الزبير في مكة دون مزاحم، فدعا لنفسه بالخلافة، فبايعه جماعة من الناس واستتبت له أمور الخلافة، فشرع بإقامة بناء لبيت الله، وإذ ذاك شهد سبعون شخصاً من الشيوخ أن قريشاً عندما قامت ببناء هذا البيت تراجعت بمقدار سبع أذرع عن المساحة الأصلية التي أقام إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام البناء عليها، وذلك نظراً لعدم كفاية المال يومئذٍ، فأمر ابن الزبير بإضافة هذه الأذرع المهدورة إلى البناء، وجعل للبيت بابين أحدهما للدخول والآخر للخروج، واستمرت هذه الحال إلى أن قام الحجاج بأمر من عبد الملك بن مروان بالقضاء على ابن الزبير وقتله، ثم انبرى إلى ما بناه ابن الزبير فأمر بهدمه، وإعادة البيت إلى الوضع الذي أقامته قريش عليه، وكما كان قد بني في عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، كما جعلوا للبيت باباً واحداً.

وليعلم أيضاً أنه حين هلك يزيد ومعاوية بن يزيد كان ابن زياد أميراً على البصرة، فجمع الناس وخطب فيهم، ونقل إليهم خبر موت يزيد ومعاوية ابنه، ثم قال: اختاروا أميراً عليكم وبايعوه، أميراً يجاهد عدوّكم، وينصف مظلومكم، ويقسم بينكم أموالكم، فقال جماعة من أشراف البصرة من جملتهم الأحنف بن قيس، وقيس بن الهيثم، ومسمع بن مالك العبدي: لا نرى غيرك جديراً بهذا، فكن الآن أميرنا حتى يختار الناس خليفة لهم، فلما رأى عبيد الله ذلك كتب إلى عمرو بن حريث عامله على الكوفة أن ادع الناس في الكوفة إلى طاعتي. فلما دعاهم إلى بيعة ابن زياد قام يزيد بن رزيم الشيباني وقال: لا حاجة لنا بإمارة بني أمية وابن مرجانة، ولن تكون البيعة سوى لأهل الحجاز، وقد مال البعض إلى بيعة عمر بن سعد، لكن نساء همدان مع نساء كهلان والأنصار وربيعة ونخع رحن يصحن ويبكين في المسجد الجامع، ويندبن الحسين عليه السلام ويقلن: ألم يكف عمر بن سعد قتله سيد الشهداء عليه السلام حتى يأتي الآن ويتأمّر علينا؟! وبكى الرجال لبكائهن، ولهذا لم تتمّ البيعة لابن سعد.

ولما وصلت أخبار الكوفة إلى عبد الله بن الزبير طمع في تسخير الكوفة

لتحقيق أغراضه، فبعث عبد الله بن مطيع العدوي عاملاً له على الكوفة، فقال المختار لابن الزبير: إني أعرف جماعة في الكوفة لو نصبت لهم أميراً ذا رفق وعلم لاجتمع لك منهم جيش عظيم يمكّنك من التغلب على أهل الشام، قال: فمن هم؟ قال: شيعة بني هاشم، قال: فقد اخترتك لهذا الأمر.

وهكذا قدم المختار إلى الكوفة ونزل في ناحية منها، وراح يدأب على رثاء الطالبيين وشيعتهم، ويظهر الجزع والتألّم عليهم، ويحرّض الناس على الثأر من قتلة أهل البيت، فالتفّ الشيعة حوله، وقويت شوكته حتى احتلّ قصر الإمارة وطرد عبد الله بن مطيع عامل ابن الزبير، وتمّت له الغلبة على الكوفة، فبنى لنفسه بيتاً وبستاناً، ثم راح يوزّع أموال بيت المال على الناس، ثم إنه خلع طاعة ابن الزبير عن عنقه، وشيئاً فشيئاً علا أمره واشتدّ ساعده بالتفاف أهل الكوفة حوله، فانبرى لقتل قتلة سيد الشهداء عليه السلام حتى قضى على الكثيرين منهم، وكان من جملتهم عبيد الله بن زياد، وعمر بن سعد، والشمر وسنان وغيرهم، عليهم لعائن الله، إلى أن انتهى الأمر بقتله على يدي مصعب بن الزبير أخي عبد الله، كما سيشار لاحقاً إن شاء الله تعالى.

أما عبد الله بن الزبير فراح في مكة يظهر الزهد والتقوى، والحرص الزائد على الخلافة، ودعا نفسه العائذ ببيت الله، ثم راح ينزل الأذى ببني هاشم، ونظراً لأن أخاه عَمرَ بن الزبير كان على خلاف معه فقد أمر بطرحه عند باب المسجد الحرام، ثم قاموا بتجريده من ملابسه، وانهالوا عليه جلداً بالسياط حتى فارق الحياة، وكان عمرو قد خرج مع جيش من أهل المدينة أيام حكم يزيد بن معاوية لقتال أخيه عبد الله، وذلك بتحريض من الوليد بن عقبة، لكن الظفر كان بجانب عبد الله، وتفرّق جيش عمرو عنه، فأمسك به أخوه وقضى عليه كما تقدم.

كما أقدم عبد الله بن الزبير أيضاً على حبس الحسن بن محمد بن الحنفيّة في سجن مظلم موحش، وعزم على قتله، لكن الحسن نجح في تدبير فراره وخلاصه، ثم التحق بأبيه بمنى.

وقام كذلك بحصار من كان في مكة من بني هاشم في شعب، وكان

بينهم محمد بن الحنفية، وجمع حطباً كثيراً وقد عزم على إحراقهم، غير أنّ قوماً بعث بهم المختار من جانب الكوفة لنجدتهم استطاعوا تخليص الهاشميين من الحصار، حتى كادوا يفوزون بعبد الله بن الزبير نفسه لولا أن لجأ إلى المسجد الحرام وتشبّث بأستار الكعبة وهو يقول: «أنا عائذ الله»!.

والمسعودي بعد نقله هذه الحادثة في «مروج الذهب» تحدث نقلاً عن كتاب النوفلي أنه ينقل عن ابن عائشة عن أبيه عن حمّاد بن سلمة أنّ عروة بن الزبير كان يلتمس الأعذار لأخيه في قضيّة بني هاشم وحصاره لهم في شعب مكة، وجمعه الحطب لإحراقهم! وكان يقول: الأمر الذي لا شيء سواه هو أن أخي عبد الله أراد تخويفهم حتى يدخلوا في طاعته، كما خوّفوا بني هاشم وجمعوا الحطب لحرقهم حين امتنعوا عن البيعة أيام السلف، يريد تخلّفهم عن بيعة أبي بكر حين تولّى الخلافة!.

ثم قال المسعودي: هذا خبر ليس هنا مقام ذكره، وقد شرحناه في كتاب «حدائق الأذهان» في مناقب وأخبار أهل البيت عليهم السلام.

وقد انتهج عبد الله بن الزبير طريق العداء لأمير المؤمنين وأهل بيته عليهم السلام، فقد خطب أربعين يوماً وكان في خطبه يتحاشى ذكر الصلوات على النبي صلى الله عليه وآله وسلم، الواجب ذكرها في الخطب، وكان يتعرض في خطبه أحياناً إلى سبّ أمير المؤمنين عليه السلام، وقد عرف عنه لؤم الطباع.

ينقل سعيد بن جبير أن عبد الله بن عباس دخل على ابن الزبير فقال له ابن الزبير: أأنت من ينسبني إلى اللؤم والبخل؟ قال: نعم، قد سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: من شبع وجاره جوعان فقد خرج من الإسلام. قال ابن الزبير: يابن عباس، لقد حملت بغضكم أهلَ البيت في قلبي أربعين سنة! ثم تبودل ما بينهما كلام... خاف ابن عباس إثره على نفسه، فارتحل إلى الطائف وتوفّي هناك.

وسيرد الحديث عن مقتل ابن الزبير في وقائع أيام حكم عبد الملك، ونعود الآن إلى الحديث عن دولة آل الحكم بن أبي العاص.

دولة مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية

ابن عبد شمس بن عبد مناف

لما غابت شمس الخلافة عن آل أبي سفيان بمعاوية بن يزيد. تحوّلت إلى آل الحكم، وكان أول من تسنّم عرش الحكم منهم مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، وكان مروان يعرف بابن الطريد، ويلقّب بالوزغ، واشتهر بـ «خيط الباطل» نظراً لطول قدّه واضطراب قامته، وكان من أشدّ الناس عداوة لله تعالى ولرسوله وآله، وخصوصاً لأمير المؤمنين عليهم جميعاً صلوات الرحمان؛ ذلك أنه كان من أيام عثمان حتى آخر أيام حياته يسعى على الدوام في إخفاء مناقبه عليه السلام، والافتراء عليه بالمثالب، كان أبوه الحكم عمّ عثمان بن عفان، وكان عدوّاً لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، يجهر بعداوته، ويصرّح بشنآنه، وهو طريد رسول الله مع جماعة من أهل بيته.

وسبب طرده ـ على الأشهر ـ أنه كان يقتفي أثر النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الأزقّة ويقوم بحركات غير لائقة، أو يقلّد حركات حضرته باستهزاء وسخرية، فيتمايل من هذا الجانب إلى ذاك! رآه النبي فقال: «فكذلك فلتكن»، فابتلي بمرض الاختلاج على أثر دعوته صلى الله عليه وآله وسلم، وبقي أسيراً لهذا الألم طيلة حياته، فلهذا السبب طرده النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى الطائف. وعن «أصل» أبي سعيد العصفري ينقل حذيفة بن اليمان عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال:

«إذا رأيتم معاوية بن أبي سفيان على المنبر فاضربوه بالسيف، وإذا رأيتم الحكم بن أبي العاص فاقتلوه ولو تحت أستار الكعبة».

وأمّ الحكم هي زرقاء بنت موهب، وينقل عن تاريخ ابن الأثير أنّ زرقاء كانت من ذوات الأعلام، وكانت مشهورة بالزنى.

وإجمالاً فقد بقي مروان مع أبيه الحكم بالطائف حتى ارتحل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى جوار ربه، ونظراً لقرابته من عثمان فقد شفع له عند أبي بكر فلم يقبل شفاعته، ولما انتقل الأمر إلى عمر شفع له ثانية عنده فلم يقبل شفاعته، فلما انتقلت الخلافة إليه وجّه الحكَم ومروان مع جماعتهما إلى المدينة، فأعطى مروان مئة ألف درهم من فيء المسلمين مع خمس إفريقية البالغ ـ وفق ما نقل عن جماعة ـ مئة ألف دينار، وكان كلّ ذلك العطاء في مجلس واحد، كما أقطعه فدكاً، وأعطى خراج سوق المدينة ـ وكان النبي صلى الله عليه وآله وسلم قد جعله صدقة للمسلمين ـ إلى الحارث بن الحكم، كما اختار مروان لوزارته وكتابة سرّه، فابتدع مروان في خلافة عثمان بدعاً غريبة، وأثار فتناً مرعبة وفقاً لأهوائه الباطلة، وكان في عاقبة الأمر السبب في مقتل عثمان.

يعتقد أهل السنّة أن كتابة الرسالة التي تأمر بقتل محمد بن أبي بكر، والممهورة بختم عثمان، والمرسلة مع غلامه الخاص على مركب مخصوص باسم عبد الله بن أبي سرح والي مصر كانت من عمل مروان، ويقولون: إن عثمان كان بريئاً من هذا الأمر الباطل، كما هو مسطور في محله.

وكان مروان في حرب الجمل مع عائشة، وقد سدّد إلى طلحة سهماً فأرداه قتيلاً، ووقع بعد الفتح في الأسر فشفع له الحسنان عند أبيهما عليهم السلام فأطلقه، وقد عرضا عليه أن يأخذ البيعة منه فقال عليه السلام: أو ليس قد بايعني بعد مقتل عثمان؟! لا حاجة لي ببيعته، وكذلك فيده يد يهودي. فاليهود معروفون بالغدر، إنهم إن بايعوا بأيديهم أضمروا الغدر في

قلوبهم، وهو عنوان للحقارة، وقلة القدر مثل كلب يلعق أنفه، ثم قال: «وهو أبو الأكبش الأربعة، وستلقى الأمّة منه ومن ولده يوماً أحمر».

يرى ابن أبي الحديد أن المراد بـ «الأكبش الأربعة» يعود إلى أربعة من أولاده، وكانوا وجوه بنيه: أولهم عبد الملك الذي أحرز الخلافة على الأرض، والثاني عبد العزيز الذي أصبح والياً على مصر، وثالثهم محمد الذي كان والياً على الجزيرة، ورابعهم بشر وكان حاكماً على العراقين، غير أنّ الأظهر أنّها تشير إلى أربعة من أبناء عبد الملك بن مروان والذين أضحوا جميعهم خلفاء.

كان عصر الأمة في عهدهم عصراً أسود، فقد عمّها الفساد والباطل، وهم: الوليد وسليمان ويزيد وهشام، ولم يتّفق لإخوة أربعة سواهم أن تعاقبوا على الخلافة. ومصداق هذا المعنى ما جاء في «أخبار الدول» من أن مروان رأى في ما يراه النائم أنه تبوّل في محراب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أربع مرات، وكان تعبير هذه الرؤيا عند ابن سيرين هو أن أربعة من بنيه يلبسون لبوس الخلافة ويقفون في محراب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وهذا ما وقع، وهم الوليد وسليمان وهشام ويزيد، انتهى.

وإجمالاً فبعد واقعة الجمل التحق مروان بمعاوية، وراح يجدّ ويجهد في بغضاء أمير المؤمنين عليه السلام بحكم خبث نشأته وسوء عقيدته، وبعد ارتحاله عليه السلام قام مروان على حكم المدينة مرتين، ويقول ابن الأثير: كان يصعد على منبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كلّ جمعة، ويروح في محضر المهاجرين والأنصار يشتدّ في سبّ أمير المؤمنين صلوات الله عليه، ولما تسلم يزيد الحكم كان مروان بالمدينة، وكان في وقعة الحرّة يحرّض مسلم بن عقبة على التنكيل بأهل المدينة. وفي أيام معاوية بن يزيد كان بالشام، فلما توفي معاوية وانقرضت بموته دولة آل أبي سفيان، ودخل الناس في بيعة ابن الزبير، مال مروان إلى الدخول في بيعته والذهاب إلى مكة، لكن البعض منعوه بعد أن أطمعوه بالخلافة.

كان مروان يومئذٍ في «الجابية» ما بين الشام والأردن، فقال له عمرو بن سعيد بن العاص المعروف بـ «الأشدق»: إني ضامن لك بيعة الناس شريطة أن أكون أميراً بعدك. . قال مروان: بل تكون الخلافة لك بعد خالد بن يزيد بن معاوية، قبل الأشدق وراح يدعو الناس إلى بيعة مروان.

كان أول من بايعه من الناس أهل الأردن، وقد بايعوه كرهاً خشيةً من حدّ السيف، وتبعهم في ذلك أهل الشام، وبعض من أهل الأمصار والبلدان الأخرى، ثم بعث مروان بعماله إلى البلاد، وتوجه إلى مصر وحاصر أهلها، ثم قاتلهم حتى خلعوا أنفسهم من بيعة ابن الزبير ودخلوا في طاعته، ثم نصب ابنه عبد العزيز والياً عليهم وقفل عائداً إلى الشام.

وفي الشام دعا إليه حسان بن مالك، وكان سيّد قحطان ورئيسها، وحذراً من أن يتمرد حسان من بعده ويطغى طمعاً بالرئاسة راح يأخذه بالترغيب تارة وبالترهيب أخرى حتى أيأسه من أوهامه، واقتلع من نفسه أفكار الطمع بالخلافة والرئاسة. فلما رأى حسّان ذلك قام يخطب الناس ويدعوهم إلى بيعة عبد الملك بن مروان من بعده، وبيعة عبد العزيز بن مروان بعد عبد الملك، فبايع الناس ولم يخالفوه.

لما بلغ هذا الخبر أسماع (فاختة) أمّ خالد بن يزيد، وكانت زوجة لمروان، عزمت على قتله لنكثه عهده لها بأن تكون الخلافة لابنها خالد من بعده، فدسّت سمّاً في اللبن وقدمته لمروان، فلما تجرّعه شلّ لسانه ودخل في دور الاحتضار، وكان عبد الملك مع سائر بنيه عنده، فراح يشير بإصبعه نحو أم خالد، يريد أنها هي التي قتلته، غير أن أم خالد قالت وهي ترمي إلى تمويه الأمر: فداك أبي، لكم أنت تحبني حتى تذكرني عند موتك، وتوصي أولادك بي!!.

وعلى قول آخر: إن مروان كان نائماً فطرحت أم خالد وسادة على وجهه وقعدت مع الجواري فوقه حتى أسلم الروح. وقد جرت هذه الواقعة سنة خمس وستين من الهجرة، وكان مروان في الثالثة والستين من عمره. وقد

حكم تسعة شهور ونيّف، وكان له عشرون من الإخوة وثمان أخوات وأحد عشر ابناً وثلاث بنات.

وقد وردت في كتب الفريقين أخبار في لعنه، وهناك رواية في مجموعة من كتب أهل السنّة بهذا المضمون: وهو أن عائشة قالت لمروان: إنّي أشهد أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لعن أباك حين كنت لما تزل في صلبه.

وفي «حياة الحيوان» و «تاريخ الخميس» و «أخبار الدول» نقلاً عن «مستدرك الحكم» جاء أن عبد الرحمان بن عوف قال: ما من مولود يولد إلا ويؤتى به إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليدعو له، فلما أتي إليه بمروان قال في حقّه: **«هو الوزغ ابن الوزغ، الملعون ابن الملعون»**. وهنا قال الحاكم: هذا الحديث صحيح الإسناد. كما روى الحاكم أيضاً عن عمرو بن مرة الجهني، وكانت له صحبة، أن الحكم بن أبي العاص استأذن على النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فعرف صوته فقال: **«ائذنوا له... عليه وعلى من يخرج من صلبه لعنة الله، إلاّ المؤمن منهم... وقليل ما هم! يترفّهون في الدنيا ويضيعون في الآخرة، ذوو مكر وخديعة، يعطون في الدنيا وما لهم في الآخرة من خلاق»**.

ويناسب الرواية الأولى حديث أورده ثقة الإسلام في «الكافي» مسنداً عن الإمام الصادق عليه السلام، وهو أن عبد الله بن طلحة قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن حكم الوزغ فقال: هو رجس، فإذا قتلته فاغتسل.

ثم قال: كان أبي يجلس في حجرة ومعه رجل يحدثه، فإذا بوزغ يصوّت بلسانه، فقال أبي للرجل: أتدري ماذا يقول هذا الوزغ؟ قال: لا علم لي بكلامه، قال: فإنه يقول: والله لئن ذكرت عثمان بسوء لأشتمنّ علياً حتى تقوم من هنا، وعندئذٍ قال: قال أبي: لا يموت من بني أمية ميت إلا مسخ وزغاً.

وهكذا يتضح من هذا الخبر أن للوزغ صلة وارتباطاً ببني أمية، ذلك أنه

يتفق معهم على مودَّةِ عثمان وعداوة أمير المؤمنين عليه السلام، وأمواتهم يمسخون بصورته، لهذا لقّب النبي صلى الله عليه وآله وسلم مروان بالوزغ. وجاء التصريح بهذه المناسبة في حديث ورد في «الكافي» نقلاً عن عبد الرحمان بن أبي عبد الله أنه قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول:

خرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من حجرته فإذا بمروان وأبيه يسترقان السمع ويستمعان إلى حديثه، فقال لهما: الوزغ ابن الوزغ! قال أبو عبد الله عليه السلام: «فمن يومئذٍ ترون أن الوزغ يستمع الحديث».

كذلك يعلم من هذا الحديث أن حقيقة الوزغ ومروان واحدة، والاختلاف في الصورة فقط، وإن النبي المطّلع على حقائق الأشياء وماهية الموجودات أخبر عن هذا، وهو شاهد صدق، فالتماثل بين مروان والوزغ قائم في هذه الصفة، وهي: استراق السمع.

وأبو الفرج الأصفهاني، وكان مروانياً، يقول في «الأغاني» في ذيل قصة وفود مروان إلى معاوية بعد عزله عن ولاية المدينة، وما تردد بينهما من كلام: غضب معاوية فقال: يابن الوزغ لست هناك؟ قال مروان: الأمر كما قلت، فأنا الآن أب لعشرة، وأخ لعشرة، وعمّ لعشرة، وقريباً ما تكتمل العدّة! يعني أربعين رجلاً.

قال أبو الفرج: هذه إشارة إلى الحديث النبوي الشريف:

«إذا بلغ بنو العاص أربعين رجلاً اتخذوا مال الله دولاً وعباد الله خولاً». وكان بنو العاص في انتظار هذا الوقت.

وفي آخر الحكاية ينقل كذلك عن معاوية أن الأحنف سأله: لماذا تصبر على مروان كل هذا الصبر، وإلام يشير قول مروان؟ فروى معاوية هذا الحديث وقال: «فوالله لقد تلقّاها مروان من عين صافية».

حكم عبد الملك بن مروان
ومقتل المختار ومصعب وعبد الله بن الزبير

تسلم عبد الملك بن مروان الحكم بعد موت أبيه، وذلك ليلة الأحد غرّة شهر رمضان سنة خمس وستين، وكان قبل تسلمه الحكم يواظب على ملازمة المسجد وتلاوة القرآن حتى أسموه: «حمامة المسجد» ولما بلغه خبر استخلافه، وكان منشغلاً بتلاوة القرآن، وضع المصحف جانباً وقال: «سلام عليك... هذا فراق بيني وبينك».

يقول الراغب في «المحاضرات» بعد نقل هذه الواقعة: كان عبد الملك يقول: كنت أحس بالضيق من قتل نملة. والآن يكتب لي الحجاج أنه قتل فئاماً من الناس فلا يترك ذلك في نفسي أي أثر. وقال له الزهري يوماً: سمعت أنك تشرب الخمر! قال: بلى والله... وأشرب الدماء أيضاً!!.

جاء نقلاً عن «تاريخ السيوطي» أن رجلاً يهودياً اسمه يوسف قد أسلم، وكان ذا إحاطة بالكتب المنزلة، فبينما كان يمر يوماً أمام بيت مروان قال: ويل لأمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم من أهل هذا البيت! قال الراوي: إلام تبقى الأمة مبتلاة بهم؟ قال: حتى تصل الرايات السود من جانب خراسان، والمراد زمان حكم بني العباس. ويوسف هذا كان صديقاً لعبد الملك، وضع يوماً يده على كتفه وقال: اتّق الله في أمر أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم في زمان ستصبح فيه خليفة، قال عبد الملك: ما هذا الذي تقول، وأين الخلافة مني؟ قال اليهودي ثانية: «اتق الله في أمرهم»! ثم قال: وذلك يوم يبعث يزيد بن معاوية بجيش إلى مكة لقتال عبد الله بن الزبير. قال

عبد الملك: أعوذ بالله.. وهل يبعث أحد بجيش إلى حرم الله؟! فوضع يوسف يده على كتفه وقال: جيشك إلى مكة سيكون أكبر!!.

وإجمالاً فقد كان عبد الملك رجلاً بخيلاً فتّاكاً سفّاكاً للدماء، وكان عماله وولاته يشبهونه في البخل والفخر والخيلاء وسفك الدماء، وإليك أسماءهم: الحجاج عامله على العراق، والمهلّب بن أبي صفرة على خراسان، وهشام بن إسماعيل على المدينة، وعبد الله ابنه على مصر، وموسى بن نصير على المغرب، ومحمد بن يوسف أخو الحجاج على اليمن، ومحمد بن مروان على الجزيرة، وكانوا جميعاً ظلمة غشمة، وإن كان الحجاج يفوقهم جميعاً كما سيأتي إن شاء الله تعالى.

ويروى أن عبد الملك كان يكنّى «أبي ذباب» لأن فمه كان يطلق أبخرة نتنة إلى درجة كبيرة حتى أنّ الذبابة كانت إذا مرّت بطرف فمه ماتت من شدة النتن، وكان لشدة بخله أيضاً يلقب بـ «رشح الحجر» وكان أول من لقّب بهذا اللقب في الإسلام. وكان من جهة أخرى أول من سكّ وجوه الدنانير والدراهم بنقش إسلامي بعد أن كانت ذوات نقوش رومية، وقد نقل الدميري ذلك بالتفصيل في «حياة الحيوان»، وكان عبد الملك أول من نهى عن الأمر بالمعروف كذلك.

وفي أوائل حكمه سنة خمس وستين تحرك شيعة الكوفة والتقى بعضهم بعضاً يتلاومون على قعودهم عن نصرة الحسين عليه السلام ونكوصهم عن إجابة دعوته، ويقولون: إن خذلاننا له عار وخيانة لا يمكن غسلهما إلا بالثأر لدمه، فإما أن نقتل قتلته وإما نُقتل، ثم اختاروا خمسة منهم نصبوهم أمراء عليهم وهم: سليمان بن صُرَد الخزاعي، والمسيب بن نجبة الفزاري. وعبد الله بن سعيد بن نوفل الأزدي، وعبد الله بن وال التميمي، ورفاعة بن شداد البجلي. ثم أخلوا معسكرهم ورفضوا محاولة المختار صدّهم عن عزمهم، وساروا حتى بلغوا «عين وردة» وهي بلدة كبيرة من بلاد الجزيرة.

من الجانب الآخر كان عبيد الله بن زياد في ذلك الوقت بالشام، فتوجّه

منها على رأس ثلاثين ألفاً من أهل الشام يرافقه الحصين بن نمير، وشرحبيل بن ذي الكلاع الحميري للقاء رجال الشيعة، وقد وافى الفريقان «عين وردة» في وقت واحد حيث خاضا معركة عظيمة أبلى فيها سليمان بن صرد بلاءً حسناً، وقتل من جند ابن زياد عدداً كبيراً قبل أن يناله الحصين بن نمير بسهم أرداه، فتقدم المسيب وكان من قبل من وجوه جند أمير المؤمنين، فتسلم الراية وحمل على جند العدو وهو يرتجز حتى قتل، إذ ذاك حمل الشيعة حملة رجل واحد فباعوا أرواحهم، وحطموا أغماد سيوفهم، وكانت الراية إذ ذاك مع عبد الله بن سعيد، وفي غمرة المعمعة وصل خمسمئة من شيعة البصرة والمدائن لنصرتهم، فقويت قلوبهم، وثبّتوا في القتال أقدامهم وهم لا يفتأون يرددون «أقلنا ربنا تفريطنا فقد تبنا». وبعد مقتل وجوههم رأى من تبقى منهم أن لا طاقة لهم على متابعة الجدال، فتراجعوا منهزمين، والتحقوا ببلادهم.

ولما نفض ابن زياد يديه من قتال الشيعة توجّه نحو العراق لقتال أهله، فلما بلغ الموصل لقيه إبراهيم الأشتر بجند أهل العراق، وكان خرج من الكوفة بأمر من المختار، وبعد معركة طاحنة انتهى الأمر بظفر أهل العراق، وفي هذه المعركة التحق بدركات الجحيم جملة من أشراف أهل الشام ورؤوس جندهم كعبيد الله بن زياد، والحصين بن نمير، وشرحبيل بن ذي الكلاع، وابن حوشب ذي الظليم، وعبد الله بن إياس السلمي، وحمل إبراهيم رؤوس ابن زياد وآخرين إلى المختار الذي بعث بالرأس إلى الحجاز. وقد جرت هذه الواقعة سنة ست وستين من الهجرة.

وقصة ثأر المختار من قتلة سيد الشهداء عليه السلام، وتسلّطه على الكوفة، وقتله لقتلة الحسين عليه السلام أمثال الخولي وعمر بن سعد والشمر وابن زياد وغيرهم قصة طويلة[1] لا يتسع هذا الموجز لذكرها، وعلى من

---

(١) قال أبو المؤيد الخوارزمي: إن عدد قتلى المختار بلغ ثمانية وأربعين ألفاً وخمسمئة وستين نفراً (منه ره).

يطلبها الرجوع إلى كتاب «أخذ الثأر» للشيخ ابن نما وغيره، بلى، من المناسب في هذا المقام الإشارة ببضع كلمات إلى نسب ابن زياد.

كان أبو عبيد الله بن زياد معروفاً بزياد بن أبيه، وزياد بن عبيد، وزياد بن سميّة، وبعد استلحاقه بمعاوية صار يعرف بزياد بن أبي سفيان. وكان عبيد وسمية كلاهما من موالي كسرى، فأهداهما كسرى إلى أبي الخير بن عمرو الكندي من ملوك اليمن، أصيب أبو الخير بعارض استدعى انتقاله إلى الطائف حيث قام الحارث بن كلدة ـ طبيب العرب هناك ـ بعلاجه، فأهدى أبو الخير سميّة إلى الحارث، وبقيت عنده حتى ولدت له نافعاً، لكنه أنكر ذلك، ثم ولدت أبا بكرة الصحابي المعروف على فراشها، لكن الحارث نفى ذلك ثانية عن نفسه، وأبى الإقرار بولايته عنه، ثم زوج سمية من عبيد المذكور. وأولئك الثلاثة ـ مع شبل بن معبد، وكان أيضاً من أولاد سمية ـ هم من شهدوا بزنى المغيرة بن شعبة، أمام عمر فيما بعد، وتلجلج زياد في شهادته بإشارة من عمر، فلم يُقم عمر الحدّ على المغيرة، بل أقامه على الشهود، وتفاصيل ذلك مسطورة في مظانّها.

ونقل عن «العقد الفريد» أنه جرت العادة في الجاهلية على أن تنصب الزواني أعلاماً يعرفن بها، ويسترشد بها طلاب الزنى فيأتوهن، وكان من عادة أكثر الرجال أن يُكرهوا إماءهم على امتهان الزنى طمعاً في نيل الحطام الفاني وعرض الحياة الدنيا الزائل، وإلى هذا أشار الله عزّ وجلّ في كتابه المجيد بقوله: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ . . .﴾ الآية.

جاء في «مروج الذهب» أن سمية هذه كانت من ذوات الأعلام، وكانت تؤدي جعالة للحارث بن كلدة، وكان لها بيت بالطائف في المحلة المعروفة بـ «حارة البغايا»، وذات يوم سارع أبو سفيان نحو أبي مريم السلولي وكان خمّاراً، فسكر عنده ورغب في زانية فقال أبو مريم: ليست هناك سوى سميّة، قال أبو سفيان: هاتها ولو أن في أحضانها ريحاً نتنة، ولها ثديان مسترخيان!! (ومن قوله هذا يستفاد أنه اجتمع بها قبل ذلك) وبعد فراغ أبي سفيان منها سأله

أبو مريم: كيف وجدتها؟ فأجاب: لولا استرخاء الثديين، ولولا النتن وعدم النكهة فلا عيب فيها!.

وإجمالاً فقد ولدت سمية زياداً في السنة الأولى من الهجرة على فراش عبيد، وأصبح يعرف بزياد بن عبيد، وابن أمّه، وابن أبيه، وابن سميّة، ولما بلغ بعض الرشد أصبح كاتباً لأبي موسى الأشعري. وأمره عمر بالقيام بعمل معين فأداه أحسن أداء، حتى أنه خطب يوماً خطبة في المسجد فنالت من الإعجاب الغاية، فقال عمرو بن العاص: لو كان هذا الفتى قرشياً لكان جديراً بالرئاسة. فقال أبو سفيان: أقسم أني أعرف من وضعه في رحم أمه، فقيل له: ومن هو؟ قال: أنا!!.

وسارت الأمور على ذلك حتى خلافة أمير المؤمنين عليه السلام، ونظراً لأن زياداً لم يظهر منه ما يشين، ونظراً لامتيازه بالفطنة والكفاءة فقد عينه أمير المؤمنين حاكماً على حدود فارس، وباءت محاولات معاوية لخداعه بالفشل، فبعد أن كتب إليه معاوية خطب خطبة قال فيها: «أتعجب من ابن آكلة الأكباد ورأس النفاق يخوفني بقصده إياي». وقد أثنى في هذه الخطبة ثناءً بليغاً على أمير المؤمنين عليه السلام، هذا وقد بعث إليه عليه السلام بنشرة حذّره فيها من خداع معاوية، وبقي زياد على حاله تلك حتى انقضت خلافة أمير المؤمنين عليه السلام.

إذ ذاك شرع معاوية بنشر شباكه الشيطانية، وأمدّته دناءة المولد والخبث الفطري، فاستطاع بمساعدة المغيرة بن شعبة، معدن النصب ورأس النفاق أن يحتال عليه، فادّعاه وجعله أخاً له، وأغرى زياداً حب الدنيا والميل إلى الجاه فقرّ بمولده الحرام، وأخوّة معاوية، وأبوّة أبي سفيان له، وأقسم أبو بكر أخوه لأمّه أن لا يكلّمه بعدها أبداً، ذلك أنه أثبت بذلك زنى سمية، وقدح في نسبه.

ولما استقر أمر الطرفين على هذا بعث معاوية إليه بأخته جويرية وكشفت له شعرها وقالت أنت أخي، أنبأني أبو مريم بهذا!!.

ثم عقد معاوية محضراً في المسجد، واعتلى المنبر، وأجلس زياداً على

درجة أدنى، ووقف أبو مريم السلولي الخمّار في الطائف، والذي أصبح فيما بعد من أصحاب معاوية، فأدلى بشهادته وقال: أشهد أن أبا سفيان قدم إلينا بالطائف - حيث كنت في الجاهلية خمّاراً - وطلب مني زانية، فدنوت منه وقلت: لم أعثر سوى على سمية جارية الحارث بن كلدة، فقال: هاتها رغم قذارتها ونتن ريحها!!.

قال زياد: على رسلك يا أبا مريم، فقد أرادوك للشهادة وليس للشتم! فقال أبو مريم: لو أنهم أعفوني ولم يطلبوني لهذه الشهادة لكان أفضل لي، وأنا لم أشهد إلا بما عاينته، وأقسم أني رأيت أبا سفيان ينزع كمّ قميص سمية، ويغلق الباب، فجلست متحيراً، فما لبثت إلا قليلاً حتى خرج إليّ وهو يمسح جبينه، فقلت: نعم يا أبا سفيان.. كيف كانت؟ قال: لم أر مثلها لولا استرخاء نهديها وريح فمها! وعلى قول أبي مريم: «فخرجتْ من عنده وإن أسكتيها لتقطران منياً».

خلاصة الكلام: إن معاوية ادعى بهذه الشهادة أخوّة زياد، فقام رجل فقال: يا معاوية، إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أصدر حكماً بهذا وقال: «الولد للفراش، وللعاهر الحجر»، وقد حكمت أن الولد من الزنى وأن للفراش الحجر، وفي هذا مخالفة للكتاب وإعراض عن سنّة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وذلك بشهادة أبي مريم على زنى أبي سفيان، والحق أن هذا عار وشنار لا يمكن غسله، وطعنٌ لا جواب عنه في أي كتاب.

وقد وجه أهل ذاك العصر من قريب ومن بعيد مطاعن عظيمة إلى معاوية وزياد في أشعارهم. وقد قيل إن دهاة العرب أربعة: معاوية وعمرو بن العاص وزياد والمغيرة بن شعبة، كما جاء في قول الشاعر:

من العرب العرباء قد عُدّ أربعٌ   دهاةٌ فما يؤتى لهم بشبيه
معاويةٌ، عمرو بن عاصٍ، مغيرةٌ   زياد هو المعروف بابن أبيه.

أولئك الأربعة كانوا أبناء زنى، وقد اتفقت كلمتهم في العداء لأمير المؤمنين عليه السلام. فزياد إجمالاً هو من كان يمسك بشيعة أمير المؤمنين

عليه السلام في البصرة والكوفة فيقتلهم ويقطع أيديهم وأرجلهم، ويسمل أعينهم فيعميهم، مع أنه كان من قبل معدوداً من الشيعة، فهو يعرف وجوههم جيداً، وكان زياد أول من قتل صبراً في الإسلام فقد دفن عبد الرحمان بن حسان حياً وذلك لأنه كان من محبي أمير المؤمنين عليه السلام، هذا برواية ابن خلدون وابن الأثير، وكان أول من تولى العراقين، وأول من سنّ وروّج سبّ أمير المؤمنين عليه السلام في العراق، وقد وردت عبارة في «نهج البلاغة» حسب البعض أنه المراد بها، وهي قول أمير المؤمنين عليه السلام.

«سيظهر عليكم رجل رحب البلعوم، مندحق البطن، يأكل ما يجد وما لا يجد، فاقتلوه ولن تقتلوه، ألا وإنه سيأمر بسبّي والبراءة مني».

لكن الأظهر أنها إشارة إلى معاوية. وعلى أي حال فبدع زياد وفتنه في الإسلام أكثر من أن تحصى.

يقول ابن أبي الحديد: أراد زياد أن يعرض على أهل الكوفة البراءة من علي عليه السلام ولعنه «والعياذ بالله» وهدد بقتل كل من يرفض ذلك، وبهدم بيته، لكن الله لم يمهله فقد ابتلي في اليوم نفسه بالطاعون، وذهب بعد ثلاثة أيام إلى دار البوار. وكان هذا أيام معاوية ووفقاً لرواية «مروج الذهب» فقد وقعت سنة ثلاث وخمسين. ويؤيد قول ابن أبي الحديد قصة «نقاد ذو الرقبة» الواردة في «مروج الذهب» و «أمالي ابن الشيخ».

هذه كانت حال زياد أبي عبيد الله، أما حال عبيد الله وحال أمه فاعلم أن أم ابن زياد كانت تدعى مرجانة، وكانت من الزواني، وفي الأشعار إشارة إليها كما في قول سراقة الباهلي:

لعن الله حيث حلّ زياداً   وابنه والعجوز ذات البعول

والمراد بذات البعول مرجانة، وقد ولد عبيد الله سنة ثمان وعشرين أو تسع وعشرين من الهجرة، وولي العراقين سنة ستين وكان عمره اثنتين وثلاثين سنة، وتصدّى لقتل سيد الشهداء سنة إحدى وستين، وكان في التاسعة والثلاثين حين بلغ دركات الجحيم على يدي إبراهيم الأشتر.

ومن عجيب الوقائع أن يوم مقتله كان يوم عاشوراء، حين بعث المختار برأسه اللعين إلى الإمام علي بن الحسين عليه السلام، فلما قدّم إليه كان مشغولاً بتناول طعامه، فخر ساجداً شكراً لله وقال: الحمد لله الذي أجاب دعوتي وبلّغني ثأري من قتلة أبي، وقال: يوم وردوا بنا على ابن زياد كان مشغولاً بطعامه، فسألت ربي أن لا أغادر الدنيا قبل أن أراه في مجلس لي مماثل، فقد كان يتغذى ورأس أبي المقدس بين يديه. ثم دعا للمختار وجزاه خيراً. وطلب من أصحابه جميعاً أن يرفعوا الشكر لله تعالى.

روي أن أحد حضور مجلس الإمام عليه السلام تساءل قائلاً: لماذا لا يشتمل غداؤنا على الحلوى اليوم؟ فأجابه: كانت نساؤنا اليوم مشغولات بأمور المعاش، وأي حلوى أكثر حلاوة من النظر إلى رأس عدونا؟ من هنا يتضح كيف أدخل المختار البهجة على قلب الإمام المبارك، بل هو أدخل البهجة والسلوى على قلوب منكسرة عانت الظلم والمصائب، وعلى أرامل وأيتام آل محمد سلام الله عليهم، الذين قضوا خمس سنين يتجرعون غصص الألم ويقيمون مراسم العزاء. وقد روي عن الصادق عليه السلام قول ما مؤداه: بعد شهادة الإمام الحسين عليه السلام لم تكتحل امرأة من بني هاشم، ولم تعرف الخضاب، ولم يرتفع دخان من مطبخ بني هاشم إلا بعد خمس سنوات حين قتل عبيد الله بن زياد.

وفي سنة خمس وستين، أو أربع وستين على قول، انتشر الطاعون بالبصرة، وفي أربعة أيام قلبت هذه الداهية الدهياء والطامة الكبرى البصرة عاليها سافلها؛ ففي اليوم الأول هلك سبعون ألفاً، وفي اليوم الثاني هلك واحد وسبعون ألفاً، وفي اليوم الثالث هلك اثنان أو ثلاثة وسبعون ألفاً، ولم يبق في اليوم الرابع سوى القليل ممن كتبت لهم الحياة، ولم يكن بمقدور أحد أن يكفن أحداً أو يدفنه، فأغلقت أبواب البيوت على الأموات، أما أولئك القلة المعدودون الذين بقوا أحياء فقد عاشوا مرضى أعلاّء.

مقتل المختار بن عبيد الثقفي

وفي سنة سبع وستين خرج مصعب بن الزبير بأمر من أخيه عبد الله لحرب المختار، وفي «حروراء» وهي قرية من قرى الكوفة التحم مع المختار في معركة طاحنة قتل فيها خلق عظيم، وانتهت بهزيمة المختار، الذي لاذ بقصر الإمارة في الكوفة مع جمع كبير من أصحابه. وكان يخرج كل يوم لقتال مصعب، وذات يوم غادر قصر الإمارة ممتطياً بغلة شهباء، فحمل عليه عبد الرحمان بن أسد الحنفي فقتله وجز رأسه، وقد جرت هذه الواقعة في اليوم الرابع عشر من شهر رمضان سنة سبع وستين، ثم حاصر مصعب دار الإمارة، وعانى أصحاب المختار المتاعب، فطلبوا الأمان فأعطي لهم، وبعد أن تم الاستيلاء على القصر قام مصعب بقتلهم.

وهكذا استولى مصعب على الكوفة، ثم شرع في البحث عن أصحاب المختار، فقتل كل من عثر عليه منهم حتى بلغ تعداد من قتله سبعة آلاف، ثم إن مصعباً طلب حريم المختار وأمرهنّ أن يتبرأن منه، ويلعنّه وإلا فسيقتلن، ففعلن جميعاً عدا امرأتين من نساء المختار، إحداهما ابنة سمرة بن جندب، والأخرى ابنة النعمان بن بشير الأنصاري، فقد قالتا: كيف نبرأ من رجل كان يقول: ربي الله، قائماً ليله صائماً نهاره، بذل روحه في سبيل الله ورسوله، وفي الثأر من قتلة الإمام الحسين عليه السلام، وشفى بقتله إياهم صدور الكثيرين؟!.

كتب مصعب إلى أخيه قصة المرأتين فجاء الجواب: عليهما التبرؤ منه وإلا فستلقيان الهلاك! ثم إن مصعباً عرضهما على السيف فاستجابت ابنة سمرة ولعنت المختار وقالت: لئن كنت بالسيف تقودني إلى الكفر فسأستجيب وأشهد أن المختار كان كافراً!! أما ابنة النعمان فأبت وقالت: إني أختار الشهادة، وكان لها ما اختارت.

مقتل مصعب بن الزبير

وإجمالاً فقد أخضع مصعب البصرة، ثم انصرف يجمع الجند والعسكر دون توقف حتى وافت سنة اثنتين وسبعين، فتحرك بجنده نحو الشام لمواجهة عبد الملك بن مروان، وكذلك خرج عبد الملك بجيش عظيم أعده لحربه، وتواجه الجيشان في أراضي «مِسكن» بكسر الميم، وهو موضع على نهر «دجيل» قرب «بلد» على الطريق إلى سامراء، والتحم الجيشان في معركة طاحنة قتل فيها إبراهيم بن الأشتر وكان في جيش مصعب، وقد جزّ رأسه ثابت بن يزيد مولى الحصين بن نمير، وحُمل إلى عبد الملك، ثم جمع مولى الحصين حطباً وأحرق جسد إبراهيم، وكان في جيش مصعب مسلم بن عمرو الباهلي وقد هلك متأثراً بجراحاته الكثيرة. كما أن مصعباً أيضاً ناله من الجراح ما قعد به عن المضيّ في القتال، فوجه إليه عبد الله بن زياد بن ظبيان ضربة كان فيها هلاكه، وحمل رأسه إلى عبد الملك الذي خرّ ساجداً شكراً لله. كما قتل في هذه الموقعة عيسى بن مصعب، وجرت تلك الأحداث في يوم الثلاثاء الثالث عشر من جمادى الأولى سنة اثنتين وسبعين، وقد أمر عبد الملك بدفن مصعب وابنه في «دير الجاثليق».

كان مصعب رجلاً وسيماً ذا جمال وكمال، وكانت زوجه سكينة بنت الحسين عليه السلام، ويقول الخطيب في «تاريخ بغداد» إن قبره وقبر إبراهيم يقعان في «مِسكن».

يقول المؤلف: إن قبر إبراهيم حيث تم دفن ما بقي من أعضائه وموضع قتله قائم في أراضي «مِسكن» في الطريق إلى سامراء، وهو معروف.

وإجمالاً فإن عبد الملك بعد قتل مصعب دعا أهل العراق إلى بيعته، فبايعه الناس، ثم توجه إلى الكوفة وفرض الخضوع على أهلها، ودخل قصر الإمارة، وجلس متكئاً على كرسي السلطنة وقد وضع رأس مصعب أمامه، تغمره أمارات الفرح والسرور، وإذا بأحد الحضور ويقال له عبد الملك بن عمير تأخذه الرعدة ويقول: السلام على الأمير، إن لقصر الإمارة هذا قصة

عجيبة حفظتها في خاطري ذلك أني كنت في هذا المجلس مع عبيد الله بن زياد، ورأيت الرأس الشريف للإمام الحسين عليه السلام يؤتى به إليه فيوضع أمامه، وبعد فترة أخضع المختار الكوفة، وجلست معه في هذا المجلس، ورأيت رأس ابن زياد أمامه، وبعد المختار جمعني هذا المجلس مع مصعب صاحب هذا الرأس، وقد وضع أمامه رأس المختار، وها أنذا في المجلس نفسه مع الأمير وأرى رأس مصعب أمامه، وإني أعيذ الأمير بالله من شر هذا المجلس.

ما إن سمع عبد الملك هذه القصة حتى أخذته رعدة، ثم أمر بقصر الإمارة فهدموه، وقد نظم بعض الشعراء هذه القصة شعراً، ولكم أجاد إذ قال:

رجل رشيد دربَ حقّ قد سلك ... إذ قال يوماً واعظاً عبد الملك
من فوق هذا المتّكا والمسند ... عاينت إذ عاينت أعجب مشهد
في مجلس لابن زياد قد رأت ... عيناي - ليت العين تمحو ما رأت -
رأساً كفلق البدر يسطع في السما ... ذا طلعة كالشمس غطّته الدما
رأس الحسين بن علي بوركت ... تلك السلالة بالطهارة قد سمت
من بعد هون رأس ذاك الأحمق[1] ... جاءوا به في جوف ذاك الطبق
فإذ خلا جوّ النزال لمصعبِ ... وافوا من المختار بالرأس الغبي
والآن مصعب رأسه قيد الطلب ... فإلام نمضي في غوايات الأرب[2].

وإجمالاً فبعد أن سيطر عبد الملك على الكوفة، وأنزل أهلها عند طاعته والبيعة له، بعث بأخيه بشر بن مروان مع روح بن زنباع الجذامي، وجمع من أصحاب الرأي والمشورة من أهل الشام والكوفة، ومعهم الحجاج بن يوسف بن عقيل الثقفي، وكان رجلاً جسوراً فتاكاً، وذلك للتخلص من عبد الله بن الزبير بمكة، وقفل راجعاً إلى الشام مع من تبقى من جيشه.

(١) يريد رأس ابن زياد إذ حمل إلى المختار.

(٢) أبيات معربة عن الفارسية بتصرف (المعرّب).

مقتل عبد الله بن الزبير

توجه الحجاج مع جنده وعسكره نحو الحجاز، وبعد أن تلبّث عدة أشهر بالطائف قصد مكة، وحاصر ابن الزبير كما فعل الحصين بن نمير من قبل، ونصب المنجنيق فوق جبل أبي قبيس، وامتد الحصار خمسين يوماً، أو أربعة شهور على قول، حتى أمكنهم الظفر بابن الزبير بعد أن صرعوه أرضاً وأوسعوه ضرباً بالحجارة، ثم جذوا رأسه، وبعث الحجاج بالرأس إلى عبد الملك، أما الجسد فصلبوه مقلوبا، وأمر الحجاج بأن يبقى مصلوباً حتى تشفع له أمه أسماء بنت أبي بكر.

روي أنه بقي معلقاً مدة سنة، وأن الطيور اتخذت من صدره عشّاً لها، فمرت أمه يوماً بجواره فقالت: أما آن لهذا العظيم أن يترجّل عن مطيته؟ فأنزلوه ثم دفنوه في مقابر اليهود.

كان عبد الله موصوفاً بالقوة والشجاعة، وكان مقتله في يوم الثلاثاء الرابع عشر من جمادى الآخرة سنة ثلاث وسبعين، وقد امتدت إمارته تسع سنين وعشر ليال. وكان أمير المؤمنين عليه السلام قد أتى على ذكر مآل عبد الله في أخباره الغيبية إذ قال عنه: **«خبّ ضبّ يروم أمراً ولا يدركه، ينصب حبالة الدين لاصطياد الدنيا، وهو بعد مصلوب قريش»**.

وكتب عبد الملك إلى الحجاج يأمره بعدم التعرض لعروة بن الزبير أخي عبد الله، كما أمره بأن يهدم بناء الكعبة الذي أقامه عبد الله، وأن يعيد بناءه على النسق الذي أقامته عليه قريش، مثلما كان بناؤه في عصر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وأن يجعل للبيت باباً واحداً، ففعل ما أمره.

أمّا ما جرى مع الحجاج في عهد عبد الملك من سفكه لدماء أهل العراق بعد أن أحرز الغلبة على الخوارج بالبصرة، وخلال فتنة الأشعث، فهو تفاصيل لا يتسع المقام لذكرها، غير أن من المناسب إيراد لمحة عن أحواله.

اعلم بأن أبا الحجاج هو يوسف بن عقيل، وكان من قبيلة بني ثقيف، وأمّ الحجاج اسمها فارعة، وكانت قبل أن تصبح زوجة ليوسف تحت

الحارث بن كلدة الطبيب المعروف، وفي سحر ذات يوم دخل عليها الحارث فرآها تخلل أسنانها، فأوقع عليها الطلاق! قالت: ولأي سبب طلقتني؟ قال: كنت تخللين أسنانك عند السحر، وتخليل الأسنان في هذا الوقت يعني أحد أمرين: إما أن تكوني قد تناولت طعاماً في هذا الوقت فأنت إذاً امرأة نهمة حريصة على الطعام؛ وإما أن تكوني قد تناولت عشاءك مساءً ولم تخللي أسنانك فتركت بقايا الطعام بينها حتى الصباح، فأنت إذاً امرأة قذرة، وفي كلا الحالين فأنا لا أريد امرأة هذه صفتها! فقالت: إن أحداً من هذين الأمرين لم يكن، إنما هي قطعة من المسواك كانت قد تخلفت بين أسناني فأخرجتها.

إجمالاً فبعد الحارث أصبحت فارعة زوجة ليوسف بن عقيل، وولدت الحجاج في فراشه، وحين ولد هذا اللعين لم يكن له فتحة في دبره، ففتحوا له ثقباً هناك، كما أنه كان يرفض ثدي أمه، الأمر الذي أوقع أهله في الحيرة لا يدرون ما يصنعون به، وقيل إن شيطاناً بصورة الحارث بن كلدة قدم لعلاجه، فوصف لهم طريقة العلاج فقال: اذبحوا عنزاً سوداء فاجعلوا شيئاً من دمها على فم الحجاج فيلعق الدم بلسانه، وكرروا ذلك في اليوم الثاني، فإذا كان اليوم الثالث فاذبحوا جدياً أسود ولطخوا فم الحجاج بدمه، ثم لتمسكوا بعد ذلك بأفعى سوداء ولتلطخوا فمه بدمها، ثم لتمسحوا وجهه بهذا الدم أيضاً، فإذا فعلتم هذا فإنه سيقبل ثدي أمه في اليوم الرابع، ففعلوا كما أشار عليهم، وفي اليوم الرابع قبل ثدي أمه. ولهذا فقد انقلب الحجاج سفاكاً للدماء لا يصبر عن إراقتها، وكان يقول: إنني أجد لذة في سفك الدم، وقد بلغ عدد من قتلهم ـ سوى من قتلوا في حروبه وعلى أيدي جنده ـ مئة وعشرين ألفاً! وبعد هلاكه وجد في سجونه خمسون ألف رجل وثلاثون ألف امرأة، منهن ستة عشر ألفاً حاسرات عاريات، وكان يسجن الرجال والنساء معاً، وكان سجنه دون سقف أو ستر، وروي أنه كان راكباً مطيته يوم جمعة في طريقه إلى الصلاة فسمع ضجيجاً فسأل: ما هذا الصخب والنواح؟ قيل: إنهم سجناؤك يضجون من الجوع والعذاب، فالتفت إليهم وقال: **«اخسأوا فيها ولا تكلمون»**.

وبعد هذه الجمعة لم يمهله الله عزّ وجلّ، فلم يحضر صلاة جمعة أخرى، وانقلب إلى جهنم خالداً فيها.

جاء في «أخبار الدول» أن العلماء السنّة وصموا الحجاج بالكفر لهذا القول، وقيل أيضاً: وجد بعد الحجاج في سجون بيوته ثلاثة وثلاثون ألفاً من الأبرياء الذين سجنوا دون سبب، وقد أطلقهم الوليد بن عبد الملك، وروي عن الشعبي قوله:

«لو أخرجت كل أمة خبيثها وفاسقها وأتينا نحن في المقابل بالحجاج، إذاً لتفوقنا عليهم جميعاً وزيادة».

وروي أنه لما كتب عبد الملك للحجاج أن لا تقتل أحداً من آل أبي طالب، ذلك أن آل حرب لما سفكوا دماء بني أبي طالب نزل بهم الهلاك وزالت دولتهم. فاجتنب الحجاج سفك دماء الطالبيين خوفاً من زوال الملك والسلطان لا خوفاً من الخالق عزّ وجلّ.

وقد قتل الحجاج الكثيرين من شيعة أمير المؤمنين عليه السلام، فكميل بن زياد النخعي وقنبر مولى أمير المؤمنين كان استشهادهما على يديه، كما جلد عبد الرحمان بن أبي ليلى الأنصاري حتى اسودّ كتفاه، فقد أمره بسبّ أمير المؤمنين عليه السلام فأبى، وراح بدلاً عن سبّه يعدد مناقبه، فأمر الحجاج به فقتل، كما أمر بقطع أطراف يحيى بن أم الطويل أحد شيعة وحواريي الإمام السجاد عليه السلام حتى استشهد على الأثر، وكان آخر قتلاه سعيد بن جبير، ولم يمض على مقتل سعيد سوى خمسة عشر يوماً حتى أصيب الحجاج بمرض الآكلة في جوفه، وكان ذلك سبب هلاكه، وكان مقتل سعيد وهلاك الحجاج أيام حكم الوليد سنة خمس وتسعين في مدينة «واسط» كما سيأتي لاحقاً. وبلغ عمر النحس عنده أربعاً وخمسين سنة، وامتدت إمارته عشرين سنة.

كان أمير المؤمنين عليه السلام قد أخبر في أحاديثه مع أهل الكوفة مرة تلو أخرى عن إمارة الحجاج وعن سفكه للدماء في وقت لم يكن الحجاج قد رأى الدنيا بعد، فقد جاء في إحدى خطبه بعد أن تعرض لغدر أهل الكوفة مشيراً إلى ما سببه له الغدر من غصص وآلام.

«يا أهل الكوفة... أنتم كأم مجالد حملت فأملصت[1]، فمات قيّمها[2] فطال تأيّمها[3]، وورثها أبعدها. والذي فلق الحبة وبرأ النسمة إنّ من ورائكم الأعور الأدبر، الدنيا لا تبقي ولا تذر، ومن بعده النّهاس[4] الفرّاس، الجموع المنوع. ثم ليتوارثنّكم من بني أمية عدة، ما الآخر بأرأف بكم من الأول إلا رجلاً واحداً، بلاء قضاء الله على هذه الأمة لا محالة كائن، يقتلون خياركم، ويستعبدون أرذالكم، ويستخرجون كنوزكم وذخائركم من جوف حجالكم، نقمة بما ضيّعتم من أموركم وصلاح أنفسكم ودينكم».

«يا أهل الكوفة.. أخبركم بما يكون قبل أن يكون، لتكونوا منه على حذر، ولينذر به من اتعظ واعتبر. كأني بكم تقولون إن علياً يكذب كما قالت قريش لنبيّها وسيّدها نبي الرحمة محمد بن عبد الله حبيب الله صلى الله عليه وآله وسلم، فيا ويلكم.. أفعلى من أكذب؟ أعلى الله. فأنا أول من عبده ووحده، أم على رسول الله.. فأنا أول من آمن به وصدّقه ونصره؟ كلّا والله، ولكنها لهجة خدعة كنتم عنها أغنياء، والذي فلق الحبة وبرأ النسمة ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ﴾.. الخ.

وروى المسعودي أيضاً أنه لما غلب بسر بن أرطأة عامل معاوية على اليمن، وقتل جماعة من أهل مكة والمدينة مع ولدي عبد (عبيد - خ ل) الله بن عباس، بلغ هذا الخبر أمير المؤمنين عليه السلام فاغتمّ غماً شديداً ووقف يخطب.. فحمد الله وأثنى عليه، وصلى على نبيّه محمد صلى الله عليه وآله وسلم، ثم قال:

«إن بسر بن أرطأة قد غلب على اليمن، والله ما أرى هؤلاء القوم إلا سيغلبون على ما في أيديهم، وما ذلك بحق في أيديهم ولكن بطاعتهم

---

(١) أملصت: أسقطت وألقت ولدها ميتاً.

(٢) قيّمها: زوجها.

(٣) تأيّمها: خلوّها من الأزواج.

(٤) الأسد أو الذئب، كناية عن نهّاش اللحم.

واستقامتهم ومعصيتكم لي، وتناصرهم وتخاذلكم، وإصلاح بلادهم وإفساد بلادكم، وتالله يا أهل الكوفة لوددت أني صرفتكم صرف الدنانير العشرة بواحد». ثم رفع عليه السلام يديه فقال:

«اللهم إني قد مللتهم وملّوني، وسئمتهم وسئموني، فأبدلني بهم خيراً منهم، وأبدلهم بي شراً مني، اللهم عجل عليهم بالغلام الثقفي الذيال الميال، يأكل خضرتها، ويلبس فروتها، ويحكم فيها بحكم الجاهلية، لا يقبل من محسنها، ولا يتجاوز عن مسيئها» قال: وما كان وُلِدَ الحجاج يومئذٍ.

وفي أيام عبد الملك توفي الحارث بن الأعور وكان يعدّ من أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام، والحديث المعروف: **«من يمت يرني»** قاله أمير المؤمنين عليه السلام له، وإليه ينتهي نسب شيخنا البهائي. كما توفي في أيام عبد الملك سنة سبع أو تسع وستين الأحنف بن قيس، ودفن في «الثويّة»، والثويّة في أيامنا موضع خارج النجف الأشرف قرب مسجد «حنانة» وهناك قبور جمع من الأصحاب، وقبر كميل بن زياد معروف هناك فعلاً، كما دفن هناك أيضاً المغيرة وزياد بن أبيه وأبو موسى الأشعري، والأحنف، وهو من يضرب به المثل بالحلم، ويعد من فضلاء البصرة ومن السادة التابعين، ونظراً لأن الشعر لم ينم على وجهه فقد عُدّ من «سادات الطلس» وقد شهد «صفين» مع أمير المؤمنين عليه السلام بعد أن كان في «الجمل» ممّن آثروا الاعتزال. وقد قدم الكوفة مع مصعب، وبقي فيها حتى مماته، وكانت له حكايات مع معاوية، وفي نهاية الأمر ابتاع معاوية دينه بخمسين ألف درهم طبقاً لرواية الشيخ الكشي وغيره، وتنقل عنه كلمات في الحكمة ومنها: «كثرة الضحك تذهب الهيبة» و «كثرة المزاح تذهب المروّة» و «من لزم شيئاً عرف به».

وفي سنة ثمان وستين توفي زيد بن أرقم الخزرجي الأنصاري، وكان زيد قد شهد أكثر غزوات رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وهو الذي أبلغ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن عبد الله بن أُبيّ بن سلول يقول: ﴿لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾، الأمر الذي أنكره عبد الله وأقسم على ذلك بالحق تعالى، غير أن الرسول صلى الله عليه وآله

وسلم أنبأ أن زيداً صادق. سكن زيد في الكوفة، وأقواله لابن زياد عندما أحضروا إليه الرأس المطهر لسيد الشهداء عليه السلام فراح ذلك اللعين ينكث بقضيب ثنايا وشفتي أبي عبد الله عليه السلام، هذه الأقوال معروفة ومشهورة.

وفي سنة ثمان أو تسع وستين أيضاً توفي في الطائف أبو العباس عبد الله بن عباس، وصلى عليه محمد ابن الحنفية، وكان عمره واحداً وستين عاماً وقد عميت عيناه من كثرة بكائه على أمير المؤمنين والحسنين عليهما السلام. وكان يمتاز تمام الامتياز بعلم الفقه والتفسير والتأويل، فقد تتلمذ على أمير المؤمنين عليه السلام في تلك العلوم، كما دعا له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وذلك حين أحضر للنبي ماء يغتسل به وكان في بيت خالته ميمونة زوج النبي، فدعا له وقال: **«اللهم فقهه في الدين وعلّمه التأويل»**. وأبناء ابن عباس هم علي «أبو الخلفاء» والعباس وعبد الرحمان ولبانة وعبيد الله ومحمد والفضل، وهؤلاء الإخوة الثلاثة لم يعقبوا.

وفي سنة تسع وستين قيل إن طاعوناً اجتاح البصرة، وتوفي في تلك السنة أبو الأسود الدؤلي قاضي البصرة.

وفي سنة سبعين قتل عبد الملك عَمْراً بن سعيد بن العاص الأشدق، كما توفي في السنة نفسها عاصم بن عمر بن الخطاب جد عمر بن عبد العزيز لأمّه.

وفي سنة اثنتين وسبعين توفي البراء بن عازب، وفي سنة ثلاث وسبعين قتل عبد الله بن الزبير، وفي سنة أربع وسبعين توفي عبد الله بن عمر، وأبو سعيد الخدري، وسلمة بن الأكوع، وفي سنة خمس وسبعين توفي شريح قاضي الكوفة، وفي سنة ست أو سبع وسبعين توفي حبّة العرني وكان أحد أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام، وفي سنة ثمان وسبعين توفي جابر بن عبد الله الصحابي الأنصاري وكان قد كف بصره وكان عمره نيفاً وتسعين سنة، وقد قام بإبلاغ باقر العلوم عليه السلام سلام جده رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وكان أول من زار الحسين عليه السلام وكان ذلك يوم الأربعين على استشهاده، وكان جابر يدعو الناس باستمرار ويحثهم على محبة علي عليه السلام، وكان لا يفتأ يقول في حواري المدينة وأزقتها، وعند مروره على مجالس الناس، ويكرر

قوله: **«عليّ خير البشر فمَن أبى فقد كفر»**. وكان يقول: معاشر الأنصار.. أدبوا أولادكم على حب علي عليه السلام، فمن أبى محبته فلينظر ماذا فعلت أمه.

وفي عهد معاوية ارتحل جابر إلى دمشق وأراد الدخول على معاوية، فتجاهله معاوية أياماً ولم يأذن له، وبعد أن حصل على الإذن بعد أيام ودخل عليه قال له: «يا معاوية.. أما سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذ قال: من حجب عنه صاحب فاقة وحاجة حجبه الحق تعالى يوم فاقته وحاجته»؟ فغضب معاوية وقال: سمعت النبي يقول: **«إنكم ستلقون بعدي أثرة، فاصبروا حتى تردوا عليّ الحوض»**، فلم لم تصبر؟ قال: ذكرتني بشيء كنت قد أنسيته، قال هذا وانصرف عنه، ثم ركب راحلته وقفل راجعاً من الشام، فبعث إليه معاوية بستمئة دينار، فردّ جابر المال وكتب إلى معاوية أشعاراً مطلعها: «إني لأختار القنوع على الغنى»، وقال لرسول معاوية: قل له: يابن آكلة الأكباد.. لا والله لن تكتب في صحيفته حسنة أكون أنا السبب فيها.

وفي سنة إحدى وثمانين توفي محمد ابن الحنفية ابن أمير المؤمنين عليه السلام ودفن في البقيع، وروى بعضهم أنه فرّ من فتنة ابن الزبير إلى الطائف حيث لبّى هناك داعي الحق، وكان عمره الشريف خمساً وستين سنة، وأولاده هم: الحسن وأبو هاشم والقاسم وإبراهيم وكنّي بالقاسم، وقد أوردنا في كتاب «المنتهى» نبذة عنه في باب أولاد أمير المؤمنين عليه السلام.

وينقل الشيخ الكشي عن الإمام الرضا عليه السلام قوله: قال أمير المؤمنين عليه السلام: إن المحامدة (يعني من يسمون محمداً) يأبون معصية الله عزّ وجلّ، سأل الراوي: ومن هم هؤلاء؟ قال: محمد بن جعفر، ومحمد بن أبي بكر، ومحمد بن أبي حذيفة، ومحمد ابن أمير المؤمنين عليه السلام.

يقول المؤلف: إن ثلاثة آخرين من المحامدة استشهدوا في أيام معاوية؛ فقد استشهد محمد بن جعفر بن أبي طالب في صفين، ومحمد بن أبي بكر في مصر، كما سبق شرحه، ومحمد بن أبي حذيفة، وكان ابن خال معاوية ويعد من أنصار وشيعة أمير المؤمنين عليه السلام، كان عاملاً على مصر، فأمسك به

معاوية ورمى به في السجن، وبقي مدة مديدة في السجن حتى مضى شهيداً.

وفي سنة اثنتين وثمانين توفي جميل بن عبد الله الشاعر المعروف، «وهو أحد عشاق العرب وصاحب بثينة، وتشبيبه بها وإظهار تعشقه بها مشهور».

وفي سنة ثلاث وثمانين استشهد كميل بن زياد على يدي الحجاج، كما أن أعشى همدان قتل في هذه السنة بحكم من الحجاج، كما ودع الدنيا في السنة نفسها كل من أبي البختري الطائي، وعبد الرحمان بن أبي ليلى، وزرين بن حبيش.

وفي سنة ثمانين أو أربع وثمانين توفي عبد الله بن جعفر بن أبي طالب بالمدينة، وقيل في «الأبواء»، وكان عبد الله معروفاً بكثرة الجود والسخاء، فلما نفدت أمواله طلب من الله الموت، وذلك يوم جمعة في المسجد الجامع، وقال: إلهي لقد منحتني عادة الجود والعطاء، وعوّدتُ الناس على البذل، فإن كنت ستقطع عني مال الدنيا فلا تبقني فيها، فلم يمض ذلك الأسبوع حتى فارق الحياة رحمة الله عليه. وفي سنة ثلاث وثمانين كانت ولادة الإمام الصادق عليه السلام، والشروع ببناء دار الإيمان في قم.

قال القاضي نور الله رضي الله تعالى عنه في «المجالس»: قمّ مدينة عظيمة وبلد كريم، وهي من البلاد التي كانت دوماً داراً للمؤمنين، وقد تخرج منها الكثيرون من أكابر الشيعة الإمامية وأفاضلهم ومجتهديهم، وإن الانتساب إلى بلد كهذا يعدّ من أقوى الأدلة على صحة عقيدة المنتسب إليه.

وقد جاء في كتاب «معجم البلدان» وغيره أن البلدة الطيبة قمّ من المدائن الإسلامية المستحدثة، وأن الأهالي هناك كانوا دوماً من الشيعة الإمامية، وقد بدىء ببنائها سنة ثلاث وثمانين في عهد عبد الملك بن مروان، وقد جرت الأمور كما يلي:

كان عبد الرحمان بن محمد بن الأشعث بن قيس أميراً على سيستان من قبل الحجاج، فلما خرج عليه كان في عداد جيشه سبعة عشر عالماً عراقياً من التابعين، ولما هزم ابن الأشعث أمام الحجاج نزلت هذه المجموعة بناحية

قم، وكان من بينهم عدد من الإخوة أسماؤهم: عبد الله والأحوص وعبد الرحمان وإسحاق ونعيم أبناء سعد[1] بن مالك بن عامر الأشعري،

---

(١) جاء في «مجالس المؤمنين» كما ذكر أيضاً في كتاب «المعجم» أنّ مقدَّم أولئك الإخوة كان عبد الله بن سعد، وكان لعبد الله هذا ولد نشأ بين شيعة الكوفة وكان إماميّ المذهب، وانتقل على هذه الحال من الكوفة إلى قمّ، وعمل قبل كل شيء على ترسيخ متابعة الأئمة الأطهار والتزام أحكام طريقتهم لدى أهل تلك الديار، ولهذا لم يظهر أي سنّي هناك أبداً.

كان هذا كلام صاحب «المعجم»، والأخبار التي رويت عن الرسول والأئمة عليهم السلام في فضل قم وأهل قم لا نهاية لها، ويروى عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

«ألا إن لله حرماً وهو مكة، ألا إن لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حرماً وهو المدينة، ألا إن لأمير المؤمنين عليه السلام حرماً وهو الكوفة، ألا وإن حرمي وحرم ولدي من بعدي قمّ، ألا إن قمّ كوفة صغيرة، ألا إنّ للجنة ثمانية أبواب: ثلاث منها إلى قمّ، تقبض فيها امرأة من ولدي واسمها فاطمة بنت موسى، تدخل بشفاعتها شيعتي الجنة بأجمعهم».

ثم نقل بضعة أحاديث في فضل قم وأهلها، ثم قال:

من طرائف الحكايات أن صاحب «المعجم» أورد في باب تشيّع أهل قمّ أنه في زمن استيلاء سلاطين أهل السنة والجماعة نصبوا سنيّاً متعصباً حاكماً هناك، وكان قد سمع أن أهل قمّ ـ ونظراً لعدائهم للخلفاء ـ فليس بينهم من يحمل اسم أبي بكر أو عمر أو عثمان، فأمر بجمع أهل تلك الديار مع أعيانهم وخطبهم فقال: سمعت أنكم تكنون العداوة للخلفاء الثلاثة، وبناءً على ذلك لم تطلقوا أسماءهم على أولادكم، فبالله أقسم لئن لم تحضروا إليّ شخصاً يحمل اسم أبي بكر أو عمر أو عثمان لأنزلت بكم أشد العقاب! إذ ذاك طلبت منه تلك الجماعة أن يمهلهم ثلاثة أيام، ثم راحوا يبحثون في كل بيت من بيوت مدينتهم فلم يعثروا سوى على رجل مفلس عاري الرأس والقدمين، وجهه لم يعرف الاغتسال، أحول، وكان أقبح خلق الله، وكان اسمه أبا بكر، ولم يكن في أصوله من أهل قمّ، بل كان أبوه رجلاً غريباً أقام رحله في طرف من أطراف قم، أقام هناك، وسمّى ابنه بذلك الاسم الكريم!.

الخلاصة أنهم أحضروا ذاك المسمى باسم أبي بكر على الهيئة التي تقدم تفصيلها أمام الحاكم. فلما وقع نظر الحاكم على أبي بكر بمنظره الكريه بدا عليه الغضب والعداء وقال: أبعد أيام طويلة تحضرون إليّ من اسمه أبو بكر.. شخصاً هو أقبح خلق الله كهذا؟! فانبرى إليه شخص من ظرفاء قمّ فقال: أيها الأمير.. اصنع ما بدا لك، فلن تجد في ماء قمّ أو هوائها من اسمه أبو بكر أفضل من هذا، ونظراً لأن الأمير لم يكن خالياً من لطافة الطبع فقد ضحك رغماً عنه وصفح عنهم. وهذه الحكاية بعينها مشهورة أيضاً في باب شيعة سبزوار، كما أشار المولوي إلى ذلك في «المثنوي». وعلى أي حال فهذه الحكاية قابلة للانطباق على كل من تلكما المدينتين، وإن تخصيصها بواحدة دون الأخرى أمر لا جدوى منه (منه رضي الله تعالى عنه).

وكان في هذا الموضع عدد من القرى كانت إحداها تسمى «كمندان» وقد نزل الإخوة المذكورون هناك غلبةً وقهراً، ثم جمعوا حولهم بني أعمامهم من عرب العراق وقاموا بإعمار تلك المواضع حتى جعلتها كثرة البناء تتصل ببعضها، وغلب عليها اسم «كمندان» الذي كان اسماً لإحداها، وبعد ذلك وبمقتضى المثل المشهور: «عجمي فالعب به ما شئت»! أسقطوا بعض حروف ذلك الاسم من وجه تعريبه فصار «قم».

يقول المؤلف: في وجه تسمية دار الإيمان قم وردت روايات عدة لا يتسع المقام لذكرها.

وفي سنة أربع وثمانين شرع الحجاج ببناء بلده «واسط» وأكمل بناءها سنة ست وثمانين، وسكن فيها، وقد سميت هذه البلدة بـ «واسط» نظراً لأنها تتوسط الكوفة والبصرة وبغداد والأهواز، وقيل إنها تقع على بعد خمسين فرسخاً من كل من هذه المدن الأربع، وتستمدّ ماءها من دجلة بغداد.

وفي يوم السبت الرابع عشر من شوال سنة ست وثمانين توفي عبد الملك بن مروان في دمشق عن عمر بلغ ستاً وستين سنة، وامتد حكمه إحدى وعشرين سنة وشهراً ونصف الشهر منها ثلاث عشر سنة وأربعة أشهر إلا سبعة أيام كان فيها دون مزاحم وكان السابق عليه عبد الله بن الزبير مزاحمه على السلطان. وقد أعقب سبعة عشر ابناً أربعة منهم صاروا خلفاء. وقد روي أن عبد الملك رأى في المنام أنه بال في المحراب أربع مرات، وعبّر رؤياه سعيد بن المسيب بأنّ أربعة من صلبه سيكونون خلفاء أصحاب محراب، وهكذا كان، وسيأتي لاحقاً إن شاء الله تفصيل أحوالهم.

حكم الوليد بن عبد الملك بن مروان

في اليوم الذي توفي فيه عبد الملك بايع الناس ابنه الوليد، وكان رجلاً جباراً عنيداً ظلوماً قبيح الهيئة قليل العلم، وفي سنة ثمان أو تسع وسبعين شرع ببناء المسجد الأموي في الشام وتعمير مسجد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في المدينة، فقام بتوسيعه وأنفق الكثير من المال على هذين المسجدين، ولما شرعوا ببناء مسجد دمشق عثر في حائط المسجد على لوح حجري يحمل نقوشاً يونانية، فعرضوا هذه الكتابة على الكتّاب وأهل الخبرة فلم يتمكنوا من قراءتها ثم بعثوا وراء وهب بن منبه فقام بترجمتها وقال: هذه الكتابة نقشت أيام سليمان بن داود عليهما السلام، وهذه ترجمتها بالعربية:

«بسم الله الرحمن الرحيم، يابن آدم. . لو عاينت ما بقي من يسير أجلك لزهدت في ما بقي من طول أملك، وقصرت عن رغبتك وحيلك، وإنما تلقى ندمك إذا زلّت بك قدمك، وأسلمك أهلك، وانصرف عنك الحبيب، وودعك القريب، ثم صرت تدعى فلا تجيب، فلا أنت إلى أهلك عائد، ولا في عملك زائد، فاغتنم الحياة قبل الموت، والقوة قبل الفوت، وقبل أن يؤخذ منك بالكظم، ويحال بينك وبين العمل، كُتب زمن سليمان بن داود عليهما السلام».

فأمر الوليد أن يكتبوا على حائط المسجد بماء الذهب على اللازورد:

«ربنا الله، لا نعبد إلا الله، أمر ببناء هذا المسجد وهدم الكنيسة التي كانت فيه عبد الله الوليد أمير المؤمنين في ذي الحجة سنة سبع (تسع ـ خ .ل) وثمانين».

وفي أيام الوليد سنة سبع وثمانين توفي عبيد الله بن عباس، وهو نفسه من التحق بمعاوية وغدر بالإمام الحسن عليه السلام، وكان يصغر أخاه عبد الله بسنة واحدة وذكر بعضهم أن وفاته كانت في أيام عبد الملك سنة خمس وثمانين.

وفي سنة إحدى وتسعين توفي الصحابيان سهل بن سعد الساعدي وأنس بن مالك، وعلى قول: إن أنس توفي سنة ثلاث وتسعين.

وفي سنة أربع وتسعين، أو خمس وتسعين على قول توفي سيد الساجدين وزين العابدين علي بن الحسين روحي فداه، على ما جاء في «المنتهى» ويقال لسنة وفاته سنة الفقهاء، ذلك أنه في تلك السنة أو في حدود تلك السنة توفي الكثيرون من الفقهاء والعلماء ومن جملتهم: سعيد بن جبير، وأبو بكر بن عبد الرحمان المخزومي، وعبيد الله بن عبد الله الهذلي، وسعيد بن المسيب، وعروة بن الزبير وعامة فقهاء المدينة، وقيل إن طاعوناً عظيماً نزل في تلك الأيام فحصد في مدة قليلة ثلاثمئة ألف نفر، وسعيد بن جبير هو الذي قتله الحجاج، وبعد خمس عشرة ليلة من قتله نزل به مرض الآكلة فهلك. وأبو بكر وسعيد وعروة كانوا من فقهاء المدينة السبعة المعروفين(١).

وسعيد هو من كان ممتازاً في التابعين بكثرة العلم، وقيل إن مرسلاته أصح المراسيل، بل إن مرسلاته عند الشافعية مثل مرسلات محمد بن أبي عمير عند أصحابنا، والتي هي منتظمة في سلك الصحاح.

---

(١) اعلم أنه كان في المدينة في عصر واحد سبعة من الفقهاء الذين كانوا يقومون بالإفتاء وكانوا مراجع في الفتاوى، وكان يقال لهم: الفقهاء السبعة، وأسماؤهم يضمها هذان البيتان:

ألا كل من لا يقتدي بأئمة ... فقسمة ضيزى عن الحق خارجة
فمنهم عبيد الله عروة قاسم ... سعيد سليمان أبو بكر خارجة

القاسم ولد محمد بن أبي بكر ابن خالة علي بن الحسين عليه السلام، وسليمان ولد يسار مولى ميمونة زوج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وخارجة ولد زيد بن ثابت الأنصاري، وقد ذكر نسب الأربعة الآخرين في المتن، وقيل إن من خواص أسماء الفقهاء السبعة أنها إن كتبت على الحبوب دفعت شر الوسواس والصداع إذا علقت على الرأس - والله هو العالم (منه رضي الله تعالى عنه).

وروي أنه لما توفي الإمام علي بن الحسين عليه السلام شهد جنازته جميع أهل المدينة من بر وفاجر وصلّوا عليه إلا سعيد بن المسيب الذي لم يشهد الصلاة عليه، والذي قصد مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فصلى فيه وحيداً ركعتين، ذلك أن المسجد كان وقتئذٍ خالياً من الناس. قال: لما وقفت إلى الصلاة سمعت صوت تكبير من السماء، ثم سمعت تكبير أهل الأرض حتى بلغ ما سمعته من السماء والأرض سبع تكبيرات، ومن سماعي لهذه التكبيرات سقطت على وجهي فاقداً الوعي، ولما عدت إلى وعيي كان الناس قد رجعوا من الصلاة على علي بن الحسين عليه السلام، فصليت عليه تسع صلوات، وتسع صلوات للمسجد، غير أنه وقع بي خسران كبير، وبقيت ما عشت في هذه الحسرة أتساءل: لماذا لم أصلّ عليه؟ عليه السلام!.

وأما عروة فأخ شقيق لعبد الله بن الزبير، وأم هذين الأخوين أسماء «ذات النطاقين» بنت أبي بكر التي يدعوها أهل السنّة بإحدى عجائز أهل الجنة، وعروة قدم إلى الشام في إحدى السنين مع ابنه محمد بن عروة وورد على الوليد بن عبد الملك، وفي ذلك السفر أصيب ابنه بركلة من راحلته هلك على أثرها، كما ظهر مرض الآكلة في ساق عروة فبتروها، فقال: **«لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً»**.

يقال إنه قال مرة لعبد الملك بن مروان: أريدك أن تجعل سيف أخي عبد الله من نصيبي، قال: هو بين السيوف وأنا لا أميز أحدها عن الآخر، قال عروة: مر بإحضار السيوف فأنا أفعل، فلما أحضرت السيوف رفع عروة من بينها سيفاً أثلم وقال: هو هذا، قال عبد الملك: فأنت تعرفه إذاً؟! قال: لا، قال: علام قلت: هو هذا؟ قال: ميزته بقول النابغة الذبياني:

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم ... بهنّ فلول من قراع الكتائب.

ونوادر حكايات عروة كثيرة. وبئر عروة في المدينة تنسب إليه، ويقول بعضهم: إن تاريخ وفاته سنة ثلاث أو أربع وتسعين.

وفي سنة خمس وتسعين لحق الحجاج الثقفي بدركات الجحيم ودفن في

بلدة واسط، وهي من مبانيه. وقد عفيت آثار مقبرته الملعونة وأجري عليها الماء، واتصلت بها إلى يوم القيامة لعائن أهل الأرض والسماء.

قال ابن خلكان: وكان مرضه بالآكلة وقعت في بطنه، ودعي بالطبيب لينظر إليها فأخذ لحماً وعلّقه في خيط وسرحه في حلقه، وتركه ساعة، ثم أخرجه وقد لصق به دود كثير، وسلط الله تعالى عليه الزمهرير فكانت الكوانين تجعل حوله مملوءة ناراً وتدنى منه حتى تحرق جلده وهو لا يحس بها. وشكا ما يجده إلى الحسن البصري فقال: نهيتك أن تتعرض للصالحين فلججت: فقال: يا حسن، لا أسألك أن تسأل الله أن يفرج عني، ولكن أسألك أن تسأله أن يعجل قبض روحي ولا يطيل عذابي!! فبكى الحسن. وأقام الحجاج على هذه الحالة بهذه العلة خمسة عشر يوماً إلى أن مات. عليه لعائن الله تعالى. وقد مضى في أيام عبد الملك نبذة من حالاته فتذكّر.

وفي يوم السبت منتصف جمادى الأولى سنة ست وتسعين توفي الوليد في الشام وامتدت دولته تسع سنوات وثمانية شهور وليلتين، وكان عمره ثلاثاً وأربعين سنة، وأعقب أربعة عشر ولداً كان من جملتهم العباس الذي لقّب بفارس بني مروان.

وجاء في «أخبار الدول» أنه روي عن عمر بن عبد العزيز أنه قال: لما وضعوا الوليد في لحده رأيت قدميه تجرجران على الأرض، ورأيت يديه مغلولتين إلى عنقه.

خلافة سليمان بن عبد الملك بن مروان

في يوم وفاة الوليد بايع الناس أخاه سليمان بن عبد الملك، وكان رجلاً فصيح اللسان على النقيض من الوليد نظير خالد وعبد الله ابني يزيد بن معاوية، وفيما يعود إلى خالد وسليمان في باب الفصاحة قصة لطيفة لا يسمح المقام بذكرها.

كان سليمان على الدوام يلبس ألبسة فاخرة غالية الثمن، وقد استكمل بناء المسجد الجامع الذي بناه الوليد، وكان يأتي بالصلوات في أول وقتها، في حين كان خلفاء بني أمية في السابق يؤخرونها حتى آخر وقتها.

وكان سليمان رجلاً أكولاً نهماً يستطيب الطعام، وقيل إنه يأكل كل يوم من الطعام ما يقرب من مئة رطل شامي، وكان الطهاة يشوون له فراخ الدجاج فإذا أتوه بأسياخ الشواء لم يصبر عليها حتى تبرد قليلاً فيلتهمها من السيخ مباشرة، فلا غرابة في أنه كان يدخل يديه في أكمام ثوبه، وبهذه الأكمام الفاخرة الثمينة ينتزع اللحم من الأسياخ ويزدردها بحرارتها، ويروى أنه لما قص الأصمعي على الرشيد هذه القصة قال له الرشيد: «قاتلك الله، فما أعلمك بأخبارهم»؟! ثم أردف قائلاً: عرضت عليّ مرة جباب بني أمية فرأيت في أكمام جباب سليمان آثاراً دهنية فلم أعرف سببها إلا الآن بعد أن حدثتني عن أحواله، ثم أمر الرشيد بإحضار الجباب وآثار الدهن ما زالت عليها فعرضها على الناس، ثم ألبس الأصمعي واحدة منها، وكان الأصمعي بين الحين والآخر يلبس الجبة ويقول: هذه جبة سليمان بن عبد الملك وقد ألبسنيها الرشيد.

ويروى أيضاً أن سليمان خرج يوماً من الحمام وقد غلب عليه الجوع، فأمر بالطعام فقيل له: لم ينضج بعد، فقال: يمكنكم إحضاره على حاله، فأحضروا له عشرين حملاً مطبوخاً مع أربعين رغيفاً، وبعد قليل أحضروا الطعام بعد أن استكملوا إعداده فجلس يأكل جري عادته، كأنه لم يكن قد تناول شيئاً!!

ونقل عن «تاريخ نيسابور» أن سليمان كان يأكل إذا أصبح أربعين طيراً مطهوّاً وأربعمئة بيضة إلى أربعة وثمانين كلية مع توابعها إضافة إلى ثمانين رغيفاً، فإذا وضع الطعام بعد ذلك انصرف إليه جري عادته وقصته مع الشراهة معروفة، ويقال إن سبب موته كان الشره وإدخال الطعام على الطعام، وقد جاء في «أخبار الدول» أنه بعد تناوله وقعة بالتفاصيل المتقدمة وإدخاله طعاماً على طعام وقع مريضاً ثم فارق الحياة، انتهى.

أبو حازم الأعرج محض سليمان موعظة بليغة يجدر ذكرها، فقد نقل أنّه لما دخل أبو حازم على سليمان، سأله سليمان: ما هو سبب كرهنا للموت؟ قال: لأننا عمرنا الدنيا وخربنا الآخرة فلا غرو أننا نكره الانتقال من العمران إلى الخراب، قال: بأي نحو سنرد على الآخرة في المعرض الإلهي؟ قال: أمّا من حسن عمله فحاله حال مسافر عاد إلى الوطن من سفره فلقي أهله وعياله، وارتاح من عناء السفر ومتاعبه، وأما من ساء عمله فحاله حال غلام أبق من مولاه فهو في خوف دائم من أن يعيدوه إليه. قال: قل لي ما هو أفضل الأعمال؟ قال: أداء الواجبات واجتناب المحرمات. قال: كلمة العدل ما هي؟ قال: كلمة حق على لسانك أمام رجل تخافه وترجوه، قال سليمان: من هو أعقل الناس؟ قال: من أطاع الله، قال: من هو أكثرهم جهلاً؟ قال: من باع آخرته من أجل الدنيا. قال: عظني، قال: اسع أن لا يراك الله في مواضع نهى عنها، وأن يراك في مواضع أمر بها. إذ ذاك بكى سليمان بكاءً شديداً، فقال أحد الحضور لأبي حازم: ما هذا الكلام الذي قلته في محضر الأمير؟ قال: صه، فالحق تعالى أخذ على العلماء العهد والميثاق أن يظهروا علمهم فلا

يكتموه. قال هذا وخرج، فبعث سليمان إليه مالاً، فرده وقال: والله لا أرضى بهذا المال وهو عندك فكيف إذا وصل إليّ؟!.

وقال أبو الفرج الأصفهاني: إن شخصاً من آل أبي طالب هو عبد الله بن محمد بن علي بن أبي طالب عليه السلام استشهد في أيام سليمان، وكان وصيّ أبيه محمد ابن الحنفية، وكان أهل خراسان في ذلك الزمان يعتقدون أنه إمام ورث الإمامة بوصاية من أبيه، وهو بدوره أوصى إلى محمد بن علي بن عبد الله بن عباس، ومحمد هذا أوصى إلى إبراهيم الإمام، وهكذا انتقلت الخلافة إلى بني العباس بهذه الجهة من الوصية.

يقول المؤلف: سيأتي لاحقاً أن إبراهيم أوصى إلى السفاح، وأن أبا مسلم الخراساني داعية إبراهيم سعى ـ بعد وصية إبراهيم للسفاح وموته ـ في زوال ملك بني مروان وإقامة دولة آل العباس حتى أصبح السفاح خليفة بسعي منه، وسبب موت عبد الله هو أن سليمان في سنة ثمان وتسعين دس له سماً خفية في طعام أطعموه إياه فقتل، ودفن في «الحميمة»(١) من أراضي الشام. وفي العاشر أو العشرين من صفر سنة تسع وتسعين توفي سليمان في «مرج دابق» من أراضي «قنسرين»، وقد امتد حكمه سنتين وثمانية شهور وخمس ليال. وفي السنة نفسها توفي أبو زيد خارجة بن زيد بن ثابت الأنصاري أحد فقهاء المدينة السبعة.

---

(١) الحميمة كانت ملكاً لآل العباس، وكانوا هناك في أيام بني أمية (منه رضي الله تعالى عنه).

خلافة عمر بن عبد العزيز بن مروان

في سنة تسع وتسعين حيث ارتحل سليمان عن الدنيا خلفه عمر بن عبد العزيز على سدة الحكم، والسبب في توليه السلطة هو أن سليمان لما لاحت له بوادر الموت كتب وصية أشهد عليها جمعاً من أكابر الناس ووجوههم وأعيانهم وأوصى أن يُجمع الناس في حال موته فتُقرأ عليهم هذه الوصية، وأن من جرى تعيينه فيها فهو الخليفة من بعده. فلما ارتحل سليمان وانتهوا من دفنه رفع نداء: «الصلاة جامعة»، فاجتمع بنو مروان وسائر طبقات الناس ليروا من سيثبت عليه قباء الخلافة، ثم قام الزهري وصاح بالناس: أيها الناس، هل ترضون بمن عيّنه سليمان خليفة عليكم؟ قالوا: أجل، إذ ذاك قرئت عليهم الوصية وجاء فيها أن عمر بن عبد العزيز هو الخليفة، فلما سمع يزيد بن عبد الملك هذا المضمون ـ وكان عمر ساعتئذٍ قد اتخذ له مكاناً في آخر القوم ـ استرجع، فما كان من الناس إلا أن بادروا إلى عمر وأخذوا بيديه وقادوه نحو المنبر، وكان المنبر ذا خمس درجات، جلس عمر على الدرجة الثانية، وكان أول من بايعه يزيد بن عبد الملك، ثم بايعه سائر القوم سوى سعيد وهشام، غير أنهما بايعاه بعد يومين، ولما استقام له أمر الخلافة خطب في الناس خطبة جاء فيها:

«أيها الناس. . إنما نحن من أصول قد مضت فروعها، فما بقاء فرع بعد أصله، وإنما الناس في هذه الدنيا أغراض تنقّل فيهم المنايا وهم فيها نصب المصائب، ومع كل جرعة شَرَق، وفي كل أكلة غصص، لا ينالون نعمة إلا بفراق أخرى، ولا يعمّر معمّر منكم يوماً من عمره إلا بهدم آخر من أجَله».

ثم كتب إلى عامله على المدينة يأمره بتقسيم عشرة آلاف دينار على أولاد علي عليه السلام. وينقل المسعودي عن بلاغته أنه كان حين يبعث بكتاب إلى أحد عماله يضمنه هذه العبارة: «قد كثر شاكوك وقلّ شاكروك، فإما اعتدلت وإما اعتزلت. والسلام».

وابن خلكان البرمكي ينسب هذه العبارة إلى جده جعفر البرمكي.

كانت ولادة عمر بن عبد العزيز ليلة شهادة سيد الشهداء عليه السلام، كما ولد في مثل هذه الليلة هشام بن عروة، وقتادة والزهري والأعمش. وإجمالاً فقد كان عمر بن عبد العزيز رجلاً وجيهاً من أهل العبادة، وكان نجيب[1] بني أمية، وأعدل بني مروان في الرعية، أمه بنت عاصم بن عمر بن الخطاب، وكان يقال له عمر الثاني، أو عمر الصغير. كما يلقبونه بـ «أشجّ بني أمية» بسبب شجّة وندبة من أثر جرح في وجهه أو رأسه، أصيب به في صغره نتيجة ركلة من دابة، والعبارة المعروفة: «الناقص والأشجّ أعدلا بني مروان» إشارة إليه وإلى يزيد بن الوليد.

ولما استقر أمر الخلافة لعمر قام بعزل عمال بني أمية واستعاض عنهم برجال صلحاء من أهل الخير، كما أمر ببناء دار للضيافة جعل فيها شيئاً لأبناء السبيل، ومن محاسن أعماله ردُّه «فدك» إلى أهل بيت الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بعد أن كان عثمان أقطعها لمروان، كما أحسن إلى أهل البيت وآل علي عليه السلام فلم يتعرض لهم، كما أن من محاسن أعماله أنّه منع سبّ أمير المؤمنين عليه السلام، هذا السب الذي أسسه معاوية، ثم راج وانتشر في أيام الخلفاء السابقين عليه، فرفعه من بين الناس وأمر بأن يستعاض في الخطب عن سب علي والتعرض لأهل بيته صلوات الله عليهم أجمعين بالآية المباركة: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا﴾، والآية الكريمة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ الخ.. ونوادر سيرته كثيرة، وإجمالاً فسيرته الظاهرية تتميز

(١) قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «في كل حيّ نجيب إلا في بني أمية» (منه ره).

كل التميز عن سائر بني أمية، ولهذا السبب فإن اثنين من أكابر علماء الشيعة توقفا عن ذمه رغم أن الشيعة يعتبرونه غاصباً للخلافة والإمامة ويقولون: أيّ معصية أكبر من غصب هذا المنصب العظيم الذي كان في ذاك الزمان حقاً للإمام محمد الباقر عليه السلام فاغتصبه عمر.

وقد توفي عمر في شهر رجب سنة مئة وواحدة من الهجرة في «دير سمعان» من أعمال «حمص» وامتد حكمه سنتين وخمسة أشهر وخمسة أيام، وكان عمره تسعاً وثلاثين سنة، وقبره في «دير سمعان» أيضاً. وحين راح بنو العباس ينبشون قبور بني أمية ويحرقون جثثهم لم يتعرضوا لقبره، حتى أن جماعة منهم قاموا برثائه، وإن أشعار الفرزدق الشاعر وكثيّر عزة والشريف الرضي في رثائه معروفة، ومطلع قصيدة السيد الرضي في مرثيته هذا البيت:

يابن عبد العزيز لو بكت العيـ ـن فتى من بني أمية لبكيتك

خلافة يزيد بن عبد الملك بن مروان

في العشرة الأخيرة من شهر رجب سنة مئة وواحدة حيث ارتحل عمر بن عبد العزيز عن الدنيا تسلم السلطة يزيد بن عبد الملك سبط يزيد بن معاوية بن أبي سفيان، وسار بسيرة عمر بن عبد العزيز مدة أربعين يوماً، جاءه بعدها أربعون من مشايخ الشام وأقسموا أمامه أن ليس على الخلفاء في الآخرة حساب ولا عقاب! خدع يزيد بأقوالهم ونفض يديه من سيرة عمر، وروي أنه غلبت عليه محبة جارية تدعى «حبابة»[1] فالتزم العيش معها ومعاشرتها باستمرار حتى ماتت، فكان لموتها أكبر الأثر على يزيد مما نغّص عيشه وأفقده عقله وصوابه، حتى بقي مدة يرفض السماح بدفنها، وكان لا يفتأ يقبلها ويشمها حتى تعفن جسدها وفسد، وبدأ رجال الخليفة يعيبون عليه هذا العمل، فأذن لهم بدفنها وأقام على رأس قبرها.

يقول الدميري وآخرون: إن يزيد أمر بنبش قبر حبابة وإخراج جثمانها المتعفن، وإجمالاً فبعد موت حبابة بخمسة عشر يوماً مات يزيد، وروي أن أبا حمزة الخارجي عندما كان يذكر بني مروان ويعدد مثالبهم كان إذا وصل إلى اسم يزيد قال: وأجلس يزيد «حبابة» إلى «يمينه» و «سلامة» إلى يساره وقال: أريد من الطرب أن أطير، ثم طار فعلاً إلى لعنة الله وعذاب أليم.

---

(١) كانت حبابة جارية مغنية تحسن فنون الغناء والطرب، وقد وردت حكاية عشق يزيد لها وطربه بها في آخر الجزء الثالث عشر من «الأغاني» (منه رضي الله تعالى عنه).

في أيام حكم يزيد وفي الثاني عشر من صفر سنة مئة واثنتين قتل يزيد بن المهلّب بن أبي صفرة[١] مع عدد كبير من جماعته، ويزيد بن المهلب[٢] هو من كان أبوه المهلب أيام عبد الملك بن مروان عاملاً على خراسان من قبل الحجاج الثقفي، وفي ذي الحجة من سنة ثلاث وثمانين وافته المنية فحل ابنه يزيد محله، وبقي والياً على خراسان ما يقرب من ست سنوات حين عزله عبد الملك بإشارة من الحجاج ونصّب مكانه قتيبة بن مسلم الباهلي، ورجع يزيد إلى العراق حيث أمسك به الحجاج ورماه في السجن وأمر بتعذيبه، وسبب ذلك أن الحجاج كان يخافه ويخشى أن تقوى دولته فيغلب عليه، وبقي يزيد في حبس الحجاج تحت التعذيب حتى تمكن من الفرار وتوجه إلى الشام فشفع له سليمان بن عبد الملك عند أخيه الوليد فأعطاه الأمان، واستمرت الحال على هذا حتى أصبح سليمان خليفة فأعاده إلى ولاية خراسان، وبقي في منصبه حتى موت سليمان وخلافة عمر بن عبد العزيز، فأُخذ ثانية وحبس، وبقي في محبس عمر بن عبد العزيز حتى سنة إحدى ومئة حيث فر من سجنه وتوجه نحو البصرة والكوفة، فجمع الناس حوله وأعلن العصيان، وراح أمره يكبر ويشتد، وقويت دولته إلى أن بعث يزيد بن عبد الملك أخاه مسلمة مع ابن أخيه العباس بن الوليد المعروف بفارس بني مروان على رأس جيش عظيم لصدّه، ووقعت بين الفريقين معركة طاحنة انتهت بهزيمة العراقيين، وتغلب جند الشام على يزيد فقتل مع سائر إخوته في معركة فاصلة، ثم بعث يزيد بن عبد الملك بهلال بن أحوز المازني لتعقب آل المهلب وأمره بقتل كل من وصل حد البلوغ منهم، فانصرف هلال إلى تعقبهم، وكل من عثر عليه منهم وقد وصل حد البلوغ ضرب عنقه.

---

(١) أبو صفرة كنية ظالم بن سراق الأزدي، وكان من شيعة أمير المؤمنين عليه السلام. وقد التحق به يوم الجمل، وتوفي في البصرة وصلى عليه أمير المؤمنين عليه السلام. (منه رضي الله تعالى عنه).

(٢) يقال إن بلدة «جرجان» التي تسمى «آستراباد» أيضاً بناها يزيد بن المهلب بن أبي صفرة وهي مدينة عظيمة كبيرة ومشهورة وتقع بين طبرستان وخراسان (منه رضي الله تعالى عنه).

وجاء نقلاً عن ابن قتيبة أنه قال: «يقال إنه وقع إلى الأرض من صلب المهلب ثلاثمئة ولد». وقال ابن خلكان؛ أجمع علماء التاريخ على أنه لم يكن في دولة بني أمية أكرم من بني المهلب، كما لم يكن في دولة بني العباس أكرم من البرامكة. والله أعلم.

وفي أيام يزيد سنة ثلاث ومئة توفي عطاء بن يسار مولى ميمونة زوج الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، كما توفي في تلك السنة مجاهد بن جبير، وجابر بن زيد البصري.

وفي سنة أربع ومئة توفي وهب بن منبه وطاووس اليماني كما كتب المسعودي، وعلى قول: كانت وفاة وهب في بداية سنة عشر ومئة كما سيكتب المسعودي بعد ذلك، وقال ابن خلكان وآخرون: كانت وفاة طاووس اليماني قبل التروية بيوم واحد سنة ست ومئة بمكة المعظمة، وصلى عليه هشام بن عبد الملك، وكان أحد فقهاء عصره، وروايته عن مناجاة سيد الساجدين في حجر مكة وحديثه معه معروفان، وكان يعدّ من علماء العامّة ولو أن صاحب الروضات يعده من طبقات الخاصة، وفي سنة أربع ومئة أيضاً توفي بالكوفة بموت الفجاءة عامر بن شراحيل المشهور بالعلم والمعروف بالشعبي[(١)].

وفي سنة خمس ومئة توفي عبد الله بن جبير، كما توفي في السنة نفسها كثيّر بن عبد الرحمان الخزاعي الشيعي الشاعر المشهور في المدينة، وهو من شعراء الإمام الباقر عليه السلام ومن خاصّته، وقد شهد جنازته ورفعه على كتفه، واتفق أنه في يوم وفاته توفي عكرمة مولى ابن عباس بالمدنية أيضاً، وقال الناس: توفي اليوم أفقه الناس وأشعر الناس.

---

(١) الشعبي: بفتح الشين وسكون العين المهملة وفي آخرها الباء المعجمة بواحدة، هذه النسبة إلى الشعب وهو بطن في همدان، والمشهور بها أبو عمرو وعامر بن شراحيل الشعبي من أهل الكوفة. كان من كبار التابعين وجلتهم، وكان فقيهاً شاعراً، روى عن خمسين ومئة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (أنساب السمعاني) (منه رضي الله تعالى عنه).

وكثيّر أحد عشاق العرب المشهورين ويعرف بصاحب عزة، بفتح العين المهملة وتشديد الزاي، بنت جميل بن حفص ولذلك يقال له: كثيّر عزة، ونوادر حكاياته كثيرة. وكثيّر: تصغير كثير، وصغّر لأنه كان حقيراً شديد القصر، قال الوقاص: رأيت كثيّراً يطوف بالبيت، فمن حدثك أنه يزيد على ثلاثة أشبار فلا تصدّقه! وكان إذا دل على عبد العزيز بن مروان بمصر يقول: طأطىء رأسك لئلا يؤذيك السقف! يمازحه بذلك. كان عبد الملك يحب النظر إلى كثيّر، فلما ورد عليه فإذا هو حقير قصير تزدريه العين، فقال: تسمع بالمعيدي خير من أن تراه، فقال: مهلاً يا أمير المؤمنين فإنما المرء بأصغريه: قلبه ولسانه، إن نطق نطق بالبيان، وإن قاتل قاتل بالجنان، وأنا الذي أقول:

ترى الرجل النحيف فتزدريه ... وفي أثوابه أسد زئير (الأبيات)

فاعتذر إليه عبد الملك ورفع مجلسه.

وفي يوم الجمعة الخامس والعشرين من تلك السنة توفي يزيد بن عبد الملك في أرض «البلقاء» من أعمال دمشق، فحملت جنازته إلى حيث دفن ما بين «الجابية» و «الباب الصغير» بدمشق، كان عمره سبعاً وثلاثين سنة، وامتد حكمه أربع سنوات وشهراً ويومين.

حكم هشام بن عبد الملك بن مروان
وشهادة زيد بن علي بن الحسين عليه السلام

في سنة خمس ومئة وفي اليوم الذي ارتحل فيه يزيد بن عبد الملك حل محله أخوه هشام، وكان أحول شرس الطباع لئيماً موصوفاً بالحرص والبخل، فكان يضنّ بكل ما جمعه من أموال في خزائنه وما خلفه له السابقون من الحكام.

وروي أن متاعه في السفر إلى الحج كان يحمله ثلاثمئة جمل، ولما توفي هشام أمسك الوليد بن يزيد عن صرف مخارج الكفن والدفن من المال المدخر من باب الاحتياط، بل قام بتجهيزه من أموال القرض والعارية.

وفي «أخبار الدول» أن النفور كان يسود ما بين هشام والوليد فلا غرو أنه بعد موت هشام أمسك الوليد عن غسله وتكفينه من باب الاحتياط حتى فسدت جثته.

وإجمالاً فلم يمرّ زمان على الرعية أشدّ إيلاماً وصعوبة من أيام حكم هشام. وكان هشام امرأً ذا تدبير وسياسة، وقد قيل: ثلاثة في بني أمية كانوا في الأمور السياسية عديمي النظير: أولهم معاوية بن أبي سفيان، وثانيهم عبد الملك بن مروان، وثالثهم هشام. وكان المنصور الدوانيقي في أمور السياسة وتدبير شؤون المملكة يقلد هشاماً.

وفي أيام هشام سنة ثمان ومئة توفي القاسم بن محمد بن أبي بكر رحمة الله عليه في «القديد» على وزن «رجيل» وهي منزل بين مكة والمدينة، والقاسم سبط يزدجرد سلطان العجم وابن خالة الإمام السجاد وجدّ الصادق لأمه عليهما السلام، وهو أحد فقهاء المدينة السبعة، وكان من ثقات علي بن الحسين عليه السلام كما جاء في أحد الأخبار.

وفي سنة عشرٍ ومئة توفي الحسن بن يسار البصري، ولم يمض على وفاته القليل حتى توفي ابن سيرين البصري، وكان النفور سائداً وشديداً بين البصريَّين حتى غدا مثلاً:

«جالس إما الحسن أو ابن سيرين على سبيل منع الجمع دون منع الخلوّ، وذلك أوجب تقارب أجلهما كما سيجيء لاحقاً بيان ذلك في تاريخ الفرزدق وجرير».

قال ابن خلكان: بعد مئة يوم من وفاة الحسن توفي ابن سيرين، ولابن سيرين في تأويل الرؤيا وتعبيرها يد طولى، وحكايات تعابيره معروفة، وكان بزّازاً، وكان أبوه مولى لأنس بن مالك. والحسن البصري كان معروفاً بالفصاحة والبلاغة، ونقل عن أبي عمرو بن العلاء قوله: لم أر أفصح من الحسن البصري والحجاج بن يوسف الثقفي، قيل: أي هذين الاثنين هو الأفصح؟ قال: الحسن، وكانت ولادته في المدينة قبل وفاة عمر بن الخطاب بسنتين.

وفي الليلة التي توفي فيها الحسن ولد أبو عبيدة النحوي البصري. وجاء أن أم الحسن وتدعى خيرة كانت جارية لأم سلمة زوج النبي، وكانت خيرة تغيب أحياناً في حاجة لها فيبكي الحسن، فتلقمه أم سلمة ثديها فيرتضعه، وكان الحليب يفيض أحياناً من ثدي أم سلمة فيمتصه، فلا غرو أن قيل: إن حكمة الحسن وفصاحته من بركة ثدي أم سلمة.

وإجمالاً فالصوفية وأهل السنّة يعتقدون بالحسن تمام الاعتقاد، بينما يعتبره أكثر الشيعة منحرفاً، وقد نقل عن أمير المؤمنين وعن الأئمة الأطهار عليهم السلام مطاعن كثيرة فيه، وقيل إن أمير المؤمنين عليه السلام لعنه مواجهة ولقّبه طوراً بـ «لفتي»[1]، وطوراً بسامري الأمة، كما دعا عليه أن يبقى

---

(١) لفتي: لقب كانت أم الحسن تلقبه به في طفولته دون أن تدع أحداً يعرف ذلك، وهو باللغة النبطية يعني: الشيطان! (منه رضي الله تعالى عنه).

حزيناً مغموماً على الدوام، فلا غرو أنه كان حزيناً مهموماً ما دام حياً، وكان كمن رجع من دفن حميم أو «كخربندج»[1] ضلّ حماره!.

كما روي أنه لما رجع أمير المؤمنين عليه السلام من حرب الجمل قال للحسن: لِمَ لم تشهد الحرب؟! قال: ذلك أني سمعت منادياً يقول: القاتل والمقتول في جهنم! فقال عليه السلام: ذلك المنادي كان أخاك إبليس، والصحيح أنه قال: القاتل والمقتول من جيش المرأة في النار!.

كما أن من المطاعن المعدودة في حق الحسن كونه تخلف عن نصرة سيد الشهداء عليه السلام، إلى غير ذلك، وقلة من علماء الإمامية قالوا: إن الحسن في آخر أمره أصبح من محبّي أهل البيت، والله أعلم.

وإجمالاً فهو من كبار مشايخ الصوفية وله حكم ومواعظ، منها قوله وقد سئل عن حال الدنيا: «**شغلني توقّع بلائها عن الفرح بلقائها**» ومنها: «**تفقّدوا الحلاوة في ثلاثة: الصلاة والذكر وقراءة القرآن، فإن وجدتم وإلا فاعلموا أن الباب مغلق**» ومنها قوله: «**ما رأيت يقيناً لا شك فيه أشبه بشك لا يقين فيه من الموت**».

وفي سنة عشر ومئة أيضاً توفي أبو الطفيل عامر بن واثلة الصحابي، وكان قد أدرك ثماني سنوات من حياة النبي، وبه ختم الصحابة في الدنيا وكانت له حكاية طريفة مع معاوية وأصحابه يمكن الحصول عليها من «مناقب» ابن شهرآشوب.

وفي سنة عشر ومئة كذلك توفي أبو فراس همام بن غالب البصري الشاعر الشيعي المعروف بالفرزدق، وهو من الشعراء المعروفين، ومن شعره القصيدة المعروفة: «يا صاحبي أين حلّ الجود والكرم..» في مدح علي بن الحسين عليه السلام في محضر هشام بن عبد الملك، وقد أنشدها ارتجالاً، وقد نقلها الجميع شيعة وسنّة، ومن ملاحظة القصيدة تعرف أي مرتبة في

---

(١) خربندج أو خربندة: كلمة فارسية تعني: الحمّار أو مؤجّر الحمير (المعّرب).

الشعر يحتل قائلها سيما وهو قد أنشدها ارتجالاً، وقد عرف عن يونس أنه قال: **«لولا شعر الفرزدق لذهب ثلث لغة العرب»**. ونقل العلامة البهبهاني عن الملاّ الجامي الصوفي السنّي المعروف أن امرأة من أهل الكوفة رأت الفرزدق بعد موته في منامها فسألته: ماذا صنع الله بك؟ فقال: لقد غفر لي ببركة القصيدة التي قلتها في مدح علي بن الحسين عليه السلام.

يقول الملاّ الجامي: حقيق على الله تعالى أن يغفر للعالم كله بهذه القصيدة التي قيلت في مدح الإمام عليه السلام.

وكان بين الفرزدق وجرير الشاعر تبادل للهجاء المتواصل والمساجلة فلما بلغ جريراً خبر وفاة الفرزدق بكى وقال: «أما والله.. إني لأعلم أني قليل البقاء من بعده، ولقد كان نجمنا واحداً، وكان كل واحد منا مشغولاً بصاحبه، وقلّما مات ضد أو صديق إلا وتبعه صاحبه».

وقد اتفق أن السنة نفسها التي شهدت موت الفرزدق مات فيها جرير، وعلى قول: كان موته بعد أربعين يوماً من موت صاحبه.

وقد اتفق العلماء أن الإسلام لم يشهد من الشعراء مثيلاً للفرزدق وجرير والأخطل، وقيل إن الأخطل كان نصرانياً ومن أهل الأدب، وقد شبهوا أشعار أولئك الثلاثة بأشعار ثلاثة من شعراء الجاهلية، فشبهوا الفرزدق بزهير، وجريراً بالأعشى، والأخطل بالنابغة.

وزهير هو والد كعب الصحابي المشهور صاحب القصيدة المعروفة: «بانت سعاد..» وكان بيت زهير بيت شعراء فأبوه أبو سلمى وخاله وأخته سلمى وولداه كعب وبجير وأخته الخنساء كانوا كلهم شعراء.

وفي سنة عشر ومئة أيضاً توفي في صنعاء اليمن وهب بن منبه اليماني صاحب الأخبار والقصص المتعلقة بالأمم السابقة، وأحوال الأنبياء، وأوضاع الدنيا، وقد بلغ التسعين من العمر ونقل عنه قوله: لقد قرأت اثنين وسبعين كتاباً من الكتب الإلهية.

وفي سنة أربع عشرة ومئة كانت شهادة الإمام محمد الباقر عليه السلام بناءً على المشهور، وقد تحدثنا عن شهادته في «المنتهى». وفي السنة نفسها أو بعدها بسنة توفي الحكم بن عتيبة التبري الزيدي الكوفي، وروي عن أبي مريم قوله: قال لي الإمام محمد الباقر عليه السلام.

«قل لسلمة بن كهيل والحكم بن عتيبة: شرّقا أو غرّبا فلن تجدا علماً صحيحاً إلا شيئاً خرج من عندنا أهل البيت».

وقال عليه السلام أيضاً: مهما اتجه الحَكَم يميناً أو شمالاً في طلب العلم فوالله لن يجد علماً سوى ما نزل به جبرئيل على أهل البيت.

وفي سنة خمس عشرة ومئة توفي العطاء بن أبي رباح مفتي مكة، وكان من كبار علماء السنة، وقيل إن العطاء كان رجلاً مشلولاً وأعرج وأعمى وأسود اللون.

وفي سنة سبع عشرة ومئة توفيت بالمدينة السيدة سكينة بنت الحسين عليهما السلام، كما توفي في تلك السنة قتادة بن دعامة أحد كبار علماء أهل السنّة في «واسط» وكان قد ولد أعمى، وقال ابن خلكان: إنه مات غرقاً في «دجيل».

وفي السنة نفسها توفي غيلان بن عقبة «ذو الرمة» الشاعر في أصفهان، «وهو أحد فحول الشعراء، وأحد عشاق العرب المشهورين بذلك، وصاحبته ميتة، وكان ذو الرمة كثير التشبيب بها في شعره».

وفي تلك السنة أيضاً، أو في سنة عشرين ومئة توفي نافع مولى عبد الله بن عمر، وكان من ثقات محدثي أهل السنّة.

وفي سنة ثمان عشرة ومئة توفي علي بن عبد الله بن عباس، وهو جد السفاح والمنصور الدوانيقي، وكان أمير المؤمنين عليه السلام قد سماه علياً، وكناه بأبي الحسن، كما كان يسميه «أبا الأملاك». ولما أصبح عبد الملك بن مروان خليفة مع ما يكنه من بغض وعداء لأمير المؤمنين عليه السلام.. قال

لعلي: إني لا أطيق سماع اسم علي وكنيته فيك، فعليك بتبديل اسمك وكنيتك! فبدل كنيته إلى أبي محمد. لكنه رفض تبديل اسمه.

وفي سنة عشرين ومئة توفي عبد الله بن كثير أحد القراء السبعة في مكة وراوياه هما «قنبل» و «بزي».

وفي سنة اثنتين وعشرين ومئة توفي أبو وائلة إياس بن معاوية، وأبو وائلة قليل نظيره في الفطنة والذكاء، والحكايات عن فراسته وفطنته معروفة، وقد أورد ابن خلكان جملة منها.

وفي سنة ثلاث وعشرين ومئة أو بعدها بسنة توفي محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن الحرث بن شهاب بن زهرة بن كلاب الفقيه المدني التابعي المعروف بالزُّهْري بضم الزاي وسكون الهاء.

«وقد ذكره علماء الجمهور وأثنوا عليه ثناءً بليغاً، قيل: إنه قد حفظ علم الفقهاء السبعة، وكان إذا جلس في بيته وضع كتبه حوله فيشتغل بها عن كل شيء من أمور الدنيا، فقالت له امرأته: والله لهذه الكتب أشدّ عليّ من ثلاث ضرائر! وكان جده عبد الله بن شهاب شهد بدراً مع المشركين. قيل للزهري: هل شهد جدك بدراً؟ قال: نعم، ولكن من ذلك الجانب، يعني في الصف الذي كان فيه المشركون.

واختلفت كلمات علمائنا في مدحه وقدحه، وفصّل صاحب الروضات فقال: إنه كان في بدء أمره من جملة علماء أهل السنّة وندماء حزب الشيطان، أراد بهم عبد الملك بن مروان وبنيه، ثم إن علمه وإدراكه أدركاه وأرشداه إلى الحق المبين فصيّراه في أواخر عمره من الراجعين إلى الإمام زين العابدين عليه السلام، وفي زمرة المستفيدين من بركات أنفاسه الشريفة، ثم ذكر شواهد قوله، وليس مقام ذكره، فراجع ثمة».

وجاء في «أنساب السمعاني» أن الزهري بضم الزاي وسكون الهاء منسوب إلى زهرة بن كلاب، ومن تابعي المدينة، وقد لقي عشرة من أصحاب

الرسول، وكان أحفظ أهل زمانه، وفي ليلة الثلاثاء السابعة عشرة من شهر رمضان سنة أربع وثلاثين ومئة توفي في ناحية الشام، وقبره في «البيدار» مشهور ومزور.

شهادة زيد بن علي بن الحسين عليهما السلام

وفي أيام هشام، في أوائل شهر صفر سنة إحدى وعشرين ومئة كانت شهادة زيد بن علي بن الحسين عليهم السلام[1]، وقد أشرنا إلى أحوال زيد وشهادته في كتاب «المنتهى» في باب أولاد الإمام علي بن الحسين عليه السلام، ونكتفي

---

(١) زيد بن علي بن الحسين عليهم السلام في ظهور كمالاته النفسانية ومجاهداته مع مردة بني مروان غنية عن التعريف، وصيت فضله وشجاعته مشهور ومآثر سيفه وسنانه مذكورة على الألسنة، وقد وردت أحاديث كثيرة في فضله، ولا شك في أنه لم يكن من مدّعي الخلافة مع يقين معرفته بأن مستحق الخلافة الحقيقي في زمانه هو الإمام جعفر الصادق عليه السلام، بل كان قصده من الخروج على قاهري الزمان الطلب بثأر أهل البيت عليهم السلام، **«وكان يدعو إلى الرضا من آل محمد عليهم السلام»**.

وقد نقل عنه قوله لما أصابوه بسهم وسقط عن ظهر حصانه: **«أين سائلي عن أبي بكر وعمر؟ هما أقاماني هذا المقام»**!.

وجاء في «حبيب السير» أن أربعين ألفاً من أهل الكوفة بايعوا زيداً فدعا إلى الخروج، وخلال ذلك نقضت طائفة من معارف الكوفة بيعته، وكانوا قد سبق أن مدّوا أيديهم إليه فبايعوه، ولسبب مسطور في التواريخ ومشهور رجعوا عن القول بإمامته وقالوا: الإمام هو جعفر الصادق عليه السلام، فخاطبهم زيد قائلاً: «يا قوم رفضتموني»! ومن هنا أطلق على الشيعي لقب رافضي (منه رضي الله تعالى عنه).

وروي أنه لما وصل خبر شهادته وصلبه إلى الشام أنشد الحكم بن العباس الكلبي البيتين الآتيين:

صلبنا لكم زيداً على جذع نخلة ... ولم نر مهدياً على الجذع يصلب
وقستم بعثمان علياً سفاهة ... وعثمان خير من علي وأطيب

فلما سمع الصادق عليه السلام هذين البيتين قال: **«اللهم إن كان عبدك كاذباً فسلط عليه كلبك»**، وكان الحكم الكلبي متوجهاً آنذاك إلى الكوفة فافترسه سبع في الطريق بسبب دعاء الصادق عليه السلام. فلما بلغه الخبر قال:

«الحمد لله الذي أنجز لنا ما وعدنا» (منه رضي الله تعالى عنه).

هنا بما كتبه الشيخ الجليل علي بن الحسين المسعودي، وعلى طالب التفصيل الرجوع إلى «مقاتل الطالبيين» لأبي الفرج الأصفهاني الزيدي.

قال المسعودي في «مروج الذهب»: لما عزم زيد على الخروج تشاور في الأمر مع أخيه الإمام محمد الباقر عليه السلام فقال له: لا ينبغي الاعتماد على أهل الكوفة فهم أهل غدر ومكر، ففي الكوفة استشهد جدك أمير المؤمنين، وجرح عمك الحسن بن علي، واستشهد أبوك الحسين بن علي عليهم السلام، وفي الكوفة وأعمالها شتمونا نحن أهل البيت. ثم أخبر زيداً بالوقت الذي ستزول فيه دولة بني مروان وما سيعقبها من دولة بني العباس. لكن زيداً أبى قبول نصيحته ودعاه إلى مناصرته في عزمه على طلب الحق من بني العباس، فقال له عليه السلام: إني لأخاف عليك يا أخي أن تصلب في كناسة الكوفة، ثم ودّعه وأخبره أنهما لن يلتقيا بعد يومهما ذاك.

وكانت بداية خروج زيد في أنه «بالرصافة» من أراضي «قنسرين» دخل على هشام، فلما ورد مجلسه لم يجد لنفسه مكاناً يجلس فيه، كما أن أحداً لم يفسح له مكاناً، فلا غرو أنه جلس في أدنى المجلس والتفت إلى هشام فقال:

«ليس أحد يكبر عن تقوى الله، ولا يصغر دون تقوى الله، وأنا أوصيك بتقوى الله فاتّقه»! قال هشام: صه لا أمّ لك، فلأنت وقعت في وهم الخلافة وأنت ابن جارية! قال زيد: هناك جواب عن قولك إن شئتَ قلته وإلا سكتّ، قال: قل، قال: **«إن الأمهات لا يقعدن بالرجال عن الغايات»**، فأم إسماعيل كانت جارية، وأما إسحاق فمع كون أمه جارية فقد بعثه الحق تعالى بالنبوة وجعله أباً للعرب، وأخرج من صلبه النبي الخاتم خير البشر صلوات الله عليه وآله وسلم، وها أنت ذا تطعن بأمي وأنا ابن علي وفاطمة عليهما السلام، ثم وقف وأنشد أبياتاً هذا صدرها:

شـــرّده الـــخـــوف وأزرى بـــه ... كـذلـك مـن يـكـره حـرّ الـجـلاد
قـد كـان فـي الـمـوت لـه راحـة ... والـمـوت حـتـم فـي رقـاب الـعـبـاد
إن يـــحـــدث الله لـــه دولـــة ... يـتـرك آثـار الـعـدى كـالـرمـاد

ثم خرج عن هشام وتوجه إلى الكوفة، فبايعه أشرافها وقراؤها، وأعلن خروجه، وشرع يوسف بن عمر الثقفي عامل هشام على العراق يعدّ لحربه، وهكذا حمي تنور الحرب، أما أصحاب زيد فقد بنوا على الغدر ونكث البيعة، وفروا هاربين، وبقي مع زيد جماعة قليلة، ونشب بين الفريقين قتال شديد حال هبوط الليل دون استمراره، وكان زيد قد أصيب بجراح كثيرة كما استقر سهم في جبهته، فاستقدموا حجاماً من إحدى قرى الكوفة لينزع نصله من جبهته، فلما نزعه فارق زيد الحياة.

أخذوا جثمانه ودفنوه في مجرى ماء وملأوا قبره بالأتربة والأعشاب وأجروا عليه الماء، وأخذوا على الحجام عهداً بألا يبوح بما رأى. فما إن أصبح الصباح حتى غدا الحجام إلى يوسف وأخبره بموضع قبر زيد، فأمر يوسف بنبش القبر وإخراج الجثمان منه، ثم فصل رأسه عن جسده، وبعث به إلى هشام، فكتب إليه أن يصلبه عريان مكشوفاً ففعل، وصلبه عريان في كناسة الكوفة، وإلى هذا أشار بعض شعراء بني أمية عليهم لعائن الله، فقالوا يخاطبون آل أبي طالب وشيعتهم:

صلبنا لكم زيداً على جذع نخلة   ولم أر مهدياً على الجذع يصلب

وبعد مدة كتب هشام إلى يوسف يأمره بإحراق جثة زيد وذر رمادها بالهواء، ويروي أبو الفرج الأصفهاني أن جسد زيد بقي مصلوباً حتى أيام الوليد بن يزيد حيث خرج يحيى بن زيد، فكتب الوليد إلى يوسف: «أما بعد، إذا أتاك كتابي فانظر (فأنزل خ ل) عِجْلَ أهل العراق فأحرقه وانسفه في اليم نسفاً، والسلام». فأمر يوسف بموجب هذا الكتاب خراش بن حوشب بإنزال جسد زيد وإحراقه، ثم نثر رماده في الفرات. وفي جملة من الروايات جاء أنه بقي معلقاً أربع سنين، أنزل بعدها وأحرق، وفي رواية أيضاً أن شخصاً رأى في نومه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم متكئاً على الجذع وهو يقول: أهذا ما يصنعونه بولدي؟!.

ويروي المسعودي عن هيثم بن عدي الطائي عن عمرو بن هانىء أنه قال: خرجنا أيام السفاح مع علي بن عبد الله العباسي لنبش قُبور بني أمية،

فلما بلغنا قبر هشام أخرجناه من قبره فرأينا أن جسده لم يتلاش بعد وأن أعضاءه بقيت صحيحة سوى ما رقّ من أنفه، فجلده عبد الله ثمانين سوطاً[1]، ثم أحرقوه، ثم قصدنا أرض «وابق» فنبشنا قبر سليمان، وكان لم يتبق منه سوى صلبه وأضلاعه ورأسه، فأحرقناه، وفعلنا مثل ذلك بسائر موتى بني أمية المدفونين في قنسرين، ثم اتجهنا إلى دمشق فنبشنا قبر الوليد بن عبد الملك فلم نعثر فيه على شيء، ثم نبشنا قبر عبد الملك فلم نعثر فيه سوى على شؤون من رأسه، ونبشنا قبر يزيد بن معاوية فلم نرَ فيه سوى قطعة عظم، ورأينا في لحده خطاً أسود طولانياً كما لو أن تراباً صب في طول لحده، ثم قمنا بالبحث في سائر قبورهم في سائر البلدان وأحرقنا ما عثرنا عليه فيها.

وإجمالاً فقد توفي هشام يوم الأربعاء السادس من ربيع الآخر في رصافة «قنسرين» وكان ذلك سنة خمس وعشرين ومئة من الهجرة، وكان عمره ثلاثاً وخمسين سنة، وامتد حكمه ما يقرب من عشرين سنة.

---

(١) قال بعضهم: إن جلد هشام ثمانين جلدة كان بمثابة حد القذف، فالظاهر أنه كان قد قذف زيداً بفحش أمه. (منه رضي الله تعالى عنه).

دولة الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان

ومقتل يحيى بن زيد رحمه اللّه

في سنة خمس وعشرين ومئة وفي يوم وفاة هشام استقرّ الوليد الخبيث على سدة الحكم، وكان رجلاً فاسد السيرة ملحداً سيّىء السلوك معروفاً بالفسق والفجور، غير ملتزم حتى بأدنى حدود مظاهر الإسلام، منشغلاً باستمرار بشرب الخمر والغناء واللهو وضروب الفسق والفجور والطرب، ولم يماثله من بني أمية في شرب الخمر أحد، كان يأمر بملء بركة بالشراب إذا ما غلبه الطرب، ثم ينزل فيها ويعبّ ممّا فيها من شراب حتى يبين النقص في أطرافها. وجاء في «تاريخ الخميس» و «أخبار الدول» أن الوليد الملحد جاء بيته يوماً فرأى ابنته تجلس مع مربيتها، فما كان منه إلا أن جلس على ركبتيها وافتض بكارتها، فقالت له المربية: لقد سبقت المجوس في ما صنعت، فأجابها:

من راقب الناس مات هما (غماً خ. ل) وفاز باللذة الجسور

ونقل ابن أبي الحديد ضمن أخبار الحمقى العرب أن سليمان أخا الوليد قال يوماً في المجلس: لعن الله أخي الوليد فقد كان رجلاً فاجراً وقد طلبني إلى الفاحشة، يريد اللواط، فقال له أحد قرباه: صه، فوالله لو قصد ذلك لفعله، وجاء في جملة من كتب أهل السنّة أن مؤذناً أذن للصبح يوماً، فما كان من الوليد إلا أن قام إلى الشراب فشرب، ثم قارب جارية كانت ثملة أيضاً، وكان قد غضب منها، ثم أقسم عليها ألا تصلي مع أحد غيره، ثم لبس ملابسه وبعث بالجارية الثملة وهي في حال الجنابة إلى المسجد للصلاة مع الناس.

وجاء أيضاً في «أخبار الدول» و «تاريخ الخميس» أن هذا الكافر عزم على الحج وأراد أن يتجرع كؤوس العقار ونيل لذة القبل، ثم يعتزل، وجاء في «حياة الحيوان» للدميري و «أدب الدين والدنيا» للماوردي أن الوليد استخار يوماً بالقرآن المجيد فخرجت له الآية: ﴿وَٱسۡتَفۡتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾، فجمع عدة مصاحف فوق بعضها واتخذ منها هدفاً لسهامه فمزق العديد منها إرباً إرباً، ثم أنشد مخاطباً القرآن المجيد:

تهددني بجبار عنيد فها أنا ذاك جبار عنيد
إذا ما جئت ربك يوم حشر فقل يا رب مزّقني الوليد

وحكاية عشقه لامرأة نصرانية وردت في «تزيين الأسواق» لداود الأنطاكي، وذكر المسعودي في «مروج الذهب» أن ابن عائشة المغني جاءه يوماً وغناه الأبيات:

إني رأيت صبيحة النحر حوراً نَعيْنَ عزيمة الصبر
مثل الكواكب في مطالعها عند العشاء أطفن بالبدر
وخرجت أبغي الأجر محتسباً فرجعت موفوراً من الوزر

فقال له الوليد: أحسنت والله، وأقسم عليه بحق عبد شمس أن يعيدها ففعل، ثم أقسم عليه ثانية بحق أمية فأعادها، وطفق يذكر له هذه الشجرة الملعونة أباً بعد أب ويستعيده وابن عائشة يجيبه حتى وصل إلى شخصه هو فقال له: بحياتي عليك إلا ما أعدتها، فأعادها، فما كان منه بعد أن بلغ منه الطرب مبلغه إلا أن راح يقبل أعضاء ابن عائشة عضواً عضواً من فرقه حتى قدمه حتى بلغ مذاكيره فانحنى يريد تقبيلها، فما كان من ابن عائشة إلا أن جمع نفسه فاستتر، فقال الوليد: والله لا أرفع يدي حتى أقبلها، ثم قبل حشفته وراح يصرخ في سكره: واطرباه.. واطرباه! ثم خلع ملابسه دفعة واحدة ووقع على ابن عائشة وبقي عريان مكشوفاً حتى أحضروا له لباساً ستر فيه نفسه، ثم أمر بإعطاء ابن عائشة ألف دينار كما أمر بإعطائه بغلاً، وبقي واقفاً حتى أحضروا البغل وركبه ابن عائشة ثم قال له: ينبغي أن تسير بالبغل على بساطي حتى تشعل النار الأبدية في كبدي.

كما جاء في «مروج الذهب» عن «الكامل» للمبرّد أن الوليد كان يجهر بسوء معتقده وينشد:

فيلعب بالخلافة هاشمي بلا وحي أتاه ولا كتاب
فقل لله يمنعني طعامي وقل لله يمنعني شرابي

أستغفر الله من كتابة كفره وحكاية شعره، وقد أخذ الوليد هذا الكفر عن يزيد وعن أبي سفيان بالخصوص، وقد قتل الوليد بعد قليل من هذا، ومن صفاته المعروفة أنه كان يفجر بجواري أبيه رغم أنهن منكوحات من أبيه وقد أنجبن له الأولاد. ومن المعروف في أيام من لحقه من الخلفاء وعلى ألسنة المؤرخين من أهل السنّة شهرته بالوليد الفاسق والوليد الزنديق.

وجاء في «أخبار الدول» عن «مسند أحمد»، كما جاء في «تاريخ الخميس» عن الذهبي أنه روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: **«ليكونن في هذه الأمة رجل يقال له الوليد هو أشد لهذه الأمة من فرعون لقومه»**.

هذا ولا ينتهي العجب من القاضي عياض! إذ قال: الوليد أحد الخلفاء الاثني عشر الذين نُصّ عليهم في الحديث المتواتر المتفق عليه بين الخاصة والعامة، وجاء في «أخبار الدول» أن صاحب «كوكب الملك» ينقل أن الوليد كان مبتلى بثلاث وثلاثين بليّة، أقلّها أنه كان يتبوّل من سرّته.

وإجمالاً، فلما فشا فسق الوليد وشاع فجوره أضمر الناس له العداوة فيما بينهم وأجمعوا على الخروج عليه، كما أجمع أهل دمشق على خلعه وتنصيب ابن عمه يزيد الناقص، فوفد الناس على يزيد من البادية وعقدوا معه حلفاً اتفقوا فيه على نصرته في قتاله الوليد.

كان الوليد إذ ذاك قد خرج إلى تدمر في طلب الصيد، فأعلن يزيد الحرب على الوليد، وجرت بينهما معركة عظيمة انتهت بهزيمة الوليد، فلجأ إلى قصره وتحصن به فأحاط جند يزيد بالقصر ثم اقتحموه وقتلوا الوليد شر قتلة ثم جذوا رأسه وعلقوه فوق سور القصر، أما جسده فدفنوه خارج باب الفراديس.

يقول المسعودي: كان مقتله في «بحراء» من قرى دمشق ليومين بقيا من جمادى الآخرة سنة ست وعشرين ومئة بعد أن حكم سنة وشهرين واثنين وعشرين يوماً، وقد بلغ الأربعين من العمر ودفن في بحراء. انتهى.

وفي بداية حكم الوليد قتل خالد بن عبد القسري[1]، وكان خالد قد عُين والياً على العراقين من قبل هشام بن عبد الملك بعد أن عزل عنها عَمْرَ بن هبيرة، واستمر خالد في ولاية العراقين حتى سنة عشرين ومئة حيث عزله هشام ونصب مكانه يوسف بن عمر الثقفي ابن عم الحجاج، الذي أمسك بخالد ورماه في السجن حتى أواخر سنة خمس وعشرين ومئة في أوائل حكم الوليد، حيث قتله شر قتلة.

يقال إن خالداً كان معروفاً بسخائه، ويقال إن أعرابياً قدم عليه وقال له: لقد مدحتك ببيتين من الشعر أملت أن تجزيني عليهما عشرة آلاف درهم وخادماً، قال: أنشدنيهما فأنشد:

لزمتَ «نعم» حتى كأنك لم تكن سمعت من الأشياء شيئاً سوى نعم
وأنكرت «لا» حتى كأنك لم تكن سمعت بها في سالف الدهر والأمم

فأعطاه خالد خادماً وعشرة آلاف درهم.

غير أنه في «الأغاني» كان أبو الفرج يعدّه من البخلاء! ونقل حكايات عن بخله، كما نقل أنه كان مخناثاً، وكانت أمه نصرانية، وكان يجهر بالعداوة والبغضاء لأمير المؤمنين عليه السلام دون حدود، وقد نقلت عنه أقوال في سبّه مما لا يجدر ذكره (ومن أين لمخناث أن يحب علياً؟) بل رويت عنه حكايات يعلم منها كفره وإلحاده وزندقته «لعنة الله عليه».

وفي يوم وفاة خالد هلك في حبس يوسف بن عمر محمد وإبراهيم ابنا هشام بن إسماعيل المخزومي، وكان من أخوال هشام بن عبد الملك، وقد

---

(١) القسري بفتح القاف وسكون السين، وراء مهملة ينسب إلى قسر، بطن من قيس، وقيس بطن من بجيلة «أنساب السمعاني» (منه رضي الله تعالى عنه).

حبسهما يوسف بأمر من الوليد، وكان طيلة وجودهما في الحبس يجرعهما أقسى التعذيب والنكال، وذلك لما كان الوليد يكنه لهما من البغضاء، وكان يقول: أريد الثأر لابن عمّ «العرجي»، والعرجي هو عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان، وكان محمد بن هشام المخزومي قد حبسه وعذبه بضرب السياط أشد العذاب، وكان يجره من عنقه في الأسواق وقد بقي محبوساً طيلة تسع سنوات حتى مات في محبسه، وله أشعار قالها أيام حبسه، منها هذا البيت المعروف:

أضاعوني.. وأيّ فتى أضاعوا ليوم كريهة وسداد ثغر!

و «عرج» موضع بمكة.

وفي أوائل حكم الوليد خرج عليه يحيى بن زيد بن علي بن الحسين عليهما السلام، قام يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويدفع ظلم بني أمية وقد شاع أمره وانتشر، وقتل في النهاية، ولعل من المناسب هنا الحديث باختصار عن كيفية مقتله.

مقتل يحيى بن زيد بن علي بن الحسين عليهما السلام

اعلم أنه بعد شهادة زيد بن علي بن الحسين عليهما السلام في الكوفة سنة إحدى وعشرين ومئة، وبعد أن فرغ يحيى من دفن أبيه، تفرق أعوانه، ولم يبق مع يحيى سوى عشرة أشخاص، فلا غرو أنه خرج من الكوفة ليلاً، وتوجه إلى «نينوى»، ومنها إلى المدائن، وكانت في تلك الأيام تقع على الطريق إلى خراسان، فبعث يوسف بن عمر الثقفي والي العراقين بالحريث الكعبي إلى المدائن للإمساك بيحيى، فتحول يحيى إلى الري ومنها إلى «سرخس» حيث نزل عند يزيد بن عمرو التيمي، وبقي عنده ستة أشهر، وقد رغب جماعة من «المحكّمة»[1] أن يتعاونوا مع يحيى على قتال بني أمية، غير

(١) المحكّمة: من الخوارج، وذلك لأنهم اتخذوا شعاراً لهم عبارة «لا حكم إلاّ لله» (منه رضي الله تعالى عنه).

أن يزيد بن عمرو نهى يحيى عن ذلك وقال: وكيف تستعين على دفع أعدائك بقوم يبرأون من علي وأهل بيته؟! فردّهم يحيى، ثم توجه من سرخس إلى بلخ ونزل عند جريش بن عبد الله الشيباني، وبقي عنده حتى توفي هشام وخلفه الوليد.

إذ ذاك كتب يوسف بن عمر إلى نصر بن سيار عامله على خراسان يأمره بأن يبعث إلى جريش يأمره بتسليم يحيى، فكتب نصر إلى عقيل عامل بلخ يأمره بالقبض على جريش وأن يجعله رهينة عنده حتى يسلم يحيى إليه، وبموجب هذا الأمر قام عقيل بالقبض على جريش وضربه ستمئة سوط وقال له: والله لئن لم تسلمني يحيى قتلتك. غير أن جريشاً أبى بشدة أن يسلمه، فما كان من ابنه «قريش» إلا أن ذهب إلى عقيل وقال له: أنت لا شأن لك بأبي، أنا أكفيك هذا الأمر وأسلمك يحيى، ثم اصطحب جماعة وخرج للبحث عن يحيى حتى عثروا عليه في بيت في جوف بيت آخر فأمسكوا به مع يزيد بن عمرو أحد أصحابه الكوفيين، وبعثوا بهما إلى نصر بن سيار، فقيّده نصر وألقى به في السجن، وكتب إلى يوسف بن عمر يشرح له الحال، فكتب يوسف بدوره إلى الوليد بالأمر، فجاء الرد من الوليد بإطلاق يحيى وأصحابه، فكتب يوسف إلى نصر بمضمون كتاب الوليد، فاستدعى نصر يحيى إليه وأوصاه وحذره الفتنة، ثم أعطاه بغلين وألفي درهم وأمره بالالتحاق بالوليد، وبعد أن فكّ حدّاد عن يحيى قيْده، قصد جماعة من أصحاب الأموال الشيعة الحدّاد الذي خلص يحيى من القيد الذي يغل قدميه، وقالوا له: بعنا هذا القيد، فاستخرج الحداد القيد الحديدي، وعرضه للبيع لمن يدفع أكثر، وراحت قيمة القيد ترتفع حتى بلغت عشرين ألف درهم، فابتاعوه جميعهم شراكة ثم قسموه قطعاً فيما بينهم جعلوا منها فصوصاً لخواتم لبسوها للتبرك.

وإجمالاً فقد توجه يحيى بعد إطلاق سراحه إلى «سرخس» ومنها إلى «بوشهر» حيث نزل عند واليها عمرو بن زرارة الذي أعطاه ألف درهم لنفقته وأمره بالتوجه إلى «بيهق» في أقصى بلاد خراسان، وفي بيهق انضم إلى يحيى

سبعون نفراً فابتاع لهم بغالاً، ثم إن عَمراً كتب إلى نصر ينبئه بواقع الأمر، فكتب نصر إلى عبد الله بن قيس عامل سرخس، وإلى الحسن بن زيد عامل طوس يأمرهما بالتوجه إلى عمرو بن زرارة ووضع أنفسهما بتصرفه في العمل على صدّ يحيى، فذهبا مع جندهما إلى عمرو حيث أعدوا عشرة آلاف رجل لقتال يحيى.

خرج يحيى إلى قتالهم في سبعين فارساً ودارت بين الفريقين معركة كبيرة أسفرت عن ظفر يحيى ومقتل عمرو بن زرارة، وأخذ يحيى أموال عمرو غنيمة. ثم تحول من هناك إلى هرات، ومنها إلى «جوزجان» وتقع ما بين «مرو» و «بلخ» من بلاد خراسان، فبعث نصر بن سيار سلم بن الأحور على رأس ثمانية آلاف فارس من أهل الشام ومن غيرهم لحرب يحيى، والتقى الجيشان في قرية «أرغوي» ونشب قتال بينهما استمر ثلاثة أيام حتى فني جيش يحيى وأصيب في معمعان الحرب بسهم في جبهته أرداه شهيداً.

وبعد مقتله وظفر جيش سلم أتوا إلى مقتله فعرّوه من لباسه وفصلوا رأسه عن جسده وبعثوا به إلى نصر الذي بعث به بدوره إلى الوليد، أما جسده فصلبوه عند بوابة جوزجان، وبقي معلقاً هناك حتى تزلزلت أركان السلطة الأموية وقويت شوكة بني العباس، فقتل أبو مسلم المروزي داعية بني العباس سلم قاتل يحيى ودفنه هناك، ولم يبق أحد ممّن شرك في دم يحيى إلا أصابه القتل، ثم أقيمت مجالس العزاء على يحيى في خراسان وما حولها لمدة أسبوع، كما أن كل مولود ولد في تلك السنة أعطي اسم يحيى، وكان مقتل يحيى سنة خمس وعشرين ومئة، وأمه «ريطة» بنت أبي هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية. وقد أشار دعبل الخزاعي إلى قبره في الشطر الآتي: «وأخرى بأرض الجوزجان محلها».

ورد في سند «الصحيفة الكاملة» إشارات تتعلق بيحيى وملخصها أن المتوكل بن هارون راوي الصحيفة قال:

[لقيت يحيى بن زيد بن علي عليه السلام وهو متوجه إلى خراسان

فسلمت عليه، فقال لي: من أين أقبلت؟ قلت: من الحج. فسألني عن أهله وبني عمه بالمدينة، وأحفى السؤال عن جعفر بن محمد عليه السلام فأخبرته بخبره وخبرهم، فقال لي: فهل لقيت ابن عمي جعفر بن محمد عليه السلام؟ قلت: نعم. قال: فهل سمعته يذكر شيئاً من أمري قلت: نعم، فقال: بم ذكرني؟ خبّرني، قلت: جعلت فداك، ما أحب أن أستقبلك بما سمعته منه. فقال: أبالموت تخوّفني؟ هات ما سمعته. فقلت: سمعته يقول إنك تقتل وتصلب كما قتل أبوك وصلب. فتغيّر وجهه وقال: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾.

وبعد كلام تبودل بينهما أردف المتوكل بن هارون فقال:

ثم دعا (يحيى) بعيبة فاستخرج منها صحيفة مقفلة مختومة، فنظر إلى الخاتم وقبله وبكى، ثم فضّه وفتح القفل، ثم نشر الصحيفة ووضعها على عينه وأمرّها على وجهه وقال:

والله يا متوكل لولا ما ذكرت من قول ابن عمي أنني أقتل وأصلب لما دفعتها إليك، ولكنت بها ضنيناً، ولكني أعلم أن قوله حق أخذه عن آبائه، وأنه سيصحّ، فخفت أن يقع مثل هذا العلم إلى بني أمية فيكتموه ويدّخروه في خزائنهم لأنفسهم، فاقبضها واكفينها وتربّص بها، فإذا قضى الله من أمري وأمر هؤلاء القوم ما هو قاض فهي أمانة لي عندك، حتى توصلها إلى ابني عمي محمد وإبراهيم ابني عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي عليهما السلام.

قال المتوكل: فقبضت الصحيفة، فلما قتل يحيى بن زيد صرت إلى المدينة، فلقيت أبا عبد الله عليه السلام فحدثته الحديث عن يحيى، فبكى واشتد وجده به وقال: «رحم الله ابن عمي وألحقه بآبائه وأجداده...» الخ].

ويروي الشيخ الصدوق رضي الله عنه عن الإمام الصادق عليه السلام أنه لما قتل آل أبي سفيان الحسين بن علي عليه السلام نزع الله الملك منهم ولما قتل هشام زيد بن علي بن الحسين نزع الله الملك منهم، ولما قتل الوليد يحيى نزع الحق تعالى الملك منه.

حكم يزيد وإبراهيم ابني الوليد بن عبد الملك بن مروان

تماماً كما جرى للوليد بن عبد الملك ففي ليلة الجمعة الثالثة والعشرين من جمادى الآخرة سنة ست وعشرين ومئة عمد أهل الشام إلى خلع ابن عمه الوليد بن يزيد من الخلافة ومدوا يد البيعة إلى ابنه يزيد الذي أصدر أوامره بقتل الوليد وقال: من يأتيني برأسه فله مئة ألف درهم. فما كان من أصحابه إلا أن تحولوا إلى «بحراء» والاسم هو لقرية من قرى دمشق، وأحاطوا بالوليد، وقد قال الوليد يومها: إن حالي اليوم أشبه بحال عثمان بن عفان.

ثم إن الناس انثالو عليه وسفكوا دمه وفصلوا رأسه عن جسده ثم علقوه على سور دمشق. واستقر أمر الخلافة ليزيد الذي انتهج نهج النسك والعدالة، وسلك مسلك عمر بن عبد العزيز، وكان يلقب بالناقص، وذلك لأنه أنقص جعالات الجند، وعبارة «الناقص والأشج أعدلا بني أمية» معروفة، وتلك إشارة إليه وإلى عمر بن عبد العزيز. وكان يزيد على مذهب المعتزلة، ولهذا فإن المعتزلة يفضلونه على عمر بن عبد العزيز، وكان أول خليفة أمه أم ولد، وكان بنو أمية يحترزون من هذا الأمر كثيراً بسبب تعظيمهم لمنصب الخلافة أولاً، ولأنهم ثانياً كانوا قد سمعوا أن سلطانهم سيزول على يدي خليفة أمه أم ولد، وكانت مدة خلافة يزيد منذ مقتل الوليد إلى حين وفاته خمسة شهور وليلتين، وقد توفي في دمشق يوم الأحد هلال شهر ذي الحجة سنة ست وعشرين ومئة، ودفن فيما بين «باب الجابية» و «الباب الصغير» وتوفي عن عمر بلغ السادسة والأربعين، أو بلغ الأربعين، وفي تلك السنة نفسها توفي المادح الأوحد لآل أحمد أبو المستهل الكميت بن زيد الأسدي رحمه الله،

ومدائح الكميت المميزة لأهل البيت عليهم السلام معروفة كما في حديث الباقر عليه السلام معه، وقد أشرنا إلى قدر من تلك المدائح في كتاب «منتهى الآمال» ومن أشعاره:

ويـــوم الـــدوح دوح غـــديـــر خـــمّ أبـــان لـــه الـــوصـــيـــة لـــو أُطـــيـــعـــا
ولـــكـــن الـــرجـــال تـــبـــايـــعـــوهـــا فـلـم أر مـثـلـهـا خـطـبـاً بـديـعـاً (فظيعاً)

وروي أن الكميت - بعد قوله هذه الأشعار - رأى أمير المؤمنين عليه السلام في منامه وطلب إليه أن يقول:

ولـــم أر مـــثـــل ذاك الـــيـــوم يـــومـــاً ولـــم أر مـــثـــلـــه حـــقـــاً أضـــيـــعـــا

ومن أشعاره أيضاً القصائد «الهاشميات» المعروفة والتي بعد أن أنشأها قرأها على الفرزدق الشاعر فاستحسنها الفرزدق وطلب إليه نشرها وإشاعتها، فتوجه إلى المدينة حيث لقي الإمام الباقر عليه السلام، الذي دعا له بالعبارة التي قالها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في حق حسان بن ثابت. ثم قصد الكميت عبد الله بن الحسن وسائر بني هاشم وأنشدهم تلك الأشعار، فتناول عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر قطعة جلدية وطلب إلى أطفاله أن يمسكوا بزواياها الأربع وطاف على بيوت بني هاشم وقال: يا بني هاشم.. هذا الكميت يقول الشعر في حقكم في الوقت الذي سكت الناس عن ذكر فضائلكم وعرّض دمه لأن يسفك عند بني أمية، هيّا فصلوه بكل ما تقدرون عليه من درهم ودينار فراح كل ذي قدرة منهم يسقط في قطعة الجلد ما قدر عليه حتى وصل الدور إلى النساء الهاشميات اللواتي قدّمن كل ما لديهن حتى الحلى والزينة، نزعنها عن أبدانهن وجئن بها إلى الكميت، وبهذا تم جمع ما يعدل مئة ألف درهم، فجاء بها عبد الله إلى الكميت وقال: «يا أبا المستهل، أتيناك بجهد المقلّ»! فقال الكميت: فداكم أبي وأمي أهل البيت، لقد قدمتم الكثير، ولا غرض لي في مدحكم سوى رضى الله ورسوله. فلا آخذ منكم شيئاً، فردوا كل شيء إلى صاحبه. ورغم كل محاولاتهم فهو لم يقبل أن يأخذ شيئاً. وقد ذكرت للكميت فضائل كثيرة.

ويروى عن أبي عبيدة أنه قال: لو لم يكن لبني أسد من منقبة سوى أن الكميت منهم لكفاهم، كما نقل عن بني أسد قولهم: إن لدينا فضيلة ليست لأحد من العالمين، وذلك أنه ليس منا أحد إلا وورث البركة من الكميت، وذلك أن الكميت رأى في نومه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال له: أنشدني قصيدة: «**طربت وما شوقاً إلى البيض أطرب**..» فأنشده تلك القصيدة وهي من «الهاشميات» فدعا له صلى الله عليه وآله وسلم وقال: «**بوركت وبورك قومك**».

والكميت علاوة على كونه شيعياً وشاعراً مجيداً فقد كان فقيهاً وخطيباً ونسّابة حسن الخط، كما كان فارساً ورامياً وسخياً وصاحب دين، والمقام لا يتسع لذكر مدائحه.

ولما ارتحل يزيد الناقص عن الدنيا حل محله أخوه إبراهيم حسب وصيته، وامتد حكمه أربعة أشهر، أو شهرين وعشرة أيام، غير أن الحكم لم يستقر له وساد في أيامه الهرج والمرج وظهر الاختلاط في الأمور واختلاف الكلمة، وكان الناس يسالمونه أسبوعاً، ويهملونه فلا يأبهون له أسبوعاً، وفي ذلك يقول شاعر العصر:

نبايع إبراهيم في كل جمعة ألا إن أمراً أنت واليه ضائع

واستمر الأمر معه على هذا المنوال حتى خرج عليه مروان بن محمد في الجزيرة، ثم دخل دمشق واشتبك معه في القتال، ونظراً لأن دولة إبراهيم لم يكن لها حول ولا قوة فقد آثر الفرار، فلحق به مروان حتى ظفر به فقتله ثم صلبه.

ومنذ أيام إبراهيم ومروان مالت سلطة بني مروان إلى الضعف والاضمحلال حتى قتل مروان وضاعت السلطة من دولتهم دفعة واحدة وانتقلت إلى بني العباس.

وفي أيام إبراهيم، أو في أيام الوليد على قول بعضهم توفي باقر العلوم عليه السلام، وقد أوردنا شهادته في كتاب «منتهى الآمال».

حكم مروان بن محمد بن مروان بن الحكم الجعدي

المنبوز بـ (الحمار) ومقتله

بعد مقتل إبراهيم في يوم الاثنين الرابع عشر من صفر سنة سبع وعشرين ومئة في دمشق، أو في «حران» من ديار المصر، بايع الناس مروان بن محمد، وكان مروان يلقب بـ «الحمار»، وذكروا لهذا اللقب أسباباً مختلفة، ففي «أخبار الدول»: لقب مروان بالحمار لشدة صبره على شدائد الحرب ومكارهها، فهو لم يعرض أبداً عن حرب، ومن هذا الباب قيل: «فلان أصبر من حمار في الحروب».

وكان مقتله في أوائل سنة اثنتين وثلاثين ومئة، وقد امتد حكمه حتى يوم مقتله خمس سنين وعشرة أيام، وعلى قول آخر: خمس سنين وثلاثة أشهر. وفي أيامه حوالى سنة ثمان وعشرين ومئة توفي إسماعيل بن عبد الرحمان المعروف بـ «السدي»[1] الكوفي المفسر المشهور.

وفي تلك السنة أيضاً، أو في سنة سبع وعشرين ومئة، على قول، توفي

(١) السدي بضم السين وتشديد الدال المهملة نسبة إلى سدة جامع، والجعفي: كالسدي نسبة إلى الجعف بن سعد، عشيرة من مذحج.
وفي مجمع البحرين: السدي نسبة إسماعيل السدي المشهور. قال الجوهري: لأنه كان يبيع المقانع والخمر في سدة من مسجد الكوفة، وهي ما يبقى من الطاق المسدود وجمع السدة: السدد، مثل: غرفة وغرف، وفي «ميزان الاعتدال» المعتبر عندهم إسماعيل السدي شيعي صدوق لا بأس به، وكان يشتم أبا بكر وعمر، وهو السدي الكبير، والصغير: ابن مروان (منه رضي الله تعالى عنه).

جابر بن يزيد الجعفي الشيعي، وغرائب أحواله معروفة، والدميري يقول: إن وفاته كانت سنة ست وستين ومئة، وقال في «الميزان الذهبي» عن جابر الجعفي أنه كان يقول: «دابة الأرض علي بن أبي طالب عليه السلام» وكان جابر الجعفي شيعياً يرى الرجعة، أي أن علياً يرجع إلى الدنيا، الخ..

وفي سنة تسع وعشرين ومئة توفي في الكوفة عاصم بن أبي النجود الكوفي أحد القراء السبعة المعروفين، ويجمع أسماءهم البيتان الآتيان:

تعداد أصحاب القراءة سبعة   وهم ابن عامر، نافع، ثم الكسائي
وابن الكثير وحمزة وأبو النجود   والسابع الباقي ويدعى ابن العلاء

وأما بلادهم فهي الآتية: عاصم وحمزة والكسائي فمن الكوفة، ونافع فمدني، وابن كثير فمكّي، وأبو عمرو فبصري، وابن عامر فمن الشام.

وأما القراءات العشر فقراءات السبعة المشار إليهم إضافة إلى قراءة أبي جعفر المعروف بالمدني الأول، وقراءة يعقوب البصري، وقراءة خلف. وأما القراءات الشاذة، أي المطروحة فقراءات كل من المطوعي والشنبوذي وابن محيصن الكوفي وسليمان الأعمش والحسن البصري.

واعلم أن لكل من القراء السبعة راويان، وأدرج في ما يلي أسماء القراء مع أسماء رواتهم وألقابهم ورموزهم:

الأول: نافع بن عبد الرحمان بن أبي نعيم المدني، وراوياه: عيسى الملقب بـ «القالون» وعثمان الملقب بـ «ورش»، ورمزهما: (ا ب ج).

الثاني: عبد الله بن كثير المكي، وراوياه؛ أحمد البزي ومحمد قنبل، ورمزهما: (د هـ ز).

الثالث: أبو عمرو بن العلاء المازني النحوي البصري، وراوياه هما: الدوري الذي يروي عن الكسائي أيضاً، والآخر يحيى السوسي، ورمزهما: (ح ط ي).

الرابع: عبد الله بن عامر الشامي، وراوياه: هشام، وعبد الله بن زكوان، ورمزهما: (ك ل م).

الخامس: أبو بكر البهدلة الحناط، المعروف بعاصم بن أبي النجود الكوفي، وراوياه: شعبة.. أبو بكر بن عيّاش، وحفص.. أبو عمرو البزاز، ورمزهما: (ن ص ع)[1].

السادس: حمزة بن أبي جليب الكوفي النحوي، وراوياه: خلف وحماد، ورمزهما: (ف ض ق)[2].

السابع: علي بن حمزة الكسائي الكوفي النحوي، وراوياه: أبو الحارث وحفص الدوري، ورمزهما (ر ش ت).

واعلم أن أضبط القراءات وأحبها إلى العلماء قراءة عاصم، ولهذا تم اختيارها لتكتب في المصاحف بينما تكتب سائر القراءات بلون أحمر (ثانوي).

وفي السنة الحادية والثلاثين والمئة توفي في البصرة مالك بن دينار البصري المعروف بالزهد والعرفان، وينسب علماء السنّة إليه كرامات، ولهم أقوال في سبب توبته، كما ينقلون عنه أقوالاً في الزهد والمواعظ لا يتسع المقام لذكرها.

وفي أيام مروان خرج عبد الرحمان بن محمد المعروف بأبي مسلم المروزي ودعا الناس إلى بيعة إبراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب الملقب بالإمام، ذلك أنه كان يعتقد بإمامة محمد بن الحنفية بعد أمير المؤمنين عليه السلام، وبعد محمد وأبنائه يأتي أبو هاشم، ويليه محمد بن علي بن عبد الله بن العباس ثم ابنه إبراهيم إماماً، وكان أبو مسلم يحرص على الدوام على دعوة الناس في خراسان إلى بيعة بني العباس، حتى جمع الناس حوله واشتد أمره وعلا.

وكان نصر بن سيار في ذلك الوقت من عمال مروان في خراسان،

---

(١) هكذا وردت ولعلها (ن س ع).

(٢) هكذا وردت ولعلها (ف ص ق).

وكانت دولته تتجه نحو الضعف والاضمحلال، وكان كلما كتب إلى مروان يسأله النصرة يذهب سؤاله سدى بسبب عجز مروان عن نصرته، وكان نصر في تلك الأيام يعاني من حربه مع الخوارج، فلا غرو أنه وجد نفسه عاجزاً عن مقاومة أبي مسلم، فنفض يديه من حكم خراسان وتوجه إلى الري ومنها إلى ساوة، وانتهت به الغصص والآلام إلى الموت، ومن الجانب الآخر فقد علا شأن أبي مسلم وصفا له حكم خراسان، وأمر الناس بلبس السواد، واتخذ الرايات السود أعلاماً له وشعاراً.

ولما عرف مروان تطلع إبراهيم إلى السلطة، وأبو مسلم يدعو الناس إلى بيعته كتب إلى أعوانه يأمرهم بالقبض على إبراهيم أينما عثروا عليه، وهكذا تم القبض على إبراهيم في قرية «كداد» و «الحميمة»[1] وبعثوا به إلى مروان، فحبسه في «حرّان» وبعد حبسه مدة ملأوا جلد خروف بالكلس وأدخلوا رأسه في ذلك الجلد فراح إبراهيم يضرب بيديه ورجليه حتى أسلم الروح.

وحين كان إبراهيم في الحبس، ونظراً ليأسه من خلاصه، كتب وصية ينقل بها الخلافة إلى أخي عبد الله السفاح، وأودع تلك الوصية مع شخص وقال له: احفظ هذه الرسالة لديك، حتى إذا قتلت ابعث بها إلى أخي، فلما قتل ووصلت تلك الرسالة إلى السفاح وهو في «الحميمة» دعا أخاه المنصور مع عبد الله بن علي عمه، وجماعة من أهل بيته، وتمكن بمؤازرتهم أن يتحول برفقتهم إلى الكوفة، وفي دومة الجندل التحق به داود بن علي وابنه سليمان، وفي الكوفة دعوا الناس إلى بيعة السفاح فانضم الناس إليه وبايعوه، وكانت هذه البيعة سنة اثنتين وثلاثين ومئة.

ثم إن السفاح ضم إليه جيش أبي سلمة الخلال، الذي سيأتي الحديث عنه فيما بعد، واستخلف في الكوفة عمه داود بن علي كما بعث بعمه الآخر

---

(١) الحميمة بضم الحاء وفتح الميم: قرية تقع عند حدود الشام، وكانت في أيام بني أمية مقراً لعلي بن عبد الله بن العباس وأولاده (منه رضي الله تعالى عنه).

عبد الله بن علي لقتال مروان، فراح عبد الله يطوي الأرض مع عسكر أهل خراسان حتى بلغ «زاب الموصل» في الثاني من جمادى الآخرة سنة اثنتين وثلاثين ومئة، وهناك التقى بجيش مروان ونشبت بين الفريقين معركة شديدة انتهت بظفر جيش بني العباس بعد أن قتل من جند مروان الكثيرون، ومنهم كثير ممن قضوا غرقاً، وبلغ عدد الغرقى من بني أمية ثلاثمئة نفر بينما فاق الغرقى من غيرهم الحصر والحساب. وانهزم من تبقى من جيش مروان. وفي يوم السبت الحادي عشر من الشهر نفسه لقي مروان هزيمته وفرّ باتجاه الموصل، غير أن أهلها منعوه من دخولها فتوجه إلى حرّان حيث كان مقامه وقصره وخزائنه، وكان أهل حرّان ممن ناصبوا أمير المؤمنين عليه السلام العداء، وكانوا يسبونه باستمرار، وأقاموا على ذلك حتى بعد أن تم منع الناس عن السب، وكانوا يقولون: «لا صلاة إلا بلعن أبي تراب»!!

وإجمالاً فإن مروان من خشيته من عبد الله لم يطل مكثه في حرّان فخرج منها مع أهل بيته وجماعة من بني أمية، وبصحبتهم ما تبقى من عسكره وجنده، وتوجهوا نحو نهر الأردن وفلسطين. فتوجه عبد الله إلى حران فدخلها وهدم قصر مروان فيها وأغار على خزائنه وأمواله، ثم اتجه نحو دمشق وحاصرها، وتمكن من قتل الوليد بن معاوية بن عبد الملك مع كثيرين من أهل الشام، وأسر يزيد وأخاه مع عبد الجبار بن يزيد بن عبد الملك وبعث بهم إلى السفاح الذي أمر بقتلهم وصلبهم بالحيرة.

ثم توجه عبد الله نحو نهر الأردن فبلغه في منتصف ذي القعدة سنة اثنتين وثلاثين ومئة، وتمكن من قتل ما يزيد عن ثمانين شخصاً من بني أمية كانوا هناك.

ويقول الدميري وغيره إن عبد الله أمر بمدّ البسط فوق جثث القتلى والجرحى من بني أمية وجلس فوقها مع أصحابه. ثم أمر بإحضار الطعام وشرع مع أصحابه بتناوله وبنو أمية تحتهم يئنون ويضطربون قبل أن يسلموا الروح، وقال عبد الله: هذا يوم بيوم شهادة الحسين بن علي عليه السلام على أيدي بني أمية، مع كونه لا يرقى إليه.

ثم إن صالحاً بن علي تحرك مع أبي عون عبد الملك بن إسماعيل وعامر بن إسماعيل المذحجي للقضاء على مروان، فأدركوه في «بوصير» قرية من قرى الفيّوم، وما إن وصلوها حتى حاصروه، وقرعوا طبول الحرب، وارتفعت صيحاتهم بنداء «يا لثارات إبراهيم».

كان مروان إذ ذاك في كنيسة بوصير، فلما بلغت مسامعه ضوضاء الجند وصيحاتهم استل سيفه وخرج إليهم يقاتلهم، لكنهم سدوا عليه السبل وقاتلوه حتى قتل، ثم أمر عامر بن إسماعيل به فاحتزوا رأسه وقطعوا لسانه وألقوه بعيداً، فالتقمه قط وأكله. ومن عجيب أمره أن مروان قبل هذه الواقعة سمع أحد خدمه يرتكب نميمة فقطع لسانه وألقمه القط نفسه.

وجاء في النقل أن عبد الحميد كاتب مروان قتل في هذه الواقعة أيضاً، وهو نفسه الذي بلغ في مهارته بالكتابة شأواً بعيداً، كما كان يضرب به المثل بالبلاغة حتى قيل: «فتحت الرسائل بعبد الحميد وختمت بابن العميد»، ومن كلامه لمن كان خطّه رديّاً: «أطل جلفة قلمك وأسمتها، وحرّف قطك وأيمنها»، ففعل، فجاد خطه.

وإجمالاً فلما كان يوم الأحد السابع والعشرون من ذي الحجة سنة اثنتين وثلاثين ومئة، الذي قتل فيه مروان، وانقرضت فيه دولة بني أمية دخل عامر بن إسماعيل الكنيسة حيث كانت نساء وبنات مروان قد اتخذن منها مقاماً، وجلس على بساط مروان وأكل ما تبقى من طعامه، فقد كانوا قد أحضروا لمروان قبل مقتله طعاماً كان منشغلاً بتناوله عند قدوم جند بني العباس، فلم تسنح له الفرصة حتى يفرغ من طعامه فتركه وسارع إلى القتال، فكان ما تبقى منه من نصيب عامر.

ثم إن عامراً طلب ابنة مروان إلى مجلسه يريدها أن تعيش معه، وكانت الابنة الكبرى لمروان، عاقلة تحسن الكلام، فلما وردت على عامر خاطبته قائلة: أي عامر.. كفاك واعظاً في هذا العصر الغادر أن تجلس على فراش مروان، وتطعم خاص طعامه، وتستضيء بمصباحه، وتنادم ابنته.. فأفق من

غفلتك، ودع عنك ما تحدثك به نفسك في هذا الزمن المفتقر إلى الوفاء، وهو زمن لا تأمن فيه من أن يقع لك وللسفاح ما تفعله بحق مروان. . فلما سمع عامر كلامها غلب عليه الحياء فأمر بإبعادها عن مجلسه، ولما بلغ هذا الأمر إلى السفاح امتلأ غيظاً وكتب إلى عامر يزجره زجراً بليغاً على فعلته الشنيعة وأمره بأن يتصدق ويصلي ويصوم ثلاثة أيام كفارة عن فعله القبيح، كما أمر أفراد جيشه بالصوم أيضاً.

ويروي المسعودي أن عامراً بعد أن فرغ من أمر مروان عزم على دخول الكنيسة حيث كانت نساء مروان وبناته، فلما اقترب من المكان رأى خادماً وقد شهر بيده سيفاً مسلولاً يمنع أحداً من الدخول، فأمر عامر جنده أن يمسكوا به، فلما أمسكوا به قال لعامر: أيها الأمير. . إن مروان أمرني إذا قتل أن أضرب أعناق نسائه وبناته بهذا السيف، والآن أسألك أن توفر قتلي، ذلك أن باستطاعتي أن أدلك على موضع ميراث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الذي كان عند خلفاء بني أمية، والذي انتقل إلى مروان، وليس من أحد غيري يعرف هذا الموضع، فإذا قتلتني فُقد هذا الميراث، فأمر عامر بإمهال الخادم فقال: هلموا معي أرشدكم، ثم إنه خرج بهم من القرية حتى بلغ موضعاً رملياً فقال: احفروا هنا، فلما حفروا انكشفت الأرض عن بردة رسول الله وقضيبه ومخصره[1] حيث كان مروان قد أخفاها كي لا تصل إلى بني هاشم، فبعث بها عامر إلى عبد الله الذي بعث بها إلى السفاح، ثم راحت تنتقل يداً عن يد إلى خلفاء بني العباس، ويقال إن مروان في يوم مقتله لبس بردة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فلما قتل نزعوها عن بدنه.

ثم إن عامراً بعث بنساء مروان وبناته وجواريه مع من تم أسره من جنده إلى صالح، فلما وصلوا إليه خاطبته الابنة الكبرى لمروان قائلة: يا عم أمير المؤمنين حفظك الله في الدنيا والآخرة، إنما نحن بناتك وبنات أخيك، فإن شملتنا بعفوك فهو عفو الأبطال، فغض عن قتلنا طرفك.

---

(١) مخصر، بتقديم الخاء المعجمة على الصاد: تعني العصا (منه رضي الله تعالى عنه).

قال صالح: لن أدع أحداً منكم على قيد الحياة، ألم يقتل أبوك ابن أخي إبراهيم في حرّان؟ ألم يقتل هشام بن عبد الملك زيداً ثم يصلبه في كناسة الكوفة؟ ألم يقتل يوسف بن عمر زوجة زيد في الحيرة بأمر من هشام؟ ألم يقتل الوليد بن يزيد يحيى بن زيد؟ ألم يقتل ابن زياد، ابن الزنى، مسلم بن عقيل؟ ألم يقتل يزيد الإمام الحسين عليه السلام مع أهل بيته؟ ألم يأسر نساءه وحرمه؟ ألم يرفع رأس الإمام على أسنة الرماح ويطف به على البلاد؟ ألم يحضر نساء أهل البيت كالأسرى إلى مجلسه في محضر من أهل الشام؟ فهل هناك استخفاف أكثر من هذا برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟ ما الذي لم تفعلوه بنا حتى تتوقعوا منا هذا التوقّع؟.

قالت ابنة مروان: مع كل هذا نطلب أن ينالنا عفوك ويشملنا كرمك! فقال: لقد عفوت عنكم. والآن إذا أردت جعلتك في حبالة ابني الفضل، وزوجت أختك من أخيه عبد الله قالت: نحن الآن في مصيبة، فأين منا الحديث عن العرس؟ ابعث بنا إلى حران، وبعدها فاصنع ما شئت. قال: ليكن ذلك.

ثم إنهن توجهن إلى حران، فما إن بلغنها حتى ارتفعت أصواتهن بالبكاء والعويل وشققن أثوابهن، ونُحن على مروان أشد النواح حتى أبكين جند بني العباس.

أما رأس مروان فقد بعثوا به إلى السفاح، وما إن وضعوه بين يديه حتى سجد سجدة طويلة، ثم رفع رأسه وقال: الحمد لله الذي أنالني ثأري منك ومن رهطك، فمقابل شهادة الحسين عليه السلام وأهل بيته قتلت متني نفر من بني أمية، وفي إزاء زيد بن علي بن الحسين عليه السلام فقد أحرقت عظام هشام، وثأراً لأخي إبراهيم فقد قتلت مروان، وهكذا فلم أعد أخشى الموت، ثم إنه توجه إلى القبلة ثانية وسجد سجدة طويلة ثم قام وجلس والفرح يشع في وجهه.

وقد امتدّ حكم مروان حتى بيعة الناس للسفاح خمس سنين وسبعين

يوماً، أما حتى يوم مقتله فخمس سنين وعشرة شهور ويومين، إذاً، فما بين بيعة الناس للسفاح ومقتل مروان ثمانية شهور، والله العالم.

تذييل:

حيث إن دولة بني أمية قد دالت، فقد رأيت من المناسب تذييل المقام وتزيينه بذكر بضع آيات وأحاديث في مثالب بني أمية، وأكتفي هنا بما كتبه علماء أهل السنة.

اعلم أن أمية - بناءً على المشهور - هو ابن عبد شمس[1] بن عبد مناف، وابن أخي هاشم والمطلب ونوفل. وبنو أمية فرقتان: إحداهما الأعياص، وهم أبو العاص والعاص وأبو العيص والعيص وبنوهم، والأخرى العنابس، وهم بنو حرب بن أمية، إذ أن اسم حرب كان عنبسة، وآل الحكم يعدون من الأعياص، بينما آل أبي سفيان فمن العنابس.

وجاءت في الكتاب المجيد الإشارة إليهم في عدة آيات من جملتها الآية المباركة:

﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا﴾[2].

والمراد بالشجرة الملعونة بنو أمية بتفسير عامة المفسرين.

قال الفخر الرازي في تفسيره الكبير: روى سعيد بن المسيب أن

(١) لكن بعض المحققين قالوا: إنّ أمية لم يكن ابن عبد شمس، بل كان غلاماً من أهل الروم، ونظراً لكونه حليفاً له فقد نسب إليه، والدليل على هذا أنه حين أورد معاوية - في بعض كتاباته التي كتبها إلى أمير المؤمنين عليه السلام - عبارة: «إنما نحن وأنتم بنو عبد مناف» نفى الأمير ذلك وكتب في الجواب: «ليس المهاجر كالطليق، وليس الصريح كاللصيق». فلم يستطع معاوية إنكار ذلك، كما يؤيد ذلك تأويل الآية الشريفة الأولى من سورة الروم ببني أمية بناءً على قراءتها: غَلبت بالفتح، وسيُغلبون بالضم (منه رضي الله تعالى عنه).

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٦٠.

رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رأى في منامه أن بني أمية ينزون على منبره نزو القردة، فساءه ذلك واغتم.

وجاء في هذا التفسير أيضاً وفي تفسير النيسابوري أن ابن عباس قال: الشجرة الملعونة في القرآن المراد بها بنو أمية: الحكم بن أبي العاص وبنوه، وقال فخر الرازي أيضاً: رأى النبي صلى الله عليه وآله وسلم بني مروان يعتلون منبره، وقص منامه على أبي بكر وعمر، وكان قد اختلى بهما في بيته، فلما قاما سمع أن الحكم يروي المنام، فاتّهم النبي عمر بإفشاء سره، فلما تبين أن الحكم كان يتنصت قام بطرده.

وقال البيضاوي: القول هو أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رأى قوماً من بني أمية يعتلون منبره وينزون عليه نزو القردة فقال: هذا حظهم في الدنيا فيعطوْن جزاء الإسلام الظاهري، وهذا كناية عن أنهم لا نصيب لهم في الآخرة، وجاء في «الكشاف» ما يقرب من هذا الكلام مع نسبة بالرواية.

وروي هذا الحديث في «البحار» عن عمدة بن بطريق الحلي عن تفسير الثعلبي بطريقين.

وأورد ابن أبي الحديد عن «أمالي» أبي جعفر محمد بن حبيب في ذيل حديث مبسوط أن عمر سأل كعباً: هل جاء في أخبارك من يكون الخليفة منهما؟ قال: من النبي واثنين من أصحابه تنتهي الخلافة إلى أعدائه الذين كان قد حاربهم. قال عمر: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾، والتفت إلى العباس وقال: سمعت من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما يشبه هذا القول، سمعته يقول: «ليصعدن بنو أمية على منبري، ولقد رأيتهم في منامي ينزون عليه نزو القردة، وفيهم أنزل: ﴿وَمَا جَعَلْنَا﴾ الآية».

وجاء نقلاً عن رسالة مفاخرة بني هاشم من تصنيف الجاحظ أنه قال: يعتقد بنو هاشم أن الشجرة الملعونة يراد بها بنو أمية، ولا وهم في ذلك عند بني هاشم قاطبة حتى لو لم يكن لديهم حديث صحيح بهذا.

وإجمالاً فتفسير الشجرة الملعونة ببني أمية ظاهر وواضح من الكتب

التفسيرية لدى الفريقين. ومن محاسن هذا التفسير وبدائع هذا التأويل جملة. ﴿فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾، لإمكان احتمال كون «يزيد» اسماً، وحمل الطغيان عليه بسبب المبالغة في دعوى مقدار طغيانه، حتى غدا الطغيان من مفردات الحقيقة، وذكره بالخصوص بسبب ذلك الفعل العظيم والذنب الكبير والداهية الهائلة.. ألا وهي وقعة الطف علاوة على وقعة الحرة وإحراق البيت وسائر شنائع أفعاله كما جاء في ذيل شرح أحواله.

ومن جملة الآيات المؤوّلة ببني أمية هذه الآية الكريمة:

﴿الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ * جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾[1].

كما جاء نقلاً عن عمدة بن البطريق أنه يروي عن تفسير الثعلبي قوله: إن عمر بن الخطاب قال: «هما الأفجران من قريش: بنو المغيرة وبنو أمية».

أما بنو المغيرة ففي شرورهم في يوم بدر أشد الكفاية، وأما بنو أمية فقد أمهلوا إلى حين.

ونقل عن أمير المؤمنين عليه السلام هذا التفسير أيضاً ولكن من دون التقسيم المذكور، وكلا الآيتين مذكورتان في مقدمة الصحيفة الكاملة، والمراد بـ «نعمة الله» في هذه الآية المباركة رسول الله وأهل بيت الطهارة صلوات الله تعالى عليهم، وهذا أمر معلوم غاية العلم فجميع ما سوى الله خلق ببركات وجودهم. وكل شيء يناله أي شخص إنما يبلغه بواسطتهم: **«بيمينهم رزق الورى، وبوجودهم ثبتت الأرض والسماء»** فالنعمة الحقيقية لوجودهم كفر بها بنو أمية وبدلوا نعمة الله، وأحلوا قومهم دار البوار، وبئس ما أحلوهم به.

ويوافق هذا ما ورد من أخبار عن الصادقين عليهما السلام في تفسير الآية الكريمة: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ من أنها تؤوّل حيناً بأهل البيت، وحيناً بمحبتهم وموالاتهم.

(١) سورة إبراهيم، الآيتان: ٢٨ و ٢٩.

ومن الآيات الواردة في ذم بني أمية أيضاً السورة المباركة «القدر» حيث المراد بـ «ألف شهر» حكم بني أمية الذي امتد ألف شهر، وقد حرموا من بركات ليلة القدر وثوابها، فالخير الأخروي من ليلة قدر واحدة يفوق خير ألف شهر دنيوي من حكم بني أمية.

كذلك فإن الفخر الرازي في «التفسير الكبير» وابن الأثير في «أسد الغابة» ينقلان أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رأى في المنام بني أمية يصعدون على منبره، ويقول: جاء في الرواية أنهم ينزون على منبره نزو القردة فشق عليه ذلك، ثم أنزل الله تعالى هذه الآية المباركة: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ﴾ - إلى - ﴿خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾، أي ألف شهر هي ملك بني أمية، يقول القاسم راوي الحديث: حَسَبنا فرأينا ملك بني أمية ألف شهر، وبعد ذلك أردف الرازي قائلاً:

جاء طعن القاضي على هذا الوجه إذ إن أيام بني أمية كانت مذمومة، وفضل ليلة القدر ليس في ترجيحها على أيام بني أمية، وأجاب بنفسه عن القاضي فقال: حيث إن أيام بني أمية كانت تمتلك سعادات دنيوية فهي - من هذا الوجه - كانت عظيمة، وليلة القدر في سعاداتها الدينية تفوقها لأن الأشهر الألف هي ذات سعادات دنيوية.

والحديث نفسه مذكور مع اختلاف يسير في صحيح الترمذي في باب تفسير القرآن.

وقال المسعودي في «مروج الذهب» كان مجموع المدة التي حكم فيها بنو أمية حتى زمان انقراض دولتهم وانتقال الخلافة إلى بني العباس ألف شهر كاملة دون زيادة أو نقصان، وبعد بيانه لهذا الإجمال ذكر عدد أيام حكم كل من خلفاء بني أمية وأحصاها حتى بلغ ثلاثاً وثمانين سنة وأربعة شهور بالتمام، وهذا الرقم يمثل ألف شهر طبقاً لقوله تعالى: ﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾. وعلى من يرغب الرجوع إلى كتاب «شرح قصيدة أبي فراس» أو «شرح زيارة عاشوراء» للمرحوم الحاج الميرزا أبي الفضل طاب ثراه حيث جاء فيهما أيضاً ذكر ذلك.

وأما الأحاديث التي وردت في ذم بني أمية فكثيرة، وبعضها جاء في تفسير الآيات المتقدمة، ونكتفي بذكر بضعة أحاديث أخرى من طرق أهل السنّة:

١ ـ جاء في مستدرك الحاكم مسنداً عن رواية لأبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: إني رأيت في المنام كأن بني الحكم بن أبي العاص يتواثبون على منبري كما تتواثب القردة، فما رؤي النبي صلى الله عليه وآله وسلم مستجمعاً ضاحكاً بعد ذلك حتى مات. وقد عرفت من أحاديث أخرى أنهم كانوا بني أمية مطلقاً، ولا يبعد أن منامه صلى الله عليه وآله وسلم كان متعدداً.

٢ ـ ينقل العلامة الحلي رضوان الله عليه في كتاب «نهج الحق» عن كتاب «الهادية» الذي هو من علماء أهل السنّة عن ابن مسعود يروي: **«لكل شيء آفة، وآفة هذا الدين بنو أمية»**.

٣ ـ جاء في صحيح مسلم رواية عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: **«هلاك أمتي على يد هذا الحي»**. وجاء ذكر هذه الرواية بعد خبر نقله يتضمن ذكر بني أمية وقال: وهذا يصبح قرينة على أن المراد من «هذا الحي» بنو أمية، كما فهمه العلماء كذلك، ولهذا اعتبره ابن البطريق من أخبار مذمة بني أمية، ويؤيد هذا المعنى الحديث الذي أورده البخاري في باب «قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: هلاك أمتي على يدي أغيلمة سفهاء».

٤ ـ قال ابن حجر في «رسالة تطهير اللسان» في حديث صحيح أورده الحاكم على شرط الشيخين: **«كان أبغض الأحياء أو الناس إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بنو أمية»**.

٥ ـ قال ابن حجر أيضاً بسند حسن: روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: **«شر قبائل العرب بنو أمية، وبنو حنيفة، وثقيف»**. إلى غير ذلك.

ومن محاسن الكتب وبدائع الرسائل منشور أمر المعتضد العباسي بإصداره سنة أربع وثمانين ومئتين، وقرىء على المنابر، منع فيه السقاة من الترحم على معاوية كما كان مرسوماً، وهذا المنشور يشتمل على طائفة من الأخبار والآثار في مساوىء بني أمية عموماً وخصوصاً، وأكثر الأخبار

المذكورة يحتوي على سائر بدعهم وفتنهم بنحو الإشارة والإجمال. وكنا نقلناها لو اتسع المقام لذلك لكن نقلها لا يتناسب مع هذا الموجز فعلى الراغب الرجوع إلى «تاريخ الطبري» و «شرح النهج الحديدي».

وقد أورد الفاضل الأديب والمحقق الأريب الحاج الميرزا أبو الفضل الطهراني رضوان الله عليه تلك الرسالة بتمامها في «شفاء الصدور» فعلى من يرغب الرجوع إليها هناك، فمطالعتها تبعث على المسرة والابتهاج.

ونقل الأعثم الكوفي قضية لهشام بن عبد الملك مع رجل من العرب تشعر بالملامة والذم لبني أمية.

وأورد المرحوم سبهر في كتاب صفين مطاعن من خلال الرسائل المتبادلة بين أمير المؤمنين عليه السلام ومعاوية.

خاتمة

اعلم أن خلفاء بني أمية قسمان، أحدهما: أولئك الذين أقاموا في الشام، وقد انقرض هذا القسم بمقتل مروان، والقسم الآخر هم أولئك الذين أقاموا في أرض المغرب، وذلك أنه لما انتقلت الخلافة إلى بني العباس انصرف العباسيون إلى قتل الأمويين أينما ثقفوهم، أما من فر منهم فكانوا يلاحقونه فلا يدعونه على قيد الحياة إذا ظفروا به. وكان ممن هرب ناجياً بروحه عبد الرحمان بن معاوية بن هشام بن عبد الملك، فقد فر إلى المغرب سنة تسع وثلاثين ومئة من الهجرة ودعا الناس إليه فبايعه أهل الأندلس ودانوا له بالطاعة، وبقي حتى وافت سنة إحدى وسبعين ومئة حيث توفي وحل محله ابنه هشام بن عبد الرحمان، وخلفه من بعده الحكم بن هشام ثم عبد الرحمان بن الحكم، وثم محمد بن عبد الرحمان، واستمرت السلطة يتناقلها الأبناء عن الآباء والإخوة حتى إذا بلغت إلى أمية انتقلت السلطة منهم ودالت دولة بني أمية في هذا القسم ممن حلّوا بالأندلس. والله العالم.

خلفاء بني العباس
وسيرتهم ونوادر أيامهم

مختصر عن مقاتل الطالبيين
وتواريخ وفيات أعيان العصر ومشاهيره
مما وقع في أيامهم

خلافة أبي العباس السفاح

عبد الله بن محمد بن علي بن عبد االله بن العباس بن عبد المطلب

في يوم الجمعة الثالث عشر من شهر ربيع الأول، أو منتصف جمادى الآخرة سنة اثنتين وأربعين ومئة من الهجرة تسلم السفاح الخلافة وبايعه الناس. في هذا اليوم امتطى أبو العباس راحلته وقصد المسجد، واعتلى المنبر ثم خطب خطبة الجمعة قائماً، فارتفعت من الناس صيحات الاستحسان يقولون: لقد أحييت سنّة رسول الله، وهذا تعريض ببني أمية إذ كانوا يخطبون الخطبة وهم جلوس.

وجاء في «أخبار الدول» في مبايعة السفاح: قتل من الأمويين وجندهم ما لا يحده الحصر. كما أمر السفاح بنبش قبورهم وإخراج موتاهم منها وإحراقهم. وقد تعرضنا إلى هذا الأمر في ذيل الحديث عن هشام بن عبد الملك فقلنا إنهم انصرفوا إلى قتل كل من عثروا عليه منهم، فلم ينج سوى الرضع من أطفالهم إلى أولئك الذين فروا إلى الأندلس، وكان القتلى من بني أمية يلقون على الطرقات لتأكل الكلاب أجسادهم وتصبح موطئاً لنعال الناس.

ولما استولى السفاح على الخلافة أعطى الأمان ليزيد بن عمر بن هبيرة الذي كان عاملاً لمروان الحمار على العراقين (البصرة والكوفة) وكان معروفاً بكثرة الأكل، فلما نال الأمان قدم إلى المنصور وكان يحضر مجلسه حتى أصدر السفاح أمره بقتله، فقتل مع ابنه داود وكاتبه في واسط في السابع عشر من ذي القعدة. ولما علم معن بن زائدة ـ وكان أحد خاصته ـ بمقتله أخفى نفسه حتى

أيام المنصور حيث أظهر نفسه، وسيأتي تفاصيل ذلك في محله إن شاء الله تعالى.

وكان السفاح رجلاً رؤوفاً عطوفاً، وكان أكثر ما يكون انشراحاً وانفتاحاً في أوقات الطعام وقد اتخذ من أبي سلمة حفص الخلّال وزيراً له، وكان يقال له (وزير آل محمد) وكان أول شخص يتسلم وزارة في دولة بني العباس، غير أن أبا مسلم كان في صدد قتله، وينتهز لذلك الفرص، وذات ليلة كان أبو سلمة متوجهاً إلى بيته لدى انصرافه من عند السفاح فتقاطر نحوه أصحاب أبي مسلم وأراقوا دمه، وكان مقتل أبي سلمة بعد أربعة شهور من تسلم السفاح للخلافة، ولما كانت دولة بني العباس قامت بمساعي أبي مسلم فإن السفاح لم ينله بأذى، بل أقام على احترامه، واستمر أبو مسلم حتى وفاة السفاح وحلول المنصور محله، حيث أمر بقتله في (رومية المدائن) في الخامس والعشرين من شعبان سنة سبع وثلاثين ومئة، وكان أبو مسلم متّصفاً بالحزم والبطش والغيرة، سفاحاً سفاكاً للدماء، وقد بلغ عدد ضحاياه ممن قتلهم صبراً ستمئة ألف ضحية[1].

---

(١) قيل إن أبا مسلم قال يوماً: إن حالي مع العباسيين حال رجل من الصالحين رأى يوماً عظام أسد مرمية فوق الثرى، فدعا الله عزّ وجلّ أن يعيد الحياة إلى هذا الأسد، فلما استوى الأسد حيّاً قال: إن لك علي حقاً عظيماً، لكن المصلحة تقضي أن أقتلك، ذلك أنك رجل مستجاب الدعوة، فلعله يبدو لك أن تدعو الله ثانية فيميتني، أو يخلق أسداً أقوى مني، وفي هذا كل الضرر لي، فمصلحتي إذاً هي في قتلك! فالعباسيون بعد أن امتلكوا القوة بمسعاي قضت مصلحتهم بقتلي، وهذا ما جرى فعلاً، فقد استشار المنصور أحد العقلاء في ذلك فقال له: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾. ومؤدى ذلك أن صلاحكم في قتله، ولما عزم المنصور على قتله قال أبو مسلم: استبقني لأعدائك، فقال المنصور: وأي عدو لي أكبر منك؟! ولما تم قتله استقر أمر الخلافة لبني العباس. وعن «ربيع الأبرار» للزمخشري قال: كان أبو مسلم يقول بعرفات: اللهم إني تائب إليك مما لا أظنك تغفر لي، فقيل له: أفيعظم على الله غفران؟ فقال: إني نسجت ثوب ظلم.. ما دامت الدولة لبني العباس فكم من صارخة تلعنني عند تفاقم الظلم، فكيف يغفر لمن هذا الخلق خصماؤه؟! (منه عفي عنه).

وفي أيام حكم السفاح سنة خمس وثلاثين ومئة توفيت رابعة العدوية بنت إسماعيل قرة عين العرفاء والصوفية، ومما قالته فأجادت:

لـك ألـف مـعـبـود مـطـاعٍ أمـره دون الإلـه، وتـدّعـي الـتـوحـيـدا!

وفي سنة ست وثلاثين ومئة توفي ربيعة الرأي ابن أبي عبد الرحمان الفروخ فقيه أهل المدينة وأستاذ مالك بن أنس[1].

وفي ذي الحجة من نفس السنة، وهو الشهر الذي توفي فيه السفاح، توفي عبد الملك بن عمير قاضي الكوفة، وقد تقدمت حكايته العجيبة عن قصر الإمارة بالكوفة مع عبد الملك بن مروان.

وقد امتد حكم السفاح أربع سنين وتسعة شهور، ويروى أنه لما قيل له: إن عبد الله بن عمر بن عبد العزيز بقي على الأمل بالخلافة كونه قرأ في بعض الكتب أن الخليفة سيكون عيناً بعد عين بعد عين[2]. ومن هذا الكلام هيّيء له. قال السفاح: لقد أخطأ، فبالله أقسم إني للمراد بهذا القول فها هي الأعين الثلاثة بي وبآبائي، علاوة على أعين ثلاثة أخرى: فأنا عبد الله بن علي بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب بن هاشم، وهاشم اسمه عمرو بن عبد مناف.

وإجمالاً ففي يوم الأحد الثاني عشر من ذي الحجة سنة ست وثلاثين ومئة توفي السفاح بالأنبار، المدينة التي بناها بنفسه ووضع لها اسماً «الهاشمية» بعد ثلاث وثلاثين سنة من العمر أو اثنتين وثلاثين.

---

(١) من كلام ربيعة الرأي: أعز الخلائق وأندرهم أقوام خمسة: عالم زاهد، وفقيه صوفي، وغني متواضع، وفقير شاكر، وشريف هاشمي سني. وجدير بأن يلتحق بهم خمسة أخرى وهي: سوقي متورع، وبدوي فقيه، وجميل متعفف، وطماع عزيز، وشاعر صادق، فصارت تلك عشرة كاملة.

(٢) ويقرب من هذا قول أمير المؤمنين عليه السلام لحذيفة بن اليمان: «كيف أنت يا حذيفة إذا ظلمت العيون العين»؟ مشيراً إلى عتيق وصاحبيه وعبد الرحمان بن ملجم، بل وإلى عمرو بن العاص ومعاوية، فهذه العيون المجتمعة على ظلمه عليه السلام (منه رضي الله تعالى عنه).

وكان أمير المؤمنين عليه السلام أشار في إحدى خطبه إلى خلافة بني أمية وانتقالها إلى بني العباس مشيراً إلى أشهر أوصاف بعض خلفاء بني العباس وخصائصهم من أمثال رأفة السفاح، وفتك المنصور وسفكه للدماء، واستقرار وعظمة ملك الرشيد، وعلوم المأمون، وشدة نصب المتوكل وعناده، ومقتل ابنه المنتصر أو غلامه الخاص على يد غزّ تركي، وشدة عناء المعتمد بسبب اشتغاله بالحروب ومعاركه مع الصفّار وصاحب الزنج وغيرهما، وإحسان المعتضد وبرّه بالعلويين بسبب ذلك العهد الذي قطعه لأمير المؤمنين عليه السلام في نومه، ومقتل المقتدر بيد مؤنس الخادم، وفحصه بيديه ورجليه في دمه في المعركة، واستيلاء أبنائه الثلاثة الراضي والمتقي والمطيع على الخلافة، ممّا سيأتي شرح كل هذا لاحقاً إن شاء الله تعالى.

وهذه الأخبار اشتملت عليها هذه الخطبة الشريفة إذ قال فيها:

«ويل هذه الأمة من رجالهم الشجرة الملعونة التي ذكرها ربكم تعالى، أولهم خضراء وآخرهم هزماء، يلي بعدهم أمر أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم رجال أولهم أرأفهم، وثانيهم أفتكهم، وخامسهم كبشهم، وسابعهم أغلمهم، وعاشرهم أكفرهم يقتله أخصّهم به، وخامس عشرهم كثير العناء قليل الغناء، وسادس عشرهم أقضاهم للذمم وأوصلهم للرحم، كأني أرى ثامن عشرهم تفحص رجلاه في دمه بعد أن يأخذه جنده بكظمه، من ولده ثلاثة رجال سيرتهم سيرة الضلال».

وفي آخر الخطبة أشار إلى مقتل المستعصم ببغداد وزوال دولة بني العباس بقوله:

«السادس والعشرون منهم يشرد الملك منه» إلى أن قال: «لكأني أراه على جسر الزوراء قتيلاً وذلك مما قدمت يداه، وإن الله ليس بظلام للعبيد».

وتعبيره عليه السلام عن المستعصم بالسادس والعشرين محتمل لهذا السبب، وهو أنه السادس والعشرون من عظماء بني العباس الذين استقروا في الخلافة، ذلك أن العديد منهم لم يكونوا كذلك، بل كانوا مقهورين مغلوبين

لم يحوزوا من الخلافة سوى اسمها، وما عدا ذلك لم يكن لهم شيء، وبهذا يتضح الأمر، أو بسبب أن المستعصم كان السادس والعشرين من العباس وبنيه «والله أعلم بمقاصد أوليائه».

وهذه الخطبة أوردها في «المناقب» قطب المحدثين والوجيه عند الفريقين الشيخ الأجل محمد بن شهرآشوب رحمه الله، والذي كانت وفاته قبل خلافة المستعصم بما يزيد عن خمسين سنة، كما سيصبح معلوماً من الحديث عن خلافة الناصر لدين الله.

خلافة أبي جعفر عبد الله المنصور

ووقائع أيام وشهادة عبد اللَّه بن الحسن المثنى ومقتل بنيه وأهل بيته

في الثاني عشر من ذي الحجة سنة ست وثلاثين ومئة، يوم وفاة السفاح، أخذت البيعة لأخيه أبي جعفر المنصور وكان آنئذٍ قد ذهب إلى مكة أميراً للحج، فأتم حجه مع الناس وقفل عائداً إلى الكوفة، وجلس على العرش بالهاشمية، فكرر الناس له البيعة.

ومن غرائب أمر المنصور أن ولادته كانت في ذي الحجة من سنة خمس وتسعين وفي السنة نفسها توفي الحجاج، كما انتقلت الخلافة إليه في ذي الحجة، وكانت وفاته أيضاً في السادس من ذي الحجة سنة ثمان وخمسين ومئة وهو في طريقه إلى مكة في «بئر ميمون» ودفن بالحجون[1]، وامتدت خلافته اثنتين وعشرين سنة دون تسعة أيام، وبلغ من العمر الثالثة والستين، ولما غادر الحياة ترك وراءه ستمئة ألف ألف درهم، وأربعة عشر ألف ألف دينار، ومع هذه الحال كان بخيلاً بماله. و «الدوانيقي» كان لقباً له نظراً لتشدده في محاسبة العمال والصناع على «الدوانيق» و «الحبات».

وكان من بين خلفاء بني العباس أشبه بهشام بن عبد الملك في الأمويين، وكان ذلك لتقليده إياه في الأمور السياسية كما سبقت الإشارة، والمنصور أبو الخلفاء العباسيين وكان عمّاً لعشرة أشخاص: عبد الله، وعبد الصمد،

(١) الحجون بتقديم المهملة المفتوحة على الجيم: جبل بأعلى مكة عنده مدافن أهلها (منه رضي الله تعالى عنه).

وإسماعيل، وعيسى، وصالح، وسليمان، وإسحاق، ومحمد، ويحيى، وداود. وكان هؤلاء مجموع أبناء علي بن عبد الله بن عباس. وداود هو الذي قتل المعلى بن خنيس أحد موالي الإمام الصادق عليه السلام ثم صلبه فغضب الإمام لقتله واقتص من السيرافي قاتله، ودعا على داود فهلك أيضاً.

وعلى العموم فالمنصور أول خليفة قام بتقريب المنجمين وعمل بأحكام النجوم، وأول خليفة عرّبت له الكتب من السريانية والعجمية مثل «إقليدس» و «كليلة ودمنة».

وينقل عن الذهبي قوله: في أيام المنصور سنة ثلاث وأربعين ومئة شرع علماء ذلك العصر في تدوين الحديث والفقه، فصنف ابن جريج بمكة، وصنف مالك «الموطأ» بالمدينة، والأوزاعي بالشام، وابن عمرويه وحماد بن سلمة بالبصرة، ومعمر باليمن، وسفيان الثوري بالكوفة، وصنف ابن إسحاق «المغازي»، وصنف أبو حنيفة «الفقه».

كما تم في أيام المنصور بناء مدينة بغداد بأمر منه، ويقول المسعودي: إن خمسين ألفاً من العَمَلة كانوا يقومون بهذا العمل يومياً.

يقول المؤلف: إن أمير المؤمنين صلوات الله عليه أخبر تكراراً عن بناء مدينة بغداد وذلك في الخطبة اللؤلؤية كما يروي الشيخ علي بن محمد بن عيسى الخزاز القمي في «كفاية الأثر» وابن شهرآشوب في «المناقب»، قال عليه السلام:

«ألا وإني ظاعن عن قريب، ومنطلق إلى المغيب (للمغيب ـ خ ل) فارتقبوا (الفتن ـ خ ل) الأموية والمملكة الكسروية، وإماتة ما أحياه الله، وإحياء ما أماته الله، واتخذوا صوامعكم بيوتكم، وعضُّوا على مثل حجر الغضا، واذكروا الله كثيراً فذكره أكبر لو كنتم تعلمون».

ثم قال عليه السلام: «وتبنى مدينة يقال لها الزوراء بين دجلة ودجيل والفرات، فلو رأيتموها مشيدة بالجص والآجر، مزخرفة بالذهب والفضة واللازورد. . .».

ثم وصفها إلى أن قال: «توالت عليها ملك (ملوك ـ خ ل) بني الشصبان أربعة وعشرون ملكاً على عدد سني الكديد، فأولهم السفاح والمقلاص والجموح. . » الخ.

وفي أيام المنصور سنة إحدى وأربعين ومئة توفي الثقة الجليل القدر أبان بن تغلب، وأبان أدرك الإمام السجاد والباقر والصادق عليهم السلام، وأخذ عنهم أحاديث كثيرة، وروى عن الإمام الصادق عليه السلام ثلاثين ألف حديث، وبلغ درجة الامتياز في عصره في علم القرآن والفقه والحديث والأدب والنحو واللغة، وكان باقر العلوم عليه السلام قد قال له: «اجلس في مسجد المدينة وأفت الناس فإني أحب أن أرى في شيعتي مثلك». وقال له الصادق عليه السلام أيضاً: ناظر أهل المدينة فإني أحب أن يكون مثلك من رواتي ورجالي. وكانت وفاته في حياة الإمام الصادق عليه السلام، ولما أتاه نعيه قال عليه السلام: «أما والله لقد أوجع قلبي موت أبان». ويروي النجاشي يقول: «كان أبان إذا قدم المدينة تقوضت إليه الخلق، وأخليت له سارية النبي صلى الله عليه وآله وسلم».

وفي سنة أربع وأربعين ومئة توفي بـ «مران» وهي على منزلتين من مكة عمرو بن عبيد شيخ المعتزلة وتلميذ الحسن البصري وصديق المنصور، ومناظرته مع هشام بن الحكم في مسجد البصرة معروفة، ومن المناسب إيرادها هنا:

عن يوسف بن يعقوب قال: كان عند أبي عبد الله عليه السلام جماعة من أصحابه فيهم حمران بن أعين ومؤمن الطاق وهشام بن سالم، وجماعة أخرى فيهم هشام بن الحكم وهو شاب، فقال أبو عبد الله: يا هشام، قال: لبيك يابن رسول الله، قال: ألا تخبرني كيف صنعت بعمرو بن عبيد وكيف سألته؟ قال هشام: جعلت فداك يابن رسول الله، أني أجلّك وأستحييك فلا يعمل لساني بين يديك! فقال أبو عبد الله عليه السلام إذا أمرتكم بشيء فافعلوه!.

قال هشام: بلغني ما كان فيه عمرو بن عبيد وجلوسه في مسجد البصرة، وعظم ذلك علي فخرجت إليه، ودخلت البصرة يوم الجمعة وأتيت

المسجد فإذا أنا بحلقة كبيرة، وإذا بعمرو بن عبيد عليه شملة سوداء من صوف مؤتزر بها، وشملة مرتدٍ بها، والناس يسألونه، فاستفرجت الناس فأفرجوا لي، ثم قعدت في آخر القوم على ركبتي، ثم قلت: أيها العالم، أنا رجل غريب، أتأذن لي فأسألك عن مسألة؟ قال: اسأل. قلت له: ألك عين؟ قال: يا بني أي شيء هذا من السؤال؟ ألا ترى عيني؟ قلت: بلى، هذه مسألتي! فقال: يا بني سل، وإن كانت مسألتك حمقى!.

قلت ثانية: ألك عين؟ قال: نعم. قلت: فما تصنع بها؟ قال: أرى بها الألوان والأشخاص. قلت: ألك أنف؟ قال: نعم. قلت: فما تصنع به؟ قال: أشم به الروائح. قلت: ألك فم؟ قال: نعم. قلت: فما تصنع به؟ قال: أعرف به المطاعم والمشارب على اختلافها.

قلت ألك قلب؟ قال: نعم. قلت فما تصنع به؟ قال: أميز به كل ما ورد على هذه الجوارح. قلت: أفليس في هذه الجوارح غنى عن القلب قال: لا، قلت: وكيف ذاك وهي صحيحة سليمة؟ قال: يا بني إن الجوارح إذا شكّت في شيء شمته أو رأته أو ذاقته.. ردّته إلى القلب، فتيقن بها اليقين وأبطل الشك. قلت: فإنما أقام الله عزّ وجلّ القلب لشك الجوارح؟ قال: نعم. قلت: لا بد من القلب، وإلا لم يستيقن الجوارح. قال: نعم.

قلت: يا أبا مروان! إن الله تبارك وتعالى لم يترك جوارحكم حتى جعل لها إماماً يصحح لها الصحيح وينفي ما شكّت فيه، ويترك هذا الخلق كله في حيرتهم وشكهم واختلافهم، لا يقيم لهم إماماً يردّون إليه شكهم وحيرتهم، ويقيم لك إماماً لجوارحك تردّ إليه حيرتك وشكك؟؟!!.

قال: فسكت ولم يقل شيئاً، ثم التفت إليّ فقال لي: أنت هشام؟ قلت: لا. فقال لي: أجالسته؟ فقلت: لا. قال: فمن أين أنت؟ قلت: من أهل الكوفة. قال: فأنت إذاً هو، ثم ضمني إليه وأقعدني في مجلسه، وما نطق حتى قمت.

فضحك أبو عبد الله عليه السلام ثم قال: يا هشام.. من علمك هذا؟ قلت: يابن رسول الله جرى على لساني. قال: «يا هشام هذا والله مكتوب في صحف إبراهيم وموسى».

وفي سنة خمس وأربعين ومئة أو في سنة اثنتين وأربعين ومئة قتل عبد الله بن المقفع على يدي سفيان بن معاوية والي البصرة، وذلك بتوجيه من المنصور، ثم رماه في تنور وأحرقه. وكان ابن المقفع وابن أبي العوجاء وابن طالوت وابن الأعمى جماعة من الزنادقة، وكان ابن المقفع مجوسيّ الأصل وهو الذي عرّب كتاب «كليلة ودمنة» عن الهندية وكان أحد حكماء الهند قام بتأليفه، وكان أهل الهند يحرصون على هذا الكتاب حرصهم على الجواهر الثمينة فلا يسمحون بخروجه من الهند إلى أن قام أحد الأذكياء في الهند بكتابته بماء البصل فلا تظهر كتابته، ثم جاء به إلى مملكة إيران حيث قرّبه من النار فظهرت كتابته. وهكذا تم نسخه وانتشاره في إيران، ثم قام بعض حكماء دولة أنوشيروان بترجمته إلى اللسان البهلوي، وبقي هكذا حتى زمان المنصور حيث ترجم إلى العربية ومنها إلى الفارسية، ثم قام الشاعر الرودكي بنظمه بطلب من نصر بن أحمد الساماني، ثم قام الشيخ أبو المعاني: نصر الله بن محمد بن عبد الحميد الكاتب بكتابته نثراً عوضاً عن الشعر، وذلك بطلب من بهرام الشاه الغزنوي، ووضع له اسم «كليلة ودمنة».

ثم إن العالم الفاضل الملاّ حسين كاشفي المتوفى سنة تسعمئة وعشر، ومؤلف «روضة الشهداء» و «أخلاق محسني» وغيرهما قام بشرحه وتلخيصه ووضع له اسم «أنوار السهيلي» باسم الأمير الشيخ أحمد نظام الدولة المشهور بالسهيلي. وقيل: إنهم قاموا بنظمه بالعربية أيضاً في أيام السلطان صلاح الدين ملك مصر والشامات[1].

وعلى أي حال ففي كل زمن كان الكتاب يترجم إلى لغة من اللغات حتى أصبح كتاباً بألسنة متعددة منها التركية كما قيل.

---

(١) كما قام أبان بن عبد الحميد، من شعراء البرامكة، بنظمه أيضاً، وهاك مطلع الترجمة الشعرية:

هذا كتاب أدب ومحنة ... وهو يدعى كليلة ودمنة

فيه احتيالات وفيه رشدُ ... وهو كتاب وضعته الهند

(منه رضي الله تعالى عنه).

وفي سنة ثمان وأربعين ومئة في شهر ربيع الأول توفي سليمان بن مهران الكوفي المعروف بالأعمش، والأعمش رغم كونه شيعي المذهب فإن علماء الجمهور يجلُّونه ويبجِّلونه، وقد اشتهر بحفظ الحديث وقراءته وقد اعتبروه مقارناً للزهري بالحجاز. وكان رضوان الله تعالى عليه حاضر الجواب، لطيف الخلق مزّاحاً، قيل: قال له ولود بن الحائك: ما تقول في الصلاة خلف الحائك؟ فقال: لا بأس بها على غير وضوء! قال: فما تقول في شهادة الحائك؟ قال: تقبل مع عدلين! وقيل عنده يوماً: قال صلى الله عليه وآله: من نام عن قيام الليل بال الشيطان في أذنه. فقال: ما عمشت عيني إلا من بول الشيطان[1].

وحكي أيضاً أنه قال له أبو حنيفة يوماً: يا أبا محمد، سمعتك تقول: «إن الله سبحانه إذا سلب عبداً نعمة عوضه أخرى»، قال: نعم، قال: فما الذي عوضك بعد أن عمش عينيك وسلب صحتهما؟ فقال: «عوضني أن لا أرى نعثلاً[2] مثلك»! قيل: وكان أصل سليمان من دماوند.

ويروي الشيخ عماد الدين الطبري في «بشارة المصطفى» عن شريك أنه قال: كنت عند سليمان الأعمش في مرضته التي قبض فيها إذ دخل علينا ابن أبي ليلي وابن شبرمة وأبو حنيفة، فأقبل أبو حنيفة على سليمان الأعمش فقال: يا سليمان الأعمش اتق الله وحده لا شريك له، واعلم أنك في أول يوم من أيام الآخرة، وآخر يوم من أيام الدنيا، وقد كنت تروي في علي بن أبي طالب أحاديث لو أمسكت عنها لكان أفضل! فقال سليمان الأعمش: لمثلي يقال هذا؟! أقعدوني أسندوني ثم أقبل على أبي حنيفة فقال: يا أبا حنيفة حدثني أبو المتوكل الناجي عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إذا كان يوم القيامة يقول الله عزّ وجلّ لي ولعلي بن أبي

(١) قلت: العمش بالتحريك: ضعف الرؤية مع سيلان الدمع في أكثر الأوقات.
(٢) النعثل: الشيخ الأحمق (المنجد ـ المعرّب).

طالب: أدخلا الجنة من أحبكما، والنار من أبغضكما وهو قول الله عزّ وجلّ: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾! قال أبو حنيفة: قوموا بنا، لا يأتي بشيء هو أعظم من هذا!.

وفي سنة ثمان وأربعين ومئة أيضاً توفي محمد بن عبد الرحمان المعروف بابن أبي ليلى، وكان ابن أبي ليلى صاحب رأي، ولي قضاء الكوفة ثلاث سنوات، وفي إحدى القضايا شهد الثقة الجليل محمد بن مسلم الثقفي عند ابن أبي ليلى بشهادة فردّ شهادته، لكنه ما إن عرف مبلغ علم محمد بن مسلم وتضلّعه في الفقه في أمور عويصة ومسائل يجهل هو الحكم فيها حتى رجع عن موقفه فأجاز شهادته، بل راح يتعلم منه، مما لا يخفى على أهل الرجال.

وكان بين ابن أبي ليلى وأبي حنيفة نفور شديد، فقد أخذ عليه أبو حنيفة في حكم أصدره ستة أخطاء، كما أن ابن أبي ليلى سعى بأبي حنيفة عند الوالي حتى منع أبو حنيفة من الإفتاء.

ونقل عن كتاب «الفقيه» أن ابن أبي ليلى سأل الإمام الصادق عليه السلام: ما هو أحلى وأحب عند الإنسان من كل ما خلق الله؟ فقال: ابن شاب، قال: فما هو أصعب وأشد مرارة؟ قال: فقدانه، فقال: أشهد أنكم حجج الله على خلقه.

وفي سنة تسع وأربعين ومئة توفي عيسى بن عمر الثقفي، النحوي البصري، وهو الذي كان يتقعّر في كلامه، ويستعمل الوحشية والغريبة، واتهمه ابن هبيرة والي العراقين بوديعة، فضربه نحو ألف سوط، فجعل يقول: والله إن كانت إلا أثباتاً في أسيفاط قبضها عشّاروك.

وحكي أنه سقط عن حماره فاجتمع عليه الناس، فقال: مالي أراكم تكأكأتم عليّ تكأكؤكم على ذي جنّة؟ افرنقعوا عني! وفي رواية: قال بعض الحاضرين: جنّيته تتكلم بالهندية.

وفي سنة تسع وأربعين ومئة أيضاً توفي عبد الملك بن عبد العزيز

المعروف بابن جُريح[1]، ويقال إنه أول من صنف الكتب في الإسلام، ولكن المشهور كما عن ابن شهرآشوب أن أول من صنف في الإسلام أمير المؤمنين عليه السلام، والظاهر أن ما صنفه كتاب علي عليه السلام المذكور في أحاديث أهل البيت عليهم السلام، والمنقول عنه من الأحكام الجم الغفير ثم سلمان الفارسي، ثم أبو ذر الغفاري، ثم الأصبغ بن نباتة، ثم عبيد الله بن أبي رافع رضوان الله عليه كاتب أمير المؤمنين عليه السلام، ثم الصحيفة الكاملة عن مولانا زين العابدين عليه السلام.

وفي سنة خمسين ومئة توفي ثابت بن دينار المعروف بأبي حمزة الثمالي لقمان زمانه، وأبو حمزة أدرك الإمام السجاد وباقر العلوم والصادق عليهم السلام، وفي بقائه حياً حتى أيام الكاظم عليه السلام خلاف، وعلى أي حال فقد كان من ثقات أصحاب الأئمة، وكان الإمام الرضا عليه السلام يدعوه بسلمان زمانه، ولقمان زمانه، وبنوه وهم: نوح ومنصور وحمزة قتلوا مع زيد بن علي، والثمالي بضم الثاء منسوب إلى ثمالة وهي من الأزد.

وفي سنة خمسين ومئة أيضاً توفي مقاتل بن سليمان الخراساني المروزي بالبصرة، ومقاتل من مشاهير مفسري أهل السنّة، وينقل عنه ابن خلكان أنه لما تفوّه بكلمة «سلوني عما دون العرش» سأله أحدهم: لما حجّ آدم عليه السلام من الذي حلق له رأسه؟ فاحتار مقاتل وقال: هذا السؤال ليس منك، ولكن الله شاء أن يبتليني بالعجز والذلة بسبب العجب الذي اعتراني.

يقول المؤلف: قائل «سلوني» هو أمير المؤمنين عليه السلام، وكان يكرر قوله: **«سلوني قبل أن تفقدوني»** وراح الناس يسألونه عما أشكل عليهم من أمور غامضة وباب مدينة العلم يجيبهم، ومن غرائب ذلك أن كل من قالها بعده افتضح بالعجز والذلة، كما وقع لمقاتل، وابن الجوزي والواعظ البغدادي في عهد الناصر العباسي وغيرهم وذلك بسبب أنه عليه السلام كان قد قال: **«لا يقولها بعدي إلا مدّع كذاب»**.

---

(١) نقلها ابن خلكان بجيمين على وزن حسين.

ثم اعلم أنه صرّح جمع من العلماء الكبار بأن مقاتل كان كذاباً، وأنه معروف بوضع الحديث على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وأنه متروك الحديث مهجور القول، وروي أن أبا جعفر المنصور كان جالساً فسقط عليه ذباب فطيّره، فعاد وألحّ عليه وجعل يقع على وجهه، وأكثر من السقوط عليه مراراً حتى أضجره، فقال المنصور: انظروا من في الباب، فقيل: مقاتل بن سليمان، فقال: عليّ به، فأذن له، فلما دخل عليه قال: هل تعلم لماذا خلق الله تعالى الذباب؟ قال: نعم، ليذل الله تعالى به الجبابرة! فسكت المنصور.

وفي سنة خمسين ومئة أيضاً توفي الثقة الجليل القدر زرارة بن أعين بن سنسن، وإن جلالة قدر زرارة ووثاقته أوضح من أن تبين. ونقل عن الصادق عليه السلام أنه قال في حقه: «لولا زرارة لقلت إن أحاديث أبي ستذهب». ويروى عن زرارة أنه قال: أسمع والله بالحرف من جعفر بن محمد عليهما السلام من الفتيا فأزداد به إيماناً.

ويروى عن الثقة الجليل القدر ابن أبي عمير أنه قال: قلت لجميل بن دراج: ما أحسن محضرك وأزين مجلسك، فقال: إي والله، ما كنا حول زرارة بن أعين إلا بمنزلة الصبيان في الكتّاب حول المعلم.

وفي (رسالة) أبي غالب الرازي التي كتبها لابن ابنه محمد بن عبد الله قال: روي أن زرارة كان وسيماً جسيماً أبيض. وكان يخرج إلى الجمعة وعلى رأسه برنس أسود، وبين عينيه سجادة، وفي يده عصا، فيقوم له الناس سمطين ينظرون إليه لحسن هيئته، فربما رجع عن طريقه. وكان زرارة خصماً جدلاً لا يقوم أحد لحجته، صاحب إلزام وحجة قاطعة إلا أن العبادة أشغلته عن الكلام، والمتكلمون من الشيعة تلاميذه، وعمّر سبعين (تسعين - خ ل) سنة، هذا وإن لآل أعين من الفضائل الكثير، وما روي عنهم أكثر مما كتبته لك. انتهى.

وإجمالاً فبنو أعين من البيوت الشريفة وكثرتهم الغالبة أهل حديث وفقه وكلام، ونقل عن زرارة الكثير من الأصول والتصانيف والروايات، وكان له العديد من الأولاد من جملتهم روحي وعبد الله، وكلاهما من ثقات الرواة،

ثم الحسن والحسين اللذين دعا لهما الإمام الصادق عليه السلام وقال: «أحاطهما الله وكلأهما ورعاهما وحفظهما بصلاح أبيهما كما حفظ الغلامين».

وكان لزرارة أيضاً عدة إخوة: أحدهم حمران الذي حملت الأخبار من الصادقين عليهما السلام الشهادة بمدحه، فباقر العلوم عليه السلام قال له: «أنت من شيعتنا في الدنيا والآخرة» وفي رواية أنه يعدّ من حواريي الصادقين عليهما السلام، وبنو حمران وحمزة ومحمد وعقبة كانوا جميعهم من أهل الحديث.

والأخ الآخر لزرارة بكير بن أعين الذي قال عنه الإمام الصادق عليه السلام لما بلغه خبر موته: «والله لقد أنزله الله بين رسوله و (بين - خ) أمير المؤمنين صلوات الله عليهما.

وفي رواية أنه كان من حواريي الصادقين عليهما السلام وكان له ستّ بنين ذكور هم: عبد الله والجهم وعبد الحميد وعبد الأعلى وعمرو وزيد وعبد الله بن بكير، وكان - مع أنه فطحيّ المذهب - من الثقات ومن أصحاب الإجماع. وأبناء الجهم من كبار أهل الحديث وأصحاب التصنيف، ومن جملتهم الحسن بن الجهم ثقة عدل، وسليمان بن الحسن بن الجهم جد أبي غالب الزراري، وأول شخص من آل زرارة ينسب إلى زرارة كان سليمان وقد أعطاه الإمام علي النقي عليه السلام لقب الزراري.

وأخ آخر لزرارة هو عبد الرحمان بن أعين الذي شهد المشايخ باستقامته، ثم أخوه عبد الملك بن أعين الذي يروى أن الإمام الصادق عليه السلام زار قبره وترحم عليه، وابنه خريس وكان من ثقات الرواة.

وفي سنة خمسين ومئة أيضاً توفي الثقة الجليل القدر أبو جعفر محمد بن مسلم بن رباح الطحان الكوفي، ومحمد بن مسلم معروف بين أصحاب الصادقين عليهما السلام بكثرة العلم والفقه والحديث، وكان قد سمع ثلاثين ألف حديث من الإمام الباقر وستة عشر ألف حديث من الإمام الصادق

عليهما السلام، وكان مرجعاً وملاذاً لأهل العلم يرجعون إليه في أخذ المسائل المشكلة وتعلم الأحكام الدينية.

قدم عبد الله بن أبي يعفور إلى الإمام الصادق عليه السلام فقال: يسألني بعض الأصحاب أحياناً عن مسائل لا أعرف أجوبتها، كما أني لا يمكنني الوصول إليكم دائماً لآخذ عنكم، فماذا أصنع؟ قال: لم لا ترجع إلى محمد بن مسلم «فإنه سمع من أبي وكان عنده وجيهاً»؟ وإن رجوع شريك قاضي الكوفة وابن أبي ليلى وغيرهما في الأحكام إليه معروف. وقال فيه عبد الرحمان بن الحجاج وحماد بن عثمان: «ما كان في الشيعة أفقه في العلم من محمد بن مسلم».

ومحمد بن مسلم من تلك الجماعة التي قيل: «أجمعت العصابة على تصحيح ما يصح عنهم». وهذه الجماعة ورد ذكرها في هذه الأشعار المنسوبة إلى العلامة بحر العلوم طاب ثراه:

فقد أجمع الكل على تصحيح ما	يصح عن جماعةٍ فليعلما
وهم أولو نجابة ورفعةٍ	أربعة وخمسة وتسعة
فالستة الأولى من الأمجاد	أربعة منهم من الأوتاد
زرارة كذا بريد قد أتى	ثم محمد وليث يا فتى
كذا الفضيل بعده معروف	وهو الذي ما بيننا معروف
والستة الوسطى أولو الفضائل	رتبتهم أدنى من الأوائل
جميلٌ الجميل مع أبان	والعبدلان ثم حمادان
والستة الأخرى هم صفوان	ويونس عليهم الرضوان
ثم ابن محبوب كذا محمد	كذاك عبد الله ثم أحمد
وما ذكرناه الأصح عندنا	وشذ قول من به خالفنا

ويبدو أن من الصواب إيراد شرح موجز لهذه الأشعار، فقد أجمع علماء الشيعة كافة على تصحيح ما يرد من أحاديث بأسناد صحيحة عن هذه

الجماعة، ومع أن هذا القول يتّسم بالإجمال، فالظاهر أن المراد هو أنه إذا ورد الحديث بسند صحيح نقلاً عن زرارة أو بُرَيْد أو محمد بن مسلم أو من بقي منهم فإن أهل الدراية سلكوا هذا الحديث في سلك الصحاح، وأخيراً ملاحظة ما بعد السند حتى انتهائه إلى المعصوم، وهذه الجماعة أصحاب نجابة ورفعة، وقد عدّ منهم ثمانية عشر.

الأول: زرارة بن أعين، وقد تقدم الحديث عنه.

الثاني: بُرَيْد بن معاوية العجلي (بباء موحدة مضمومة وراء مهملة مفتوحة): كان من أصحاب وحواريي الصادقين عليهما السلام ومن الفقهاء والمخبتين والمبشرين بالجنة، وصاحب منزلة عند الأئمة عليهم السلام. قال بعضهم إن وفاته كانت سنة خمسين ومئة وهي سنة وفاة زرارة ومحمد بن مسلم، وهذا لا ينافي ما نقل من أن وفاته كانت قبل وفاة الإمام الصادق عليه السلام، إذ كانت وفاته عليه السلام قبل وفاة زرارة بعدة سنوات كما سيرد لاحقاً.

الثالث: محمد بن مسلم الثقفي، الذي صار اسمه المبارك عنواناً للمطلب.

الرابع: أبو بصير ليث بن البختري وهو في درجة بريد، وفي هؤلاء الأربعة قال الإمام الصادق عليه السلام: إنهم أوتاد الأرض وأعلام الدين، وقال في حديث آحر: «بشّر المخبتين بالجنة: بريد بن معاوية العجلي، وأبو بصير ليث بن البختري المرادي، ومحمد بن مسلم، وزرارة، أربعة نجباء، أمناء الله على حلاله وحرامه، لولا هؤلاء انقطعت آثار النبوة واندرست».

الخامس: الفضيل بن يسار، وهو من أصحاب الصادقين عليهما السلام، وقد توفي في حياة الإمام الصادق عليه السلام، ويروى أنه لما كان الصادق عليه السلام يرى فضيلاً كان يومىء إليه ويقول: «بشّر المخبتين، من أحب أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا». وفي رواية أخرى قال: إن فضيلاً من أصحاب أبي، وأحب أن يكون الرجل محباً لأصحاب أبيه». وجاء في رواية

أن شخصاً كان يقوم بغسل الفضيل قال: لقد سبقتني يد الفضيل إلى ستر عورته عند غسله، فلما عرض هذا الأمر على الإمام الصادق عليه السلام قال: «رحم الله الفضيل بن يسار، وهو منا أهل البيت».

السادس: معروف بن خرّبوز (بتشديد الراء المهملة بعد خاء معجمة مفتوحة): من أصحاب علي بن الحسين والصادقين عليهم السلام، يروي الشيخ الكشي عن الفضل بن شاذان أنه ورد ذات يوم على ابن أبي عمير فرآه في السجود وقد أطاله كثيراً، فلما رفع رأسه قال له: ما أكثر ما تطيل السجود! فقال ابن أبي عمير: وكيف بك إذا رأيت طول سجود جميل بن دراج؟ فلما وردت على جميل - أردف الفضل يقول - ورأيته في طول سجوده. فلما رفع رأسه وتطرقت إلى طول سجوده قال: وكيف بك إذا رأيت طول سجود معروف بن خرّبوز!.

نعرف من هذه الرواية أن معروفَ بن خرّبوز كان قد بلغ بكثرة عبادته وطول سجوده غاية الخضوع ومنتهى العبادة وأقرب حالات العبد إلى الله، وأشد الأعمال على إبليس، وذلك بصورة تستدعي الالتفات، كما نعرف أن ابن أبي عمير أيضاً كان معروفاً بإطالة سجوده.

ويروي الفضل بن شاذان أيضاً فيقول: لما قدمت العراق رأيت شخصاً يعاتب رفيقه ويقول: أنت رجل صاحب عيال وبحاجة إلى الكسب والعمل ومع ذلك تسجد هذا السجود الطويل؟ وأخشى أن يسبب طول السجود لك العمى ومعه العجز! إلى كلام كثير من هذا القبيل، فقال له رفيقه: ما أكثر عتابك! ويحك لو أن طول السجود يوصل إلى العمى فحري بابن أبي عمير أن يصاب بالعمى، ذلك أنه بعد صلاة الصبح يسجد سجدة الشكر فيرفع رأسه منها عند الزوال.

وإجمالاً فإن أولئك الستة الذين تقدم الحديث عنهم أفقه وأرفع من الستة الآخرين الذين سيأتي الحديث عنهم، وأفقههم زرارة.

السابع: جميل بن دراج، وقد عرفنا فضله على وجه الإجمال في الرواية

السابقة وكان أخوه نوح من علماء الشيعة أيضاً، وقد تسلم القضاء بالكوفة، وقد قيل له: لم دخلت في أعمالهم؟ فقال: لم أدخل في أعمال هؤلاء حتى سألت أخي جميلاً يوماً فقلت له: لم لا تحضر المسجد؟ فقال: ليس لي إزار! وقال حمدان: مات جميل عن مئة ألف.

الثامن: **أبان بن عثمان الأحمر**، وهو مع كونه من الناووسية لكنه من أصحاب الإجماع، وأبان وجميل كلاهما يعدان من أصحاب الإمامين الصادق والكاظم عليهما السلام.

التاسع: **عبد الله بن مسكان**، وكان من أصحاب الإمامين الصادق وموسى بن جعفر عليهما السلام، إنما يقال إنه لم يكن يحضر مجالس الإمام الصادق عليه السلام خشية ألا يستطيع أداء حق جلالته وشأنه، وكان يروي عن أصحاب الصادق عليه السلام، وبناءً على هذا فهو لم يسمع من أحاديثه سوى القليل، غير أن النجاشي قال: روي أنه لم يسمع من الصادق عليه السلام سوى حديث: «من أدرك المشعر فقد أدرك الحج».

العاشر: **عبد الله بن المغيرة** (بضم الميم وكسر الغين المعجمة) وهو كوفي ثقة، لا يعدل به أحد في جلالته ودينه وورعه، روى عن أبي الحسن موسى عليه السلام. قال الكشي: إنه كان واقفياً ثم رجع.

الحادي عشر: **حمّاد بن عثمان (ذو الناب)**، كان من ثقات أصحاب الإمامين الكاظم والرضا عليهما السلام، ويعد حماد وأخواه جعفر وحسين في كمال الثقة والفضل، توفي حماد سنة تسع ومئتين.

الثاني عشر: **حمّاد بن عيسى البصري**، وقد أدرك أيام أربعة من الأئمة عليهم السلام، وتوفي في أيام الإمام الجواد عليه السلام سنة تسع ومئتين. وكان يتحرّز ويحتاط في رواية الحديث، وكان يقول: سمعت من الإمام الصادق عليه السلام سبعين حديثاً، وطالما كان الشك يراودني في حفظها حتى اقتصرت منها على عشرين حديثاً. وحماد المذكور هو من دعا له الإمام الكاظم عليه السلام أن يرزقه الله تعالى زوجة وأولاداً وخادماً وخمسين حجة،

وقد رزق كل ما طلبه وحج خمسين حجة، وعندما خرج إلى الحجة الحادية والخمسين وبلغ (الجحفة) كان داخل الماء يغتسل غسل الإحرام فغرق في الماء، وقبره بـ «السيالة» رحمه الله.

الثالث عشر: صفوان بن يحيى الكوفي، من أجلاء أصحاب الأئمة عليهم السلام كان من أهل العبادة والزهد والتقوى، ويروي معمر بن خلاد عن الإمام أبي الحسن موسى عليه السلام أنه قال: «ما ذئبان ضاريان في غنم غاب عنها رعاؤها بأضرّ في دين المسلم من حب الرياسة» ثم قال: «لكن صفوان لا يحب الرياسة».

يقول الشيخ الطوسي: كان صفوان أوثق أهل زمانه، وكان يصلي كل يوم وليلة مئة وخمسين ركعة، ويصوم كل سنة ثلاثة أشهر، ويزكي أمواله ثلاث مرات، وذلك بسبب أنه اجتمع مع عبد الله بن جندب وعلي بن النعمان في بيت الله الحرام وأبرم الثلاثة فيما بينهم عهداً على أن من يموت منهم يقوم من بقي بالصلاة والصيام بالنيابة عنه ما دام حياً، وقد توفي عبد الله وعلي قبل صفوان، فلا غرو أن صفوان كان يؤدي عنهما الصلاة والصيام والزكاة والحج وسائر أعمال الخير ما دام على قيد الحياة، وفي سنة عشر ومئتين توفي بالمدينة، فبعث الإمام الجواد عليه السلام بحنوط وكفن من أجله، وأمر إسماعيل بن موسى بن جعفر عليهما السلام بالصلاة عليه.

ويروى تدليلاً على شدة ورع صفوان أن أحد جيرانه في مكة أعطاه دينارين كي يوصلهما إلى الكوفة، فقال صفوان: لقد اكتريت جملاً على أن يقلّني إلى الكوفة، فأعطني مهلة أستأذن بها من صاحب الجمل.

ويقرب من هذه الحكاية عن شدة الاحتياط الواقعة المعروفة عن المقدس الأردبيلي حين كُلف بإيصال رقعة في أحد أسفاره.

الرابع عشر: يونس بن عبد الرحمان، وكان من أجلاء أصحاب الأئمة عليهم السلام وذا مكانة ومنزلة عندهم، وقد أمر الإمام الرضا عليه السلام عبد العزيز بن المهتدي ـ وكان وكيله ومن خيار أهل قم ـ بالرجوع إلى يونس

وأخذ أحكام الدين عنه، وقد ضمن له الجنة ثلاث مرات، وكان يونس ذا فضل كبير، وقد صنف كتباً كثيرة من جملتها كتابه «يوم وليلة»، وقد عرض أبو هاشم الجعفري هذا الكتاب على الإمام الحسن العسكري عليه السلام فاطلع عليه ودعا ليونس وقال: «أعطاه الله بكل حرف نوراً يوم القيامة»، وقد انتقل يونس إلى رحمة ربه سنة ثمان ومئتين بالمدينة.

ويروى أن جماعة الواقفية قدموا له مالاً كثيراً على أن يكون شريكاً لهم في القول بالوقف، غير أنه أبى وبقي ثابتاً على جادة الحق، رحمه الله.

الخامس عشر: الحسن بن محجوب السراد، كان صاحب مشيخة معروفاً بجلال قدره، كان يروي عن الإمام الرضا عليه السلام، ويُعدّ في الأركان الأربعة في عصره، وقد توفي في أواخر سنة أربع وعشرين ومئتين عن خمسة وسبعين عاماً، وكان يروي عن ستين شخصاً من أصحاب الإمام الصادق عليه السلام ومنهم: علي بن رئاب وأبوه محبوب، وكان يعطي إلى الحسن درهماً عن كل حديث يكتبه عن علي، وعلي بن رئاب من ثقات علماء الشيعة وأجلائهم، وكان أخوه اليمان من رؤوس علماء الخوارج، وكانا يجتمعان كل عام ثلاثة أيام يتناظران فيها، وكانا بعد ذلك يفترقان فلا يكلم أحدهما الآخر، حتى بالسلام.

السادس عشر: محمد بن أبي عمير، وقد أقر الخاصة والعامة بوثاقته وتصديقه، وكان أعبد وأورع الناس، وقيل إنه كان أفضل وأفقه من يونس، في حين أنه يروى عن الفضل بن شاذان في فقه يونس قوله: «ما نشأ في الإسلام رجل من سائر الناس كان أفقه من سلمان الفارسي رضي الله عنه، ولا نشأ بعده رجل أفقه من يونس بن عبد الرحمان رحمه الله».

وقد أدرك ابن أبي عمير الأئمة الكاظم والرضا والجواد عليهم السلام، وفي أيام الرشيد قضى في الحبس أربع سنوات، وكانت أخته قد جمعت كتبه في غرفة فأتلفها المطر، فلا غرو أن ابن أبي عمير كان يروي الأحاديث من ذاكرته، وقد أخذت مراسيله أسانيد في الأحكام، كانت وفاته سنة سبع عشرة

ومئتين، وستأتي الإشارة إلى طرف من فضله عند الكلام عن سنة وفاته، كما تقدم الكلام عن فضله أيضاً في ما سبق.

السابع عشر: عبد الله بن بكير بن أعين، وقد سبقت الإشارة إليه عند الحديث عن حال زرارة.

الثامن عشر: أحمد بن محمد بن أبي نصر البزنطي، كانت له منزلة رفيعة عند الإمام الرضا عليه السلام وذات ليلة بات أحمد عند الإمام الرضا عليه السلام فأمر جاريته بإحضار كساء وملحفة ووسادة وفرشها لأحمد، فلما استلقى أحمد لينام قال في نفسه: قد نلت من هذا الرجل كرامة ما نالها أحد، فقد بتّ في بيت وليّ الله ونمت على فراشه، فإذا به يسمع نداء الإمام عليه السلام يقول له: يا أحمد، إن أمير المؤمنين عليه السلام أتى صعصعة بن صوحان عائداً له، فلما أراد أن يقوم من عنده قال: يا صعصعة، لا تفتخر بعيادتي إياك على قومك، فانظر لنفسك، وتواضع لله يرفعك الله، توفي أحمد سنة إحدى وعشرين ومئتين رحمه الله.

والآن وقد فرغنا من ذكر أصحاب الإجماع نعود إلى أصل المطلب وهو الحديث عن وقائع أيام الدوانيقي.

وإجمالاً فقد كان المنصور رجلاً دموياً فتاكاً سيّىء الظن، نصب للإمام الصادق عليه السلام أشد العداوة، وكانت بينهما صدامات استباح فيها المنصور الحدود حتى استعد مراراً لسفك دمه عليه السلام أو كاد، وأصدر أوامره بذلك حتى استطاع في آخر المطاف وفي السنة العاشرة من حكمه أن يدس له السم حتى مضى عليه السلام شهيداً كما جاء تفصيله في «المنتهى» وذلك سنة ثمان وأربعين ومئة وفق ما جاءت به الروايات.

يقول الشيخ المسعودي في «مروج الذهب» إن شهادته عليه السلام وقعت سنة ثمان وأربعين ومئة، ودفن بالبقيع عند قبر أبيه وجده. وتقوم على قبورهم المباركة صخرة نقش عليها:

بسم الله الرحمان الرحيم. الحمد لله مبيد الأمم ومحيي الرمم، هذا قبر

فاطمة بنت رسول الله سيدة نساء العالمين، وقبر الحسن بن علي بن أبي طالب، وعلي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، ومحمد بن علي، وجعفر بن محمد رضي الله عنهم. انتهى، وأقول: صلوات الله عليهم أجمعين.

وقد استشهد على يدي المنصور في أيام خلافته الكثيرون من آل أبي طالب أمثال عبد الله المحض، وأخيه لأمه محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان المعروف بالديباج، والحسن المثلث، وعلي وعبد الله والعباس أبناء الحسن المثلث، وإسماعيل بن إبراهيم طباطبا ومحمد أخوه، وإبراهيم بن عبد الله المحض، ومحمد بن عبد الله النفس الزكية وبنوه علي وعبد الله وطفل آخر، وعلي بن الحسن بن زيد بن الحسن المجتبى عليه السلام، والحمزة بن إسحاق بن علي بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه، إلى غير ذلك.

وهؤلاء المذكورون بجملتهم قتل بعضهم في الحبس نتيجة أنواع التعذيب والنكال، وبعضهم بالسم، والبعض الآخر بالسيف. وقد أوردنا أسماء هذه الجماعة في كتاب «منتهى الآمال» مع شرح موجز لأحوالهم عند الحديث عن بني الإمام الحسن عليه السلام.

كما قام المنصور أيضاً بإحضار البعض من آل أبي طالب وجلدهم بالسياط أمثال موسى بن عبد الله المحض الملقب بجون الذي أمر بجلده حتى غشي عليه، وقيل إنه تلقى ألف جلدة. وغيره الحسن بن معاوية بن عبد الله بن جعفر الذي أحضره المنصور وقام بجلده ثم ألقاه في حبسه حيث بقي محبوساً حتى هلك المنصور وأطلقه المهدي. كما أن العديد من الطالبيين تواروا عن الأنظار خشية من المنصور أمثال الحسين بن زيد بن علي بن الحسين عليه السلام الملقب بذي الدمعة، والذي توارى عنه، ومثل عيسى بن زيد الذي سيأتي الحديث عن أحواله عند الحديث عن أيام المهدي.

ولعل من الصواب أن نشرح هنا الكيفية التي وقعت فيها مقاتل الطالبيين في أيام المنصور.

شهادة عبد الله بن الحسن بن الحسن بن

علي بن أبي طالب عليهما السلام ومقتل أهل بيته رحمهم الله تعالى

لا يخفى أنه لما قتل الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان ومال الحكم الأموي نحو الضعف والزوال تنادى جماعة من بني العباس وبني هاشم إلى الاجتماع، وكان من بينهم أبو جعفر المنصور وأخواه السفاح وإبراهيم بن محمد، وعمه صالح بن علي، وعبد الله المحض[1] وولداه محمد وإبراهيم، وأخوه محمد الديباج وغيرهم، وتم اجتماعهم في الأبواء، وأسفر الاجتماع عن اتفاقهم على مبايعة واحد من ابني عبد الله المحض بالخلافة.

اختاروا من بينهم محمد بن عبد الله وكان يقال له المهدي، وكان قد طرق أسماعهم أن مهدي آل محمد عليه السلام من أهل بيت الرسالة اسمه اسم النبي، وأنه يملك الأرض ويملأ العالم شرقه وغربه قسطاً وعدلاً بعد ملىء ظلماً وجوراً، فلا عجب أنهم مدوا أيدي البيعة إلى محمد وبايعوه بالخلافة.

ثم إنهم بعثوا رسولاً يستدعون عبد الله بن محمد بن عمر بن علي عليه السلام، والإمام جعفراً الصادق عليه السلام، قال عبد الله لهم: لا تطلبوا جعفراً فإنا نخاف أن يفسد عليكم أمركم، ثم حضر الإمام الصادق

---

(١) عبد الله المحض هو ابن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليهما السلام، وأمه فاطمة بنت سيد الشهداء عليه السلام (منه رضي الله تعالى عنه).

عليه السلام فأوسع له عبد الله بن الحسن إلى جنبه، وكشف له واقع الحال، فقال عليه السلام: «لا تفعلوا، إن كنت ترى ـ يعني عبد الله ـ أن ابنك هذا هو المهدي فليس به، ولا هذا أوانه، وإن كنت إنما تريد أن تخرجه غضباً لله وليأمر بالمعروف وينهى عن المنكر فإنا والله لا ندعك ـ وأنت شيخنا ـ ونبايع ابنك في هذا الأمر».

قال عبد الله بن الحسن: الأمر خلاف ما تقول، ولكن يحملك على هذا الحسد لابني!.

فقال: «ما ذاك والله يحملني، ولكن هذا وإخوته وأبناؤهم دونكم» وضرب بيده على ظهر أبي العباس، ثم ضرب بيده على كتف عبد الله بن الحسن وقال: «إنه والله ما هي إليك ولا إلى ابنيك، ولكنها لهم، وإن ابنيك لمقتولان».

ثم نهض فتوكأ على يد عبد العزيز بن عمران الزهري وخرجا، ثم قال لعبد العزيز: «أرأيت صاحب الرداء الأصفر»؟ ـ يعني المنصور ـ قال: نعم، قال: «إنا والله نجده يقتله» يعني: يقتل عبد الله.

قال له عبد العزيز: أيقتل محمداً أيضاً؟ قال: نعم. قال عبد العزيز: فقلت في نفسي: حسده وربّ الكعبة! ثم قال: فوالله ما خرجت من الدنيا حتى رأيته قتلهما.

قال: فلما قال جعفر عليه السلام ذلك ونهض القوم وافترقوا تبعه عبد الصمد وأبو جعفر المنصور فقالا: يا أبا عبد الله أتقول هذا؟ قال: «نعم، أقوله والله وأعلمه».

ولما كان بنو العباس يعلمون أن حديث الصادق عليه السلام حق وثابت فقد عقدوا العزم مذ ذاك اليوم على الفوز بالحكم وانصرفوا إلى الإعداد لذلك حتى جاء يوم أدركوا فيه ما عزموا عليه.

روى شيخنا المفيد عن عنبسة بن نجاد العابد قال: كان جعفر بن محمد عليه السلام إذا رأى محمد بن عبد الله بن الحسن تغرغرت عيناه، ثم يقول:

«بنفسي هو، إن الناس ليقولون فيه وإنه لمقتول، ليس هذا (هو ـ خ ل) في كتاب علي عليه السلام من خلفاء هذه الأمة».

يقول المؤلف: مع أنه يظهر من تبادل الكلام بين الإمام الصادق عليه السلام وبين عبد الله المحض سوء رأيه غير أن أخباراً كثيرة وردت في مدحه، وسيأتي لاحقاً ما جرى من بكاء الإمام الصادق عليه السلام عليهم بكاءً كثيراً لما أخذوهم أسارى من المدينة إلى الكوفة، ومِن لعنهِ الأنصار، وكيف حُمّ بعدها من فرط حزنه، كما بعث عليه السلام بكتاب تعزية بعبد الله وسائر أهل بيته، ودعا عبد الله بالعبد الصالح كما دعا لهم بالسعادة، وقد ذكر السيد ابن طاووس كتاب التعزية هذا في «الإقبال»، وقال: وقد اشتملت هذه التعزية على وصف عبد الله بالعبد الصالح والدعاء له وبني عمه بالسعادة، وهذا يدل على أن الجماعة المحمولين كانوا عند مولانا الصادق عليه السلام معذورين وممدوحين ومظلومين وبحبه عارفين.

وقال أيضاً: لئن كان الحديث الوارد في الكتب يكشف عن أنهم كانوا للصادقين عليهما السلام مفارقين فإن ذلك الحديث محتمل للتقية، لئلا ينسب خروجهم للنهي عن المنكر إلى الأئمة الأطهار عليهم السلام.

ويؤيد هذا المقال ما رواه خلاد بن عمير الكندي قال: دخلت على أبي عبد الله عليه السلام فقال: «هل لكم علم بآل الحسن الذين خُرج بهم من قبلنا»؟ وكان قد اتصل بنا عنهم خبر فلم نحب أن نبدأه به، فقلنا: نرجو أن يعافيهم الله، فقال: «وأين هم من العافية ثم بكى حتى علا صوته، وبكينا، ثم قال: «حدثني أبي عن فاطمة بنت الحسين قالت: سمعت أبي صلوات الله عليه يقول: يقتل منك أو يصاب منك نفر بشط الفرات ما سبقهم الأولون ولا يدركهم الآخرون».

ثم قال عليه السلام: «إنه لم يبق من ولدها غيرهم». وهو مصداق هذا الحديث، ولا شك أنهم مقتولون بشط الفرات.

ثم أورد السيد ابن طاووس عدة أخبار في جلالة قدرهم وتبيان أنهم لم

يكونوا يعتقدون بأن مهديهم هو المهدي الموعود عليه السلام فعلى الراغب الرجوع إلى أعمال شهر المحرم في «إقبال الأعمال».

وإجمالاً فإن محمداً وإبراهيم ابني عبد الله كانا باستمرار يحييان في هوى الخلافة ويعدّان للخروج، حتى إذا صار الأمر إلى السفاح هربا وتواريا عن الناس، أما السفاح فكان يُكبر عبد الله ويبالغ في إكرامه. يقول السبط بن الجوزي: قال عبد الله ذات يوم: لم يحدث أني رأيت ألف ألف درهم مجتمعة عندي، فقال السفاح: الآن ستراها، وأمر له بألف ألف درهم.

يروي أبو الفرج أنه لما صار الأمر إلى السفاح وفد إليه عبد الله وأخوه الحسن المثلث، فقدم لهما العطاء والرعاية وزاد في إكرام عبد الله، لكنه كان أحياناً يسأل عبد الله عن ولديه، ولماذا لم يفدا إليه فيقول عبد الله: ليس استتارهما عن الخليفة لأمر يكرهه، وكان السفاح يكرر سؤال عبد الله وينغص عليه عيشه حتى فاجأه مرة بالسؤال: هل أخفيت ولديك عني؟ لا بد لمحمد وإبراهيم كليهما أن يقتلا! فلما سمع عبد الله هذا الكلام غمره الحزن وعاد إلى بيته كئيباً مهموماً[1]. فلما رأى أخوه الحسن المثلث آثار الحزن عليه سأله عن السبب فأخبره بمطالبة السفاح بولديه، فقال له: إن سألك عنهما هذه المرة فقل له: إن الخبر عنهما عند عمهما، وأنا كفيل بإسكاته، فلما عاود أبو العباس الحديث عنهما ذات يوم أخبره أن الخبر اليقين عنهما إنما هو عند عمهما، فتريث أبو العباس حتى إذا كان عبد الله يوماً خارج بيته أرسل وراء الحسن المثلث وسأله عنهما، فقال:

أيها الأمير، أأحدثك حديث الرعية مع السلطان، أم حديث رجل مع ابن عمه؟ قال: بل حديث رجل مع ابن عمه. قال الحسن: أيها الأمير.. لو شاء الله أن تكون الخلافة من نصيب محمد وإبراهيم أيكون في مقدورك ومقدور المخلوقات في السماء والأرض دفعهما عن ذلك؟ قال: لا والله؛ قال

---

(١) في «عمدة الطالب» جاء اسم إبراهيم الغمر مكان الحسن أخيه (منه رضي الله تعالى عنه).

الحسن: فلو لم يشأ الله هل في مقدور أهل السماء والأرض مجتمعين ضمان الأمر لهما قال: لا والله؛ قال: فلماذا إذاً تطالب هذا الشيخ المسن بهما وتنغص عليه ما تنعم به عليه؟ قال أبو العباس: لن أذكر اسميهما بعد اليوم قط. ولم يأت على ذكرهما طيلة حياته، ثم إنه أمر عبد الله بالرجوع إلى المدينة.

وسار الأمر على ذلك حتى موت السفاح وانتقال الخلافة إلى المنصور الذي عزم ـ لخبث طينته ودناءة فطرته ـ على قتل محمد وإبراهيم. وفي سنة أربعين ومئة قصد الحج وجعل رجوعه عن طريق المدينة، فلما بلغها طلب عبد الله وسأله عن ولديه، فقال: لا علم لي بمكانهما، فشتمه وأغلظ له القول، وأمر به فسجن في بيت مروان، وكان سجانه رياح بن عثمان، وبعد عبد الله أمسكوا بجماعة من آل أبي طالب واحداً إثر الآخر وأودعوهم السجن، وفيهم الحسن وإبراهيم وأبو بكر، إخوة عبد الله، والحسن بن جعفر بن الحسن المثنى، وسليمان وعبد الله وعلي والعباس أبناء داود بن الحسن المثنى، وعلي بن محمد النفس الزكية وغيرهم ممن جرى الحديث عنهم عند ذكر بني الإمام الحسن المجتبى عليه السلام في «منتهى الآمال».

وإجمالاً فقد وضعهم رياح بن عثمان في الأغلال والقيود، وراح يشتد ويقسو عليهم، وكان بين وقت وآخر يبعث إلى عبد الله المحض بمن ينصحه ويستشف منه ما قد يكون بلغه عن مكان ولديه، فكانوا إذا حدثوا عبد الله بذلك، وأنحو عليه باللائمة لكتمانه أمرهما أجابهم بقوله:

ألا إن بليتي أكبر من بلية خليل الرحمان، ذلك أنه أمر بذبح ولده وكان هذا الذبح في طاعة الله، غير أني أومر بتقديم ولديّ للذبح، وذبحهما في معصية الله!.

ومضت عليهم في سجنهم ثلاث سنوات، حتى إذا حلت سنة أربع وأربعين ومئة حج المنصور ثانية، لكنه لم يجعل عودته عن طريق المدينة بل أخذ طريقه إلى الربذة، فوافاه رياح بن عثمان إلى هناك لرؤيته، فأمره بأن يعود

إلى المدينة وأن يعود إليه مع مسجونيه من بني الحسن، فتوجه رياح إلى المدينة يرافقه أبو الأزهر سجّان المنصور، وكان رجلاً خبيثاً سيّىء الطوية والخلق، وهناك وضع بني الحسن بالقيود والأغلال والسلاسل، وخرجوا بهم ومعهم محمد الديباج أخو عبد الله المحض لأمّه مغلولاً كذلك. ولما توجهوا بهم نحو الربذة على تلك الحال من الشدة والقسوة وقف الصادق عليه السلام ينظر إليهم من وراء ستر وقد هملت عيناه حتى جرت دموعه على لحيته وهو يقول: لعنكم الله يا معشر الأنصار، ما على هذا عاهدتم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولا بايعتموه، فقد بايعتموه على أن تمنعوه وذريته مما تمنعون منه أنفسكم وذراريكم، وعلى رواية؛ أنه عليه السلام دخل بيته فحمّ عشرين ليلة لم يزل يبكي فيها الليل والنهار، حتى خيف عليه!.

قدم الحرس ببني الحسن الربذة، وتركوهم هناك تحت أشعة الشمس، ثم حضر رجل من قبل المنصور يقول: من هو محمد بن عبد الله بن عثمان؟ فلما أظهر محمد الديباج نفسه اقتاده الرجل إلى المنصور.

يقول الراوي: لم نلبث طويلاً حتى سمعنا أصوات السياط، ولما أعادوا محمداً عرفنا مبلغ ما أنزلوه به، كان وجهه ولونه الذي يشبه سبيكة الفضة قد غدا أشبه بلون زنجي، وكانت إحدى عينيه قد خرجت محجرها، ثم طرحوه إلى جانب أخيه عبد الله، وكان عبد الله يحب أخاه أشد الحب، وكان العطش قد بلغ من محمد مبلغه، وطلب شربة ماء، وكان الناس يحذرون الرحمة بهم خشية من المنصور، فصاح عبد الله: من يسقي ابن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم شربة ماء، فسقاه رجل خراساني شربة ماء كما روي، وقيل إن ثياب محمد قد التصقت بجسده من تأثير السياط والدماء التي سالت عليها حتى ليصعب نزعها عنه، ولما نزعوها بعد أن مرغوه بالزيت كانت قطع من جلده ملتصقة بها.

ويروي السبط بن الجوزي أنه لما أدخل محمد على المنصور سأله: أين الكاذبان الفاسقان محمد وإبراهيم؟ وكانت رقية أخت الديباج زوجة لإبراهيم،

قال محمد: والله لا أعلم مكانهما، فأمر المنصور بجلده أربعمئة جلدة، ثم أمر بإلباسه ثوباً خشناً ثم نزعه عنه بشدة حتى ينسلخ جلده معه، وكان محمد من أحسن الناس صورة وشمائل، وهذا سبب تلقيبه بالديباج؛ وقد اقتلع السوط إحدى عينيه، ثم قيدوه وجاؤوا به إلى أخيه عبد الله، وكان محمد إذ ذاك يشكو من العطش الشديد فلم يجرؤ أحد على تقديم الماء له، فصاح أخوه: يا معشر المسلمين، أيموت مسلم من أبناء النبي من العطش وأنتم تمنعونه الماء؟!.

ثم تحرك المنصور من الربذة في هودج يرافقه حاجبه الربيع، أما بنو الحسن فقد أركبوهم إبلاً عارية وهم عطاش جوعى عراة الرؤوس والأجساد، تثقلهم القيود والسلاسل، وسار الركب متجهاً إلى الكوفة.

ولما عبر المنصور على هودجه المغطى بالحرير والديباج بجانبهم رآه عبد الله فقال: يا أبا جعفر، أهذا ما صنعناه بأسراكم في بدر؟ إشارة منه إلى أسر العباس جد المنصور يوم بدر، ورحمة جدهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم به وهو يشكو ثقل القيود، وقوله إن شكوى العباس لن تدع للنوم إليه من سبيل، وأمره صلى الله عليه وآله وسلم بإطلاقه.

يروي أبو الفرج أن المنصور أراد أن يزيد في شقاء عبد الله فأمر بتسيير بعير محمد أمام بعير عبد الله، فكان عبد الله ينظر باستمرار إلى ظهر أخيه ويرى آثار السياط فيزداد جزعه وشقاؤه، واستمروا في سوء الحال هذا حتى بلغوا الكوفة، وهناك طرحوهم في سجن (الهاشمية) في أقبية لا يعرف الليل فيها من النهار، وكان عددهم في كل محبس عشرين رجلاً وفقاً لرواية ابن الجوزي.

ويروي المسعودي أن المنصور أطلق سليمان وعبد الله ابني داود بن الحسن المثنى مع موسى بن عبد الله المحض والحسن بن جعفر، واستبقى الآخرين حتى يموتوا في سجنهم. وكان محبسهم على شاطىء الفرات قرب قنطرة الكوفة، وإن مواضعهم في الكوفة في أيامنا هذه ـ ونحن في سنة اثنتين

وثلاثين وثلاثمئة - معروفة وهي محل زيارة، وجميعهم في ذلك الموضع، وقبورهم هي السجن نفسه الذي هدموا سقفه فوقهم؛ ولما كانوا في سجنهم كانوا لا يغادرونه لقضاء الحاجة، فلا بد لهم من قضاء حاجتهم حيث هم، الأمر الذي جعل الروائح الكريهة تنتشر وتسبب لهم أشد الشقاء، وكان بعض مواليهم يأتونهم بالطيب ليدفعوا به تلك الروائح؛ وإجمالاً فبسبب تلك الروائح وبسبب كونهم في السجن وشدة القيود ظهرت الأورام في أرجلهم، وسرت منها حتى بلغت قلوبهم فأهلكتهم، وكانوا لا يعرفون دخول أوقات الصلاة لظلام السجن، فلا غرو أنهم لجأوا إلى طريقة تساعدهم، فقد قسموا القرآن إلى خمسة أقسام، وكانوا يتناوبون على تلاوته، فيختمون تلاوة الخمس الواحد بصلاة من الصلوات الخمس، وهكذا كانوا يختمون القرآن مرة في اليوم.

أما إذا مات أحدهم فكان جسده يبقى على حاله في أغلاله حتى تفوح رائحته ويهترىء، وكان الأحياء منهم يرون كل ذلك ويقاسون منه ما يقاسون.

وأورد ابن الجوزي شرحاً لمحبسهم دون أن يتطرق إلى موضوع إحضار الطيب لهم، وقد سبقت منا الإشارة أيضاً في كتاب «المنتهى» إلى هذا الحبس عند حديثنا عن الحسن المثلث وتعداد أبنائه، وكان منهم علي بن الحسن المثلث المعروف بعلي العابد، وكان يمتاز بالعبادة والذكر والصبر على الشدائد، وفي رواية أن بني الحسن كانوا لا يعرفون أوقات الصلاة إلا بتسبيح علي بن الحسن وقراءته لأوراده، حيث كان يشغل يومه بالذكر وقراءة الأوراد المخصصة لكل وقت من أوقات اليوم، فيعرفون عن طريقها أوقات الصلاة.

ويروي أبو الفرج عن إسحاق بن عيسى قال: بعث عبد الله المحض من سجنه يوماً يدعو أبي إليه، فطلب أبي الإذن من المنصور فأذن له وقدم إليه، فقال له: لقد دعوتك لتأتيني بالماء فقد غلبني العطش، بعث أبي له بإبريق ماء مثلج، فلما رفعه إلى فمه ليشرب وصل أبو الأزهر السجان ورآه فغضب، وركل الإبريق بقدمه فأصابت ثنايا عبد الله فهشمتها.

وإجمالاً فحالهم في السجن كانت على هذا المنوال: فبعضهم يموت، وبعضهم يقتل، وبقي عبد الله مع آخرين من أهل بيته أحياء حتى خرج ابناه محمد وإبراهيم وقتلا، وأرسل رأساهما إلى المنصور، فبعث المنصور برأس إبراهيم إلى عبد الله، ثم لحق بهم ما لحق بالآخرين من موت أو قتل.

ويروي السبط بن الجوزي وغيره أنه قبل خروج محمد بن عبد الله ومقتله، بعث عامل المنصور على خراسان يخبر الخليفة أن أهل خراسان يرتدّون عن بيعتهم لي بسبب خروج محمد وإبراهيم ابني عبد الله، فأمر المنصور بضرب عنق محمد الديباج وبعث برأسه إلى خراسان كي يخدعوا أهلها بعد أن يقسموا لهم بأن الرأس يعود إلى محمد بن عبد الله بن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، كي يرجعوا عن أوهامهم بالخروج مع محمد بن عبد الله[1].

ونشرع الآن بالحديث عن مقتل محمد بن عبد الله المحض.

(١) عن «تاريخ» خطيب بغداد: مات عبد الله بن الحسن في حبس المنصور بالكوفة يوم عيد الأضحى من سنة خمس وأربعين ومئة. وقال تاج الدين بن زهرة الحسيني في «غاية الاختصار» نقلاً عن خط عبد الحميد النسابة بن فخار بن معد بن فخار الموسوي: إنه مات إبراهيم بن الحسن في الحبس سنة خمس وأربعين ومئة، وقبره في الكوفة، وهو أول من مات من بني الحسن (منه رضي الله تعالى عنه).

مقتل محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام الملقب بالنفس الزكية

محمد بن عبد الله: كنيته: أبو عبد الله، ولقبه: صريح قريش، ذلك أنه لم تكن أيّ من أمهاته أو جداته أم ولد، فأمه هي هند بنت أبي عبيدة بن عبد الله بن زمعة بن الأسود بن المطلب، ولقب بالنفس الزكية لكثرة زهده وعبادته، وقد دعاه أهله بالمهدي استظهاراً منهم للحديث النبوي: «إن المهدي من ولدي، اسمه اسمي». وقيل إنه المقتول عند أحجار الزيت، وكانوا يمتدحونه لفقهه وعلمه وشجاعته وكثرة فضائله، وكان له بين كتفيه خال بحجم البيضة، وهكذا اعتقدوا أنه المهدي الموعود من آل محمد صلوات الله عليهم أجمعين، ولهذا فقد بايعوه وكانوا يرصدون ظهوره وينتظرون خروجه.

وكان أبو جعفر المنصور قد بايعه مرتين: إحداهما في المسجد الحرام حيث سار بين يديه لدى خروجه من المسجد وقدم له الركاب حتى جلس على دابته، مراعياً له المزيد من الاحترام والإجلال، حتى أن رجلاً سأل المنصور: من هذا الذي تبدي له كل هذا الإجلال؟ فقال المنصور: ويحك! ألا تعلم أن هذا الرجل هو محمد بن عبد الله المحض، وأنه مهديّنا أهل البيت! كما بايعه مرة ثانية بالأبواء وفقاً لما هو مرقوم في بيان أحوال عبد الله.

وقد أورد أبو الفرج والسيد ابن طاووس أخباراً كثيرة تفيد أن عبد الله المحض وسائر أهل بيته كانوا ينكرون أن محمداً النفس الزكية هو المهدي الموعود؛ ويقولون: إن المهدي الموعود هو غيره.

وإجمالاً فلما استقرت الخلافة في بني العباس عاش محمد وإبراهيم مختفيين، وفي أيام المنصور قدما كلاهما إلى أبيهما في سجنه متخفيين بصورة أعرابيين من عرب البادية، وسألاه أن يأذن لهما بالظهور قائلين: لأن نظهر ونقتل خير من أن يقتل رهط من آل النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فقال عبد الله:

«إن منعكما أبو جعفر أن تعيشا كريمين فلا يمنعكما أن تموتا كريمين».

ومراده أن الصواب هو في أن تنصرفا إلى الإعداد لخروجكما على المنصور، فإن لقيتما النصرة فذاك خير، وإن قتلتما فلستما ملومين.

وفي فترة اختفائهما لم يكن للمنصور من همّ سوى العثور عليهما، وقد رصد لذلك العيون والجواسيس في كل الأنحاء لعلّه يعرف مكانهما.

ويروي أبو الفرج أن محمد بن عبد الله قال: لما كنت مختفياً في شعاب الجبال اتخذت لي موضعاً في جبل (رضوى) مع أم ولدي. وقد رزقت منها بطفل رضيع حين اكتشفت أن غلاماً سيأتي في طلبي من المدينة فركنت إلى الفرار، كما أن أم ولدي احتضنت ابني وهربت، وفي غمرة هروبها أفلت الطفل منها وهوى من الجبل فقتل، وقد ورد في الخبر أن طفلاً لمحمد يهوي ويموت، وقد قال محمد في ذلك:

منخرق الكفين يشكو الوجى ... تنكته (تنكبه ـ خ) أطراف مرو حداد
شرده الخوف فأزرى به ... كذاك من يكره حرّ الجلاد
قد كان في الموت له راحة ... والموت حتم في رقاب العباد

وإجمالاً فقد خرج محمد سنة خمس وأربعين ومئة، ودخل المدينة في شهر رجب على رأس مئتين وخمسين وهم يكبّرون، وتوجهوا إلى سجن المنصور فحطموا بابه وأطلقوا السجناء، وأمسكوا برياح بن عثمان سجان المنصور فألقوه في السجن، ثم ارتقى المنبر وخطب خطبة بيّن فيها مثالب المنصور وخبث سيرته، ودعا الناس إلى بيعته. استفتى الناس مالك بن أنس إن كان بإمكانهم مبايعة محمد في حين أن بيعة المنصور في أعناقهم، فأفتاهم

بالإيجاب، ذلك أن بيعتهم للمنصور كانت عن كراهة منهم، فبادر الناس إلى بيعة محمد، واستولى محمد على المدينة ومكة واليمن.

فلما علم المنصور بذلك كتب إلى محمد يعرض عليه الصلح والمسالمة، ويعطيه الأمان، فردّ عليه محمد ردّاً شافياً ختمه بقوله:

أيّ أمان هذا الذي تعرضه عليّ؟ أهو الأمان الذي أعطيته لابن هبيرة أم هو الأمان الذي أعطيته لعمك عبد الله بن علي؟ أم هو الأمان الذي أرضيت به أبا مسلم؟!.

ومراده: كيف يمكن الركون إلى أمانك، وأنت قد أمّنت أولئك الثلاثة ولم تعمل بمقتضى أمانك لهم؟.

ثم كتب إليه أبو جعفر ثانية يؤمنه عن طريق الحسب والنسب والقرابة (والمقام هنا لا يتسع لإيراد مراسلاتهما، فعلى من يرغب الرجوع إلى تذكرة السبط وغيرها).

ولما يئس المنصور من احتواء محمد عن طريق السلم والموادعة أمر عيسى بن موسى ـ وكان ابن أخيه وولي عهده ـ بالتجهز لحربه، وكان المنصور يبطن في نفسه أن لا فرق في مَن يقتل مَن، فهو لم يكن يريد لعيسى العيش، ذلك أن السفاح كان قد عهد إليه أن يولّي عيسى الخلافة بعده، وكان كارهاً لذلك.

ثم إن عيسى خرج إلى قتال محمد في أربعة آلاف فارس وألفين من المشاة، وكان المنصور قد أوصاه بأن يعرض عليه الأمان أولاً لعله يعود إلى طاعته دون قتال، وسار عيسى حتى إذا بلغ (فيد) وهو منزل في الطريق إلى مكة، بعث بكتاب إلى جماعة من أصحاب محمد يخذّلهم عن نصرته، فلما بلغ محمداً ذلك انصرف إلى الإعداد للحرب، فحفر خندقاً حول المدينة، وبحلول شهر رمضان وصل عيسى مع جيشه، وحاصر المدينة.

يروي السبط بن الجوزي أنه لما حاصر جيش المنصور المدينة لم يكن لمحمد من همّ سوى أن يحرق ديواناً بأسماء الناس الذين بايعوه وكاتبوه،

وبعد أن أحرقه قال: الآن طاب الموت، فلو أني لم أفعل ذلك لكان الناس في بلاء عظيم، فلو وقعت هذه الأسماء بيد العباسيين لقتلوهم.

وأخيراً قدم عيسى وتوقف في (سلع) وهو اسم جبل في المدينة، وصاح قائلاً: يا محمد لك الأمان، قال محمد: أمانكم لا وفاء له، وللموت بعزة خير من الحياة بذلة. وكان جيشه إذ ذاك قد تفرق مبتعداً عنه، ولم يبق معه من مئة ألف بايعوه سوى ستة عشر وثلاثمئة رجل تعداد أهل بدر[1]، ثم إن محمداً وأصحابه اغتسلوا ونثروا الحنوط على أنفسهم، ثم حثوا مطاياهم وحملوا على عيسى وأصحابه فأجلوهم ثلاث مرات، ثم جمع عيسى صفوفه وحمل بها جميعاً حملة واحدة أنجزوا بها عملهم وأوردوهم مصارعهم، وكانت شهادة محمد على يدي حميد بن قحطبة الذي احتز رأسه وذهب به إلى عيسى، أما جسده فرفعته أخته زينب وابنته فاطمة ودفنتاه في البقيع، وحمل رأسه إلى المنصور فأمر بنصبه بالكوفة، وأن يطاف به في البلاد.

وكان مقتل محمد في أواسط شهر رمضان سنة خمس وأربعين ومئة، وكانت المدة من ظهوره إلى مقتله شهرين وسبعة عشر يوماً، وقد بلغ من العمر خمسة وأربعين عاماً، وكان مقتله عند (أحجار الزيت) بالمدينة مصداقاً لقول أمير المؤمنين عليه السلام في جملة أخباره الغيبية: «وإنه يقتل عند أحجار الزيت».

يروي أبو الفرج أنه بعد مقتل محمد وهزيمة جيشه انطلق ابن خضير - وكان أحد أصحابه - إلى السجن، فقتل رياح بن عثمان سجّان المنصور، ثم أحرق ديوان محمد الذي كان يشتمل على أسماء أصحابه ورجاله، ثم عاد إلى قتال العباسيين، فقاتل حتى قتل. كما يروي أيضاً أنه عند مقتله تلقى ضربات وجراحات كثيرة شلّت حركته وصار أشبه بالباذنجان المطبوخ المحمر، فأي موضع وقعت عليه اليد من جسده تلاشى.

---

(١) لعل في العدد خطأً مطبعياً، ذلك أن تعداد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من أهل بدر كان ثلاثة عشر وثلاثمئة رجلاً، كما هو معروف (المعرّب).

مقتل إبراهيم بن عبد الله بن الحسن بن الحسن ابن علي بن أبي طالب عليه السلام المعروف بقتيل باخمرى

جاء في «مروج الذهب» للمسعودي أنه لما عزم محمد بن عبد الله المحض على الخروج فرق إخوته وأبناءه في البلاد والأمصار يدعون الناس إلى بيعته، ومنهم ابنه علي الذي بعث به إلى مصر فقتل هناك، ووفقاً لتذكرة السبط فقد مات في السجن؛ كما بعث بابنه الآخر عبد الله إلى خراسان فلاحقه جيش المنصور فهرب إلى بلاد السند فقتل هناك؛ وأما ابنه الثالث الحسن فقد بعث به إلى اليمن، فأخذوه هناك وسجنوه، ومات في سجنه.

أقول: كان هذا كلام المسعودي، غير أن ما ورد في كتب أخرى هو أن الحسن بن محمد شهد وقعة (فخ) مع الحسين بن علي، وقتل على يدي عيسى بن موسى العباسي، كما تقدم في غضون الحديث عن أبناء الإمام الحسن عليه السلام في كتاب «المنتهى». وأن موسى أخا محمد صار إلى الجزيرة، وأن أخاه الآخر يحيى صار إلى الري وطبرستان، ووقع أخيراً بيد الرشيد فقتله كما تقدم في كتاب «المنتهى». وأما أخوه الثالث إدريس فقد سافر إلى المغرب وبايعه جماعة هناك، وتمكن الرشيد في آخر الأمر أن يبعث بمن قتله غيلة، وحل بعده ابنه إدريس بن إدريس محله وسُمي بلدهما باسمه فقيل: بلد إدريس بن إدريس، وقد تقدم الحديث عن مقتله في «المنتهى» أيضاً.

أما أخوه الرابع إبراهيم فقد توجه إلى البصرة حيث خرج هناك بعد أن اجتمع إليه خلق كثير من أهل فارس والأهواز وغيرهما، إلى جانب كثيرين

ممن بايعوه من الزيدية والمعتزلة البغداديين وغيرهم، وكان معه من الطالبيين عيسى بن زيد بن علي بن الحسين عليه السلام.

أرسل المنصور بعيسى بن موسى وسعيد بن مسلم على رأس جيش كبير لحربه، وفي أرض «باخمرى» وهي من أراضي الطف وعلى بعد ستة فراسخ من الكوفة استشهد إبراهيم وقتل من أصحابه من الزيدية أربعمئة، أو خمسمئة رجل على قول.

أما عن كيفية مقتل إبراهيم فقد ورد في «تذكرة» السبط ما يأتي:

خرج إبراهيم في غرّة شهر شوال، أو شهر رمضان على قول، سنة خمس وأربعين ومئة في البصرة، وبايعه خلق لا يحصى، وفي تلك السنة شرع المنصور ببناء مدينة بغداد، وفي غمرة انشغاله بأعمال البناء بلغه نبأ خروج إبراهيم بالبصرة، وغلَبَته على فارس والأهواز، والتفاف خلق كثير حوله، ومبايعة الناس له طوعاً ورغبة، وأنه لا همّ له سوى الثأر لأخيه محمد بقتل المنصور نفسه.

لما سمع المنصور بكل هذا أظلمت الدنيا في عينيه، فأوقف أعمال البناء، وهجر اللذات والنساء، وقال ـ وقد أشفع قوله بالقسم ـ: لن أقرب النساء، ولن تشغلني لذة العيش حتى يأتوني برأس إبراهيم، أو يحملوا رأسي إليه.

وتبدى الهول للمنصور، كيف لا ومئة ألف رجل يسيرون في ركاب إبراهيم بينما لم يكن جاهزاً لديه سوى ألفي فارس، فعساكره وجيوشه موزعة بين الشام وخراسان وإفريقية، غير أنه لم يجد بدّاً من إرسال عيسى بن موسى بن علي بن عبد الله بن العباس لقتال إبراهيم، ومن ناحيته فإن إبراهيم خرج من البصرة متوجهاً إلى الكوفة وقد وقع ضحية خداع أهل الكوفة، ذلك أن وفداً منهم كان قد قدم إليه بالبصرة يعرض أن مئة ألف رجل هناك يترقبون مقدمك الشريف، فإذا صرت إليهم وضعوا أرواحهم طوع أمرك.

حاول أهل البصرة منعه من الخروج إلى الكوفة لكن محاولتهم لم تلق

استجابة لديه، وتوجه إلى الكوفة، وعلى بعد ستة عشر فرسخاً منها، وفي أرض الطف المعروفة بباخمرى لقيه جيش المنصور، وبرواية أبي الفرج فإن هزيمة شنيعة نزلت بهم، وركنوا إلى الفرار، حتى أن طلائعهم بلغت الكوفة في هروبها.

وبرواية «التذكرة»: فإن عيسى بن موسى قائد جيش المنصور ثبت مع مئة رجل من أهل بيته وخاصته في حين كان إبراهيم على وشك الفوز والقضاء عليهم، وفي غمرة القتال إذ بسهم لم يعرف راميه، ولم يعرف أيضاً من أين جاء يصيب إبراهيم فيطيح به عن فرسه إلى الأرض وهو يقول: **«وكان أمر الله قدراً مقدوراً، أردنا أمراً وأراد الله غيره»**.

ويروي أبو الفرج أن مقتل إبراهيم جاء في وقت كان فيه عيسى بن موسى قد بدأ يدير ظهره للمعركة ويركن إلى الفرار، وكان إبراهيم قد أحس بالتعب من حرارة المعركة وشدتها فشرع يخفف عنه من ثيابه، فنزع قباءه، وكشف الثوب عن صدره لعله يكسر سورة الحرارة، وإذا بسهم مشؤوم من رام غير معلوم يغوص عميقاً في عنقه، مما اضطره إلى التشبث بعنق فرسه، وأحاط به الزيديون ـ وكانوا يلازمون ركابه ـ من كل جانب، وبرواية أخرى: فإن بشيراً الرحّال ضمّه إلى صدره.

والحاصل: فإن هذا السهم وضع نهاية لعمل إبراهيم، فتوفي، وارتد أصحاب عيسى عن فرارهم واشتد أوار المعركة، في حين وصلت نجدة رفدت جيش المنصور، وتفرق أصحاب إبراهيم بين مقتول ومهزوم، كما قتل بشير الرحّال أيضاً. ثم إن الجند جزوا رأس إبراهيم وجاءوا به إلى عيسى الذي هوى إلى الأرض يسجد سجدة شكر، ثم بعث بالرأس إلى المنصور.

وكان مقتل إبراهيم عند ارتفاع النهار من يوم الاثنين من شهر ذي الحجة سنة خمس وأربعين ومئة، وبرواية أبي نصر البخاري والسبط بن الجوزي أنه كان في الخامس والعشرين من ذي القعدة يوم دحو الأرض، وكان عمره ثمانية وأربعين عاماً. وكان أمير المؤمنين عليه السلام أخبر في غضون أحاديثه الغيبية

عن مآل إبراهيم في قوله: «**بباخمرى يقتل بعد أن يظهر، ويُقهر بعد أن يقهر**». وقال أيضاً: «**يأتيه سهم غرب**[1] **يكون فيه منيته، فيا بؤس الرامي، شلت يده، ووهن عضده**».

وروي أنه لما هزم جيش المنصور ونقل ذلك إليه أظلمت الدنيا في عينيه وقال: «أين قول صادقهم؟ أين لعب الغلمان والصبيان» وفي قوله إشارة إلى قول الصادق عليه السلام: سيلعب صبيان بني العباس بالخلافة؛ كما فيه إشارة إلى إخباره عليه السلام عن خلافة بني العباس واستشهاد ابني عبد الله محمد وإبراهيم.

وقد عرفت في ما تقدم عن اجتماع بني هاشم وبني العباس في الأبواء، وعن بيعتهم لمحمد بن عبد الله، حين وفد عليهم الصادق عليه السلام فلم يستصوب رأيهم، وقال إن الخلافة ستكون للسفاح والمنصور، وإنه لن يكون لعبد الله ومحمد وإبراهيم نصيب فيها، وكيف أراد المنصور قتلهم.

وكان المنصور من يومه ذاك قد عقد العزم على العمل حتى ينال الخلافة إذ هو على ثقة من أن الصادق عليه السلام لا يقول إلا صدقاً، فلذلك، ولما انكشفت له هزيمة جيشه تعجب وقال: أين قول صادقهم؟ وجزع جزعاً شديداً، غير أنه لم يطل به الأمر حتى أتاه خبر استشهاد إبراهيم وأتي برأسه إليه. فلما نظر إليه بكى بشدة حتى وقع دمعه على ذلك الرأس وقال: أما والله ما كنت أحب أن ينتهي الأمر بك إلى ما انتهى إليه.

ويروى عن الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليهما السلام أنه قال: كنت عند المنصور حين أتي برأس إبراهيم وقد وضع على ترس وأحضر إليه فلما وقع نظري على الرأس أخذتني غصّة، وجاش البكاء في حلقي حتى كاد صوتي يعلو بالبكاء، لكني تمالكت نفسي فلم أدع

(١) سهم غرب: الذي لا يعلم راميه (منه).

البكاء يغلب عليّ حذراً من المنصور، وإذا به يقبل عليّ بوجهه فجأة ويقول: يا أبا محمد، أهذا هو رأس إبراهيم؟ قلت: أجل يا أمير المؤمنين، لكم وددت لو أطاعك فلا ينتهي الأمر به إلى هذا. قال المنصور: أما والله لوددت أيضاً لو أطاعني فلم ألق يوماً كهذا! لكنه طمع بالخلافة وأراد رأسي، فانتهى إلى أن جاءوني برأسه هو.

ثم إنه أمر بالرأس فرفع بالكوفة حتى يراه الناس، ثم أمر الربيع بحمل رأس إبراهيم إلى أبيه في السجن، فذهب الربيع بالرأس إلى السجن، وكان عبد الله إذ ذاك منشغلاً بالصلاة متوجهاً إلى الحق تعالى، فقيل له: عجّل في صلاتك يا عبد الله فإن أمراً ينتظرك. فلما انصرف من صلاته نظر فرأى رأس ابنه إبراهيم. أخذ الرأس فضمه إلى صدره وقال:

«رحمك الله يا أبا القاسم، وأهلاً بك وسهلاً، لقد وفيت بعهد الله وميثاقه»، في إشارة إلى الآية الكريمة: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ﴾.

سأل الربيع عبد الله: وكيف كان إبراهيم؟ قال: كان كما قال الشاعر:

فتى كان يحميه من الذل سيفه ويكفيه سوءات الذنوب اجتنابها

ثم قال للربيع: نبىء المنصور عني أن أيام محنتي وشدتي قد آذنت بانتهاء، وأن أيام نعمتك كذلك، فلن تخلد! وسيكون ملتقانا يوم القيامة، وسيحكم الله الحكيم فيما بيننا.

يقول الربيع: لما نقلت هذه الرسالة إلى المنصور رأيت عليه من الانكسار ما لم أره من قبل.

هذا وقد رثى إبراهيم العديد من الشعراء، وقال دعبل الخزاعي من قصيدة تائية رثى بها رهطاً من آل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يشير إليه:

قبور بكوفانٍ وأخرى بطيبةٍ وأخرى بفخٍّ نالها صلواتي
وأخرى بأرض الجوزجان محلّها وقبر بباخمرى لذي القربات

كان إبراهيم قوي اليد والساعد، ذا مقام معروف في فنون العلم، وحين

كان متخفياً بالبصرة كان ينزل في بيت المفضل الضبّي، فطلب منه أن يأتيه بكتب يأنس بها، فأتاه المفضل بدواوين لشعراء عرب اختار منها سبعين قصيدة حفظها غيباً، وبعد مقتله جمع المفضل تلك القصائد وأسماها: «المفضليّات واختيار الشعراء».

وكان المفضل في ركاب إبراهيم يوم مقتله، وروى عنه ضروباً من الشجاعة، كما نقل عنه أشعاراً قالها لا يتسع المقام لذكرها.

وكان عند خروجه ومبايعة الناس له يعاملهم بالعدل وحسن السيرة، وقيل إنه كان في واقعة باخمرى يطوف ذات ليلة بين رجاله فسمع أصوات عزف وغناء فاغتمّ وقال: لا أحسب أن جيشاً هذا شأنه ينال الظفر.

وقد بايع إبراهيم كثير من أهل العلم ونقلة الآثار، وكانوا يحضّون الناس على نصرته أمثال: عيسى بن زيد بن علي بن الحسين عليهما السلام، وبشير الرحّال، وسلام بن واصل، وهارون بن سعيد الفقيه، وكثيرن غيرهم من وجوه وأعيان الأصحاب والتابعين وفيهم عبّاد بن منصور قاضي البصرة، والمفضل بن محمد، ومسعر بن كدام وغيرهم.

ويروى أن الأعمش بن مهران كان يحرّض الناس على نصرة إبراهيم، وكان يقول: لو لم أكن أعمى لخرجت في ركابه.

وكان أبو حنيفة على اعتقاد ثابت بحق محمد وإبراهيم، وكان يفتي الناس ببيعة إبراهيم، وكان يقول: الشهيد في سبيل إبراهيم كالشهيد في غزوة بدر، وكان يقال له: لئن كان الأمر كما تقول فلم لا تخرج في نصرته؟! فيقول: أمانات الناس عندي!.

ويروى أنه لما خرج إبراهيم إلى قتال عيسى بباخمرى بعث إليه أبو حنيفة بكتاب وكان مما جاء فيه: إذا لقيت جيش الخصوم وظفرت عليهم فاصنع معهم ما صنعه أبوك علي عليه السلام بأهل صفين: اقتل مدبرهم؛ لاتدع جريحاً منهم حياً؛ وإياك أن تصنع ما صنعه أبوك في حرب الجمل، إذ

أمر أمير المؤمنين عليه السلام بألا يجهزوا على جريح، وألا يتعقبوا مهزوماً، وألا يقربوا مال مقتول أو يسبوا عياله. فوقع هذا الكتاب في يد المنصور فغضب من أبي حنيفة أشد الغضب، إلى أن أمر بإحضاره من الكوفة إلى بغداد، وانتهى الأمر به إلى أن دس له السم فمات، وقبره ببغداد في مقابر (الخيزران)، وكانت وفاته سنة خمسين ومئة في شهر رجب، وصادف يوم وفاته ولادة الشافعي.

وفي أيام السلاجقة سنة تسع وخمسين وأربعمئة بنيت على قبره قبة وإيوان، واسمه النعمان بن ثابت بن الزوطي، ومع أنه أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنّة، ويلقب عندهم بالإمام الأعظم، فهم لا يرعون حرمته، وقد كتبوا فيه مطاعن كثيرة، ولعل من المستصوب أن نتحدث عنه ببضع كلمات كي لا يُتوهم أن ذكر هذا الكلام إنما هو من موضوعات الروافض.

فعن «ربيع الأبرار» للزمخشري في باب العلم منه قال: قال يوسف بن أسباط: رد أبو حنيفة على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أربعمئة حديث أو أكثر، قيل: مثل ماذا؟ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «للفارس سهمان، وللراجل سهم»، قال أبو حنيفة: لا أجعل سهم بهيمة أكثر من سهم المؤمن. وأشعر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه البدن، قال أبو حنيفة: الإشعار مثله. وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «البيعان بالخيار ما لم يفترقا»، قال أبو حنيفة: إذا وجب البيع فلا خيار، وكان صلى الله عليه وآله وسلم يقرِع بين نسائه إذا أراد سفراً، وأقرع أصحابه، وقال أبو حنيفة: القرعة قمار، (انتهى).

وعن الغزالي أنه: أجاز أبو حنيفة وضع الحديث على وفق مذهبه.

وعن يوسف بن أسباط، قال أبو حنيفة: لو أدركني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لأخذ بكثير من قولي.

وعن «تاريخ بغداد» قال شعبة: كف من تراب خير من أبي حنيفة.

وعن الشافعي قال: نظرت في كتب أصحاب أبي حنيفة فإذا فيها مئة وثلاثون ورقة خلاف الكتاب والسنَّة.

وعن سفيان ومالك وحمّاد والأوزاعي والشافعي قالوا: ما ولد في الإسلام أشأم من أبي حنيفة. وعن مالك قال: فتنة أبي حنيفة أضرّ على الأمة من فتنة إبليس. وقال غيره: ما فتنة على الإسلام بعد الدجّال أعظم من رأي أبي حنيفة.

وعن كتاب «المنخول» للغزالي قال: فأما أبو حنيفة فقد قلب الشريعة ظهراً لبطن، وشوّش مسلكها، وغيّر نظامها، وأردف جميع قواعد الشرع بأصل هدم به شرع محمد المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم، ومن فعل شيئاً من هذا مستحلاً فقد كفر، ومن فعله غير مستحلّ فسق، (انتهى).

وقد اشتهر عنه أنه كان يقول: لو أنّ رجلاً عقد على أمّه وهو يعلم أنها أمه يسقط عنه الحدّ، ولحق به الولد، وكذا في أخته وبنته، وكذا لو استأجر غسّالة أو خبّازة أو أشباههما ثم وطئها وحملت منه، وإذا لفّ على إحليله حريرة ثم أولجه في قبل امرأة لم يكن زانياً ولا يجب عليه الحد، ولكن يُردع بكلام غليظ. ويقول: إن الرجل إذا يلوط بغلام فأوقبه لم يجب عليه الحد، ولكن يردع، ويقول: إنّ شرب النبيذ المسكر حلال.. إلى غير ذلك مما لا يناسب المقام ذكره.

وسيجيء بعد ذلك كيفية الصلاة بمذهبه. وأما عمله بالرأي والقياس، وردّه على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في كثير من الأحكام فمما لا يخفى.

ومن لطائف الحكايات ما نقل عن السيد المحدّث الجزائري «ره» نقلاً عن صاحب له أنه كان يتوضأ، فلما مسح رجله نظر فإذا واحد من طغاتهم فوق رأسه، فبادر إلى غسل رجليه، فقال له: كيف مسحت أولاً وغسلت ثانياً فقال: نعم يا مولانا.. هذه المسألة من مسائل الخلاف بين الله سبحانه وبين

مولانا أبي حنيفة، قال الله تعالى: ﴿وَٱمْسَحُوا۟ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾، وقال أبو حنيفة: يجب غسل الرجلين، فمسحت خوفاً من الله وغسلت خوفاً من السلطان، فضحك الرجل وخلّى عنه.

وفي أيام المنصور سنة إحدى وخمسين ومئة توفي ببغداد محمد بن إسحاق صاحب «المغازي والسير»، وابن إسحاق صنّف المغازي بالحيرة بسبب المنصور. وكان بينه وبين مالك بن أنس نفور شديد، وفيه يقول مالك: «وأما ابن إسحاق فإنما هو دجّال من الدجاجلة، نحن أخرجناه من المدينة». ولهذا السبب فإن البخاري لم ينقل عن كتابه في «صحيحه»، وكذلك مسلم، إلا حديثاً واحداً في الرجم.

وفي سنة إحدى وخمسين ومئة أيضاً أو بعدها بسنة قتل معن بن زائدة الشيباني على يد الخوارج في مدينة (بست)، وكان معن معروفاً بكثرة الجود والشجاعة، ويمتد نسبه إلى ذهل بن شيبان، وكانت له في أيام بني أمية علاقة وصداقة مع يزيد بن عمر بن هبيرة أمير العراقين، ولما انتقل الحكم إلى بني العباس وقتل المنصور يزيد أخفى معن نفسه مدة فلم يظهرها من الخوف، حتى أنه عرّض وجهه للشمس مدة حتى استحال لونه إلى السواد، ثم لبس جبة من الصوف وغيّر في مظهره، ثم امتطى بعيراً وغادر بغداد في طريقه إلى البادية، ولما خرج من (باب حرب) لحق به رجل أسود من حرس (باب حرب) وتعلق ببعيره وقال: أنت معن بن زائدة طلبة أمير المؤمنين، قال معن: أيها الرجل، لست معناً، قال: إني أعرفك جيداً. ومهما حاول معن الإنكار لم تفده المحاولة، وكان معه عقد ثمين من الجواهر، فقدمه إلى الرجل الأسود وقال: أيها الرجل، إن المنصور لن يكافئك بهذا القدر إن أخذتني إليه، فإليك هذا العقد وهو لك، وكأنك لم ترني. أخذ الأسود العقد ونظر إليه وقال: لقد قلت صواباً، فهذا العقد يساوي بضعة آلاف من الدنانير، ومرتبي يبلغ عشرين درهماً في الشهر، غير أني أهبك هذا العقد وأخلّي عنك كي تعلم أن في الدنيا من هو أكثر سخاء منك، فلا يأخذك الزهو بعطاياك! ثم رد العقد إليه وخلّى

عنه، فقال له معن: لقد أخجلتني، ولأن يسفك دمي خير لي مما فعلته بي، ثم أصر عليه كي يقبل العقد منه فأبى.

وأخيراً، فر معن، وظل متخفياً حتى (يوم الهاشمية) حين تقاطر أهل خراسان على المنصور في هاشمية الكوفة، وجرى بينهم وبين المنصور قتال شديد، إذ ذاك أظهر معن نفسه وقد وضع لثاماً على وجهه كي لا يُعرف، ثم انضم إلى المنصور يذود عنه ويحميه، وأبلى بلاءً حسناً كان له أكبر الأثر في هزيمة خصوم المنصور، ولما انتهى القتال سأله المنصور: من تكون؟ فكشف معن عن وجهه وقال: أنا الذي تجدّ في طلبي، فبشّ له المنصور وأكرمه.

وإجمالاً فمعن كان معروفاً بكثرة الجود والسخاء، والحكايات عن جوده معروفة ومشهورة، وطالما قصده الشعراء يمتدحونه ويفوزون بصلاته وعطاياه، وكان شاعره مروان بن أبي حفصة الذي قال في مدحه الكثير من الشعر، ومن أفضل قصائده القصيدة اللامية التي نظمها في مدح معن ونال عليها صلة سخية، ومنها هذا البيت:

تجنّب «لا» في القول حتى كأنه   حرام عليه قول «لا» حين يسأل[1]

وبعد مقتل معن رثاه جماعة من الشعراء من جملتهم الحسين بن مطير الذي قال في رثائه:

ألمّا على معنٍ وقولا لقبره   سقتك العوادي مربعاً ثم مربعا
فيا قبر معنٍ كيف واريت جوده   وقد كان منه البَرّ والبحر مترعا

وأفضل مرثية قيلت في معن مرثية مروان بن أبي حفصة، وهي قصيدة طويلة منها هذه الأبيات:

وكان الناس كلهمُ لمعنٍ   - إلى أن زار حفرته - عيالا

---

(١) هذا المضمون قد تكرر في أشعار الشعراء، وأحسن ما قيل فيه قول الفرزدق في القصيدة المعروفة عند الفريقين في مديح مولانا علي بن الحسين عليه السلام:

ما قال «لا» قطّ إلا في تشهده   لولا التشهد كانت لاؤه نعم

(منه ره)

وقلنا أين نرحل بعد معنٍ وقد ذهب النوال فلا نوالا
ولا بلغت أكفّ ذوي العطايا يميناً من يديه ولا شمالا

وفي سنة أربع وخمسين ومئة توفي بالكوفة أبو عمر، زبان بن العلا، أحد القراء السبعة، وكان رجلاً أديباً، وقد «اختُلِف في اسمه على واحد وعشرين قولاً، وكان إمام أهل البصرة في علم القراءة والنحو واللغة وأيام العرب، قيل: كانت دفاتره ملء بيته إلى السقف، ثم تنسّك فأحرقها، وكان من أشراف العرب، مدحه الفرزدق، ووثّقه يحيى بن معين وغيره. وكان نقش خاتمه:

وإن امرؤ دنياه أكبر همّه لمستمسك منها بحبل غرور»

وممن قرأ عليه عبد الملك الأصمعي، وحكي أنه سأله عن الذبيح إسماعيل أم إسحاق؟ فقال: يا أصيمع! أين ذهب عقلك، ومتى كان إسحاق بمكة؟ وإنما كان بمكة إسماعيل، وهو بنى البيت مع أبيه، والنحر بمكة لا شكّ فيه.

وفي سنة سبع وخمسين ومئة توفي ببيروت عبد الرحمان بن عمر المعروف بالأوزاعي. أعلم أهل الشام، و (أوزاع) قرية من قرى دمشق.

خلافة المهدي العباسي

محمد بن عبد الله المنصور

تقدم القول بأن وفاة المنصور كانت في اليوم السادس من ذي الحجة سنة ثمان وخمسين ومئة وهو في الطريق إلى مكة، وفي اليوم نفسه أخذ الربيع البيعة من الناس لابنه محمد، وكان محمد في بغداد، فلما بلغه نبأ استخلافه بعد يومين رقي المنبر وخطب في الناس وأخذ البيعة منهم، وقد بايعه عامة الناس.

كانت ولادة المهدي سنة سبع وعشرين ومئة، وفي سنة سبع وستين ومئة انتقل إلى (دينور) إذ نما إليه بأن (ماسبذان) موصوفة بطيب مائها وهوائها. وتوفي في قرية (رزين)[1] في الثالث والعشرين من المحرم سنة تسع وستين ومئة، وصلى هارون الرشيد عليه، ودفن هناك، وامتدت خلافته عشر سنوات وشهراً ونصف الشهر، وبلغ من العمر ثلاثاً وأربعين سنة.

يقول الدميري وغيره: إن وفاته كانت بسبب سقوطه عن جواد جمح به فاصطدم بباب خرابة فهلك، ويقول بعضهم: إنه مات متأثراً بسمّ دسته إحدى جواريه في الطعام لضرّة لها تروم قتلها، فتناول المهدي الطعام غير عارف بمحتواه فمات، فصنعوا له سريراً حملوه عليه، فلا بدُّ أن يكونوا وضعوه على باب ودفنوه في ظل شجرة جوز.

---

(١) الظاهر أن اسم القرية هو (زد) وكانت تقع على مبعدة عشرة فراسخ من (ماسبذان) وأصلها: ماه سبذان (قمر سبذان) وكانت تضم عدة مدن، وقد طال الخراب هذه البلاد فعلاً، وكانت تقع على الطريق إلى شيروان على حدود (كلهر) (منه ره).

يقول الدميري كان المهدي رجلاً جواداً حسن الخلق ممدوحاً، عارفاً بالرعية، وقيل إن أباه كان يختزن مئة ألف ألف درهم، وستين ألف ألف دينار فجاء المهدي فوهب تلك الأموال للناس، وروي أن شاعراً فاز منه بمئة ألف درهم كأعطية.

وجاء في «مروج الذهب» أن الخيزران زوجة المهدي وأم الهادي والرشيد كانت لها في بيت المهدي مرتبة رفيعة ومنزلة منيعة، وكانت أمهات أولاد الخلفاء وبنات بني هاشم جميعهن في خدمتها، ومن بينهن زينب بنت سليمان بن علي وكانت أعلاهن قربة، وكان المهدي يفتأ يقول للخيزران: إن زينب عجوز عالمة فاكتسبي الآداب والأخلاق منها.

ذات يوم قدمت خادمة تقول: إن بالباب امرأة ذات حسن وجمال ترتدي ثياباً عتيقة تطلب الإذن بالدخول، وتمتنع عن ذكر اسمها، قالت الخيزران: أدخليها. فلما دخلت إذا هي بامرأة في غاية الكمال والجمال ذات لسان فصيح، وبيان مليح، ولباس عتيق، فقالوا من تكونين؟ قالت: أنا مزينة امرأة مروان بن محمد، وقد انتهت بي الأيام إلى ما أنا عليه، أما والله، إن هذه الثياب التي عليّ ليست لي، وإنما هي عارية، وها أنذا قد وفدت إليكم علني أفوز بالدخول في حجابكم.

أخذت الخيزران لهذه الحال رقة، وغلبها البكاء، ثم قالت لمزينة: أتذكرين يوم كنت تجلسين على هذا البساط في (حرّان) وقد دخلت عليك ألتمس إعطائي جثة إبراهيم الإمام كي ندفنها، فما كان منك إلا أن نهرتني وقلت لي: وما دخل النساء بعمل الرجال؟ قالت مزينة: إن ذاك السوء هو ما أوصلنا إلى ما نحن عليه الآن، فانقلبت أيامنا سوداً، قالت هذا وخرجت وهي تجهش، وتتلو الآية الكريمة:

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾.

أشارت الخيزران على بعض جواريها بتخصيص إحدى مقاصيرها لمزينة بعد تبديل حالها ولباسها، وأوصتهنّ أن يعاملنها بإحسان. فلما جاء المهدي وعلم بقصة مزينة بكى بكاءً شديداً وقال للخيزران: أما والله لو لم تصنعي بها ما صنعت لم أكلّمك قط، ولولا أن زينب امرأة عجوز وهي كبيرة النساء لما تحدثت إليها. ثم أمر إحدى جواريه بنقل سلامه إلى مزينة، ثم قرّبها ورحب بها، وأحلّها منزلة أعلى من منزلة زينب.

كانت مزينة امرأة فصيحة اللسان، تتحدث لا كما تتحدث النساء، عاشت في أيام المهدي والهادي وشطراً من أيام الرشيد حيث وافتها المنية، وكان الخلفاء لا يميزون بينها وبين نساء بني هاشم في المعاملة، وكانوا يرعون حرمتها.

وكانت للخيزران جارية اسمها عتبة، وقد عشقها أبو العتاهية الشاعر، وشبب بها في أشعاره، وكانت نوادر قصته مع عتبة كثيرة، غير أنها لم تمل إليه إطلاقاً، وقد أظهر من الشوق إليها في أيام الرشيد ما جعل الرشيد يرق له ويميل إلى تزويجه منها، حتى أنه قصد بيتها مع مجموعة من خاصة خدمه وقال لها: إن لي عندك حاجة، قالت: تفضل وقل حاجتك، قال: لن أقول إلا شريطة أن تعديني بالامتثال، قالت: كل ما تأمر به مجاب عندي سوى الزواج من أبي العتاهية، فقد أقسمت لأبيك ونذرت نذراً هو أن أذهب إلى مكة وأتصدق بكلّ ما يصل إلى يديّ في حال اختياري له زوجاً، قال هارون: هذه هي حاجتي. أجهشت عتبة بالبكاء والتمست منه إعفاءها من هذا الأمر الذي لا تستطيع إجابته إليه وهذا النذر قائم، ومن شدة بكائها رق لها هارون وقبل عذرها، عند ذلك يئس أبو العتاهية من وصال عتبة، وراح يبث عشقه لها في أشعاره، ومما قاله:

يا عتب مالي ولكِ ... يا ليتني لم أركِ
ملكتني فانتهكي ... ما شئت أن تنتهكي
أبيت ليلي ساهراً ... أرعى نجوم الفلك
مفترشاً جمر الغضا ... ملتحفاً بالحسك

وكان أبو العتاهية رجلاً مفوهاً فصيح اللسان وشاعراً مجيداً، فمن أشعاره:

إنّ أخاك الصدق من كان معك ... ومن يضر نفسه لينفعك
ومن إذا ريب الزمان صدّعك ... شتّت شمل نفسه كي يجمعك

وله أيضاً:

المرء في تأخير مدته ... كالثوب يبلى بعد جدّته
عجباً لمنتبه يضيع ما ... يحتاجه في يوم رقدته

وله أيضاً:

نسيت الموت في ما قد نسيت ... كأنني لم أر من يموت
أليس الموت غاية كلّ حيّ ... فما لي لا أبادر ما يفوت

وجاء في «مروج الذهب» عن الفضل بن الربعي أن شريك بن عبد الله بن سنان النخعي دخل على المهدي، فقال له المهدي: عليك يا شريك أن تختار واحداً من ثلاثة أمور: إما أن تتولى قضاءنا، أو تعلّم أولادنا الحديث والعلوم، أو تتناول من طعامنا مرة. فكّر شريك مليّاً، فهو مع كونه يأبى قبول أيّ من الأمور الثلاثة إلا أنه لا حيلة لديه، ولا بد له من الاختيار، فقال: تناول الطعام أهون عليّ من الأمرين الآخرين، فأمر المهدي طاهيه أن يعدّ أطيب المآكل، وأن يصنع ألواناً من المخ المعقود بسكر الطبرزد مع العسل؛ فلما قدّم الطعام وفرغ شريك من تناوله قال القيّم على الطعام للمهدي: يا أمير المؤمنين «ليس يفلح الشيخ بعد هذه الأكلة أبداً». قال الفضل بن الربيع: بالله أقسم إن شريكاً ـ بعد هذه الأكلة ـ اختار مجالسة العباسيين، وتعليم أولادهم، وتولّي قضائهم.

وروي أنه حين ولّى المنصور المهدي إمارة الري اختار شرفي بن قطامي نديماً له، وقال للمهدي: تعلّم منه مكارم الأخلاق ودراسة الأخبار وقراءة الأشعار. وذات ليلة قال المهدي لشرفي أريدك أن تقص عليّ قصة تحمل إليّ السرور والبهجة، قال شرفي:

أصلح الله الأمير. . . يروى أنه كان لأحد ملوك الحيرة نديمان يلازمانه فلا يفارقانه أبداً، وكان الملك يميل إليهما أشد الميل، وذات ليلة لعب الشراب واللهو بعقل الملك فاستل سيفه وقتل ذينك النديمين، وفي الصباح سأل عنهما فأخبروه أنه قتلهما في تلك الليلة، جزع الملك واغتم لما فعل ففارق الطعام والشراب حزناً على فراقهما، ثم أمر بدفنهما ونصب على قبريهما قبة أسماها الـ «غريين» وأمر كل عابر يمرّ بقبريهما أن يسجد، فمن أبى يقتل بعد أن تقضى له حاجتان، وصار هذا الأمر سنّة لازمة.

استمرت الحال على ذلك زمناً، وذات يوم مرّ في المكان قصّار (غسّال) يحمل الملابس التي يريد غسلها، كما يحمل (مدقة) وهي الآلة التي يسوي بها الملابس ويكويها، فأمره الموكلون بالـ «غريين» بالسجود فأبى، فأخذوه إلى السلطان الذي سأله لم لم تسجد؟ قال: لقد سجدت وأولئك يكذبون، قال السلطان: بل أنت الذي يكذب، فاطلب حاجتين وتهيأ للموت قال: لئن كان الأمر كذلك فحاجتي الأولى هي أن أهوي بهذه المدقة على عنق الملك.

قال الملك: يا أيها الغبي الجاهل، اطلب حاجة أخرى تكون ذات نفع لك، أو لأهل بيتك وعيالك، قال: حاجتي هي تلك التي طلبتها استدار الملك نحو وزرائه وقال: ما العمل مع حاجة هذا الغبي؟ قالوا: لا حيلة، لئن تخليت عن سنتك ففي هذا عيب وعار فلا مندوحة لك عن الالتزام بما سننت، قال الملك ويحكم! انظروا هذا القصار وسلوه أن يطلب شيئاً آخر، ولو طلب نصف مملكتي فاقبلوا، ذلك أني لا طاقة لي على مدقّته، قال القصّار: لا حلّ سوى ضرب عنق الملك، ولن أرضى بغير ذلك، وأحس الملك بالعجز وأسلم نفسه للقضاء.

رفع القصار مدقته بقوة وأهوى بها على عنق الملك الذي وقع أرضاً مغشيّاً عليه، واعتل على إثرها فلزم فراش المرض، وخضع للعلاج مدة سنة كانوا خلالها يسقونه الماء بقطنة مبللة يجعلوها في فمه، ولما مال نحو التحسن وغدا باستطاعته تناول الطعام والشراب، وتمكن من الجلوس وحده سأل عن

حال القصار فقيل له: إنه نزيل السجن، فأمر بإحضاره، فلما حضر قال له: هات حاجتك الثانية فإني عازم على قتلك، قال: أما حاجتي الثانية فهي أن أضرب عنق الملك بالطرف الآخر من المدقة، فلما سمع الملك ذلك جزع وفزع حتى وقع أرضاً وقال: أيها الغبي اطلب شيئاً فيه لك فائدة، قال: الأمر كما قلت، فشاور الملك وزراءه فقالوا: لا بد لك من القبول، قال: ويحكم، لقد قضيت سنة وأنا مريض من ضربة تلك المدقة، ولا بد أن ألقى حتفي هذه المرة، قالوا: لا حيلة في أيدينا.

إذ ذاك استدار الملك إلى القصار وقال له: ألم تقل في ذلك اليوم الذي أحضروك فيه إليّ إني قد أتيت بالسجود غير أن الموكلين نسبوا إليّ عدم السجود كذباً؟ قال: بلى، قلت ذلك لكنك لم تصدقني، قال: أخبرني الآن هل أتيت بالسجود؟ قال: أجل.

انتصب الملك واقفاً وقبل رأس القصار وقال أشهد أنك صادق في قولك وأن الموكلين كاذبون. وأمرهم الآن بين يديك وقد جعلتك عليهم أميراً.

لما سمع المهدي هذه الحكاية ضحك ضحكاً شديداً وقال وهو يضرب الأرض بقدمه: أحسنت، ثم وصله.

وفي أيام خلافة المهدي كانت وفاة زفر بن هذيل الفقيه، صاحب أبي حنيفة. وفي سنة إحدى وستين ومئة توفي بالبصرة سفيان بن سعيد الثوري (بفتح المثلّثة) وينسب إلى (ثور تميم).

يقول الدميري: كان سفيان من أهل الكوفة، وحين سئل عن عثمان وعلي قال: أهل البصرة يفضلون عثمان وأهل الكوفة علياً عليه السلام، قيل له: وأنت ما هو مذهبك قال: أنا من أهل الكوفة، يعني قائل بتفضيل علي عليه السلام. انتهى.

ونقل عن الثوري قال: لقيت الصادق جعفر بن محمد عليهما السلام فقلت له:

يابن رسول الله أوصني، فقال لي: «يا سفيان، لا مروّة لكذوب، ولا أخ لملول، ولا راحة لحسود، ولا سؤدد لسيّىء الخلق» فقلت: يابن رسول الله زدني، فقال لي: «يا سفيان، ثق بالله إن كنت مؤمناً، وارض بما قسم الله لك تكن غنياً، وأحسن مجاورة من جاورك تكن مسلماً، ولا تصحب الفاجر فيعلمك من فجوره، وشاور في أمرك الذين يخشون الله عزّ وجلّ» إلى أن قال عليه السلام:

«وكان في ما قال لي والدي: يا بني، من يصحب صاحب السوء لا يسلم، ومن يدخل مداخل السوء يتّهم، ومن لا يملك لسانه يأثم».

وعن الثوري أيضاً قال:

لما حججت في بعض السنين أردت زيارة الصادق عليه السلام فدخلت عليه وقلت له: مالي أراك قد اعتزلت؟ قال عليه السلام: «يا سفيان فسد الزمان، وتغيّر الإخوان، وتقلبت الأعيان، فرأيت الانفراد، أسكن للفؤاد». ثم قال: اكتب:

ذهب الوفاء ذهاب أمس الذاهب   والناس بين مخاتل وموارب
يفشون بينهم المودة والصفا   وقلوبهم محشوة بعقارب.

ثم استزاده الثوري، فوعظه عليه السلام، إلى أن قال:

«إذا تظاهرت عليك الهموم فقل: لا حول ولا قوة إلا بالله، وإذا استبطأت الرزق فعليك بالاستغفار، وعليك بالتقوى ولزوم الصبر، وكن على حذر في أمر دينك وآخرتك». فقمت وانصرفت.

وقد وردت في أحاديث الإمامية روايات كثيرة في مذمّة الثوري، وفي رواية الكافي أن الثوري لقي الإمام الصادق عليه السلام وقد ركب راحلته يريد مكاناً، فقال له: يا أبا عبد الله حدّثنا بحديث خطبة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في مسجد الخيف، قال: «دعني حتى أذهب في حاجتي فإني قد ركبت، فإذا جئت حدّثتك»، فقال: أسألك بقرابتك من رسول الله صلى الله

عليه وآله وسلم لما حدّثتني، فنزل، فقال له سفيان مُر لي بدواة وقرطاس حتى أثبته، فدعا بهما، ثم قال:

«اكتب: بسم الله الرحمان الرحيم. خطبة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في مسجد الخيف:

«نصر الله عبداً سمع مقالتي فوعاها، وبلّغها من لم تبلغه، يا أيها الناس... ليبلّغ الشاهد الغائب، فربّ حامل فقه ليس بفقيه، وربّ حامل فقه إلى من هو أفقه منه.

ثلاث لا يغلّ عليهن قلب امرىء مسلم: إخلاص العمل لله، والنصيحة لأئمة المسلمين، واللزوم لجماعتهم، فإن دعوتهم محيطة من ورائهم، المؤمنون إخوة تتكافى دماؤهم، وهم يد على من سواهم، يسعى بذمّتهم أدناهم».

كتب سفيان الخطبة ثم عرضها عليه، ثم ركب عليه السلام ومضى إلى حاجته، ومضى سفيان كذلك، وفي بعض الطريق نظر سفيان في الحديث وفهم أن المراد بعبارة «والنصيحة لأئمة المسلمين» أمير المؤمنين وبنوه عليهم السلام فأخذ الكتاب فخرّقه، وقال لرفيق له كان معه: اكتم هذا الحديث فلا تخبر به أحداً.

وفي سنة إحدى وستين ومئة أيضاً، على قول، توفي إبراهيم بن أدهم البلخي المعروف، وإبراهيم من زهاد أبناء الملوك، ورؤساء أرباب السير والسلوك، وبعد أن كان صاحب ملك ورئاسة في بلخ هجر الملك وتخلى عن الدولة، ولبس لباس الفقر، وساح في البلاد، ونوادر حكاياته كثيرة، وقد اختلفت الأقوال في سبب توبته وإنابته. قال بعضهم: كان ذات يوم يتنزه في قصره فرأى رجلاً فقيراً يجلس في ظلال القصر وأمامه جراب جلدي قديم، أخرج الرجل رغيف خبز من الجراب وراح يأكله، وشرب عليه ماء، ثم استلقى في نومة مريحة، تنبه إبراهيم من غفلته وقال يحدث نفسه: لئن كانت

نفس إنسان تقنع بهذا القدر من الطعام ثم تنام بكل أمن وراحة، فمالي لا أجد مع كل هذه الزخارف سوى التعب في دنياي تعقبه الحسرة بعد الموت؟! ثم إنه هجر الملك من فوره، ولبس ملابس الفقر وهاجر من بلخ.

وروي أنه أراد ذات يوم دخول الحمام، فلما رأى الحمّامي ثيابه الرثة، ورأى يده خالية من المال منعه من دخول الحمام، فقال: واعجباه! لئن كان الرجل يمنع من دخول الحمام من دون مال.. فكيف يطمع بدخول الجنة من دون طاعة وأعمال!.

ونقل عنه أنه قال: نزل بضعة رجال من الأبدال عليّ ضيوفاً، فقلت لهم عظوني عظة بالغة كي أخاف الله كما تخافونه، قالوا: نذكر لك ستة أشياء:

الأول: من كثر كلامه فلا يطمع برقة قلبه.

الثاني: من كثر نومه فلا يطمع باليقظة وقيام الليل.

الثالث: من كثرت للناس مخالطته فلا يطمع بحلاوة العبادة.

الرابع: من اختار الظالمين فلا يطمع باستقامة الدين.

الخامس: من اتخذ الكذب عادة فلا يطمع بأن يغادر الدنيا مع الإيمان.

السادس: من طلب رضى الناس فلا يطمع برضى الخالق.

قال إبراهيم: لما نظرت في هذه العظة أدركت فيها علم الأولين والآخرين.

وجاء في «مجمع البيان» وغيره أن إبراهيم الأدهم كان يجتاز أسواق البصرة ذات يوم فاجتمع الناس إليه وقالوا: يا إبراهيم، يقول الحق تعالى في كتابه المجيد: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾، فما لنا ندعو الله فلا يستجيب دعاءنا؟ قال إبراهيم: هذا لأن قلوبكم ميتة في عشرة أشياء، قالوا: وما هي يا أبا إسحاق؟ قال:

الأول: عرفتم الله ولم تؤدوا إليه حقّه.

الثاني: قرأتم القرآن ولم تعملوا به.

الثالث: زعمتم محبة النبي وعاديتم أبناءه.

الرابع: زعمتم عداوة الشيطان ووافقتموه.

الخامس: زعمتم محبة الجنة ولم تعملوا لها.

السادس: زعمتم الخوف من النار وألقيتم بأنفسكم فيها.

السابع: شغلتم بذكر عيوب الناس وغفلتم عن عيوبكم.

الثامن: زعمتم بغض الدنيا وجمعتم لها.

التاسع: أقررتم بالموت ولم تعدّوا له.

العاشر: دفنتم موتاكم ولم تأخذوا العبرة منهم.

ولهذ السبب فإن دعاءكم لا يستجاب.

وقد روي مضمون هذا الكلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ولعلّ إبراهيم استوحاها منه، وإجمالاً فنوادر إبراهيم وحكمه كثيرة لا يتّسع المقام لإيراد أكثر مما أوردناه.

وفي سنة إحدى وستين ومئة كذلك توفي حمّاد بن عجرد الشاعر، وكان من المخضرمين، والمخضرم (بخاء وضاد معجمتين كمعظم) تطلق على الشاعر الذي أدرك الجاهلية والإسلام كلبيد والنابغة، لكنهم يطلقونها مجازاً على من أدرك دولتين كحماد بن عجرد الذي أدرك دولتي بني أمية وبني العباس.

قيل: إنه كان بالكوفة ثلاثة يدعون بحماد، كانوا مرميّين بالزندقة وهم: حماد بن عجرد، وحماد بن زبرقان، وحماد الراوية، والأخير هو حماد بن أبي ليلى، وتوفي في عهد المهدي، وعلى قول: في عهد المنصور سنة خمس وخمسين ومئة، ولقب بحماد الراوية لكثرة روايته لأشعار الشعراء، وكان أعلم الناس بأيام العرب وأنسابهم وأشعارهم وأخبارهم، وكان حكام بني أمية يحترمونه ويبجلونه، كان يوماً في محضر الوليد بن يزيد فسأله: لماذا يدعونك بالراوية؟ قال: لأني أروي أشعار كل شاعر، قال: وكم تحفظ من الشعر؟ قال: أما الكثرة فلا أعلمها، غير أني أنشد بعدد كل حرف من حروف المعجم مئة قصيدة كبيرة، غير مقطوعات من شعر الجاهلية وشعر الإسلام.

قال الوليد: امتحنوه، فلما وجده صادقاً وصله بمئة ألف درهم. ويماثله في حفظ الأشعار والاطلاع على دواوين العرب أبو عمرو البندار بن عبد الحميد الأصفهاني المعروف بابن لرّة صاحب المتوكل، ويروى أنه كان يحفظ تسعمئة قصيدة أولها: «بانت سعاد». كذا حكي عن الترمذي في «طبقات النحاة».

وإجمالاً فلحماد بن عجرد وقائع، وأشعاره في هجائه لبشّار وهجاء بشار له كثيرة، وأحواله مذكورة في الجزء الثالث عشر من «الأغاني» توفي بشيراز أيام فراره من محمد بن سليمان بن علي العباسي.

وفي سنة إحدى وستين ومئة أيضاً توفي أبو دلامة زند بن الجون، وحكاياته مع المنصور والمهدي كثيرة، ولولا توخّي الاختصار لأتينا على ذكر بعض منها.

وفي سنة ثمان وستين ومئة توفي الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليهما السلام، وفي أيام المهدي أيضاً ركن إلى الفرار خوفاً منه الثقة الجليل القدر عمر بن محمد بن عبد الرحمان المعروف بابن أذينة، وتوفي باليمن، وهو من ثقات الأصحاب الإمامية.

كما استشهد في أيام المهدي العباس بن علي بن الحسن المثلث، وذلك أن العباس بن علي قدم بغداد ودعا الناس إلى بيعته، فأطاعه جماعة من الزيدية، فلما بلغ الخبر المهدي أمر به فاعتقل وطرحوه في السجن، وبقي رهين الحبس حتى شفع له ابن عمه الحسين بن علي شهيد فخ، ووهبه المهدي إلى الحسين فأطلقوه من سجنه بعد أن سقوه شراباً مسموماً، وراح السم يفعل فعله فيه فهزل جسمه، وما إن بلغ المدينة حتى فسد لحم بدنه وتلاشت أعضاؤه فلم يلبث ثلاثة أيام في المدينة حتى فارق الحياة.

وفي أيام المهدي أيضاً توفي بالكوفة عيسى بن زيد بن علي بن الحسين عليهما السلام، وكان متوارياً فيها خوفاً من المهدي، فجيء بأطفاله اليتامى إلى المهدي الذي تكفل بهم وقام برعايتهم، وسيأتي تفصيل القصة في الفصل اللاحق.

أحوال عيسى بن زيد بن علي بن
الحسين عليهما السلام

ليكن معلوماً أن أبا الفرج ساق مديحاً بليغاً بحق عيسى بن زيد، وقال بأنه كان رجلاً جليل القدر، ذا علم وورع وتقوى وزهد، وكان يروي عن الإمام الصادق عليه السلام وعن أخي الصادق عبد الله بن محمد، وعن أبيه زيد بن علي وغيرهم، وكان علماء عصره يعدون مقدمه مباركاً، وكان سفيان الثوري من أكبر مريديه، فكان يزيد في تعظيمه واحترامه، ولكن لا يخفى أن مدحه له محل نظر إذا اعتبرنا ما ورد في «الكافي» عن سفيان من سوء اعتقاده بإمام زمانه الصادق عليه السلام، وما تقدم من الحديث عن تجاسره وتجرئه.

وإجمالاً فقد ولد عيسى في الطريق إلى الشام حين نزل زيد في أحد منازل (دير النصارى) وهو في طريقه إلى هشام بن عبد الملك، ففي تلك الليلة ولد عيسى وأسماه زيد باسم المسيح عليه السلام، وقد شهد عيسى موقعة محمد وإبراهيم ابني عبد الله بن الحسن، وكان محمد قد أوصى بأن يكون الناس مع أخيه إبراهيم من بعده، ثم مع عيسى بن زيد من بعد إبراهيم، غير أن عيسى اعتزل الناس بعد مقتل محمد وإبراهيم وتوارى في بيت علي بن صالح بن حي بالكوفة، وأخفى نسبه عن الناس إلى أن وافته المنية في أيام المهدي.

وخلال اختفاء عيسى خوفاً من المهدي رغب ابن أخيه يحيى بن الحسين بن زيد ـ أو محمد بن محمد بن زيد، وفقاً لرواية صاحب «عمدة

الطالب» - أن يتعرف على عمه، فقال لأبيه: أحب أن تدلني على عمّي وأين ألقاه، فمن القبيح أن يكون لي عم كهذا ولا أراه، قال أبوه: أي بني، دع عنك هذا الوهم فعمك قد أخفى نفسه، ويتجنب أن يعرفه أحد، وأخشى إن دللتك عليه وذهبت إليه أن يقع في شدة فيغيّر منزله، لكن يحيى أصرّ وألحف في السؤال حتى رضي أبوه أن يدله على مكان عمه.

قال الحسين لابنه: أي بني، إن رغبت في لقاء عمك فتهيأ للسفر، وتوجه من المدينة إلى الكوفة، فإذا بلغتها فاسأل عن محلّة (بني حي)، فإذا عرفتها فاذهب إلى الزقاق الفلاني (وصفه له). فإذا بلغته رأيت بيتاً صفته كذا وكذا، وهو بيت عمك، لكن إياك أن تقوم عند الباب، بل قف في أول الزقاق، فإذا كان الغروب ورأيت رجلاً كهلاً طويل القامة حسن الصورة، وآثار السجود ظاهرة على جبهته، وعليه جبة من الصوف، يقود أمامه بعيراً عائداً من السقاية، يذكر الله إذا رفع قدماً أو وضعها، وعيناه تهملان، فهذا الرجل هو عمك عيسى، فإذا لقيته فقف وسلّم عليه وعانقه، وسيشعر عمك في البداية بالخوف منك، فعرّفه بنفسك حتى يطمئن قلبه، ولا تطل البقاء معه لئلا يراك أحد فيتعرف عليه، فإذا ودعته فلا تعد ثانية للقياه، وإلا فسيتوارى عنك أيضاً، ويقع في مشقة.

قال يحيى: سمعاً وطاعة. ثم تجهز للسفر، وودع أباه وتوجه نحو الكوفة، فلما بلغها ونزل فيها انصرف إلى البحث عن عمه فسأل عن محلة (بني حي)، وعثر على البيت الذي وصفه له أبوه، فقعد خارج الزقاق يرقب مجيء عمه، ولما غربت الشمس رأى رجلاً كهلاً يقود بعيراً أمامه بالأوصاف التي سمعها من أبيه، ومع كل خطوة منه تتحرك شفتاه بذكر الله، والدموع تنهمر من عينيه، فتقدم إليه وسلم عليه معانقاً.

قال يحيى: ما إن فعلت ذلك حتى رأيت عمي وقد انتابه فزع أشبه بوحش خاف من إنسيّ، فقلت: يا عماه، إنني يحيى بن الحسين بن زيد، ابن أخيك، فلما سمع قولي ضمني إلى صدره وراح يجهش بالبكاء، وتغيرت حاله حتى خفت أن يصاب بالسكتة، ولما استعاد قدراً من هدوئه التفت إلى

البعير فأناخه، ثم راح يسألني عن أحوال ذوي قرباه وأهل بيته من رجال ونساء وأطفال فرداً فرداً، فأخبرته بأحوالهم وهو لا يتوقف عن البكاء، وبعد أن عرف عنهم كل شيء أخذ يحدثني عن نفسه فقال:

يا بني، إن سألت عني فاعلم أنني قد أخفيت نسبي وشأني عن الناس، واكتريت هذا البعير أغدو به إلى السقاء كل يوم وأروح به محملاً بالماء أبيعه من الناس، وما أناله من هذا العمل أدفع قسماً منه لصاحب البعير وأصرف ما يتبقى على قوتي، فإن جدّ يوماً ما يمنعني عن العمل بقيت هذا اليوم دون طعام، فلا بد لي إذ ذاك من التوجه إلى البادية لجمع فضلات ما رمى به الناس من أوراق الخس وقشور الخيار وأمثاله فيكون قوت يومي.

وقد اتخذت خلال اختفائي من هذا البيت منزلاً دون أن يعرفني صاحبه، ونظراً لطول إقامتي عنده فقد زوجني من ابنته، ورزقني الله منها بابنة، فلما بلغت أخبرتني أمها برغبتها في تزويجها من ابن جارنا السقاء لأنهم جاؤونا خاطبين، فلم أستجب لرغبتها، لكنها أصرّت، ولم أجد في نفسي الجرأة على إخبارها بحقيقة نسبها، وأن ابنتنا من سلالة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فلا تكافىء ابن السقاء حسباً ونسباً. لكن زوجتي - مع رؤيتها لفقري وإفلاسي وخمول ذكري - راحت تلح عليّ في ذلك حتى بتّ عاجزاً عن علاج الأمر، وسألت الله أن يكفينيه، فاستجاب الله عزّ وجلّ دعائي، فلم تمض أيام حتى فارقت ابنتي الحياة، وأراحتني من غصّتها، لكني - يا ولدي العزيز - بقيت في قلبي غصة لا أتصور أحداً يقدر على تحمل مثلها، ذلك أني لم أجرؤ - وابنتي على قيد الحياة - أن أعرّفها بنفسي وأقول لها: يا نور عيني، إنك سيدة، وإنك من سلالة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ولست ابنة عامل من العمال، حتى ماتت وهي تجهل ما كان لها من الشأن.

قال يحيى: ثم إن عمي قام يودعني، وأقسم عليّ ألا أدنو منه ثانية لئلا يُعرف فيؤخذ، لكني بعد أيام ذهبت لرؤيته فلم أعثر عليه، وكان ذلك اللقاء هو اللقاء الوحيد.

وإجمالاً فهذا كان حال عيسى طيلة حياته، وكان المهدي يخافه خوفاً عظيماً طالما بقي عاجزاً عن معرفة أمره، وطالما أخفقت كل حيلة أو تدبير في العثور عليه، إلى أن فارق الحياة.

يروي أبو الفرج عن خصيب الواشبيّ، وكان من أصحاب زيد بن علي، ومن خواص عيسى بن زيد أنه قال: لما كان عيسى متوارياً بالكوفة كنا نذهب لرؤيته أحياناً ونحن نوجس خيفة، وأكثر ما كنا نلقاه في البادية وهو ينضح الماء، فكان يجلس إلينا يحدثنا ويقول: لكم والله أحب أن آمن عليكم من هؤلاء (يعني الخليفة وأعوانه) إذاً لأطلت الجلوس معكم والتزود من حديثكم والنظر إليكم، فأنا والله في شوق إليكم، فاذكروني على الدوام في خلواتكم وفي فراشكم إذا ذهبتم إلى النوم فلا يشتهر أمركم فيصيبكم سوء أو ضرر.

وجاء في «عمدة الطالب» أن محمداً المهدي أتى يوماً بعض مواضع (حلوان) فرأى أشعاراً مكتوبة على حائط، منها: «منخرق الكفين يشكو الوجى».

وكان بضعة نفر من الخاصة يعرفون عيسى، وقد وقفوا سرّاً على أمره، أحدهم: ابن علاق الصيرفي، والثاني: حاضر، والثالث: الصباح الزعفراني، والرابع: الحسن بن صالح. وكان همّ المهدي أنه طالما عجز عن العثور على عيسى، فلا أقل من الظفر بأولئك النفر، حتى ظفر يوماً بحاضر فألقى به في السجن، وتوسل بكل حيلة كي يظفر منه على خبر عن عيسى وأصحابه، لكن حاضراً بقي على كتمانه ولم يفه بشيء حتى قتل.

ولما توفي عيسى ترك وراءه طفلين صغيرين تكفّل الصباح بهما، وروي أن الصباح قال للحسن بن صالح: الآن وقد توفي عيسى، فما الذي يمنعنا من أن نظهر أنفسنا ونخبر المهدي بموت عيسى، فيرتاح هو، ونأمن نحن جانبه فالمهدي إنما يطلبنا من أجل عيسى، وإذ مات عيسى فلا شأن له بنا، قال الحسن: لا والله، فلا قرّت عين عدو الله بموت ولي الله ابن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. إن ليلة أقضيها في الخوف خير من جهاد وعبادة سنة.

قال الصباح: بعد انقضاء شهرين على موت عيسى توفي الحسن بن صالح، فأخذت أحمد وزيداً يتيمي عيسى وتوجهت إلى بغداد، فلما انتهيت إليها أودعت الطفلين في بيت، وقصدت دار الخلافة في ملابس قديمة، فلما بلغتها قلت: أنا الصباح الزعفراني، وطلبت الإذن بالدخول، فأمر الخليفة بإدخالي عليه، فلما مثلت بين يديه قال: أأنت الصباح الزعفراني؟ قلت: أجل، قال: «لا حيّاك الله ولا بيّاك، ولا قرّب دارك»! يا عدو الله، ألست من تدعو إلى بيعة عدوي عيسى؟ قلت: بلى، قال: إذاً، فقد قدمت إلى حتفك بظلفك!!.

قلت: أيها الأمير، إن لك عندي بشارة، ولك تعزية كذلك، قال: فما هما؟ قلت: أما البشارة فهي بموت عيسى بن زيد، وأما التعزية فهي بموت عيسى كذلك، كون عيسى ابن عمك ومن آلك.

فلما سمع المهدي هذا توجه إلى المحراب وسجد شكراً، وحمد الله، ثم سألني: متى توفي عيسى؟ قلت: منذ شهرين، قال: ولم لم تخبرني في حينه؟ قلت: منعني الحسن بن صالح حتى إذا توفي بدوره قدمت إليك.

فلما سمع نبأ موت الحسن سجد سجدة أخرى وقال: الحمد لله الذي كفاني شره، فقد كان لي العدو الألد، ثم قال: سلني ما شئت أيها الرجل فحاجتك عندي مقضية، وسأجعلك في غنى عن مال الدنيا. قلت: ليس لي إليك والله سوى حاجة واحدة، قال: وما هي؟ قلت: كفالة يتيمي عيسى بن زيد، فوالله لو أن عندي ما يقوم بأودهما لما طلبت منك حتى هذا، ولما أتيت بهما إلى بغداد.

ثم شرحت له حال عيسى وطفليه، وقلت: أيها الأمير، لما كان عيسى على قيد الحياة كان ينفق على طفليه من عمل السقاية، فلما مات لم يترك شيئاً، ولم يكن هناك أحد يتكفل بهما، فلا غرو أن جعلتهما في عداد عيالي، لكني عاجز عن إعالتهما فأنا لا أمتلك شيئاً، الأمر الذي جعل الجوع وسوء الحال يغلبان عليهما حتى قاربا الهلاك، ولما كانا من أرحامك وبني عمك فيحسن أن تكون الأب لهما، وأن تنقذهما مما هما فيه من جوع وسوء حال.

فلما سمع المهدي قصة يتيمي عيسى بكى دون إرادة منه حتى جرى الدمع من عينيه ثم قال: أيها الرجل، جزاك الله خيراً فقد صنعت خيراً بإخباري عن حالهما وأداء حقهما، فإن أبناء عيسى كأبنائي، فاذهب الآن وائتني بهما، قلت: فهل لهما من أمان؟ قال: نعم، فسيكونان في أمان الله وأماني، وفي ذمتي وذمّة آبائي، فرحت آخذ عليه الأيمان والمواثيق بألا يصيبهما بأذى إن أنا جئته بهما، فراح بدوره يؤمنهما حتى قال أخيراً: أيها الحبيب، وماذا أذنبا ـ وهما طفلان صغيران ـ حتى أنزل بهما الأذى؟! فمن كان يعارض سلطتي إنما هو أبوهما، ولو أنه أيضاً جاءني وكف عن منازعتي فلن يكون لي معه شأن، فكيف مع طفلين يتيمين؟! قم الآن وائتني بهما، فجزاك الله خيراً، كما أطلب منك أيضاً أن تقبل عطائي، قلت: أنا لا أريد شيئاً.

ثم إني ذهبت وأتيت بهما، فلما نظر المهدي إليهما رقّ لحالهما وضمهما إليه، ثم أمر إحدى جواريه برعايتهما، ووكل بضعة نفر لخدمتهما، وكنت أتردد بين حين وآخر للاطمئنان عليهما، وبقيا في دار الخلافة حتى ولي محمد الأمين الخلافة، فلما قتل غادرا دار الخلافة، أما زيد ففارق الحياة إثر مرض، وأما أحمد فتوارى.

خلافة موسى بن المهدي الملقب بالهادي

في اليوم الثالث والعشرين من المحرم سنة تسع وستين ومئة توفي المهدي في (ماسبذان) وانتقلت الخلافة إلى ابنه موسى الهادي، كان موسى إذ ذاك في (جرجان) وقد ذهب لحرب أهل (طبرستان) فأخذ له أخوه هارون الرشيد البيعة من أهل (ماسبذان) ومن الناس في بغداد حيث تمت له البيعة العامة.

عرف الهادي بقسوة القلب وكثرة الأدب والشجاعة وكان يقال له: «الأطبق»، ويروى عن جرأته أنه كان يوماً يتنزه في أحد بساتينه وهو يركب حماراً، فأتي برجل من الخوارج كانوا قد أمسكوا به في القضاء، فلما دخلوا به اختطف سيفاً من أحد المرافقين وحمل على موسى يريد قتله، فلما رأى غلمان موسى السيف مسلولاً في يد العدو خافوا وركنوا إلى الفرار، لكن موسى بقي على راحلته بكل هدوء وطمأنينة، فلم يبدر منه أي خوف أو جزع حتى اقترب الخارجي منه، فصاح فجأة: اضربوا عنق هذ الخارجيّ! في حين لم يكن هناك أحد، ظن الخارجي أن أحداً سيهاجمه، فالتفت بطرفه يريد رؤية من وجّه إليه موسى أوامره، وفي تلك اللحظة اندفع موسى نحوه ووقع عليه، فألقى به أرضاً وانتزع السيف من يده، وضرب عنقه.

خاف الغلمان أن يتعرض لهم موسى بسوء، غير أنه لم يفعل سوى أنه امتنع عن ركوب الحمار، ولم يفارق سيفه أبداً.

أراد موسى في أخريات أيامه وقد أحس بدنو أجله، أن يعزل أخاه الرشيد من ولاية العهد، ويفوض الأمر إلى ابنه جعفر، لكن الموت عاجله

دون أن ينفذ رغبته. وكانت وفاته ببغداد ليلة الرابع عشر أو الثامن عشر من شهر ربيع الأول سنة سبعين ومئة عن عمر يقرب من خمس وعشرين سنة، وفي السنة نفسها توفي الربيع الحاجب أيضاً، وإليه تنسب (قطعية الربيع) وهي محلة كبيرة ببغداد، «وإنما قيل لها قطعية الربيع لأن المنصور أقطعه إياها».

وفي سنة سبعين ومئة أيضاً ـ كما يقول ابن خلكان ـ توفي بالبصرة الخليل بن أحمد الإمامي العروضي النحوي اللغوي. والخليل أستاذ سيبويه والنضر بن شميل، وهو من استنبط علم العروض، وكان ممدوحاً لعقله وعلمه وزهده، وصلاحه وحلمه ووقاره، ويروى عنه الكثير من الحكم، وكان كثيراً ما يردد هذا البيت للأخطل:

وإذا افتقرت إلى الذخائر لم تجد ذخراً يكون كصالح الأعمال

ومن أقوال الخليل في أمير المؤمنين عليه السلام:

«احتياج الكل إليه، واستغناؤه عن الكل دليل على أنه إمام الكل» وقيل: إن أبا الخليل كان أول من سمّى «أحمد» بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ويقال: لما رغبوا إلى الخليل أن يذكر فضيلة لأمير المؤمنين عليه السلام قال:

ما أقول في رجل كتم محبوه فضائله خوفاً من الأعداء، وسعى أعداؤه في إخفاء فضائله حسداً وبغضاء، ومع كتمان محبيه ومبغضيه لفضائله فقد بقي ظاهراً منها ما ملأ المشرق والمغرب.

يقول المؤلف: أقوال الخليل في منتهى المتانة، وهذا من خوراق العادات، بل من المعجزات الباهرة لأمير المؤمنين عليه السلام، وإلا فالحري في هذه الحال ألا تروى عنه عليه السلام أي فضيلة، وأن يخمل ذكره، بل الحريّ أن تطغى المثالب الملفقة على المناقب لا أن تملأ مناقبه وفضائله مشرق العالم ومغربه، وتقهر الجمهور والناس كافة، الصديق منهم والعدو، على مدحه.

﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾.

وكنا قد أشرنا في كتاب «المنتهى» إلى هذا الأمر، وأوردنا رواية عن ابن شهرآشوب أنه ينقل أن أعرابية شوهدت في مسجد الكوفة وهي تقول:

أيها الرجل المشهور في السماوات، والمشهور في الأرضين، والمشهور في الدنيا، والمشهور في الآخرة، قَصَر سلاطين الجور وجبابرة الزمان هممهم على إطفاء نورك، وأبى الله إلا أن يزيد في إشراقه وظهوره. فقيل لها: ومن تقصدين بهذه الكلمات؟ قالت: أمير المؤمنين عليه السلام. قالت هذا وغابت عن الأنظار.

ويروى عن الشعبي بروايات مستفيضة أنه كان يقول:

إني لأسمع خطباء بني أمية يسبّون أمير المؤمنين عليه السلام على المنابر دون انقطاع، ويقولون عنه أقوال السوء، ومع هذا فإنّ أحدهم أخذ بضبعيه فرفعهما إلى السماء، وأبان رفعته وسمو درجته.

كما أني أسمع التنويه بمدائح ومناقب أسلافهم وأوائلهم دون انقطاع، فكأنهم إنما يعرضون للناس ميّتاً ويكشفون جيفة، يعني أنهم مهما كالوا لأسلافهم من المدائح والحسنات فإنما ينشرون سوءهم وعفونتهم.

«يا أبا الحسن، بأبي أنت وأمي» لأنت الرجل الذي أجمع العدو والصديق على ذكر مدائحك برطب اللسان وعذب البيان:

شهد الأنام بفضله حتى العدى والفضل ما شهدت به الأعداء

وإجمالاً، فالخليل رجل جليل مجبول على الحكمة، ومن أقواله في ذلك:

«العلم لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كلّك، ثم أنت في إعطائه إياك بعضه، مع إعطائك إياه كلّك، على خطر».

ومنها: «لا يعلم الإنسان خطأ معلّمه حتى يجالس غيره».

ومنها: «إذا نسخ الكتاب ثلاث مرات ولم يعارض تحوّل إلى الفارسية» (يعني كثر سقوطه).

ومنها: «أصفى ما يكون ذهن الإنسان وقت السحر».

ومنها: «أفضل كلمة ترغّب الإنسان في طلب العلم والمعرفة قول أمير المؤمنين عليه السلام: قيمة كل امرىء ما يحسنه». إلى غير ذلك.

وحكي أنه دخل رجل على الخليل ومعه ابنه، فقال: أيها الشيخ، جئتك من سفر بعيد فأدّب ابني شيئاً من علم النجوم والنحو والطب وفرائض الفقه، والحمار على الباب! فقال له الخليل: اعلم أن الثريّا في وسط السماء، وأن الفاعل مرفوع وأن الهليلج الكابلي دافع للصفراء، وإن مات أحد وترك ابنين فالمال بينهما سواء. فقال الرجل: قم يا بني.

وجاء في «مروج الذهب» للمسعودي أن الحسين بن علي الحسني خرج في عهد موسى الهادي بـ «فخ» وهي موضع على ستة أميال من مكة، وكان ذلك يوم التروية، وقد استشهد هناك في موقعة بينه وبين جماعة من بني العباس منهم: سليمان بن أبي جعفر، ومحمد بن سليمان بن علي، وموسى بن علي، والعباس بن محمد بن علي، الذين بعث بهم الهادي مع أربعة آلاف مقاتل لحرب الحسين بن علي، وفي «فخ» جرت بين الفريقين معركة كبيرة استشهد على أثرها مع جماعة ممن كانوا معه، وبقيت أجسادهم مرميّة على الأرض ثلاثة أيام لم يقم أحد بدفنها، فراحت طعمة للضواري ووحوش الطير.

ومن الأشخاص الذين كانوا مع الحسين بن علي في وقعة فخ: سليمان بن عبد الله بن الحسن، الذي أسره العباسيون، ثم ضربوا عنقه بمكة، ومنهم الحسن بن محمد بن عبد الله بن الحسن الذي أسر ثم قتل كذلك، ومنهم عبد الله بن إسحاق بن إبراهيم بن الحسن المثنى الذي استشهد في هذه الوقعة.

ولما بلغ الهادي خبر شهادة الحسين بن علي ثار غضباً على موسى بن عيسى وصادر أمواله، وعندما حملوا إليه رؤوس الشهداء فرحين مستبشرين بكى موسى وقال: إنكم تفرحون كما لو أنكم جئتموني برؤوس الترك والديلم، وها هو رأس رجل من عترة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وأقل جزاء لكم عندي حرمانكم من العطاء.

وقد رثى بعض شعراء العصر الحسين وسائر شهداء فخ، ومما قالوه:

فلأبكين على الحسين بعولة وعلى الحسن
وعلى ابن عاتكة[1] الذي أثووه ليس له كفن
تركوا بفخ غدوة في غير منزلة الوطن
كانوا كراماً قتّلوا لا طائشين ولا جبن
غسلوا المذلة عنهم غسل الثياب من الدرن
هُدِيَ العباد بجدّهم فلهم على الناس المنن

وقد أوردنا في كتاب «المنتهى» كيفية واقعة فخ بالتفصيل في سياق الحديث عن أبناء الإمام الحسن عليه السلام فيرجع إليها هناك.

---

(١) هو سليمان بن عبد الله بن الحسن (منه ره).

خلافة هارون الرشيد بن محمد بن المنصور
ووقائع أيامه

في صبيحة الليلة التي مات فيها موسى الهادي عقد الناس البيعة لأخيه هارون في بغداد مدينة السلام، وتلك كانت ليلة الرابع عشر أو الثامن عشر من شهر ربيع الأول سنة سبعين ومئة، وهي ليلة لم يشهد بنو العباس لها مثيلاً، ففيها فارق خليفة الحياة، وانتقلت السلطة إلى خليفة آخر هو الرشيد، وولد خليفة ثالث هو المأمون.

حكم هارون الرشيد ثلاثاً وعشرين سنة وبضعة شهور، وكانت وفاته ليلة السبت الثالث من جمادى الآخرة سنة ثلاث وتسعين ومئة بطوس، وفي قرية سناباد، ودفن في البقعة الرضوية المطهرة فيما يلي رأس الإمام الرضا عليه السلام[1]، وكان له من العمر أربع وأربعون سنة وأربعة شهور.

(١) نظراً لأن قبري الرشيد والإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام متجاوران فقد نظم دعبل الخزاعي شعراً في ذلك قال فيه:

أرى أمية معذورين إن غدروا ... وما أرى لبني العباس من عذر
قوم قتلتم على الإسلام أولهم ... حتى إذا استمكنوا جازوا إلى الكفر
إربع بطوس على قرب الزكي به ... إن كنت تربع من طين على وطر
قبران في طوس: خير الناس كلهم ... وقبر شرهم. هذا من العبر
ما ينفع الرجس من قرب الزكي ولا ... على الزكي بقرب الرجس من ضرر
هيهات، كل امرىء رهن بما كسبت ... له يداه فخذ ما شئت أو فذر

لما تسلّم هارون[1] الخلافة اتخذ يحيى بن خالد البرمكي وزيراً، وكان هارون ذا حظ عظيم من الملك والسلطان، روي أن خاتماً ثميناً وصل إلى هارون من أبيه، وفي أيام الهادي طلب ذلك الخاتم فامتنع الرشيد عن إعطائه إياه، ولما ألح عليه ما كان منه إلا أن رمى بالخاتم في نهر دجلة، ولما أصبح خليفة رمى بخاتم من الرصاص في الموضع نفسه من دجلة، وأمر الغواصين باستخراجه، ولما غاصوا تحت الماء عثروا على الخاتم الثمين السابق، فاعتبر الرشيد هذه الحادثة فألاً حسناً.

ويروى عن الجاحظ أنه قال: اجتمع للرشيد ما لم يجتمع لغيره، فكان وزراؤه البرامكة، وقاضيه أبو يوسف، وشاعره مروان بن أبي حفصة، ونديمه العباس بن محمد ابن عم أبيه، وزوجه زبيدة، ومغنيه إبراهيم الموصلي، وحاجبه الفضل بن الربيع، ولكل من هؤلاء خصائص وامتيازات.

وفي أيام الرشيد سنة ثلاث وسبعين ومئة توفيت الخيزران أم الهادي والرشيد، وتقدم الرشيد جنازتها، وروي أن غلّة الخيزران بلغت مئة وستين ألف ألف درهم. وفي السنة نفسها توفي محمد بن سليمان العباسي، ووضع

(١) حكي أن الرشيد جلس يوماً لإزاحة المظالم وتقدمت إليه امرأة ورفعت إليه رقعة فإذا فيها: أتمّ الله أمرك وفرّحك بما آتاك، وزادك رفعة، فلقد عدلت فقسطت، فقال الرشيد لمن حضره حين وقف على الرقعة: أتدرون ما أرادت هذه المرأة؟ فقالوا: وما الذي أرادت يا أمير المؤمنين؟ قال: أما قولها: «أتم الله أمرك» فإنها عنت قول الشاعر:

إذا تـــمّ أمـــر دنـــا نـــقـــصـــه ... تـــوقـــع زوالاً إذا قـــيـــل تـــمّ

وأما قولها «وفرّحك بما آتاك» فأخذته من قول الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةً فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ﴾.

وأما قولها: «وزادك رفعة» فإنه من قول الشاعر:

مـــا طـــار طـــيـــر وارتـــفـــع ... إلا كـــمـــا طـــار وقـــع

وأما قولها: «لقد عدلت فقسطت» فأخذته من قول الله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلۡقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبٗا﴾.

فتعجب الحاضرون لوقوع خاطر الرشيد من ذلك. ثم دعا بها وسألها عن حالها، وأزاح علّتها وأكرمها، وانصرفت داعية. (منه ره).

الرشيد يده على أمواله بالبصرة، وكان دخله اليومي مئة ألف درهم.

وفي سنة أربع وسبعين ومئة توفي بمصر عبد الله بن لهيعة (على وزن ربيعة) وكان على قضاء مصر من قبل المنصور.

وفي سنة أربع وسبعين ومئة أيضاً قتل في بلاد ما وراء النهر أبو علي شقيق البلخي بن إبراهيم الصوفي بتهمة الرفض، وكان شقيق من كبار مشايخ خراسان، وأستاذاً لحاتم الأصمّ، وقد نسب إليه احتمال التشيع، «وكان من أبناء الأغنياء، وتاب بسبب كلمة سمعها من خادم الأصنام».

وينقل عن شقيق قوله: خمس مسائل سألت عنها سبعمئة عالم، فجاءت أجوبتهم جميعاً على نحو واحد:

سألت: من هو العاقل؟ قالوا: من لم يكن محبّاً للدنيا.

سألت: من هو الذكي؟ قالوا: من لم تخدعه الدنيا فيغتر بها.

سألت: من هو الغني؟ قالوا: من رضي بما قسمه الله له.

سألت: من هو الفقير قالوا: من كان همه طلب المزيد.

سألت: من هو البخيل؟ قالوا: من منع حق الله الذي أودعه في ماله.

وفي سنة خمس وسبعين ومئة توفي شريك بن عبد الله بن سنان النخعي، وكان على قضاء الكوفة أيام المهدي فعزله الهادي، وقد تقدم الحديث عن حكايته مع المهدي. وشريك، وإن لم يكن شيعياً، فلم يكن كذلك معانداً للشيعة وللأئمة عليهم السلام، نعم، ورد فيه ذمّ كما عن مولانا الصادق عليه السلام في حديث: «ما لشريك شركه الله يوم القيامة بشراك من نار». وشريك هذا غير شريك بن الأعور السلمي، والذي كان من أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام، وقد قدم الكوفة من البصرة مع ابن زياد، ونزل في بيت هانىء ثم وقع مريضاً، وتوفي قبل شهادة هانىء ومسلم، ودفن بالكوفة، وفي ظني أن قبره في (الثويّة) حيث دفن الأحنف، وزياد بن أبيه، وأبو موسى الأشعري، والمغيرة، كما أن هناك قبر كميل أيضاً.

وكان له حكاية لطيفة مع معاوية بن أبي سفيان يعجبني إيرادها: نقل المشايخ أن شريك بن الأعور دخل على معاوية، فقال له معاوية: والله إنك لشريك، وليس لله شريك. وإنك لابن الأعور؛ والبصير خير من الأعور. وإنك لدميم، والجيّد خير من الدميم. فكيف سُدْتَ قومك؟.

فقال له شريك: إنك لمعاوية. وما معاوية إلا كلبة عوت واستعوت الكلاب، وإنك لابن صخر، والسهل خير من الصخر، وإنك لابن حرب، والسلم خير من الحرب، وإنك لابن أميّة، وما أمية إلا أمة صغرت فاستصغرت فكيف صرت أمير المؤمنين؟ فغضب معاوية، وخرج شريك وهو يقول:

أيشتمني معاوية بن صخر وسيفي صارم ومعي لساني
فلا تبسط علينا يابن هند لسانك إن بلغت ذرى الأماني

وفي سنة خمس وسبعين ومئة أيضاً توفي معاوية بن عمار الكوفي، وهو من ثقات الأصحاب الإمامية.

وفي سنة تسع وسبعين ومئة توفي بالمدينة مالك بن أنس الأصبحي المدني، أحد أئمة مذهب أهل السنّة الأربعة، وروي أن مالكاً ولد سنة خمس وتسعين، وكان حمله ثلاث سنين، وقد أخذه جعفر بن سليمان العباسي ابن عم المنصور وجلده سبعين جلدة، ومن تصنيفاته «الموطأ» ويعدّ أحد الصحاح الستة، وقبره بالبقيع في البقعة التي دفنت فيها زوجات الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وهو معروف.

وفي سنة ثمانين ومئة توفي عمرو بن عثمان النحوي الفارسي المعروف بسيبويه وهو تلميذ الخليل بن أحمد، وعيسى بن عمرو، ويونس، والأخفش الأكبر. وكتابه «الكتاب» معروف وقد أهدى الجاحظ نسخة منه لمحمد بن عبد الملك الزيات، وحكاية مباحثاته مع الكسائي معروفة، والقصيدة الزنبورية تدور حول تلك الحكاية.

وفي سنة إحدى وثمانين ومئة توفي ببغداد مروان بن أبي حفصة

اليمامي. الشاعر المعروف، ومدائحه للمهدي وهارون ومعن بن زائدة كثيرة، وروي أنه كان يحاول التقرب من الرشيد بهجائه للعلويين، ومن أشعاره التي يظهر أنه قالها في مدح المهدي (ملأ الله فمه بالنار):

وأكرم قبر بعد قبر محمد   بنيّ الهدى قبر بماسبذان

وفي سنة إحدى وثمانين ومئة أيضاً توفي واصل بن عطاء المعتزلي، «وكان واصل بن عطاء يجلس إلى الحسن البصري، فلما ظهر الاختلاف وقالت الخوارج بتكفير مرتكب الكبائر، وقالت الجماعة بأنهم مؤمنون وإن فسقوا بالكبائر، خرج واصل بن عطاء عن الفريقين وقال: إن الفاسق من هذه الأمة لا مؤمن ولا كافر، بل منزلة بين المنزلتين، فطرده الحسن عن مجلسه فاعتزل عنه، وجلس إليه عمرو بن عبيد فقيل لهما ولأتباعهما معتزلون، وسمّاهم بذلك قتادة بن دعامة السدوسي.

وكان واصل بن عطاء أحد الأعاجيب، وذلك أنه كان ألثغ قبيح اللثغة بالراء، فكان يخلّص كلامه عن الراء ولا يُفطن لذلك، لاقتداره على الكلام وسهولة ألفاظه، ويضرب به المثل في إسقاطه حرف الراء من كلامه واستعمل الشعراء ذلك في أشعارهم كثيراً». قال الشاعر:

أجعلت وصلي الراء لم تنطق به   وقطعتني حتى كأنك واصل

ولا يخفى لطف هذا الشعر. وقال آخر:

فلا تجعلنّي مثل همزة واصل   فتلحقني حذفاً، ولا راء واصل

قلت: ويشبهه في ذلك الصاحب بن عباد كما سيأتي إن شاء الله تعالى.

وفي سنة اثنتين وثمانين ومئة، أو اثنتين وتسعين ومئة على قول، توفي أبو يوسف القاضي يعقوب بن إبراهيم الحنفي قاضي قضاة الكوفة، وقيل: إن أبا يوسف أول من لقب بقاضي القضاة، وأوّل من بدّل لباس العلماء وميّزه، وقبل هذا لم يكن هناك تمييز في اللباس بين العالم وغير العالم، فكانا بلباس واحد. وقبره كائن في شرقي صحن الكاظمين المقدّس. وفي السنة نفسها توفي يونس بن حبيب النحوي أيضاً.

وفي سنة اثنتين وثمانين ومئة أيضاً توفي ببغداد الثقة الجليل القدر علي بن يقطين، وكان أبوه يقطين من وجوه الدعاة في زمان مروان الحمار، فجدّ مروان في طلبه فركن إلى الفرار وتوارى. وفي سنة أربع وعشرين ومئة ولد ابنه علي بالكوفة، وإذ ذاك لجأت زوجه مع ولديها علي وعبيد إلى المدينة خوفاً من مروان وتواروا هناك حتى قتل مروان وظهرت دولة العباسيين، فأظهر يقطين نفسه، ورجعت زوجه مع ولديها إلى موطنهم الكوفة، والتحق يقطين بخدمة السفاح والمنصور، ومع ذلك فقد كان شيعي المذهب يقول بالإمامة، وكذلك كان ولداه، وكان بين حين وآخر يحمل أموالاً إلى الإمام جعفر الصادق عليه السلام، وقد سعى به السعاة عند المنصور والمهدي، لكن الله عزّ وجلّ حفظه من كيدهم ومكرهم، وبقي يقطين حياً بعد ابنه علي، وتوفي سنة خمس وثمانين ومئة.

وإجمالاً فقد كانت لعلي بن يقطين منزلة عظيمة ومرتبة رفيعة عند الإمام موسى بن جعفر عليهما السلام، وقد ضمن له الجنة، وجاء في بضعة أحاديث قوله عليه السلام: «ضمنت لعلي بن يقطين أن لا تمسّه النار أبداً».

وجاء في رواية أن علياً وفد ذات يوم عليه فقال الإمام لأصحابه: من أحب أن ينظر إلى رجل من أصحاب نبيّ الله فلينظر إلى علي بن يقطين، فقال رجل: فهو إذاً من أهل الجنة؟ قال عليه السلام: إني أشهد بأنه من أهل الجنة.

وروي عن داود الرقي أنه قال: دخلت يوم النحر على الإمام موسى بن جعفر عليه السلام فابتدأني بقوله: لم أنفكّ وأنا في عرفة عن ذكر علي بن يقطين، كان دوماً في نظري وفي قلبي فلم يفارقني حتى أفضت.

وروي أيضاً أنه أحصي في إحدى السنين في عرفة مئة وخمسون يلبّون لعلي بن يقطين الذي تكفل بنفقاتهم وبعث بهم إلى مكة.

وروي أن علياً وهو طفل دخل مع أخيه عبيد على الإمام الصادق

عليه السلام وكانت له ذؤابتان على رأسه، فقال عليه السلام: قرّبوا إليّ صاحب الذؤابتين، فدنا علي منه، فاحتضنه ودعا له بالخير.

والأحاديث في فضل علي بن يقطين كثيرة، وروي أنه لما قدم الإمام موسى بن جعفر إلى العراق شكا إليه علي ابتلاءه بوزارته للرشيد، فقال له: «يا علي إن لله تعالى أولياء مع أولياء الظلمة ليدفع بهم عن أوليائه، وأنت منهم يا علي».

وفي «البحار» عن كتاب «حقوق المؤمنين» لأبي علي بن طاهر، قال: استأذن علي بن اليقطين مولاي الكاظم عليه السلام في ترك عمل السلطان فلم يأذن له وقال:

«لا تفعل فإن لنا بك أنساً، ولإخوانك بك عزاً، وعسى أن يجبر الله بك كسراً، ويكسر بك ثائرة المخالفين عن أوليائه، يا علي، كفارة أعمالكم الإحسان إلى إخوانكم، اضمن لي واحدة وأضمن لك ثلاثاً، اضمن لي أن لا تلقى أحداً من أوليائنا إلا قضيت حاجته وأكرمته، وأضمن لك أن لا يظلّك سقف سجن أبداً، ولا ينالك حد سيف أبداً، ولا يدخل الفقر بيتك أبداً، يا علي، من سرّ مؤمناً فبالله بدأ، وبالنبي صلى الله عليه وآله وسلم ثنى، وبنا ثلّث».

وفي سنة ثلاث وثمانين ومئة توفي بـ (هرات) عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، وقبره فيها، وكان قد خرج في أيام مروان الحمار ودعا الناس إلى بيعته، وكان أبو جعفر الدوانيقي عاملاً له، واستمرت الحال على ذلك حتى سنة تسع وعشرين ومئة حيث احتال أبو مسلم المروزي فقبض عليه وحبسه بهرات، وبقي في الحبس حتى مات، ويقول صاحب «عمدة الطالب»: إن قبره قائم في شرق هرات، ويزار إلى الآن، وقد رأيت قبره سنة ست وسبعين وسبعمئة.

وفي سنة أربع وثمانين ومئة توفي أحمد بن هارون الرشيد، وكان ممن انصرفوا إلى الزهد بالدنيا والاشتغال بالعبادة، وأحمد معروف بالسبتي، ذلك

أنه كان يعمل يوم السبت ويصرف أجره في سائر أيام الأسبوع منصرفاً إلى العبادة حتى وفاته.

وفي سنة خمس وثمانين ومئة توفي عبد الصمد بن علي بن عبد الله بن العباس، وكان يصغر أخاه محمد بن علي أبا السفاح بأربع وأربعين سنة، وهو عمّ لجدّ هارون الرشيد.

وفي سنة خمس وثمانين ومئة توفي يزيد بن مزيد بن زائدة الشيباني ابن أخي معن، وكان أحد أمراء وأعيان دولة الرشيد، ويعدّ من الشجعان المعروفين، وهو الذي قتل الوليد بن طريف الشيباني الخارجي بالحديثة، ونوادر أخباره كثيرة.

وفي أوائل سنة سبع وثمانين ومئة توفي بمكة الفضيل بن عياض الكوفي العارف المرتاض الصوفي، وروي أنه كان في أول أمره من قطّاع الطرق، فتاب وانصرف إلى الزهد، وحكايته مع الرشيد وكلماته العرفانية معروفة، «ومن كلامه: ثلاثة لا ينبغي أن يلاموا على سوء الخلق والغضب: الصائم والمريض والمسافر».

وجاء نقلاً عن «حبيب السير» أنه كان للفضيل ولد اسمه عليّ، وكان يفضل أباه بالزهد والعبادة، لكنه توفي في أول شبابه، وسبب ذلك أنه كان يقف في المسجد الحرام بجانب بئر زمزم فسمع رجلاً يقرأ: ﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ﴾. فصاح صيحة فاضت بها نفسه كما جرى مع همام.

وقيل إنه في سنة ثمان وثمانين ومئة كانت وفاة إبراهيم النديم الموصلي، وحيد عصره في الغناء وابتكار الألحان، وفي يوم وفاته توفي كذلك العباس بن الأحنف اليمامي الشاعر، خال إبراهيم الصولي الشاعر.

وفي سنة تسع وثمانين ومئة توفي علي بن الحمزة المعروف بالكسائي، كما توفي محمد بن الحسن الشيباني الفقيه الحنفي، ويشتهر الكسائي بعلم النحو واللغة والقراءة، وهو أحد القراء السبعة، وكان مؤدباً لمحمد الأمين بن الرشيد، لكنه ـ مع كل هذه الكمالات ـ لم يكن له حظ من الشعر، حتى

قيل: «ليس في علماء العربية أجهل بالشعر من الكسائي»، ولما انتقل الرشيد إلى طوس كان الكسائي برفقته، لكن المنية وافته فجأة بالري، وفي اليوم نفسه كانت وفاة محمد بن الحسن الشيباني الفقيه الحنفي أيضاً، وقال الرشيد: «دفنا الفقه والعربية بالري».

وفي أيام الرشيد أيضاً توفي الثقة العظيم الشأن مادح آل أحمد إسماعيل بن محمد المعروف بالسيد الحميري الشامي، وهذا طبقاً لأقوال بعض أهل التاريخ، ولكن يستفاد من الأحاديث والأخبار أن وفاته كانت قبل وفاة الإمام الصادق عليه السلام في زمن المنصور.

والسيد ابن محمد رجل جليل القدر عظيم المنزلة، وهو من مادحي أهل البيت عليهم السلام، ولم يعهد عن أحد من أصحاب الأئمة عليهم السلام نشرهم لفضائل أمير المؤمنين وأهل البيت الأطهار عليهم السلام كالسيد الحميري.

وجاء في «الأغاني» لأبي الفرج رواية عن «المدائن» أن السيد الحميري كان يمر في كُناسة الكوفة على راحلة، فتوقف وقال: من جاء بفضيلة لعلي بن أبي طالب عليه السلام لم أقل فيها شعراً فله فرسي وما عليّ، فجعلوا يحدّثونه بفضائله عليه السلام وينشدهم ما قاله فيها، حتى روى رجل عن أبي الرعل المرادي أنه قال: قدمت على أمير المؤمنين عليه السلام وهو يتطهر للصلاة، فنزع خفّه فانسابت فيه أفعى، ولما أراد أن يلبسه انقض غراب فالتقط الخف وحلق به ثم رماه، فخرجت الأفعى منه، قال: فأعطاه السيد ما وعده وأنشأ يقول:

ألا يا قوم للعجب العجاب   لخفّ أبي الحسين وللحباب[1]

(الأبيات)

وجاء نقلاً عن ابن المعتز صاحب «طبقات الشعراء» أنه شوهد في بغداد حمّال مثقل، فسئل عن حمله فقال: «ميمات السيد».

---

(١) الحباب (بالمهملة والموحدتين): الحيّة، واسم للشيطان أيضاً (منه ره).

ومن قصائد السيد قصيدة معروفة مطلعها:

لأم عمرو باللوى مربع طامسة أعلامها بلقع

وأورد العلامة المجلسي (ره) في «البحار» عن بعض مصنفات أصحاب الفضيلة عن هذه القصيدة ما حصيلته أن الإمام الرضا عليه السلام رأى في المنام شرفة منصوبة ولها مئة درجة، ولما رقيها رأى نفسه داخل قبة خضراء جلس فيها الخمسة الطيبون سلام الله عليهم، ورجل واقف قبالة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ينشد هذه القصيدة، فرحب به الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وقال له: سلّم على أبيك علي وأمك فاطمة، وعلى الحسن والحسين، قال: ولما سلمت عليهم قال: سلّم على شاعرنا ومادحنا في دار الدنيا السيد الحميري، فسلمت عليه وجلست، ثم قال النبي للسيد: أنشدنا القصيدة، فشرع السيد بالإنشاد، ولما بلغ قوله:

وراية يقدمها حيدر ووجهه كالشمس إذ تطلع

بكى الرسول وفاطمة وأولئك العظام الآخرون، فلما بلغ قوله:

قالوا له لو شئت أعلمتنا إلى من الغاية والمفزع

رفع الرسول صلى الله عليه وآله وسلم يديه وقال:

«إلهي، أنت الشاهد عليّ وعليهم، أني أعلمتهم أن الغاية والمفزع علي بن أبي طالب». وأشار إلى أمير المؤمنين عليه السلام.

ولما فرغ السيد من إنشاده قال النبي يخاطبني: يا علي بن موسى، احفظ هذه القصيدة ومر شيعتنا بحفظها، وأعلمهم أن من يحفظها ويدوم على إنشادها أضمن له الجنة. فحفظتها.

أقول: هذه القصيدة معروفة، وهي مذكورة في «البحار» ومع المعلقات السبع وفي غير ذلك، وهي مشروحة، وهي القصيدة التي أنشدها فضيل الرسان للإمام الصادق عليه السلام بعد شهادة زيد بن علي، وقد أسدل عليه السلام ستارة حيث جلست النسوة خلفها، ولما بلغ في إنشاده: «وراية يقدمها حيدر»

قال: سمعت أصوات البكاء والنحيب ترتفع من وراء الستارة، فسأل عليه السلام: هذه القصيدة لمن؟ قال فضيل: إنها من شعر السيد بن محمد الحميري، فقال: رحمه الله، قال: فقلت: إني رأيته يشرب النبيذ، فقال: رحمه الله، قلت: إني رأيته يشرب نبيذ الرستاق، قال: تعني الخمر؟ قلت: نعم، قال: رحمه الله، وما ذلك على الله بعظيم أن يغفر لمحب علي عليه السلام.

روي أنه لما دخل السيد في الاحتضار اسودّ لونه، فقال: هكذا يُفعل بأوليائكم يا أمير المؤمنين؟ فابيض لونه، وأضاء كالبدر ليلة أربعة عشر، فأنشأ يقول:

أحبّ الذي من مات من أهل وده   تلقاه بالبشرى لدى الموت يضحك

(الأبيات)

ونوادر أخبار السيّد أكثر من أن تحصى، والسيّد لقب، بل هو سيد في عمله، وكنيته أبو هاشم، وكان أبوه وأمه يعدّان من النواصب، ولما سئل السيد: كيف صرت شيعياً مع أنك شاميّ حِمْيَري؟ ـ ذلك أن الحميريين كانوا من أتباع معاوية ـ فقال: «صبّت عليّ الرحمة صباً كما صبّت على مؤمن آل فرعون».

ولكن يعلم من «إثبات الوصية» أن أباه كان من محبّي أهل بيت الرسالة، وقد طلب من الإمام الحسن عليه السلام أن يرزقه الله ولداً يكون من محبّي أهل البيت، فبشّره عليه السلام ورزق بالسيّد، وحكاية هجائه لسوار بن عبد الله قاضي بغداد أيام المنصور حفلت بها كتب التاريخ.

هذا وفي أيام الرشيد كذلك استشهد جماعة من الطالبيين، منهم: إدريس بن عبد الله بن الحسن المثنى، الذي كان في وقعة فخ في ركاب الحسين بن علي، وبعد استشهاد الحسين وأخيه سلمان توجه إلى مصر وأراضي المغرب، فبايعه أهل المغرب وأقام مملكة عظيمة، فلما بلغ هذا هارون الرشيد اضطرب اضطراباً شديداً، فلا غرو أنه بعث إليه برجل تقرب إليه بالخديعة والمكر، ثم أرداه بالسم، وكانت له جارية حامل منه، فوضع أولياء الأمور هناك تاج الخلافة على بطنها، وبعد أربعة شهور رزقت ولداً

فأسموه إدريس، ولم يوسم بالخلافة في الإسلام من هو في رحم أمه سواه، وإدريس بن إدريس كان نجيب أهل البيت وشجاعهم كما جاء في الخبر، وقد عاش جماعة من أحفاده في مصر وعرفوا بالفاطميين.

وممن استشهد في أيام الرشيد يحيى بن عبد الله بن الحسن المثنى صاحب الديلم، وقد تقدمت التفاصيل عن شهادته في كتابنا «المنتهى» ضمن الحديث عن أولاد الحسن عليه السلام.

ومنهم: محمد بن يحيى بن عبد الله الذي أخذه البكّار بن الزبير عامل الرشيد على المدينة ورماه في السجن، وبقي مسجوناً حتى وافته المنية.

ومنهم: الحسين بن عبد الله بن إسماعيل بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، الذي أخذه البكار بن الزبير أيضاً، وأمر بجلده بالسياط حتى مات.

ومنهم: العباس بن محمد بن عبد الله بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام، الذي قتله الرشيد، وذلك أنه لما دخل على الرشيد جرى بينهما كلام وأخذ وردّ، فقال له الرشيد: «يابن الفاعلة»، فقال له العباس: الفاعلة أمك، فأصلها من العبيد كانت تغدو وتروح إلى فراش أبيك، فاشتعل هارون غضباً، وأمر به فأدني منه، وأهوى عليه ضرباً بالهراوة حتى قتل.

ومنهم: إسحاق بن الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليهما السلام، الذي فارق الحياة في حبس هارون.

وممن استشهد من آل أبي طالب في أيام الرشيد سيّد آل أبي طالب الإمام موسى بن جعفر صلوات الله وسلامه عليه وعلى آبائه وأبنائه، وقد تقدمت تفاصيل شهادته في «المنتهى».

ومنهم: عبد الله بن الحسن بن علي بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام، المعروف بعبد الله الأفطس، وهو الذي ارتقى المئذنة بالمدينة عند خروج الحسين بن علي، شهيد فخ، وكان المؤذن يؤذن لصلاة الصبح، فأشهر عبد الله سيفه وأمر المؤذن بقول: «حيّ على خير العمل»، فلما رأى المؤذن السيف المشهور صاح: «حيّ على خير العمل»، فلما سمع العمري

والي المدينة ذلك أوجس شراً، فصاح: إليّ بالبغلة وبعض الزاد، ثم سارع إلى الفرار وهو يرتجف خوفاً حتى سمع منه خروج الريح، ولم يصدّق أنه نجا من فتنة العلويين، وتفاصيل هذه الواقعة تقدمت في «المنتهى».

وإجمالاً فقد شهد عبد الله الأفطس واقعة فخ، ونجا منها بروحه حتى أيام الرشيد، الذي أمر بإحضاره من المدينة، وأمر به فألقي في السجن، وبقي فيه حتى بعث ذات يوم برقعة إلى الرشيد ضمّنها من الكلام أقبحه ومن السباب أقذعه، فلما قرأها الرشيد قال: لقد ضاقت بهذا الشاب روحه وضجر من الحبس، وقد كتب إليّ بما كتب حتى آمر بقتله فيرتاح، وهذا ما لن أفعله.

ثم إنه أمر جعفر بن يحيى البرمكي بأن ينقله إليه ويوسّع محبسه، فلما وافى الغد، وكان يوم نوروز أمر جعفر بضرب عنق عبد الله، ثم أمر بغسله ووضعه في طبق، وغطّاه بمنديل، ثم بعث به إلى الرشيد مع هدايا أخرى، فلما رفعوا المنديل عن الرأس ورآه الرشيد بدا عليه عدم الاستحسان وقال لجعفر: ويحك، لم فعلت هذا؟ قال: لأنه شتم أمير المؤمنين وبادره بالفحش، قال: إن قتلك عبد الله دون إذن مني أعظم عندي من فحشه.

ثم أمر به فغسل وكفن ودفن، وأضمر الرشيد هذا الأمر في نفسه حتى حل يوم أمر فيه مسروراً (ياسراً ـ خ ل) جلاده بضرب عنق جعفر، وأمره أن يبلغه أن سبب قتله هو أنه قتل ابن عمّ الأمير دون إذن منه، فقام مسرور بضرب عنق جعفر بعد أن أبلغه رسالة الرشيد، وهكذا فبمقتل جعفر دالت دولة البرامكة، وكان هذا سبباً لقتل جعفر، غير أنه روي لذلك سبب آخر سيأتي تفصيله لاحقاً إن شاء الله تعالى.

وإجمالاً فقد قتل كثير من العلويين والطالبيين في زمان الرشيد ممن لم يرد تعيين أسمائهم.

وقد روى الشيخ الصدوق عليه الرحمة بسند معتبر عن عبد الله البزاز النيسابوري أنه قال: كانت بيني وبين حميد بن قحطبة الطوسي معاملة، فقدمت إليه في إحدى السنين، فلما سمع بمقدمي دعاني إليه في يوم وصولي

نفسه دون أن أجد فرصة لتبديل ملابس السفر، وكان الوقت وقت الزوال من شهر رمضان المبارك، فلما دخلت عليه رأيته وقد اتخذ بيتاً يجري نهر ماء خلاله، فلما سلّمت وجلست أحضروا إبريقاً وطشتاً فغسل يديه وأمرني بغسل يدي، ثم أعدّ خوان الطعام، وقد امّحى من خاطري أننا في شهر رمضان وأني صائم، فلما مددت يدي إلى الطعام تذكرت أني صائم فسحبت يدي، فقال حميد: لماذا لا تأكل؟ قلت: إنه شهر رمضان المبارك، وأنا لا أشكو مرضاً أو علّة توجب إفطاري، ولعل للأمير عذراً فيجوّز له إفطاره، فقال هذا الفاسد: وأنا لا أشكو علّة أيضاً، وبدني سليم! قال هذا وأجهش بالبكاء.

ولما فرغ من طعامه قلت: أيها الأمير، ما الذي أبكاك؟ قال: إن سبب بكائي أن هارون حين كان بطوس دعاني إليه في إحدى الليالي فلما دخلت عليه رأيت شمعاً عنده يحترق، وسيفاً مسلولاً من غمده، وخادماً يقف بين يديه. فلما رآني قال: ما مدى طاعتك لنا؟ قلت: روحي ومالي فداء لطاعة الأمير، فأطرق ساعة ثم رخص لي بالعودة، فما إن عُدت حتى أتاني رسوله يستدعيني إليه، فأحسست هذه المرة بالخوف وقلت: «إنا لله وإنا إليه راجعون».

قلت في نفسي: لعله كان عازماً على قتلي، فلما رآني خجل مني، وقد استدعاني الآن لإنفاذ ما عزم عليه! فلما دخلت عليه سألني: ما مدى طاعتك لنا؟ قلت: روحي ومالي وأبنائي وعيالي فداء لطاعة الأمير، فابتسم ورخص لي بالعودة.

فما إن دخلت بيتي حتى أتاني رسوله وأخذني إليه، فلما دخلت عليه كرر سؤاله السابق، فقلت: روحي ومالي وأبنائي وديني فداء لطاعة الأمير.

فلما سمع الرشيد جوابي ضحك وقال: إليك بهذا السيف، واعمل ما يأمرك به هذا الخادم، ثم إن الخادم ناولني السيف ومضى بي إلى بيت بابه مقفل، ففتح القفل ودخل بي إلى البيت، فلما دخلت رأيت بئراً قد حفرت في صحن البيت، ورأيت في أطراف الصحن ثلاث حجرات مقفلة.

فتح باب إحداها فرأيت فيها عشرين نفراً بين شيوخ وشباب وفتية تتدلى

الذوائب من رؤوسهم، وقد صفّدوا بالأغلال، وكانوا جميعهم من بني علي وفاطمة عليهما السلام.

قال الخادم: الخليفة يأمرك بضرب أعناقهم، ثم أخرجهم واحداً إثر الآخر، فوقفت عند طرف البئر وقمت بضرب أعناقهم حتى قتلوا جميعاً، فطرح رؤوسهم وأجسادهم في البئر.

ثم فتح حجرة أخرى، وكان فيها عشرون نفراً أيضاً من آل علي وفاطمة عليهما السلام وقد قيدوا بالأصفاد، قال الخادم: الخليفة يأمرك بقتلهم أيضاً، فقمت بضرب أعناقهم واحداً إثر الآخر، وقام هو بإلقاء رؤوسهم وأجسادهم في تلك البئر، حتى أتينا عليهم جميعاً.

ثم فتح باب الحجرة الثالثة، وقد حبس فيها عشرون نفراً كذلك من السادة العلويين والفاطميين، وقد قيدوا، وتدلت من رؤوسهم الذوائب، وكانت من علامات السيادة، قال الخادم: الخليفة يأمرك أيضاً بقتلهم، ثم أخرجهم واحداً فواحداً وقمت بضرب أعناقهم حتى قتلت منهم تسعة عشر فرداً، ولما أحضر آخرهم وكان رجلاً مسناً، قال الرجل: قطع الله يدك أيها اللعين، ماذا سيكون عذرك عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا سألك: لماذا قتلت ستين من أولادي ظلماً وجوراً؟ فلما سمعت كلامه عرتني رجفة وارتعاش شديدان.

اقترب الخادم مني وصرخ بي، فأنهيت قتل ذلك الرجل العلوي ورميت بجسده في البئر. فلما كنت قد قتلت ستين نفراً من أبناء رسول الله فما النفع الذي يعود به علي صومي وصلاتي؟ وأنا على يقين من أني سأخلد في جهنم.

وفي عهد الرشيد بلغ البرامكة أعظم النفوذ وفي سنة تسع وثمانين ومئة دالت دولتهم، ونزلت بهم نكبة العصر، ومن المناسب هنا أن نشير بإيجاز إلى زوال دولتهم، ففي تذكر أحوالهم عظة وعبرة للعارفين:

فإن فيهم عبرة فاعتبر يا ذا الحجى والعقل والفكر

مقتل جعفر البرمكيّ وانقضاء دولة البرامكة

كان خالد بن برمك رجلاً معروفاً بحصافة الرأي وشدة البأس، وبلغ في ذلك ما لم يبلغه أيّ من بنيه: لا يحيى في رأيه وتدبيره، ولا الفضل في جوده وعطائه، ولا جعفر بن يحيى في كتابته وبلاغته، ولا محمد بن يحيى في رأيه وهمّته، ولا موسى بن يحيى في جرأته وشجاعته.

ولما جاء دور الرشيد في تسلّم الخلافة بوّأ البرامكة مكانة رفيعة، فأوكل إليهم أمر الوزارة، وفوّض إلهم أمور المملكة والرعية، فغدت سلطتهم دون حد، واستقامت أمورهم حتى قيل: «إن أيامهم عروس، وسرور دائم لا يزول».

وحكاياتهم ونوادر سيرتهم في زمان الرشيد معروفة ومشهورة وأخبار عطاياهم حفلت بها الكتب، وقد أشار ابن خلّكان البرمكي إلى جملة من أحوالهم، واستمر أمرهم على هذا النحو حتى وافت سنة تسع وثمانين ومئة فتبدل طالعهم وأفل نجم سعدهم، وسبب[1] ذلك أن الرشيد كان يحب جعفر بن يحيى كثيراً، ويؤثره فلا يفارقه، وكان في الوقت نفسه يحب العباسة أخته أشد الحب، فلا يطيق فراقها، وكان كلما جلس إلى جعفر لم يهنأ له عيش بسبب مفارقته للعباسة، كما أنه كلما كان مع العباسة نغّص عليه سروره فراق جعفر، فلا غرو أنه عقد لجعفر على العباسة وأخذ عليه عهداً أن لا يخلو بها، وألا يجلس إليها إلا في محضره، وألا يتمتع بها، فاستنكر جعفر ذلك، غير أنه رضخ أخيراً وأقسم ألا يخلو بالعباسة.

وهكذا فقد زوج الرشيد أخته من جعفر، وحقق بذلك رغبته في جمعهما كليهما في مجلسه، وطاب بذلك عيشه.

كانت العباسة تميل إلى جعفر أشد الميل وترغب في وصاله، ولم تغنها الحيل في جعله ينزل عند رغبتها، فلم تلق منه سوى الصد، لكنها لم تيأس

---

(١) هذا السبب المذكور إنما هو بحسب الظاهر، أما السبب العمدة في قتلهم فهو الانتقام الإلهي منهم لما فعلوه بالإمام أبي الحسن موسى بن جعفر عليه السلام كما جاء في الرواية (منه ره).

ولجأت إلى التقرب من أم جعفر، وبذلت لها المال الكثير، كما أظهرت لها محبة لا توصف، حتى استمالتها إلى جانبها، وذات يوم تطرقت معها إلى الحديث عن وصل جعفر، وراحت تصوّر لها ـ فيما لو تمّ هذا الأمر ـ حسن العاقبة وما سيعود على البرامكة من شرف مصاهرة الرشيد، ودوام نفوذهم، إلى أمثال هذا الكلام، فما كان من أم جعفر ـ وهي الغافلة عن عاقبة هذا الأمر، والناقصة العقل ـ إلا أن خدعت بأقوال العباسة، ووعدتها بالعمل على تحقيق رغبتها.

ثم إنها دعت إليها جعفراً وقالت له: لقد رأيت جارية تمتلك نصيباً وافياً من كل صفات الكمال والحسن والجمال وأرغب في شرائها من أجلك، وراحت تعدّد له من محاسنها ما أثار ولهه، فطلبها من أمه، لكنها كانت تعده بها دون أن تنسى تكرار وصفها وتعريفها له، أما عن إحضارها إليه فكانت تماطله حتى بلغ به الشوق مبلغه، فلم تعد له طاقة على الاحتمال، وأصرّ على معرفة مكان الجارية، فوعدته بإحضارها إليه في ليلته، وبعثت إلى العباسة تدعوها إليهم.

فلما وافى الليل وغادر جعفر مجلسه عند الرشيد، قدم إلى بيته، وهناك رأى العباسة وما هي عليه من جمال وملبس فاخر فلم يتعرف عليها لما هو فيه من سكر، ثم إنه هرع إليها وواقعها، ولما فرغ منها قالت له: كيف رأيت حيلة بنات الملوك؟ لكنه لم يفهم ما رمت إليه مما دعاها إلى شرح الأمر له.

لما أدرك جعفر واقع الحال زايله سكره، وجزع أشد الجزع، وقال: لقد شريتني بثمن بخس وأوقعتني في طريق مرعب، فانظري الآن العاقبة، وانظري أين ستنتهي بنا الأمور.

ثم إن العباسة غادرته وهي منه حامل، ولما بلغت مدة الحمل نهايتها وضعت ولداً وخصصت له خادماً وقابلة أودعته لديهما، ولما خافت من ذيوع الأمر وبلوغه مسامع الرشيد أمرتهما بحمل الطفل إلى مكة والقيام برعايته هناك حذراً من الرشيد.

بقي هذا الأمر خافياً على الرشيد حتى جاء يوم أطلعته زبيدة عليه بسبب ضجرها من يحيى بن خالد نظراً لتشدده في أمورهن بعد أن فوّض الرشيد إليه

أمور حرمه، فكان يكثر من تفقدهن والحرص على إبقائهن وراء الحجب، ويتصرف معهن بغلظة، وكان يوصد أبواب الحرم في الليل بالأقفال ويحمل المفاتيح معه إلى بيته.

ولما بلغت حكاية جعفر والعباسة مسامع الرشيد اضطرب بعضه في بعضه وقال لزبيدة: ما هو دليلك والشاهد على ما قلت؟ قالت: وهل هناك دليل أفضل من ذلك الطفل الذي ولدته العباسة من جعفر؟ قال: أين هو؟ قالت: حملوه إلى مكة خوفاً منك، قال: وهل اطلع غيرك على الأمر؟ قالت: أجل، فجواري حرمك جميعاً يدرون به، كتم الرشيد هذا الأمر وقد عزم على التحقّق منه، فتذرع بالرغبة في الحج وسافر إلى مكة، وهناك تأكد له بعد التقصي صحة الأمر، فصحّ مذ ذاك عزمه على تقويض دولة البرامكة وإزالتها من الوجود.

ثم قفل راجعاً إلى بغداد، ولبث هناك ريثما انتقل إلى الأنبار، وفي اليوم الذي عزم على قتل جعفر، بعث في طلب السندي بن شاهك وأمره بأن يصير إلى بغداد فيحيط بدور البرامكة ومكاتبهم، وأمره ألا يطلع أحداً على الأمر سوى من يعتمد عليهم، ثم توجه الرشيد مع جعفر إلى الموضع المعروف بالقمر في الأنبار، وانقضى ذلك اليوم على أتم ما يكون من كمال العيش والعشرة حتى استأذن جعفر الرشيد بالانصراف إلى بيته، فشيّعه الرشيد وقفل راجعاً، ولما بلغ جعفر منزله أمر مغنيه بالعزف والغناء، وكان لما يزل في حالة السكر، فأنشد المغني يقول:

ما تريد الناس منّا ... ما تنام الناس عنّا
إنما همتهم أن ... يظهروا ما قد دفنّا

ومن الجانب الآخر فإن الرشيد بعد تشييعه جعفراً استدعى ياسراً (مسروراً ـ خ ل) وقال له: إني مرسلك في عمل ليس ابناي محمد وقاسم أهلاً له وأنت أهل له إلا أن تخالفني، قال ياسر (مسرور ـ خ ل): أيها الأمير، إنني عند أمركم على استعداد لو أمرتم أن أغمد هذا السيف في بطني حتى يخرج من ظهري لأطعتكم، فالعين رهن حكمكم والأذن رهن أمركم،

فمرُوا بما شئتم، قال: أتعرف جعفر البرمكي؟ فأجابه بأن جعفراً شخص لا يجهله أحد، نعم أنا أعرفه، فما الأمر؟ قال: تذهب إليه ـ وفي أي حال وجدته ـ فتضرب عنقه وتأتيني برأسه. ارتجف ياسر (مسرور ـ خ ل) ولزم الصمت. قال الرشيد: ألم تقل لي: إني لن أخالف أمرك! قال ياسر: هو ذاك، لكن هذا الأمر عظيم الخطر، وكنت أفضل لو متّ قبل أن يوكل إليّ، قال الرشيد: دع عنك هذا الكلام وبادر إلى امتثال الأمر.

ذهب ياسر إلى جعفر فوجده مشغولاً باللهو والطرب، فنقل إليه أمر الرشيد، قال جعفر: كثيراً ما يواجهني الرشيد بأمثال هذه الأمور من باب المزاح، فلعل الأمر الآن كذلك، قال: لا والله، بل هو العقل والجدّ لا الهزل، كما أنه لم يشرب خمراً حتى أقول: إنه كان سكران وقال ما قاله بتأثير سكره.

قال جعفر: إن لي عليك حقوقاً، فأعطني بالمقابل مهلة لهذه الليلة وقل للرشيد: إني قتلت جعفراً، فإذا وافى الصباح وندم على قتلي كان الأمر في محلّه، وإلا فعليك بامتثال أمره. قال: لا أقدر على ذلك، قال: فخذني إلى الرشيد إذاً وراجعه مرة أخرى في قتلي، فإذا أمرك ثانية بقتلي فافعل، قال: لا عيب في هذا.

ثم إن ياسراً وجعفراً قصدا خيمة الرشيد فدخل ياسر عليه وقال له: لقد أحضرت جعفراً، قال الرشيد: خذ رأسه حالاً وإلا قتلتك، ذهب ياسر إلى جعفر وقال: أسمعت الأمر بقتلك؟ قال أجل، ثم إنه أخرج منديلاً صغيراً عصب به عينيه، ومدّ عنقه، فضرب ياسر عنقه وذهب برأسه إلى الرشيد، فلما رأى الرشيد الرأس شرع يلومه ويذكره بمآخذه، ثم قال له: اذهب وأحضر فلاناً وفلاناً، فلما حضروا قال الرشيد لهم: اضربوا عنق ياسر[1] فإني لا أطيق النظر إلى قاتل جعفر!.

---

(١) أعتقد أن الصحيح هو مسرور وليس ياسراً، فياسر كان خادماً للمأمون فعيّنه في خدمة الإمام الرضا عليه السلام، وبقي حيّاً إلى ما بعد شهادة الرضا عليه السلام، وعنه نقل علي بن إبراهيم القمي أخبار الرضا عليه السلام (منه ره).

وكانت واقعة مقتل جعفر سنة تسع وثمانين ومئة، وقد بلغ من العمر خمساً وأربعين سنة، وبمقتله دالت دولة البرامكة.

وسجن الرشيد يحيى بن خالد والفضل بن يحيى، وفي سنة تسعين ومئة توفي يحيى في سجنه فجأة، كما توفي الفضل في الحبس أيضاً سنة ثلاث وتسعين ومئة، هذا وإن الحديث عن سوء طالعهم ونكبة العصر التي نزلت بهم حديث طويل، والمقام لا يتسع لأكثر من هذا.

ونقل عن محمد بن عبد الرحمان الهاشمي أنه قال: في يوم من أيام عيد الأضحى دخلت على والدتي فرأيت عندها امرأة بملابس رثة وهما تتحدثان، قالت أمي: أتعرف هذه المرأة؟ قلت: لا، قالت: إنها عبادة أم جعفر البرمكي، فالتفتّ إليها وحدّثتها وأنا أعجب من حالها، ثم سألتها قائلاً: ما الذي رأيته من عجائب الدنيا يا أماه؟ قالت: يا بني، لقد مرّ بي يوم عيد كهذا اليوم، وكانت أربعمئة جارية يقفن في خدمتي، وكنت لا أفتأ أقول: إن ولدي جعفر لم يؤدّ لي حقي، إذ ينبغي أن يكون خدمي وجواريّ أكثر. واليوم وهو يوم عيد كذلك، يمر بي وغاية آمالي أن يكون عندي جلدان من جلود الخراف أجعل أحدهما فراشاً لي، وأجعل من الآخر لحافاً.

قال محمد: فأعطيتها خمسمئة درهم فأسعدها ذلك لأنها كانت قد بلغت غاية الإدقاع، وراحت عبادة تتردد إليّ بين حين وآخر حتى وافتها المنية. وهذه الحكاية وحدها تكفي دليلاً على غدر الدنيا.

وإجمالاً فقد امتدت دولة البرامكة سبعة عشر عاماً وسبعة شهور وخمسة عشر يوماً، وقد أشار كثير من الشعراء إلى غدر الزمان بالبرامكة ومنهم علي بن أبي معاذ الذي يقول في قصيدة له في هذا الصدد:

يا أيها المغتر بالدهر ... والدهر ذو صرف وذو غدر
لا تأمن الدهر وصولاته ... وكن من الدهر على حذر
إن كنت ذا جهل بتصريفه ... فانظر إلى المصلوب بالجسر

(القصيدة)

وطالما أتينا على ذكر البرامكة فقد رأيت من المناسب أن أشير إلى حال ابن خلّكان البرمكي: فليعلم أن أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر بن خلّكان الأربلّي المؤرخ المشهور صاحب التاريخ المعروف بـ «وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان» هو من أحفاد يحيى البرمكي، وإليه ينتهي نسبه، ووجه تسمية جده بخلّكان «بفتح الخاء وتشديد اللام المكسورة» هو أنه كان يوماً يفتخر على أقرانه بأمجاد البرامكة فقيل له:

خلّ كان جدي كذا نسبي كذا وهكذا

أي: دع عنك الفخر بجدك ونسبك، وتغنّ بذكر مفاخرك وقل:

إن الفتى من يقول ها أنا ذا ليس الفتى من يقول كان أبي

كان ابن خلكان أشعري الأصول شافعي الفروع، وكان في منتهى التعصب والنصب، وقد توقف في مصر وشغل فيها منصب القضاء. وقد ألّف هناك كتاباً في التاريخ في حدود سنة أربع وخمسين وستمئة، وتوفي بدمشق في السادس والعشرين من رجب سنة إحدى وثمانين وستمئة، ودفن في سفح جبل قاسيون، وقد ألّف كتاب «وفيات الأعيان» بإتقان، وضمّنه تراجم مشاهير التابعين ومن جاء بعدهم حتى زمانه، ولم يأت على ذكر الصحابة، وقد نقلنا الكثير عنه في رسالتنا هذه، وقد وضع صلاح الدين الصفدي ـ شارح لاميّة العجم ـ تذييلاً للوفيات وسماه: «الوافي بالوفيات»، وقد أدرج فيه أحوال أمير المؤمنين عليه السلام بالتفصيل، والله العالم.

خلافة أبي موسى محمد الأمين بن هارون
وكيفية مقتله

في اليوم الذي توفي فيه الرشيد بطوس ـ وكان يوم السبت الواقع فيه الثالث من جمادى الأولى سنة ثلاث وتسعين ومئة ـ أخذت البيعة لابنه محمد الأمين، وكان محمد إذ ذاك في بغداد فلا غرو أن رسولاً حمل إليه في ذلك اليوم وعلى وجه السرعة خاتم الخلافة وقضيب رسول الله وبردته اللذين قيل إنهما كانا عند الرشيد.

وما إن حلّ يوم منتصف الشهر المذكور في بغداد حتى بايع أهلها الأمين بالخلافة، وأم محمد هي زبيدة[1] بنت جعفر بن أبي جعفر المنصور، وكانت

(١) قال القاضي نور الله في أحد مجالسه: كانت زبيدة شيعية فدائية، كما أن الشيخ الأجلّ عبد الجليل الرازي أورد في كتاب «النقض» أنه لما وقف الرشيد على غلوّ زبيدة بالتشيع أقسم أن يطلقها بكلمتين لا أكثر فكتب على ورقة: «كنتِ فبنتِ»، أي كنت على ما كنت عليه فأصبحت بائنة (طالقاً) ثم بعث بالورقة إلى زبيدة، وزبيدة من فرط محبتها للمرتضى والزهراء عليهما السلام، كتبت على ظهر ورقته: «كنّا فأحمدنا، وبنّا وما ندمنا»، أي كنا على ما كنا عليه فشكرنا وحمدنا على ذلك، وبنّا فلسنا على البينونة نادمين.

وروي نقلاً عن «حبيب السير» أن تبريز بنتها السيدة زبيدة، ثم تعرضت لزلزال فخربت. فجدد المتوكل عمارتها (انتهى).

وجاء في «فردوس التواريخ» أن زبيدة غادرت بغداد لمرض كانت تشكو منه وقدمت إلى تبريز رغبة في تغيير الماء والهواء، ولما دفع الله عنها ما بها في هذ البلد وسمي البلد (تب ريز) ومضى على ذلك مدة، كتب إليها الرشيد كتاباً يستدعيها إلى بغداد، فكتبت في الجواب:

«لخلخلة الجميد في الكوز الجديد خير من ابغداد وهارون الرشيد» (منه ر.)

سيدة نساء بني العباس ولها آثار معروفة منها بناء تبريز أو إعمارها وتجديدها، وأمرها بحفر الآبار والعيون في طريق مكة.

كان محمد الأمين يصغر أخاه المأمون بستّة شهور، وكان الرشيد أيام خلافته قد جعل الأمين وليّاً لعهده، وأخذ البيعة له من الناس، ثم من بعده للمأمون، وبعد مضي ثماني عشرة ليلة على تولّي الأمين للحكم انصرف إلى خلع المأمون من ولاية العهد وإسنادها إلى ابنه موسى الناطق، فشاور الأمراء والوزراء في ذلك فلم يوافقوه الرأي إلا علي بن عيسى بن هامان.

بعث الأمين بعلي بن عيسى على رأس جيش كبير إلى خراسان لعزل المأمون فلما اقترب مع جيشه من الري لقيه الطاهر بن الحسين من جانب المأمون على رأس أربعة آلاف فارس، ونظراً لأن عليّاً جانب الحذر والحيطة اغتراراً بجيشه الكبير فقد ظفر عليه الطاهر فقتل، وألقي جسده في بئر، وكتب الطاهر إلى المأمون إشعاراً بما وقع، فسرّ المأمون كثيراً.

ثم إن المأمون خلع أخاه الأمين من الخلافة، وبعث بالطاهر بن الحسين مع هرثمة بن أعين إلى بغداد لخلع الأمين، ولما وصلاها بجيشهما فرضا عليها الحصار، ودارت معارك كثيرة بين جيشي الأمين والمأمون، ونصبت مجانيق كثيرة في أطراف بغداد وهدمت الدور وأحرقت، وأصيبت بغداد وأموال أهلها بأفدح الخسائر، وانتشر اللصوص فيها بكثرة فنهبوا أموال الناس وأشياءهم، وارتفعت أسعار الحاجيات وعمّ الغلاء، وسدّت سبل الاختيار أمام الناس.

كانت هذه الواقعة سنة ست وتسعين ومئة واستمرت على هذه الحال أربعة عشر شهراً حتى بلغ الضيق بأهل بغدد مبلغه، وشرع الناس بهجر بغداد بحجة الذهاب إلى الحج، وكثر القتلى في جيش المأمون بينما أصبح وضع الأمين صعباً حين فارقه أكثر أصحابه وتركوه وحيداً، وقد كاتب الطاهر وجوه بغداد وأعيانها يحثهم على قتل الأمين، وبذل لهم في ذلك الكثير من الذهب والفضة، وقد أجابه كثير منهم بأنهم خلعوا الأمين ونفضوا منه أيديهم.

وإجمالاً فقد مال ميزان القوة إلى جانب الطاهر، وضاق الأمر بالأمين أكثر، وسدت أمامه السبل حتى بلغ الأمر به وبمن بقي معه من أصحابه حدّ الهلاك جوعاً وعطشاً، فلا غرو أنه كتب إلى هرثمة يطلب منه الأمان والقبول بوفوده إليه، فقبل هرثمة ووعده بالخير إذا قدم إليه.

ودع الأمين ولديه موسى وعبد الله، وراح يقبلهما ويشمهما وهو يبكي، ثم امتطى جواداً وغادر بغداد من باب خراسان إلى المشرعة حيث ركب حرّاقة[1]، ولقيه هرثمة فقبل ما بين عينيه، وبقيا معاً في الحرّاقة، لكن الطاهر بعث بجماعة من (الهرويّة) مع عدد من الملاحين للقبض على الأمين. فقدم أولئك إلى الحراقة سباحة وغاصوا تحت الحراقة وقلبوها، فوقع أهل الحراقة في الماء، أما هرثمة فقد استطاع بطريقة ما الوصول إلى أحد الزوارق والتحق بجنده، وأما الأمين فقد خلع ملابسه كي لا تعيقه عن الحركة وخرج من الماء سباحة، غير أنه اتفق أن جند الديراني غلام الطاهر كانوا في البقعة التي خرج منها، فأمسكوا به بعد أن تعرفوا عليه من رائحة الطيب الذي يستعمله، وأخذوه إلى الطاهر. وقبل وصوله إليه ـ وكان الطاهر قد علم بنبأ القبض عليه ـ أمر بقتله في الطريق، فقتل وهو يصيح:

«إنّا لله وإنا إليه راجعون، أنا ابن عم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأخو المأمون» فعاجله العديد منهم بسيوفهم فأردوه، ثم جزوا رأسه وبعثوا به إلى الطاهر، فلما وضع الرأس أمامه قال: ﴿ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ﴾ (الآية)، ثم بعث بالرأس إلى المأمون في خراسان. وكان مقتل الأمين ليلة الأحد في الخامس والعشرين من المحرم سنة ثمان وتسعين ومئة.

وقد نقلت طريقة أخرى لكيفية مقتل الأمين كما روي نقلاً عن أحمد بن

(١) الحراقة بالفتح والتشديد: ضرب من المراكب تقذف النفط المشتعل بواسطة جهاز القذف النفط (صراح اللغة).

سلام مفادها أنه كان مع الأمين في الحراقة عند انقلابها، فسبح أحمد وأخرج نفسه من الماء فأمسك به أحد أعوان الطاهر وأراد قتله، فوعده بألفي درهم على أن يعطيه إياها من ليلته تلك، قال أحمد فتجاوز الرجل عن قتلي واحتجزني في حجرة مظلمة، وكنت في تلك الحجرة عندما أحضروا رجلاً عرياناً من الثياب إلا من سراويل وعمة، وكانت على كتفه خرقة، فحبسوه في الحجرة أيضاً، وأحاط الحراس بالحجرة للحؤول دون هربنا.

ولما استقر المقام بالرجل نزع العمة عن رأسه ووجهه، فنظرت إليه فإذا هو محمد الأمين، فبكيت واسترجعت ببطء، رآني الأمين فقال: من أنت؟ قلت: أحد غلمانك يا سيدي، قال: أيّهم؟ قلت: أحمد بن سلام، قال: يا أحمد، قلت: لبيك يا سيدي، قال: ادن مني وضمني إلى صدرك فإني أحس في نفسي رهبة شديدة، فدنوت منه وضممته فشعرت بقلبه يخفق باضطراب وشدة. ثم قال: قل لي: هل أخي المأمون على قيد الحياة؟ قلت: لو لم يكن كذلك فلم هذا القتال والعراك؟ قال: قيل لي إنه مات، قلت: قبّح الله وجه وزرائك الذين أوصلوك إلى هذا الموضع، قال: ليس الوقت وقت عتاب، والذنب ليس ذنبهم، قلت: لو رميت عنك هذه الخرقة، قال: من كانت حاله كحالي فهذه الخرقة أيضاً كثيرة عليه.

ثم قال: يا أحمد، لا شك عندي في أنهم آخذيّ إلى أخي المأمون، فهل تراه قاتلي؟ قلت: لا، فصلة الرحم ستعطف قلبه عليك، فقال: هيهات! الملك عقيم لا رحم له. قلت: إن أمان هرثمة لك سيكون أماناً من أخيك، وكنت أستغفر الله له وألقنه ذكر الله حين فتح باب الحجرة فجأة ودخل مسلّح نظر إلى وجه محمد ثم خرج بعد أن أقفل الباب.

عرفت إذ ذاك أن القوم عزموا على قتل محمد، وانصرفت إلى أداء صلاة الليل فأتيت بها عدا صلاة الوتر، وخفت إن لم أؤدها أن يقتلوني معه فتفوتني صلاة الوتر، فأسرعت بالوقوف للصلاة، فقال محمد: ادن مني وصلِّ فإنني أستشعر وحشة ممضّة، ولم يمض وقت طويل حتى قدم جماعة من

الأعاجم وقد أشرعوا سيوفهم يريدون قتل محمد، فلما رأى هذا قفز واقفاً وقال: «إنا لله وإنا إليه راجعون. ذهبت نفسي والله في سبيل الله، أما من حيلة، أما من مغيث».

اقترب القوم حتى باب الحجرة وكل منهم يقول للآخر: هيّا ادن منه وأنجز أمره، تناول محمد وسادة بيده وقال: «أنا ابن عم رسول الله، أنا ابن هارون الرشيد، أنا أخو المأمون، الله الله في دمي».

فتقدم أحد غلمان الطاهر وأهوى بضربة على مقدّم رأس محمد، فرفع محمد الوسادة أمام وجهه وحاول نزع السيف من المهاجم الذي صرخ بالفارسية: قتلني محمد! تقاطرت المجموعة نحو محمد وضربه أحدهم بالسيف على خاصرته، فوقع محمد على وجهه فسارعوا إلى قطع رأسه، وذهبوا به إلى الطاهر.

أقول: إن غرضي من إيراد رواية أحمد بن سلام أمر واحد، وهو أن أبيّن للاحقين كيف كان السابقون يواظبون على صلاة الليل والنوافل الليلة، فهذا الرجل مع ما يبدو من أنه كان أحد غلمان محمد الأمين، ولم يكن زاهداً أو عابداً، وفي حين كان محبوساً يائساً من حياته نراه شديد الاهتمام بالتهجد، ويخشى أن يقتل فتفوته صلاة الوتر، إنها لموعظة عظيمة لأهل الغيرة على المذهب الجعفري.

وإجمالاً فبعد أن حملوا رأس الأمين إلى الطاهر بعث به إلى المأمون في خراسان. فلما وافوه به أمر بنصبه في صحن الدار على خشبة، ثم طلب جنود جيشه وراح يوزع عليهم عطاياه، وكان كلما كافأ أحدهم يأمره بأن يلعن الرأس أولاً ثم يأخذ أعطيته وشرع الناس يلعنون رأس الأمين ويتسلمون أعطياتهم، حتى إذا تقدم أحد الأعاجم ليأخذ أعطيته طُلب منه أن يلعن الرأس فقال: لعن الله هذا ولعن والديه وأدخلهم في كذا وكذا من أمهاتهم.

ثم إن المأمون أمر بإنزال الرأس عن الخشبة فأنزلوه وعطّروه، وبعث به إلى بغداد ليدفن مع جثته.

كانت سن الأمين ثلاثاً وثلاثين سنة وثلاثة عشر يوماً، وكانت مدة حكمه حتى يوم مقتله ما يقرب من خمس سنوات، وكان يقضي أيامه باللهو واللعب واللذة والطرب حتى ابتلي بالحصار والحروب مع جيش المأمون. لهذا فلم يتعرّض لآل أبي طالب بسوء، ولم تقع للطالبيين أي حادثة في أيامه، وكان الباعث على قتله وزوال ملكه كثرة إقباله على اللذات واشتغاله باللهو والمجون وآلات الطرب وأمثال ذلك، الأمر الذي أشار إليه بعض الشعراء بهذين البيتين:

إذا غدا ملك باللهو مشتغلاً   فاحكم على ملكه بالويل والحرب
أما ترى الشمس في الميزان هابطة   لمّا غدا، وهو برج اللهو واللعب

وفي أوائل خلافة الأمين، وبعد ثماني عشرة ليلة من موت الرشيد توفي أبو بكر بن عياش بعد أن بلغ من العمر ثمانياً وتسعين سنة، وفي سنة سبع وتسعين ومئة، أو تسع وتسعين ومئة على قول توفي بالرقة عبد الملك بن صالح بن علي ابن عم السفاح، وكان أفصح بني العباس في عصره.

خلافة أبي العباس عبد الله بن هارون

الملقب بالمأمون وقصة أبي السرايا

منذ خلع عبد الله المأمون محمداً الأمين من الخلافة، ووجه جيشه إلى حرب الأمين وما جرى من محاصرته له بايع أهل خراسان المأمون ونادوا بخلافته مع سائر البلدان والأمصار التي استولى عليها الطاهر بن الحسين، وصاروا يدعون باسمه على المنابر، وبعد أن تم قتل الأمين نادى أهل بغداد كافة بخلافته حتى قيل: إن المأمون كان نجم بني العباس. وكان له قسط وافر من المعرفة بعلم النجوم والحكمة، كما كان شديد الميل إلى علم الفلسفة فكان يعقد باستمرار مجالس المناظرة والمقالات، كانت أمه جارية اسمها مراحل، وكان يظهر التشيّع، ومن ندمائه يحيى بن أكثم الخراساني، وكان يحيى من قبل يمارس القضاء بالبصرة، وقيل باشتغاله باللواط حتى أفسد فتيان البصرة فضاق به أهلها وشكوه إلى المأمون فعزله عن القضاء. وقد قيل فيه:

يا ليت يحيى لم يلده أكثمه ... ولم تطأ أرض العراق قدمه
ألوط قاض في العراق نعلمه ... أي دواة لم يلقه قدمه
وأيّ شعب لم يلجه أرقمه[1]

(١) حكي أن رجلاً دخل على يحيى وقال: أيّد الله القاضي، هذا ابني أسألك أن تحجر عليه لأنه سفيه شارب الخمر تارك الصلاة، فأنكر الابن ذلك، فقال الأب: أصلح الله القاضي، هل تكون صلاة بلا قراءة؟ فاسأله أن يقرأ شيئاً من القرآن، فسأله فقال:

علق القلب ربابا ... بعد ما شب وشابا =

ولما عُزل يحيى عن القضاء بالبصرة صار إلى المأمون، فجعله المأمون نديماً له، ورفع من شأنه، وذكر أن المأمون قال يوماً ليحيى: أي أبا محمد، من القائل:

قاض يرى الحد في الزناء ولا يرى على من يلوط من باس

قال: قائل هذا البيت هو ابن أبي نعيم، وهو القائل أيضاً:

أميرنا يرتشي وحاكمنا يلوط، والرأس شرّ ما راس
قاض يرى الحد في الزناء، ولا يرى على من يلوط من باس
ما أحسب الجور ينقضي وعلى الأمة والٍ من آل عباس[1]

فطأطأ المأمون ساعة خجلاً وأمر بنفي ابن أبي نعيم الشاعر، فنفي إلى السند.

= إنّ حكم الله حق لا أرى فيه ارتيابا

فقال الأب: هذه الآية تعلمها أمس، فإن قرأ آية غيرها فلا تحجر عليه، فقال يحيى: قبحكما الله من أب وابن! وحجر عليهما (منه ره).

(١) ويشبه هذا السؤال والجواب ما روي عن معاوية بن أبي سفيان أنه لما مرض مرض موته واشتدت علته، وحصل اليأس منه دخل عليه بعض أولاد أمير المؤمنين يعوده فوجده قد استند جالساً يتجلّد له لئلا يتشفّى به، فضعف عن القعود فاضطجع وأنشد:

بتجلدي للشامتين أريهم أني لريب الدهر لا أتضعضع

فأجابه العلوي:

وإذا المنية أنشبت أظفارها ألفيت كل تميمة لا تنفع

فعجب الحاضرون من جوابه، وهذان البيتان من جملة قصيدة طويلة لأبي ذؤيب خويلد بن خالد الهذلي يرثي بها بنيه، وكان قد هلك له خمس بنين في عام واحد أصابهم الطاعون.

وقريب من هذا ما يحكى عن معاوية بن أبي سفيان أيضاً أنه كان يوماً في مجلس حفل بأهل الشام، وكان عنده عقيل بن أبي طالب، فقال معاوية: أتعرفون أبا لهب الذي أنزل الله في حقه: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ من هو؟ فقال أهل الشام: لا، فقال معاوية: هو عمّ هذا، وأشار إلى عقيل، فقال عقيل في الحال: أتعرفون امرأته التي قال الله تعالى في حقها: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ * فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ﴾ من هي؟ فقالوا: لا، قال: هي عمة هذا، وأشار إلى معاوية، وكانت عمته أم جميل بنت حرب بن أمية زوجة أبي لهب، فكان ذلك من الأجوبة المسكتة، ولها نظائر كثيرة (منه ره).

وإجمالاً فيحيى كان معروفاً بكثرة لواطه ومتجاهراً به، وروي أن المأمون كان أمر أن يلازمه أربعمئة فتى أمرد صبيح الوجه من أجل لذته وحظّه، فيسيرون في ركابه، أما هذا القاضي العديم الحياء فقد مزّق حجاب الخجل والحياء وكان ينشد اللذة في صحبتهم وقضاء وطره منهم، فلا غرو أن جماعة من شعراء العصر قالوا فيه الأهاجي ومن جملتهم راشد بن إسحاق الذي قال يهجوه بقصيدة منها هذان البيتان، وفيهما إشارة لى أولئك المرد الذين كانوا يلازمونه:

يقودهم إلى الهيجاء قاض ... شديد الطعن بالرمح الرديني
يغادرهم إلى الأذقان صرعى ... وكلّهم جريح الخصيتين

كما نظم راشد أيضاً في هجائه:

وكنا نرجّى أن نرى العدل ظاهراً ... فأعقبنا بعد الرجاء قنوط
متى تصلح الدنيا ويصلح أهلها ... وقاضي قضاة المسلمين يلوط

ويقول السيوطي في كتاب «الرياض النضرة في أحاديث الماء والخضرة» نقلاً عن «تاريخ بخارى» إنه يروي عن محمد بن سليمان اليماني أنه قال:

كان المأمون جالساً ذات يوم مع يحيى، وكان العباس ولد المأمون أيضاً حاضراً في ذلك المجلس، وكان العباس في غاية الوسامة والجمال، وكان يحيى لا يرفع عينيه عن وجه الفتى، يستشعر اللذة بالنظر إليه، ولما رأى القاضي أن عمله هذا غير لائق، ولكنه من طرف آخر عاجز لا يستطيع مداراة نفسه في مقام الفتية المرد، لا غرو أنه من باب الاعتذار أتى بحديث موضوع وقال موجهاً كلامه للمأمون:

أخبرني عبد الرزاق عن معمّر عن أيوب عن نافع عن ابن عمر أنه حدّث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن النظر إلى الوجه الجميل يجلو العين، ولما كنتُ أشكو الضعف في عينيّ رجوت بالنظر إلى وجه عباس الجميل أن أجلوهما، فغضب المأمون وقال: خف الله يا يحيى! فهذا الحديث افتراء على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فالنبي لم يقل حديثاً كهذا قط.

يقول المؤلف: لو أردنا كتابة ما نقل عن يحيى في باب اللواط لخرجنا عن موضوع الرسالة، كما أن العمر العزيز أشرف من أن يصرف في الحديث عن هذه الأمور.

فعن «الجعفريات» مسنداً عن أمير المؤمنين عليه السلام قال:

«أحمق الناس من حشا كتابه بالترهات، إنما كانت الحكماء والعلماء والأتقياء والأبرار يكتبون بثلاثة ليس معهن رابع: من أحسن لله سريرته أحسن الله علانيته، ومن أصلح فيما بينه وبين الله تعالى أصلح الله فيما بينه وبين الناس، ومن كانت الآخرة همّه كفاه الله همّه من الدنيا».

أما هذا المقدار الذي نقلناه في باب يحيى فيلفت النظر فيه بيان أن العاقل اللبيب يعلم أن القاضي إذا مزّق حجاب الحياء والخجل ولم يستحي من الله تعالى فالحق تعالى لا بد يفضحه، وهو ـ حتى زماننا هذا وقد مضى ما ينوف عن مئة وألف عام ـ ما يزال يُذكر بالسوء ودون خجل في التصانيف وعلى ألسنة الناس، علاوة على الإضرار بنشأة الغير، وهناك مثل معروف بين العوام:

لطف الإله من المداراة اتضح لكنه إن جاوز الحد فضح

فعلى كل امرىء أن يراجع نفسه، وعليه إذا ابتلي بمعصية أن لا يصل إلى حدّ الافتضاح، وخصوصاً افتضاح يوم القيامة «نعوذ بالله من خزي يوم الحشر» وذلك بأن يرجع عن معصيته، وهذا باب واسع لأهل التفكر، كما أنك في الحديث عن أحوال يحيى تعرف أحوال المأمون كذلك، فإذا عرفت حال امرىء عرفت حال جليسه ونديمه، وإجمالاً فنحن في هذه الرسالة لم نهدف إلى كتابة التاريخ، بل إن تاريخ الخلفاء هو عنوان لمقصدنا وهو ألا يخفى عن أهل العلم والتمييز ذكر الفوائد المهمة، والله المؤيد.

هذا وقد امتد حكم المأمون ما يقرب من إحدى وعشرين سنة، وكانت بداية حكمه سنة ست وتسعين ومئة، وفي سنة ثمان وتسعين ومئة خلع أخاه القاسم بن الرشيد من ولاية العهد، وفي السنة نفسها توفي بمكة سفيان بن

عيينة، كما توفي ببغداد في السنة نفسها أيضاً ـ وفق تاريخ ابن خلّكان ـ الحسن بن هانىء المعروف بأبي نواس الشاعر، وكان له من الشعر نصيب عظيم، غير أن أكثر أشعاره كانت في الزخارف الباطلة، وإنما قيل له أبو نواس (بضم النون) لذؤابتين كانتا تنوسان على عاتقيه، وهو غير أبي نواس الثاني الملقب بأبي نواس الحق، كما عن «مجالس الشيخ» أن الإمام علي بن محمد النقي عليهما السلام قال لأبي السرى سهل بن يعقوب بن إسحاق الملقب هو أيضاً بأبي نواس لكثرة ما كان يتخالع ويطائب مع الناس توطئة لإظهار تشيعه على الطيبة:

«يا أبا السرى أنت أبو نواس الحق، ومن تقدمك أبو نواس الباطل»

ولأبي نواس أشعار رائقة منها في مدح علي بن موسى الرضا عليه السلام:

مطهرون نقيات ثيابهمُ ... تتلى الصلاة عليهم أينما ذكروا
من لم يكن علوياً حين تنسبه ... فماله من قديم الدهر مفتخر
والله لما برى خلقاً فأتقنه ... صفاكم واصطفاكم أيها البشر
فأنتم الملأ الأعلى وعندكمُ ... علم الكتاب وما جاءت به السور

وحكي عن المأمون أنه قال: لو وَصفت الدنيا نفسها لما وصفت بمثل قول أبي نواس:

ألا كلّ حيّ هالك وابن هالك ... وذو نسب في العالمين عريق
إذا امتحن الدنيا لبيب تكشّفت ... له عن عدو في ثياب صديق

ونقل أنه لما حان أجل أبي نواس قال له عيسى بن موسى الهاشمي: إنك في اليوم الأخير من أيام الدنيا وفي اليوم الأول من الآخرة، ومعاصيك وزلاتك كثيرة، فتب حتى يغفر الله لك، قال أبو نواس: ارفعوني وأجلسوني، فلما أجلسوه قال: تخوّفني بالعذاب الإلهي وقد حدّثني حمّاد بن سلمة عن ثابت البناني عن أنس بن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «لكل نبي شفاعة، وأنا ادّخرت شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي في يوم القيامة» أتظن أني لست منهم؟.

يقول المؤلف: حسن الظن بالله ممدوح خصوصاً عند الموت، وقد روي: «**حسنوا الظن بالله**»، وورد أن الحق تعالى قال: «**أنا عند ظن عبدي، فليظن بي ما يشاء**». وأبو نواس كان حسن الظن، وما أحسن ظنه بربه حيث يقول:

تكثّر ما استطعت من الخطايا   فإنك بالغ رباً غفورا
ستبصر إن وردت عليه عفواً   وتلقى سيداً ملكاً كريما
تعضّ ندامة كفيك مما   تركت مخافة النار السرورا

ولكن لا يخفى أن حسن الظن والرجاء يكون ممدوحاً ما دام مقترناً بالخوف والخشية فلم يبلغ درجة الأمن من مكر الله، أي أن لا يقعد ابن آدم آمناً من العذاب الإلهي والامتحانات الربانية، غافلاً عن عظمة ذي الجلال وجلاله. وأن يفعل ما يشاء بعنوان أن عندي رجاء بالله وحسن ظن به، فلا شك أن هذا ليس رجاء بل هو غرور وحماقة توجب الخسران، ولقد أحسن من قال: «ما اشتار العسل من اختار الكسل»:

ما فاز من ذخيرة المسار   من لا يعاني ألم العثار

روي أن شخصاً قال للإمام الصادق عليه السلام: إن قوماً من محبيك يعملون بالمعاصي ويقولون: نرجو، فقال عليه السلام: «هؤلاء قوم يترجحون في الأماني، كذبوا ليسوا براجين، إن من رجا شيئاً طلبه، ومن خاف شيئاً هرب منه».

لا شك أنه كلما كانت معرفة العبد بعظمة الخالق وجلاله أكثر، وبعيوبه أبصر، كانت خشيته من الله أكبر، ومن هنا فقد نسب الحق تعالى الخوف والخشية إلى العلماء فقال: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟﴾.

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما مؤداه: إني أكثر الناس خوفاً من الله تعالى، ولما قيل له: ما أسرع ما غزاك الشيب، قال: «شيبتني سورة هود والواقعة والمرسلات وعمّ يتساءلون».

ولئن لم نشهد فقد سمعنا حكايات خوف الأنبياء والمقربين، وغشيات

أمير المؤمنين، وتضرع ومناجيات سيد الساجدين صلوات الله علهيم أجمعين.

روي عن صديق لأبي نواس قال: بعد موت أبي نواس جزعت عليه كثيراً لمعاصيه الكثيرة، والعذاب الإلهي الذي ينتظره، إلى أن رأيته في المنام بهيئة حسنة، فسألته: ما الذي فعله الله بك؟ قال: لقد غفر لي بسبب أبيات قلتها، قلت: أيّ أبيات؟ قال: عند أمي. وفي الصباح ذهبت إلى أمه وحكيت لها ما جرى، وطلبت الأبيات منها، فأحضرت المرأة رقعة بخط أبي نواس فيها هذه الأبيات:

يا ربّ إن عظمت ذنوبي كثرة ... فلقد علمت بأن فضلك أعظم
إن كان لا يدعوك إلا محسن ... فمن الذي يدعو ويرجو المجرم
أدعوك رب كما أردت تضرعاً ... فإذا رددت يدي فمن ذا يرحم
مالي إليك شفاعة إلا الذي ... أرجوه من عفوٍ وأني مسلم
يا من عليه توكلي وكفايتي ... اغفر لي الزلات إني آثم

يا إلهي العفوّ الغفار، اغفر لهذا العاصي المذنب الآثم، إلهي يا من لا يقبل عندك إلا ولاية ومحبة أمير المؤمنين وشفيع المذنبين، ومودة أهل بيته الطاهرين سلام الله عليهم أجمعين.

مواهب الله عندي جاوزت أملي ... وليس يبلغها قولي ولا عملي
لكنّ أشرفها عندي وأفضلها ... ولايتي لأمير المؤمنين علي

«اللهم أمتنا على ولايتهم ومحبتهم، واحشرنا معهم وتحت لوائهم».

وفي أيام المأمون، في سنة تسع وتسعين ومئة كان خروج أبي السرايا.

خروج أبي السرايا

ومقتل بعض الطالبيين في أيام المأمون

أبو السرايا اسمه سري بن منصور الشيباني، كان رجلاً شجاعاً قوي القلب بصيراً في أمور الحرب، خرج بالكوفة سنة تسع وتسعين ومئة ودعا الناس إلى بيعة محمد بن إبراهيم بن إسماعيل طباطبا، ابن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليهما السلام. وكان خروجه بسبب أنه لقي محمداً في طريق الحجاز، وكان يدعو الناس إلى بيعته، فوعده بالنصرة، وفي العاشر من جمادى الأولى سنة تسع وتسعين ومئة أظهر نفسه بالكوفة.

ولما حل يوم الموعد خرج محمد بن إبراهيم بالكوفة ومعه علي بن عبد الله (عبيد الله - خ ل) بن الحسين بن علي بن الحسين عليهما السلام، ودخل أهل الكوفة في بيعته كما الجراد، والتفوا حوله، وكان أبو السرايا ومواليه: أبو السيؤول وبشار وأبو الهرماس يحثون الناس خارج الكوفة على نصرة أهل البيت والطلب بثأر شهدائهم، وفي اليوم الموعود قدم الكوفة مع من اجتمع إليه من الناس.

ثم إن محمد بن إبراهيم رقي المنبر وخطب الناس فدعاهم إلى بيعته، وعاهدهم على العمل بينهم بشريعة الكتاب والسنة، وعلى أن لا يدع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فأخذ جميع أهل الكوفة بيعته على عواتقهم، وبكامل رغبتهم.

يروي أبو الفرج عن جابر الجعفي أن الإمام الباقر عليه السلام كان قد أخبر بخروج محمد بن إبراهيم طباطبا إذ قال: في سنة تسع وتسعين ومئة سيخطب على منبر الكوفة رجل منّا أهل البيت، يباهي الله تعالى به الملائكة.

وفي الإجمال فبعد أن استولى محمد على الكوفة أوفد رسولاً إلى الفضل بن العباس بن عيسى بن موسى يدعوه إلى بيعته ويسأله المعونة، غير أن الفضل لم يجب دعوته. ولما كان عاجزاً عن مقاومة محمد غادر المدينة واتخذ لنفسه سكناً خارجها، وأمر بحفر خندق حول بيوته وبيوت أصحابه، كما أمر مواليه بالقيام على حراسته بكامل أسلحتهم.

ولما بلغ هذا الخبر محمداً بعث بأبي السرايا لقتاله، وأمره ألا يبدأه بقتال، بل أن يدعوه إلى بيعته.

خرج أبو السرايا مع جمع غفير إلى الفضل بن العباس وابتدأه بدعوته إلى بيعة محمد لكنهم تمردوا عن البيعة، لا بل إن الفضل أمر جنده بإمطار جند أبي السرايا بالنبال، فراحوا يرشقونهم بالنبال من وراء سور حتى قتل واحد منهم، ولما بلغ ذلك محمداً أجاز لأصحابه القتال.

شن جند أبي السرايا هجومهم فقتلوا جماعة من جند الفضل الذين انسحبوا إلى داخل السور، فأغار المهاجمون على ما وجدوه من أموال. وفرّ الفضل بن العباس منهزماً نحو بغداد، ودخل على الحسن بن سهل يشكو إليه ما فعله أبو السرايا، فبعث الحسن زهير بن المسيّب على رأس فرقة من الجيش لقتال أبي السرايا، ولما بلغ جيش البغداديين الكوفة شرعوا ينادون دون خجل: يا أهل الكوفة، زينوا نساءكم وبناتكم من أجلنا، فسنقتل في هذه اللحظة رجالكم، ونفجر بنسائكم وبناتكم.

أما على الجانب الآخر فكان أبو السرايا يهتف بجنده: أيها الناس، اذكروا الله وتوبوا إليه واستغفروه، واسألوه النصرة، وتبرأوا من حولكم وقوّتكم، واقرأوا القرآن، ولا تفروا من الحرب، فلكل أجل كتاب، وإن الفرار من العدو لا يؤخره:

مـن لـم يـمـت عـبـطـةً[1] يـمـت هـربـاً الـمـوت كـأس والـمـرء ذائـقـهـا

وكان مصافّ الحرب بجانب الفرات، وكان أبو السرايا قد أعدّ كميناً، وحمل على جيش زهير من الجانب المقابل للكمين الذي اندفع خارجاً، وأبو السرايا يحثّ جنده على القتال، وأبلى هو بلاءً حسناً، وفي غلواء القتال تمكن مولاه بشّار من قتل حامل راية زهير، فهوت الراية إلى الأرض، وفر البغداديون وتعقبهم الكوفيون حتى قرية شاهي، وأبو السرايا ينادي في المنهزمين: من ترجل عن فرسه فهو آمن، فكان جنده يمتطون الخيول التي يتخلى عنها فرسانها، ويتابعون مطاردتهم حى تجاوزوا شاهي.

وأخيراً التمس زهير من أبي السرايا أن يكف عن مطاردتهم، فليس من هزيمة أشد مما نزل بهم، فأمر أبو السرايا جنده بالكف عن المطاردة والانصراف إلى جمع الغنائم. غنم الكوفيون الكثير من خيول البغداديين وأسلحتهم، ثم انقلبوا إلى معسكر زهير فاستولوا على كل ما وجدوه فيه، وأكلوا أطعمتهم بعد أن كان الجوع قد أخذ منهم مأخذه، ثم حملوا الغنائم والرؤوس المقطوعة إلى الكوفة.

أما من الجانب الآخر فقد توجه زهير نحو بغداد، وتوارى فيها عن الأنظار خوفاً من الحسن بن سهل، لكن الحسن استدعاه ورماه بقضيب من الحديد كان في يده فأصاب إحدى عينيه فاقتلعها، ثم امر بضرب عنقه، لكن شفاعة بعضهم به جعلته يعفو عنه، وقد شمل الغمّ والأسى الحسن بن سهل وسائر العباسيين.

ثم إن الحسن استدعى عبدوس بن عبد الصمد وبعث به على رأس ألف من الفرسان وثلاثة آلاف من المشاة لقتال أبي السرايا، وأمره أن يتجنب في مسيره إليه الطريق التي انهزم فيها زهير، لئلا يرى جنده قتلى جيش زهير فيخافوا ويجبنوا.

---

(١) عبطة، بالعين المهملة ثم الموحدة ثم الطاء المهملة، يقال: مات عبطة: أي ثباتاً صحيحاً. (ق) (منه ره).

طوى عبدوس الطريق حتى بلغ الكوفة، فلما علم أبو السرايا بمقدمه قسم جيشه إلى ثلاث فرق جعلها تكمن لعبدوس، ثم أحاط بجيش عبدوس دفعة واحدة، وجرت بين الفريقين معركة عظيمة هرب من هولها جماعة من جند عبدوس نحو الفرات فقضوا غرقاً، ولقي أبو السرايا عبدوساً فقضى عليه بضربة على رأسه.

وكان الفوز من نصيب جيش أبي السريا الذي راح يطارد جيش عبدوس المنهزم، ثم عادوا إلى الكوفة يحملون غنائمهم.

في هذا الوقت دخل أبو السرايا على محمد بن إبراهيم فوجده في طور الاحتضار، فأوصاه محمد بالتقوى والنهي عن المنكر، ونصرة ذرية النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وترك أمر وصيه ومن يحل محله إلى اختيار الناس، فمن ارتضوه من بني علي عليه السلام كان القائم مقامه، وفي حال اختلافهم حلّ محله علي بن عبد الله بن الحسين بن علي بن الحسين عليهما السلام. قال هذا وأسلم الروح.

أخفى أبو السرايا موته عن الناس إلى الليل حيث جهز جنازته وحمله مع جماعة من الزيدية إلى «الغري» وهناك أودعه ثراه، ولما طلع النهار جمع الناس وأعلنهم بموت محمد، فارتفعت أصواتهم بالبكاء لفقده.

إذ ذاك قال أبو السرايا؛ إن محمداً قد أوصى واختار لكم شبهه أبا الحسن علي بن عبد الله، فإن ارتضيتموه فهو أميركم وإلا فالخيار لكم. فتداول الناس الأمر فيما بينهم لكنهم أمسكوا عن الإجابة إلا محمد بن محمد بن زيد بن علي بن الحسين عليهما السلام، وكان شاباً حديث السن، فقد نهض واقفاً وقال كلاماً، ثم توجه نحو علي بن عبد الله وقال: نحن بك راضون فمدّ يدك نبايعك، لكن علياً لم يرض ببيعتهم وقال لمحمد: لقد فوّضتك رئاسة هؤلاء القوم، ثم قال لأبي السرايا: ماذا ترى في هذا الأمر قال: رضاي رضاك. ثم أخذوا يد محمد فبايعوه.

وبعد أن استكمل محمد بيعة الناس انصرف إلى تفريق عماله في البلدان

والأمصار، وكان منهم إبراهيم بن موسى بن جعفر عليهما السلام حيث بعث به إلى اليمن، وعيّن زيد بن موسى بن جعفر عليهما السلام والياً على الأهواز، والعباس بن محمد بن عيسى بن محمد بن علي بن عبد الله بن جعفر والياً على البصرة، والحسن بن الحسن الأفطس والياً على مكة، وجعفر بن محمد بن زيد بن علي مع الحسن بن إبراهيم بن الحسن بن علي على ولاية واسط.

وهكذا تفرق العمال على البلدان سنة تسع وتسعين ومئة، وقصد ابن الأفطس مكة دون مزاحم وتسنّم إمارة أهلها، أما إبراهيم بن موسى فبعد أن وصل إلى اليمن لقي معارضة يسيرة دخل أهل اليمن بعدها في طاعته، وأما جعفر والحسن فقد وردا واسطاً فخرج أميرها نصر البجلي إلى قتالهما، فقاتلاه حتى أنزلا به الهزيمة، واستوليا على واسط.

وأما العباس بن محمد الذي توجه إلى البصرة فقد تعاون مع علي بن جعفر وزيد بن موسى بن جعفر على قتال الحسن بن علي المأموني والي البصرة فهزموه واستولوا على عسكره، وقام زيد بن موسى بإحراق دور بني العباس التي كانوا قد بنوها في البصرة، ولهذا فقد لقب بزيد النار، وهو الذي بعث به إلى المأمون بعد مقتل أبي السرايا، فعفا عنه المأمون بشفاعة الإمام الرضا عليه السلام وبقي حياً إلى أيام المنتصر بالله.

وكانت أفعال زيد ثقيلة على الإمام الرضا عليه السلام فوبخه وعنّفه، وفي رواية أنه عليه السلام أقسم أن لا يكلمه ما دام حياً، وقد أوردنا في «المنتهى» نبذة عن أحواله.

وإجمالاً فقد راحت الرسائل تتقاطر على محمد بن محمد بن زيد من الأطراف والأكناف تحمل إليه أنباء الفتوحات، وقد كتب إليه أهل الجزيرة يقولون: إنهم يضعون رؤوسهم قيد طاعته ويسألونه إيفاد رسول من قبله يأخذ البيعة له، ويوماً إثر يوم راح شأن أبي السرايا، يعلو الأمر الذي أقض مضجع الحسن بن سهل الذي توسّل بالطاهر بن الحسين في سبيل ضدّ أبي السرايا، لكن الطاهر لم يستجب له.

إذ ذاك كتب الحسن كتاباً إلى هرثمة بن أعين يسأله المدد، وبعث بكتابه مع السندي بن شاهك الذي وفد على هرثمة في (حلوان) وسلمه كتاب الحسن، لكن هرثمة لم يقدم، ويشاء القدر أن يصل إلى هرثمة في ذلك الوقت كتاب من المنصور بن المهدي يأمره فيه بأن يكفيه أمر أبي السرايا، فلا غرو أنه توجه بجيشه إلى بغداد التي خرج أهلها لاستقباله فرحين بقدومه.

عرض الحسن بن سهل جيشه وأمواله على هرثمة يختار منها ما أراد، فاختار هرثمة جيشاً من البغداديين، وتوجه على رأس ثلاثين ألفاً إلى الكوفة. وكان أبو السرايا في ذلك الوقت بالكوفة في موضع معروف بقصر الضرتين، وكان قد بعث بمحمد بن إسماعيل بن محمد بن عبد الله الأرقط بن علي بن الحسين مع العباس الطبطبي والمسيب على رأس جيش عظيم إلى المدائن، وفي ساباط المدائن التقى محمد بن إسماعيل مع الحسين بن علي المعروف بأبي البط، ودار بينهما قتال شديد هزم أبو البط على أثره، واستولى محمد بن إسماعيل على المدائن، ودان له أهلها؛ وبقي فيها إلى أن بعث الحسن بن سهل بجماعة لقتاله بقيادة علي بن أبي سعيد وحمّاد التركي، فقاتلاه حتى أنزلا به الهزيمة. وكان ذلك في الوقت الذي خرج فيه محمد بن جعفر عليه السلام.

خروج محمد بن الإمام جعفر الصادق عليه السلام

ومـآل أعمالـه

الوقت الذي خرج فيه أبو السرايا واكبه خروج محمد ابن الإمام الصادق عليه السلام بالمدينة ودعوته الناس إلى بيعته، وبايعه أهل المدينة بإمارة المؤمنين. وقال بعضهم: إن محمداً في أول أمره دعا الناس إلى بيعة محمد بن إبراهيم طباطبا، فلما مات محمد دعا الناس إلى نفسه. ومحمد بن جعفر كان يلقب بالديباج لحسنه وجماله وبهائه وكماله، وكان رجلاً سخياً شجاعاً قوي القلب عابداً، وكان طيلة حياته يصوم يوماً ويفطر يوماً، وكان إذا خرج من بيته لا يعود إليه إلا بثياب ممزقة تخفي بالكاد عريه، وكان يذبح كل يوم خروفاً لضيفانه.

توجه محمد نحو مكة يصحبه جماعة من الطالبيين من جملتهم الحسين بن الحسن الأفطس، ومحمد بن سليمان بن داود بن الحسن المثنى، ومحمد بن الحسن المعروف بالسليق، وعلي بن الحسين بن عيسى بن زيد، وعلي بن الحسين بن زيد، وعلي بن جعفر بن محمد، واشتبكوا بقتال عنيف مع هارون بن المسيب وكبدوا جيشه الكثير من القتلى. فتوقفوا عن القتال، وطلب هارون بن المسيب من الإمام الرضا عليه السلام أن يبعث بكتاب إلى محمد بن جعفر يدعوه إلى الصلح والسلام، ففعل، لكن محمداً رفض الصلح وراح يتهيأ للقتال، عند ذلك بعث هارون بجيش لمحاصرة محمد وأنصاره من الطالبيين في ذلك الجبل حيث اتخذوا منزلاً لهم، ودام الحصار ثلاثة أيام حتى نفد الماء والطعام من المحاصرين، وبدأ أصحاب محمد ينفضّون عنه

ويتفرقون، فاضطر محمد إلى لبس رداء ونعلين وتوجه إلى خيمة هارون بن المسيب، يطلب منه الأمان لأصحابه، فاستجاب هارون له، وفي رواية أخرى جاء ذكر عيسى الجلودي بدلاً من هارون.

وإجمالاً فقد تمّ تقييد الطالبيين بالأغلال وبعث بهم إلى خراسان على مطايا دون وطاء، ولما بلغوا خراسان بادر المأمون إلى تكريم محمد بن جعفر ومنحه العطاء، وبقي محمد ملازماً للمأمون حتى توفي، وخرج المأمون في تشييعه وحمل جنازته حتى القبر فصلى عليه وأضجعه في لحده. ثم بقي واقفاً حتى تم دفنه.

قال بعضهم يخاطب المأمون: أيها الأمير، لقد غلب عليك التعب اليوم، وحبذا لو ركبت مطية إلى البيت، فقال: إنها الرحم وقد مضى على قطعها مئتا سنة. ثم إنه سدد ديون محمد التي بلغت ما يقرب من ثلاثين ألف دينار، وفي «عود على بدء» نعود إلى الحديث عن هرثمة وأبي السرايا:

لمّا أعدّ هرثمة عدّته لحرب أبي السرايا غادر بغداد بجيش عظيم بلغ تعداده ثلاثين ألف مقاتل، وتوجه نحو الكوفة. ومن الجانب الآخر كان أبو السرايا يستعد للحرب كذلك، والتقى الجمعان ودارت بينهما معركة شديدة قتل فيها أخو أبي السرايا، الذي تراجع يعيد ترتيب صفوفه.

ثم إنه خرج ثانية لقتال هرثمة، وعنف بينهما القتال، وجرت هذه الواقعة في يوم الاثنين التاسع من ذي القعدة، وقد قتل فيها عدد كبير من جند هرثمة، وقتل من جيش أبي السرايا غلامه روح بن الحجاج، والحسن بن الحسين بن زيد بن علي بن الحسين عليهما السلام، واشتد أوار القتال، وكان أبو السرايا قد كشف رأسه وراح ينادي في جنده: أيها الناس، أسألكم ساعة واحدة من الصبر والثبات، وستراتاحون بعدها، فقد قربت هزيمة هرثمة. قال هذا وانقض على جيش هرثمة كالأسد الهصور، فأبلى بلاءً حسناً، وأظهر من الشجاعة والبطولة الكثير.

وأخيراً فقد قتل قائد جيش هرثمة واضطرب جنده وتلقوا هزيمة منكرة،

فلجأوا إلى الهرب والكوفيون في أعقابهم، وأبو السرايا يصرخ في جنده: إياكم أن تدعوا الاحتياط والحذر فالأعاجم ذوو مكر وحيلة، فاحذروا كرّهم بعد فرّهم، واحذروا أن ينصبوا لكم كميناً فيوقعوا بكم، غير أن الكوفيين لم يستمعوا إليه وهم في غمرة اندفاعهم خلف الهاربين.

ويشاء القدر أن هرثمة كان قد أعدّ في مؤخرة جيشه كميناً من خمسة آلاف مقاتل، حتى إذا دارت الدائرة عليهم بادروا إلى نصرتهم وأوقفوا زحف الكوفيين، وفي الوقت الذي خرج أولئك من مكمنهم عاد المنهزمون من جيشه أدراجهم. وأحاط الجميع بالكوفيين، وأنقذوا هرثمة الذي كان قد وقع أسيراً إبان المعركة، وشددوا حملتهم على جيش أبي السرايا فقتلوا العديد من جنده.

استمر الأمر على تلك الحال. فيوم لأبي السرايا ويوم لهرثمة، إلى أن صاح هرثمة يوماً بالناس قائلاً: يا أهل الكوفة، لماذا تقاتلوننا فتلقوا بأنفسكم إلى التهلكة وتريقوا دماءنا؟ إن كنتم تكرهوننا فادخلوا في أماننا حتى نبايع جميعنا المنصور بن المهدي، وإن كنتم تريدون نزع الملك من بني العباس فلنتوقف، حتى إذا حل يوم الاثنين اجتمعنا جميعاً وتداولنا بشأننا، فمن وقع عليه اختيارنا بايعناه.

لما سمع أهل الكوفة مقالته مالوا إلى الرضا بها وتوقفوا عن القتال، لكن أبا السرايا صاح بهم محذراً: يا أهل الكوفة، إنها حيلة من أولئك الأعاجم لجأوا إليها لما غلبوا على أمرهم، فلا عجب أنهم توسّلوا نجاتهم بهذه الحيلة، فلا يكن لهذا الكلام وقع لديكم، وواصلوا حملتكم فإن بشائر الفتح قد لاحت. قال أهل الكوفة: الآن لا يحل لنا قتالهم، لن نستمر في حربهم.

غضب أبو السرايا واضطر أن يتوقف عن القتال، ولما حلّ يوم الجمعة ارتقى المنبر وألقى خطبة بيّن فيها غدر الكوفيين وخذلانهم، فبعد أن حمد الله وسلم على رسوله قال فيما قال:

«يا أهل الكوفة، يا قتلة علي عليه السلام ويا خذلة الحسين عليه السلام، إن المغتر بكم لمغرور، وإن المعتمد على نصركم لمخذول، وإن الذليل لمن

أعززتموه.. إلى أن قال: هيهات، لا عذر لكم إلا العجز والمهانة، والرضا بالصغار والذلة، إنما أنتم كفيء، الظل تهزمكم الطبول بأصواتها، ويملأ قلوبكم الخرق بسوادها، أما والله لأستبدلنّ بكم قوماً يعرفون الله حق معرفته، ويحفظون محمداً صلى الله عليه وآله وسلم في عترته. ثم قال:

ومـا رسـت أقـطـار الـبـلاد فـلـم أجـد ... لـكـم شـبـهـاً فـي مـا وطـئـت مـن الأرض
خـلافـاً وجـهـلاً وانـتـشـار عـزيـمـة ... ووهـنـاً وعـجـزاً في الشدائد والخفض
لـقـد سـبـقـت فـيـكـم إلى الحشر دعوة ... فـلا فـيـكـمُ راضٍ ولا فـيـكـمُ مـرضـي
سـأبـعـد داري عـن قـلـىً مـن ديـاركـم ... فـذوقـوا إذا ولـيـت عـاقـبـة الـنـقـض

لما سمع أهل الكوفة كلماته هذه أخذتهم الحمية فوقف جماعة منهم وقالوا: مدّ يدك لنبايعك ونفديك بأرواحنا، فوالله لن نميل عن القتال حتى نفوز بالفتح، لكن أبا السرايا لم يلتفت إلى كلامهم، وأخذ بيد محمد بن محمد بن زيد مع جماعة من العلويين وقوم من الكوفيين وخرجوا من الكوفة ليلة الأحد الثالثة عشرة من المحرم إلى القادسيّة، وبقي هناك ثلاثة أيام ريثما يستريح أصحابه، ثم توجه نحو البصرة.

ومن الجانب الآخر فإن أشراف الكوفة دخلوا على هرثمة وطلبوا منه الأمان لأهل الكوفة فأمّنهم، ودخل المنصور بن المهدي الكوفة فأخذ البيعة من أهلها، ثم إن هرثمة بقي هناك بعض الوقت حتى سكنت الفتنة واطمأن إلى عودة السلطة خالصة للمنصور بن المهدي، ثم توجه إلى بغداد.

أمّا أبو السرايا فلما اقترب من البصرة لقي أعرابياً من أهل البلد فسأله عن أحوال البصرة فقال: إن العباسيين غلبوا على البصرة وأخرجوا محمد بن إسماعيل عامل محمد بن محمد بن زيد منها، فعطف أبو السرايا عنان جواده نحو واسط، فقال له الرجل: لقد جرى على واسط ما جرى على البصرة، قال: إلى أين الذهاب إذاً؟ قال: أرى المصلحة في ذهابك إلى (جوخى)[1]

---

(١) جوخى كسكرى: قرية من أعمال واسط (منه ره).

والجبل، حيث تأخذ البيعة من الناس هناك وتجمع إليك جيشاً من الأكراد تقاتل بهم المسوّدة.

قبل أبو السرايا مشورة الرجل وتوجه نحو الجبل، وكان كلما بلغ قرية أخذ خراجها وباع غلاتها وتزود بالزاد حتى بلغ الأهواز ومن هناك إلى (سوس)، فخرج الحسين بن علي المأموني لقتاله، فقاتله حتى أنزل به الهزيمة، ثم أخذ أبو السرايا طريقه إلى خراسان في مسير متواصل حتى بلغ بِرقان[1]، وكان فيها محمد (حماد ـ خ ل) الكندي، فخرج للقاء أبي السرايا وأعطاه الأمان حتى يبعث به إلى الحسن بن سهل ببغداد.

فلما أدخل محمد على الحسن التمس منه الأمان، فقال له: لا علاج سوى قطع رأسك! فنصحه بعضهم بأن لا يفعل دون إذن المأمون، وذكّروه بما جرى على جعفر البرمكي إذ قتل عبد الله الأفطس من دون إذن الرشيد فكان جزاؤه انتقام الرشيد منه، وحين بعث بمسرور لقتله أمره أن يقول لجعفر بأن قتله له جرّاء قتله ابن عم الأمير دون سبب، وقالوا: نخشى إن قتلت محمداً أن يفعل المأمون بك ما فعله أبوه بجعفر. والأفضل أن تبعث به إلى المأمون، فقبل الحسن النصيحة وكفّ عن قتله.

ولما أدخلوا أبا السرايا عليه سأله الحسن: من أنت؟ قال: سري بن منصور، قال: بل أنت النذل ابن النذل والمخذول ابن المخذول! ثم أمر هارون بن أبي خالد بقطع رأسه مقابل قتل أخيه عبدوس، ففعل، ثم علقوا رأسه في الجانب الشرقي وجسده في الجانب الغربي، وبعده قطعوا رأس غلامه أبي الشوك ثم صلبوه كذلك، وبعثوا بمحمد بن محمد إلى المأمون بخراسان، فأمر المأمون بتخصيص دار لسكنه، وبقي في مرو أربعين يوماً إلى أن سقوه شراباً مسموماً فتت كبده.

---

(١) بِرقان بالكسر: قرية في خوارزم، وقرية بجرجان (منه ره).

ومحمد أمه فاطمة بنت علي بن جعفر بن إسحاق بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب.

جاء في «عمدة الطالب»: توفي محمد بن إبراهيم فجأة، فنصب أبو السرايا مكانه محمد بن محمد بن زيد، ولقبه المؤيد، فندب الحسن بن سهل إليه هرثمة بن أعين فحاربه وأسره، وحمله إلى الحسن بن سهل، فحمله الحسن إلى المأمون بمرو، فتعجب المأمون من صغر سنه وقال: كيف رأيت صنع الله بابن عمك؟ فقال محمد بن محمد بن زيد:

رأيت أمين الله في العفو والحلم وكان يسيراً عنده أعظم الجرم

وتوفي محمد بن محمد بن زيد بمرو، سقاه المأمون السم سنة اثنتين ومئتين وهو ابن عشرين سنة، ويقال: إنه كان ينظر إلى كبده يخرج من حلقه قطعاً فيلقيه في طست، ويقلّبه بخلال في يده.

هذا وقد قتل من الطالبيين في أيام المأمون غير محمد بن محمد بن زيد بضعة نفر آخرين وصلت إلينا أخبارهم، منهم:

الحسن بن الحسن (الحسين - خ ل) بن زيد بن علي بن الحسين عليه السلام، الذي قتل في واقعة أبي السرايا مع جيش هرثمة، كما تقدم.

ومنهم: الحسين بن إسحاق بن الحسين بن زيد بن علي بن الحسين عليه السلام الذي خرج من الكوفة مع أبي السرايا، وقتل في وقعة (سوس).

ومنهم: محمد بن الحسين بن الحسن بن علي بن علي بن الحسين عليه السلام، الذي قتل في أيام أبي السرايا باليمن.

ومنهم: علي بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن جعفر بن علي بن أبي طالب عليه السلام، وقتل باليمن أيضاً في أيام أبي السرايا.

ومنهم: عبد الله بن جعفر بن إبراهيم بن جعفر بن الحسن المثنى الذي خرج بفارس في أيام المأمون، فقتله جماعة من الخوارج في الطريق.

ومنهم: محمد بن عبد الله بن الحسن بن علي بن الحسين عليه السلام، وهو ابن الأفطس الذي قتل أبوه في أيام الرشيد على يدي جعفر البرمكي، وقد قتل مسموماً على يدي المعتصم أخي المأمون.

ومن المقتولين من آل أبي طالب سيّدهم الإمام علي بن موسى الرضا صلوات الله عليه، الذي استشهد في أيام المأمون بسمّ أعطوه له، وقد جاء شرح لشهادته في كتاب «المنتهى».

وفي سنة مئتين من الهجرة أمر المأمون بإحصاء بني العباس، فجرى تسجيلهم وبلغ تعدادهم ثلاثة وثلاثين ألفاً.

وفي تلك السنة أيضاً ندب المأمون الرجاء بن أبي الضحاك وياسراً خادمه إلى المدينة لإحضار الإمام الرضا عليه السلام إلى مرو، فأحضر إليها مكرّماً، وقد أوردنا ترجمة الرجاء بن أبي الضحاك المتضمنة لسيرة الإمام الرضا عليه السلام في «المنتهى»، ولما بلغ عليه السلام مرو بادر المأمون إلى تكريمه وتبجيله، وجمع أولياءه وخاصته وقال: أيها السادة. لقد عجمت آل العباس وآل علي فلم أجد أحداً أفضل وأحق بالخلافة من علي بن موسى عليه السلام، ثم التفت إلى الإمام الرضا عليه السلام وقال: إني قد رأيت أن أعزل نفسي عن الخلافة وأجعلها لك وأبايعك، فقال له الرضا عليه السلام:

إن كانت هذه الخلافة لك، والله جعلها لك، فلا يجوز لك أن تخلع لباساً ألبسك الله وتجعله لغيرك، وإن كانت الخلافة ليست لك فلا يجوز لك أن تجعل لي ما ليس لك.

فقال له المأمون: يابن رسول الله، لا بد لك من قبول هذا الأمر، فقال: **لست أفعل ذلك طائعاً أبداً.**

فما زال يجهد به أياماً حتى يئس من قبوله، فقال له: فإن لم تقبل الخلافة ولم تحب مبايعتي لك فكن ولي عهدي، وتكون لك الخلافة بعدي، فقال الرضا عليه السلام:

والله لقد حدثني أبي عن آبائه عن أمير المؤمنين عليهم السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أني أخرج من الدنيا قبلك مسموماً مقتولاً بالسم مظلوماً، تبكي عليّ ملائكة السماء وملائكة الأرض، وأدفن في أرض غربة إلى جنب هارون الرشيد.

فبكى المأمون، ثم قال له: يابن رسول الله، ومن الذي يقتلك أو يقدر على الإساءة إليك وأنا حيّ؟ فقال الرضا عليه السلام: أما إني لو أشاء أن أقول لقلت من الذي يقتلني، فقال المأمون: يابن رسول الله، إنما تريد بقولك هذا التخفيف عن نفسك، ودفع هذا الأمر عنك، ليقول الناس إنك زاهد في الدنيا.

فقال الرضا عليه السلام: والله ما كذبت منذ خلقني ربي عزّ وجلّ، وما زهدت بالدنيا للدنيا، وإني لأعلم ما تريد، فقال المأمون: وما أريد؟ قال: تريد بذلك أن يقول الناس: إن علي بن موسى الرضا عليهما السلام لم يزهد في الدنيا، بل زهدت الدنيا فيه، ألا ترون كيف قبل ولاية العهد طمعاً في الخلافة؟.

فغضب المأمون ثم قال: إنك تتلقاني أبداً بما أكرهه وقد أمنت سطوتي، فبالله أقسم لئن قبلت ولاية العهد وإلا أجبرتك على ذلك، فإن فعلت وإلا ضربت عنقك!.

فقال الرضا عليه السلام: قد نهاني الله تعالى أن ألقي بنفسي إلى التهلكة، فإن كان الأمر على هذا فافعل ما بدا لك، وأنا أقبل ذلك على أني لا أولي أحداً ولا أعزل أحداً، ولا أنقض رسماً ولا سنة، وأكون في الأمر من بعيد مشيراً، فرضي منه بذلك.

ثم إنه عليه السلام رفع يديه نحو السماء وقال: إلهي، إنك لتعلم أنهم أكرهوني على هذا الأمر، وألجأتني الضرورة إلى القبول به، فلا تؤاخذني على ذلك يا رب كما لم تؤاخذ عبديك ونبييك يوسف ودانيال حينما قبلا الولاية من سلطان زمانهما، إلهي.. لا عهد إلاّ عهدك، ولا ولاية إلا إليك، فوفقني إلى إقامة دينك، وإحياء سنّة نبيّك، فإنك نعم المولى ونعم النصير، ثم قبل ولاية عهد المأمون على كراهة منه بذلك.

وفي اليوم التالي وكان اليوم السادس من شهر رمضان المبارك (كما هو ظاهر من تاريخ شرعية الشيخ المفيد) دعا المأمون إلى إقامة مجلس كبير، فوضع مقعد للرضا عليه السلام إلى جانب مقعد المأمون، وطرحت عليه وسادتان كبيرتان، وقد اجتمع في المجلس جميع الأكابر والسادات والأشراف والعلماء، وأمر المأمون ابنه العباس بأن يكون أول من يبايع الإمام الرضا عليه السلام ثم تبعه في ذلك سائر الناس.

ثم وزّعت بدر الذهب على الناس، ووقف الخطباء والشعراء يخطبون وينشدون القصائد الغرّ في مديحه عليه السلام، وأمر بالخطبة له على المنابر، وضربت الدنانير والدراهم باسمه، وأنفق المأمون في ذلك أموالاً كثيرة.

وفي تلك السنة خطب باسمه بالمدينة على منبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقيل في الدعاء له: ولي عهد المسلمين علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام:

ستــــة آبـــاؤهـــم مـــن هـــمُ   هـم خير من يشرب صوب الغمام

كما أمر المأمون بترك لبس السواد بدعة بني العباس، وأن يستبدل به لبس الأخضر، وزوّج الإمام عليه السلام ابنته أم حبيبة، كما خطب ابنته الأخرى، أم الفضل من الإمام محمد التقي عليه السلام. وزوج إسحاق بن موسى ابنة عمه إسحاق بن جعفر. وفي تلك السنة وبأمر من المأمون حج في الناس إبراهيم بن موسى أخو الإمام الرضا عليه السلام.

وجاء في جملة من الروايات أنه لما أصبح الرضا عليه السلام ولياً للعهد راح الشعراء ينشدون في مدحه القصائد الغرّ، وكان المأمون يصلهم بأموال جمة، دون أبي نواس الشاعر فإنه لم يقصده ولم يمدحه، فعاتبه المأمون في ذلك قائلاً له: يا أبا نواس، لماذا أخرت مدح الرضا وأنت شيعي المذهب تميل إلى أهل البيت، كما أنك شاعر زمانك وفريد دهرك؟ فأنشد وما أجمل ما أنشد:

قيل لي أنت أوحد الناس طرّاً   في فنون من الكلام النبيه
لك من جوهر الكلام بديع   يثمر الدر في يدي مجتنيه

فعلى ما تركت مدح ابن موسى والخصال التي تجمعن فيه
قلت لا أستطيع مدح إمام كان جبريل خادماً لأبيه
قصرت ألسن الفصاحة عنه ولهذا القريض لا يحتويه

فدعا المأمون بحقة لؤلؤ فحشا فاه لؤلؤاً.

يقول المؤلف: مع أن المأمون كان يسعى ظاهراً في تعظيم الإمام الرضا عليه السلام وتوقيره، ولا يُغفل احترامه أبداً، فقد كان يضمر له العداوة باطناً، ويسلك في معاملته له طريق النفاق والمخاتلة، فهو بحكم الآية الشريفة: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ﴾ كان عدواً حقيقياً له بل من ألد الأعداء، فهو يسلك معه ظاهراً طريق المحبة وحلاوة اللسان بينما كان في الباطن كالأفعى الحقيقية يلدغه فيجرعه كؤوس السم، كالمثل المعروف: «شيطان الفقهاء فقيه الشياطين».

لا غرو أنه منذ أصبح الإمام عليه السلام ولياً للعهد بدأت المصائب والصدمات تنهال عليه، ففي يوم بيعته عليه السلام يقول أحد خاصته: كنت عند الإمام عليه السلام وأنا فرح مستبشر لما ظهر من فضله عليه السلام، فأمرني أن أدنو منه ففعلت، فقال بهدوء: لا تفرح لهذا الأمر، فهذا العمل لن يبلغ كماله، ولن أبقى على هذه الحال.

وفي حديث للحسن بن الجهم أن المأمون جمع علماء الأمصار وفقهاء الأقطار لمناظرة الإمام الرضا عليه السلام فكانت له الغلبة عليهم جميعاً، وأقروا بفضله، ثم خرج من مجلس المأمون ورجع إلى بيته، ذهبت إليه وقلت: أحمد الله على أن المأمون أصبح لكم مطيعاً ويبالغ في إكرامكم، ويبذل في ذلك غاية سعيه، فقال عليه السلام: يابن الجهم، لا تخدعنّك محبة المأمون لي، فهو لن يلبث حتى يقتلني بالسم ظلماً وعدواناً، وصلني هذا من آبائي، فأكتم هذا الحديث ولا تخبر به أحداً ما دمت حيّاً.

وإجمالاً فطالما اختزن عليه السلام الآلام من سوء معاملة المأمون له في لبوس النعومة والدلال، لكنه لم يستطع كشف ذلك لأحد، وقد انتهى الأمر به

إلى درجة من الضيق جعلته يسأل الله الموت، فقد قال ياسر الخادم: كان عليه السلام إذا انصرف من المسجد الجامع في كل يوم جمعة وقد غمره العرق وعلاه الغبار يرفع يديه إلى السماء ويقول: يا ربّ، إن كان في الموت فرج وسعة في أحوال علي بن موسى الرضا فأمته الساعة، وكان في غم وحزن دائمين إلى أن فارق الحياة.

ولو أن شخصاً ذا فطنة تأمل في وضع معاشرة المأمون للإمام عليه السلام وسلوكه معه لأدرك هذه الحقيقة، فهل يتصور عاقل أن المأمون عابد الدنيا الذي يأمر بكل قسوة بقتل أخيه محمد الأمين طلباً للملك والرئاسة، ويؤتى برأسه فينصب على عمود في صحن داره، ويأمر جنده وعسكره بأن يقوم كل منهم بلعن هذا الرأس وينال مكافأته! هل إن شخصاً كهذا بلغ طمعه بالملك والحكم هذا القدر، ثم يدعو إليه الإمام الرضا عليه السلام من المدينة إلى مرو، ويصر على طلبه طوال شهرين قائلاً إني عازم على خلع نفسي من الخلافة ومقلدها إياك، هل يلحظ هذا العاقل في ذلك شيئاً غير المكر والخديعة؟ وفي حين أن الملك كان قرّة عين المأمون، وفي شأن الملك قيل: «الملك عقيم».

كان أخوه الأمين يعرفه جيداً فقد قال لأحمد بن سلام عندما أمسكوا به: وهل سيقتلني المأمون؟ قال أحمد: لا، لن يقتلك فما في قلبه من روابط الرحم سيعطفه عليك. قال الأمين: «هيهات.. الملك عقيم لا رحم له».

ومع ذلك فالمأمون لم يكن يميل أبداً إلى ظهور فضيلة ومنقبة للإمام عليه السلام، ويتضح هذا من ملاحظة الروايات التي تتحدث عن ذهابه عليه السلام إلى صلاة العيد.

وجاء في ذيل حديث الرجاء بن أبي الضحاك أنه لما كان يحدث المأمون عن فضائل وعبادات الإمام عليه السلام قال له المأمون: إياك أن تخبر الناس بما قلت، وتوخّياً منه لغرضه أردف مخادعاً: ذلك أني لا أريد أن تذاع فضائله إلا على لساني!.

وأخيراً.. وبعد أن رأى أن أنوار علم الإمام وكماله، وآثار رفعته وجلاله تنتشر بين الناس يوماً بعد يوم وأن محبته تحتل مكاناً في قلوبهم تأججت نائرة الحسد في صدره، وانصرف إلى تدبير الخلاص منه بقتله مسموماً.

وفي ذلك يروي الشيخ الصدوق عن أحمد بن علي قوله: سألت أبا الصلت الهروي: كيف رضي المأمون بقتل الإمام الرضا عليه السلام مع ما يبديه نحوه من المحبة والإكرام، حتى جعله ولياً لعهده؟ قال أبو الصلت: إن المأمون يجلّ الإمام عليه السلام ويحترمه لما يعرفه من فضله وعظمته، وقد قلده ولاية العهد لأنه أراد أن يعرفه الناس راغباً في الدنيا فيستلّ بهذا محبته من قلوبهم، فلما رأى أن هذا يبعث على المزيد من محبة الناس وإخلاصهم له جمع علماء جميع الملل من يهود ونصارى ومجوس وصابئة وبراهمة، وملحدين ودهريين، كما جمع علماء الأديان كافة ليباحثوه ويناظروه لعلهم يتغلبون عليه فيظهر للملأ عجزه فيفتر اعتقادهم به، لكن هذا التدبير أيضاً انتهى إلى خلاف المرجو منه، فهزموا جميعاً أمامه، وأقروا بفضله وجلاله.

وكان عليه السلام لا يفتأ يظهر أن الخلافة حق لهم أهل البيت وأنهم أحق بالإمامة من الآخرين، فيقوم المفسدون بإيصال هذه الأحاديث إلى المأمون. الأمر الذي كان يفاقم من غضبه ويزيد من حسده له، وكان عليه السلام لا يداهن في حقه، وكثيراً ما كان عليه السلام يحدثه بكلام خشن، مما يزيد في حقده وبغضه له، ولهذا السبب فقد رضي بقتله بالسم. وحبل الحديث في هذا المقام يطول، والحديث ذو شجون.

وبالإجمال فما إن وصل خبر ولاية عهد الإمام الرضا عليه السلام إلى العراق حتى غلب الهم بني العباس وظنوا أن أمر الخلافة سيخرج منهم فلا غرو أن أجمع عباسيو بغداد على خلع المأمون وتولية إبراهيم بن المهدي عمّه مكانه، وكان يعرف بابن الشكلة[1]، واستقام له أمر البيعة يوم الخميس من

---

(١) كانت «الشكلة» جارية سوداء البشرة، وأمّاً لإبراهيم (منه ره).

المحرم سنة مئتين واثنتين أو مئتين وثلاث فخطب باسمه وسُلّم عليه بالإمارة.

وأيضاً في سنة مئتين أو مئتين وواحدة توفي ببغداد معروف بن فيروز الكرخي، وهو أحد رجال الطريقة، وقد قيل إن أباه وأمه كانا نصرانيين وإنه آمن على يدي الإمام الرضا عليه السلام، والكرخ اسم لمواضع منها كرخ بغداد، وهو اسم محلّة فيها.

والمعروف أن معروفاً الكرخي كان رأس السلسلة ورأس الطريقة، ويقال إنه انتهى بطريقته إلى السري السقطي وهو إلى الجند البغدادي وهو إلى الشبلي، وهكذا. ويقولون إنه كان بواباً لمولانا علي بن موسى الرضا عليه السلام.

ولكن لا يخفى أن كتبَ الرجال طرّاً خالية من ذكره في رجال الصادق ومَن بعده من الأئمة عليهم السلام مدحاً وذماً، ولو كان الأمر كذلك لكان ينقله أصحاب الأئمة وخواصهم وخدّامهم ومواليهم من الممدوحين والمذمومين، ولا أقل من أن يذكر في «عيون أخبار الرضا» عليه السلام.

وإجمالاً فقبره ببغداد، والناس يستشفون بقبره، يقول البغداديون «قبر معروف ترياق مجرّب».

وفي سنة إحدى ومئتين انتقلت المعصومة فاطمة بنت موسى بن جعفر عليهم السلام من المدينة إلى «مرو» للقاء أخيها الإمام الرضا عليه السلام، فما إن وصلت إلى «ساوة» حتى مرضت، فتساءلت عن المسافة التي تفصل بين قم وساوة فقيل لها: عشرة فراسخ، فقالت لخادمها: خذنا إلى قم، فنقلوها إلى قم حيث نزلت في بيت موسى بن خزرج بن سعد.

والقول الأصح هو أنه لما بلغ نبأ تلك المخدرة الجليلة آل سعد خرجوا جميعاً لدعوتها والتماس تشريفها لمدينتهم، وكان من بينهم موسى بن خزرج الذي تقدمهم لهذا الغرض. فلما وصل إليها أخذ بزمام ناقتها يقودها حتى بلغوا قم ثم أنزلها في بيته، فمكثت هناك سبعة عشر يوماً حيث وافاها الأجل،

فقاموا بغسلها وتكفينها، ثم دفنوها في أرض «بابلان» التي تعود ملكيتها إلى موسى نفسه.

وروي أنهم حفروا سرداباً ليكون مدفناً لها، ولما أنزلوا جثمانها قرب السرداب نشب بين آل سعد جدال حول من يدخل السرداب ويدفن السيدة، وبعد نقاش استقر رأيهم على أن يتصدى للمهمة خادم لهم اسمه قادر وكان رجلاً مسناً صالحاً، ولما بعثوا في طلب ذلك الشيخ الصالح رأوا فارسين ملثمين قادمين بعجلة من طرف الفلاة، فلما بلغا موضع الجنازة ترجلا وصليا على تلك المخدرة ثم نزلا إلى السرداب ودفنا السيدة، ثم خرجا وغادرا دون أن يعرف أحد من هما.

ثم رفع سقف من الخوص فوق قبر تلك المخدرة حتى جاءت زينب بنت الإمام الجواد عليه السلام فبنت قبة فوق قبر ومحراب فاطمة عليها السلام الموجود في بيت موسى بن خزرج، وقد دفن في قبتها الكثيرات من الفاطميات والعلويات أمثال كوكبة من بنات الإمام الجواد عليه السلام والكثيرات من بنات موسى المبرقع ابن الإمام الجواد عليه السلام، كما ذكرنا في «هديّة الزائرين» مع زيارة تلك المخدرة وفضيلة زيارتها، «رزقنا الله الجنة بشفاعتها كما منّ علينا بمجاورتها».

وفي سنة اثنتين ومئتين قتل غيلة في حمام سرخس الفضل بن سهل وذلك أثناء سفره مع المأمون والإمام الرضا عليه السلام إلى العراق، كما توفي في السنة نفسها مالك بن أنس بن مالك رأس المذهب المالكي صاحب «الموطأ»، أحد أصول السنّة، وقبره في البقيع، في بقعة زوجات رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وفي سنة أربع ومئتين دخل المأمون بغداد، وقبل وصوله إليها كان إبراهيم بن المهدي قد توارى خيفة منه، وكان ذلك في يوم النحر الثاني سنة ثلاث ومئتين، ولما دخل المأمون بغداد ـ وبالتماس من عمته زينب بنت سليمان بن علي بن عبد الله بن عباس، التي لا يعلوها نسباً في بني العباس أحد ـ أحل مكان اللباس الأخضر اللباس الأسود الذي كان شعار بني العباس.

ثم انصرف للكشف عن مكان وجود إبراهيم بن المهدي فنشر الجواسيس لهذا الغرض، وبقي إبراهيم متوارياً حتى الثالث عشر من ربيع الآخر سنة سبع ومئتين حيث تم العثور عليه وهو يرتدي لباساً نسائياً، ولما جاؤوا به إلى المأمون عفا عنه.

وفي سنة أربع ومئتين توفي هشام بن محمد بن السائب النسابة الكوفي المعروف بابن الكلبي، قال فيه آية الله العلامة نضّر الله وجهه في «الخلاصة»:

«هشام بن محمد بن السائب. . أبو المنذر الناسب، العالم المشهور بالفضل والعلم، العارف بالأيام، كان مختصاً بمذهبنا، قال: اعتللت علة عظيمة، نسيت علمي، فجئت إلى جعفر بن محمد عليه السلام فسقاني العلم في كأس فعاد إليّ علمي، وكان أبو عبد الله عليه السلام يقرّبه ويدنيه وينشطه» انتهى.

وذكر نحواً منه (جش) وعدّ له كتباً كثيرة منها: كتاب «مقتل أمير المؤمنين» عليه السلام، وكتاب «مقتل الحسين» عليه السلام.

ونقل ابن خلكان في ترجمته عن «تاريخ بغداد» أنه قال (أي هشام بن محمد): «كان لي عم يعاتبني على حفظ القرآن، فدخلت بيتاً وحلفت أن لا أخرج منه حتى أحفظ القرآن، فحفظته في ثلاثة أيام».

وفي سنة أربع ومئتين أيضاً، في آخر شهر رجب توفي محمد بن إدريس الشافعي بمصر[1]، والشافعي ينتهي نسبه إلى المطلب بن عبد مناف، وهو ينسب إلى جدّه الشافع بن السائب، وهو من الأشخاص الذين تشرّفوا بلقاء

(١) قال شيخنا البهائي في (الكشكول): قبة الشافعي فيه عظيمة البناء واسعة الفضاء، قصدت زيارتها في هذه السنة وهي سنة تسع وتسعين وتسعمئة. وفي رأس ميل القبة سفية صغيرة من حديد، وأنشد بعض الشعراء لما زار القبة ورأى ذلك الميل والسفينة في رأسه:

قبة مولاي قد علاها ... لعظم مقدارها السكينة
لو لم يكن تحتها بحار ... ما كان من فوقها سفينة

(علي ابن المؤلف).

رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وأدركوا عصره، ويقع قبر الشافعي بمصر في مقبرة بني عبد الحكم قرب قبور الشهداء.

والشافعي أحد أئمة أهل السنة الأربعة، وقد استنبط أصول الفقه، وكانت ولادته في اليوم الذي توفي فيه أبو حنيفة سنة خمسين ومئة.

واشتهر بين العامة أن الإمام الشافعي بقي في بطن أمه أربع سنين انتظاراً لموت إمامهم الأعظم أبي حنيفة حيث يستحيي منه، لأن الناس كانوا يستضيئون بنوره، فولد في يوم وفاته، وعدّوا ذلك من كرامتهما، هذا ولا أدري ما السبب في انتظار الإمام مالك ثلاث سنين في بطن أمه، ولكن ما لنا وله!

وللشافعي أشعار لطيفة، ومما ينسب إليه:

لو انّ المرتضى أبدى محله ... لخر الناس طرّاً سجداً له
ومات الشافعيّ وليس يدري ... عليّ ربه أم ربّه الله

وقوله:

إذا في مجلس ذكروا علياً ... وشبليه وفاطمة الزكية
يقال تجاوزوا يا قوم هذا ... فهذا من حديث الرافضية
هربت إلى المهيمن من أناس ... يرون الرفض حبّ الفاطمية
على آل الرسول صلاة ربي ... ولعنته لتلك الجاهلية

وله أيضاً برواية ابن الصباغ المالكي وابن حجر:

يا راكباً قف بالمحصب من منىً ... واهتف بساكن خيفها والناهض
سحراً إذا فاض الحجيج إلى منى ... فيضاً كملطتم الفرات الفائض
قف، ثمّ واشهد أنني بمحمد ... ووصيّه وبنيه لست بباغض
إن كان رفضاً حب آل محمد ... فليشهد الثقلان أني رافضي

وله أيضاً برواية ابن حجر في (الصواعق):

يا أهل بيت رسول الله حبكم ... فرض من الله في القرآن أنزله
كفاكم من عظيم القدر أنكم ... من لا يصلي عليكم لا صلاة له

وله أيضاً:

يقولون أسباب الفراغ ثلاثة ... ورابعها خلو وهو خيارها

وقد ذكروا مالاً وأمناً وصحة ... ولم يعلموا أن الشباب مدارها

وفي سنة اثنتين ومئتين توفي محمد بن المستنير النحوي، المعروف بقطرب، وكان قطرب تلميذ سيبويه، وكان يبكّر إليه قبل حضور سائر تلامذته، فقال له سيبويه: ما أنت إلا قطرب ليل[1]، فبقي عليه هذا اللقب. وله تصانيف منها: كتاب «غريب الحديث» و «مجاز القرآن» وغيرهما.

وفي آخر تلك السنة توفي النضر بن شميل النحوي البصري، وكان النضر عالماً بفنون من العلم، وصاحب غريب وفقه وشعر ومعرفة بأيام العرب، وهو من أصحاب الخليل بن أحمد الإمامي العروضي رضي الله عنه. ذكره أبو عبيدة في كتاب «مثالب أهل البصرة» فقال:

«ضاقت العيشة على النضر بن شميل البصري فخرج يريد خراسان، فشيعه من أهل البصرة نحو من ثلاثة آلاف رجل ما فيهم إلا محدّث أو نحوي أو لغوي أو عروضي أو إخباري، فلما صار بالمربد جلس وقال: يا أهل البصرة، يعز عليّ فراقكم، ووالله لو وجدت كلّ يوم كيلجة باقلاء ما فارقتكم، قال: فلم يكن أحد فيهم يتكلف له ذلك، فسار حتى وصل خراسان فأفاد بها مالاً عظيماً، وكانت إقامته بمرو».

قلت: وله مع المأمون لما كان مقيماً بمرو حكايات ونوادر، فمنها: ما ذكره الحريري في «درة الغواص» وملخصه أنه جرى في مجلس المأمون ذكر النساء، فقال المأمون: حدثنا هشيم عن خالد عن الشعبي عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إذا تزوج الرجل المرأة لدينها وجمالها كان فيه سداد من عوز» (يعني الفقر)، فأورد السداد بفتح السين،

---

(١) القطرب: دويبة لا تستريح من الحركة، أو هي التي تضيء في الليل كأنها شعلة (المنجد).

فقال النضر: صدق هشيم.. حدثنا عوف بن أبي جميلة عن الحسن عن علي بن أبي طالب عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إذا تزوج الرجل المرأة لدينها وجمالها كان فيه سداد من عوز» وتلا بكسر السين، وكان المأمون متكئاً فاستوى جالساً وقال: كيف قلت كسداد؟ قال: لأن السَّداد هيهنا لحن، قال: أوَ تلحنني؟ قال النضر: إنما لحن هشيم، وكان لحّانة، فتبع أمير المؤمنين لفظه، قال: فما الفرق بينهما قال: السَّداد بالفتح: القصد في الدين والسبيل، والسِّداد بالكسر: البلغة، وكل ما سددت به شيئاً فهو سِداد، ثم تمثل بيت العرجي:

أضاعوني وأيّ فتى أضاعوا ... ليوم كريهة وسِداد ثغر

فقال المأمون: قبح الله من لا أدب له، فكتب إلى الفضل بن سهل بأن يعطي النضر خمسين ألف درهم، فلما صار النضر إلى الفضل سأله الفضل عن سبب العطاء فأخبره النضر بما جرى بينه وبين المأمون، فأمر له الفضل بثلاثين ألف درهم من ماله، فأخذ ثمانين ألف درهم بحرف استفيد منه.

هذا.. ولكن في زماننا لا يشترون ألف مسألة بدينار! ولقد أحسن من قال:

أتى الزمانَ بنوه في شبيبته ... فسرّهم وأتيناه على الهرم

قلت: وأما نحن فأتيناه بعد وفاته وتقسيم تراثه.

وفي سنة سبع ومئتين توفي بمرو الطاهر بن الحسين، والطاهر هو من صار إلى بغداد لحرب الأمين بأمر من المأمون وقتله، كما مرّ سابقاً.

وكان يقال له ذا اليمينين، ولم يكن له سوى عين واحدة. كما توفي في تلك السنة ـ وعلى قول في سنة تسع ومئتين ـ محمد بن عمر بن الواقد المعروف بالواقدي، صاحب «مغازي قاضي بغداد».

وفي تلك السنة أيضاً توفي في الطريق إلى مكة يحيى بن زياد المعروف بالفرّاء الديلمي الكوفي، اللغوي النحوي، وكان الفرّاء في النحو واللغة والأدب عديم البديل، وكان المأمون يجلّه وجعله مؤدب ابنيه، وكان الفرّاء من

خواص تلاميذ الكسائي، ويرجحه بعضهم على الكسائي في النحو، «وأبوه زياد هو الأقطع.. قطعت يده في الحرب مع الحسين بن علي صاحب فخ».

وفي سنة ثمان ومئتين توفي يونس بن عبد الرحمان، وقد تقدم شرح عن فضله في تأريخ أيام المنصور، في ذكر أصحاب الإجماع.

وفي سنة ثمان ومئتين أيضاً توفي الفضل بن الربيع الحاجب، وقد صار الفضل بعد نكبة البرامكة وزيراً للرشيد، ثم وزيراً للأمين بعد الرشيد، وكان يحرّضه والأمين على خلع المأمون، فلما قتل الأمين توارى خوفاً من المأمون حتى شفع له الطاهر بن الحسين وذهب به إلى المأمون، غير أنه لم يكن له نصيب في دولة المأمون إلى أن وافته المنية.

وفي شهر رمضان من تلك السنة توفيت بمصر السيدة نفيسة بنت الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليهما السلام. وهي زوجة إسحاق المؤتمن بن جعفر الصادق عليه السلام، ودفنت هناك.. والمصريون يعتقدون بها اعتقاداً تاماً، ومن المعروف أن الدعاء أمام قبرها مستجاب، وقد سمع الشافعي الحديث منها، وينقل الشيخ محمد الصبان في «إسعاف الراغبين» أن السيدة نفيسة حفرت قبراً لنفسها وبنفسها، وكانت تكثر من النزول إلى القبر والصلاة فيه. وقد أتمت ختم القرآن في ذلك القبر ستة آلاف مرة، وتوفيت في شهر رمضان من سنة ثمان ومئتين، وكانت صائمة عند احتضارها، فطلب منها أن تفطر فقالت: واعجبا.. ثلاثون سنة حتى الآن وأنا أدعو الله أن أغادر الدنيا وأنا صائمة، والآن وأنا صائمة تدعونني إلى الإفطار! ثم شرعت بتلاوة سورة الأنعام، ولما بلغت إلى الآية المباركة: ﴿لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أسلمت الروح.

كما نقل أيضاً أن زوجها إسحاق المؤتمن عزم بعد وفاتها على نقلها إلى المدينة المعظمة ودفنها في البقيع. لكن أهل مصر طلبوا إبقاءها بمصر للتبرك والتيمن، وبذلوا الكثير من المال أيضاً، غير أن إسحاق لم يرضَ حتى رأى

رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في نومه فأمره أن لا يعارض أهل مصر بشأن نفيسة لعل الرحمة تتنزّل عليهم ببركتها رضوان الله عليها.

وفي سنة تسع ومئتين توفي اثنان من الثقات الأجلاء: حماد بن عثمان، وحماد بن عيسى، وقد تقدمت الإشارة إليهما عند الحديث عن أصحاب الإجماع.

وفي السنة نفسها تزوج المأمون من خديجة المعروفة ببوران ابنة الحسن بن سهل، ونقل أن الحسن نثر أموالاً بهذه المناسبة لم يسبقه إلى مثلها ملك في الجاهلية والإسلام، ففوض المأمون إليه مقابل ذلك خراج فارس والأهواز لمدة سنة.

وفي السنة نفسها أيضاً توفي ببغداد يحيى بن الحسين بن زيد بن علي بن الحسين عليه السلام وصلى المأمون عليه، ودفن هناك.

وفي تلك السنة قتل المأمون ابن عائشة العباسي وصلبه، وكان أول عباسي يصلب في الإسلام، وابن عائشة هو إبراهيم بن محمد بن عبد الوهاب بن إبراهيم الإمام أخي السفاح والمنصور.

وفي سنة عشر ومئتين توفي الثقة العظيم القدر صفوان بن يحيى. وقد تقدم الكلام عن طرف من جلالة شأنه في تاريخ أيام المنصور.

وفي سنة إحدى عشرة ومئتين توفي معمر بن المثنى النحوي البصري ومعمر (كجعفر) معروف بأبي عبيدة، وله مصنفات مفيدة، وقيل إنه بلغ المئة من العمر، وكان يرى رأي الخوارج، واتهم بالميل إلى الغلمان. فلا عجب أنه لم يحضر جنازته أحد حتى تمّ استئجار الناس لتشييعه.

ويروى أن أبا نواس كان يكثر من المزاح مع أبي عبيدة، وكان أبو عبيدة قد اعتاد على اتخاذ مجلس قرب أحد الأعمدة في مسجد البصرة فكتب أبو نواس على ذلك العمود:

صلى الإله على لوط وشيعته   أبا عبيدة قل بالله آمينا

فلما دخل أبو عبيدة المسجد ورأى ذلك الشعر قال: هذا من عمل الماجن اللوّاط أبي نواس، فامحوه ولو ضمّ الصلوات على النبي.

ويحكى عن الأصمعي بطريق آخر، قال: دخلت يوماً أنا وأبو عبيدة المسجد فإذا على الاسطوانة التي يجلس عليها أبو عبيدة مكتوب على سبعة أذرع ما مثاله:

صلى الإله على لوط وشيعته أبا عبيدة قل بالله آمينا

فأنت عندي بلا شك بقيتهم منذ احتلمت وقد جاوزت سبعينا

فقال يا أصمعي.. امح هذا، فركبت ظهره ومحوته بعد أن أثقلته، فقال: أثقلتني وقطعت ظهري، أنزل، فقلت له: قد بقيت الطاء، فقال: هي أشرّ حروف هذا البيت، وكان أبو نواس الشاعر يتعلم منه ويصفه، ويذمّ الأصمعي، سئل عن الأصمعي فقال: بلبل في قفص، وعن أبي عبيدة فقال: أديم طوي على علم.

وقال بعضهم: كان الطلبة إذا أتوا مجلس الأصمعي اشتروا البعر في سوق الدر، وإذا أتوا مجلس أبي عبيدة اشتروا الدر في سوق البعر، لأن الأصمعي كان حسن الإنشاد والزخرفة قليل الفائدة، وأبو عبيدة بضدّ ذلك[1].

---

(١) فائدة ـ قيل: أبو عبيدة من الشعوبية، وهم فرقة لا تفضّل العرب على العجم، وهو أعلم الناس بلغة العرب وأخبارهم وأيامهم وأساسهم، وله تصانيف كثيرة تقرب من المئتين، وكان شديد العناية بقيود اللغة وغرائبها، وله في ذلك كلام كثير، منه قوله:
لا يقال كأس إلا إذا كان فيها شراب، وإلا فقدح، لا مائدة إلا إذا كان عليها طعام، وإلا فخوان. ولا كوز إلا إذا كان فيه عروة، وإلا فكوب، ولا قلم إلا إذا كان مبرياً، وإلا فقصب. ولا فرو إلا إذا كان عليه صوف. وإلا فجلد، ولا أريكة إلا إذا كان عليها حجلة، وإلا فسرير. ولا خدر إلا إذا كان خلفه امرأة، وإلا فستر، ولا رضاب إلا ما دام في الفم، وإلا فبصاق. ولا عويل إلا إذا كان فيه رفع صوت. وإلا فبكاء. ولا بركة إلا إذا كان فيها ماء، وإلا فبئر. ولا كمي إلا إذا كان تحت سلاح، وإلا فبطل. ولا آبق إلا إذا كان عبداً، وإلا فهارب (منه عفي عنه).

وقيل: كان أبو عبيدة يرى رأي الخوارج الإباضيّة، أقدمه الرشيد من البصرة إلى بغداد وقرأ عليه، وهو أول من صنّف غريب الحديث.

والغريب... إما غريب إسناداً ومتناً معاً وهو ما تفرّد برواية متنه واحد، أو غريب إسناداً خاصة كحديث يعرف متنه عن جماعة إذا تفرّد واحد بروايته عن آخرين غيرهم، كما بيّنا ذلك في شرحنا على الوجيزة، أو غريب لفظاً وهو ما اشتمل متنه على لفظ غامض بعيد عن الفهم لقلة استعماله، وهو فن مهم يجب أن يثبت فيه وقد صنّف فيه جماعة من العلماء؛ فأول من صنف فيه أبو عبيدة أو النضر بن شميل، وبعدها أبو عبيد[1] القاسم بن سلاّم، ثم ابن قتيبة الدينوري، ثم الخطابي[2]، فهذه أمّهاته، ثم تبعهم غيرهم بفوائد وزوائد كابن الأثير، فإنه بلغ بـ «نهايته» النهاية، والزمخشري ففاق في «الفائق» كل غاية، والهروي فزاد في «غريبيه» غريب القرآن مع الحديث، كما فعل ذلك الشيخ فخر الدين الطريحي في «مجمع البحرين»، إلى غير ذلك.

وفي سنة إحدى عشرة ومئتين أيضاً توفي أبو العتاهية إسماعيل بن القاسم الشاعر المعروف، وقد ذكر بعض من أشعاره في تأريخ أيام المهدي.

وفي سنة اثنتي عشرة ومئتين نادى منادي المأمون أنّ ذمتي بريئة من كل من يذكر معاوية بخير، أو يقدّمه على أحد من صحابة الرسول صلى الله عليه وآله، كما أمر بأن يُكتب إلى الآفاق أن يلعنوا معاوية على المنابر، فاضطرب الناس أيّما اضطراب من هذا الأمر واستعظموه، وأشاروا عليه بأن من المصلحة تركه فتركه، وكان سببه أن المأمون سمع عن معاوية حكاية تشتمل

---

(١) من هنا يصبح معلوماً أن أبا عبيدة غير أبي النحوي الذي اسمه القاسم بن سلاّم بتشديد اللام، وقد صنّف كل منهما كتاباً في غريب الحديث فصارا موضع اشتباه، والفرق بينهما زيادة التاء عند أحدهما وتجرّد الآخر منها.

(٢) الخطابي هو حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب البستي، وكان من ولد زيد الذي هو أخو عمر بن الخطاب، له تصانيف بديعة منها: «غريب الحديث» مات في شهر ربيع الأول سنة ثمان وثمانين وثلاثمئة (منه ره).

على معتقداته ومقاصده ومن جملتها عزمه على القيام بعمل يمحو ذكر النبي من بين الناس بأن يتخلّوا عن قولهم يومياً: «أشهد أن محمداً رسول الله» صلى الله عليه وآله وسلم، وقد أوردنا هذه الحكاية عند الحديث عن أحوال معاوية، فيُرجع إليها هناك.

وفي سنة ثلاث عشرة ومئتين توفي عبد الملك المعروف بابن هشام صاحب «السيرة» ودفن بمصر، وفي تلك السنة توفي إسحاق بن مراد المعروف بالشيباني النحوى اللغوي، وقيل إنه في يوم وفاته توفي أبو العتاهية الشاعر وإبراهيم الموصلي النديم أيضاً.

وفي سنة خمسة عشرة ومئتين توفي سعيد بن مسعدة المجاشعي المعروف بالأخفش الأوسط، والنحوي المعروف، والأخفش الأكبر هو عبد الحميد بن عبد المجيد الهجري، وكان يقال لسعيد المذكور الأخفش الأصغر، فلما ظهر علي بن سليمان الأخفش دعوا سعيداً بالأخفش الأوسط وعلياً بالأصغر، (والأخفش: الصغير العينين مع سوء بصرهما، شبّه بالخفاش).

وفي سنة خمس عشرة ومئتين أيضاً، أو سنة أربع عشرة ومئتين على قول، توفي بالبصرة سعيد بن أوس بن ثابت بن زيد، المعروف بأبي زيد النحوي اللغوي البصري.

قيل: كان الأصمعي يحفظ ثلث اللغة، وأبو زيد ثلثي اللغة، والخليل بن أحمد نصف اللغة، وعمر بن كركرة الأعرابي يحفظ اللغة كلها، ولأبي زيد مصنفات في الأدب، وعن المازني قال: رأيت الأصمعي وقد جاء إلى حلقة أبي زيد المذكور فقبّل رأسه، وجلس بين يديه وقال: أنت رئيسنا وسيدنا منذ خمسين سنة.

وفي سنة ست عشرة ومئتين توفي عبد الملك بن قريب المعروف بالأصمعي صاحب اللغة والنحو والنوادر والمُلح وغيرها.

وكان الأصمعي مطايباً ظريفاً مفاكهاً، خفيف الروح، مليح الطبع، لا

تتمكن من نفسه الغموم والهموم، ومن هذه الجهة يقال إنه لم يظهر فيه أثر الشيبة إلى أن بلغ ستين سنة، ولم يمت حتى ناهز عمره التسعين، وكان دميم الوجه قبيح المنظر، وكان في أوائل أمره معسراً شديد الفاقة حتى اتصل بالرشيد وحسن حاله، وكان يرتجل كثيراً من الأخبار المضحكة والأقاصيص المستغربة، وكان حسن العبارة جدّاً، ونوادره كثيرة، فعن «كشكول» شيخنا البهائي (ره) نقلاً عنه، قال:

دخلت البادية ومعي كيس فأودعته امرأة منهم، فلما طلبته أنكرته، فقدمتها إلى شيخ من الأعراب فأقامت على إنكارها، فأحلفها فحلفت، فقال: قد علمت أنها صادقة وليس عليها شيء! فقلت: كأنك لم تسمع بهذه الآية:

ولا تقبل لسارقة يمينا ولو حلفت برب العالمينا

فقال: صدقت، ثم تهدّدها فأقرّت وردّت إليّ مالي. ثم التفت إليّ الشيخ فقال: في أي سورة هذه الآية؟ فقلت: في سورة:

ألا هبي صباحك فاصبحينا ولا تبغي خمور الأندرينا

فقال: سبحان الله، إني ظننت أنها في سورة: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾.

وكان جدّ الأصمعي علي بن أصمع من النصّاب، وله حكاية معروفة مع الحجاج الثقفي، وعن «محاضرات الراغب» قال الأصمعي: أحفظ اثني عشر ألف أرجوزة. ويحكى عن الأصمعي قال:

كنت أقرأ: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ﴾ غفور رحيم. وكان بجنبي أعرابي فقال: كلام من هذا؟ فقلت: كلام الله، قال: أعد، فأعدت، فقال: ليس هذا كلام الله، فانتبهت فقرأت: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ فقال: أصبت، هذا كلام الله. فقلت: أتقرأ القرآن؟ قال: لا، فقلت: فمن أين علمت؟ فقال: يا هذا، عزّ فحكم بقطع، ولو غفر ورحم لما قطع.

وفي سنة ست عشرة ومئتين أيضاً توفيت ببغداد زبيدة بنت جعفر بن أبي

جعفر المنصور، أم محمد الأمين، ويؤثر عنها أعمال صالحة منها أنها جرّت الماء إلى حرم مكة من مكان يبعد عشرة أميال، وكان لديها مئة جارية يحفظن القرآن. «وكان يسمع في قصرها كدويّ النحل من قراءة القرآن».

وفي سنة سبع عشرة ومئتين توفي الثقة العظيم الشأن محمد بن أبي عمير، وابن أبي عمير من أعاظم أصحاب الإمامية، وقد حكم العامة والخاصة بوثاقته وتصديق جلالته، وفي أيام الرشيد جرى جلده بالسياط وحبسه، وعن «كش»:

«محمد بن أبي عمير أخذ وحبس، وأصابه من الجهد والضيق أمر عظيم، وأخذ كل شيء كان له، وصاحبه المأمون، وذلك بعد موت الرضا عليه السلام، وذهبت كتب ابن أبي عمير فلم تخلص كتب أحاديثه، فكان يحفظ أربعين جلداً فسمّاه «نوادر»، ولذلك تؤخذ أحاديثه منقطعة الأسانيد».

وروي أن السندي بن شاهك ـ في أيام الرشيد وبأمر منه ـ جلد ابن أبي عمير مئة وعشرين عصا بسبب تشيعه، ثم حبسه، فقدم ابن أبي عمير مئة وواحداً وعشرين ألف درهم ثمناً لخلاصه.

ونقل أن ابن أبي عمير كان رجلاً متمولاً يمتلك خمسمئة ألف درهم، وروى الشيخ الصدوق في «العلل» عن ابن الوليد عن علي بن إبراهيم عن أبيه قوله: كان ابن أبي عمير بزّازاً، وكان أحدهم يدين له بعشرة آلاف درهم، ثم نفد ماله وأصبح فقيراً، فما كان من الرجل الذي يدين له بعشرة آلاف درهم إلا أن باع بيتاً كان يمتلكه بعشرة آلاف درهم وحمل المال إلى ابن أبي عمير، فلما بلغ باب بيته وطرقها خرج ابن أبي عمير فقدم له الرجل المال وقال: لقد أحضرت لك الدين. فسأله ابن أبي عمير: ومن أين لك المال، هل نلت إرثاً أم أعطيت هبة؟ قال: لم يحصل أي من الأمرين، بل إني بعت بيتي لسداد دينك.

قال ابن أبي عمير: حدثني ذريح المحاربي عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «**لا يخرج الرجل عن مسقط رأسه بالدين**»، ثم أردف:

اذهب بمالك فلست بحاجة إلى هذا المال، وبالله أقسم إني فعلاً محتاج إلى الدرهم، غير أني لا أقبل من هذا المال بدرهم واحد.

وقد سبقت الإشارة إلى طرف من جلالة محمد بن أبي عمير عند الحديث عن تاريخ أيام المنصور.

وفي سنة سبع عشرة ومئتين خرج المأمون إلى مصر حيث كان عبدوس قد أشعل فتنة فقتله.

وفي سنة ثمان عشرة ومئتين توجه إلى حرب الروم وحقق فتوحات كبيرة. وفي «عين بديدون» - والتي يقال لها بالرومية «الرقة» وكانت موضعاً يتوفر فيه الماء البارد العذب. هواؤه عليل لطيف، تكسو أرضه الخضرة والنضارة - عزم على الإقامة، فشيدت له كنيسة على ذلك النهر. وذات يوم - وكان المأمون ينظر في الماء - رأى سمكة تقرب من ذراع في الطول كأنها سبيكة فضة، فأمر رجاله باصطيادها، قفز أحدهم إلى الماء، وأمسك بالسمكة، ولما أخرجها من الماء اضطربت بشدة فألقت به في الماء، وانتثر الماء على صدر المأمون ونحره وترقوته.

ارتعش المأمون وراح يرتجف بشدة، نزل الرجل ثانية إلى الماء وأمسك بالسمكة ووضعها أمام المأمون الذي أمر بطبخها، لكن الرجفة عاودته بشدة، ولم تفلح الأغطية والدثارات التي غمروه بها في وقف ارتجافه وهو لا يفتأ يصيح: «البرد.. البرد». أحس بالنار تشتعل في أطرافه، وراح يرتعد كالورقة حتى بدت عليه علائم الموت، بادر المعتصم أخوه إلى إحضار بختيشوع وابن ماسويه الطبيب لعلاجه، فلما فحصا نبضه قالا: إننا لا نعرف علاجاً يشفيه، وراح العرق يتصبب منه وينحدر على وجهه وجسمه كأنه الزيت أو لعاب الأفعى.

استعاد المأمون وعيه فقال: ضعوني في مكان أنظر فيه إلى رعيتي وعسكري وخدمي وحشمي، فنقلوه» إلى موضع عالٍ أشرف منه على عسكره وخيامهم، ولاحظ كثرتهم فقال: **«يا من لا يزول ملكه ارحم من قد زال ملكه»**.

تماماً كما قال أبوه الرشيد حين وافاه الأجل: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْۜ ۞ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ﴾ .

ثم إن المأمون أعيد إلى فراشه وقد انعقد لسانه فقال: **«يا من لا يموت ارحم من يموت»**.

قال هذا وفارق الحياة دون أن ينال من تلك السمكة المطبوخة نصيبه[١] وكانت وفاته في يوم الخميس السابع عشر من رجب، أو الثامن منه على قول، وذلك سنة ثمان عشرة ومئتين، وحمل جثمانه إلى طرطوس حيث ووري الثرى. وفي ذلك يقول أبو سعيد المخزومي:

هل رأيت النجوم أغنت عن المأمون شيئاً وملكه المأنوس
خلّفوه بعرصتي طرطوسِ مثل ما خلّفوا أباه بطوس

بلغ المأمون تسعاً وأربعين سنة من العمر، وامتد ملكه إحدى وعشرين سنة منها أربعة عشر شهراً مضت في حربه مع الأمين كما سبقت الإشارة.

(١) تساءل علامة فاضل بعد قراءته لهذه الواقعة فقال بحق: ترى ما العلاقة بين هذه السمكة والأسماك التي ظهرت في القبر المعدّ بطوس للإمام الرضا عليه السلام؟! (المعرّب).

خلافة أبي إسحاق إبراهيم المعتصم

ووقائع أيامه

في يوم الخميس السابع عشر من رجب سنة ثمان عشرة ومئتين، اليوم الذي حزم فيه المأمون متاع رحيله من الدنيا، حل أخوه المعتصم محله، وعرف باسم معتصم محمد أو إبراهيم على قول، وأمّه مارية بنت شبيب وأخت الريان بن شبيب.

كان المعتصم رجلاً ظلوماً شديد البطش، غير ذي نصيب من علم أو أدب، وعلة ذلك أن الرشيد كان يحبّه، وكان يبعث به إلى المكتب مع أحد الغلمان، فتوفي الغلام زميل المعتصم في الدراسة، قال الرشيد للمعتصم: يا محمد أمات غلامك؟ قال: أجل، وارتاح من الدرس، فهم الرشيد من هذه الإجابة أنه لا ميل لديه إلى الدرس والكتابة فقال: قد مضى إلى شأنه، فلا جرم أن المعتصم لم ينل من العلم و الكتابة.

ولما استقر في سدة الخلافة اتخذ محمد بن عبد الملك الزيات وزيراً له، وكان محمد أديباً فاضلاً، وكان ـ قبل أن يصبح وزيراً ـ في عداد الكتاب والمستوفين، في حين كان أحمد بن حماد البصري وزيراً للمعتصم، وذات يوم ورد إلى المعتصم كتاب من أحد عماله، وبينما كان الوزير يقرأ ذلك الكتاب على المعتصم ورد بين كلماته لفظ «كلأ» فسأله المعتصم عما يعنيه لفظ «كلأ» فقال الوزير أحمد: لا أعلم، فقال المعتصم: «خليفة أمّي ووزير عامّي»؟ ثم قال: انظروا من في الخارج من الكتّاب؟ قالوا: محمد بن

عبد الملك، قال: إليّ به، فلما مثل بين يديه سأله: ما معنى «كلأ»؟ قال: «الكلأ: العشب على الإطلاق، فإن كان رطباً فهو الخلى، فإذا يبس فهو الحشيش». ثم راح يعدد أنواع النباتات.

عرف المعتصم فضله فاتخذه وزيراً له مبسوط اليد، وأسند إليه شؤون المملكة، وبقي في عمله في الوزارة في أيام المعتصم والواثق حتى قتل في عهد المتوكل، وبأمر منه، كما سيأتي إن شاء الله تعالى.

وأحمد بن داود كانت له عند المعتصم مكانة عظيمة ومنزلة رفيعة، وكان المعتصم رجلاً قوي الزند شجاعاً، امتاز بالشجاعة والإقدام في الحروب بين بني العباس، وينقل عن الرياشي أن ملك الروم كتب إلى المعتصم كتاباً يهدده فيه، فلما اطلع المعتصم على الكتاب قال لكاتبه: اكتب في الجواب:

«بسم الله الرحمان الرحيم، أما بعد فقد قرأت كتابك، وسمعت خطابك، والجواب ما ترى لا ما تسمع، وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار».

كان المعتصم يميل إلى إقامة الأبنية والعمارة، ومما بناه بلدة سامراء[1] وسبب بنائها أن المعتصم كان يميل إلى الأتراك، وكان لا يفتأ يقوم بجمعهم ويشتري منهم الموالي حتى اجتمع عنده منهم أربعة آلاف، وكان يخصهم بأردية الديباج والأحزمة المذهبة يميزهم بها عن سائر جنده، فراحوا يتسببون بالأذية والضرر لأهل بغداد، إذ كانوا يجرون بجيادهم في الأسواق فتركل جيادهم ما يتفق مرورهم من أطفال ونساء وكهول وعميان، فغضب الناس لذلك وراحوا يهاجمون الفرسان ويقتلون منهم.

لا جرم أن المعتصم فكر بالانتقال من بغداد، وبينما كان في طواف من أجل الصيد وصل إلى أرض سامرّاء، فأمضى فيها ثلاثة أيام، ورأى أن شهيته

---

(١) قال صاحب «القاموس»: لما شرع المعتصم ببناء سامراء ثقل هذا الأمر على جيشه، فلما أكمل بناءها وانتقلوا إليها سرّ بها كل من رآها، ومن هنا جاءت تسميتها «سرّ من رأى».

إلى الطعام قد ازدادت عن السابق، وذلك من تأثير الماء والهواء في تلك البقاع، وكانت تلك الأرض ملكاً لنصارى دير هناك. فسأل أهل الدير عن اسم تلك الأرض فقالوا: سامرّاء، قال: وماذا تعني؟ قالوا: قرأنا في كتبنا أنها بلدة سام بن نوح.

ثم إن المعتصم ابتاع منهم أرض سامراء بأربعة آلاف دينار، واختار موضعاً فيها ليقيم عليه قصراً له، وصار ذلك المكان يعرف بالوزيرية، وإليه ينسب (تين الوزيرية)، ثم أمر بالعمال والبنائين فبنى سامراء، ونقل إليها أنواعاً كثيرة من الغراس، والأشجار، وبنى فيها مكاناً خصصه للأتراك بحيث لا يسببون الأذى للناس، وقامت الأسواق والأبنية في سامراء، فراح الناس من الأطراف والأكناف يتقاطرون إليها ويحملون معهم أصنافاً من الأمتعة والأطعمة، وعم إحسان المعتصم الجميع، وعم السرور الناس.

وفي سنة تسع عشرة ومئتين أخرج المعتصم أحمد بن حنبل من سجن المأمون، وجلده ثماناً وثلاثين جلدة لأنه لم يقل بخلق القرآن، وتفصيل هذا الأمر موجود في «حياة الحيوان» للدميري.

وفي سنة تسع عشرة ومئتين أيضاً توفي بالكوفة أبو نعيم الفضل بن دكين، وفي هذه السنة أيضاً في الخامس من ذي الحجة، وبقول مشهور في سنة عشرين ومئتين في آخر ذي القعدة توفي ببغداد الإمام محمد التقي صلوات الله عليه، ودفن في مقابر قريش خلف رأس جده الإمام موسى بن جعفر عليه السلام، وهناك اختلاف في سبب شهادته، ونقل أن زوجه أم الفضل ابنة المأمون قد سممته، وقد تحدثنا عن شهادته عليه السلام في كتاب «منتهى الآمال» فيرجع إليه هناك.

وفي سنة تسع عشرة ومئتين أيضاً خرج المعتصم لصدّ أبي جعفر محمد بن القاسم العلوي، ومن المناسب أن نذكر هنا طرفاً من أحواله.

الأسير أبو جعفر محمد بن القاسم الحسيني العلوي

كان محمد ـ وأمه صفية بنت موسى بن عمر بن علي بن الحسين عليهما السلام، وأبوه القاسم بن علي بن عمر بن علي بن الحسين عليهما السلام ـ من أهل العبادة والزهد والورع، ومن أهل العلم والفقه والدين، يلبس الصوف على الدوام، وقد خرج بالكوفة في أيام المعتصم.

لما خرج المعتصم لصده خاف على نفسه فارتحل إلى خراسان، وراح يتنقل منها فلا يستقر بمكان فمرّة إلى «مرو»، ومرة إلى «سرخس»، وأخرى إلى «طالقان»، ورابعة إلى «نسا»، وفيها كان يتعرض إلى حروب ووقائع، وبايعه الكثير من الخلق ملتزمين بطاعته والانصياع إلى أوامره.

يقول أبو الفرج: في برهة قصيرة دخل في بيعته أربعون ألفاً. وذات ليلة حدد موعداً لاجتماع الجيش، وفي تلك الليلة بلغ مسامعه صوت بكاء فخرج يستطلع الأمر فنما إليه أن أحد جنوده استولى عنوة وغصباً على لبّاد يمتلكه رجل نسّاج، وأن هذا البكاء صادر عنه، استدعى محمد ذلك الغاصب الظالم وسأله عن سبب ارتكابه لهذا الفعل الشنيع فقال: لقد بايعناك على أن نستولي على ممتلكات الناس، وأن نفعل ما نشاء!.

أمر محمد باسترداد اللباد ورده إلى صاحبه، ثم قال: بمثل هؤلاء يتعذر العمل على نصر دين الله، ثم أمر بتفرق الجيش، ولما تفرق الناس توجه محمد مع خاصة أصحابه من الكوفيين وغيرهم إلى طالقان، والمسافة بين مرو وطالقان أربعون فرسخاً، فلما بلغ طالقان تقاطر خلق كثير إلى بيعته.

وكان عبد الله بن الطاهر عاملاً للمعتصم على نيسابور فبعث بالحسين بن نوحرا على رأس جيش للقاء محمد، فلما تواجه الجيشان واقتتلا عجز جيش محمد عن الصمود فانهزم.

وفي جولة أخرى ـ وكان الحسين قد تلقى مدداً كبيراً من عبد الله ـ نصب العديد من الكمائن لجيش محمد الذي هزم هذه المرة أيضاً وكان الظفر

من نصيب الحسين، ولجأ محمد إلى التواري في (نسا) لكن عبد الله اكتشف مكانه عن طريق التجسس، فبعث بإبراهيم بن غسان على رأس نخبة من ألف فارس، وأمره بالتسلل خفية إلى (نسا) بمساعدة دليل، والإغارة دفعة واحدة على المكان الذي ينزل فيه محمد وأخذه أسيراً.

بلغ إبراهيم (نسا) بعد ثلاثة أيام فأحاط جنده بمنزل محمد بن القاسم وأمسك به مع أبي تراب أحد خاصته، فقيدهما وقفل عائداً بهما إلى نيسابور فبلغها بعد ستة أيام ودخل بأسيره على عبد الله بن الطاهر، فلما نظر عبد الله إلى محمد ورأى ثقل القيود والأغلال عليه قال لإبراهيم: ويحك! ألم تخش الله حين وضعت هذا العبد الإلهي الصالح في أغلاله؟! قال إبراهيم: أيها الأمير، لقد حبسني الخوف منك عن الخوف من الله.

ثم إن عبد لله أمر بتخفيف القيود عن محمد، واستبقاه في نيسابور ثلاثة أشهر، ولكي يبقى أمر أسيره خافياً على الناس أمر بتجهيز الهوادج على البغال وتوجيهها نحو بغداد ثم عودتها إلى نيسابور حتى يتوهم الناس أن محمداً قد أصبح ببغداد، وهكذا مضت الشهور الثلاثة، فأمر عبد الله إبراهيم بن غسان أن يحمل محمداً في ليلة مظلمة إلى بغداد، ولما تهيأوا للمسير عرض عبد الله على محمد أشياء نفيسة ليأخذ ما يشاء منها، لكن محمداً لم يقبل سوى مصحف أخذه معه.

ولما اقترب الموكب من بغداد أبلغ المعتصم بوصوله فأمر بكشف الهودج الذي يحمل محمداً ونزع عمامته حتى يدخل البلد مكشوفاً عاري الرأس، وهكذا أدخلوا محمداً إلى بغداد على هذا النحو في يوم النوروز سنة تسع عشرة ومئتين يتقدمه أراذل جيش المعتصم وأوباشه باللهو واللعب والرقص والطرب، بينما كان المعتصم يتنزه في موضع مرتفع وهو يضحك، وأصاب محمداً في ذلك اليوم غمّ عظيم وهو الذي لم يعهد عنه جزع أو انكسار في الشدائد قط، لكنه بكى وقال: يا ربّ. أنت تعلم أنني لا أبتغي سوى دفع المنكر وتغيير هذه الأوضاع، وراح يحرك لسانه بالتسبيح والاستغفار واللعنة على أولئك القوم.

ثم إن المعتصم أمر مسروراً الكبير بأن يرميه بالسجن، فحبسوه في سرداب أشبه بالبئر، وكاد من رداءة ذلك المكان أن يهلك، بلغ المعتصم ما هو فيه من شدة فأمر بإخراجه وحبسه في قبة في بستان له، وأقام عليه جماعة يحرسونه.

أما ما جرى عليه بعد ذلك فهناك اختلاف في كلام المؤرخين، ففي حين قال بعضهم إنه قتل مسموماً قال آخرون إنه تمكن من الخروج من محبس البستان وبلغ «واسط» حيث توفي فيها، وقال فريق ثالث إنه بقي حياً في عهد المعتصم والواثق متوارياً حتى أيام المتوكل، حيث أمسكوا به ورموه في السجن حتى وافته المنية هناك.

ويقول بعضهم: إن جماعة من شيعته قدموا من «طالقان» كمزارعين إلى حيث كان سجيناً، وراحوا يشتغلون بالزراعة وغرس الأشجار حتى لاحت لهم فرصة مناسبة فخلصوه من السجن وخرجوا به، ولا ويعلم من أخباره شيء وراء ذلك.

ويعتقد الكثيرون من الزيدية أنه إمام، كما يعتقد فريق منهم أنه هو المهدي الموعود وأنه لم يمت، وسيظهر ليملأ الدنيا قسطاً وعدلاً، وإن اعتقادهم بمحمد بن القاسم أشبه باعتقاد الكيسانية بمحمد بن الحنفية، واعتقاد الواقفية بالإمام موسى بن جعفر عليهما السلام، وهم المعروفون بالممطورة.

وممن استشهد من الطالبيين في أيام المعتصم عبد الله بن الحسين بن عبد الله بن إسماعيل بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب الذي امتنع عن لبس السواد، شعار بني العباس، فحبسوه في سامراء وتوفي في محبسه.

وفي سنة إحدى وعشرين ومئتين توفي الثقة الجليل القدر أحمد بن محمد بن أبي نصر البزنطي، وقد سبق الكلام عن طرف من جلالة قدره عند الحديث عن أيام المنصور.

وفي تلك السنة أيضاً خرج بابك بعد أن جمع جيشاً كبيراً، وكان طامعاً في انتزاع الخلافة من المعتصم، فأرسل المعتصم لحربه جيشاً كبيراً بقيادة أفشين، وجرت بينهما معارك شديدة انتهت بهزيمة بابك، وقد أمسكوه في

موضع من بلاد «أرمينية» ونقلوا الخبر إلى أفشين الذي بعث بأربعة آلاف فارس لحمله إلى سامراء، لكنهم جاءوا به مع أخيه عبد الله إلى «قاطول» على بعد خمسة فراسخ من سامراء، وذلك سنة ثلاث وعشرين ومئتين.

ثم إن أفشين بعث إليه بفيل أشهب مع ناقة مكللة بالجواهر ولباس ثمين وتاج قيم، وألبسوا بابك وعبد الله تلك الملابس المذهبة والمخيطة باللؤلؤ، وأركبوا بابك على الفيل بينما أركبوا أخاه على الناقة، وانتظم جند المعتصم من قاطول إلى سامراء بنسق من صفّين، وعبر بابك وعبد الله بكامل زينتهما بين الصفين، وفي يوم الخميس الثاني من شهر صفر سنة ثلاث وعشرين ومئتين ورد الرجلان على المعتصم، وطيف بهما عدة مرات قبل أن يواجها المعتصم.

التفت المعتصم إلى بابك وقال له: أأنت بابك؟ قال: أنا عبدك وغلامك، أمر المعتصم بلباس بابك فنزع عنه وبيده اليمنى فقطعت، ثم اتبعوها بيده اليسرى، وبعد ذلك بتروا قدميه فتدحرج بابك يتخبط بدمه، ومرّغ وجهه بيده المدمّاة، ثم إنهم قطعوا لسانه وقتلوه أشد قتلة.

ثم إنهم علقوا جسده وأعضاءه المقطعة على خشبة مرتفعة في أقصى سامراء، وبعثوا برأسه إلى بغداد وخراسان حتى يطلع الناس على موته.

أما عبد الله فبعثوا به إلى بغداد، وهناك صنع به إسحاق بن إبراهيم ما صنعه المعتصم بأخيه بابك، وبابك كان اسمه الحسين، وللشعراء أقوال في هذا الباب. وألبس المعتصم أفشين تاجاً من الذهب وخلع عليه ثياباً منسوجة بالذهب، وبالغ في إكرامه، ثم زوج ابنه الحسن بن أفشين من أترجّة بنت أشناس، وأنفق على عرسه مبالغ طائلة.

وفي سنة ثلاث وعشرين ومئتين أيضاً، أو بعدها بسنة توفي أبو عبيد القاسم بن سلاّم (بتشديد اللام)، ومن مصنفاته: «غريب القرآن» و «غريب الحديث» وهو غير أبي عبيدة (بالتاء) معمر بن المثنى البصري، الذي هو نظيره في جميع المراتب. حتى في تصنيف الغريب.

وفي سنة ثلاث وعشرين ومئتين أيضاً أغار نوفل سلطان الروم بعسكره وجنده يرافقه ملوك برجان والصقالبة وغيرهم على بعض بلاد المعتصم ففتحوها وأعملوا القتل في أهلها كبيرهم وصغيرهم، مما دعاهم إلى الاستغاثة وطلب النصرة في المساجد والديار، فدخل إبراهيم بن المهدي على المعتصم وأنشده قصيدة طويلة حرضه فيها على قتال سلطان الروم، ومنها هذان البيتان:

يا غيرة الله قد عاينت فانتهكي هتك النساء وما منهن يرتكب
هبِ الرجال على إجرامها قتلت ما بال أطفالها بالذبح تنتهب

فما إن سمع المعتصم هذا حتى هبّ واقفاً وأمر بإقامة معسكر لجيشه غربيّ دجلة، وكان هذا يوم الاثنين الثاني من جمادى الأولى سنة ثلاث وعشرين ومئتين، ثم نادى منادي المعتصم في الأمصار والبلدان يدعو الناس إلى الجهاد ضد الأعداء، فاجتمع خلق كثير من الجند وسائر المسلمين استعداداً للحرب حتى بلغ عددهم ـ بناءً على قول الأكثرية ـ خمسمئة ألف مقاتل، حتى أنه لم يجر إحصاؤهم لكثرة عددهم، وزحف الناس حتى بلغوا أرض الروم، وهناك التقوا بجيش الروم واشتبكوا في قتال ضار قضي بنتيجته على الكثيرين من بطارقة الروم وجندهم، وركن الروم إلى الفرار فطاردهم المسلمون وفتحوا العديد من حصونهم واستولوا على مدينة «عمورية»، كما تم أسر «ماطس» و «البطريق الكبير» وقتلوا منهم ثلاثين ألفاً وتعرضت بيوتهم للحريق والتدمير طيلة أربعة أيام.

وبعد فتح «عمورية» أراد المعتصم أن يتحول إلى القسطنطينية لفتحها غير أنه بلغه نبأ خروج العباس بن المأمون بعد أن بايعه جمع غفير من الناس، كما علم أنه كاتب سلطان الروم على أن يتحالفا للقضاء على حكم المعتصم، فلا غرو في أن المعتصم سارع إلى صد العباس بن المأمون فأمسك به وطرحه في السجن حيث وافته المنية في السنة نفسها.

وينقل عن «مرآة الزمان» للسبط بن الجوزي أنه بينما كان المعتصم في مجلس أنس وكأس الشراب في يده بلغه أن امرأة شريفة مسلمة أخذت أسيرة

من قبل أحد كفار الروم في «عمورية» وأنه لطمها على وجهها، فصاحت: «وامعتصماه»، فرد عليها ذلك الكافر ساخراً بقوله: لن يأتي المعتصم لخلاصك إلا على حصان أبلق.

ما إن سمع المعتصم هذا الكلام حتى غلب عليه الغم وجاء بكأس شرابه فختمها وناولها إلى الساقي وقال: لن أذوق هذه الكأس ما لم أحرّر تلك المرأة الشريفة وأقتل ذلك الكافر. ولما أسفر الليل عن صباحه وكان ذلك اليوم شديد البرودة والثلج يتساقط، ولم تكن لدى أحد قدرة على إخراج يديه والإمساك بقوسه من شدة البرد نادى منادي المعتصم بالتوجه إلى «عمورية» وأمر جيشه بركوب الخيول البلق.

اعتلى الفرسان سبعين ألف جواد أبلق وركبوا حتى بلغوا عمورية فحاصروها وفتحوها عنوة، ثم دخل المعتصم البلد وهو يقول «لبّيك.. لبيك..» ردّاً على نداء تلك المرأة: «وامعتصماه».

ثم أخذ ذلك الكافر الذي أسر المرأة فقتله، ونزع عن المرأة قيودها وحررها، ثم التفت إلى الساقي وقال: إليّ بشرابي، وتناول الكأس المختومة فرفع الختم عنها وقال: الآن طاب الشراب.

ثم أغار على أموال تلك المدينة، وقتل ثلاثين ألفاً من أهلها، وأسر منهم مثل هذا العدد.

وفي أواخر سنة أربع وعشرين ومئتين توفي الثقة الجليل الشأن الحسن بن محبوب السرّاد صاحب المشيخة، وكان واحداً من أصحاب الإجماع الذين ذكرت أسماؤهم في أيام المنصور.

وفي السنة نفسها توفي إبراهيم بن المهدي المعروف بابن شكلة وقد وردت حكاية غلبته على الخلافة في أيام المأمون، وكان إبراهيم بن المهدي بارعاً في الغناء والضرب على آلات اللهو.

وفي سنة أربع وعشرين ومئتين توفي أبو محمد الحسن بن علي بن

فضال، روى عن الرضا عليه السلام، وكان خصيصاً به، وكان جليل القدر، عظيم المنزلة، زاهداً عابداً ورعاً ثقة في رواياته.

وفي سنة خمس وعشرين ومئتين توفي أفشين في حبس المعتصم، فصلبوا جثته، واسم أفشين هو خيذر بن كاوس، وقيل في وصف صلبه:

رمقوا أعالي جذعه فكأنما　　رمقوا الهلال عشيّة الإفطار

وفي سنة خمس وعشرين ومئتين أيضاً توفي صالح بن إسحاق المعروف بالجرمي النحوي، و «الجرمي بفتح الجيم وسكون الراء: منسوب إلى قبيلة جرم».

وفي تلك السنة أيضاً توفي ببغداد علي بن محمد بن عبد الله البصري المشهور بأبي الحسن المدائني، «وله كتب كثيرة جمة تزيد على مئتي كتاب. منها كتاب: «خطب أمير المؤمنين» عليه السلام. وكتاب: «من قتل الطالبيين» وكتب جمة في فتوحات الإسلام، وكتب كثيرة تنيف على ثلاثين مصنفاً كلها في أحوال النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وغير ذلك».

وفي سنة ست وعشرين ومئتين توفي القاسم بن عيسى المعروف بأبي دُلَف العجلي، وكان واحداً من أمراء المأمون والمعتصم، معروفاً بجودة الشعر ومزيد السخاء والشجاعة، وينقل عن قوّته أنه بضربة واحدة أنفذ رمحه في شخصين، وفي وصف أبي دُلف يقول أبو بكر الشاعر:

قالوا وينظم فارسين بطعنة　　يوم الهياج وما تراه كليلا
لا تعجبوا لو كان طول قناته　　ميلاً. إذاً نظم الفوارس ميلا

ومآثر شجاعة أبي دلف وسخائه كثيرة، وقد مدحه كثير من الشعراء. ومن أقوال أبي بكر فيه أيضاً:

فكفّك قوس والندى وترٌ لها　　وسهمك فيها اليسر فأرم بها عسري

وروي أن أبا دلف وفد على المأمون يوماً فقال له المأمون أأنت من قال الشاعر في حقّه:

إنما الدنيا أبو دلفٍ بين باديه ومحتضره
فإذا ولّى أبو دلفٍ ولّت الدنيا على أثره؟

فقال أبو دلف: لست أذكر هذا القول، غير أني أعلم أنني كما وصفني علي بن جبلة حيث يقول:

أبا دلف يا أكذب الناس كلهم سواي، فإني في مديحك أكذب

سر المأمون لحسن أدائه، وأعجب بذكائه وحضور بديهته.

وحكي أيضاً أنه قال في جواب المأمون: يا أمير المؤمنين، شهادة زور، وقول غرور، وملق معتف سائل، وخديعة طالب مائل أصدق منه، واعترف بي ابن أخت لي حيث يقول:

وزيني أجوب الأرض في طلب الغنى فما الكدج[1] الدنيا ولا الناس قاسم

فأسفر له وجه المأمون.

وكان أبو دلف متصلباً في تشيعه، في حين كان ابنه دلف عدوّاً لأمير المؤمنين عليه السلام، وكان يصم الشيعة بالجهل ويقول: هم يعتقدون أن أعداء علي أولاد زنى أو حيض، والجميع يعلم غيرة الأمير (ويعني أبا دلف أباه) إذ لا أحد يجرؤ على اتهام أبي دلف بالزنى حتى أكون ابن زنى. فلما سمع أبو دلف بهذا وقف في محضر من الناس وقال: هذا الحديث صحيح، وبالله أقسم أن ابني ولد زنى وولد حيض أيضاً، وعلة ذلك أني اعتللت مرة فأوفدت أختي أمَّ دلف لتمريضي والاعتناء بي، وكانت حائضاً، فلما رأيتها أعجبتني وزنيْتُ بها، فحملت، ولما ظهرت عليها آثار الحمل تزوجتها، وعلة نصب ابني هي الزنى بأمه الحائض.

وفي سنة ست وعشرين ومائتين أيضاً أو بعدها بسنة توفي بشر بن

(١) الكَدَج: بلدة بين أصبهان وهمذان، ابتدأ بعمارتها عيسى بن إدريس وأتمّها ابنه أبو دلف (المعرب عن أعيان الشيعة).

الحارث الحافي المعروف، وأصله من مرو، وكان في بادىء أمره رجلاً مدمناً على معاقرة الخمر والاستماع إلى آلات الموسيقى والطرب وسائر الملاهي، وذات يوم كان الإمام موسى بن جعفر صلوات الله عليهما ماراً أمام دار بشر فسمع أصوات اللهو والغناء تنبعث منها، ورأى جارية على باب الدار فقال لها: أيتها الجارية، مولاك حرّ أو عبد فقالت: حرّ، فقال لها: صدقت، فلو كان مولاك عبداً لعمل بمقتضى العبودية وخاف الله تعالى.

دخلت الجارية إلى الدار وأخبرت بشراً بذلك، فتأثر بشر من هذا الكلام وخرج حافياً من الدار يعدو خلف الإمام حتى وصل إليه وأعلن توبته على يديه، ثم هجر البيت وحياة اللهو وبقي يمشي حافياً طول عمره[١]، كونه قابل الإمام عليه السلام حافياً، وفاز بسعادة التوبة، ولهذا لقب بالحافي، وكان له ثلاث أخوات انتهجن نهجه، والصوفيون يعتقدون به تمام الاعتقاد.

وفي سنة وفاة بشر، أو في سنة خمس وثلاثين ومئتين توفي بسرّ من رأى محمد بن الهذيل المعروف بأبي الهذيل العلاف شيخ المعتزلة البصريين، ومناظراته ومقالاته معروفة[٢].

وفي سنة سبع وعشرين ومئتين في يوم الخميس الثاني عشر من شهر ربيع الأول، أو لساعتين مضتا من ليلة الخميس توفي المعتصم بسامراء،

---

(١) نقل بعضهم أن بشراً سئل عن سر مشيه حافياً فقال: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا﴾، وليس من الأدب أن تمشي بالحذاء على بساط الملوك.

(٢) في كتاب «العيون والمحاسن»: وحدثني الشيخ أبو عبد الله، أي: المفيد أيده الله قال: سأل علي بن ميثم أبا الهذيل العلاف فقال له: ألست تعلم أن إبليس ينهى عن الخير كله، ويأمر بالشر كلّه؟ فقال بلى، قال: فيجوز أن يأمر بالشر كله وهو لا يعرفه، وينهى عن الخير كله وهو لا يعرفه؟ قال: لا، فقال له أبو الحسن: قد ثبت أن إبليس يعلم الشر كله والخير كله، قال أبو الهذيل: أجل، قال: فأخبرني عن إمامك الذي تأتمّ به بعد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، هل يعلم الخير كله والشر كله؟ قال: لا، قال له: فإبليس أعلم من إمامك إذاً، فانقطع أبو الهذيل (منه ره).

وسبب ذلك أنه احتجم فحمّ فمات، كانت ولادته في الشهر الثامن من السنة الثامنة والسبعين بعد المئة، وامتد حكمه ثماني سنوات وثمانية أشهر وثمانية أيام، وكان ثامن خلفاء بني العباس وثامن أولاد العباس، وقد أعقب ثمانية أبناء وثماني بنات، وكانت تركته ثمانية آلاف دينار وثمانية عشر ألف ألف درهم، وثمانية آلاف فرس، وثمانية آلاف بغل، والعدد نفسه من الإبل والمماليك والجواري، كما ذكر المسعودي والدميري وغيرهما، ولهذا السبب ينسب إلى الرقم الثامن ويقال له: «الثماني».

وجاء في «أخبار الدول» أن فتوحاته كانت ثمانية أيضاً، وأنه شاد ثمانية قصور كذلك. وكان المعتصم أمياً لا يحسن شيئاً من الكتابة، وقام بالكثير من الفتوحات من جملتها عمورية وتقع في أقصى بلاد الروم، وكان رجلاً مهيباً وعنيفاً، والله العالم.

خلافة أبي جعفر هارون الواثق

في الثاني عشر من ربيع الأول سنة سبع وعشرين ومئتين، اليوم الذي فارق المعتصم فيه الحياة، تبوأ مقعده في الخلافة ابنه هارون الواثق، وتقبّل البيعة من الناس، كانت أمه جارية رومية تسمى قراطيس، وكان وزيره محمد بن عبد الملك الزيّات، وكان أحمد بن أبي داود قاضي القضاة في عهده، وكانت لهذين الرجلين مكانة عظيمة ومنزلة رفيعة عند الواثق.

كان الواثق رجلاً أكولاً، وكان الأمر بإحضار المآكل والمشارب شغله الشاغل، بينما أوكل شؤون مملكته إلى ابن أبي داود ومحمد بن عبد الملك، وكان يعطف على أهل بيته ورعيته ويتفقد شؤونهم، يحب أهل العلم والرأي ويعادي أهل التقليد، ويكثر من المطالبة بالاطلاع على العلوم. لهذا كانت مجالسه حافلة بالبحث في علوم الفلسفة والطب وغيرهما، وكان ابن بختيشوع وابن ماسويه وميخائيل والأدباء من كل فنّ يواظبون على ملازمة مجلسه، والبحث في شتى العلوم والفنون. ويقال: إن جارية كانت تتغنى في مجلس الواثق بهذا البيت:

أظــلــيــم إن مــصــابــكــم رجــلاً أهــدى الــســلام تــحــيــةً ظــلــم

فلفظت «رجلاً» بالنصب، فاختلف أدباء مجلس الواثق في الرفع والنصب، «فقالت فرقة: رفعه هو الصواب، وقالت طائفة: لا يجوز فيه إلا الانتصاب» وأصرت الجارية المغنية على أنها سمعته من أبي عثمان المازني بالنصب، فأمر الواثق بإحضار المازني من البصرة إلى سامراء.

وكان من غرائب ما اتفق وقوعه أن رجلاً من أهل الذمة جاء المازني في تلك الأيام وطلب أن يتلقى عليه دراسة «الكتاب» لسيبويه، لكن المازني امتنع عن تدريسه رغم أن الذمي عرض تقديم مئة أشرفي[1] من الذهب الأحمر. فسأله المبرّد قائلاً: لماذا لم تقبل في حين أنك في أمس الحاجة وغاية الفاقة؟ فأجابه بقوله: هذا الكتاب يضم ثلاثمئة وبضع آيات من كتاب الله تعالى، ولم أر من المناسب أن أسلط كافراً على آيات كتاب الله تعالى.

خلاصة الكلام: عجّل المازني بالمثول أمام الواثق، وعن إعراب ما ورد في البيت موضوع السؤال فقد صوّب النصب، فراح أحدهم يناقشه، قال المازني: هذه العبارة إنما هي بمثابة القول: ضرْبُك زيداً ظلمٌ، وكان الظفر من نصيب المازني، فأمر له الواثق بألف دينار من الذهب الأحمر.

وفي هذه الواقعة كرامة ظاهرة للقرآن المجيد، وبالتأمل فيها يغدو معلوماً إلى أي درجة بلغت الرغبة في العلم والأدب عند الناس، فكم جرّ الحصول على معرفة إعراب كلمة واحدة من تعب وجهد، وكان معيار قيمة الكلمة الواحدة ألف دينار ذهبي، أما في هذا الزمان فإن ألف مسألة معضلة من العلوم المتفرقة لا تشترى بدينار واحد، وتعتبر المطالعة والبحث إضاعة للعمر!! والله المستعان.

وفي أيام الواثق سنة ثمان وعشرين ومئتين، أو سنة إحدى وثلاثين ومئتين على قول، توفي بالموصل حبيب بن أوس الطائي[2] المعروف بأبي تمام صاحب «الحماسة»[3]، وكان أبو تمام إمامي المذهب، وقال فيه

---

(١) الأشرفي: عملة ذهبية كانت رائجة في إيران زمن الملك أشرف القاجاري (عن المعجم الذهبي) المعرّب.

(٢) اعلم أن العلماء قالوا: خرج من قبيلة طيىء ثلاثة رجال كلّ منهم فريد في بابه: حاتم الطائي في الجود، وداود الطائي في الزهد، وأبو تمام في الشعر (منه ره).

(٣) سبب تسمية ديوان أبي تمام بالحماسة، هو أن الديوان يجمع أشعار الأوائل في وصف الحماسة، أي الشجاعة، ولهذا أطلقوا مجازاً على الديوان بمجمله تسمية الحماسة. كذا في «رياض العلماء». (منه ره).

ابن خلّكان: «قيل إنه يحفظ أربعة عشر ألف أرجوزة للعرب، غير القصائد والمقاطيع. وقد مدَح الخلفاء وأخذ جوائزهم» انتهى.

ولم يزل شعره غير مرتب حتى جمعه أبو بكر الصولي ورتبه على الحروف، ثم جمعه علي بن حمزة الأصبهاني.

وإجمالاً فلأبي تمام في صناعة الشعر محل منيع ومرتبة رفيعة، وكان إبراهيم بن مدبر - مع كونه من أهل العلم والمعرفة والأدب - لا يحفظ شيئاً من شعره، ذلك أنه كان يبغضه ويعاديه، حتى أنه يلعنه ويسبه أحياناً، وذات يوم أنشده شخص أشعاراً لأبي تمام دون أن ينسبها إليه، فأسفر له وجه إبراهيم وأمر ابنه أن يخط هذه الأشعار على ظهر كتاب، وبعد إن خُطّت قال بعضهم: أيها الأمير، هذه الأشعار لأبي تمام، فلما سمع إبراهيم ذلك أمر ابنه بتمزيق تلك الصفحة.

لم يستحسن المسعودي هذا العمل من ابن مدبر وقال: هذا العمل قبيح منه، فعلى العاقل أن يأخذ الفائدة سواء كانت من عدو أو صديق، ومن وضيع أو شريف، فقد روي عن أمير المؤمنين عليه السلام قوله: **«الحكمة ضالة المؤمن، فخذ ضالتك ولو من أهل الشرك»**.

ونقل عن بزرجمهر الحكيم قوله: لقد أخذت عن كل شيء صفته الحسنى، حتى عن الكلب والقط والخنزير والغراب، فقيل له: وماذا تعلمت من الكلب قال: ألفته بصاحبه ووفاؤه، قيل: وماذا تعلمت من الغراب؟ قال: شدة احتراسه وحذره، قيل: ومن الخنزير ماذا تعلمت؟ قال: بكوره في طلب حوائجه، قيل: وماذا أخذت عن القط؟ قال: حسن نغمه وكثرة تملّقه في المسألة.

وفي سنة ثمان وعشرين ومئتين أيضاً توفي محمد بن عبد ربّه صاحب «العقد الفريد».

وفي سنة ثلاثين ومئتين توفي عبد الله بن الطاهر.

وفي سنة إحدى وثلاثين ومئتين توفي أبو عبد الله محمد بن زياد الكوفي

المعروف بابن الأعرابي النحوي اللغوي، «وكان يقول: ولدت في الليلة التي مات فيها أبو حنيفة، وذلك في رجب سنة خمسين ومئة».

وفي سنة إحدى وثلاثين ومئتين أيضاً قتل الواثق أحمد بن نصر الخزاعي لعدم قوله بخلق القرآن، ونقل الدميري حكاية عن أن الواثق رجع عن هذا الاعتقاد، وتوقف عن البحث بهذا الصدد.

كما نقل الدميري أن الواثق كان يميل إلى الجماع ميلاً شديداً. فطلب من طبيبه أن يصف له دواء لقوة الباه. قال الطبيب: كثرة الجماع تهدم البدن وأنا لا أحب لك ذلك، فقال الواثق: أليس هناك من تدبير آخر؟ فأمر الطبيب بلحم سبع فطبخ مع شراب الخل حتى يفور سبع مرات، ثم أن يتناول منه ما زنته ثلاثة دراهم، لكن الواثق لم يعمل بإشارة الطبيب، فتجاوز المقدار المخصص وأكثر منه، ولم يطل به الوقت حتى ابتلي بمرض الاستسقاء، وأجمع الأطباء على شق بطنه، فأجلسوه في تنور حتى يحمى بحرّ نار الزيتون ويحمرّ بدنه. فصنعوا به ذلك، ثم منعوا عنه الماء ثلاث ساعات وهو لا يفتأ يستغيث ويطلب الماء، كما طفح جلده بحباب السخونة، واستحال لونه إلى الحمرة بلون البطيخ، فأخرجوه وهو يصيح: أعيدوني إلى التنور أو سأموت، فأعادوه إليه فتوقف عن الصراخ، ثم إن الأورام تفجرت وخرج الماء منها، فأخرجوه من التنور وقد غدا بدنه أسود اللون، ثم مات بعد ساعة، فسحبوا قطعة قماش على وجهه، وانصرف الناس إلى بيعة المتوكل، غافلين عن دفن الواثق، فخرجت من حديقة القصر بضعة فئران فقأت عيني الواثق، ولم ينتبه أحد لذلك إلا حين تغسيله.

كانت وفاته لستة أيام بقين من ذي الحجة سنة اثنتين وثلاثين ومئتين بسرّ من رأى، وقال بعضهم: توفي في شهر رجب، وكان قد بلغ حوالي الرابعة والثلاثين من العمر، وامتد حكمه خمس سنوات وتسعة شهور وثلاثة عشر يوماً.

خلافة جعفر بن محمد بن هارون

الملقب بالمتوكل

بعد هلاك الواثق حل محله في الحكم أخوه جعفر بن محمد بن هارون المتوكل، وكان ذلك سنة اثنتين وثلاثين ومئتين بعد انقضاء مئتي سنة على وفاة العباس بن عبد المطلب، وانقضاء مئة سنة على خلافة أبي العباس السفاح.

ولما استولى المتوكل على الخلافة أمر الناس بالتخلي عن البحث والاستدلال والرأي، على العكس من المعتصم والواثق، وأمر المحدثين بتحديث وإظهار السنّة والجماعة، وحمل الناس على التسليم والتقليد، وكان عهده عهد لهو وهزل ولعب وطرب، وأكثر من هذا في مجالسه خاصة، وكان أقرب الأمراء إلى المتوكل الفتح بن خاقان التركي، وكان الفتح على جانب من العلم والأدب، وفاز عند المتوكل بحظوة ومكانة عظيمتين.

بعد مضي بضعة شهور من خلافة المتوكل غضب على محمد بن عبد الملك الزيّات، فصادر جميع أمواله وعزله من الوزارة، وكان محمد بن عبد الملك قد صنع تنوراً من الحديد وثبّت فيه مسامير بحيث جعل رؤوسها تبرز من باطن التنور، فمن أراد تعذيبه أمر بتسخين التنور بحطب الزيتون حتى يحمر، ثم يلقى به في ذلك التنور، فيلقى أشد العذاب من وقوعه على تلك المسامير وضيق المكان حتى يهلك.

ولما غضب المتوكل على محمد أمر بأن يرمى به في ذلك التنور الحديدي، فبقي يقاسي العذاب في التنور أربعين يوماً حتى هلك، وفي اليوم

الأخير من حياته طلب ورقاً ودواة وكتب هذين البيتين وبعث بهما إلى المتوكل:

هي السبيل فمن يوم إلى يوم كأنه ما تريك العين في نوم
لا تجزعنّ رويداً إنها دول دنيا تنقّل من قوم إلى قوم

لم تسنح الفرصة كي يبعثوا بالرقعة إلى المتوكل، وعندما تسلّمها في اليوم التالي أمر بإخراج محمد من التنور، فلما بلغوا التنور وجدوا محمداً قد فارق الحياة.

كان محمد كاتباً بليغاً وشاعراً مجيداً، والمقام لا يتسع لإيراد نوادر أموره ومحاسن أشعاره.

أخذ المتوكل في حياته البيعة لثلاثة من بنيه هم: المنتصر بالله، وأبو عبد الله المعتز بالله، والمستعين بالله (إبراهيم المؤيد بالله ـ خ ل)، وقد أشار ابن مدبر إلى هذه البيعة في شعره:

يا بيعة مثل بيعة الشجرة فيها لكل الخلائق الخيرة
أكدها جعفر وصيّرها إلى بنيه الثلاثة البررة

كما أن المتوكل في أيامه أمر بإحضار عمرو بن بحر الجاحظ إلى سامراء معلّماً لبعض بنيه، فلما وقع نظره عليه ورأى دمامته رجع عن قراره، وأمر بإعطائه عشرة آلاف درهم وإعادته إلى مدينته.

وفي أيام حكم المتوكل سنة ثلاث وثلاثين ومئتين توفي يحيى بن معين[1] بالمدينة، وقال بعضهم: إن علي بن محمد المدائني توفي في تلك السنة أيضاً، وقيل إن معيناً أبا يحيى كان خراج الري في يده، ولما توفي أورث ابنه يحيى ألف ألف وخمسين ألف درهم أنفقها يحيى على الحديث.

وخلّف من الكتب مئة قمطر وثلاثين قمطراً، وأربع حباب شرابية مملوءة كتباً، وهو صاحب «الجرح والتعديل»، وكتب بيده ستمئة ألف حديث.

---

(١) معين على وزن أمين المرّي من أهل الأنبار من قرية يقال لها نقياي (منه ره).

(قلت): ونظيره في أصحابنا الإمامية شيخنا الثقة الجليل أبو النضر محمد بن مسعود بن محمد بن عياش (بالشين المعجمة) السمرقندي المعروف بالعيّاشي، فإنه كان في أول عمره عامي المذهب وسمع أحاديث العامّة، ثم تبصّر وعاد إلينا، وأنفق على العلم والحديث تركة أبيه سائرها (أي تمامها) وكانت ثلاثمئة ألف دينار، وكانت داره كالمسجد ـ بين ناسخ أو مقابل أو قارٍ أو معلق ـ مملوءة من الناس، وصنّف كتباً كثيرة تزيد على مئتي مصنّف، وكان أكثر أهل المشرق علماً وأدباً وفضلاً وفهماً ونبلاً في زمانه، وكان له مجلس للخاص ومجلس للعام، شكر الله مساعيه الجميلة.

ومن تلاميذه وغلمانه (في مصطلح أهل الرجال) الشيخ أبو عمرو محمد بن عمر بن عبد العزيز الكشّي، نسبة إلى كش (بفتح الكاف وتشديد الشين) قرية بجرجان المشرق، وهو صاحب كتاب «الرجال» المشهور، الذي لخصه الشيخ الطوسي رضوان الله عليه وسمّاه «اختيار الرجال» الذي هو بأيدينا دون أصله.

وفي سنة خمس وثلاثين ومئتين، أو بعدها بسنة، توفي عبد السلام بن رغبان المعروف بديك الجن الشاعر الإمامي المعروف.

ولديك الجن قصة لطيفة مع الرشيد وذكرها الشيخ يوسف البحراني في «كشكوله»، وشيخنا المحدث النوري في كتاب «ظلمات الهاوية» وفي «كشكول» شيخنا البهائي في ترجمة عبد السلام المذكور.

وكانت له جارية وغلام قد بلغا في الحسن أعلى الدرجات، وكان شغوفاً بحبهما غاية الشغف فوجدهما في بعض الأيام مختلطين تحت إزار واحد، فقتلهما وأحرق جسديهما وأخذ رمادهما وخلط به شيئاً من التراب وصنع منه كوزين للخمر، وكان يحضرهما في مجلس شرابه، ويضع أحدهما عن يمينه والآخر عن يساره، فتارة يقبل الكوز المتخذ من رماد الجارية وينشد:

يا طلعة طلع الحمام عليها ... [وجنى لها ثمر الردى بيديها

روّيت من دمها الثرى ولطالما ... روّى الهوى شفتي من شفتيها

وتارة يقبل الكوز المتخذ من رماد الغلام وينشد:

قـبّـلـتـه وبـه عـلـيّ كـرامـة فـلـه الـحـشـا ولـه الـفـؤاد بـأسـره
عـهـدي بـه مـيـتـاً كـأحـسـن نـائـم والحزن يسفح أدمعي في حجره][1]

وفي سنة سبع وثلاثين ومئتين توفي إسحاق بن إبراهيم الحنظلي المعروف بابن راهويه من أكابر علماء السنّة، وهو أستاذ البخاري ومسلم والترمذي، وكان معروفاً بحفظ الحديث والفقه، وقال فيه أحمد بن حنبل: «ما عبر الجسر أفقه من إسحاق» وقال إسحاق: «أحفظ سبعين ألف حديث، وأذاكر بمئة ألف حديث، وما سمعت شيئاً قط إلا حفظته، ولا حفظت شيئاً قط فنسيته».

وفي حدود سنة سبع وثلاثين ومئة توفي بخراسان أبو عبد الرحمان حاتم بن عنوان البلخي، ووجه تلقّبه بالأصم لأنه كما قيل: جاءت لعنده امرأة فسألته مسألة، واتفق أن خرج منها صوت في تلك الحالة فخجلت، فأرى من نفسه أنه أصم، فسرّت المرأة بذلك وقالت: إنه لم يسمع الصوت!.

وله كلمات ظريفة، منها قوله:

«الزم بيتك... فإن أردت الصاحب فالله يكفيك، وإن أردت الرفيق فرفيقانك يكفيانك، والقرآن يؤنسك، وذكر الموت يعظك».

ومنها قوله: «العجلة من الشيطان إلا في خمس: إطعام الطعام إذا حضر ضيف، وتجهيز الميت إذا مات، وتزويج البكر إذا أدركت، وقضاء الدين إذا وجب، والتوبة من الذنب إذا أذنب، وكل ذلك مأخوذ من الشريعة».

ومن كلماته: لا تغترّ بموضع صالح.. فلا مكان أصلح من الجنة فلقي منها آدم ما لقي، ولا تغتر بكثرة العبادة.. فإن إبليس بعد طول تعبّده لقي ما

(١) ما بين القوسين أغفله المصنف (ره)، وقد أوردته نقلاً عن «كشكول» الشيخ البهائي استتماماً لمجريات الواقعة (المعرّب).

لقي، ولا تغتر بكثرة العلم.. فإن بلعام بن باعورا كان يحسن اسم الله الأعظم فانظر ماذا لقي، ولا تغتر برؤية الصالحين.. فلا شخص أكبر من المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم لم ينتفع بلقائه أقاربه وأعداؤه».

وفي سنة تسع وثلاثين ومئتين، وعلى قول في سنة اثنتين وثلاثين نفى المتوكل عليَّ بن الجهم الشاعر من بلده، وبعث به إلى خراسان.

وفي سنة أربعين ومئتين توفي أحمد بن أبي داود، وفي شهر ربيع الآخر من سنة إحدى وأربعين ومئتين توفي أحمد بن حنبل، ودفن في باب الحرب ببغداد، ولما تحركت جنازته اجتمع خلفها خلق كثير من أصدقاء وأعداء، وإبان تشييعه وقع أمر عجيب، فقد كانت جماعة من أولئك الناس من المعادين لأحمد، وكان أحدهم لا يفتأ ينادي: أيها الناس العنوا هذا الرجل الذي كان يفتي بما يضادّ الأحكام الشريفة، بينما كانت جماعة أخرى ممن غالوا في محبته قد عينوا شخصاً كي يتقدم الجنازة، وينشد بصوت عال ويقول:

وأظلمت الدنيا لفقد محمد[1] وأظلمت الدنيا لفقد ابن حنبل

وأحمد بن حنبل هو أحد أئمة أهل السنّة الأربعة، وينتهي نسبه إلى ذي الثدية كبير الخوارج ولهذا اتصال بما اشتهر عن انحرافه، وكان ابن حنبل من خاصة أصحاب الشافعي، وصاحب كتاب «المسند». وكان يقول:

«جمعت في «المسند» أحاديث انتخبتها من أكثر من سبعمئة ألف وخمسين ألفاً، فما اختلفتم فارجعوا إليه، وما لم تجدوا فيه فليس بحجة».

وقد جوّز أحمد بن حنبل لعن يزيد، وكان يقول بعدم خلق القرآن. ولهذا فقد تفاقمت محنته في أيام الخلفاء من حبس وجلد وغيرهما.

وفي سنة إحدى وأربعين ومئتين أيضاً توفي أبو جعفر محمد بن عبد الله بن محمد الإسكافي المعتزلي التفضيلي. وهو الذي ألّف كتاب

---

(١) مراده محمد بن إدريس الشافعي.

«النقض على الرسالة العثمانية» للجاحظ، وينقل عنه ابن أبي الحديد في «شرح النهج» كثيراً، وقال في حقه:

«وأما أبو جعفر الإسكافي فهو شيخنا محمد بن عبد الله الإسكافي، عدّه قاضي القضاة في الطبقة السابعة من طبقات المعتزلة مع عباد بن سليمان الصيمري، وساق الكلام إلى أن قال: وكان أبو جعفر فاضلاً عالماً، وصنف كتاباً في علم الكلام، وهو الذي نقض كتاب «العثمانية» على أبي عثمان الجاحظ في حياته.

ودخل الجاحظ الورّاقين ببغداد، فقال: من هذا الغلام السوادي الذي بلغني أنه تعرض لنقض كتابي؟ وأبو جعفر جالس، فاختفى منه حتى لم يره، وكان أبو جعفر يقول بالتفضيل، على قاعدة معتزلة بغداد ويبالغ في ذلك، وكان علوي الرأي، محققاً منصفاً قليل العصبية». انتهى.

قلت: وللسيد الأجلّ أحمد بن موسى الطاووس «قده» صاحب كتاب «الملاذ والبشرى» أيضاً كتاب في النقض على العثمانية سمّاه كتاب «بناء المقالة العلوية في نقض الرسالة العثمانية»، وقد عثرت على نسخة منه بخط تلميذه الشيخ تقي الدين الحسن بن داود صاحب «الرجال» المعروف، وقرأه على السيد، وكان على حواشيه خطّه رضوان الله عليه.

ثم اعلم أن الإسكافي (بالكسر) في مصنفات أصحابنا يطلق غالباً على الشيخ الجليل محمد بن أحمد بن الجنيد الإسكافي، من مشايخ المفيد وابن عبدون، وقد يطلق على الشيخ الأقدم أبي علي محمد بن همام الإسكافي، الكاتب المعاصر للشيخ الكليني (قده).

وفي سنة إحدى وأربعين ومئتين، في ليلة الخميس السادسة من جمادى الآخرة تساقطت نجوم كثيرة من السماء. مما لم ير مثيل له.

وجاء في «رسالة العلماء» نقلاً عن كتاب «المدهش» لابن الجوزي - وهو كتاب في الوقائع العجيبة في أحداث سنة إحدى وأربعين ومئتين - أن

النجوم اضطربت في مسيرها من الغروب حتى ظهور الشفق وتبعثرت، وفي السنة التالية جرى في «السويدا» ـ وهي ناحية من نواحي مصر ـ أن أمطرت السماء حجارة وقد بلغ وزن إحداها عشرة أرطال، ووقع زلزال عمّ دفعة واحدة مناطق الري وجرجان وطبرستان ونيسابور وأصفهان وقم وكاشان ودامغان، حيث انفصل جبل عن جبل فمال كل منهما إلى جانب، وكان عدد الضحايا في دامغان خمسة وعشرين ألف قتيل.

وفي سنة اثنتين وأربعين ومئتين توفي بالربذة يحيى بن أكثم القاضي، وكان هذا حين غضب عليه المتوكل وصادر أمواله، فلا غرو أن تحوّل يحيى إلى مكة فوافاه الأجل وهو في طريق عودته، وقد تقدم إيراد نبذ عن سيرته في أيام المأمون.

وفي الخامس من رجب سنة أربع وأربعين ومئتين توفي يعقوب بن إسحاق المعروف بابن السكّيت، وكان مؤدباً لأبناء المتوكل، وذات يوم سأله المتوكل: هل ولداي المعتز والمؤيّد أفضل عندك أم الحسن والحسين فراح ابن السكيت يعدد فضائل الحسنين عليهما السلام فأمر المتوكل الأتراك بأن يقوموا بدغدغة أسفل قدميه وفرك معدته حتى مات.

وعلى قول آخر: إن ابن السكيت قال للمتوكل مجيباً: إن قنبراً خادم علي عليه السلام أفضل منك ومن ولديك، فأمر المتوكل بأن يستلّوا لسانه من قفاه. وكان يقال له ابن السكّيت لكثرة صمته وسكوته.

وفي سنة خمس وأربعين ومئتين توفي بمصر ثوبان بن إبراهيم المعروف بذي النون المصري.

وهو أحد رجال الطريقة، ونوادر حكاياته كثيرة. حكي عنه أنه قال: وجدت على صخرة في بيت المقدس مكتوباً هذه الكلمات:

«كل خائف هارب، وكل راجٍ طالب، وكل عاصٍ مستوحش، وكل طائع مستأنس، وكل قانع عزيز، وكلّ طامع ذليل».

فنظرت فإذا هذا الكلام أصل لكل شيء.

وفي سنة خمس وأربعين ومئتين أيضاً توفي الشيخ أبو ملحم محمد بن هشام بن عوف الشيباني اللغوي المشهور بكثرة حفظه، وينقل عنه ما ملخصه أن الواثق رأى في المنام قائلاً قال له: «لا يهلك على الله إلا من قلبه مرت» فأصبح فسأل جلساءه عن ذلك فلم يعرفوا. فسُئل أبو ملحم فقال: المرت من الأرض: القفر الذي لا نبت فيه، فالمعنى على هذا: لا يهلك إلا من قلبه خال من الإيمان، ثم استشهد على هذا بمئة بيت معروف لشاعر معروف، في كل بيت منها ذكر المرت، فأمر له الواثق بألف دينار.

ولما قدم مكة ولزم ابن عيينة امتحنه ابن عيينة فوجده حفوظاً، فقال: حدثني الزهري عن عكرمة قال: قال ابن عباس: يقال إنه يولد في كل سبعين سنة من يحفظ كل شيء. ثم ضرب بيده إلى جنب أبي ملحم وقال: أراك صاحب السبعين.

وفي سنة ست وأربعين ومئتين توفي دعبل بن علي الخزاعي الإمامي الشاعر المعروف، وكانت ولادته سنة وفاة مولانا الصادق عليه السلام، وهو الذي هجا الخلفاء، وكان له جرأة عظيمة، وطال عمره، وكان يقول: «أنا، خمسين سنة أحمل خشبتي على كتفي أدور على من يصلبني عليها فما أجد من يفعل ذلك».

وهو صاحب التائيّة المشهورة التي تبلغ مئة وعشرين بيتاً رائقاً، وله حكاية لطيفة في إنشادها على مولانا الرضا عليه السلام وأخذه الصرّة والجبّة ورجوعه إلى وطنه، وما اتفق له من اللصوص في طريقه، وما اتفق له من أهل قم.

ويحكى عنه أنه قيل له: ما الوحشة عندك؟ فقال: النظر إلى الناس، ثم أنشد:

ما أكثر الناس، بل ما أقلّهم   الله يعلم أني لم أقل فندا
إني لأفتح عيني ثم أفتحها   على كثير ولكن لا أرى أحدا.

ودعبل كزبرج، اسم للناقة الشارف، وكان يقول: مررت يوماً برجل قد

أصابه الصرع، فدنوت منه وصحت فيه بأعلى صوتي، فقام يمشي كأنه لم يصبه شيء.

وفي سنة سبع وأربعين ومئتين توفي إبراهيم بن عباس الصولي، الكاتب الشاعر، وقد قيل: لم يُر له كتاب شعر في الأوساط.

وفي هذه السنة أيضاً قتل المتوكل بيد غلام تركي، ويقول الدميري في سبب مقتله:

كان المتوكل عدوّاً لأمير المؤمنين عليه السلام وما زال ينتقص منه، وذات يوم، وجرياً على عادته المشؤومة أورد اسم الإمام عليه السلام وراح يتجرأ عليه بالقول، وكان المنتصر ابنه حاضراً، فلما سمع قول أبيه تغير لونه وبان عليه الغضب، فما كان من المتوكل إلا أن شتمه ثم أنشد:

غضب الفتى لابن عمّه رأس الفتى في حرّ أمه

انصرف المنتصر إلى الإعداد لقتل أبيه، فكلّف بعضاً من خاصة غلمانه بذلك، وذات ليلة، وكان المتوكل في قصره مشغولاً بشرب الخمر، وقد أخذ السكر منه مأخذه، وكان بغاء الصغير غلامه داخل القصر، ثم إنه صرف الندماء فخرجوا جميعاً، ولم يتبق سوى الفتح بن خاقان، وهنا دخل الغلمان المكلفون بقتل المتوكل بسيوف مشهورة وانقضوا على المتوكل، فلما رأى الفتح ذلك صرخ بهم: ويلكم، أتريدون قتل أمير المؤمنين؟ ثم إنه رمى بنفسه فوق المتوكل، ونزل الغلمان بالسيف عليه وعلى المتوكل معاً، وسالت دماء كليهما، ثم خرج الغلمان وتوجهوا إلى المنتصر بالله يبايعونه بالخلافة. وكان مقتل المتوكل لثلاث ساعات مضت من ليلة الأربعاء الثالثة أو الرابعة من شوال سنة سبع وأربعين ومئتين، بعد أن امتد حكمه أربعة عشر عاماً وعشرة شهور، وكانت سنّه إحدى وأربعين سنة، كانت أمه جارية خوارزمية.

كان المتوكل رجلاً خبيث السيرة سيىء السريرة، يكن لآل أبي طالب أشد العداء، يأخذهم على الظن والشبهة، ولا يفتأ ينزل بهم الأذى والعذاب،

وكان وزيره الفتح بن خاقان كذلك، ولهذا فإن ما جرى على العلويين وآل أبي طالب في عهده فاق ما نزل بهم في عهد أي من خلفاء بني العباس الآخرين.

كان عمر بن فرح الرخجي الذي عينه والياً على مكة والمدينة يحبس العطاء عن آل أبي طالب ويمنع الإحسان إليهم، ويتعقبهم بشدة في هذا الصدد، فإذا ما بلغه أن أحداً مدّ إليهم يده بإحسان مهما كان قليلاً عاقبه وعذّبه، فلا غرو أن الناس توقفوا عن رعاية الطالبيين، وبلغت شدة الإعسار والمعاناة بهم أن ملابس نسائهم العلويات أضحت بالية رثة حتى لم يتبق لديهن ما يصلح لارتدائه عند الصلاة سوى ثوب واحد، يتناوبن عليه واحدة إثر الأخرى إذا أردن الصلاة، وكنّ إذا انصرفت إحداهن من الصلاة عادت إلى ثوبها البالي، وامتدت الأيام بآل أبي طالب على هذا النحو حتى هلك المتوكل وحلّ محله المنتصر بالله الذي شرع لهم طريق العطف وبعث إليهم أموالاً وزعت فيما بينهم.

منع المتوكل الناس من زيارة الحسين عليه السلام

ومن جملة فعال المتوكل في عهده أنه منع الناس من زيارة قبري أمير المؤمنين والحسين عليهما السلام، وصرف همته وجهده على أن يطفىء نور الله ويمحو آثار قبر الحسين المطهر عليه السلام، فأمر بهدمه وحراثة أرضه وزرعها، ثم وزع جواسيسه وزبانيته على الطرق والمنافذ الموصلة إلى كربلاء، يمسكون بكل من يأتي لزيارة المكان المطهر، ويحيلونه إلى التعذيب حتى القتل.

ويروي أبو الفرج عن أحمد بن الجعد الوشّاء الذي يروي عن أناس أدركوا عهد المتوكل وشهدوا هذه الواقعة فيقول:

إن السبب في عزم المتوكل على محو آثار القبر الشريف هو أن إحدى المغنيات كانت تبعث إليه بجواريها يغنّين له في مجلس شرابه، وذلك قبل توليه الخلافة واستمر الحال على ذلك حتى تسلم هذا الفاسد الحكم، وذات يوم أرسل في طلب تلك المغنية كي تبعث إليه بجواريها، فقيل له: إنها مسافرة.

كان الوقت إذ ذاك في شهر شعبان، وكنت قد سافرت إلى كربلاء، وبعد إيابها بعثت إلى المتوكل بإحدى جواريها تغني له، فسألها المتوكل قائلاً: أين كنتم في تلك الأيام قالت: صحبنا سيدتي إلى الحج، قال المتوكل: وهل ذهبتن إلى الحج في شهر شعبان؟ قالت: قمنا بزيارة قبر الحسين المظلوم عليه السلام.

غضب المتوكل عند سماعه ذلك متسائلاً: وهل بلغ الأمر بقبر الحسين أن تدعى زيارته بالحج؟ ثم إنه أمر بالقبض على السيدة وحبسها، ومصادرة أموالها، ثم بعث بأحد أصحابه إلى كربلاء ـ واسمه ديزج، وكان يهودياً، وحسب الظاهر أنه أعلن إسلامه عند القبر الشريف ـ وأمره بهدم القبر وحراثة أرضه ومحو آثاره، وإنزال العقاب بزواره.

يقول المسعودي: جرت هذه الواقعة سنة ست وثلاثين ومئتين، فقد سارع ديزج إلى موقع القبر الشريف، غير أن أحداً من الفعلة لم يجرؤ على هدمه، فما كان من ديزج إلا أن تناول مجرفة انهال بها على أعالي القبر الشريف فخربها، وعند ذلك أقدم سائر الفعلة والعمال على هدم القبر والبناء المقام فوقه.

يقول أبو الفرج: لم يجرؤ أحد على ذلك العمل، غير أن ديزج استقدم جماعة من اليهود قاموا بهذا الفعل الشنيع، وقيل إنه تمت حراثة ما مساحته مئتا جريب(١) حول أطراف القبر، ثم أجروا الماء على تلك الأرض، ووضعوا عند كل ميل من أطرافها حارساً يمنع زيارتها، وكل من يقصدها للزيارة كان يؤخذ إليه لينزل به العقاب.

حدثني محمد بن الحسين آشناني فقال: مضت عليّ مدة لم أقم فيها بزيارة قبر ذلك المظلوم بسبب الخوف، وفي آخر الأمر دفعني الشوق إلى أن

---

(١) الجريب: مساحة من الأرض تعادل عشرة آلاف متر مربع.

أتشرف بالزيارة بأي طريقة كانت حتى لو أدّى الأمر إلى قتلي في هذا السبيل، فتوجهت بصحبة رجل عطار إلى الزيارة، فرحنا نتوارى نهاراً ونسير ليلاً حتى بلغنا نواحي الغاضرية. وفي منتصف الليل ـ ومن مكان لا يرانا فيه الحراس ـ تسللنا نحو القبر وكان حارس القبر نائماً، فلما وصلنا إليه رأينا أنهم قد هدموا الضريح المطهر وأحرقوه، وأجروا الماء على ذلك الموقع.

ألقينا بأنفسنا على الأرض، ورحنا ونحن نؤدي الزيارة نشم رائحة طيبة لم يكن قد بلغ مشامنا مثيل لها من قبل، فقلت لصاحبي العطار: ما هذه الرائحة الزكية قال: أقسم أني لم أشم من بين العطور والروائح الطيبة ما هو أزكى من هذه الرائحة، ثم قمنا بوداع القبر الشريف بعد أن نصبنا بضع علامات تحت التراب في مواضع عند أطراف القبر، واستمر الحال على هذا حتى هلاك المتوكل.

ثم إننا قمنا بزيارة لذلك القبر مع جماعة من آل أبي طالب وشيعة أمير المؤمنين عليه السلام، فاستخرجنا تلك العلامات وأعدنا بناء القبر الشريف على النحو الذي كان عليه في السابق.

في الذكرى الحسينية الأربعين قال الشيخ العالم الأديب الفقيه المحدّث الفاضل القمي: إنه يستفاد من«المناقب» و «كامل التواريخ» و «إرشاد القلوب» و «أمالي الطوسي» و «كامل الزيارة» أن زيارة سيد الشهداء عليه السلام قد انتشرت بين الشيعة والسنّة في عهد هارون الرشيد.

كما أن هذا يتفق مع زيارة «كامل الزيارة»، حتى أن النسوة كنّ يذهبن إلى زيارة القبر الشريف باستمرار، وكنّ ـ حسب الرواية ـ يتزاحمن في الحائر المطهر بسبب كثرتهن، وكان هذا باعثاً لخوف هارون الرشيد من أن يتفاقم ميل الناس إلى أبناء أمير المؤمنين ويفضي إلى انتقال الخلافة إلى العلويين، فأصدر موسى بن عيسى العباسي والي الكوفة أمراً بتخريب قبر سيد الشهداء عليه السلام، وتهديم العمائر في تلك الناحية، وزراعة أرضها، وقد كلف

بذلك الأمر رجلاً اسمه موسى بن عبد الملك، فقام بتدمير القبة الشريفة وهدم المباني، ثم حرث أرض الحائر بكاملها وزرعها، وكان غرضه محو كل أثر للقبر الشريف، وكانت هناك شجرة سدر ترتفع عند القبر كعلم فأمر باقتلاعها من جذورها، حتى لا يتمكن أحد من التعرف على المكان، ولما بلغ هذا الخبر جرير بن عبد الحميد تعجب ورفع صوته بالتكبير، ذلك أن حديثاً كان معروفاً عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذ قال ثلاثاً: «**لعن الله قالع السدرة**»، وقال جرير: الآن فهمت معنى الحديث.

وبعد عهد الرشيد لم يتعرض لذلك القبر الشريف أحد من خلفاء بني العباس حتى كان حكم المتوكل سنة سبع وثلاثين ومئتين، إذ بلغه أن أهل سواد الكوفة يتقاطرون لزيارة قبر الحسين بن علي عليهما السلام، ويجتعون هناك، فعين قائداً على رأس جيش بعث به إلى نينوى، فقاموا بهدم القبر الشريف وفرقوا الناس، غير أنهم في موسم الزيارة تجمهروا مجدداً غير هيّابين من القتل وهم يقولون: لو أنهم قتلونا عن آخرنا فسيحضر من يخلفنا للزيارة، وذلك لما كانوا شهدوه من مكرمات ومعجزات من ذلك القبر، هذه القصص نقلت إلى المتوكل الذي خاف من ثورة العراقيين فبعث بذلك القائد إلى الكوفة بعد أن كتب له أن تظاهر بأنك غير مأمور بشأن القبر.

ومرة أخرى عاد أهل الكوفة والسواد إلى التجمّع، فأعادوا تشييد الأبنية في كربلاء التي غدت سوقاً كبيرة، وعدد الزوار يرتفع يوماً بعد يوم حتى كانت سنة سبع وأربعين ومئتين إذ بعث المتوكل بقائد على رأس جيش وراح مناديه. ينادي بين الناس أن قد برئت ذمة الخليفة ممن يزور كربلاء.

شرع الجيش بغمر الأرض بالماء وزراعتها فكان الماء حيناً يتوقف عن الجريان، وحيناً كانت الثيران التي شدّت لحراثة الأرض تمتنع عن التقدم، وحيناً يرتفع القبر فيبقى معلقاً بين السماء والأرض، وحيناً تتساقط سهام غيبية على العمال والمزارعين.

غير أنهم ـ ووفقاً للآية المباركة: ﴿وَمَا تُغْنِي ٱلْآيَـٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ ـ لم يتوقفوا عن هذا العمل، بل زاد ذلك من حقد المتوكل وبغضه، حتى أن «ديزج» الملعون ـ وفقاً للرواية ـ قام بنبش القبر المطهر، ورأى حصيرة القصب التي صنعها بنو أسد عند الدفن، وكانت لا تزال على حالها والجسد المطهر مسجّى فوقها، غير أن «ديزج» كتب إلى المتوكل بأنه نبش القبر ولم يعثر على شيء.

وبعد المتوكل لم يتعرض أحد من خلفائه للقبر الشريف إلا المسترشد العباسي وابنه الراشد اللذين استوليا على أوقاف كربلاء وبيت المال فيها ونال كل منهما ما يستحقه من جزاء.

كان المتوكل قد نبش القبر وهدمه سبع عشرة مرّة، لكنه كان في كل مرة يستعيد صورته الأولى، حتى كانت سنة تسع وستين وثلاثمئة حيث قام عضد الدولة الديلمي بتشييد العمارة والبقعة والرواق في النجف وكربلاء، بعد أن كان هارون الرشيد قد بنى البقعة في النجف وجعله من أربع عتبات، فأمر عضد الدولة بهدم تلك البقعة واستحضر البنائين من الأطراف وأقام لكل من المشهدين بنياناً عالياً، وجاء عمر بن شاهين فأقام بنيان الرواق في النجف وكربلاء.

يقول المؤلف: جاء في الأخبار الغيبية عن أمير المؤمنين وغيره عليهم السلام إشارة إلى أن نور الله هذا لن يطفأ، ومهما سعى سلاطين الجور وأعوان الكفرة في محو آثاره فإن سعيهم وجهدهم سيزيد في ظهوره، وسيستمر توافد الناس من الأطراف والأكناف لزيارته.

روى شيخنا الصدوق مسنداً عن مولانا الرضا عليه السلام عن آبائه عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال:

«كأني بالقصور قد شيّدت حول قبر الحسين عليه السلام، وكأني بالمحامل تخرج من الكوفة إلى قبر الحسين عليه السلام، ولا تذهب الليالي والأيام حتى يسار إليه من الآفاق، وذلك عند انقطاع ملك بني مروان».

ويروي الشيخ بن قولويه بسند معتبر عن الإمام السجاد عليه السلام أنه قال لزائدة:

ها قد جاء يوم عاشوراء بما نزل بنا من الدواهي والمصائب العظيمة، فقد قتل أبي مع من كان معه من أبناء وإخوة وسائر أهل بيته، وحمل حرمه ونساؤه على الجمال إلى الكوفة، فإذا نظرت إلى أبي وسائر أهل بيته صرعى قد عفّروا بالدم والتراب، وأجسادهم الطاهرة ملقاة على الأرض دون أن يلتفت أحد إلى مواراتهم اشتد الأمر عليّ وضاق صدري، وعرضت لي حالة كادت معها روحي تفارق جسدي، فلما تبينت عمتي زينب الكبرى مني ذلك قالت لي:

«مالي أراك تجود بنفسك يا بقية جدّي وأبي وإخوتي»؟ قلت:

أي عمة.. ومالي لا أضطرب وأجزع وأنا أرى سيدي ومولاي وإخوتي وأعمامي وبنيهم وأهلي وعشيرتي صرعى في هذه الفلاة وقد خضبتهم الدماء، وأجسادهم عريانة دون أكفان، لا يواريهم أحد، ولا يتوجه إلى حالهم أحد كأنهم لا يعلمون أنهم مسلمون بل من الخزر والديلم؟!.

قالت عمتي: لا تكن كسير القلب ولا تجزع.. **«فوالله إن هذا لعهد من الله إلى جدك وأبيك، ولقد أخذ الله ميثاق أناس لا تعرفهم، فراعنة هذه الأرض، وهم معروفون في أهل السماوات أنهم يجمعون هذه الأعضاء المقطعة والجسوم المضرجة فيوارونها، وينصبون بهذا الطف علماً لقبر أبيك سيد الشهداء لا يدرس أثره ولا يعفو رسمه على كرور الليالي والأيام، وليجتهدن أئمة الكفر وأشياع الضلال في محوه وتطميسه فلا يزداد أثره إلا ظهوراً، وأمره إلا علواً»**.

وهذا حديث بالغ الشرف غير أن المقام لا يتسع لإيراده بكامله.

خلافة المنتصر بالله ومحمد بن جعفر المتوكل

في صبيحة الليلة التي قتل فيها المتوكل حلّ ابنه أبو جعفر محمد المنتصر بالله محله، وكان ذلك يوم الأربعاء الثالث أو الرابع من شهر شوال سنة سبع وأربعين ومئتين، وكان قد بلغ الخامسة والعشرين من عمره، وقد بايعه عامة الناس في ذلك اليوم، وكان مكان البيعة القصر المعروف بـ «الجعفري» والذي بناه المتوكل، وقيل إن ذلك المكان الذي قتل فيه المتوكل هو الموضع نفسه الذي كان شيرويه قد قتل فيه أباه كسرى أبرويز، ويعرف بـ «الماحوزة»، ثم إن المنتصر لبث هناك سبعة أيام انتقل بعدها إلى مكان آخر بعد أن أمر بتدمير ذلك الموضع.

ويحكى عن محمد بن سهل قوله: في أيام حكم المنتصر وقع نظري ذات يوم على ذلك المصلى والبساط الذي فرشوه تحت المنتصر ورأيت رسوماً لسلاطين وخطوطاً فارسية قد نقشت على أطراف ذلك البساط، وكنت أجيد قراءة الفارسية، فرأيت رسماً لسلطان يلبس تاجاً وكأنما كان يتكلم، وقرأت ما كتب عنده ونصّه: «هذا رسم شيرويه قاتل أبيه أبرويز الذي حكم ستة أشهر» وبعد تلك الصورة رأيت رسوماً لسلاطين آخرين حتى انتهى نظري إلى الجهة اليسرى من المصلى فرأيت رسماً لسلطان كان مكتوباً عنده: «هذا رسم يزيد بن الوليد بن عبد الملك قاتل ابن عمه الوليد بن يزيد بن عبد الملك، وكانت مدة حكمه ستة أشهر».

عجبت لهذه المصادفة من وجود هذين الرسمين على الجهتين اليمنى واليسرى من بساط المنتصر الذي هو بدوره قاتل أبيه، ومرّ في خاطري

تساؤل: ترى هل ستكون مدة حكم المنتصر ستة أشهر أيضاً؟ وقد وقع ذلك فعلاً.

ثم إني تقدمت من الوصيف الخادم وقلت: ما هذا البساط الذي فرشتموه للخليفة؟ ونقلت له حكاية رسمي شيرويه ويزيد ومدة حكم كل منهما، فأمر الوصيف بإحضار أيوب بن سليمان خازن الأثاث وسأله: لماذا فرشت هذا البساط في مجلس الخليفة؟ قال: الخليفة نفسه أمرني بذلك، وقد شرحت له أن هذا البساط كان تحت المتوكل ليلة مقتله وقد تلوّث بالدم. فقال: اغسلوا الدم وابسطوه في مجلسي، فلا غرو أني امتثلت لأمره، فغسلته وبسطته في مجلس الخليفة. فقال الوصيف بغاء: إذا ما قام الخليفة عنه وغادر مجلسه، فخذ البساط خارجاً وأحرقه. فلما غادر المنتصر مجلسه رفعه أيوب بن سليمان وأحرقه. ولما سأل عنه المنتصر حكوا له حكاية حرقه، فسكت ولم ينبس.

وينقل المسعودي أن المنتصر كان رجلاً عطوفاً يرأف بأهل بيت رسول الله وآل علي عليهم السلام على الضد من أبيه، فكان يحسن إليهم ولا يتعرض لهم بأي أذى، ولم يمنع أحداً من زيارة قبر الحسين عليه السلام، كما أمر بردّ «فدك» إلى بني الحسن والحسين عليهما السلام، وأمر بإطلاق أوقاف آل أبي طالب، كما أمر بألا يتعرض أحد لشيعة علي عليه السلام، وبعث بالأموال إلى العلويين والعلويات بالمدينة فوزعت عليهم.

وإجمالاً فقد كان المنتصر رجلاً واسع الصدر راسخ العقل كثير المعروف ميالاً إلى الخير، وكان رجلاً سخياً أديباً وعفيفاً، ملتزماً بمكارم الأخلاق وكثرة الإنصاف وحسن المعاشرة، ويقال إنه سبق الخلفاء كافة في هذه الفضائل الثلاث، وكان العامة والخاصة يميلون إليه، وفي أيام حكمه عزل أخويه المعتز وإبراهيم المؤيد من ولاية العهد التي كان المتوكل قد أخذ بها البيعة لهما.

وفي عهده خرج عليه في نواحي اليمن وبوازيج والموصل أبو عمود

الشاري واجتمع إليه خلق كثير فاشتد أمره، فبعث المنتصر بجيش لحربه، ودارت بين الجيشين معارك عديدة انتهت أخيراً بوقوع الشاري أسيراً فأحضر إلى المنتصر الذي عفا عنه بعد أن أخذ عليه عهداً بألا يعود إلى التمرد.

وفي يوم الخميس الخامس والعشرين من ربيع الأول سنة ثمان وأربعين ومئتين وقع المنتصر مريضاً وفارق الحياة عصر اليوم الخامس من ربيع الثاني، وقيل إنه مات مسموماً بسم وضعوه في قدح الحجامة، وكانت مدة حكمه ستة شهور.

وفي السنة نفسها توفي بكر بن محمد الأديب النحوي المعروف بالمازني الشيباني الإمامي، وكان سيّد أهل العلم بالنحو والأدب والعربية واللغة بالبصرة، وقد مضى في أحوال الواثق حكاية متعلقة به تدل على شدة ورعه رحمه الله.

وفي سنة ثمان وأربعين ومئتين أيضاً، في المحرم أو رجب، توفي بالبصرة سهل بن محمد بن عثمان المعروف بأبي حاتم السجستاني النحوي اللغوي المقرىء، نزيل البصرة. قيل «إنه كان عالماً، صالحاً، عفيفاً، يتصدق كل يوم بدينار، ويختم القرآن كل أسبوع».

«ومن طريف ما يحكى عنه، ينقل السيوطي في «طبقات النجاة»: أنه دخل بغداد فسئل عن قوله تعالى: ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ ما يقال منه للواحد قال: «قِ» قال: فالاثنين قال: «قيا» قال: فالجمع إلى الثلاثة؟ قال: «قوا» قال: فالجمع لي الثلاثة قال: «قِ، قيا، قوا». قال وفي ناحية المسجد رجل جالس معه قماش، فقال لواحد: احتفظ بثيابي حتى أجيء، ومضى إلى صاحب الشرطة وقال: إني ظفرت بقوم زنادقة يقرأون القرآن على صياح الديك، فما شعرنا حتى هجم علّينا الأعوان والشرطة فأخذونا وأحضرونا مجلس صاحب الشرطة فسألنا، فتقدمت إليه وأعلمته بالخبر، وقد اجتمع خلق من خلق الله ينظرون ما يكون، فعنّفني وعذلني وقال: مثلك يطلق لسانه عند العامة بهذا؟ وعمد إلى أصحابي فضربهم عشرة عشرة وقال: لا تعودوا إلى مثل هذا.

«فعاد أبو حاتم إلى البصرة سريعاً ولم يقم ببغداد ولم يأخذ عنه أهلها». انتهى.

«وسجستان: معرّب سيستان، وهي ناحية كبيرة واقعة في جنوب هراة، أرضها كلها سبخة رملة، والرياح فيها لا تسكن أبداً، وكثيرة الأفاعي، فأكثروا فيها من القنافذ والسلاحف. ينسب إليها رستم الشديد (أي رستم الشجاع).

وعن «ميزان الذهبي»: «إن في زمن بني أمية لما أعلنوا أهلَ الشرق والغرب ومكّة والمدينة على سبّ علي بن أبي طالب عليه السلام امتنع أهل سجستان من ذلك، حتى أنهم شرطوا في معاهدتهم مع بني أمية أن لا يأتوا ذلك إن شاء الله تعالى (انتهى).

ولكن ورد في «الخصال» حديث في ذمهم، لا يهمنا نقله.

خلافة المستعين بالله أحمد بن محمد بن المعتصم

في يوم الأحد الخامس من ربيع الثاني سنة ثمان وأربعين ومئتين حيث توفي المنتصر بالله حلّ محله ابن عمه أحمد بن محمد بن المعتصم الملقب بالمستعين بالله، وقد نفى أحمد بن الخصيب الوزير من البلد، وحكم ثلاث سنوات وتسعة شهور، ثم خلع نفسه من الخلافة.

وفي السنة الأولى من حكمه توفي بغاء التركي الكبير عن عمر بلغ التسعين، وكان شهد حروباً كثيرة، وقيل إنه في حروبه كلها لم يصب بجرح، وكان من غلمان المعتصم، وكان في حروبه لا يضع عليه الدرع، وكان يقول: «الأجل جوشن»، أي «الأجل هو الدرع» ولما لاموه مرة على عدم اعتنائه بذلك نقل إليهم رؤيا رآها تشتمل على دعاء له من الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وأمير المؤمنين عليه السلام بطول العمر والسلامة من الآفات، بسبب أنه أحسن إلى رجل من أمة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وكان بغاء كثير البر والإحسان إلى آل أبي طالب، ولما توفي حلّ ابنه موسى محله وأصبح قائداً لجيش أبيه.

وروي أن المستعين بالله كان رجلاً محباً للنساء كثير الجماع مسرفاً في تبذير الأموال، وفي أواخر أيام حكمه انتقل من سامراء إلى بغداد مع وصيف وبغاء الصغير، واتخذ مسكنه في دار محمد بن عبد الله بن الطاهر[1]، بينما

(١) في أيام انحصار المستعين ببغداد كانت الأوامر بيدي بغاء ووصيف، أما هو فلم يكن على ذلك من شيء، وفي هذا قال الشاعر: =

أجمع مواليه بسامراء على بيعة المعتز بالله وحرب المستعين، فبايعوا المعتز يوم الأربعاء الحادي عشر من المحرم سنة إحدى وخمسين ومئتين، وهكذا تسلّم المعتز الحكم، وأخذ البيعة من سائر الناس وجعل أخاه المؤيد وليّاً لعهده.

ثم بعث بأخيه أبي أحمد مع جماعة من الموالي إلى بغداد لحرب المستعين، وشرعوا منذ منتصف شهر صفر سنة إحدى وخمسين ومئتين بالقتال مع البغداديين حتى اشتد أمر المعتز وضعف أمر المستعين، ومال محمد بن الواثق ـ وكان إلى جانب المستعين ـ نحو المعتز، وكتب محمد بن عبد الله بن الطاهر كتاباً إلى المعتز يعرض عليه الصلح وخلع المستعين.

ثم وضعت شروط للصلح ما بين المعتز والمستعين، وفي يوم الخميس الثالث من المحرم سنة اثنتين وخمسين ومئتين خلع المستعين نفسه من الخلافة، بعد أن امتد حكمه حتى زمن خلعه ثلاث سنوات وثمانية شهور وثمانية وعشرين يوماً.

ثم إن المستعين انتقل بعد ذلك إلى واسط، فطلبه المعتز إليه بسامراء، وقبل أن يصلها بعث بسعيد الحاجب لاستقباله ومعه أمر بقتله، فلقيه سعيد في (قاطول) بالقرب من سامراء، فجرّه خارج الهودج وجلده بضع جلدات ثم قعد على صدره واحتز رأسه، ورمى بجثته على الطريق حتى قام بعض العامة بدفنه، ثم حمل رأسه إلى المعتز، ولما وصل بالرأس إلى المعتز كان المعتز منشغلاً بلعب الشطرنج، فأمر بالرأس أن يوضع في موضع حتى ينصرف من اللعب، ثم إنه طلب الرأس فنظر إليه هنيهة ثمّ أمر بدفنه.

= خـلـيـفـة فـي قـفـص ... بـيـن وصـيـف وبـغـاء
يـقـول مـا قـالا لـه ... كـمـا يـقـول الـبـبـغـاء
(منه).

خروج بعض الطالبيين ومقتلهم

كان قتل المستعين في اليوم السادس من شوال سنة اثنتين وخمسين ومئتين، وكان قد بلغ الخامسة والثلاثين من عمره، وفي عهده خرج عليه جماعة من آل أبي طالب، وقد قتل الكثير منهم.

كان من جملتهم أبو الحسن يحيى بن عمرو بن يحيى بن الحسين بن زيد بن علي بن الحسين عليهما السلام، وأمه أم الحسن بنت الحسين (الحسن ـ خ ل) بن عبد الله بن إسماعيل بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، وكان قد خرج بخراسان أيام المتوكل، فأخذ إلى المتوكل الذي أمر بجلده وإيداعه محبس الفتح بن خاقان، وبقي محبوساً إلى حين إطلاقه بعد مدة، فتوجه إلى بغداد حيث بقي فيها مدة انتقل بعدها إلى الكوفة، إلى أن خرج في أيام المستعين.

ولما عزم على الخروج ابتدأ بزيارة قبر الإمام الحسين عليه السلام، وتحدّث إلى جماعة من الزوار بما عزم عليه، فانضم إليه بعضهم وتوجهوا معه إلى قرية (شاهي) وهناك ترقبوا حلول الليل حيث توجهوا إلى الكوفة، وهناك قام أصحابه بالدعوة إلى بيعته وهم ينادون: «أيها الناس أجيبوا داعي الله».

دخل في بيعته خلق كثير، ولما طلع النهار استولى يحيى على أموال بيت مال الكوفة وفرّقها بين الناس، وكان يعدل معهم ويقسط حتى أحبّه أهل الكوفة قلباً وروحاً، لكن عبد الله بن محمود عامل الخليفة على الكوفة جمع جيشه وخرج إلى حربه، فحمل عليه يحيى حملة واحدة وضربه على وجهه ضربة كانت فيها هزيمته مع جيشه، وكان يحيى رجلاً قوياً جريئاً.

وعن قوته يقول أبو الفرج: كان لديه قضيب ثقيل من الحديد، فإذا غضب على غلام أو جارية له لفّ هذا القضيب حول عنقه، فلا يقدر أحد على حلّه حتى يقوم هو بذلك.

وإجمالاً فقد شاع أمر يحيى في البلاد والأمصار، ولما وصلت أخباره إلى بغداد بعث محمد بن عبد الله بن الطاهر بابن عمه الحسين بن إسماعيل

على رأس جيش لمواجهة يحيى، خرج البغداديون بتثاقل ودون رغبة لحربه ذلك لأنهم كانوا يميلون إليه في الباطن، وبعد عدة اشتباكات ووقائع بين الطرفين التقى الجيشان عند قرية (شاهي) وجرت بينهما معارك متواصلة، ولما اشتد أوار القتال انهزم هيضم وكان من قادة جيش يحيى، مما أضعف الجيش وزاد في قوة جيش العدو، ولما رأى يحيى هزيمة هيضم اشتد في القتال برجولة وشجاعة حتى وقع بعد أن أثخنته الجراح، فتقدم منه سعد الضبابي واحتز رأسه وحمله إلى إسماعيل، لكنه لكثرة ما أصاب وجهه من جراح صعب التعرف عليه، ولم يعترف أهل الكوفة بمقتله، وراحوا يردون على منادي الحسين الذي أعلن مقتله بالشتم والسباب، فلا غرو أن الحسين أمر عليّ بن محمد الصوفي ـ أخا يحيى لأمه ـ بإعلان مقتله بين الناس، وإقراره بأن الرأس رأس أخيه، فلما سمع أهل الكوفة علياً يعلن مقتل يحيى صدقوه، وارتفعت أصواتهم بالنواح والنحيب، ثم انصرفوا إلى حال سبيلهم.

حمل رأس يحيى إلى محمد بن عبد الله بن الطاهر ببغداد فوضعه في قوصرة (وعاء من قصب يوضع فيه التمر) وبعث به إلى المستعين بسامراء، ثم أعيد الرأس إلى بغداد ثانية حيث تم نصبه هناك، لكن أهل بغداد ضجوا وأنكروا مقتله لما يكنونه له من المحبة، ولما رأوا منه من حسن معاملة وتورّع عن أخذ المال، وكفّ عن سفك الدماء، والمزيد من عدله وإحسانه.

ثم قدم جماعة على محمد بن عبد الله بن الطاهر وهنأوه بالظفر، كما دخل عليه أبو هاشم الجعفري وقال له أيها: الأمير، إني وإن قدمت لتقديم التهاني لكم فلا بدّ لي من قول شيء أعزّي به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لو أنه كان حياً، فلم يجبه محمد، فتقدم أبو هاشم وأنشد شعراً من جملته:

يا بني طاهر كلوه مريئاً   إن لحم النبي غير مريء
إنّ وتراً يكون طالبه الله   لوتر بالقوت غير جريء

فأمر محمد بن عبد الله حينئذٍ أخت يحيى ونسوة من حرمه بالشخوص إلى خراسان وقال: إن هذه الرؤوس من قتلى أهل البيت لم تدخل بيت قوم إلا خرجت منه النعمة، وزالت عنه الدولة.

روى أبو الفرج عن ابن عمار قوله: عندما أحضر الأسرى من أهل بيت يحيى وأصحابه إلى بغداد وهم يمشون بصعوبة حفاة الأقدام، كانوا كلما تخلف أحدهم من شدة الإعياء والتعب ضربوا عنقه، ولم يُسمع حتى أيامنا هذه بمعاملة للأسرى على هذ النحو.

وإجمالاً، ففي تلك الأيام التي كانوا فيها ببغداد وصل كتاب المستعين بالله يأمر بإطلاق سراح الأسرى، فأطلقهم محمد بن الطاهر جميعهم عدا إسحاق بن جناح صاحب شرطة يحيى الذي احتفظ به في الحبس حتى وفاته، فأمر محمد بن الطاهر بدفنه في مدافن اليهود دون غسل وتكفين وصلاة، فأخرجت جنازته من السجن ورميت في خرابة بملابسه التي كانت عليه، ثم هدموا جداراً فوقها.

وإجمالاً، فقد كان يحيى رجلاً شريفاً صاحب دين وخير، كثير الإحسان عطوفاً رؤوفاً على الرعية، وكان حامياً لأهل بيته من الطالبيين، يكثر من البر بهم والإحسان إليهم. وقال بعض المعاصرين له: لم نشهد أورع من يحيى، وعند خروجه أقسم أنه إنما خرج غضباً لله، ونهياً عن المنكر، ولذا فقد ترك مقتله في قلوب الناس من الخاصة والعامة والصغير والكبير والقريب والبعيد أثراً بالغاً. وقد رثاه كثيرون، وكانت شهادته حوالى سنة خمسين ومئتين، ومن القصائد التي قيلت في رثائه:

بكت الخيل شجوها بعد يحيى ... وبكاه المهند المصقول
وبكاه العراق شرقاً وغرباً ... وبكاه الكتاب والتنزيل

ومن الطالبيين الذين خرجوا أيام حكم المستعين بالله الحسين بن محمد بن الحمزة بن عبد الله بن الحسين بن علي بن الحسين عليه السلام المعروف بالحرون، الذي خرج بالكوفة بعد أيام يحيى سنة إحدى وخمسين ومئتين، فبعث المستعين بمزاحم بن خاقان على رأس جيش عظيم لحربه، فلما اقترب العباسيون من الكوفة غادرها الحسين من طريق أخرى وتوجه إلى سامراء حيث بايع المعتز بالله، وقع هذا حين كان المستعين في بغداد، وكان أهل سامراء قد بايعوا المعتز بالله، ومضت مدة على الحسين على هذا المنوال حتى

عزم على الخروج مرة ثانية، فأخذ وألقي به في السجن وبقي هناك حتى سنة ثمان وأربعين ومئتين حيث أفرج عنه المعتمد، ثم خرج مرة أخرى بالكوفة سنة تسع وأربعين ومئتين فأخذوه وبعثوا به إلى الموفق الذي أمر بحبسه بواسط، وبقي فترة في الحبس حتى فارق الحياة، فأمر الموفق بالصلاة عليه ودفنه.

وممّن خرج من الطالبيين محمد بن جعفر بن الحسين بن جعفر بن الحسين بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليهما السلام وكان خليفة للحسين الحرون، وقد خرج بالكوفة بعده، فاحتال عليه ابن الطاهر بتوليته على الكوفة حتى تمكن من وضع يده عليه، فأخذ إلى سرّ من رأى وألقي به في السجن فبقي فيه حتى مات.

وقد أورد الشيخ الجليل المسعودي في «مروج الذهب» أن محمد بن جعفر خرج بالريّ سنة خمسين ومئتين ودعا الناس إلى بيعة الحسن بن زيد صاحب «طبرستان» ووقعت بينه وبين أهل خراسان حروب كثيرة حتى تمكنوا من أسره وأخذوه إلى محمد بن عبد الله الطاهر في نيشابور حيث ألقي به في السجن وبقي فيه حتى مات، انتهى.

وفي سنة خمسين ومئتين خرج في بلاد طبرستان الحسن بن زيد بن محمد بن إسماعيل بن الحسن بن زيد بن الحسن بن علي عليهما السلام، وبعد حروب كثيرة استولى على طبرستان وجرجان، وبقي على هذه الحال حتى فارق الحياة سنة سبعين ومئتين، وجلس مكانه شقيقه محمد بن زيد، وفي سنة سبع وسبعين ومئتين انتقل إلى الديلم واستولى عليها، فقدم رافع بن هرثمة لحربه لكنه بايعه.

كان الحسن ومحمد يدعوان إلى الرضا من آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وكذلك فعل أمثالهم من الطالبيين الذين حكموا طبرستان كالحسن بن علي الحسني المعروف بالأطروش، وبعده الحسن بن قاسم الحسني المعروف بالداعي الذي قتل في واقعة (التتار) بطبرستان.

وفي سنة خمسين ومئتين أيضاً خرج بقزوين الحسن بن إسماعيل

الحسيني المعروف بكركي، فحاربه موسى وبغاء، لكنه فرّ إلى جهة الديلم وبقي عند الحسن بن زيد الحسني، ومات قبله.

وفي سنة خمسين ومئتين كذلك توفي الفضل بن مروان وزير المعتصم، وهو الفضل الرابع ممن تولّوا الوزارة عند الخلفاء، أما الثلاثة الآخرون فهم: الفضل بن يحيى، والفضل بن الربيع، والفضل بن سهل، وقد سبقت الإشارة إلى كلّ منهم.

وفي سنة إحدى وعشرين ومئتين كان المعتصم قد أخذه وحبسه، وقد أشار إلى الفضول الثلاثة وسوء عاقبتهم في رقعته التي كتبها إلى الفضل بن مروان فقال:

تفرعنت يا فضل بن مروان فاعتبر فقبلك كان الفضل والفضل والفضل
ثلاثة أملاك مضوا لسبيلهم أبادتهم الأقياد والحبس والقتل
وإنك قد أصبحت في الناس ظالماً ستودي كما أودى الثلاثة من قبل

كما توفي في أيام المستعين جماعة من أهل العلم والحديث أمثال؛ أبي عثمان المازني الإمامي، ومحمد الرفاعي، وأيوب الوراق، ومحمد بن العلاء الهمداني بالكوفة، والحسن بن صالح البزاز وغيرهم من شيوخ المحدثين. وقد روي أن المستعين أخرج في سنة ثمان وأربعين ومائتين من خزانة بيت المال فصّاً من الياقوت الأحمر، وكان الملوك السابقون قد احتفظوا به في موضعه، وكان الرشيد قد ابتاعه بأربعين ألف أشرفي، ونقش المستعين عليه اسمه (أحمد) وكان يرى في يده، وقصته بين الناس مشهورة، ومن خواص هذا الفص أن كل من ينقش اسمه عليه يقتل.

ولهذا كان السلاطين يحفظونه أملس غير منقوش، وكلما حفر أحد السلاطين اسمه عليه من باب جهله به كان يقتل، وكان من يأتي بعده يمحو ما نقش عليه. وكان يشع ليلاً كالمصباح حيث هو موضوع في الظلمة، وفي الليل تصدر عنه صور تماثيل، وقد بقي هذا الفص في موضعه حتى أيام المقتدر حيث اختفى أثره بعده «والله العالم».

خلافة المعتز بالله ابن المتوكل

في يوم الخميس الثالث من المحرم سنة اثنتين وخمسين ومئتين حين خلع المستعين نفسه من الخلافة حلّ محله ابن عمه الزبير (محمد ـ خ ل) بن جعفر المتوكل الملقب بالمعتز بالله، وفي يوم الاثنين السابع والعشرين من رجب سنة خمس وخمسين ومئتين خلع المعتز نفسه بدوره من الخلافة وقتل بعد ستة أيام، بعد أن امتد حكمه أربع سنوات وستة شهور وبضعة أيام، ومنذ عزل المستعين وتلقيه بيعة البغداديين كانت مدة حكمه ثلاث سنوات وسبعة شهور، وقد بلغ الرابعة والثلاثين من العمر.

وفي أيام خلافته كانت وفاة الإمام أبي الحسن الهادي الإمام علي النقي عليه السلام، وذلك يوم الاثنين لأربعة أيام بقين من شهر جمادى الآخرة سنة أربع وخمسين ومئتين، ولما حملت جنازة ذلك العظيم سمعت جارية تقول: «ماذا لقينا في يوم الاثنين، قديماً أو حديثاً» وفي ذلك إشارة إلى يوم وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ثم تم دفنه عليه السلام في بيته بسامراء، وقد استشهد مسموماً، وتفصيل أحواله مذكور في «المنتهى».

وقال الشيخ الجليل علي بن الحسين المسعودي في «مروج الذهب»: حدّثني محمد بن الفرج بمدينة «جرجان» في المحلة المعروفة بـ «غسان» قال: حدثني أبو دعامة قال: تشرّفت بعيادة الإمام علي بن محمد بن علي بن موسى عليهم السلام في العلة التي كانت سبب وفاته، ولما أردت الانصراف قال: أي أبا دعامة، لقد وجب حقك عليّ، هل لك في حديث يسرّك؟ قلت: كم يشوقني ذلك وأنا محتاج إليه، قال:

حدثني أبي محمد بن علي عن أبيه علي بن موسى، عن أبيه موسى بن جعفر، عن أبيه جعفر بن محمد، عن أبيه محمد بن علي، عن أبيه علي بن الحسين، عن أبيه الحسين بن علي، عن أبيه علي بن أبي طالب، عن رسول الله صلوات الله عليهم أجمعين. ثم قال لي: اكتب، قلت: وماذا أكتب؟ قال: أكتب أن رسول الله قال:

«بسم الله الرحمان الرحيم، الإيمان ما وقرته القلوب، وصدّقته الأعمال، والإسلام ما جرى به اللسان، وحلّت به المناكحة».

قال أبو دعامة: قلت: يابن رسول الله، ما أدري أيهما أفضل، هذا الحديث أم أسناده، قال: هذا الحديث في الصحيفة بخط علي بن أبي طالب عليه السلام، وإملاء رسول الله صلى الله عليهما وآلهما، وقد ورثه كل منا.

وفي أيام المعتز أيضاً سنة ثلاث وخمسين ومئتين في النصف من ذي القعدة توفي محمد بن عبد الله بن الطاهر، وكان موته بعد ثلاثة عشر يوماً من مقتل وصيف، وكان محمد أديباً فصيحاً حافظاً، مشهوراً بالجود والعطاء، كذلك فقد سجن المعتز في أيام حكمه المؤيد وأبا أحمد، لأنه سمع أن المؤيد يسعى في زوال ملكه وجلد المؤيد أربعين جلدة حتى خلع نفسه من ولاية العهد، ثم ألقى به ثانية في السجن، إلى أن سمع أن جماعة من الأتراك يهمون بتنصيبه فأخرجه من سجنه ثم أمر بقتله، فلفوه بلحاف مسموم أحكموا ربط طرفيه حتى أسلم الروح في اللحاف.

وفي يوم الخميس الثالث والعشرين من رجب سنة اثنتين وخمسين ومئتين أخرجوا جثمانه من المحبس، وجمعوا الفقهاء والقضاة ليروا أنه لا آثار عليه، ثم إنّ المعتز عيّن أخاه الشقيق ولياً للعهد مكانه.

وفي سنة اثنتين وخمسين ومئتين كانت بداية فتنة «البلاليّة» و «السعدية» بالبصرة، وكان من نتائجها ظهور صاحب الزنج، وفي أيام المعتز توفي جماعة من آل أبي طالب من جملتهم:

الحسن بن يوسف بن إبراهيم بن موسى بن عبد الله المحض فقد قتل في واقعة أخيه إسماعيل مع أهل مكة، كما قتل في الواقعة نفسها جعفر بن عيسى الجعفري مع أحمد بن عبد الله بن موسى بن سليمان بن داود الحسني.

وفي أيام المعتز أيضاً أخذ من الري علي بن موسى بن إسماعيل بن موسى بن جعفر عليهما السلام وألقي به في السجن حيث بقي فيه حتى مات. كما أن سعيداً الحاجب أخذ من المدينة موسى بن عبد الله بن موسى بن عبد الله بن الحسين بن الحسن بن علي عليهما السلام مع ابنه إدريس وحملا إلى سرّ من رأى، ولما بلغا ناحية «زبالة» تحرك جماعة من عرب «فزارة» وغيرهم لاستخلاص موسى وإدريس منهم، فأقدم سعيد على تسميم موسى فمات، بينما نجا ابنه إدريس، وكان موسى رجلاً زاهداً عباداً.

وفي أيام المعتز أيضاً أمسك أبو الساج بعيسى بن إسماعيل الجعفري وحمله إلى الكوفة ورماه في السجن حتى فارق الحياة، وفي سنة أربع وخمسين ومئتين تحرك بغاء الصغير من سامراء باتجاه الموصل، ولما وصل إلى جسر سامراء اغتاله بعض المغاربة وحملوا رأسه إلى بغداد حيث نصبوه على الجسر، وكان المعتز يحس برهبة وخوف شديدين من بغاء، وكان من خوفه يجمع السلاح ليله ونهاره وهو يقول: سألزم هذه الحالة حتى يتبين لي إن كان رأسي من نصيب بغاء أو كان رأس بغاء من نصيبي، ولما قتل بغاء لاحظ الأتراك أن المعتز لا يفتأ يدبر الحيل والمكائد لقتل قادة الأتراك توطئة لإفنائهم، كما كان يرمي إلى التسلط على المغاربة والفراعنة، فاتفق الجميع على خلعه، وفي يوم المبعث من سنة خمس وخمسين ومئتين قاموا بالإحاطة بالمعتز وراحوا يوبخونه ويلومونه على سلوكه وأفعاله، ويطلبون منه الأموال، وكان رأس هذا العمل صالح بن وصيف يشاركه القادة الأتراك.

قال الدميري: أمرهم صالح بالتدفق إلى حجرة المعتز حيث أمسكوا به من قدميه وجرّوه إلى الخارج ثم أوقفوه تحت الشمس المحرقة، وكان المعتز

من شدة الحر يتكيء على إحدى قدميه حيناً حتى إذا أرهقته الحرارة رفعها ووقف على القدم الأخرى، كل هذا وهم يكيلون له اللكمات ويقولون: اخلع نفسك من الخلافة، وهو يأبى ويغطي وجهه بيده حتى أحسّ بالعجز وخلع نفسه.

ثم إنهم حرموه من الطعام والشراب ثلاثة أيام رموه بعدها في أحد السراديب وأوصدوا مدخله حتى هلك هناك، ويقال إنهم حقنوه بماء مغلي حتى مات، وقال آخرون: بعد خمسة أيام من خلع المعتز أدخلوه حماماً ومنعوا عنه الماء حتى قارب الهلاك، ثم أحضروا له ماءً مالحاً أو ماءً مثلجاً حتى يشربه ويموت، وكانت وفاته في اليوم الثاني من شعبان سنة خمس وخمسين ومئتين (والله العالم).

أيام خلافة المهتدي بالله

ليوم بقي من شهر رجب سنة خمس وخمسين تسنّم المهتدي بالله محمد (جعفر ـ خ ل) بن هارون الواثق بن المعتصم منصب الخلافة، ومنذ استقراره فيه شرع في سيره في طريق الزهد، وتنكب عن طريق اللهو وحرّم سماع الغناء والعزف والشراب، وأمر بإقصاء المغنيات والكلاب والسباع، ونهى عن المنكرات، ونشر العدل والقسط في الرعية، وبنى قبة ذات أربعة أبواب جعلها مجلسه الدائم للنظر في المظالم ومقاضاة العامة والخاصة، وكان يؤم المسجد الجامع كل يوم جمعة فيخطب ويصلي بالناس، وكان يقول: إنني أستحيي من الحق تعالى لأنه ليس بين بني العباس مثيل لعمر بن عبد العزيز.

وكان للعلماء والفقهاء عنده منزلة رفيعة، وكان يجزل الإحسان إليهم، أمر بتكسير أوعية الذهب والفضة، وعملوا منها دراهم ودنانير، وأمر بمحو الرسوم والتصاوير التي وضعها الخلفاء في مجالسهم، ورفع الأثاث والمفروشات التي لم تبحها الشريعة المطهرة، وقرر في ما يعود لمؤونته ومائدته ما يقرب من مئة درهم في اليوم، في حين كان من سبقوه ينفقون ألف درهم في اليوم، ورد أرض فدك إلى بني فاطمة عليها السلام، وكان يقوم ليله ويصوم نهاره، وقيل إنه كانت له جبّة من صوف يلبسها في لياليه، وكان يغلّ نفسه ويقف للعبادة، وكان يقرأ في الليالي وهو يبكي كلمات أمير المؤمنين عليه السلام التي رواها نوف البكالي عنه، وخطها بيده.

قال ابن أبي الحديد: كانت لأمير المؤمنين عليه السلام حجرة تسمى (بيت القصص) وكان الناس يكتبون مطالبهم وعرائضهم ويودعونها فيها كي

يطّلع عليها أمير المؤمنين ويرد عليها، والشخص الذي اقتدى بأمير المؤمنين في هذا العمل كان المهتدي بالله.

وإجمالاً، لما سار المهتدي على طريق تخالف ما درج عليه الخلفاء قبله فقد جاءت عدالته ثقيلة على الأمراء والجنود الذين تربّوا على عكس هذه الطريقة، وشرعوا يتآمرون على قتله، والمقام لا يتسع للحديث عن كيفية مقتله، فهم حين أحاطوا به وعزموا على قتله راحوا يلومونه ويقولون: ما هذه السيرة التي حملت الناس عليها؟ قال: أريد أن أسير بسيرة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وسيرة أهل البيت والخلفاء الراشدين، قالوا: إن السيرة التي اختارها الرسول صلى الله عليه وآله كانت في وقت زهد فيه أصحابه والناس بالدنيا ورغبوا بالآخرة، لا كما في أيامك حيث رجالك من الترك والمغاربة وأهل الجزر وأمثالهم ممن لا يفقهون من أمور الآخرة شيئاً، ولا غرض لهم سوى هذه الدنيا العاجلة، فكيف يصبرون على هذه الصورة؟.

وترددت بينهم أمثال هذه الكلمات، وأخيراً استلوا خناجرهم وأغمدوها فيه. وجاء ابن عمّ «بايك بال» الذي يكن للمهتدي حقداً وغضباً بالغين بسبب قتله «بايك بال» فأغمد خنجره في أوداجه فاندفع الدم منها، فوضع فمه فوق الدم وراح يمتصه حتى امتلأت معدته منه، وهنا نهض عنه وهو يقول: اليوم ارتويت من دم المهتدي كما ارتويت اليوم من الشراب.

ولما قتل المهتدي ندموا على ما فعلوا وشرعوا يبكون ويعولون لما كان يمتاز به من نسك وزهد. وجرت هذه الواقعة في يوم الثلاثاء السادس عشر من شهر رجب سنة ست وخمسين ومئتين، وقد نقل مقتله على نحو آخر.

ولكن جاء في الرواية أن سبب مقتله هو أنه كان قد سجن الإمام الحسن العسكري صلوات الله عليه وعزم على قتله، فقطع الله عمره فاندفع إليه الأتراك وأعانهم الناس فسفكوا دمه بسبب ميله إلى طريقة الاعتزال والقدرية، كما في «إثبات الوصية» وفي «البحار» عن «مهج الدعوات»، وفي آخر الحديث: «وكان المهتدي قد صحح العزم على قتل أبي محمد صلوات الله عليه فشغله الله بنفسه حتى قتل ومضى إلى أليم عذاب الله».

خروج صاحب الزنج بالبصرة

وفي أيام المهتدي، ولثلاث بقين من شهر رمضان سنة خمس وخمسين ومئتين خرج صاحب الزنج بالبصرة، وادعى أنه علي بن محمد بن أحمد بن عيسى بن زيد بن علي بن الحسين عليهما السلام، وكان يدعى بدعيّ آل أبي طالب، ويعود أصله إلى واحدة من قرى الري، وكان يميل إلى مذهب الأزارقة من الخوارج، ويعتبر الذنوب كلها شركاً، وكان أنصاره وأصحابه من الزنج.

وفي سنة خمسن وخمسين ومئتين أيضاً توفي بالبصرة عمرو بن بحر البصري المعروف بالجاحظ، وكان مولىً لإبراهيم بن يسار النظام وتلميذه، ألّف الكثير من الكتب، وكان يميل إلى النصب[1] والعثمانية، وكتاب «العثمانية» من تآليفه، وكتب كل من أبي جعفر الإسكافي المعتزلي المعاصر للجاحظ، والشيخ المفيد، والسيد أحمد بن طاوس، كتاباً في نقضه، كما سبقت الإشارة إلى ذلك في سنة وفاة الإسكافي.

وللجاحظ تأليفات أُخر غير «العثمانية» منها: «الرسالة» التي جمع فيها كلمات أمير المؤمنين صلوات الله عليه، ومنها كتاب «الحيوان» قال الدميري في «حياة الحيوان»: ومن أحسن تصانيف الجاحظ كتاب الحيوان، وينقل عنه كثير، ومما نقل عنه قوله:

«ومن العجب في قسمة الأرزاق أن الذئب يصيد الثعلب فيأكله، ويصيد الثعلب القنفذ فيأكله، ويصيد القنفذ الأفعى فيأكلها، والأفعى تصيد العصفور فتأكله، والعصفور يصيد الجراد فيأكله، والجراد يلتمس فراخ الزنابير فيأكلها، والزنبور يصيد النحلة فيأكلها، والنحلة تصيد الذبابة[2] فتأكلها والذبابة تصيد البعوضة فتأكلها».

---

(١) وأقل ما صدر عن الجاحظ مما يدل على عداوته لأمير المؤمنين عليه السلام ومخالفته لاجتماع المسلمين أنه أظهر في سنة عشر ومئتين من الهجرة القول بأن الإمامة بالميراث، وأن وارث النبي صلى الله عليه وآله وسلم هو عمه العباس دون علي عليه السلام، وكان ذلك منه تقرباً إلى الخليفة المأمون العباسي، فباع دينه بدنياه (منه عفي عنه).

(٢) وفي صيد النحلة الذبابةَ، والذبابة البعوضة نظر، فتأمل (منه).

وقيل: كان الجاحظ مشوه الخلقة، وإنما قيل له الجاحظ لأن عينيه كانتا جاحظتين، والجحوظ: النتوء. ونقل عنه أنه أحضره المتوكل لتأديب ولده فلما رآه استبشع منظره، فأمر له بجائزة وصرفه.

وعن «كشكول» شيخنا البهائي (ره) قال: كان الجاحظ قبيح الصورة جداً حتى قال الشاعر:

لو يمسخ الخنزير مسخاً ثانياً   ماكان إلا دون قبح (وجه ـ خ ل) الجاحظ

قال يوماً لتلامذته: ما أخجلني إلا امرأة، أتت بي إلى صائغ فقالت: مثل هذا، فبقيت حائراً من كلامها، فلما ذهبت سألت الصائغ، فقال: استعملتني أن أصيغ لها صورة جنّي، وفي قول: صورة الشيطان، فقلت: لا أدري كيف صورته، فأتت بك. (انتهى).

وله أشباه وأشكال في قبح المنظر والشكل ليس هنا موضع ذكرهم، والغالب على أهل الكمال قلة المال، وعدم الجمال، وهذان من لطيف حكمة الله المتعال.

وطال عمر الجاحظ، وأصابه الفالج في آخر عمره، وكان يطلي نصفه الأيمن بالصندل والكافور لشدة حرارته، والنصف الأيسر لو قرض بالمقاريض لما أحسّ به من شدة برده، وكان يقول في مرضه: «اصطلحت على جسدي الأضداد؛ إن أكلت بارداً أخذ برجلي، وإن أكلت حارّاً أخذ برأسي».

وكان يقول: «أنا من جانبي الأيسر مفلوج، فلو قرض بالمقاريض ما علمت به، ومن جانبي الأيمن منقرس، فلو مر به الذباب لألمت، وبي حصاة لا ينسرح لي البول، وأشد ما عليّ سنّ ست وتسعين سنة». مات بالبصرة سنة خمس وخمسين ومئتين.

وفي أيام المعتز والمهتدي خرج جماعة من آل أبي طالب، ومنهم علي بن زيد بن الحسين بن عيسى بن زيد بن علي بن الحسين عليهما السلام.. كانت أمه من بني عقيل، خرج بالكوفة وبايعه جماعة من

عوام الكوفة وأعرابها، فبعث المهتدي جيشاً عظيماً لحربه بقيادة شاه بن ميكال، ولما بلغ الخبر أسماع جيش علي، وكان تعداده مئتي فارس، غضبوا وثاروا، فلما رأى علي غضبهم قال: أيها الناس، إن القوم إنما يطلبونني ولا شأن لهم بغيري، لقد نزعت بيعتي من أعناقكم، فانصرفوا إلى شأنكم ودعوني معهم، قالوا: لا والله لا نفعل.

ولما وصل جيش شاه بن ميكال غلب الفزع على جيش علي، فقال: أيها الناس الزموا أماكنكم وانظروا.

ثم إنه استل سيفه، ودفع جواده في قلب ذلك الجيش الكبير، وراح يضربهم بسيفه يميناً ويساراً حتى خرج من بينهم، واعتلى تلاً هناك، ثم كرّ راجعاً من خلفهم حاملاً عليهم، وكان الجنود ينفرجون عنه خوفاً من سيفه حتى عاد إلى موقعه الأول، وأعاد الكرة على هذا المنوال مرتين أو ثلاثاً، ولما رأى جيشه ما فعل اشتد عزمهم وحملوا على جيش شاه بن ميكال حملة واحدة فانهزموا أمامهم هزيمة شنيعة، وكان الظفر لعلي بن زيد، وبقي على ذلك حتى أيام المعتمد حيث قتل مع الطاهر بن محمد[١] العلوي والطاهر بن أحمد الحسني على يدي «ماجم» بالبصرة.

وفي هذه الأيام بعث موسى بن بغا من همدان بجيش لحرب الكوكبي، وفي الموقعة بينهما قتل الحسين بن محمد بن الحمزة بن القاسم بن الحسن بن زيد بن الحسن المجتبى عليه السلام.

وفي هذه الأيام كذلك أخذ الحارث بن أسد محمد بن الحسن بن محمد بن إبراهيم بن الحسن بن زيد بن الحسن المجتبى عليه السلام أسيراً وقيده وحمله إلى المدينة، وتوفي محمد في «الصفراء» فقطع الحارث قدميه ونزع عنه القيد.

---

(١) هو الطاهر بن محمد بن القسم بن الحمزة بن الحسن بن عبيد الله بن العباس بن أمير المؤمنين عليه السلام، والطاهر بن أحمد هو ابن القاسم بن محمد بن القسم بن الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليهما السلام (منه ره).

وفي هذه الأيام كذلك قتل سعيد الحاجب بالبصرة جعفر بن إسحاق بن موسى بن جعفر عليهما السلام، كذلك حمل سعيد الحاجب موسى بن عبد الله بن موسى بن عبد الله بن الحسين بن زيد بن الحسن المجتبى عليه السلام، وهو رجل صالح ومن رواة الحديث، حمله إلى العراق مع ابنه إدريس بن موسى وابن أخيه محمد بن يحيى وأبي الطاهر أحمد بن زيد بن الحسين بن عيسى بن زيد بن علي بن الحسين عليه السلام، وفي الطريق اشتبك جماعة من بني فزارة مع الشقي سعيد وخلّصوا تلك المجموعة من بين يديه ما عدا موسى الذي أبى أن يفرّ، فلا غرو أنه بقي مع سعيد الذي قتله بالسم في «الزبالة» وذلك في المحرّم من سنة ست وخمسين ومئتين، وحمل رأسه إلى المهتدي.

وفي هذه الأيام أيضاً قتل عبد الله بن عزيز عليّ بن عبد الرحمان بن القاسم الحسني مع محمد بن عبد الله الجعفري بالقرب من الريّ، كما أخذ محمد بن الحسين الحسني مع علي بن موسى بن إسماعيل بن موسى بن جعفر عليهما السلام أسيرين وحملهما إلى سرّ من رأى وحبسهما حتى توفيا في محبسهما.

وفي هذه الأيام أيضاً أخذ محمد بن أحمد بن عيسى المنصور عامل المهتدي على المدينة إبراهيم بن موسى بن عبد الله الحسني، وألقاه في السجن حتى توفي في الحبس ودفن في البقيع.

كما سجن عيسى بن محمد المخزومي عليّ بن موسى الحسين في مكة حتى توفي في محبسه، وأمسك أبو الساج بموسى بن إسماعيل الجعفري وحمله إلى الكوفة حيث أسلم الروح هناك.

خلافة أحمد بن جعفر المعتمد على الله

لما غادر المهتدي الدنيا حل محله ابن عمه أحمد بن جعفر المتوكل الملقب بالمعتمد، وكانت بداية حكمه في شهر رجب من سنة ست وخمسين ومئتين، كما وافاه أجله في شهر رجب أيضاً من سنة تسع وسبعين ومئتين، وطال حكمه ثلاثاً وعشرين سنة وبلغ من العمر ثمانياً وأربعين سنة، وقبره ببغداد، وفي السنة الأولى من حكمه وهي سنة ست وخمسين ومئتين في يوم عيد الفطر توفي محمد بن إسماعيل البخاري صاحب «الصحيح» المعروف.

وللبخاري حكاية معروفة عند وروده بغداد واجتماع أهل الحديث لديه، وعرضهم عليه الأحاديث المقلوبة، وحكي عنه أنه قال: «ما وضعت في كتابي «الصحيح» إلا اغتسلت قبل ذلك وصليت ركعتين». وقال أيضاً:

«صنفت كتابي «الصحيح» لست عشرة سنة، خرّجته من ستمئة ألف حديث، وجعلته حجة فيما بيني وبين الله».

وقال ابن تيمية الحراني في «منهاج السنية»: لقد احتاط البخاري فلم ينقل في «صحيحه» من أحاديث الصادق، لأنه كان قد حصل لديه شك وريب في بعض الخوارج والنواصب، وقد روى عن ألف ومئتي نفر منهم بتصريح ابن البيع وغيره، ومن جملتهم: عمران بن حطان السدوسي مادح ابن ملجم، وشرح هذا المقام طويل، وقد بيّنا في «فيض القدير» وفي «شرح الوجيزة» ما يناسب المقام. وهذا المقام لا يتسع للكلام.

وفي سنة ست وخمسين ومئتين أيضاً توفي الزبير بن بكر بن البكار،

ويتصل نسبه بالزبير بن العوام، وكان قاضي مكة وله اطلاع كامل على نسب قريش ومن مؤلفاته كتاب «أنساب قريش».

وفي السابع عشر من شوال سنة سبع وخمسين ومئتين دخل صاحب الزنج البصرة وقتل أهلها، وأحرق بيوتها ومسجدها الجامع، وكان فيه العباس بن فرج المعروف بالرياشي النحوي اللغوي مشغولاً بصلاة الضحى[1] فقتل في تلك الواقعة، والرياشي بكسر الراء وتخفيف الياء.

وفي غرة ربيع الأول سنة ثمان وخمسين ومئتين بعث المعتمد بشقيقه الموفق مع مفلح إلى البصرة لقتال صاحب الزنج، وفي تلك الواقعة قتل مفلح وحملوا جثمانه إلى سامراء، كما أن الموفق توقف عن القتال، وفي السنة نفسها توفي بنيسابور يحيى بن معاذ الراجي الواعظ أحد رجال الطريقة والمعاصر لجنيد البغدادي.

وفي سنة تسع وخمسين ومئتين انقرضت دولة الطاهريين وابتدأت دولة الصفاريين، وقد حكم العديد منهم، كان أولهم يعقوب، وفي سنة ستين ومئتين توفي الإمام أبو محمد الحسن بن علي العسكري صلوات الله عليه الأب العظيم للإمام الثاني عشر المهدي المنتظر صلوات الله عليه وعجل الله فرجه.

وفي تلك السنة أيضاً توفي الثقة الجليل القدر رئيس الطائفة الفضل بن شاذان النيسابوري، وفضائل هذا الشيخ الجليل الشأن كثيرة، ومصنفاته مئة وثمانون كتاباً، وقد ترحّم عليه الإمام أبو محمد العسكري ثلاث مرات.

وفي سنة ستين ومئتين أيضاً توفي أحمد بن أبي عبد الله محمد بن يحيى المبارك اليزيدي، العالم الأديب النحوي.

---

(١) صلاة الضحى هي الصلاة التي يأتي بها أهل السنّة في وقت الإفطار من النهار، وقد اختلفوا في عدد ركعاتها بين أربع ركعات أو ثمان أو اثنتا عشرة، وهم يواظبون عليها، وهي من بدعهم كصلاة التراويح.

واليزيديون سلسلة من أهل العلم والأدب، منهم يحيى بن المبارك الذي اشتهر بهذه النسبة لأنه كان في أول الأمر مربياً لأولاد يزيد بن منصور الحميري الوالي على الكوفة إلى البصرة، وإن اتصل بعد ذلك بخدمة الرشيد، واشتغل بتربية ولده المأمون، ومنهم نافلته[1] النبيل الفاضل العلامة محمد بن العباس بن محمد بن يحيى المذكور.

ومنهم إبراهيم بن يحيى أبو إسحاق النحوي صاحب المصنفات، والذي حكي عنه أنه كان يوماً في محضر المأمون وعنده يحيى بن أكثم القاضي وهم على الشراب، فقال له يحيى يمازحه: ما بال المعلمين يلوطون بالصبيان؟ فرفع إبراهيم رأسه فإذا المأمون يحرّض يحيى على العبث به، فغاظه ذلك وقال: أمير المؤمنين أعلم الخلق بهذا، فإنّ أبي أدّبه، فقام المأمون من مجلسه مغضباً، ورفعت الملاهي، فأقبل يحيى على إبراهيم فقال: أتدري ما خرج من رأسك؟ إني لأرى هذه الكلمة سبباً لانقراضكم يا آل اليزيدي.

قال إبراهيم: فزال عني السكر، وكتبت إلى المأمون: أنا المذنب... إلى آخر الأشعار في إظهاره الندامة، وجواب المأمون بالعفو عنه.

وهيهنا كلام أورده صاحب «الروضات» في ذيل ترجمة أبي عبد الله محمد بن يحيى المقدم ذكره بعد أن نقل بيته الجامع لمعجمات الحروف، قال: «ليس هذا بأمر عجيب بل العجب كل العجب هنا ما اتفقت عليه نسخ «شرح الكبير» في أول كتاب «الطهارة»، من نسبة لفظ الظهور الواقع في القرآن الطاهر المطهر إلى جماعة من اللغويين الأعاظم، منهم الترمدي، مع أن المراد به اليزيدي المذكور، وليس الترمدي بالتاء المثناة التحتانية والراء والميم بين علماء الجمهور إلا لقب أبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة أحد أرباب صحاحهم الستة المشهورة المتوفى ببلدة (ترمد) في سنة تسع وسبعين ومئتين من الهجرة» (انتهى).

---

(١) النافلة: ولد الولد.

ولكن لا يخفى أن الترمدي قد يطلق أيضاً على محمد بن أحمد بن نصر الترمدي الفقيه الشافعي المتوفى سنة خمس وتسعين ومئتين، وقد يطلق أيضاً على محمد بن علي بن الحسين المعروف بالحكيم الترمدي، فلاحظ التراجم.

وفي سنة ستين ومئتين كذلك توفي حنين بن إسحاق الطبيب «وهو الذي عرّب كتاب إقليدس، ونقله من اليوناني إلى العربي وهذبه ثابت بن قرّة».

وفي سنة إحدى وستين ومئتين توفي طيفور بن عيسى المعروف بابايزيد البسطامي المعروف، وأبو يزيد البسطامي: هو الشيخ المرشد المتصوف المعروف، وفي جملة من كلمات العرفاء أن أبا يزيد ارتاض[1] وخدم مئة وثلاثة عشر من المشايخ حتى وصل بخدمة مولانا جعفر بن محمد الصادق عليه السلام فوجد في خدمته ما هو المقصود.

وقال جمع منهم: إنه كان سقّاء في داره عليه السلام، ولما كان هذا بعيداً لمباينة عصرهما لما أنّ مولانا الصادق عليه السلام كانت وفاته في سنة ثمان وأربعين ومئة، وكان التفاوت بينهما مئة وثلاثة عشر، مع أن عمر أبي يزيد لم يكن أكثر من الثمانين، تأولوا هذه المقالة، فقال بعضهم. مكان مولانا الصادق سيدنا علي بن موسى الرضا عليهما سلام الله تعالى، وقال بعضهم: كان أبا جعفر محمد بن علي الجواد عليهما السلام.

وتخلّص بعض آخر عن هذا الإشكال بالتزام تعداد في الرجل الذي هو متصف بهذه النسبة والألقاب بأن بايزيد اثنان: الأكبر والأصغر، والأكبر هو السقاء (والله العالم).

وفي سنة إحدى وستين ومئتين أيضاً توفي مسلم بن الحجاج القشيري

---

(١) ارتاض: مارس الرياضة وهي الخلوة للعبادة والتفكر في ما توجبه على المؤمن حقائق الإيمان (المعرّب ـ المنجد).

النيسابوري صاحب «الصحيح» المعروف، وفي صحيحه قال علماء السنّة: «ما تحت أديم السماء أصحّ من كتاب مسلم في علم الحديث».

قال صاحب «النواقض الروافض»: قال أكثر علماء العرب: أصحّ الكتب بعد كتاب الله صحيح مسلم بن الحجاج القشيري، وقال الأكثرون من غيرهم: صحيح محمد بن إسماعيل البخاري هو الأصح، وهو الأصح، وما اتفقا عليه هو ما اتفق عليه الأمة، وهو الذي يقول فيه المحدثون كثيراً: صحيح متّفق عليه، ويعنون به اتفاقهما لا اتفاق الأمة، وإن لزمه ذلك.

إلى أن قال: وصار في الإسلام رفيقي مصحف[1] الكريم والقرآن العظيم. قلت: وللعلماء والمحدثين هيهنا كلام لا يناسب المقام ذكره، ومن أراد الاطلاع عليه فليراجع كتاب «عبقات الأنوار»، وقال مسلم: صنفت هذا السند الصحيح عن ثلاثمئة ألف حديث مسموعة.

قال عبد القادر الحنفي في «المحكي»: عن «جواهر[2] المضيئة» إن الحافظ رشيد العطار جمع كتاباً في بيان الأحاديث المقطوعة في «صحيح مسلم» وسمّاه بـ «الغرر الفوائد المجموعة في بيان ما وقع في صحيح مسلم من الأحاديث المقطوعة» وحكى أن مسلماً لما وضع كتابه «الصحيح» عرضه على أبي ذرعة الرازي فأنكر عليه وقال: سميته الصحيح فجعلت سلماً لأهل البدع وغيرهم.

خروج يعقوب بن ليث الصفار

وفي سنة اثنتين وستين ومئتين قدم يعقوب بن ليث الصفّار على رأس جيش عظيم إلى العراق ونزل على «دير عاقول» الواقع على طرف دجلة ما بين واسط وبغداد، عيّن المعتمد ابنه مفوضاً عنه في سامراء وخرج بنفسه على

---

(١) هكذا جاءت، ولعلّ المراد: (وصارا في الإسلام رفيقي المصحف الكريم).
(٢) هكذا جاءت.

رأس جيش لجب لحرب يعقوب، فقاتله حتى هزمه، وغنم جيش المعتمد غنيمة عظيمة، وروي أنهم غنموا عشرة آلاف من دوابهم، وكان يعقوب في الأصل نحّاساً ولهذا كان يقال له الصفار، ثم راح يجهز الجيش والجند شيئاً فشيئاً، ويقاتل الخوارج حتى علا شأنه، فسيطر على بلاد خراسان وسجستان وسائر البلاد ووضعها تحت تصرفه.

ولما قويت دولته خرج على الخليفة المعتمد بالله وقدم إلى العراق فحاربه حتى انهزم، فانصرف إلى الاستعداد ثانية وتجهيز الجيش يداعبه أمل الخروج لكن الأجل لم يمهله فأصيب بالقولنج فعرض الأطباء أن يعالجوه بالحقن لكنه أبى، وتوفي بهذا المرض في التاسع عشر من شوال سنة خمس وستين ومئتين.

بعد ذلك حلّ محله أخوه عمرو بن ليث، وعُين من قبل الخليفة والياً على نواحي خراسان حتى سنة سبع وثمانين ومئتين حين اشتبك في قتال مع والي تلك النواحي إسماعيل بن أحمد للاستيلاء على «ما وراء النهر» لكن الأمر انتهى به إلى الهزيمة فأسروه وبعثوا به إلى الخليفة المعتضد، فبقي أسيراً لديه حتى وفاة المعتضد وتولّي المكتفي للخلافة، وبعد انقضاء يوم واحد على ولاية المكتفي وافته المنية.

كان عمرو في أول أمره مكارياً حمّاراً، ويقال: إنه من بنى مسجد شيراز الجامع العتيق المشهور بمسجد الجمعة، وقد بناه سنة إحدى وثمانين ومئتين، واشتهر أن هذا المسجد لا يخلو من الأولياء قط، وأخبار آل ليث[1] ونوادر آثارهم كثيرة.

قال المسعودي: كان يعقوب الصفّار رجل سياسة خبيراً، وكان يسوس

---

(١) في «مجالس المؤمنين» من «التاريخ المنتخب» جاء أن صاحب التاريخ قال: كان الصفارية من الشيعة على الدوام، ومدة حكمهم كانت ستاً وخمسين سنة، وكان عددهم سبعة أوّلهم يعقوب (منه ره).

الجيش بشكل لم يسمع بمثيله، وروي أنه كان إذا أمر جنده بالخروج إلى الحرب اندفعوا فأخرجوا دوابهم من معالفها وامتطوها، وشوهد أحدهم ـ وفي فم جواده بعض العلف ـ ينتزع العلف من فم الدابة كي لا يتسبب مضغ العلف في تأخيره وكان يخاطب جواده قائلاً بالفارسية: إن أمير المؤمنين أمر بتوقف الدواب عن تناول العلف فهيّا. وإذا نادى منادي يعقوب بلبس السلاح اندفع الجيش إلى السلاح بكامله.

يحكى أن رجلاً شوهد وهو لا يلبس شيئاً تحت سلاحه، ولما سئل عن سبب ذلك قال: كنت مشغولاً بغسل الجنابة فلما نادى منادي الأمير بلبس السلاح، ولكي لا أتأخر في إجابة الأمير أهملت اللباس واكتفيت بلبس السلاح.

قيل إنه وجد على قبر الصفار:

ملكت خراساناً وأكناف فارس   وما كنت عن ملك العراق بآيس
سلام على الدنيا وطيب نسيمها   كأن لم يكن يعقوب فيها بجالس

وفي سنة أربع وستين ومئتين توفي موسى بن بغا، وإسماعيل بن يحيى المزني، ويونس بن عبد الأعلى، وكان موسى بن بغا من أمراء الأتراك لدى المهتدي والمعتمد، وهو الذي شكاه أهل قم إلى الإمام الحسن العسكري عليه السلام، فأمرهم أن يقنتوا بهذا الدعاء: «الحمد لله شاكراً لنعمائه..» الخ. وكان عليه السلام يقنت بهذا الدعاء المبسوط، وهو مسطور في «مهج الدعوات» وفي «بحار الأنوار».

وفي سنة خمس وستين ومئتين توفي أحمد بن الخصيب، وكان وزيراً للمنتصر والمستعين، غير أن المستعين أمر بنفيه سنة ثمان وأربعين ومئتين إلى جزيرة «إقريطش» لجرم ارتكبه، وكان ابن الخصيب رجلاً بطاشاً فتاكاً، ونقل أن رجلاً تظلم إليه وهو فوق دابته، فنزع قدمه من الركاب وراح يركل هذا المسكين في قلبه حتى هلك.

وفي شهر صفر من سنة سبع وستين ومئتين خرج الموفق لحرب صاحب

الزنج، فاشتبك معه بالبصرة حتى قتله، وقد امتدت أيام تسلّط صاحب الزنج، واستبداده أربعة عشر عاماً وأربعة شهور، وقد قتل في هذه المدة القصيرة الكثيرين من الرجال، وكان لا يوفر النساء والأطفال من القتل، وقد خرب بيوتاً كثيرة وأحرقها، وكان الناس في شأن قتلاه بين مكثر ومقل. فالمكثر يقول: لا يعلم غير علام الغيوب عدد الناس الذين قتلهم صاحب الزنج من البلاد والقرى والأمصار، فقد بلغوا من الكثرة حداً لا يمكن معه تعدادهم، والمقل يقول: لقد أفنى من الخلق خمسمئة ألف نفس، وأقوال الفريقين مبنية على الظن والحدس.

ونقول: لقد كان ما كتبناه نقلاً عن «التاريخ» غير أني لا أصدق، بل ولا أتصور كذلك هذا المقدار، وإجمالاً فقد نقل أنه قتل في واقعة واحدة بالبصرة ثلاثمئة ألف من الناس، وكانت فتنته شديدة الوطأة على أهل البصرة، ولم يسلم من أهل البصرة في أيامه غير القليل، فبعضهم مقتول وبعضهم غريق، وكثيرون منهم مفقودون مخفيون، كان الناس يتخفون نهاراً ويخرجون ليلاً يفتشون عن القطط والكلاب فيأكلونها من شدة الجوع حتى فني الكلاب والقطط والفئران.

كانوا إذا قتل أحدهم اقتسموا لحمه فيما بينهم وأكلوه، وكان من شدة الأمر على الناس ما روي من أن امرأة شوهدت تحمل رأساً وتبكي، فلما سئلت أجابت: لقد أحاط الناس بأختي ينتظرون موتها ليأكلوها، وكانت لم تمت بعد حين قطعوها قطعة قطعة واقتسموا لحمها، ولم يعطوني من لحمها سوى رأسها، وقد ظلموني في قسمتهم هذه!!.

يقول المؤلف: أشار أمير المؤمنين عليه السلام تكراراً في أخباره الغيبية إلى خروج صاحب الزنج وقتل أهل البصرة وجوعهم وسائر مصاعبهم.

وجاء في «نهج البلاغة» أنه قال: **«وفتن كقطع الليل المظلم، لا تقوم لها قائمة»** إلى أن قال عليه السلام: **«فويل لك يا بصرة من جيش من نِقَم الله، لا رهج له ولا حَسَّ، وسيبتلى أهلك بالموت الأحمر والجوع الأغبر»**.

وفي سنة سبعين ومئتين توفي بمصر أحمد بن طولون، وطالت مدة ولايته سبعة عشر عاماً، وكان والياً على مصر من قبل المعتز، واستولى فيما بعد على الشام والثغور، وقد عرف بالجود كما اشتهر بكثرة سفكه للدماء، وذكر أن الأشخاص الذين أمر بقتلهم أو ماتوا في سجونه بلغوا ثمانية عشر ألف نفس. وطولون لفظ تركي، وهو اسم أبيه.

وفي كتاب «الدر المسلوك» قال: «خلّف ابن طولون عشرة آلاف ألف دينار، وأربعة عشر ألف مملوك، وكانت إمارته نحو ست وعشرين سنة، وكان حازماً عاقلاً، بنى جامعه المعروف بين مصر والقاهرة عند مشهد الست نفيسة بنت الحسين بن زيد بن علي بن الحسين عليهما السلام، ويقوم هناك قبر آسية بنت مزاحم امرأة فرعون، وقبر رقية بنت علي بن أبي طالب عليه السلام، وقبر آمنة بنت الباقر عليه السلام، وقبر فاطمة بنت محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق عليه السلام».

وفي سنة إحدى وسبعين ومئتين توفيت بوران ابنة الحسن بن سهل زوجة المأمون، وحكاية عرس المأمون عليها وما أنفقه على عرسها مشهورة.

وفي سنة ثلاث وسبعين ومئتين توفي ابن ماجة القزويني أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجة صاحب كتاب «السنن» المشهور، وبعضهم يعدونه واحداً من الصحاح الستة.

وفي سنة أربع وسبعين ومئتين توفي أحمد بن محمد بن خالد بن عبد الرحمان بن محمد بن علي البرقي، صاحب المؤلفات الكثيرة والتي من جملتها «المحاسن».

والبرقي منسوب إلى «برقة رود» قم، وهذا الشيخ الجليل من ثقات العلماء والأصحاب الإمامية ولكن لما كان يروي عن الضعاف ويعتمد على المراسيل فقد طعن فيه القميّون، وقد أخرجه من قمّ الشيخ الثقة أبو جعفر أحمد بن محمد بن عيسى القمي الذي كان شيخ قم ورئيسها وفقيهها، لكنهم

أعادوه إلى قم من بعد ذلك وسألوه المعذرة، ولما مات البرقي شيّعه أحمد بن محمد بن عيسى حاسر الرأس حافي القدمين، وكان يوسف بن عمرو الثقفي والي العراق قد قتل جد البرقي محمد بن علي بعد مقتل زيد بن علي بن الحسين عليهما السلام، فلا غرو أن خالداً مع أبيه عبد الرحمان فرّا من عراق العرب إلى «برقة رود» قم، وسكنا فيها.

وفي سنة خمس وسبعين ومئتين توفي بالبصرة سليمان بن الأشعث أبو داود السجستاني صاحب «السنن».

قال ابن خلكان: وكان يقول أبو داود: كتبت عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خمسمئة ألف حديث انتخبت منها ما ضمنته هذا الكتاب (يعني السنن) جمعت فيه أربعة آلاف وثمانمئة حديث، ذكرت الصحيح وما يشبهه ويقاربه، ويكفي الإنسان لدينه، ومن ذلك أربعة أحاديث (أحدها) قوله صلى الله عليه وآله وسلم: **«إنما الأعمال بالنيات»** (والثاني) قوله صلى الله عليه وآله وسلم: **«من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»** (والثالث) قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «لا يكون المؤمن مؤمناً حتى يرضى لأخيه ما يرضاه لنفسه» (والرابع) قوله صلى الله عليه وآله وسلم: **«الحلال بين والحرام بين، وبين ذلك أمور مشتبهات»** (الحديث بكامله).

وفي سنة ست وسبعين ومئتين توفي الموفق بالله أبو أحمد طلحة بن المتوكل أخو المعتمد وولي عهده، والموفق هو الذي كتب الزبير بن البكار كتاب «الموفقيات» باسمه.

وكان يخطب له بلقبين: اللهم أصلح الأمير الناصر لدين الله أبا أحمد طلحة الموفق بالله، وولي عهد المسلمين، وأخا أمير المؤمنين، ولقب بالناصر حين فرغ من أمر محمد بن علي صاحب الزنج.

وفي سنة تسع وسبعين ومئتين توفي محمد بن عيسى الترمذي تلميذ البخاري والمشهور بحفظ الحديث، وفي أيام المعتمد خرج جماعة من آل أبي

طالب وقتلوا؛ من جملتهم: أحمد بن محمد بن عبد الله بن إبراهيم بن إسماعيل طباطبا، وأمه من حفيدات عثمان بن حنيف وكان عاملاً لأمير المؤمنين عليه السلام على البصرة، قتله أحمد بن طولون وحمل رأسه إلى المعتمد.

ومنهم: أحمد بن محمد بن جعفر بن الحسن بن عمر بن علي بن الحسين عليهما السلام، الذي حمله محمد بن ميكال مع أبيه إلى نيسابور، وتوفيا كلاهما، وتوفي أبوه قبله.

ومنهم: عبد الله بن علي بن عيسى بن يحيى بن الحسين بن زيد الذي قتل في «الطواحين» في الوقعة التي نشبت بين أحمد بن الموفق وكمارويه بن أحمد.

ومنهم: علي بن إبراهيم بن علي بن عبيد الله بن الحسين بن علي بن الحسين عليهما السلام، الذي قتل بسرّ من رأى عند باب بيت جعفر بن المعتمد، ولم يعرف قاتله.

ومنهم: محمد بن أحمد العلوي الذي قتله عبد العزيز بن دلف بقرية «آبه» من قرى قمّ.

ومنهم: الحمزة بن الحسين الجعفري الذي قتله صلاب التركي ومثّل به.

ومنهم: الحمزة بن عيسى بن محمد بن القاسم بن الحسن بن زيد بن الحسن عليه السلام، الذي قتل في واقعة الصفار والحسن بن زيد بطبرستان.

وفي هذه الواقعة أيضاً قتل محمد وإبراهيم ابنا الحسن بن علي بن عبيد الله بن الحسين بن علي بن الحسين عليهما السلام. والحسن بن محمد بن زيد بن عيسى بن زيد بن الحسن عليه السلام، وإسماعيل بن عبد الله بن جعفر، كما توفي في السجن بسرّ من رأى محمد بن الحسين بن محمد بن عبد الرحمان بن القاسم بن الحسن بن زيد.

وتوفي أيضاً في أيام المعتمد موسى بن محمد بن سليمان بن داود بن الحسن بن الحسن، وكان قدم من مصر في أيام المعتز.

وكذلك فإن سعيداً الحاجب أخذ علي بن محمد بن أحمد بن عيسى بن زيد بن علي بن الحسين عليهما السلام مع ولديه أحمد وعلي وسجنهم، فوافى الأجل علي بن محمد مع أحمد في السجن، بينما نجا علي بن علي.

ومنهم الحسين بن إبراهيم بن علي بن عبد الرحمان بن القاسم بن الحسن بن زيد بن الحسن عليه السلام، فقد أخذه الصفار وحبسه حين غلب على نيسابور، ثم حمله إلى طبرستان حيث توفي في الطريق.

ومنهم: محمد بن عبد الله بن زيد بن عبد الله بن الحسن بن زيد بن الحسن عليه السلام، الذي توفي في سجن يعقوب الصفار في نيسابور، وكان الصفار قد أتى به أسيراً من طبرستان.

وفي أيام المعتمد جرت وقائع كثيرة وحوادث وفتن لا تعد، وقد اختار المعتمد في أيامه اللذائذ والملاهي، وشيئاً فشيئاً أضحى أخوه أبو أحمد الموفق يدير شؤون المملكة إلى حدّ أنه أصبح مرجعاً في كل أمر، بينما لم يكن المعتمد ليتصرف بأي أمر، ولم يكن له من الخلافة سوى اسمها، ولما توفي الموفق حلّ محلّه ولده أحمد المعتضد الذي قهر عمه وتغلّب عليه كما فعل أبوه، ويقول المعتمد إشارة إلى ما كان يعانيه من قهر وغلبة:

أليس من العجائب أن مثلي ... يرى ما قلّ ممتنعاً عليه
وتؤخذ باسمه الدنيا جميعاً ... وما من ذاك شيء في يديه

واستمرت الحال بالمعتمد على هذا المنوال حتى توفي في الثامن عشر من شهر رجب سنة تسع وسبعين ومئتين، وقيل إنهم دسّوا له سماً في الشراب، وقد امتد حكمه ثلاثاً وعشرين سنة، وفي السنة نفسها توفي محمد بن عيسى الترمذي صاحب «الصحيح».

خلافة المعتضد بالله أحمد بن طلحة

اعتلى أحمد بن طلحة بن المتوكل الملقب بالمعتضد عرش الحكم في يوم وفاة عمه المعتمد وذلك في الثامن عشر من شهر رجب سنة تسع وسبعين ومئتين، وتمّ في أيامه إطفاء الفتن وتفادي الحروب، وانخفضت أسعار السلع وفتح عليه الشرق والغرب، وامتلأت خزائنه بالأموال الوفيرة، وكان المعتضد رجلاً بخيلاً شحيحاً عديم الرحمة سفاكاً للدماء عظيم الميل إلى إنزال العقوبات والتعذيب الشديد والمثلة، وقد بنى المطامير وخصصها لتعذيب الناس.

روي أنه إذا غضب على أحد غلمانه أمر به فأنزل حتى نصفه الأعلى في حفرة، ثم تملأ الحفرة بالتراب المضغوط، ويترك حتى تخرج روحه من دبره، ومن طرائقه في التعذيب أنه كان إذا غضب على أحدهم أمر به فسدت منافذ بدنه كلها بالقطن بإحكام، ثم يثبّت منفاخ في مقعده وينفخ حتى يمتلىء بدنه بالريح وينتفخ، ثم يسد منفذ دبره بالقطن بإحكام، ثم يفصدون العرقين اللذين يعلوان حاجبيه وينتفخ المسكين كالجمل، وتخرج روحه بالتدريج من فوق حاجبيه.

وأكثر رغبات المعتضد وميوله إنما هي في النساء وممارسة الجماع، وكان بنّاء، وقيل: إنه بنى القصر المعروف بالثريا، ورصد لبنائه مئة ألف دينار. وبلغ طول ذلك القصر ثلاثة فراسخ، وكان بدر غلاماً خاصاً للمعتضد وقد قتل في عهد المكتفي بالله، وكان وزيره عبيد الله بن سليمان، وبعد موته اتخذ القاسم بن عبيد الله وزيراً له، وفي أيام حكمه سنة اثنتين وثمانين ومئتين

توفي بالبصرة محمد بن القاسم المعروف بأبي العيناء، وجرى هذا بعد أن كان قاصداً البصرة من بغداد على متن زورق مع ثمانين راكباً آخرين، فغرق الزورق، وهلك الثمانون جميعاً سوى أبي العيناء الذي ربط نفسه بخشبة من الزورق ونجا، مع أن عينيه كانتا عمياوين، ولما بلغ البصرة وافته المنية.

وكان أبو العيناء رجلاً حسن المشرب ظريفاً حفاظاً أديباً فصيح اللسان عذب البيان، ونوادر حكاياته وكلامه في مجلس المتوكل والسائرين معروفة.

حكي أنه أراد الدخول يوماً على صاعد بن مخلد الوزير، فقال له الحاجب: الوزير مشغول فعلاً، فاصطبر قليلاً، ولما طال انتظاره سأل الحاجب: ما الذي يشغل الوزير قال: الصلاة، قال: لقد قلت الحق «فلكل جديد لذة»، وكان صاعد قبل ذلك نصرانياً.

وحكي أيضاً أنه دخل يوماً على المتوكل وكان في القصر المعروف بالجعفري. فقال المتوكل: ما تقول في دارنا هذه؟ فقال: إنّ الناس بنوا الدور في الدنيا، وأنت بنيت الدنيا في دارك، فاستحسن كلامه.

قلت: وقد أخذ منه من قال في مدح الدار التي بناها الصاحب بن عباد بأصبهان:

بنيت الدار في دنيا ... ك أم دنياك في الدار

وقد أكثر الشعراء في مدح هذه الدار، كما نقل أشعارهم عبد الملك الثعالبي في «يتيمة الدهر في شعراء أهل العصر».

وفي سنة ثلاث وثمانين ومئتين توفي إبراهيم بن محمد الثقفي، وهذا الشيخ الجليل من أحفاد سعيد بن مسعود عمّ المختار بن أبي عبيدة بن مسعود، الذي كان أمير المؤمنين عليه السلام قد جعله والياً على المدائن، وكان في زمن الإمام الحسن عليه السلام والياً أيضاً، وكان الإمام الحسن عليه السلام - بعد أن أصابه جراح بن سنان بجرح في مظلم ساباط المدائن - قد ورد عليه فأحضر جراحاً عالج له جرحه.

وإجمالاً فقد كان إبراهيم أولاً زيدي المذهب ثم انتقل إلى مذهب الإمامية، كان كوفي الأصل، لكنه انتقل إلى أصفهان، وسبب انتقاله أنه لما ألّف كتاب «المعرفة» الذي يشتمل على مناقب الأئمة الأطهار عليهم السلام، ومثالب أعدائهم استعظم الكوفيون تأليف ذلك الكتاب، إذ أن وضعه كان على خلاف التقية، فقالوا له: المصلحة في أن لا تنقل هذا الكتاب ولا تخرجه، فقال: «أي البلاد أبعد من الشيعة» يعني: أي البلاد بعيدة عن الشيعة، وشيعتها أقل قالوا: أصفهان.

فأقسم إبراهيم أن لا ينقل ذلك الكتاب ولا يرويه إلا في أصفهان، ثم انتقل إلى أصفهان وراح يروي هذا الكتاب الذي هو خلاف التقية، فقدم إلى أصفهان جماعة من القميين كأحمد بن محمد بن خالد وغيره وسألوه أن ينتقل إلى قم فأبى وأقام في أصفهان. ولهذا الشيخ تصانيف كثيرة.

يقول المؤلف: يستفاد هنا أن أهل أصفهان كانوا في تلك الأعصار غير إماميين، بل يستفاد من مصدر آخر أنهم كانوا على طريق النصب والعناد، فالأحاديث الواردة في ذم أهل أصفهان محمولة على الزمان السابق[١] كالحديث النبوي: «ما أحسن أو ما أفلح أصفهاني أبداً».

وكذلك الحديث المرتضوي المنقول عن «خرائج الراوندي» وغيره، والذي يروى عن عبد الله بن مسعود أنه قال: كنت جالساً عند أمير المؤمنين عليه السلام في مسجد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فرأيت رجلاً ينادي: من يدلني على عالم آخذ العلم عنه؟ فناديته: أيها الرجل، ألم تسمع أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «أنا مدينة العلم وعلي بابها؟» قال: وكيف لا قلت: فماذا تنتظر هذا أمير المؤمنين عليه السلام باب مدينة العلم، فخذ عنه.

---

(١) كما روي أنه لما أصبح عمر بن عبد العزيز خليفة ومنع سبّ أمير المؤمنين عليه السلام بين الناس، وأمر بالكتابة إلى الولاة في كل ولاية أن يمنعوا سبه عليه السلام، دفع أهل أصفهان مالاً كثيراً إلى ولاة عمر كي يعطوهم مهلة حتى يكملوا الأربعين في سبّه عليه السلام وعندها يمتنعون عن سبه، والله العالم (منه ره).

قدم الرجل فجلس عند أمير المؤمنين عليه السلام فسأله: ممن أنت؟ قال: من أهل أصفهان، قال: اكتب: أملى علي بن أبي طالب أن خمس خصال لا يكنّ في أهل أصفهان: السخاء، والشجاعة، والأمانة (الوفاء ـ خ ل) والغيرة، ومحبة أهل البيت، قال الرجل: زدني، قال عليه السلام باللسان الأصفهاني الولايتي القديم: «اروت أين وس» يعني: هذا يكفي اليوم.

وهذا وأمثاله كان مخصوصاً بتلك الأعصار، أما في الأزمنة المتأخرة[1]، وعلى الأخص منذ أيام الصفويين حتى أيامنا هذه فإن مدينة أصفهان كانت ـ بحمد الله ـ قبة الإسلام ومحط رحال أهل الإيمان، وكانت مركزاً للعلم والعلماء، وفي تلك المدينة تقوم القبور الشريفة لكثيرين من أعاظم العلماء الذين يستعصون على الحصر، وهناك المسجد المعروف بـ «لسان الأرض» في الطرف الشرقي لمزار «تخت فولاد» القريب من قبر الفاضل الهندي (ره) ويقول الناس هناك: إن هذا الموضع من الأرض تكلم مع الإمام الحسن المجتبى عليه السلام حين قدم إلى هناك في أيام عمر بن الخطاب مع جيوش المسلمين بسبب الفتوحات، ولهذا فهم يدعونه بـ «لسان الأرض» وقد صلى عليه السلام هناك. وفي القبلة من ذلك المسجد آثار قبر مشهور بقبر أشعياء النبي

---

(١) اعلم أن السيد الشهيد القاضي نور الله (ره) قال في «المجالس»: جاء في «تاريخ ابن كثير» الشامي أنه وقعت في سنة خمس وأربعين وثلاثمئة فتنة عظيمة بين أهل أصفهان وأهل قم الذين جاؤوها بقصد التجارة، ذلك أن أهل قم سبوا الصحابة هناك فقام أهل أصفهان بقتل جمع كثير منهم وأغاروا على أموال التجار، ولما بلغ هذا الخبر ركن الدولة البويهي غضب ـ بسبب تشيعه ـ على أهل أصفهان وصادر منهم أموالاً كثيرة.

أورد الشيخ عبد الجليل الرازي في كتاب «النقض» أن أصفهانياً سأل قمياً: من أين أنت؟ قال: من مدينة(دندان كنان)، صمت الأصفهاني متحيراً وقال: لم أفهم ما تعني، قال القمي: أعني أنني حين أقول من قم فقل: آه.

ومن هنا يستفاد أن القمي لا يكون إلا شيعياً، والأصفهاني لم يكن إلا سنياً، والحمد لله والمنة أنه في أيام الملوك الصفويين الموسويين ـ أنار الله برهانهم ـ فإن أنوار الإيمان والهداية قد أضاءت كل نواحي تلك الولاية بحيث إن مئة قم تضيع في أصفهان، وإنها توازي دار المؤمنين كاشان.

عليه السلام، الذي بعث إلى الطائفة اليهودية التي كانت تسكن هناك. ويعدون من خصائص أصفهان قلة ابتلاء أهلها بالطاعون والأوبئة، بل قيل إنه منذ بناء تلك المدينة لم يأتها الطاعون.

ومن خصائصها حكاية «مئذنة جنبان» في قرية «كاردلان» القريبة من أصل البلد، وحكاية تحرك المئذنتين مع أصل القبة والقاعدة بتحريك الإنسان لها معروفة، ورأى ذلك جماعة من الثقات ومنهم صاحب «روضات الجنات» وقد كتب ذلك في كتابه، ولم يُعرف سرّها حتى الآن.

ومن خصائص أصفهان أيضاً قولهم: إن سلمان الفارسي (ره) من «جى» في أصفهان، وكذلك خلود الملك والسلطان هناك، نظير ما قيل عن بغداد، إلى غير ذلك، وقيل إن أصفهان من بناء الإسكندر ذي القرنين، وقيل كلام مختلف في وجه تسميتها، والمقام لا يناسب ذكره (والله العالم).

وفي سنة ثلاث وثمانين ومئتين توفي علي بن علي بن رزين الخزاعي أخو دعبل الشاعر المعروف، وكان قد بلغ من العمر إحدى عشرة ومئة سنة. وفي السنة نفسها قدم المعتضد إلى تكريت وبعث بالحسن بن حمدان إلى قتال هارون الشاري ونشبت بين الحسن وهارون معارك عنيفة أسر في نهايتها هارون وأخوه واقتيدا إلى المعتضد الذي قفل عائداً إلى بغداد فأقاموا له الزينات وبنوا له القباب.

خلع المعتضد على الحسن بن حمدان خلعة قيّمة وقلده طوقاً ذهبياً، كما خلع خلعاً على رؤساء أصحابه وأدخلهم المدينة بكل جلال وتعظيم، وأركب هارون الشاري فيلاً يتبعه أخوه على جمل، ودخلوا بغداد مع المعتضد بموكب غريب.

توافد أهل بغداد للفرجة على الموكب، واجتمع خلق كبير منهم على جسر دجلة مما تسبب في تحطم قاعدة الجسر وهوى الناس إلى الماء، وغرق في هذا اليوم ممن أمكن معرفتهم ألف شخص، وارتفع ضجيج الناس وصراخهم وشرع الغواصون والملاحون في إخراج جثث الغرقى، ومن بينهم تم إخراج طفل ذي لباس فاخر قيّم مغطى بالجواهر والذهب الكثير.

لما أخرج هذا الطفل بادر رجل مسن من بين المتفرجين بعد أن وقع نظره على الطفل فانهال يلطم وجهه ويصيح حتى نزفت الدماء من أنفه ورمى بنفسه على الأرض، وهكذا تظاهر أن هذا الطفل الغريق هو ابنه، وراح يقول: يا نور عيني، كيف لم تلتهمك الأسماك؟! وأمثال هذه الأقوال، ثم تقدم وحمل جثة الطفل ووضعها على حمار، ثم خرج بها. ولم يمضِ طويل وقت حين ظهر رجل من التجار المتمولين وتبين أنه الأب الحقيقي للطفل الغريق، وأن مراده هو تكفينه ودفنه وليس الحلي والزينة، فقص عليه الناس قصة الرجل المسن فتعجب كثيراً، واندفع مع من معه من التجار يبحثون عن الرجل لكنهم لم يعثروا عليه، وأخبرهم بعض المارة أنهم يعرفون ذلك الشيخ المسن وهو عيّار محتال ولا يمكن العثور عليه، ثم شرعوا يروون طرفاً من احتيالاته.

وكان مما رووه عنه أنه قدم صباح ذات يوم وهو يرتدي ملابس قديمة ويحمل على كتفه كوزاً خالياً ومعولاً وسلاً، قدم إلى دار رجل من كبار أهل المدينة وعدولها، وكان مرجع رئاستها، وشرع بتخريب دكاكين تقع في أرض ذلك الرجل العادل.

لما سمع الرجل الكبير صوت المعول خرج من داره فرأى الشيخ منشغلاً بالتخريب، وكان يرتب أحجار الآجر التي يستخرجها في ركن هناك، وكان يقوم بعمله بكل اعتداد وطمأنينة، فسأله عمّا يصنع فلم يلتفت إليه وتابع عمله رغم كل التساؤلات، وتجمع الجيران يسألونه عن السبب فلم يرد عليهم، فأمسكوا به وكفوا يده عن التخريب، فسألهم: وماذا تريدون، ألا تخجلون من المزاح مع شيخ مسن؟ قالوا: أيّ مزاح ويلك، أما تقول لماذا تخرب هذه الدكاكين؟ قال: بأمر صاحبها، قالوا: إن صاحبها هو هذا الرجل العادل فمتى أمرك بذلك؟ قال: لا، صاحبها شخص آخر، وأقسم على ذلك.

فلما رأى الناس ذلك قالوا: إما أن هذا الرجل مجنون وإما أن أحد حساد الرجل العادل دفعه إلى القيام بما يقوم به، وأخذتهم عليه بعض الرقة.

أما الشيخ فلما رأى أنهم لن يدعوه يتابع عمله اقترب من السلة وهو

يتظاهر بأنه يبحث عن شيء فيها، ثم أطلق صيحة وراح يبكي، فتأكد الرجل العادل أن عيّاراً سرق له شيئاً من متاع أو غيره، فسأله عن متاعه فقال: هي ألبسة قيّمة اشتريتها حديثاً بثمن غالٍ، فأشفقوا عليه، ثم ألبسه الرجل العادل ثوباً من عنده ونقده مبلغاً من المال، وفعل الجيران فعله، فاجتمع لدى الشيخ مال كثير رجع به إلى بيته.

وأردف المارة يقولون: هذا الشيخ هو من اختطف بختيشوع الطبيب وذهب به إلى المتوكل. فلما سمع أبو الطفل هذا يئس من العثور على طفله.

يقول المؤلف: إن نظير هذه الاحتيالات يقع بكثرة في كل زمان، وقد نقل ابن الجوزي مقداراً من حكايات المحتالين في كتاب «الأذكياء» كما نقل الحريري بعضها في «المقامات» باسم أبي زيد السروجي عن الحارث بن همّام.

وفي سنة أربع وثمانين ومئتين ظهر في دار المعتضد شخص بمظاهر مختلفة؛ فمرة كان يظهر بصورة وملابس راهب، وأخرى بصورة شاب وسيم، وثالثة بصورة مسن قد شابت محاسنه يرتدي ملابس التجار، ويظهر رابعة على السطح وهو شاهر سيفاً يلوّح به على الخدم والحشم، وقد انتشرت هذه القصة بين الناس وساقوا عنه روايات مختلفة، فقال بعضهم: شيطان مريد يريد إيذاء المعتضد، وقال آخرون: جنّي مؤمن يريد ردع المعتضد عن المنكرات وسفك الدماء، وقال غيرهم: هو أحد خدمه يستخدم هذه الحيلة لغرض في نفسه، وعن البعض أنه مشعوذ يدس عقاقير خاصة في الأفواه.

وإجمالاً فقد عرا المعتضد قلق شديد ورعب هائل، واستعان بالمشعوذين دون أن يستطيع التخلص من حيرته، فصب غضبه على خدمه وجواريه، فأغرق بعضهم، وقتل البعض الآخر، وألقى ببعضهم في السجون.

وفي سنة أربع وثمانين ومئتين أيضاً ولد أبو الفرج الأصفهاني، كما توفي البحتري الشاعر الطائي بمنبج، واسمه الوليد بن عبيد، «ومنبج (بتوسط الموحدة بين النون والجيم) بلدة بين حلب والفرات بناها كسرى لما غلب على الشام، وكانت منبج إقطاعاً لعبد الملك بن صالح العباسي، وكان مقيماً بها».

وفي سنة خمس وثمانين ومئتين في السابع والعشرين من ذي الحجة توفي ببغداد أبو إسحاق إبراهيم بن (إسحاق الحربي) محمد الفقيه المحدث، وكان شيخ البغداديين في عصره، وكان معروفاً بالظرف والنسك والزهد والجود والحديث والفقه.

قال الدارقطني: كان إماماً يقاس بأحمد بن حنبل في زهده وعلمه وورعه.

له مصنفات مثل «غريب الحديث» و «المناسك» و «مسند علي» عليه السلام، ومساند أخرى، والحربي نسبة إلى الحربية، وكانت محلّة كبيرة عند قبر بشر الحافي وأحمد بن حنبل، من أبنية حرب بن عبد الله وكان من قادة جيش المنصور، وقد جرى عليها الخراب في فتنة المغول.

وفي أواخر هذه السنة توفي أبو العباس محمد بن يزيد المعروف بالمبرّد، العالم اللغوي النحوي البصري، دفن في مقابر «باب الكوفة» ببغداد، وعن «كشكول» شيخنا البهائي أن المبرّد كان إذا أضاف إنساناً حدثه بسخاء إبراهيم عليه السلام، وإذا أضافه أحد حدّثه بزهد عيسى عليه السلام وقناعته، والمبرّد تلميذ الرماني، وكان بينه وبين ثعلب منافرة ووحشة.

خروج الداعي العلوي

وفي سنة ست وثمانين ومئتين انتقل الداعي[1] العلوي في طبرستان مع جيش عظيم من الديلم وغيرهم إلى مدينة جرجان، فبعث إسماعيل بن أحمد المتسلط على خراسان بجيش كبير من المسودة لحرب الداعي، وجعل محمد بن هارون على رأس الجيش.

(١) الداعي العلوي: هو محمد بن زيد بن محمد بن إسماعيل بن الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليهما السلام، الذي توصل ـ بعد أخيه الحسن بن زيد داعي الخلق ـ إلى حكم طبرستان واستراباد وأظهر التشيع، وهو أول من بنى قبة فوق رأس القبر المنور للأمير عليه السلام، وكان يبعث سنوياً بمبلغ اثنين وثلاثين ألف دينار خفية إلى بغداد لتنفق على السادات (منه ره).

وجرت بين الجيشين معركة عظيمة كان الظفر فيها لجيش الداعي، فلجأ محمد بن هارون إلى الحيلة، فقد أمر جيشه بالفرار فاختلطت صفوف جيش الداعي عند الاستيلاء على الغنائم فانقلب المسودة من الفرار وجاءوهم من أعقابهم وأعملوا فيهم السيف، فقتلوا منهم خلقاً كثيراً، وأصيب الداعي بجروح كانت السبب في وفاته، ودفن في باب جرجان، وأسر ابن الداعي زيد بن محمد بن زيد.

قال أبو الفرج: إنهم حملوه إلى جرجان وبقي فيها حتى هذا الوقت، وروي أن المعتضد كان عطوفاً على آل أبي طالب، وسبب ذلك أنه في الأيام التي حبسه والده في السجن رأى أمير المؤمنين عليه السلام في نومه فقال له: يا أحمد اعلم أن الحكم سيؤول إليك، فإذا صار هذا فلا تتعرض لأولادي، فقال المعتضد: «السمع والطاعة يا أمير المؤمنين».

لهذا ففي أيام حكمه لم يتعرض لبنيه عليه السلام، وكان ينعم عليهم، فلما سمع أن محمد بن زيد الداعي بعث بالأموال إلى الطالبيين سراً لتقسم فيما بينهم أرسل في طلب ناقل المال قائلاً: أن أجرِ قسمة المال عليهم علانية، فلن يتعرض لك أو لهم أحد.

يقول المؤلف: حكاية رؤيا المعتضد نقلها المسعودي وغيره، وإن أمر أمير المؤمنين عليه السلام إذ قال في أخباره الغيبية: «وسادس عشرهم أقضاهم للذمم وأوصلهم للرحم» إنما هو إشارة لهذا الأمر.

وفي سنة ست وثمانين ومئتين خرج أبو سعيد القرمطي بالبحرين، وقويت شوكته وتسلطه، ونشبت بينه وبين جند الخليفة معارك ومشاهد كثيرة، وأنزل الهزيمة بجند الخليفة مرات عدة، وأغار على البصرة وأطرافها، وكان يقال له أبو سعيد القرمطي.

و «لأنه كان قصيراً، مجتمع الخلق، أسمر، كريه المنظر، مأخوذاً من القرمطة، وهو تقارب الشيء بعضه من بعض، يقال: خط مقرمط، ومشي مقرمط».

وأبو سعيد المذكور والد أبي طاهر رئيس القرامطة الذين كانوا دائماً ينشرون الفساد في البلاد، وفي سنة سبع عشرة وثلاثمئة ذهبوا إلى الحج وسلبوا الحجاج أموالهم وقتلوا الرجال في المسجد الحرام، وألقوا بالقتلى في بئر زمزم واقتلعوا باب الكعبة والحجر الأسود، ونزعوا ثوب الكعبة واقتسموه فيما بينهم، وأراد أحدهم أن ينتزع ميزاب الكعبة فوقع عن السطح وهلك.

ثم أغاروا على دور مكة وحملوا الحجر الأسود إلى هَجَر، وعرض أمير بغداد والعراق عليهم خمسين ألف دينار على أن يردّوا الحجر ويحملوه إلى مكة فرفضوا، وبقي عندهم اثنتين وعشرين سنة حتى جاء عبيد الله المهدي(١) المعدود من أحفاد إسماعيل بن الإمام الصادق عليه السلام، وكانت له مملكة في إفريقية، فكتب كتاباً إلى أبي طاهر يلومه ويوبخه على هذا العلم الممجوج ولعنه وقال: لقد فضحتنا ووصمت دولتنا بالإلحاد، فعليك أن تعيد الحجر إلى موضعه، وأن ترد أموال الناس إلى أصحابها، فأعاد القرامطة الحجر الأسود إلى مكانه، وستأتي الإشارة إلى هذا الأمر في تاريخ أيام المقتدر أيضاً إن شاء الله تعالى.

وفي سنة سبع وثمانين ومئتين بعث المعتضد بجيش لجب لقتال القرامطة، وكان على رأسه العباس بن عمرو الغنوي، وكان تعداده عشرة آلاف

---

(١) عبيد الله بن محمد الملقب بالمهدي بالله أول شخص من آل إسماعيل أصبح خليفة في ديار المغرب ومصر، في أيام بني العباس، وملك الإسماعيليون مئتين وأربعاً وعشرين سنة، وكان عددهم أربعة عشر، وكان يقال لهم الإسماعيلية والعبيدية، وقال القاضي نور الله (ره): القرامطة والطريقة الإسماعيلية طائفتان مختلفتان، وقد بث العباسيون ومؤيدوهم أشد العداوة والبغضاء للقرامطة في صفوف الإسماعيلية.

يقول المؤلف: أشار أمير المؤمنين عليه السلام في أخباره الغيبية إلى سلاطين الإسماعيلية حيث قال: «ثم يظهر صاحب القيروان.. إلى قوله عليه السلام: من سلالة ذي البداء المسجّى بالرداء». و «القيروان» هي الموضع الذي بنى عبيد الله المهدي قلعة في أطرافه، وقد وسمه بالمهدية، والمراد من «ذي البداء المسجّى بالرداء»: إسماعيل بن جعفر الصادق عليه السلام، والخواجة نصير الدين كتب نسب عبيد الله على هذا النحو: ابن محمد بن عبد الله بن أحمد بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق عليه السلام (منه ره).

مقاتل، ولما واجهوا القرامطة أسرهم القرامطة جميعاً، ثم قتلوهم عن آخرهم في اليوم التالي إلا العباس فقد أطلقوه ورجع إلى المعتضد وحده، وجرت هذه الواقعة في آخر شعبان ما بين البصرة والبحرين.

وفي سنة تسع وثمانين ومئتين تم إمساك جماعة من القرامطة في ناحية الكوفة وتم شنقهم، وكان من جملتهم رجل معروف بأبي الفوارس الذي بترت أطرافه ثم شنق على جسر بغداد، ولما أرادوا شنقه قال لمن اجتمع تحت مشنقته من العوام: أيها الناس، إني سأعود حياً بعد أربعين يوماً وأعود إلى الدنيا.

وبعد انقضاء أربعين يوماً اجتمع الناس تحت مشنقته فرأوا أن جسده ما يزال فوق المشنقة، قال بعضهم: لقد كذب وها هو جسده، وقال آخرون: لقد قتل السلطان شخصاً آخر ونصبوا جسده مكانه، ووقع النزاع بينهم فأمروهم بالتفرق.

وفي سنة تسع وثمانين ومئتين أيضاً، وبعد أربع ساعات مضين من ليلة الإثنين الثالثة والعشرين من ربيع الثاني، مات المعتضد في القصر الحسني مسموماً، وامتد حكمه تسع سنوات وتسعة أشهر ويومين، وبلغ من العمر أربعين سنة أو ستاً وأربعين أو سبعاً وأربعين على قول، وكان يدعى بالسفاح الثاني بسبب أنه قام بتجديد مملكة بني العباس بعد أن شاخت، فمن زمان المتوكل كانت المملكة تتجه نحو الضعف، ولهذا قال ابن الرومي يمدحه:

هنيئاً بني العباس أن إمامكم ... إمام الهدى والبأس والجود أحمد
كما بأبي العباس أنشىء ملككم ... كذا بأبي العباس أيضاً يجدّد

خلافة المكتفي بالله علي بن المعتضد

في يوم وفاة المعتضد كان ابنه المكتفي بالله علي بن أحمد في «الرقة»، فأخذ القاسم بن عبيد الله الوزير له البيعة من الناس، حتى مضى شهر عاد بعده المكتفي إلى بغداد ونزل في القصر الحسني، ومنذ عهد الخليفة الأول أبي بكر الصديق حتى عهد المكتفي لم يكن هناك خليفة اسمه علي سوى خليفة الله الأعظم أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى أولاده.

لما دخل المكتفي بغداد أمر بالمطامير التي بناها المعتضد للتعذيب فدمرت، ورد مواضعها إلى أصحابها، ذلك أن المعتضد كان قد أخذها غصباً، كما أمر بالمساجين فأطلقوا، وقسم عليهم أموالاً كثيرة، فمالت إليه قلوب الرعية لذلك ودعوا له.

غير أن حاله انقلبت في أواخر عهده، فقد أراد بناء قصر له بناحية «الشماسية» فاغتصب ضياع ومزارع تلك الناحية من أصحابها، وبنى قصره عليها، فانطلقت الألسنة بلعنه وآذنت دولته بالانقضاء، فلم يكن قد استكمل بناء قصره حين لبى داعي الموت.

ينقل عن السلطان محمود الغزنوي أنه كان يقول: أنا لا تخيفني أسنّة أسود الرجال بقدر ما تخيفني مغازل عجائز النساء. وإجمالاً فقد كان المكتفي رجلاً بخيلاً ممسكاً، وقد جمع أموالاً كثيرة، وفي أيام حكمه وأثناء صلاة الجمعة في السادس من شهر رمضان سنة تسع وثمانين ومئتين كان مقتل «بدر» وكان بدر من خاصة المعتضد بالله، ولم يكن لأحد عند المعتضد من المكانة

والمقام ما كان لبدر، وكان الناس يقرنون مدحه بمدح المعتضد، ويوسطونه لقضاء حاجاتهم. ولما قتل بدر حملوا رأسه إلى المكتفي وطرحوه أمامه، فسر لرؤيته وسجد شكراً لله وقال: الآن ذقت طعم الحياة ولذة الخلافة. وفي هذه السنة كان خروج القرمطي بالشام.

وفي سنة تسعين ومئتين توفي عبد الله بن أحمد بن حنبل، وفي حدود السنة نفسها توفي أبو الحسن علي بن العباس البغدادي المعروف بابن الرومي الشاعر، وكان سبب وفاته ذلك السم الذي دسه له القاسم بن عبيد الله الوزير اتقاءً لهجائه، ولما أحس بسريان السم وهو في مجلس الوزير وقف ليخرج، فقال الوزير: إلى أين؟ قال: إلى حيث أرسلتني، قال: سلّم لي على أبي، قال: لن أذهب عن طريق جهنم كي أراه.

وحكي أن ابن الرومي كان شديد الطيرة، بحيث كان يغلق أبوابه ولا يخرج على أحد خوفاً من التطير، فأراد بعض أصحابه أن يحضر إليهم في يوم أنس، فسيّروا إليه غلاماً نظيف الثوب، طيب الرائحة، حسن الوجه، فتوجه إليه، فلما طرق الباب عليه وخرج إليه أعجبه حاله، ثم سأله عن اسمه فقال له: إقبال، فقال: إقبال مقلوبة: لا بقا، ودخل وأغلق الباب، وكان كثير الهجاء للأخفش الصغير لأنه كان كثير المزاح، فكان يباكره قبل كل أحد ويطرق الباب عليه، فيقول: من في الباب فيقول الأخفش: حرب ابن مقاتل، وما أشبه ذلك.

وفي سنة إحدى وتسعين ومئتين توجّه المكتفي إلى الرقة حيث أحاط بالقرامطة وأمسك بهم، وفي السنة نفسها توفي أبو العباس أحمد بن يحيى المعروف بثعلب النحوي (بثاء مثلثة) وكان سبب موته أنه كان في منصرفه من المسجد الجامع وهو يحمل كتاباً يقرأ فيه، وفي الطريق صدمه جواد فأوقعه أرضاً، فحملوه إلى بيته، وفي اليوم التالي فارق الحياة.

قال العلامة الطباطبائي في «رجاله»: أحمد بن زيد أبو العباس المعروف بثعلب (بالثاء المثلثة والعين المهملة)، إمام الكوفيين، بغدادي، حجة، ثقة في

صناعته، وهو صاحب «الفصيح»، أخذ عنه غلامه أبو عمر والزاهد والأخفش الصغير علي بن سليمان وغيرهم، وكان معاصراً للمبرد وبقي بعده، مات سنة إحدى وتسعين ومئتين ببغداد، وفيه وفي المبرد قيل:

ذهب المبرد وانقضت أيامه   وليذهبن إثر المبرد ثعلب
وتزودوا من ثعلب فلأن ما   شرب المبرد عن قريب يشرب
وأرى لكم أن (تكتبوا) أنفاسه   إن كانت الأنفاس مما يكتب

وفي سنة إحدى وتسعين ومئتين أيضاً وفي ليلة الأربعاء العاشرة من ربيع الآخر توفي القاسم بن عبيد الله وزير المكتفي، وكان رجلاً عظيم الهيبة قاتلاً سفاكاً، وهو من قتل ابن الرومي الشاعر وعبد الواحد بن الموفق، كان يخشاه الصغير والكبير ولا يرتاحون إليه، ولما توفي قال بعض أهل الأدب في رثائه:

شربنا عشية مات الوزير (سروراً ـ خ ل)
ونشرب يا قوم في ثالثهِ
فلا قدّس الله تلك العظا
م ولا بارك الله في وارثه

وفي سنة اثنتين وتسعين ومئتين توفي ابن جني ببغداد، واسمه عثمان، صاحب التصانيف الكثيرة في النحو والأدب، وفي السنة نفسها غلب ابن الخليجي ـ مع ستة وتسعين ألف رجل ـ على مصر، وفي تلك السنة شب حريق عظيم التهم ثلاثمئة دكان أو أكثر، وفي سنة ثلاث وتسعين ومئتين ظفروا على ابن الخليجي وأمسكوا به وحملوه إلى بغداد.

وفي سنة خمس وتسعين ومئتين في سلخ (آخر) شوال، أو يوم الأحد الثالث عشر من ذي القعدة توفي المكتفي عن واحد وثلاثين عاماً وثلاثة شهور من عمره، وامتد حكمه ست سنوات وسبعة شهور واثنين وعشرين يوماً.

خلافة جعفر بن أحمد المقتدر بالله

في اليوم الذي توفي فيه المكتفي حل محله أخوه جعفر المقتدر، وفي أيامه انقلبت أحوال الوزارة، فكان كل من صار وزيراً لا يلبث أن يعزل قبل انقضاء زمن قصير، ومن جملتهم: علي بن موسى بن الفرات الذي تقلّد الوزارة في أيامه ثلاث مرات وتمّ عزله، ومنهم: علي بن عيسى الذي تقلّد الوزارة مرتين، وفي أيام المقتدر جرت وقائع كثيرة من أمثال موت علماء ومحدثين، وغرق أركان البيت الحرام، ومقتل الطالبيين.

وفي سنة ست وتسعين ومئتين أقدم مؤنس الخادم بأمرٍ من المقتدر على قتل عبد الله بن المعتز لأنه كان قد خلع المقتدر ودعا الناس إلى بيعة نفسه، وابن المعتز كان معروفاً بالأدب والشعر، وكان صاحب تصنيفات، تتلمذ على المبرّد وثعلب، وسلك مع أهل البيت الأطهار عليهم السلام طريق النصب والعناد، وله قصيدة في التفاخر على آل أبي طالب ردّ عليها القاضي أبو القاسم التنوخي بقصيدة له، وهو علي بن محمد جدّ علي بن محسن بن علي القاضي التنوخي الإمامي المعروف.

وفي سنة سبع وتسعين ومئتين توفي بالكاظميين أبو القاسم محمد المعروف بالجنيد البغدادي الصوفي، وكان على طريقة سفيان الثوري، وصحب خاله سري السقطي. ويعود الجنيد في أصله إلى نهاوند، وحكاياته وكلماته معروفة، وكان سري من تلاميذ معروف الكرخي وبشر الحافي، وفي سنة إحدى وخمسين ومئتين توفي ببغداد، ودفن في مقابر قريش، والجنيد مدفون بجانبه كذلك.

وعن كتاب «الخزائن» لمولانا الشيخ النراقي قال. «رأى الجنيد في منامه بعضهم بعد موته فقال له: ما صنع الله بك؟ فقال: طارت تلك الإشارات، وطاحت تلك العبارات، واندرست تلك الرسوم، وما نفعنا إلا ركعات كنا نركعها في السحر. وبرواية أخرى: وما نفعنا إلا تسبيحات كنا نقولها بالغدوات».

ومن كلماته الطريفة المرويّة عنه: «علامة العاشق أربع: نومه قليل، ونفسه عليل، وحزمه طويل، ومناجاته إلى رب جليل».

وسئل عن الخوف فقال: «إخراج الحرام من الجوف، وترك عسى وسوف». وكان يقول: «من لم يحفظ القرآن ويكتب الحديث لا يقتدى به في هذا الأمر، فإنّ علمنا مقيّد بالكتاب والسنّة».

وسئل يوماً عن الصوفي فقال: «هو من لبس الصوف على الصفا، وعاشر الناس على الوفا، وجعل الدنيا على القفا، وسلك طريق المصطفى».

وقريب منه «المرتضوي» المنقول من شرح الباب الحادي عشر، بزيادة: «وإلا فالكلب الكوفي خير من ألف صوفي».

ثم اعلم أنه قد كثرت كلمات المشايخ في ماهيّة التصوف بحيث قد قيل: إن أقوالهم في ذلك تزيد على ألف قول، منها: إن اشتقاق الصوفية من الصوف، وقيل: سُمّوا صوفية نسبة إلى أصحاب الصفّة، وهم الفقراء المهاجرون من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وهم أربعمئة رجل لم يكن لهم بالمدينة مساكن ولا عشائر، ولهذا سكنوا في الصفّة التي كانت في مسجد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، ونزلت فيهم الآيات.

وقيل: كان (واحدهم) في الأصل صفوياً نسبة إلى الصفا، ثم جعل صوفياً بتقديم الواو، وقيل: إن هذه النسبة إلى الصوفة كالكوفي إلى الكوفة، وهي المرمسة التي لا يرغب فيها، وقيل: إنهم منسوبون إلى بني صوفة، وهم جماعة من العرب يتزهّدون ويتقلّلون من الدنيا، وقيل: إنه مشتق من الصوف؛ ثلاثة أحرف: الصاد والواو والفاء. فالصاد: صبر وصدق وصفاء، والواو: وذ وورد ووفاء، والفاء: فرد وفقر وفناء.

وفي سنة تسع وتسعين ومئتين توفي أبو الحسن محمد بن أحمد بن إبراهيم بن كيسان، وهو معروف بابن كيسان النحوي.

قيل: ما رئي مجلس أكثر فائدة وأجمع لأصناف العلوم والتحف من مجلسه، وله تصانيف كثيرة، منها: كتاب «غريب الحديث» وكتاب «معاني القرآن».

وفي سنة ثلاثمئة خرج أبو الرضا محسن بن جعفر بن علي الهادي عليه السلام في أعمال دمشق، فقتل وحمل رأسه إلى بغداد ونصب على الجسر.

خروج الحسن بن علي العلوي المعروف بالأطروش

في سنة إحدى وثلاثمئة خرج الحسن بن علي العلوي المعروف بالأطروش في الديلم وطبرستان، حيث أخرج المسوّدة منها، وفي شأنه قصة طويلة لا يناسب المقام ذكرها.

وفي سنة إحدى وثلاثمئة أيضاً قُتل أبو سعيد الجنابي القرمطي، رئيس القرامطة، قتله خادمه في الحمام، ورئس القرامطة بعده ولده أبو الطاهر سليمان بن أبي سعيد، وفي السنة نفسها توفي محمد بن يحيى بن مندة الحافظ المشهور صاحب «تاريخ أصفهان» و «مندة» على وزن بنده[1].

وفي سنة إحدى وثلاثمئة، أو في السابع والعشرين من شوال سنة ثلاثمئة، أو سنة تسع وتسعين ومئتين توفي الشيخ الأجل الأقدم أبو القاسم سعد بن عبد الله بن أبي خلف الأشعري القمي، وقد تشرف هذا الشيخ الجليل بخدمة الإمام أبي محمد العسكري عليه السلام، مع أحمد بن إسحاق القمي، في ذلك الحديث الذي نقله الشيخ الصدوق (ره) في «إكمال الدين»، ولو أن البعض من الأصحاب الإمامية يعدّون ذلك الحديث ضعيفاً.

على أي حال فسعد بن عبد الله من ثقات الإمامية وشيخ الطائفة في

(١) بنده: كلمة فارسية تعني: عبد، غلام (المعرّب).

وقته، وله تصانيف كثيرة من جملتها كتاب «بصائر الدرجات» الذي اختاره الشيخ حسن بن سليمان بن خالد الحلي تلميذ الشيخ الشهيد (ره) وهو موجود، وهذا البصائر غير «بصائر الدرجات» الذي ينقل عنه العلامة المجلسي (ره) في «البحار»، وجعل رمزه «ير» والذي هو من مؤلفات الشيخ الأفقه النبيل محمد بن الحسن الصفار المتوفى سنة تسعين ومئتين، والمدفون بقمّ، وهو من مشايخ أشياخ الشيخ الصدوق.

وفي سنة اثنتين وثلاثمئة توفي أحمد بن علي بن شعيب النسائي المحدث المعروف، صاحب كتاب «السنن» وهو من جملة الصحاح، والنسائي منسوب إلى «نَسا» (بفتح النون) من بلاد خراسان.

قال الفاضل المتبحر الخبير الميرزا عبد الله الأصبهاني في «رياض العلماء»: واعلم أن النسائي هذا مما يشكّ في تسنّنه، وقد ينسب إلى التشيع، قيل: سئل عن معاوية وما روي في فضائله فقال: «أما يرضى معاوية أن يخرج رأساً برأس حتى يفضل» وفي رواية أخرى: «ما أعرف له فضيلة إلا لا أشبع الله بطنك».

وعن المالكي في أول كتاب «الفصول المهمة» قال: إنه، أي النسائي، لما أتى دمشق وصنّف بها كتاب «الخصائص» في مناقب علي عليه السلام أُنكر عليه ذلك، وقيل له: لم لا صنفت في مناقب الشيخين فقال: دخلت على دمشق والمنحرف عن علي عليه السلام بها كثير، فصنفت كتاب «الخصائص» رجاء أن يهديهم الله تعالى به، فدفعوا في حضنيه وأخرجوه من المسجد، ثم ما زالوا به حتى أخرجوه من دمشق إلى الرملة، فمات بها، انتهى.

وعن الدارقطني: لما امتحن النسائي بدمشق قال: احملوني إلى مكة، فحمل إليها فتوفي بها، وهو مدفون بين الصفا والمروة، وكانت وفاته في شعبان سنة ثلاث وثلاثمئة.

وفي السنة نفسها توفي محمد بن عبد الوهاب، أبو علي الجبائي، رئيس معتزلة البصرة وبغداد، ومناظرات أبي الحسن الأشعري معه مشهورة، والمقام لا يتسع لذكرها.

وفي سنة أربع وثلاثمئة، في الثالث والعشرين من شهر شعبان منها توفي بـ (آمل) السيد أبو محمد الأطروش، الحسن بن علي بن الحسن بن عمر الأشرف بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام، وكان هذا السيد الجليل معروفاً بالناصر الكبير، وهو جدّ السيدين المرتضى والرضيّ لأمهما، والزيديون يعتقدون به تمام الاعتقاد، وينقلون الكثير عن «تفسيره الكبير».

يقول ابن أبي الحديد: «هو شيخ الطالبيين وعالمهم وزاهدهم وأديبهم وشاعرهم، ملك بلاد الديلم والجبل، ولقّب بالناصر للحق، وجرت له حروب عظيمة مع السامانية، وتوفي بطبرستان سنة أربع وثلاثمئة».

وفي تلك السنة أيضاً كما يقول الفرماني في «أخبار الدول» ظهر ببغداد حيوان يقال له «زبزب»[١]، كان يُرى في الليالي فوق السطوح، يفترس أطفال الناس، ويبتر أثداء النساء، فلا غرو أن رجال بغداد نظّموا حراسة في الليالي، وراحوا يقرعون الطاسات كي يفر هذا المخلوق، واستمر هذا الأمر مدَّة.

وفي سنة ست وثلاثمئة توفي الثقة الجليل القدر أحمد بن إدريس الأشعري القمي المحدث الفقيه، وهو في طريقه إلى مكة، في منزل «قرعاء» الواقع بين القادسية والعقبة.

مقتل الحسين بن منصور الحلاج

في سنة تسع وثلاثمئة قتل الحسين بن منصور الحلاج[٢] بفتوى العلماء، ذلك أن علماء وفقهاء ذلك العصر حكموا بإحلال دمه لكلمات سمعوها منه في محضر حامد بن العباس وزير المقتدر، فقد أفتى القاضي أبو عمر بحلّيّة

---

(١) الزبزب: حيوان بحجم الكلب الصغير، وجهه مخطط بخطوط بيضاء وسوداء، ومن المشهور أنه كلما ضربوه ازداد قوة وشراسة (منه ره).

(٢) قيل في الحلاج إنه كان ساحراً مشعوذاً يخرج فاكهة الشتاء في الصيف وبالعكس، ويمدّ يده في الهواء ويعيدها وفيها دراهم مكتوب عليها: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ ويسمّيها دراهم القدرة، وكان يخبر الناس بما صنعوا في بيوتهم، ويحدثهم بما في ضمائرهم، وفتن به خلق كثير، وفتواه في من لم يمكنه الحج مشهورة، وهي أحد الأسباب في قتله (منه ره).

دمه، كما أصدر سائر الآخرين فتوى مماثلة أثبتوها في سجل، وكان الحلاج لا يفتأ يقول: «الله الله في دمي».

ثم إنهم ألقوا بالحلاج في السجن ونقلوا الواقعة إلى الخليفة الذي قال: طالما أفتى العلماء بحلّية إهراق دمه فليسلّم إلى الجلاد فليجلده ألف جلدة، فإن هلك وإلا فليجلده ألفاً أخرى، ثم لتقطع عنقه. ثم إنهم في صباح الثلاثاء الثالث والعشرين من ذي القعدة سلموه إلى الجلاد الذي ساطه ألف سوط، ثم بتر أطرافه، ثم قطع رأسه ونصبها على جسر بغداد، ثم أحرق جسده ونثر رماده في نهر دجلة، واتفق أن ماء النهر ارتفع في تلك السنة فقال أصحاب الحلاج: إن هذا الارتفاع حصل بسبب رماد الحلاج، وكان الناس في شأنه فرقتان.

وإجمالاً فهو من أولئك الذين خرج التوقيع الشريف بلعنهم والبراءة[1] منهم أثناء الغيبة الصغرى، وذلك بسبب كذبهم وافتراءاتهم وادّعائهم البابيّة والسفارة، وأولهم أبو محمد المعروف بالشريعي، وكان في عداد أصحاب الهادي والعسكري عليهما السلام، وأول من كذب على الله بادعاء البابية والسفارة من قبل الحجة صلوات الله عليه، وبعد أن ظهر منه الإلحاد، والزندقة والغلوّ، والقول بالتناسخ، وادعائه أنه رسول من قبل علي بن محمد عليه السلام والذي هو ـ والعياذ بالله ـ إله، إلى أمثال هذا الكفر، خرج من طرف صاحب الأمر عليه السلام التوقيع بلعنه والبراءة منه.

وكان منهم محمد بن نصير النميري الذي ادّعى ـ كما الشريعي ـ البابية أولاً، ثم إنه اعتمد الغلوّ في أبي الحسن عليه السلام مدّعياً له الربوبية برسالته عنه، وكان يقول بحلّيّة المحارم واللواط، ويقول: إن اللواط يبعث على التذلل والتواضع في المفعول به، وهو ممدوح! وكان هو بدوره يعطي من نفسه.

---

(١) المراد منهم: الشريعي والنميري والهلالي والبلالي والشلمغاني الذين خرج التوقيع الشريف بلعنهم، وأما بشأن الحلاج فلم أعثر في التوقيع على تصريح باسمه، نعم، في كتاب «الاحتجاج» ذكر اسمه في عداد الجماعة الذين «خرج التوقيع بلعنهم» (منه ره).

ومنهم: أحمد بن هلال الكرخي، ومحمد بن علي بن بلال، والحسين بن منصور الحلاج، والشلمغاني.

وإجمالاً فكل واحد منهم كان يدّعي في البدء وكالته عن الإمام ويدعو الناس الضعاف إلى نفسه، ثم لا يلبث أن يظهر إلحاده وزندقته، وسنأتي بموجز عن أحوال الشلمغاني عند الحديث عن أيام الراضي بالله إن شاء الله تعالى.

وعلى العموم فإن الحسين الحلاج ادّعى هذا المقام أيضاً، وكان يدعو الناس إلى نفسه، ولما قدم إلى قمّ وبعث برقعة إلى الشيخ الأجل علي بن بابويه القمي رضوان الله عليه، يعلنه أنه رسول الإمام ووكيل حجة العصر عليه السلام. دعا ابن بابويه إلى الحضور إليه مع آخرين، فلما وصلت الرقعة إلى ابن بابويه مزّقها وتوجّه إلى عمله، فلما بلغ دكانه رأى جماعة هناك، فوقفوا جميعهم إجلالاً له إلا واحداً منهم لم يراع فروض الاحترام ولم يتحرك من مكانه، وكان الحسين الحلاج.

تساءل الشيخ ابن بابويه: مَن الرجل؟ قال: لِمَ لم تسألني أنا؟ قال: لقد احترمتك أيها الرجل حين لم أسألك عمّن تكون. قال الحسين: أنا ذلك الذي مزقت رقعته في حين أني أتشرف بالرؤية (أي رؤية الحجة)، قال الشيخ: أأنت صاحب الرقعة؟ ثم قال: «يا غلام، برجله وقفاه» (أي خذ برجل هذا وقفاه وارم به خارجاً).

ثم رموابه خارجاً بكل إذلال وهوان، وغادر الحسين بعدها بلدة قم فلم ير هناك بعدها أبداً.

هذا ولما شاء الله تعالى أن يكشف أمر الحلاج ويظهر للعيان فضيحته ويخزيه هيّيء إليه أن أبا سهل بن علي النوبختي رضي الله عنه ممّن تجوز عليهم مخرقته، وتتم عليهم حيلته، فوجّه إليه يستدعيه، ظناً منه أن أبا سهل ـ وهو على ما هو عليه من علم وأدب ووثاقة ـ سيجيب دعوته فيظهر للناس ضعيفاً فيتفرقون عنه: وقال له في رقعته إليه: إني وكيل صاحب الزمان عليه السلام، وقد أُمرت بمراسلتك لئلا يقع لك شك في هذا الأمر.

لما اطلع أبو سهل رضي الله عنه على مضمون كتابه بعث إليه يقول: إن كنت حقاً وكيلاً لصاحب الزمان عليه السلام فلا بدّ لك من دلائل وبراهين تثبت مدّعاك، حتى أؤمن لك وأكون شاهداً على دعوتك، ولي إليك حاجة يسيرة، فأنا رجل أحب الجواري وأصبو إليهن، ولدي منهن عدّة أنال حظاً من وصلهن، لكن بما أن الكبر بدأ يظهر عليّ، والشيب قد غزا رأسي الأمر الذي اضطرني إلى الخضاب كل أسبوع أستر به شيب شعري، لئلا ينكشف أمري لهن فيبتعدن عني، ويبدلنني وصالهن بالهجران. لذا، فإن كنت صادقاً في دعواك فأسألك أن تصنع شيئاً تحيل به شعري إلى السواد فلا أحتاج معه إلى خضاب، وإذ ذاك فسأقول بقولك وسأدعو الناس إليك.

لما بلغ الحلاج ذلك علم أنه قد أخطأ، فأمسك ولم يردّ إليه جواباً، وعلى إثر ذلك جعل منه أبو سهل أحدوثة وأضحوكة، وراح يشهّر به حتى انكشف أمره ونفر الناس منه.

هذه الأمور رواها الشيخ الطوسي وغيره، ومن رام التفصيل عليه بالرجوع إلى كتاب «غيبة الشيخ» أو إلى الجزء الثالث عشر من «بحار الأنوار» (المجلد الحادي والخمسين من الطبعة الحديثة).

وفي التاسع عشر من جمادى الآخرة سنة عشر وثلاثمئة توفي إبراهيم بن محمد المعروف بالزجّاج النحوي تلميذ المبرّد وثعلب.

وفي السادس والعشرين من شوال من السنة نفسها توفي ببغداد المؤرخ الخبير والمحدث البصير محمد بن جرير بن يزيد بن كثير الطبري الشافعي، وهو أحد أئمة مجتهدي أهل السنّة، وصاحب «التفسير الكبير» و «التاريخ» الشهير، وله كتاب «الولاية» أيضاً، جمع فيه أحاديث غدير خم في مجلدين ضخمين، وله أيضاً كتاب آخر جمع فيه طرق حديث الطير، وهو غير محمد بن جرير بن رستم الطبري الإمامي صاحب «المسترشد» و «الإيضاح» وغيرهما.

وفي ذي الحجة من السنة نفسها أو سنة ست عشرة وثلاثمئة توفي أبو بكر محمد بن السري بن سهل النحوي المعروف بابن سراج.

وفي سنة إحدى عشرة وثلاثمئة توفي أبو زكريا محمد بن زكريا الطبيب المشهور، وكان متقناً لهذه الصناعة، وألف كتباً كثيرة منها: كتاب «برء السامة» ومنها كتاب «من لا يحضره الطبيب» الذي وضع على مثاله ونسج على منواله شيخنا الصدوق (ره) كتاب «من لا يحضره الفقيه» بإشارة بعض السادة الأجلّة.

ولأبي زكريا كلمات نافعة منها: «مهما قدرت أن تعالج بالأغذية فلا تعالج بالأدوية. «ومهما قدرت أن تعالج بدواء مفرد فلا تعالج بدواء مركب». ومن كلامه أيضاً: «عالج في أول العلة بما لا تسقط به القوة». وقال أيضاً: «السموم ثلاثة: الشواء المغموم، واللبن الفاسد، والسمك المنتن».

وفي سنة اثنتي عشرة وثلاثمئة قتل علي بن محمد المعروف بابن الفرات الوزير مع ولده المحسن. وتقلّد ابن الفرات الوزارة عند المقتدر ثلاث مرات بعد أن عزلوه، ونوادر حكاياته كثيرة.

ونقل الصاحب بن عباد عن أبي الحسن بن أبي بكر العلاف، المعروف بكثرة الأكل أنه قال: إن أبي، أبا بكر قال قصيدة في رثاء هرّ وكان مراده رثاء المحسن ولد ابن الفرات، والتي قالها في أيام محنتهم. وعلى قول آخر: كان مراده ابن المعتز، غير أنه كتمه خوفاً من الخليفة فكنّى، وقد ذكر الدميري هذه القصيدة في «حياة الحيوان» تحت لفظ «هرّ» مطلعها:

يا هرّ فارقتنا ولم تعد ... وكنت عندي بمنزل الولد

وكان أخو ابن الفرات أبو العباس أحمد بن محمد بن الفرات أكتبَ أهل الزمان وأكثرهم ضبطاً في العلوم، وكان الفضل بن جعفر، ابن أخيه المعروف بـ «ابن حترابة» كاتباً أيضاً، تقلد الوزارة والرئاسة في زمان الخلفاء، غير أن أباه جعفر بن محمد بن الفرات لم يقبل الوزارة.

وفي شهر صفر من سنة ثلاث عشر وثلاثمئة، أو ثلاث وعشرين وثلاثمئة توفي إبراهيم بن محمد بن عرفة النحوي المعروف بنفطويه تلميذ سيبويه، «وقد اشتهر أن أستاذه سيبويه لما رآه كثيف الهيئة، قشيف بل كثير دسومة اللباس قال له: كأنك نفطويه، فاشتهر لذلك بذلك».

إغارة القرامطة على مكة ومقتل الحجاج

في سنة خمس عشرة وثلاثمئة غلب «ديلم» على «الري» و «جبال»، وقتل خلقاً كثيراً، حتى أنه ذبح الأطفال.

وفي السنة نفسها مات فجأة ببغداد علي بن سليمان الأخفش الصغير، كما طغى في السنة نفسها فساد القرامطة وإيذاؤهم وقتلهم للمسلمين، وقد اجتمع لهم خلق كثير من الأنصار والأتباع حتى أنهم هزموا جيش الخليفة عدة مرات، وغدت الطرق مخوفة غير آمنة، حتى أن الناس تركوا الحج خوفاً على أرواحهم، وهجر أهل مكة مدينتهم بسبب صعوبة العيش.

وفي سنة سبع عشرة وثلاثمئة عيّن المقتدر منصوراً الديلمي أميراً للحج، فتوجهت قافلتهم إلى مكة ووصلوها بسلام، غير أن أبا طاهر القرمطي توجّه إلى مكة بدوره، وفي يوم التروية التقوا بالمسلمين وشرعوا بالاعتداء علهيم، فقتلوا كثيراً منهم في البيت الحرام ورموا بالقتلى في بئر زمزم، وانهالوا ضرباً بالدبوس على الحجر الأسود حتى كسروه وانتزعوه من موضعه.

وقع هذا الحدث في الرابع عشر من ذي الحجة سنة سبع عشرة وثلاثمئة، وبعد أن مكث القرامطة بمكة أحد عشر يوماً غادروها بعد أن حملوا الحجر الأسود معهم، وبقي عندهم ما يربو على عشرين سنة، ورفضوا إعادته إلى موضعه رغم أن المسلمين عرضوا عليهم خمسين ألف دينار لقاء ذلك، حتى أعادوه أخيراً إلى مكة في أيام المطيع لله سنة تسع وثلاثين وثلاثمئة بأمر من عبيد الله المهدي، كما سبقت الإشارة عند التأريخ لسنة ست وثمانين ومئتين.

واعلم أنه جاء في «مجمع البحرين» تحت لفظ «قرمط» نقلاً عن الشيخ البهائي أنه في سنة عشر وثلاثمئة، وفي أيام الموسم، دخل القرامطة مكة واستولوا على الحجر الأسود، حيث بقي عندهم عشرين عاماً. وقتلوا خلقاً كثيراً كان في عدادهم علي بن بابويه الذي نزلوا عليه بالسيوف، وكان يقوم بالطواف، فوقع أرضاً وهو يقول:

ترى المحبين صرعى في ديارهم   كفتية الكهف لا يدرون كم لبثوا

وهذه القضية غريبة، فمع أنه لم يأت أحد على ذكرها سوى في «اختيارات المجلسي» فهي تخالف تاريخ وفاة ابن بابويه، ذلك أن وفاته كانت في شهر شعبان من سنة تسع وعشرين وثلاثمئة.

يقول المؤلف: لعل أحداً لا يستبعد هذا الأمر عن الحجر الأسود، ذلك أنه آي من الآيات الإلهية، وله شؤون منها: أنه نطق في تأييد الإمام السجاد عليه السلام في نزاعه مع عمه محمد بن الحنفية في أمر الإمامة.

ومنها: صلته بما اشتهر من أنه لا يرضى بأن ينصبه في مكانه أحد سوى المعصومين عليهم السلام، كما جرى مرات عديدة.

ولهذا السبب فإن الشيخ الأجل الأقدم جعفر بن محمد بن قولويه القمي (ره) تحرك نحو مكة في السنة نفسها التي نقل فيها الحجر الأسود لنصبه في موضعه، علّه يحظى بلقاء صاحب الزمان عليه السلام عند نصب الحجر، غير أنه وقع مريضاً ببغداد فبعث بمن ينوب عنه، وزوده برقعة وقال له: سلّمها إلى الذي ينصب الحجر في موضعه، وتضمنت الرقعة سؤالاً منه عن مدة عمره. أوصل الرجل الرسالة إلى ذلك الرجل الذي ردّ بقوله ـ دون أن يفتح الرقعة ـ قل له إنه سيعيش ثلاثين سنة، وهكذا كان.

ومنها: أن الحجر الأسود كان جوهرة عند آدم عليه السلام في الجنة، وفي رواية أنه كان ملكاً من أعاظم الملائكة، فأودع الله عنده مواثيق العباد، وأنه سيأتي يوم القيامة ناطقاً يشهد بالموافاة لمن أوفى بميثاقه، لهذا تقول عند استلام الحجر:

«أمانتي أديتها، وميثاقي تعاهدته، لتشهد لي عندك بالموافاة».

وفي مجموعة من الروايات نقلها علماء العامة أيضاً: أن عمر بن الخطاب حجّ ذات سنة، وفي السنة نفسها كان أمير المؤمنين عليه السلام في الحج كذلك، فدنا عمر من الحجر وقبله وقال: والله إني لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقبلك لما قبّلتك! فقال له أمير المؤمنين عليه السلام: لا، ليس الأمر كما تقول، بل

هو يضرّ وينفع، ذلك أن الله تعالى لمّا أخذ مواثيق بني آدم كتبها في رقعة أودعها عنده، وقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: سيأتي الحجر الأسود يوم القيامة، وسيكون له لسان يشهد لمن وحّد الله وقبّله. قال عمر: «**لا خير في عيش قوم لست فيهم يا أبا الحسن**».

وقد أشرنا في وقائع أيام المعتضد إلى طرف من أحوال القرامطة.

مقتل المقتدر بالله

في سنة سبع عشرة وثلاثمئة خرج مؤنس الخادم على المقتدر وقد عزم على حربه، وكان أكثر جنده من البربر، فلما اصطف الجيشان عاجل رجل بربري الخليفة بحربة فأرداه، ثم ترجّل واحتز رأسه، فنصبه على رمح، وجرّد الخليفة من ملابسه كلها، فأحضر الناس حشيشاً ستروا به عورته، ثم دفن.

والمقتدر هو الخليفة الثامن عشر من بني العباس، وكل سادس منهم ينتهي إما مخلوعاً، أو مقتولاً، وإما مخلوعاً ومقتولاً معاً، وهكذا فالخليفة السادس كان محمداً الأمين فانتهى مخلوعاً ومقتولاً، والسادس الآخر كان المستعين، وانتهى أيضاً مخلوعاً ومقتولاً.

والمقتدر خليفة سادس انتهى مقتولاً، وقد امتد حكمه خمساً وعشرين سنة إلا أربعة عشر يوماً، وعاش ثمانية وثلاثين عاماً وخمسة عشر يوماً، وكان عند تسلمه الخلافة في الثالثة عشرة من عمره، وقد قيل: لم يتسلم الخلافة شخص أصغر منه، وكان مقتله وقت صلاة العصر من يوم الأربعاء الواقع فيه السابع والعشرون من شوال سنة عشرين وثلاثمئة، وقد أشار أمير المؤمنين عليه السلام إلى مقتل المقتدر في أخباره الغيبية حيث قال:

«كأني أرى ثامن عشرهم تفحص رجلاه في دمه بعد أن يأخذ جنده بكظمه، ومن ولده ثلاثة رجال سيرتهم سيرة الضلال».

والمراد بالرجال الثلاثة بنوه الراضي والمتقي والمطيع الذين أصبحوا خلفاء ثلاثتهم كما سيأتي.

خلافة محمد بن أحمد القاهر بالله

ليومين بقيا من شهر شوال سنة عشرين وثلاثمئة تسنّم القاهر بالله محمد بن أحمد المعتضد مقعد الخلافة بعد المقتدر، وما إن استقر في منصبه حتى بادر إلى الإمساك بآل المقتدر وأنزل بهم صنوف الأذى والعذاب، فقام بحبس ابن أخيه ولد المكتفي في حجرة سدّها بالآجر والجص وتركه يموت هناك، كما أمسك بـ «سيدة» أم المقتدر فضربها وعلّقها مقلوبة حتى صار بولها يجري على وجهها، وبقيت في عذابها هذا حتى ماتت.

وفي سنة إحدى وعشرين وثلاثمئة عيّن أبا علي محمد بن علي بن مقلة وزيراً له، ثم عزله وعين بدلاً عنه محمد بن القاسم بن عبد الله الخصيبي. وابن مقلة هو الذي أحدث الخط العربي إذ نقل الخط الكوفي إلى الخط العربي.

وفي السنة نفسها توفي ببغداد العالم الفاضل الأديب أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي، النحوي اللغوي الشاعر، صاحب «الجمهرة»، وذُكر ابن دريد في عداد علماء الشيعة، ويعدّه ابن شهرآشوب من شعراء أهل البيت عليهم السلام، وقد مدحه جماعة فقالوا: هو أعلم الشعراء وأشعر العلماء.

ونقل عن قوة حفظ ابن دريد أنه كان إذا قرىء عليه ديوان شعر مرة حفظه من أوله إلى آخره، وهذا أمر غريب، وإن وجد نظير له في قوة الحفظ، وذكره الشيخ الحر العاملي في «أمل الآمل»، وقيل: إنه ابن أخت الدارقطني المعروف، وإن كان بعيداً بحسب الطبقة.

وإجمالاً ففي يوم وفاة ابن دريد توفي أيضاً عبد السلام بن محمد المعروف بأبي هاشم الجبّائي، فقال الناس: مات علم اللغة والكلام بموت ابن دريد وأبي هاشم.

قلت: هذا نظير ما قاله الرشيد في اليوم الذي مات فيه الكسائي ومحمد بن الحسن الشيباني الفقيه بالري، قال: «دفنّا الفقه والعربية بالري».

وإجمالاً فقد كان أبو هاشم وأبوه أبو علي الجبّائي من كبار المعتزلة، ومذهبهما وعقائدهما مذكورة في الكتب الكلامية.

و «جُبّا» بضم الميم وتشديد الموحدة: قرية من قرى البصرة. ونعود إلى الحديث عن القاهر بالله:

كان القاهر رجلاً متقلب المزاج شديد البطش، يحمل حربة باستمرار، وقد قضى على مؤنس الخادم مع جماعة من رجال الدولة، فلا عجب أنهم كادوا له، فانثالوا إلى داره يوم الأربعاء الخامس من جمادى الأولى سنة اثنتين وعشرين وثلاثمئة، فأمسكوا به وفقأوا عينيه، وخلعوه من الخلافة. وكانت مدة حكمه سنة واحدة وستة شهور وستة أيام.

روي عن رجل أنه قال: كنت أصلي في مسجد المنصوري الجامع ببغداد فإذا بي أرى رجلاً ضريراً عليه جبّة عتيقة رثّة، وقد بلغت من الرثاثة والقدم حداً زال معه وجهها حتى لم يتبقّ منها سوى بطانتها مع قدر من القطن عليها. وكان يقول:

أيها الناس، تصدّقوا عليّ، قد كنت بالأمس أمير المؤمنين، وأنا اليوم من فقراء المسلمين.

فسألت عمّن يكون قيل لي: إنه القاهر بالله العباسي!.

وهذه القضية تكفي للعاقل الفاهم محلاً للاعتبار.

«نعوذ بالله من نكبات الزمان».

خلافة محمد بن جعفر الراضي بالله

في اليوم الخامس من جمادى الأولى سنة اثنتين وعشرين وثلاثمئة تمّ خلع القاهر من الخلافة، وفي اليوم التالي، وهو السادس من جمادى الأولى بايع الناس الراضي بالله محمد بن جعفر المقتدر، وكان الراضي أديباً وشاعراً، ظريفاً سخياً جواداً، كان يبرّ أهل مجلسه، وكان يكثر من استعمال الطيب، عارفاً بأيام الناس وأيام الرجال، ويروى أنه في طفولته اجتمع إليه جماعة من أهل العلم والمعرفة بأخبار الناس، وتناولوا الحديث في شتى الأبواب.

وننهي حبل الكلام بهذا الحديث: في أيام معاوية وصل إليه مكتوب من ملك الروم يطلب فيه سراويل لأضخم الناس عنده، قال معاوية: ليس في طول القامة وضخامة الجسد مثيل لقيس بن سعد. ثم طلب قيساً وقال له: إذا قدمت دارك فابعث لي بسراويل من عندك أنفذها إلى ملك الروم، فما كان من قيس إلا أن خلع سراويله وقدمها إلى معاوية، فقال معاوية: لمَ لم تذهب إلى دارك ومن ثم تبعث لي بثوبك؟ فقال قيس منشداً:

أردت لكي لا يعلم الناس أنها ... سراويل قيس والوفود شهود
وأن لا يقولوا غاب قيس وهذه ... سراويل عادٍ قد نمته ثمود

فقال أحد الحضور في مجلس الراضي بالله: إن «جبلة بن الأيهم» أحد ملوك بني غسان كان ذا قامة طولها اثنا عشر شبراً، وكان إذا ركب تجرجرت قدماه على الأرض، قال الراضي بالله: إن قيسَ بن سعد كان كذلك، وكان إذا ترجّل ومشى بين الناس خيّل لبعضهم أنه ما يزال راكباً مطيته لطول قامته،

وكان جدي علي بن عبد الله بن العباس مديد القامة أيضاً وجميل الطلعة، وكان الناس يعجبون من طول قامته، وكانت قامته تصل إلى كتف أبيه عبد الله، كما كانت قامة عبد الله تصل إلى كتف أبيه العباس، فقامة جدي العباس كانت أطول من عبد الله بمقدار رأس وعنق، وكان عبد الله أطول من علي بمقدار رأس وعنق، وكان العباس إذا طاف حول الكعبة بدا وكأنّ خيمة بيضاء تطوف حولها. فتعجب الحاضرون من سعة علمه.

يقول المؤلف: روي أن العباس بن عبد المطلب كان ـ لطول قامته ـ يقف على الأرض في ركاب الهودج ويقبل وجه من يكون جالساً فيه، وأن قيسَ بن سعد بن عبادة كان أحد عشرةٍ في عصر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يمتازون بطول القامة، وكان طول قامة أحدهم عشرة أشبار بأشبارهم حيث يقدّر كل شبر بذراع، وكان سعد أبو قيس على ذلك من الطول، وكانت لقيسٍ الأب ولجدّه السيادة الدائمة منذ القدم، ومات قيس بالمدينة في السنة الستين من الهجرة دون أن تنبت في وجهه شعرة واحدة.

وكان الأنصار يحسّون بالحسرة لعدم إطلاق لحيته، ويقولون: لو أمكننا لابتعنا لقيس لحية، ونتمنى لو أعطينا مالنا كله لهذا الغرض. لأن قيساً وأباه كانا في الجاهلية والإسلام سادة كباراً وأصحاب طعام، وكانت لهما السيادة على الأنصار، وكان الأحنف بن قيس المعروف بحلمه، وعبد الله بن الزبير، وشريح القاضي مثل قيس لا ينبت الشعر في وجوههم، ولذا كان أولئك الأربعة يدعون بـ «السادات الطلس»، والأطلس تقال لمن لم ينبت شعر في وجهه.

ردّ الراضي بالله فدكاً إلى ورثة الزهراء عليها السلام

وإجمالاً فقد كان للراضي بالله الكثير من الندماء ومنهم: محمد بن يحيى الصولي، وابن حمدون النديم. وكان من محاسن فعال الراضي بالله في أيامه ردّه لفدك على ورثة الزهراء عليها السلام، وكانت فدك ـ حتى أيام الراضي بالله ـ قد اغتصبت ثمّ ردّت تسع مرات.

قال العلامة الحلي في «نهج الحق»: قال أبو هلال العسكري في كتاب «أخبار الأوائل»: إن أول من ردّ فدكاً على ورثة فاطمة عليها السلام كان عمر بن عبد العزيز بعد أن خلصت إليه من معاوية، وكان أنعم بها على مروان بن الحكم وعمر بن عثمان ويزيد ابنه، ثم اغتصبت من عمر بن عبد العزيز ثانية وردّها السفاح، ثم اغتصبت وردّها المهدي العباسي، ثم اغتصبت وردّها المأمون عليهم.

وقال غير أبي هلال: وبعد ذلك اغتصبت وردّها الواثق، ثم اغتصبت وردّها المنتصر، ثم اغتصبت وردّها المعتمد، ثم اغتصبت وردّها المعتضد، ثم اغتصبت وردّها الراضي بالله على بني فاطمة عليها السلام.

يقول المؤلف: عرفت من خلال الحديث عن أحوال المهتدي أنه قام أيضاً بردّ فدك بعد أن تمّ اغتصابها بعد المنتصر، وعليه فقد جرى اغتصاب فدك وردّها ـ حتى أيام الراضي بالله ـ عشر مرات «والله العالم».

مقتل الشلمغاني ونبذة عن أحواله

أمر الراضي بالله في أيامه سنة ثلاث وعشرين وثلاثمئة بأبي جعفر محمد بن علي الشلمغاني فأخذ وقتل، وصلب جسده ببغداد، والشلمغاني يقال له ابن أبي القراقر، وينسب إلى «شلمغان» وهي قرية من نواحي واسط. ويقول ابن الأثير إن قتله كان سنة اثنتين وعشرين وثلاثمئة.

وإجمالاً فقد كان الشلمغاني واحداً من بضعة أشخاص ادّعوا ـ كذباً على الله ـ البابيّة ووكالة إمام العصر عليه السلام، وصدرت عنهم أقوال شنيعة، وقد خرج التوقيع الشريف بلعنهم والبراءة منهم، وقد مرّ الحديث عن هذه الجماعة في تأريخ أيام المقتدر.

درج أبو جعفر الشلمغاني في بداية أمره على الاستقامة، وكان في بني بسطام وجيهاً وصاحب منزلة، لأنه كان من خاصة أبي القاسم بن روح عليه الرحمة، النائب الثالث لإمام العصر صلوات الله عليه، لكنه حسداً منه لأبي

القاسم ارتدّ وصدرت عنه أقوال شنيعة، فلما انكشف أمره بادر الشيخ أبو القاسم إلى نهي بني بسطام عن الاستماع إلى كلامه، وأمرهم بلعنه والتبرؤ منه، لكن بني بسطام لم يعملوا بأوامر الشيخ ولم ينصرفوا عن الشلمغاني الذي كان يزعم فيقول: لقد أذعت سراً فعوقبت بالإبعاد!!.

كتب الشيخ إلى بني بسطام مرة ثانية كتاباً يتضمن لعن الشلمغاني والتبرؤ منه ومن تابعيه، فأطلع بنو بسطام الشلمغاني على ذلك الكتاب، فلما وقع نظره عليه قال مخادعاً: «إن معنى قوله (ره) «لعنه الله» أي: باعده الله عن العذاب والنار»!.

ثم قال: الآن عرفت منزلتي عند الشيخ! ثم رمى بنفسه على الأرض ومرّغ خدّيه بالتراب! وإجمالاً فإن الشلمغاني أفسد معتقدات بني بسطام بهذه الأساليب المخادعة.

عندما توجهت أم كلثوم ابنة الشيخ أبي جعفر العمري رضوان الله عليه، النائب الثاني لإمام العصر عليه السلام، لرؤية أم أبي جعفر بن بسطام، استقبلتها أم أبي جعفر وبالغت في تعظيمها وتوقيرها، وكان مما فعلته أن وقعت على قدمي أم كلثوم تقبلهما! لكن أم كلثوم أخذت بيدها وقالت: لا، لا تفعلي هذا يا سيدتي، فبكت أم أبي جعفر وقالت: ولم لا أفعل هذا وأنت مولاتي فاطمة الزهراء!!.

قالت أم كلثوم: من أين لك هذا القول؟ قالت: إنّ الشلمغاني نقل إليّ سراً وأمرني بأن لا أفشيه، ولما أصرّت عليها أم كلثوم أخذت أم جعفر عليها العهد والميثاق بأن لا تشيع السر ثم قالت: أبو جعفر الشلمغاني يقول: إن روح النبي حلّت في بدن أبي القاسم، وإن روح فاطمة عليها السلام حلّت فيك! فكيف لا أقوم بتعظيمك يا مولاتي! قالت أم كلثوم: دعي عنك هذا الكلام فهو باطل، قالت: قلت لك إنه سرّ!!.

نقلت أم كلثوم هذه الواقعة إلى الشيخ قاسم (ره) فقال لها: إيّاك أن

تذهبي لرؤية هذه المرأة ثانية، فإن أقوالها هذه كفر بالله العظيم، وإلحاد في الدين مبين قذفه الشلمغاني اللعين في قلوبهم حتى يدعي بهذا أن الله سبحانه قد حلّ فيه، وأنه اتحد مع الله ـ كما قال النصارى ـ بالمسيح عليه السلام، وغرضه بذلك أن تشيع أقوال الحلاج فيما بينهم.

ثم إن الشيخ راح يشيع لعن الشلمغاني، كما خرج التوقيع الشريف من صاحب الزمان عليه السلام بلعنه أيضاً حتى ذاق الشلمغاني طعم العذاب في الدنيا، ونال جزاء عمله، وكان سبب مقتله أن الشيخ بعد أن أفشى لعنه وأمر الشيعة بذلك سدّت في وجهه منافذ المكر والخداع، وكان ذات يوم يحضر مجلساً كبيراً للشيعة، فراح كل منهم يتحدث عن لعن الشيخ له، فقال الشلمغاني: لو أن يدي وصلت إلى يد الشيخ فلم تسقط نار من السماء ولم تحرقه فاعلموا أن كل ما قاله عني حق! فبلغ قوله الراضي بالله فأمر بأخذه وقتله، وكان الشلمغاني في دار ابن مقلة حين قتلوه واستراح الشيعة منه (لعنه الله تعالى).

وفي سنة ست وعشرين وثلاثمئة انتقل إلى رحمته تعالى الشيخ أبو القاسم الحسين بن روح رضي الله عنه، وقبره ببغداد، وسنشير إلى مدة نيابته وقبره الشريف خلال ذكر أيام المتقي إن شاء الله تعالى.

وفي سنة ثمان وعشرين وثلاثمئة توفي شيخ المحدثين محمد بن يعقوب بن إسحاق الكليني الرازي، ثقة الإسلام عطّر الله مرقده وكان هذا العظيم شيخ الشيعة ورئيسهم وأوثقهم وأثبتهم في الحديث، ألف الكتاب الشريف «الكافي» نور عيون الشيعة، ويتضمن ثمانين ألف بيت، وستة عشر ألفاً ومئة وتسعة وتسعين حديثاً، وقد ألّفه في مدى عشرين سنة، والحق أنه أزجى منّة عظيمة، ورتّب حقاً كثيراً على الشيعة، وخصوصاً على أهل العلم منهم.

أما عن جلال شأن هذا الرجل وعظمته، فهذا ابن الأثير العالم السني،

يعدّه مجدّد مذهب الإمامية في رأس المئة الثالثة، بعد أن عدّ ثامن الأئمة عليهم السلام مجدّد المئة الثانية. يقوم قبره الشريف ببغداد الشرقية قرب الجسر، وهو ابن أخت أبي الحسن علي بن محمد المعروف بعلان الكليني ويروي عنه، و «كلين» على وزن زبير قرية قريبة من الري قرب وادي كرج، حيث دفن يعقوب بن إسحاق والد الكليني.

والآن، وفي منزل متبقّ للوصول إلى طهران بالقرب من حسن آباد، وإلى جانب الطريق فإن تلك القرية وقبر يعقوب معروفان هناك، و «كُلَيْن» غير قرية «كَلين» على وزن أمير، التي اشتبهت على صاحب «القاموس» فنسب الشيخ الكليني إليها. وفي المثل: «أهل مكة أعرف بشعابها».

ثم اعلم في هذا المقام، ونقلاً عن بعض محققينا الأعلام، أن من طريقة الكليني (ره) وضع الأحاديث المخرجة الموضوعة على الأبواب، على الترتيب بحسب الصحة والوضوح، ولذلك فأحاديث أواخر الأبواب في الأغلب لا تخلو من إجمال وخفاء.

واعلم أن من جملة مشايخ الكليني الشيخ الأجل الأقدم الثقة، الجليل القدر أبو الحسن علي بن إبراهيم بن هاشم القمي صاحب كتاب «التفسير» وكتاب «فضائل أمير المؤمنين» وكتاب «الناسخ والمنسوخ» وغيرها، وقبره معروف فعلاً بقم، بالقرب من مقبرة محمد بن قولويه، تفصله ستون قدماً عن موضع رأسه من الخلف.

ومن مشاهير معاصري الكليني، والمسهمين في أخذ الحديث عن علي بن إبراهيم، الشيخ الثقة الفقيه محمد بن أحمد بن عبد الله بن قضاعة بن صفوان بن مهران الجمال، المعروف بأبي عبد الله الصفواني، والشيخ الثقة الجليل القدر هارون بن موسى التلعكبري، وهو صاحب كتب كثيرة.

والصفواني هو ذلك الذي جرى بينه وبين قاضي الموصل جدال حول

الإمامية، وذلك في محضر سيف الدولة الحمداني، ثم باهله فهلك القاضي في اليوم التالي، وجدّ الصفواني صفوان الجمال من خيار أصحاب الإمامين الصادق والكاظم عليهما السلام، وهو الذي قال له الكاظم عليه السلام:

«كل شيء منك حسن جميل ما خلا شيئاً واحداً وهو إكراؤك جمالك من هذا الرجل» يعني هارون الرشيد، وحديثه معروف.

واعلم أيضاً أن من مشاهير تلاميذ الشيخ الكليني (ره) العالم الرباني محمد بن إبراهيم بن جعفر، أبو عبد الله الكاتب النعماني المعروف بابن أبي زينب، صاحب كتاب «التفسير» وكتاب «الغيبة» المعروف، توفي بالشام، وينسب إلى النعمانية، وكانت بلدة بين واسط وبغداد، «أو هي قرية تكون بمصر، على احتمال بعيد».

وفي سنة ثمان وعشرين وثلاثمئة أيضاً توفي محمد بن القاسم البغدادي، النحوي المعروف بابن الأنباري، وكان صاحب كتب كثيرة في علم القرآن وغريب الحديث، وكان معروفاً بكثرة الحفظ والإمساك، ونقل أنه كان يحفظ مئة وعشرين تفسيراً للقرآن مع أسانيدها، وكان يحفظ ثلاثمئة ألف بيت من شواهد القرآن. وقد سئل: ما هو قدر محفوظاتك؟ فقال: ثلاثة عشر صندوقاً.

وفي تلك السنة أيضاً توفي أحمد بن محمد المعروف بابن عبد ربّه القرطبي الأندلسي المرواني، صاحب كتاب «العقد الفريد».

وفي سنة ثمان وعشرين وثلاثمئة أيضاً توفي محمد بن أحمد المعروف بابن شنبوز القارىء، وابن شنبوز (بفتح الشين) هو الذي كان يقرأ القرآن بقراءة الشواذّ، ويبدّل بعض الكلمات، ويزيد بعضها، وقد أدّبه الوزير ابن مقلة فتاب، ومن قراءاته:

«فامضوا إلى ذكر الله، يأخذ كل سفينة صالحة غصباً، وتجعلون شكركم أنكم تكذبون، فلما خرّ تبيّنت الإنس أن الجن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا حولاً في العذاب المهين، فاليوم ننجيك بندائك... وهكذا».

وفي العاشر من شوال سنة ثمان وعشرين وثلاثمئة توفي محمد بن علي بن الحسين بن مقلة الكاتب المشهور، وكان محمد بن مقلة وأخوه الحسن بن علي هما من نقلا الخط عن الكوفية، وهذبه علي بن الهلال، وتحكى عن ابن مقلة حكايات عن تكرار عزله ونصبه على مهام الوزارات في أيام الخلفاء، وأخيراً قطعوا يديه فصار يمسك القلم بساعده ويكتب، وانتهى به الأمر في النهاية إلى قطع لسانه، وقضى في الحبس مدة حتى فارق الحياة.

وقد اختلّت أمور الخلافة في أيام الراضي بالله، وخرج عليه رجال كثيرون غلبوا على البلاد، وظهر حكم السلاطين، فغدا الحكم أشبه بحكم ملوك الطوائف، وقد نقل أن البصرة وواسطاً والأهواز كانت تحت إمرة عبد الله البريدي وإخوانه، وكانت مملكة فارس تحت حكم عماد الدولة ابن بويه، وكانت الموصل وديار بكر وديار ربيعة ونواحي مصر تحت حكم بني حمدان، وكانت مصر والشام تحت حكم «الإخشيد بن طفج»، والمغرب وإفريقية بين يدي عبد الله المهدي، وبلاد الأندلس تحت حكم بني أمية، وخراسان وأطرافها بين يدي النصر بن أحمد الساماني، والبحرين واليمامة وهجر بين يدي أبي الطاهر القرمطي، وطبرستان وجرجان تحت يدي الديلم، أما الراضي فلم يكن يحكم سوى بغداد وسوادها.

وهكذا تزلزلت أركان دولة بني العباس، ومالت سلطتهم إلى الضعف والانحلال، وقد حكم الراضي ست سنوات وأحد عشر شهراً وثلاثة أيام. وفي أيامه قطعت يدا ابن مقلة، وعلى قول: قطعوا رأسه.

وفي العاشر من ربيع الأول سنة تسع وعشرين وثلاثمئة فارق الراضي الحياة بعلّة الاستسقاء، وتعود أسباب علّته في معظمها إلى كثرة الجماع، وتم دفنه بالرصافة، وكان اسم أمّه «الظلوم».

خلافة إبراهيم بن المقتدر المتقي بالله

وفاة ابن بابويه ونبذة عن أحواله

في اليوم الذي فارق الراضي فيه الحياة حلّ محله أخوه المتقي بالله إبراهيم بن المقتدر، وفي السنة الأولى من خلافته، وهي سنة تسع وعشرين وثلاثمئة توفي الشيخ المعظم الجليل الفقيه علي بن الحسين بن موسى بن بابويه القمي، الصدوق الأول رضوان الله تعالى عليه، وكان هذا الشيخ الجليل شيخ القميين في عصره، وحظي في سفره إلى العراق بلقاء الشيخ أبي القاسم الحسين بن روح (ره) النائب الثالث لإمام العصر عليه السلام.

وقد كتب رقعة بعث بها إلى الشيخ أبي القاسم الحسين بن روح يلتمس فيها المثول بين يدي الإمام عليه السلام، كما يرجو في تلك الرقعة أن يرزقه الله بالأولاد، وجاء في الجواب عن رقعته:

«قد دعونا الله لك بذلك، وسترزق ولدين ذكرين خيّرين».

وأعطاه الله تعالى ولديه محمداً والحسين، وأبو جعفر محمد هو الذي يعبّر عنه برئيس المحدثين والصدوق المطلق، ولم يُرَ في القميين له مثيل في الحفظ وكثرة العلم، وقد صنّف ما يقرب من ثلاثمئة كتاب، وكان أحياناً يفتخر ويقول: «ولدت بدعوة صاحب الأمر عليه السلام».

وفي سنة إحدى وثمانين وثلاثمئة ارتحل عن الدنيا، وسنقدم نبذاً عن جلالة شأنه فيما بعد إن شاء الله تعالى.

وإجمالاً فقد كان علي بن الحسين الصدوق الأول جليلاً كل الجلال،

وقبره الشريف في مقبرة قم معروف، وله بقعة كبيرة ذات قبة عالية، ونقل بشأنه توقيع عن الإمام الحسن العسكري عليه السلام يشهد بجلالة شأنه.

نصّ التوقيع الشريف

«بسم الله الرحمان الرحيم. الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، والجنّة للموحدين، والنار للملحدين، ولا عدوان إلا على الظالمين، ولا إله إلا الله أحسن الخالقين، والصلاة على خير خلقه محمد وعترته الطاهرين.

أما بعد، أوصيك يا شيخي ومعتمدي وفقيهي، أبا الحسن علي بن الحسين القمي، وفقك الله لمرضاته، وجعل من صلبك أولاداً صالحين برحمته، بتقوى الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، فإنه لا تقبل الصلاة من مانعي الزكاة، وأوصيك بمغفرة الذنب، وكظم الغيظ، وصلة الرحم، ومواساة الإخوان، والسعي في حوائجهم في العسر واليسر، والحلم عند الجهل، والتفقه في الدين، والتثبت في الأمور، والتعاهد للقرآن، وحسن الخلق، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، قال الله عزّ وجلّ: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾. واجتناب الفواحش كلها، وعليك بصلاة الليل، فإن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أوصى علياً عليه السلام فقال:

«**يا علي، عليك بصلاة الليل** (ثلاث مرات) **ومن استخف بصلاة الليل فليس منا**».

فاْعمل بوصيتي، وأمر شيعتي حتى يعملوا عليه، وعليك بالصبر وانتظار الفرج، فإن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «أفضل أعمال أمتي انتظار الفرج. لا تزال أمتي ولا يزال شيعتنا في حزن حتى يظهر ولدي الذي بشّر به النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه يملأ الأرض عدلاً وقسطاً كما ملئت ظلماً وجوراً.

فاصبر يا شيخي، وأمر جميع شيعتي بالصبر، فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده، والعاقبة للمتقين.

والسلام عليك وعلى جميع شيعتنا ورحمة الله وبركاته، وحسبنا الله ونعم الوكيل، نعم المولى ونعم النصير».

وفي منتصف شعبان سنة تسع وعشرين وثلاثمئة توفي الشيخ الجليل المعظم أبو الحسن علي بن محمد السمري، وكان آخر نواب إمام العصر عليه السلام، ووقع في تلك السنة «تناثر النجوم»[1]، فقد ارتحل إلى عالم البقاء كثير من علماء الشيعة ومحدثيهم في تلك السنة، وفيها بدأت الغيبة الكبرى، ومضى عليها حتى زماننا هذا ألف عام وزيادة[2]. وغدا نور ضياء العالم هذا محتجباً عنا، ونسأل الله أن يعجل فرجه الشريف بعد أن خامر الشك والريب قلوباً كثيرة، ومن المناسب أن نبسط بعض الكلام في هذا المقام:

يجدر العلم أنه ليس بين علماء المسلمين شبهة في أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال:

«من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية».

رواية هذا الحديث في كتب الشيعة والسنة فاقت حدّ الاستفاضة، بل إنه ورد في جملة من صحاح العامة وفي أكثر كتب أهل السنّة مرسلاً مسلّماً، حتى أنه اشتهر عن عبد الله بن عمر بن الخطاب أنه قدم إلى باب الحجاج بن يوسف الثقفي في منتصف ذات ليلة وقال: خذ مني بيعة عبد الملك بن مروان، فقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: من بات وأصبح ولم تكن في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية.

كذلك فقد تواتر عن طريق الشيعة أن الأرض لا تخلو من حجة لله، يعني من إمام وخليفة للنبي صلى الله عليه وآله وسلم، فإذا خلت الأرض من الحجة طرفة عين ساخت بأهلها. ويتفق هذا مع القواعد العقلية، إذ يمكن في الإفاضة من جانب الحق تعالى وجود واسطة فيض يكون صاحب عصمة

---

(١) صاحب «روضات الجنات» في ترجمة عبد الرحمان بن علي الملقب بابن الجوزي يذكر عن «تناثر النجوم» بعض الوقائع العجيبة (منه عفي عنه).

(٢) وذلك باعتبار تاريخ تأليف الكتاب كما لا يخفى (المعرّب).

وقدسيّة، فعلى كل مسلم إذا أراد اجتناب كفر الجاهلية أن يعرف إمام زمانه ويعتبره واجب الإطاعة، وواسطة لنزول الرحمة والألطاف الإلهية، والإنسان الذي يعتقد برسالة خاتم الأنبياء محمد بن عبد الله صلوات الله عليه آله وسلم، ويعتقد بإمامة الأئمة الماضين وأولهم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، والحادي عشر منهم الإمام الحسن العسكري عليه السلام، فعليه الاعتقاد بأن إمام زمانه هو الإمام الثاني عشر، الخلف الصالح، الحجة ابن الحسن العسكري صلوات الله عليه، المهدي الموعود، والقائم المنتظر الغائب عن الأنظار، والسائر في الأقطار، وقد جاء ـ بحسب النصوص المتواترة عن الرسول وأمير المؤمنين وسائر الأئمة الماضين صلوات الله عليهم أجمعين ـ التصريح باسمه ووصفه وشمائله وغيبته.

علاوة على أنه ليس من خلاف بين الفرق الإسلامية المعروفة في أن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم قد أخبر بمجيء المهدي عليه السلام، في آخر الزمان، وأن اسمه يماثل اسمه صلى الله عليه وآله وسلم، وأنه يدعو لدينه، ويملأ الأرض قسطاً وعدلاً.

كما أن الأخبار المتعلقة بالحجة عليه السلام قبل ولادته مثبتة في الكتب المعتبرة للثقات من الأصحاب، ومنها ما هو موجود حتى الآن، وقد رآه خلق كثير على النحو الذي ذكرته الأخبار، ووصفته، واسمه وأوصافه تنطبق على ما قالوه وأخبروا به.

فلم يتبقّ للمنصف العاقل شك وريب في كون إمام الزمان المهدي الموعود، كما أنه مما ذكره الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ومن شمائله عليه السلام في الكتب السماوية فإن المنصفين من أهل الكتاب من يهود ونصارى ـ بمجرد رؤيتهم ومطابقتهم ـ أعلنوا إسلامهم، مع أن ما جاء هناك لديهم من خصوصيات وأسباب تعريف هو أقل مما جاء هنا.

وبما أنه أضحى معلوماً أن إمام زماننا هو حضرة الحجة ابن الحسن عليه السلام فاعلم أن أشهر الأقوال في تاريخ ولادته السعيدة هي سنة خمس وخمسين ومئتين، وقال البعض أكثر من ذلك، وقال المسعودي: إنما هي سنة

ست وخمسين ومئتين التي تطابق عدد النور، وبناءً على المشهور بين الفريقين فإن وفاة والده العظيم كانت سنة ستين ومئتين.

فكانت سنّه الشريفة عندما أصبح إماماً خمس سنوات تقريباً، وقد ظهر منه إبان ذلك الكثير من المعجزات وغرائب الحالات، وكانت له غيبتان: صغرى وكبرى، وكانت الصغرى هي الأولى وامتدت منذ ولادته حتى انقطاع السفارة، وذلك سنة تسع وعشرين وثلاثمئة عند وفاة علي بن محمد السمري آخر نوابه، ومدتها أربع وسبعون سنة.

ثم بعد ذلك وقعت الغيبة الكبرى، وخلال الغيبة الصغرى كان هناك العديد من السفراء والنواب يقدّم الناس إليهم عرائضهم، ويخرج الجواب إليهم بخطه الشريف، أما الخمس والنذور التي كانت تحمل إليهم فكانوا يأخذونها ويعرضونها عليه ثم يوصلونها إلى السادة وفقراء الشيعة بإذنه، وكانت تظهر من قبل السفراء كرامات كثيرة تجعل الناس يوقنون بأنهم منصوبون من قبله؛ كإخبارهم مسبقاً بمقدار المال المرسل واسم مرسله، وكم مضى على الرسول من الوقت في الطريق، كما عن حوادث الموت والمرض وسائر أحوالهم، ويكون واقع الأمر على النحو الذي يخبرون به، وقد وفّق كثيرون للفوز بلقائه عليه السلام في غضون هذه الغيبة الصغرى.

السفراء (الأربعة) نواب إمام الزمان عليه السلام

السفراء المعروفون بأنهم كانوا مراجع للشيعة وملاذاً لهم أربعة:

أولهم: الشيخ الأجل السعيد أبو عمرو عثمان بن سعيد الأسدي الذي نص الإمام الهادي عليه السلام على عدالته وأمانته، كما كان أعلن للشيعة أن ما يقوله حقّ، وأنه يتحدث من قبلنا، وكانت له من قبل وكالة ونيابة من العسكريين عليهما السلام، وقبره الشريف ببغداد.

ثانيهم: أبو جعفر محمد بن عثمان بن سعيد رضي الله عنهما، الذي قام مقام والده العظيم بالنص عليه من قبل صاحب الأمر عليه السلام، وبعد موت

والده بعث إليه عليه السلام بكتاب يتضمن التعزية بوالده وذكر سفارته وصلاحيته لذلك المقام الرفيع، وقد خرجت عدة تواقيع شريفة من الناحية المقدسة موجّهة إلى الشيعة تشتمل على سفارته، وانعقد إجماع الشيعة على عدالته ونيابته، وكانوا يرجعون إليه على الدوام في الأمور الدينية، وقد ظهرت منه كرامات وخوارق للعادة كثيرة، وكان يقول: أما والله، إن صاحب الأمر عليه السلام يحضر كل عام في موسم الحج بمكة والمشاعر، وهو يرى الناس ويعرفهم، ويراه الناس أيضاً لكنهم لا يعرفونه.

وروي أن محمد بن عثمان أخبر الناس بيوم وفاته، وقد أعدّ نفسه للموت، وصنع لنفسه قبراً، وأمر رسّاماً فخطّ له آيات قرآنية وأسماء الأئمة عليهم السلام على خشبة تقرر جعلها متّكأ له، وكانت وفاته في اليوم الذي أخبر عنه، وكانت سنة وفاته الخامسة أو الرابعة بعد الثلاثمئة، وكان قد شغل منصبه الرفيع هذا ما يقرب من خمسين سنة، ويقوم قبره الشريف ببغداد تحت قبة عالية بالقرب من بوابة سلمان في مقبرة معروفة بـ «الشيخ الخلاّني».

ثالثهم: الشيخ أبو القاسم الحسين بن روح، من الطائفة النوبختية التي كان رجالها على الدوام من العلماء والمتكلمين وأصحاب المؤلفات، وقد تبوأ منصب النيابة بعد موت محمد بن عثمان، وقضى في سفارته ما يناهز إحدى وعشرين سنة، وكان مرجعاً للشيعة، انتقل إلى رحمة ربه في سنة ست وعشرين وثلاثمئة.

يقوم قبره الشريف ببغداد في محلة يتفرع الطريق إليها من وسط سوق العطارين، في قلب دار يتوجّب على زائرها أن يستأذن قبل الدخول. ومما يذكر أنه لم يظهر بعدُ مِن أهل الخير من يُقبل على شراء هذه الدار فيقيم لها صحناً معتدل السعة، تحف به بضعة أواوين، ويتوسطه حوض للماء، فإن منافع الخير في هذا العمل لا تحصى، وعلاوة على ما في ذلك من تعظيم وتبجيل لصاحب ذلك القبر الشريف فإن غالبية الزوار ممن يتعاطون البيع والشراء والأخذ والعطاء هم بحاجة إلى أماكن للاستراحة وتناول الطعام، والطهارة والصلاة، وانتظار أن تنحسر شدة الحر، وليس للشيعة في بغداد أماكن من هذا القبيل، فهم غالباً ما يصلون إلى الكاظمين في آخر وقتهم وقد

غلب عليهم التعب والجوع والعجز عن أداء الصلاة، فإذا أقيم محل كهذا توفرت آلاف الخدمات والمساعدات الدينية والدنيوية الروحية لآلاف الزوار على مدى الأسابيع والشهور.

رابعهم: الشيخ الجليل المعظم علي بن محمد السمري، الذي قام مقام الحسين بن روح، وتسلم النيابة على امتداد ثلاث سنوات، وانتقل إلى رحمة ربه في النصف من شعبان سنة تسع وعشرين وثلاثمئة، وفي تلك السنة كان «تناثر النجوم» وبداية الغيبة الكبرى.

يقوم قبره الشريف ببغداد بالقرب من قبر الشيخ الكليني، ويروي الشيخ الصدوق والشيخ الطوسي عن الحسن بن أحمد المكتب أنه قال: كنّا ببغداد في السنة التي توفي فيها الشيخ السمري، فصرنا إليه قبل أيام من وفاته، فأخرج لنا توقيعاً من صاحب الأمر عليه السلام هذا مضمونه:

«بسم الله الرحمان الرحيم. يا علي بن محمد السمري، عظّم الله أجر إخوانك في مصيبتك، فإنك ستفارق الدنيا بعد ستة أيام، فاجمع أمورك، ولا تعين مكانك وصيّاً وقائماً بالأمر، فإن الغيبة الكبرى واقعة، وبعد هذا فلن أظهر لأحد إلا بإذن الله تعالى، وهذا الظهور ستعقبه غيبة طويلة، تثقل فيها القلوب وتقسو، وستمتلىء الأرض ظلماً وجوراً، وبعده سيدّعي جماعة من الشيعة مشاهدتي، وكل من ادّعى المشاهدة قبل خروج السفياني والصيحة من السماء فهو كاذب مفترٍ، «ولا قوة إلا بالله العلي العظيم»».

قال الحسن: أخذ كل منا نسخة عن التوقيع وخرجنا عنه، وفي اليوم السادس صرنا إليه فوجدناه في طور الاحتضار، فقال له أحدهم: من هو وصيك من بعدك قال: «لله أمر هو بالغه» (كناية عن وقوع الغيبة الكبرى). قال هذا وأسلم الروح «رضوان الله عليه».

وفي أيام المتقي سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمئة، أو سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمئة على قول، توفي الحافظ أبو العباس أحمد بن محمد بن سعيد الكوفي، المعروف بابن عقدة. والحافظ في اصطلاح أهل الحديث تقال لمن

حفظ مئة ألف حديث مع أسانيدها، والحجة من حفظ ثلاثمئة ألف حديث، «والحاكم من أحاط حفظه بالجميع».

ويروى عن ابن عقدة أنه كان يقول: إنني أحفظ مئة وعشرين ألف حديث مع أسانيدها، وأذاكر بها، وأجيب عن ثلاثمئة ألف حديث.

وقال الدارقطني: بإجماع أهل الكوفة من عهد ابن مسعود إلى عهد ابن عقدة لم يُر أحفظ منه، وإجمالاً فقد كانت لابن عقدة مرتبة جليلة ومنزلة عظيمة، غير أنه كان زيدي المذهب وجاروديّاً، ألّف كتباً كثيرة:

«منها: كتاب أسماء الرجال الذين رووا عن الصادق عليه السلام، أربعة آلاف رجل، خرّج فيه لكل رجل الحديث الذي رواه».

ومن كتبه كتاب «الولاية» الذي كتبه في طرق حديث الغدير، ويزيد رواة هذا الحديث الشريف عن مئة شخص من الصحابة، نقل مع أسانيده.

ونقل أن مجموع كتبه كان ستمئة حمل بعير، وعن ابن كثير والذهبي واليافعي في تواريخهم أن هذا الشيخ كان يجلس في جامع «براثا» بالكوفة ويحدث الناس بمثالب الشيخين، ولذا تُركت رواياته، وإلا فلا كلام لأحد في صدقه وثقته. انتهى.

ثم اعلم أن ولد هذا الشيخ محمد بن أحمد بن عقدة المكنى بأبي نعيم الحافظ على خلاف طريقة أبيه، ومن أجلّاء الشيعة الإمامية، عظيم الحفظ، شيخ التلعكبري المعروف.

وفي سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمئة أيضاً، كما يقول العلامة المجلسي (ره)، توفي الشيخ الجليل المؤرخ الأمين والمعتمد عند الفريقين علي بن الحسين بن علي الهذلي، المعروف بالمسعودي، مؤلف كتاب «إثبات الوصية» و «مروج الذهب» وكتب أخرى.

ويقول بعضهم: إن المسعودي عاش وأدرك سنة خمس وأربعين وثلاثمئة، وهذا الشيخ من أجلّاء علماء الإمامية، والعجب الشديد من العالم الفاضل الآغا محمد علي صاحب «المقامع» أن يعدّه من علماء العامة.

وإجمالاً فالموافق والمخالف يعتمدان على أقواله، وكتابه «مروج الذهب» في غاية الإتقان والإحكام، وقد نقلنا الكثير عنه في هذه الرسالة. والمروج: بضم الميم والراء المهملة وسكون الواو. والمسعودي لقب يطلق على جماعة من الشيعة والسنّة، وليس ها هنا مقام تفصيل ذلك.

وفي أيام المتقي بالله أيضاً، وفي سنة أربع وأربعين وثلاثمئة على قول، توفي ببغداد علي بن إسماعيل أبو الحسن الأشعري، كان أبو الحسن في البداية على طريقة المعتزلة، وتلميذاً لأبي علي الجبّائي زوج أمه، واتفق لهما يوماً أن كانا يتجادلان في وجوب الأصلح مع الصلاح على الله تعالى، فكان جوابه لأبي علي في هذا الباب بالمثال المعروف بالإخوة الثلاثة: واحد مسلم، وواحد كافر، وواحد متوفي قبل البلوغ، فلما توقف أبو علي عن الجواب فارقه، وتوقف عن مذهب المعتزلة، وأسس مذهب الأشعرية، وناصره في ذلك القاضي أبو بكر الباقلاني وطائفة من الأشعرية التي ينسب إليها أكثر أهل السنّة. وينتهي نسب أبي الحسن إلى أبي موسى الأشعري، ويقال: إنه لمّا دُفن عفوا آثار قبره لئلا يكتشف الحنابلة قبره فينبشوه ويخرجوا جثته، لأن الحنابلة يعتقدون بكفره ويعتبرونه حلال الدم.

نعود إلى الحديث عن المتقي بالله، فلما قارب حكم المتقي الزوال غلبه على السلطة «أبو الوفاء تورون» التركي، ولم يبق للمتقي من السلطة سوى الاسم، فلا غرو أنه كتب، إلى ناصر الدولة الحسن بن عبد الله بن حمدان، وأخيه سيف الدولة علي بن عبد الله: خلّصاني من النزاع مع تورون أفوضكما إدراة شؤون المملكة.

وإجمالاً فقد غلب تورون على بغداد، وأمسك بالمتقي بالله مع وزيره علي بن مقلة، وصادر أمواله، وبايع المستكفي بالله، ثم أعمى عيني المتقي وسلم أمور السلطة إلى المستكفي، وجرت هذه الواقعة يوم السبت الثالث من صفر سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمئة، بعد أن امتد حكمه أربع سنوات إلا سبعة أيام، وفي سنة سبع وخمسين وثلاثمئة فارق الحياة.

خلافة عبد الله بن علي المستكفي بالله

في اليوم الثالث من شهر صفر سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمئة حين تم عزل المتقي من الخلافة حل محله المستكفي بالله عبد الله بن علي، فأنعم على تورون التركي باني مملكته بخلعة، وترك شؤون المملكة بيده، وحكم ما يقرب من سنة ونصف، وفي الثالث والعشرين من شهر شعبان سنة أربع وثلاثين وثلاثمئة تمّ خلعه من الخلافة بعد أن أمسك به أحمد بن بويه الديلمي وأعمى عينيه، وكانت بين المستكفي والمطيع عداوة، وكان يلحّ في طلب المطيع الذي اختفى في بغداد خوفاً منه، وكان المستكفي لا يشرب النبيذ قبل الخلافة، لكنه لما أصبح خليفة أمر بالنبيذ وانصرف إلى شربه.

جاء في كتاب «أخبار الدول» أن معز الدولة بن بويه قدم إلى المستكفي ببغداد فمنحه خلعة، وفوض إليه أمور المملكة، وأمر بضرب النقود باسمه، وخطب له الخطباء على المنابر. وبعد مدة نما إلى معز الدولة أن المستكفي يضمر له الغدر، فقدم إليه وقبل يديه، فأمر الخليفة له بمقعد جلس عليه.

ولم يمض قليل حتى حضر اثنان من أهل الديلم وبسطا أيديهما نحو المستكفي الذي خيّل إليه أنهما عازمان على تقبيل يده، فبسطها نحوهما، فما كان منهما إلا أن لزماها بقوة، وجرّاه من مجلسه إلى الأرض ولفّا عمامته حول عنقه، وراحا يجرّانه بإذلال وتحقير ثم خلعا عنه لباس الخلافة، وأعميا عينيه، وخلعاه من الخلافة.

وهكذا جمعت بغداد ثلاثة خلفاء عميان: القاهر بالله، والمتقي بالله، والمستكفي بالله، ثم انتُهبت دارالخلافة، وبقي المستكفي حتى سنة ثلاث وأربعين وثلاثمئة حيث وافته المنية في بيت معز الدولة.

خلافة الفضل بن جعفر المطيع لله

بعد خلع المستكفي في الثالث والعشرين من شهر شعبان سنة أربع وثلاثين وثلاثمئة بايع الناس المطيع لله الفضل بن جعفر بن المقتدر، وقد جرت في أيامه وقائع كثيرة.

قال القرماني: وقع في السنة الأولى من خلافته قحط عظيم ببغداد حتى صار الناس يأكلون الجيف وفضلات الحيوانات، ومات كثيرون جوعاً، فكانت جثثهم تلقى في الطرقات فيأكلها الكلاب.

وفي الثامن والعشرين من ذي الحجة من تلك السنة توفي ببغداد جعفر بن يونس الخراساني ثم البغدادي، المعروف بالشبلي الصوفي السني المالكي، أو الشيعي على قول المرحوم القاضي نور الله، وكان الشبلي ممن صحبوا جنيداً والحلاج. ونوادره كثيرة.

وفي سنة خمس وثلاثين وثلاثمئة أو ست وثلاثين وثلاثمئة توفي متوارياً بالبصرة أبو بكر محمد بن يحيى المعروف بالصولي الشطرنجي، وكان الصولي نديماً للخلفاء، وبارعاً بأدب وعلم الشطرنج تمام البراعة، ويعتقد بعضهم أنه واضع علم الشطرنج، وهذا خطأ، بل وضعه «صصة بن داهر الهندي» لملك الهند «شهرام»، وسرّ شهرام به كثيراً، فطلب منه أن يسأله مكافأة مقابل عمله، فقال: أعطني بعدد بيوت الشطرنج - وهي أربع وستون بيتاً - قمحاً بشكل تضعيفي، أي: أعطني في البيت الأول حبة قمح، وفي الثاني حبتين، وفي الثالث أربع حبات، وفي الرابع ثماني حبات وهكذا..

فاحتقر الملك طلبه واستهان به، ولما أحصى الحسبة العدد قالوا: لو جمعت قمح الدنيا بكامله لما استوفيت المطلوب.

يقول ابن خلكان: قام بعض حسبة الإسكندرية بعملية الحساب من أجلي فتبين أن حصة البيت الأخير من الشطرنج تبلغ ملء (١٦١٨٤) مدينة من القمح!.

وأما لعبة النرد فقد وضعها أردشير بن بابك، وقد أتى بها على مثال الدنيا فوضع لها اثني عشر بيتاً بعدد الأشهر، وقسم كلاً منها إلى ثلاثين قسماً بعدد الأيام.. الخ.

وكان أردشير أول ملوك الفرس، وقد استقلّ بالممالك كافة بعد أن أوقع بملوك الطوائف بأن استعداها كلاً ضد الآخر، وهو جدّ ملوك الفرس، وكان آخرهم يزدجرد الذي دالت دولته في عهد عثمان بن عفان، وقد حكموا أربعمئة عام بعد أربعمئة قبلها كان الحكم فيها لملوك الطوائف.

وفي سنة سبع وثلاثين وثلاثمئة توفي عبد الرحمان بن إسحاق الزجاجي النحوي البغدادي، وفي أواخر سنة ثمان وثلاثين وثلاثمئة توفي أحمد بن محمد المصري المعروف بابن النحاس النحوي، كما توفي في السنة نفسها عماد الدولة بن بويه.

وفي سنة تسع وثلاثين وثلاثمئة توفي بدمشق المعلم الثاني محمد بن طرخان أبو النصر الفارابي التركي الحكيم المشهور، وكان الفارابي من أكابر فلاسفة المسلمين، وقد اهتم كثيراً بقراءة كتب أرسطوطاليس الحكيم، وكان عارفاً بالألسنة المختلفة، وقيل إنه كان يجيد العزف فيعزف بطريقة تجعل أهل مجلسه ينامون جميعاً بينما يبقى هو صاحياً، كما كان يعزف بطريقة أخرى تجعل الجميع يضحكون، أو يبكون.

وقد انتشر علم الفلسفة منذ عهد المأمون، فقد رأى المأمون أرسطو في نومه ونال حظاً من حديثه، فبعث برسول إلى بلاد الفرنجة حمل كتب الفلاسفة

إلى الديار الإسلامية، وأمر أهل الترجمة بتعريبها. ولما كانت معرفة الفلسفة تقرب صاحبها من الخليفة أقبل الناس عليها، ويقال: إن شخصين فازا بقصب السبق في ذلك وهما أبو النصر الفارابي وابن سيناء.

وفي سنة تسع وثلاثين وثلاثمئة أيضاً تمت إعادة الحجر الأسود إلى موضعه، بعد أن اقتلعه القرامطة وبقي عندهم مدة، كما تقدمت الإشارة إلى ذلك عند الحديث عن أيام المقتدر.

وفي سنة اثنتين وأربعين وثلاثمئة توفي علي بن محمد أبو القاسم التنوخي الأنطاكي، العالم بأصول المعتزلة والنجوم، كان قاضي البصرة والأهواز، وكان الوزير المهلبي يحترمه ويجلّه ويدعوه إلى مجلس ندمائه، وكان يقال له «ريحانة الندماء وتاريخ الظرفاء» وكان سيف الدولة يجله كذلك، وهو جد الحسن بن علي القاضي التنوخي الإمامي، وهو من ردّ على ابن المعتز العباسي قصيدته في فخر بني العباس.

وفي سنة ثلاث وأربعين وثلاثمئة توفي الشيخ أبو جعفر محمد بن الحسن بن الوليد، شيخ القميّين وفقيههم.

وفي سنة أربع وأربعين وثلاثمئة حدث زلزال شديد بمصر، فخرّب الدور هناك.

وفي السنة نفسها توفي ببغداد الحافظ محمد بن عمر بن محمد المعروف بأبي بكر الجعابي الإمامي، الفاضل الجليل الحفوظ، نقل عنه أنه كان يقول: أحفظ أربعمئة ألف حديث، وأذاكر بستمئة ألف حديث، وكان من كبار تلامذة ابن عقدة.

وفي سنة خمس وأربعين وثلاثمئة توفي أبو عمرو الزاهد المطرز محمد بن عبد الواحد البغدادي، غلام ثعلب، والأوحد في علم اللغة، «وإنه جمع جزواً في فضل معاوية بن أبي سفيان».

وفي سنة اثنتين وخمسين وثلاثمئة توفي أبو القاسم علي بن إسحاق

البغدادي الإمامي، ودفن في مقابر قريش، وكان موته في العشرين من صفر، واتفق أن ولادته كانت في اليوم نفسه من سنة عشر وثلاثمئة، وكان أكثر شعره في مدح أهل البيت عليهم السلام، ومدح سيف الدولة والوزير المهلبي وغيرهم من أعيان الشيعة الإمامية.

وفي سنة اثنتين وخمسين وثلاثمئة أيضاً توفي أبو القاسم الكوفي علي بن أحمد بن موسى المبرقع، ويقوم قبره قرب «فسا» محلة بشيراز، وقد فسد مذهبه في أواخر عمره، ألّف كتباً كثيرة منها كتاب «التثبيت» في معجزات الأنبياء عليهم السلام.

هذا وقد كتب الشيخ الحسين بن عبد الوهاب المعاصر للسيد المرتضى (ره) تتمة للتثبيت وسمها بـ «عيون المعجزات في معجزات الزهراء والأئمة الأطهار» عليهم السلام، وقد توهم بعضهم أن «عيون المعجزات» من تأليف السيد المرتضى، وهذا خطأ.

ومن كتب أبي القاسم الكوفي أيضاً كتاب «الاستغاثة» الذي يعبّر عنه أحياناً بـ «الاستغاثة في بدع الثلاثة» وهذا الكتاب نسبه العلامة المجلسي والمحدث الفيض رضوان الله عليهما إلى الشيخ الأجل المحقق كمال الدين ميثم بن علي بن ميثم البحراني، وحسب الظاهر فهو من تأليفات أبي القاسم الكوفي، وقد بين هذا الأمر الشيخ المرحوم المحدث النوري نوّر الله مرقده في خاتمة «المستدرك»، فيرجع إليه هناك.

وفي يوم عاشوراء من سنة اثنتين وخمسين وثلاثمئة أيضاً أمر معزّ الدولة الديلمي أهل بغداد بإغلاق الدكاكين والأسواق، وأن يمتنع الطباخون عن الطبخ، ونصبت القباب في الأسواق، وخرج النسوة بشعور مشوشة يلطمن وجوههن، ويقمن مجالس العزاء للإمام الحسين عليه السلام. وكان هذا أول يوم يجري فيه النواح على الحسين عليه السلام، ودار هذا الأمر لعدة سنوات.

وفي السنة نفسها توفي الحسن بن محمد المعروف بالمهلبي وزير معز

الدولة الديلمي، وهو من أحفاد المهلب بن أبي صفرة الأزدي، وكان قبل وصوله إلى منصب الوزارة يقاسي من شدة الفقر والفاقة، وذات يوم أحس بالميل إلى أكل اللحم فلم يتمكن. فتمنى الموت لفقره وعدمه وقال:

ألا مــوت يــبــاع فــأشــتــريــه فهذا العيش ما لا خير فيه (الأبيات)

وفي سنة ثلاث وخمسين وثلاثمئة أو سنة ثلاث وتسعين وثلاثمئة توفي إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي، وكتابه «صحاح اللغة» في تمام الاعتبار، وقد اعتنى الفضلاء بقراءته وتلخيصه والحاشيه عليه، والجوهري من أعاجيب الدنيا لأنه من الفاراب إحدى بلاد الترك، وهو إمام في علم لغة العرب، ويضرب بخطه المثل في الحسن، وكان يذكّر بابن مقلة ونظرائه، ثم هو من فرسان الكلام، وممن آتاه الله قوة وبصيرة، وحسن سريرة وسيرة، وكان يؤثر السفر على الوطن، والغربة على السكن والمسكن، وقطع الفيافي والآفاق، وأخذ من علماء الشام والعراق، ثم سار إلى خراسان وأقام في نيسابور، فلم يزل مقيماً بها على التدريس والتأليف، وتعليم الخط الأنيق، وكتابة المصاحف والدفاتر اللطائف، حتى مضى لسبيله، ومن شعره:

فــهــا أنــا يــونــس فــي بــطــن حــوت بــنــيــســابــور فــي ظــل الــغــمــام

فــبــيــتــي والــفــؤاد ويــوم دجــن ظــلام فــي ظــلام فــي ظــلام

وفي سنة أربع وخمسين وثلاثمئة قتل أبو الطيب أحمد بن الحسين المعروف بالمتنبي الشاعر، وقيل في سبب تلقيبه بهذا اللقب إنه ادّعى النبوة في «بادية سماوة» واجتمع إليه خلق كثير، حتى أن أمير حمص أمسك به وحبسه ثم أطلقه، وعن شدة حفظه نقل السمعاني أنه كان يحفظ ثلاثين ورقة من نظرة واحدة.

وفي سنة خمس وخمسين وثلاثمئة توفي الحاكم المحدث النيسابوري، والمنصور بن نوح بن النصر بن أحمد الساماني، وفي السنة نفسها ولد السيد المرتضى ذو المجدين.

وفي السابع عشر من ربيع الثاني سنة ست وخمسين وثلاثمئة توفي معز

الدولة[1] أحمد بن بويه، ودفن في مقابر قريش، وامتد حكمه اثنين وعشرين عاماً إلا شهراً واحداً، وهو عمّ عضد الدولة، وكان يقال له «الأقطع» لأن الأكراد قطعوا يده اليسرى مع بعض أصابع يده اليمنى، وذلك بناحية كرمان.

وفي صفر من سنة ست وخمسين وثلاثمئة أيضاً توفي سيف الدولة علي بن عبد الله بن حمدان حاكم حلب، وكان بنو حمدان ملوكاً، واشتهر سيف الدولة بكونه واسطة قلادتهم، وكان أديباً شاعراً.

وفي هذه السنة أيضاً توفي الحاكم كافور الإخشيدي ممدوح المتنبي. وأبو علي القالي. وعلي بن الحسين أبو الفرج الأصفهاني الشيعي الزيدي، فلا غرو أنه قيل: توفي في هذه السنة عالمان كبيران وثلاثة ملوك. وأبو الفرج هو صاحب «الأغاني» و «مقاتل الطالبيين».

وقد نقلنا في كتابنا هذا الكثير من المقاتل، وينتهي نسبه إلى مروان، ولهذا يقال له المرواني، ونسبه هو الآتي: علي بن الحسين بن محمد بن أحمد بن ميثم بن عبد الرحمان بن مروان بن عبد الله بن مروان بن الحكم.

كان الوزير المهلبي يزيد في احترام أبي الفرج وإكرامه، ومع أنه كان قذر الهيئة واللباس فقد كان المهلبي يحرص على منادمته ومؤاكلته، وقد جمع كتابه «الأغاني» في بحر خمسين سنة، وأتحف به مجلس الحاكم سيف الدولة الحمداني أمير الشام، فأجازه سيف الدولة بألف دينار، وقيل مئة ألف دينار، واعتذر منه. وقد امتدح هذا الكتاب العديد من الأفاضل وعلى الخصوص الصاحب بن عباد، وعضد الدولة، وسيف الدولة وغيرهم. وكانوا لا يفارقون الكتاب، وقد قيل: «لم يكتب مثله في بابه».

وفي سنة سبع وخمسين وثلاثمئة توفي الحارث بن سعيد بن حمدان بن

---

(١) معزّ الدولة: كان أمير أمراء بغداد، وقد عمل على نشر المذهب الشيعي، وكان قد أمر بكتابة لعن معاوية وظالمي آل محمد على أبواب مساجد بغداد وسائر العمارات هناك، وقد أمر سيف الدولة الحمداني أمير حلب بعمل ذلك أيضاً بحلب بسبب تشيعه (منه ره).

حمدون المعروف بأبي فراس ابن عم ناصر الدولة وسيف الدولة، وجاء في «الدر المسلوك» أنه قتل، ولما بلغ نبأ مقتله أمه عمدت ـ من شدة جزعها ـ إلى اقتلاع عينيها.

وقد تسنم بنو حمدان الإمارة في عهد خلفاء بني العباس، وكانت ديار ربيعة والموصل تحت حكمهم، وقد اشتهر أبو فراس بالأدب والفضل والكمال والشجاعة، وامتاز بالفصاحة وحلاوة الشعر وعذوبته، ولم يكن له من نظير سوى عبد الله بن المعتز بالله، ويقول أهل الصنعة: إن أبا فراس أشعر منه، وقد صادق على ذلك المتنبي الشاعر. وقال فيه الصاحب بن عباد: «بدأ الشعر بملك وختم بملك» يعني امرأ القيس وأبا فراس.

وشعره معروف، ومن جملته قصيدته الميمية التي قالها في إظهار مظلومية أهل البيت الأطهار عليهم السلام، وظلم بني العباس لهم، وهجائه إياهم، وهي القصيدة المعروفة بـ «الشافية» وقد شفى فيها صدره وصدور سائر المؤمنين، وقد رد على قصيدة «شرّ العباد» لعبد الله بن المعتز العباسي التي قالها يفتخر ببني العباس ويذم آل أبي طالب، وقد شرحها بعض أفاضل الحائر.

وقيل: إنه لما قال هذه القصيدة، ولما كان العهد عهد تسلط وحكم بني العباس، أمر الجيش بإشهار السيوف من أغماده، فأشهر خمسمئة سيف استجابة لدعوته، وعندها شرع في قول قصيدته المباركة، ومطلعها:

الحق مهتضم والدين مخترم ... وفيء آل رسول الله مقتسم

جزاه الله عن أهل بيت النبوة خير الجزاء.

وفي سنة ثمان وخمسين وثلاثمئة توفي السيد العالم الفاضل الزاهد الحسن بن الحمزة العلوي المرعشي، وهذا السيد الجليل من أجلاء الطائفة الإمامية وفقهائها، وينتهي نسبه من خلال ستة آباء إلى الإمام السجاد عليه السلام.

وفي السنة نفسها توفي ناصر الدولة الحسن بن عبد الله بن حمدان بن حمدون والي الموصل وتوابعها، ودفن بالموصل، وهو أخو سيف الدولة، وكان يحبه كثيراً، فلا عجب أن عقله ضعف بعد موت سيف الدولة، فاحتجزه ابنه وحبسه حتى وفاته.

وفي سنة تسع وخمسين وثلاثمئة توفي أبو عبد الله محمد بن الحسن بن القاسم الحسني، وأبوه أبو محمد الحسن الداعي الصغير ملك الديلم، وكان أحد أئمة الزيدية، كان رجلاً عظيم القدر أشبه خلقة بأمير المؤمنين عليه السلام، وكان معزّ الدولة يحبه ومن مريديه، ولما مرض طلب من أبي عبد الله أن يدعو له، ولما وضع أبو عبد الله يده على وجهه يدعو له قبّل معزّ الدولة يده، ومسح بها وجهه طلباً للشفاء، وتحكى عنه حكايات أشير إليها باختصار في «عمدة الطالب».

وفي سنة ستين وثلاثمئة توفي ببغداد أبو الفضل محمد بن العميد القمي الكاتب، وكان ابن العميد أوحد عصره في العلم والفلسفة والنجوم والأدب، وكان يقال له: الجاحظ الثاني. كان وزيراً لركن الدولة الديلمي، وقيل فيه: «بدأت الكتابة بعبد الحميد وختمت بابن العميد». وكان عبد الحميد كاتب مروان الجعدي الذي قتله بنو العباس أيضاً، وكان معروفاً بالأدب والبلاغة.

واعلم أن من أتباع ابن العميد الصاحب بن عباد، وكان يقال له الصاحب نظراً لصحبته لابن العميد، وكان ابن العميد يدعى بالأستاذ أيضاً، وذات مرة سافر الصاحب إلى بغداد وبعد عودته سئل: كيف كانت بغداد؟ قال: «بغداد في البلاد كالأستاذ في العباد».

وبعد وفاة ابن العميد تقلد ابنه أبو الفتح علي ذو الكفايتين الوزارة عند ركن الدولة، وبعد ركن الدولة أصبح وزيراً عند ابنه مؤيد الدولة لمدة، حتى نشب نزاع بينه وبين الصاحب بن عباد، الأمر الذي جعل مؤيد الدولة يبدّل موقفه منه، وبقي في شقاء حتى هلك، وانقرضت بذلك دولة تلك الأسرة، كما جرى على البرامكة، حتى قال الشاعر:

آل العميد وآل برمك ما لكم قلّ المعين لكم وعزّ الناصر
كان الزمان يحبّكم فبدا له إن الزمان هو الخؤون الغادر

جاء في بعض التواريخ أن الصاحب بن عباد كان يوماً يجوز أمام قصر ابن العميد فلم ير خارج القصر سوى بعض الخدم العجزة، فأخذته العبرة، وجرى على لسانه القول:

أيها الركب لمْ علاك اكتئاب أين ذاك الحجاب والحجّاب
أين من كان يفزع الدر منه فهو اليوم في التراب تراب[1]

وفي سنة ستين وثلاثمئة أيضاً توفي بأصفهان أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني صاحب «المعجم الكبير في أسماء الصحابة» والطبراني من حفّاظ علماء السنّة، وقيل إن عدد شيوخه بلغ الألف، وهو ينسب إلى «طبرية» على ساحل البحر، وقيل إن جبل الطور يشرف عليها، وهناك يقوم قبر لقمان الحكيم. وطبرية بلدة تقرب من الشام على بعد ثلاثة أيام منها، وهو خلاف الطبري المنسوب إلى «طبرستان». وهناك في «طبريّة» يجري نهر عظيم نصف مائه حارّ ونصفه بارد، كذا عن «تلخيص الآثار».

وفي السنة نفسها استولى القرامطة على دمشق.

وفي سنة اثنتين وستين وثلاثمئة تمّ بناء القاهرة على يد المعز لدين الله الإسماعيلي.

وفي سنة ثلاث وستين وثلاثمئة توفي بمصر أبو حنيفة الشيعة القاضي

---

(١) وللصاحب في مدح ابن العميد:

قالوا ربيعك قد قدم ولك البشارة والنعم
قلت الربيع أخو الشتاء أم الربيع أخو الكرم
قالوا الذي بنوالِهِ يغني المقلّ من العدم
قلت الرئيس ابن العميد إذاً، فقالوا لي نعم

(منه ره).

النعمان بن أبي عبد الله محمد بن المنصور المصري، وله مصنفات في مناقب أهل البيت عليهم السلام، وفي الردّ على المخالفين أمثال أبي حنيفة ومالك والشافعي.

«وكان مالكيّاً أولاً، ثم أصبح إمامياً، وله أيضاً كتاب «دعائم الإسلام» ولم يرو عن الأئمة بعد مولانا الصادق عليه السلام خوفاً من الإسماعيلية، ولكن تحت ستر التقية أظهر الحق. وقد ذكره الشيخ الحرّ في «أمل الأمل» والعلاّمة المجلسي في «ديباجة البحار» والعلاّمة الطباطبائي في «رجاله» وشيخنا النوري (ره) في خاتمة «مستدركه على الوسائل». وما أنصف صاحب «الروضات» حين قال في ترجمته: الظاهر عندي أنه لم يكن من الإمامية الحقة».

وفي سنة ثلاث وستين وثلاثمئة أيضاً ابتلي المطيع بمرض الفالج وتوقف لسانه عن النطق، فخلع نفسه من الخلافة وسلَّمها إلى ابنه عبد الكريم، ووضع له اسم «الطائع لله».

فارق الحياة سنة أربع وستين وثلاثمئة في «دير عاقول»، وفي تلك المدة المديدة التي قضاها المطيع في الحكم لم يكن مرجعاً في الأمر والنهي، بل كان المرجع في أمور الرئاسة والسلطنة وتدبير شؤون المملكة هو معزّ الدولة ابن بويه، وكان معز الدولة قرّر للخليفة مئة دينار يومياً كنفقة له، ولعلّ من الصواب أن ندرج هنا موجزاً عن حكم آل بويه.

دولة الديالمة وسلطانهم

اعلم أن أصحاب التواريخ قالوا: إن «بويهاً» كان رجلاً فقيراً من أهل الديلم يكنّى بأبي شجاع فناخسرو بن نمام، وكان يعمل في صيد السمك، وينسب إلى الفرس، وكان يقول: أنا من بني بهرام كورم، وكان له خمسة بنين مات اثنان منهم، وبقي ثلاثة أحدهم أبو الحسن علي بن بويه عماد الدولة، وكان أكبرهم، وثانيهم ركن الدولة أبو علي الحسن، وثالثهم معزّ الدولة أبو الحسين أحمد.

كان عماد الدولة السبب في وصولهم إلى الحكم والسلطان، حتى أنهم ملكوا العراقين والأهواز وفارس، وانتهت إليهم مقاليد أمور الرعية، وقد بلغ تعداد من حكموا من آل بويه خمسة عشر، وامتد حكمهم مئة وستاً وعشرين سنة، وكان بدء ظهورهم سنة اثنتين وعشرين وثلاثمئة، في أواخر حكم القاهر بالله، وذلك بسبب أن عماد الدولة قدم إلى «مرداويج»[1] الذي أسند إليه إمارة الكرخ، فأحسن معاملة الرعية، وفتح الكثير من القلاع، وجمع الكثير من الذخائر فمالت إليه قلوب الناس حتى علا شأنه وغدا عظيماً في أعينهم، ذلك أن تسعمئة من مقاتليه كانوا يقابلون عشرة آلاف فارس من خصومهم.

ثم إن عماد الدولة بعث بأخيه ركن الدولة إلى «كازرون»، فاستولى عليها، ثم وضع بعدها شيراز تحت سلطته، فاشتهر أمره، ومن تصاريف القضاء أن «مرداويج» قتل في ذلك الوقت على أيدي غلمانه، فانضم جيشه إلى عماد الدولة، مما زاد في قوته، فقام بالاستيلاء على بغداد في يوم السبت الحادي عشر من جمادى الأولى سنة أربع وثلاثين وثلاثمئة، ونهب دار الخلافة، فلم يتبقّ للخليفة العباسي من الخلافة سوى اسمها، فلم يعد له أمر أو نهي.

ثم إن عماد الدولة بسط نفوذه على البصرة والموصل وسائر البلاد، فاستخلف أخاه معزّ الدولة في بغداد، وأخاه ركن الدولة في أصفهان، وأقام هو بشيراز.

يقول المؤلف: أشار أمير المؤمنين صلوات الله عليه في أخباره الغيبية إلى دولة الديالمة إذ قال:

«ويخرج من ديلمان بنو الصياد.. إلى أن قال: ثم يستقوي أمرهم حتى

(١) مرداويج هو عمّ قاوس بن وشمكير، وقد تقلدوا الإمارة في جيلان وطبرستان بعد الداعي وسائر السادات (منه ره).

يملكوا الزوراء، ويخلعوا الخلفاء، قال قائل: يا أمير المؤمنين، فكم مدّتهم؟ فقال: مئة أو يزيد قليلاً».

وإجمالاً فمن غريب ما اتفق وقوعه لعماد الدولة أنه لما أقام بشيراز اجتمع جنده يطالبون بوظائف يقومون بها، وبمستحقّات يتقاضونها، لكن عماد الدولة لم يكن لديه ما يسدّ به حاجتهم، وقاربت دولته الاضمحلال والزوال، وغلب عليه الغم لذلك، إلى أن كان يوماً في مجلس أنسه وقد استلقى على ظهره يفكر بما يعالج به أمر الرعية، فإذا به يرى حية تنسلّ من موضع في سقف الحجرة، ثم تدخل إلى موضع آخر.

خاف عماد الدولة من سقوط الحية فأمر بنصب سلم وفتح السقف وإخراج تلك الحية، فلما فتحوا السقف وشرعوا في البحث عن الحية رأوا أن فوق السقف سقفاً آخر، وبينهما صناديق تحوي أموالاً، فلما أخرجوها وجدوها تبلغ خمسمئة ألف دينار، فقسمها عماد الدولة على رعيته.

ثم إنه بعث في طلب خياط يخيط له ملابسه، فقيل له: إن في هذه المدينة خياطاً كان في السابق مختصاً بوالي شيراز، فلما حضر تبين أنه كان أصمّ، وكانت عنده أموال مودعة لصاحب البلد، فلما أحضروه خيّل إليه أنه سُعي به بسبب هذا المال، فلما خاطبه عماد الدولة راح يقسم بأنه لا يحتفظ بأكثر من اثني عشر صندوقاً وأنه لا يعلم ما فيها. عجب عماد الدولة من أمر الخياط وأمر بإحضار الصناديق، فلما أزالوا أقفالها تبين أنها تحوي أموالاً كثيرة وأمتعة ثمينة.

وفي حسن حظوظ عماد الدولة وإقبال الدنيا عليه، روي أنه كان يوماً راكباً جواده فأحس بأرجل الجواد تغوص في الأرض، فأمر بحفر الموضع فعثروا فيه على كنز عظيم.

وبعد هذه الطرائف الغيبية فقد وقعت بين يديه خزائن ودفائن يعقوب بن ليثٍ وأخيه عمرو بن ليث، وكانا ملكين على فارس والعراق وخراسان، وكان ما فيها يفوق الحصر، مما زاد في علوّ شأنه.

وإجمالاً فإن هذه الحظوظ كانت من دواعي استمرار سلطانه، وقد حكم تسع سنوات. وفي السادس عشر من جمادى الأولى سنة ثمان وثلاثين وثلاثمئة فارق الحياة، فحل محله ابنه مؤيد الدولة، ومن بعده أخوه ركن الدولة الحسن، وأعقبه في السلطة معزّ الدولة أحمد، ومن بعده عضد الدولة فناخسرو شاه، ابن الحسن بن بويه.

وإجمالاً فقد كانوا يتداولون الحكم يداً عن يد، وكانوا خمسة عشر رجلاً من آل بويه، حتى وصل الأمر إلى يدي أبي المنصور فولادستون بن عماد الدولة، ونشب نزاع بينه وبين أبي سعيد خسرو شاه، فقتل أبو المنصور وتسلم خسرو شاه السلطة، وبه انقرضت دولتهم.

وأعقبهم في الحكم بنو سلجوق، وكان أولهم ميكائيل بن سلجوق. وامتدّ حكم السلاجقة مئة وأربعين سنة، فقد أعقب ميكائيل في الحكم طغرل بك، وكانت نهاية دولتهم على يدي طغرل بن أرسلان بن طغرل.

وانتقل السلطان إلى ملوك خوارزم، وكان تعدادهم عشرة، وامتد حكمهم مئة وثماناً وثلاثين سنة، وكان آخرهم جلال الدين، ويعود انقراض دولتهم إلى ظهور جنكيزخان ونشوب فتنة التتار، ومقتل جلال الدين.

ويقال إنه لما توجّه التتار نحو حرمه ونسائه ألقى بنفسه من فوق سور القلعة فهلك، وهذا طبقاً لما جاء في «أخبار الدول» للقرماني، «والله العالم».

خلافة عبد الكريم بن المطيع الطائع لله

في سنة ثلاث وستين وثلاثمئة خلع المطيع نفسه من الخلافة، وحل محله ابنه عبد الكريم الطائع لله، وكان إذ ذاك يبلغ الثالثة والأربعين من العمر، وفي أيامه استولى عضد الدولة الديلمي على بغداد، فخلع عليه الطائع لله خلعة السلطان، ووضع التاج على رأسه، وألبسه طوقاً، وخصص له لواءين، وهكذا استقر عضد الدولة على عرش الدولة مكان آبائه.

ولما استقر الأمر له قبض على أبي طاهر(١) وزير عزّ الدولة وأمر به فقتل

---

(١) أبو طاهر محمد بن بقية، الملقب بنصير الدولة، كان وزيراً لعزّ الدولة، وينقل ابن خلكان أنه كان يصرف كل شهر ألف مَنٍّ من الشمع، وأنه خلال عشرين يوماً خلع على الناس عشرين ألف خلعة، وحين كان وزيراً لعزّ الدولة بعث به عزّ الدولة لقتال ابن عمه عضد الدولة، وكان أيام وزارته - ولكي يسرّ عزّ الدولة - ينعت عضد الدولة بكلام يسيء إليه، كأن يعبّر عن عضد الدولة بأبي بكر العذري، ويشبهه بأبي بكر النامي الذي كان يبيع العذرة للبساتين.
وإجمالاً فلما قتل عزّ الدولة، واستولى عضد الدولة على بغداد، أمسك بأبي طاهر وألقى به تحت أرجل الفيلة حتى هلك، ثم صلبه في باب الطاق بالقرب من بيته، وبقي مصلوباً طيلة حياة عضد الدولة، فمدحه أبو الحسن الأنباري محمد بن عمر، وكان نديماً لابن بقية، ورثاه بقصيدة من واحد وعشرين بيتاً.
هذا ما ذكره ابن خلكان، وقد أوردنا في المتن عشرة أبيات منها، ولما قال أبو الحسن هذه المرثية كتبها ووزعها في شارع بغداد، فوقعت في أيدي الأدباء، وشيئاً فشيئاً انتهى خبرها إلى عضد الدولة، فلما قرأوها عليه تمنى لو أنه كان المصلوب، وأن القصيدة قيلت في رثائه هو.
ثم أمر بالبحث عن الشاعر، وبعد سنة من البحث أخفقوا في العثور عليه، وأخيراً كتب الصاحب بن عباد - الذي كان بالري - كتاب أمان له، فلما حصل أبو الحسن على الأمان أظهر نفسه وقدم إلى الصاحب، فقال له: أأنت من قال أشعار الرثاء تلك؟ قال: نعم، قال: اقرأها فكم أحب سماعها من فمك، فقرأها، ولما وصل إلى البيت: =

وصلب، ورثاه أبو الحسن الأنباري، وقيل - باتفاق علماء الفن -: إنه لم تسمع مرثية تماثلها حسناً وجودة، ومنها هذه الأبيات:

علوّ في الحياة وفي الممات ... لحقٌّ أنت إحدى المعجزات
كأنّ الناس حولك حين قاموا ... وفود نداك أيام الصلات
كأنك قائم فيهم خطيباً ... وكلّهمُ قيام للصلاة
مددت يديك نحوهم احتفالاً ... كمدّهما إليهم بالهبات
ولما ضاق بطن الأرض عن أن ... يضم علاك من بعد الممات
أصاروا الجوّ قبرك واستنابوا ... عن الأكفان ثوب السافيات
لعظمك في النفوس تبيت تُرعى ... بحفّاظ وحراس ثقات
وتُشعل عندك النيران ليلاً ... كذلك كنتَ أيام الحياة
ركبت مطيّة من قبلُ زيدٌ ... علاها في السنين الماضيات
ولم أر قبل جذعك قطّ جذعاً ... تمكّن من عناق المكرمات

وفي سنة ست وستين وثلاثمئة توفي بالري ركن الدولة الحسن بن بويه أمير عراق العجم أبو عضد الدولة، وهو الذي كان أبو الفضل بن العميد وزيراً عنده.

وفي سنة سبع وستين وثلاثمئة توفي ببغداد القاضي أبو بكر محمد بن عبد الرحمان البغدادي المعروف بابن قريعة، وكان من أفاضل عصره. كان حسن القريحة حاضر الجواب، وكان إذا سئل عن أمر مضحك غريب، أجاب دون تردد بما يطابق السؤال.

وكان مما سئل: «ما يقول القاضي وفّقه الله تعالى في يهودي زنى بنصرانيّة فولدت ولداً جسمه للبشر ووجهه للبقر»؟.

= ولم أر قبل جذعك قطّ جذعاً ... تمكّن من عناق المكرمات
نهض الصاحب فاعتنقه وقبّل فمه، ثم بعث به إلى عضد الدولة، فلما رآه قال: لم مدحت عدوّي؟ قال: كان صاحب حقّ عليّ فلم أستطع منع نفسي عن مدحه، ثم إنه أنشد بيتين في الشموع المضاءة في مجلس عضد الدولة، فعفا عنه ومنحه جواداً وبدرة من الذهب (منه ره).

فكتب جوابه بديهة:

«هذا من أعدل الشهود على الملاعين اليهود بأنهم أشربوا حبّ العجل في صدورهم حتى خرج من... وأرى أن يناط برأس اليهودي رأس العجل، ويصلب على عنق النصرانية الساق والرجل، ويسحبا على الأرض، وينادى عليهما: ظلمات بعضها فوق بعض، والسلام».

وفي سنة سبع وستين وثلاثمئة أيضاً قُتل بختيار عزّ الدولة الديلمي في معركة بينه وبين عضد الدولة ابن عمّه، وكانت ابنة عزّ الدولة شاه زنان زوجة للطائع لله. وقد أخبر أمير المؤمنين عليه السلام عن مقتل عزّ الدولة على يدي عضد الدولة ضمن أخباره الغيبية عن دولة الديالمة، حيث قال:

«والمترف ابن الأجذم يقتله ابن عمّه على دجلة».

فعبّر عن عزّ الدولة بالمترف، ونقل أنه كان صاحب لهو وشرب، وعبّر عنه بابن الأجذم لأن أباه معزّ الدولة كان مقطوع اليد، وكان يقال له الأقطع أيضاً، وقد قتله ابن عمه عضد الدولة في قصر الحصين[1] القريب من دجلة.

وفي شهر جمادى الأولى من سنة ثمان وستين وثلاثمئة توفي الشيخ الأجل الأقدم أحمد بن محمد بن سليمان بن الحسن بن الجهم بن بكير بن أعين الشيباني، المشهور بأبي غالب الزراري، وهو صاحب الرسالة المعروفة التي كتبها إلى حفيده محمد بن عبد الله، والزراري نسبة إلى «زرارة»، وأول من دعي بالزراري من آل أعين كان سليمان الذي كان الإمام الهادي عليه السلام يعبّر عنه في توقيعاته توريةً بالزراري.

وفي سنة ثمان وستين وثلاثمئة أيضاً توفي أبو الحسن محمد بن أحمد بن داود شيخ القميين في عصره وفقيههم، ودفن في مقابر قريش، ذلك أنه سافر إلى بغداد وأقام فيها، وهو صاحب كتاب «المزار» وغيره.

وفي تلك السنة أيضاً توفي الحسن بن عبد الله المعروف بالسيرافي

---

(١) قصر الحصين قصر عظيم قرب سامراء، بناه المعتصم للنزهة. نقل عن «مراصد الاطلاع» (منه ره).

النحوي، ودفن ببغداد، وسيراف من بلاد فارس على ساحل البحر في أطراف كرمان، وكان السيرافي أستاذ السيد الرضي في أيام طفولته، ومن المعروف أنه سأل السيد الرضي يوماً ـ وكان لمّا يبلغ العاشرة من العمر ـ فقال: إذا قيل: رأيت عمر، فما علامة نصبه؟ قال الرضي: بغض علي بن أبي طالب! فتعجب السيرافي والحاضرون من سرعة انتقاله وحدّة ذهنه، وفرح أبوه بذلك وقال: أنت ابني حقاً.

وفي تلك السنة، أو في سنة تسع وستين وثلاثمئة توفي الشيخ الأجلّ أبو القاسم جعفر بن محمد بن قولويه القمي، وهذا الشيخ الجليل هو خال أمّ محمد بن أحمد بن علي بن الحسن بن شاذان القمي، صاحب «مئة منقبة عامية في حق أمير المؤمنين»، وكان ابن قولويه أيضاً أستاذاً للشيخ المفيد، وصاحب كتاب «كامل الزيارة» وغيره، يقع قبره الشريف بجانب قبر الشيخ المفيد (ره) في البقعة الكاظمية المنورة في الطريق الدنيا.

وأما ابن قولويه المدفون بقم قرب بقعة علي بن بابويه القمي (ره) فهو محمد أبوه، وليس أبا لقاسم كما اشتبه الأمر لدى البعض.

وفي سنة سبعين وثلاثمئة توفي بحلب الحسين بن أحمد المعروف بابن خالويه، وكان آل حمدان يكرمونه ويجلّونه، ويستفيدون منه العلوم، ومؤلفاته كثيرة، منها «كتاب الآل» وذكرت فيه مواليد ووفيات الأئمة الاثني عشر عليهم السلام.

ومن مؤلفاته أيضاً «كتاب الجمل» و «كتاب ليس» ومبناه على: «ليس في كلام العرب كذا، وليس كذا».

وفي السنة نفسها توفي بهراة محمد بن أحمد بن الأزهر المعروف بالأزهري الهروي اللغوي صاحب «الغريبين» و «تهذيب اللغة» وغيرهما، وكان الأزهري أسير القرامطة لمدة سنة، وكان آسروه من عرب البادية، فاستفاد من لهجتهم كلماتٍ، وجاء في «التهذيب»: «كذا نقل عنه».

وفي سنة اثنتين وسبعين وثلاثمئة توفي فناخسرو عضد الدولة الديلمي

وحل محله ابنه صمصام الدولة، وكانت وفاته ببغداد، لكنهم حملوا جنازته إلى النجف الأشرف ودفنوه هناك[1]. وفاق استيلاء عضد الدولة على الممالك ملوك بني بويه جميعهم، وكان يقال له: ملك الملوك، وكان يدعى باسمه عقب اسم الخليفة على منابر بغداد، ويعدّه المير السيد الشريف من مروّجي دين الإسلام في رأس المئة الرابعة، وقد بنى المشفى العضدي ببغداد، وبنى مشهد أمير المؤمنين عليه السلام[2] وجدّد بناءه، وصرف على ذلك مالاً كثيراً. وكان عضد الدولة في الفضل والكمال وحيد عصره، أحب الفضلاء وصحبهم.

قال ابن خلكان: كتب عضد الدولة إلى أبي منصور أفتكين التركي مولى معز الدولة بن بويه والي دمشق في جواب رقعته: «غرّك عزّك، فصار قصار ذلك ذلك، فاخش فاحش فعلك، فعلّك بهذا تهدأ».

أقول: هذه العبارة تنسب إلى أمير المؤمنين عليه السلام، ومعروف أنه كتبها إلى معاوية رداً على رسالة كتب فيها: «على قذري غلى قدري»، فإن كان الواقع كذلك فإنّ عضد الدولة أخذ من مشرع الفصاحة ذاك.

وفي سنة ست وسبعين وثلاثمئة قصد شرف الدولة ابن عضد الدولة أخاه صمصام الدولة فحاربه وتغلب عليه، ثم أعماه وجلس مكانه.

---

(١) قيل إن عضد الدولة دفن في جوار الروضة المباركة لأمير المؤمنين عليه السلام، وكتب على لوح قبره: «هذا قبر عضد الدولة وتاج الملة أبي شجاع ابن ركن الدولة، أحب مجاورة هذا الإمام المعصوم لطمعه في الخلاص يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها، وصلواته على محمد وعترته الطاهرة» (منه ره).

(٢) قال في «عمدة الطالب»: ثم إن هارون أمر فبنى عليه، أي على قبر أمير المؤمنين عليه السلام قبة، وأخذ الناس في زيارته ودفن موتاهم حوله، إلى أن كان زمن عضد الدولة فناخسرو بن بويه الديلمي، فعمره عمارة عظيمة، وأخرج على ذلك أموالاً جزيلة، وعيّن له أوقافاً، ولم تزل عمارته باقية إلى سنة ثلاث وخمسين وسبعمئة، وكان قد ستر الحيطان بخشب الساج المنقوش، فاحترقت تلك العمارة، وجددت عمارة المشهد على ما هي عليه الآن، وقد بقي من عمارة عضد الدولة قليل، وقبور آل بويه هناك ظاهرة مشهورة لم تحترق (منه ره).

وفي سنة سبع وسبعين وثلاثمئة توفي ببغداد الحسن بن أحمد المعروف بأبي علي الفارسي الفسوني النحوي المشهور، ودفن في مقابر قريش.

و«وكان أبو علي إمام وقته في النحو، وصحب عضد الدولة الديلمي وعلت منزلته عنده، حتى قال له: أنا غلام أبي علي الفسوني في النحو، وصنف له أبو علي «التكملة» في النحو، وقصته فيه مشهورة، وكذا قصة مسايرته مع عضد الدولة في ميدان شيراز، وسؤال الملك له عن نصب المستثنى وجوابه بجواب ميداني، وحكي أنه لما خرج عضد الدولة لقتال ابن عمه دخل عليه أبو علي فقال له: ما رأيك في صحبتنا فقال له: أنا من رجال الدعاء لا من رجال اللقاء، فخار الله للملك في عزيمته، وأنجح قصده في نهضته، وجعل العافية زاده، والظفر تجاهه، والملائكة أنصاره، ثم أنشد:

ودّعته حيث لا تودّعه نفسٌ ولكن تسير معه
ثمّ تولّى وفي الفؤاد له ضيق محل وفي الدموع سعة

فقال له عضد الدولة: بارك الله فيك، فإني واثق بطاعتك، وأتيقّن صفاء طويّتك».

وفي سنة تسع وسبعين وثلاثمئة ودع شرف الدولة الدنيا، وحل محله أخوه أبو النصر، فألبسه الخليفة خلعة، ولقّبه بـ «بهاء الدولة وضياء الملّة».

ولما قوي أمر بهاء الدولة أمر بالخليفة فأنزل عن العرش، وخلع من الخلافة، ثم أغار على دار الخلافة. وقد جرت هذه الواقعة في شهر شعبان من سنة إحدى وثمانين وثلاثمئة.

بقي الطائع لله مخلوعاً ومعتقلاً حتى توفي ليلة عيد الفطر من سنة ثلاث وتسعين وثلاثمئة.

خلافة أبي العباس أحمد القادر بالله

في الليلة التي خلعوا فيها الطائع من الخلافة حلّ محلّه ابن أخيه أبو العباس، أحمد بن إسحاق المقتدر، الملقب بالقادر بالله، وكان قد بلغ في ذلك اليوم الرابعة والأربعين من عمره، ولم يكن له من الخلافة سوى الاسم، وكان مغلوباً على أمره، إلى أن توفي في شهر ذي القعدة من سنة اثنتين وعشرين وأربعمئة.

وله كتاب في السنّة وذم المعتزلة والرافضة، وفي أوائل أيام خلافته سنة إحدى وثمانين وثلاثمئة توفي الشيخ الأجل العالي المقام رئيس المحدثين أبو جعفر محمد بن علي بن بابويه القمي (ره)، ودفن بالقرب من مقام عبد العظيم بالري، وله بقعة عالية فعلاً في قلب بستانٍ نضير.

وفي هذه الأعصار المتأخرة، في حدود سنة ثمان وثلاثين ومئتين وألف حدث شقّ في قبره الشريف، ووجد كثير من العلماء وأصحاب البصيرة وغيرهم جسده اللطيف غضّاً، وليس هذا الأمر مجرد شهرة بل هو موصول بالصحة.

وكان رحمه الله شيخ الطائفة وفقيههم ووجههم بخراسان، ورد بغداد سنة خمس وخمسين وثلاثمئة، وسمع منه شيوخ الطائفة وهو حديث السن، وكان (ره) جليلاً حافظاً للأحاديث، بصيراً بالرجال، ناقداً للأخبار، له نحو من ثلاثمئة مصنّف، لم ير في القميين مثله في حفظه وكثرة علمه، وهو المعبّر عنه بالصدوق، والمولود بدعوة مولانا صاحب الأمر عجل الله فرجه، ومحامده أكثر من أن تحصى وتحصر:

وإنّ قميصاً خيط من نسج تسعة وعشرين حرفاً عن معاليه قاصر

وفي سنة ثلاث وثمانين وثلاثمئة توفي الفاضل الأديب الشاعر المتبحّر اللبيب محمد بن العباس أبو بكر الخوارزمي في نيسابور، «وكان معروفاً بكثرة حفظ اللغة والأشعار، وله مع سيف الدولة والصاحب بن عباد وغيرهما من عظماء أهل زمانه نوادر كثيرة».

وفي سنة أربع وثمانين وثلاثمئة توفي علي بن عيسى المعروف بالرماني النحوي، والمعروف عند أهل سرّ من رأى.

وفي السنة نفسها توفي ببغداد محسن بن علي بن محمد بن أبي الفهم، القاضي التنوخي صاحب كتاب «الفرج بعد الشدة» (ومحسن كمعلم على ضبط ابن خلكان).

وفي الرابع والعشرين من شهر صفر سنة خمس وثمانين وثلاثمئة توفي كافي الكفاة إسماعيل بن عباد الطالقاني.

لقّب بالكافي لأنه كفى السلطان فخر الدولة مهمّات ملكه إذ كان وزيره، وله حق كثير على المسلمين، ولأجله ألّف الشيخ الفاضل حسن بن محمد القمي كتاب «تاريخ قم» وذكر في أوله نبذاً من فضائله. وألّف أيضاً شيخنا الصدوق (ره) كتاب «عيون الأخيار» لأجله، وصدّر الكتاب بذكر قصيدتين له في إهداء السلام إلى مولانا الرضا عليه السلام.

وقال السيد الجليل السيد نعمة الله الموسوي الجزائري (ره) في «لوامع الأنوار في شرح عيون الأخبار» وهو شرح مشكلات الكتاب، ألفه بعد فراغه من تأليف «شرح التوحيد»، وبالجملة قال في وصف الصاحب بن عباد: وله من المفاخر في العلم والجود والكتابة وسياسة الملك ما اعترف الثعالبي وغيره بالعجز عن توصيفه، وهو أستاذ الشيخ عبد القاهر، وحكى صاحب «روضة الصفا» أنه كان يحمل من الكتب في سفره وِقْر أربعمئة جمل، جاءته الوزارة بالإرث والاستحقاق، كما قال أبو سعيد الرستمي في حقه:

ورث الوزارة كابراً عن كابر موصولة الأسناد بالأسناد

يــروي عــن الــعــبّــاس عــبّــاد وزا رتــه وإســمــاعــيــل عــن عــبــاد

وكان في التشيّع وحبّ أهل البيت عليهم السلام أو حديّ الزمان، حتى أن أهل أصفهان كانوا ينسبون مذهب التشيّع إليه[1]، فيقولون: فلان على دين ابن عباد، وكانت وفاته بالري ليلة الجمعة من ليالي شهر صفر سنة خمس وثمانين وثلاثمئة، وحمل إلى أصفهان ودفن فيها، وله مصنفات كثيرة منها كتاب «المحيط» في اللغة، سبعة مجلدات، ومن شعره: «أبا حسن لو كان حبّك مدخلي.. الخ.

قلت: وقد مضى أنه لقّب بالصاحب بن عباد لمصاحبته للأستاذ ابن العميد، وحكي أنه كان أولاً وزير مؤيد الدولة الديلمي، فلما توفي مؤيد الدولة في سنة ثلاث وسبعين وثلاثمئة، واستولى أخوه فخر الدولة على

---

(١) روي أنه في أيام حكومة الصاحب بن عباد بأصفهان، وترويج مذهبه بين أهلها، رأى شخص أصفهاني ذات يوم رجلاً يباشر سيدة بيته، فتناول السوط وانهال به على المرأة، ولما كانت المرأة سنّية المذهب فلا عجب أن قالت في أثناء جلدها؛ إنه القضاء والقدر!! وتعني أن الزنى ليس ذنبها بل هو بقضاء من الله وقدره.
ثم إن الشيخ راح يعاتبها ويقول: يا عدوّة الله، تزنين وتعتذرين بهذا العذر الباطل؟! فلما سمعت المرأة هذا الكلام راحت ـ من شدة ألمها ـ تسبّ الدين وتقول: إذاً فقد تركت السنّة أخيراً ودخلت في مذهب ابن عباد!! فتنبه الشيخ ورمى بالسوط من يده، وراح يعتذر ويقول: لأنت سنّيّة حقّاً!! قال القاضي نور الله: لا يخفى أن مشركي قريش كانوا جبريّين بمجملهم، لكن القرآن الكريم قضى على هذا المذهب.
كما اشتهر أن «العدل والتوحيد علويّان، والجبر والتشبيه أمويّان»، ومعاوية ويزيد عليهما ما يستحقانه، وقد أحيى يزيد ذلك في عهده، وتبعهم أهل زمانهم، وغرضهم الأساسي أن يقولوا: إن شقاء الأشقياء جميعاً بإرادة الله تعالى، وذلك أنهم لما رأوا بعض الصحابة والتابعين وقد ظلموا أهل بيت المصطفى، وسلبوهم حقوقهم جوراً وطغياناً، وأفتوا بهدر دماء أهل البيت، وجرأوا العامة على الاستخفاف بهم، ورأوا أن العقلاء يلومونهم على هذه الفعال، ولكي يدفعوا الملامة عنهم، قاموا بترويج هذا المذهب الذي يقول: إن الفعل بمجمله فعل الله لا فعل العبد، وقد شاء ذلك، وجاء التقدير على ما شاء، كي يكفّ الناس عن لعنهم، وأقوى شبهة وقعوا فيها هي أنهم رأوا في عبارات الشارع أن الله تعالى هو خالق الخير والشر، ولم يعلموا أن المراد من الشر ليس فعل القبيح، بل هو الشيء الذي يشتمل ـ بحسب الظاهر ـ على المضرّة، مثل السباع والحشرات، ومثل القحط والوباء، حيث تقتضي حكمته (منه ره).

مملكته، أقر الصاحب على وزارته، وكان مبجّلاً عنده ومعظّماً نافذ الأمر، وأنشده أبو القاسم الزعفراني:

أيا من عطاياه تهدي الغنى ... إلى راحتي من نأى أو دنا
كسوت المقيمين والزائرين كسـ ... ـاً لم تخلْ مثلها ممكنا
وحاشية الدار يمشون في ... صنوفٍ من الخز إلا أنا

فقال الصاحب: قرأت في أخبار معن بن زائدة الشيباني أن رجلاً قال له: احملني أيها الأمير، فأمر له بناقة وفرس وبغل وحمار وجارية، ثم قال: لو علمت أن الله تعالى خلق مركوباً غير هذا لحملتك عليه، وقد أمرنا لك من الخزّ بجبّة وقميص وعمامة ودرّاعة وسراويل ومنديل ومطرف ورداء وكساء وجورب كيساً، ولو علمنا لباساً آخر يتخذ من الخزّ لأعطيناكه.

واجتمع عنده من الشعراء ما لم يجتمع عند غيره، ومدحوه بغرر المدائح.

وحكي أنه أمر فخر الدولة بحفر بئر، وأمر الصاحب أحد الكتّاب أن ينشىء بذلك كتاباً، ولمّا كان الصاحب لا يفصح عن حرف الراء ويلثغ به، وله سوء مزاج مع ذلك الكاتب، عمد الكاتب إلى كتاب لم تخل كلمة من كلماته عن الراء، وهو هذا:

أمر أمير الأمراء عمره الله، أن يحفر بئر في طريق المارّة ليشرب منها الصادر والوارد، وحرّر ذلك في رابع شهر رمضان المبارك، بورك فيه إلى يوم الحشر.

فقرأه الصاحب بعبارة لم يوجد فيها راء أصلاً، وهي هذه:

حكم أعدل الحكام طوّل الله مدّة حياته أن يعمل قليب في سبيل المسلمين لينتفع به الغادي (والرائح - كذا) وكتب ذلك في أوائل أيام الصيام الميمون، لا زال ميموناً إلى يوم القيامة.

وإجمالاً فنوادر آثار الصاحب بن عباد كثيرة، وينقل عن كامل البهائي أن للصاحب عشرة آلاف بيت في مناقب أهل البيت والتبرّي من أعاديهم.

قال صاحب «الروضات»: إن قبر الصاحب في أصفهان في محلّة معروفة

بـ «باب الطوقجي» في ميدان قديم، وله قبّة، ولما انهدم في أيامنا أمر الشيخ العلامة الحاج محمد إبراهيم الكرباسي بتجديد عمارته، وكان يواظب على زيارته. ومن الأمور المجربة عند العامة أن كل شخص يزور قبره لا ينقضي أسبوع واحد حتى يكون من نصيبه خير عاجل.

ومراده بالحاج محمد إبراهيم الكرباسي: علاّمة عصره وفريد دهره الحاج الملاّ محمد إبراهيم بن الحاج محمد حسن الخراساني الكاخي[1]، الساكن بأصفهان، صاحب كتاب «إشارات الأصول» و «النخبة الفارسية». . وسبب تلقّب أبيه الماجد بالكرباسي هو أنه كان قد استوطن محلة «حوض كرباس» من هراة لفترة، وتدعى تلك المحلة بحوض كرباس بسبب أن امرأة شيعية عملت بيديها حوضاً ووقفته على الشيعة. وبالقرب من قبر الصاحب بن عباد يقوم قبر علي بن سهل الصوفي الأصفهاني معاصر الجنيد.

وفي سنة خمس وثمانين وثلاثمئة أيضاً توفي ببغداد علي بن عمر المعروف بالدارقطني، الحافظ المعروف، ونظراً لأنه كان يحفظ ديوان السيد الحميري فقد نسبوه إلى التشيع، و «دارَ قطن» بفتح الراء اسم محلة ببغداد.

وفي السنة نفسها توفي محمد بن عبد الله المعروف بابن سكرة البغدادي الشاعر، وهو من أحفاد المهدي بن أبي جعفر المنصور العباسي، وكان معاصراً لابن الحجاج الشاعر الشيعي، وقد هجاه ابن الحجاج بشعره.

وفي السادس من جمادى الآخرة من سنة ست وثمانين وثلاثمئة توفي ببغداد محمد بن علي الواعظ المعروف بأبي طالب المكي صاحب «قوت القلوب».

وفي سنة سبع وثمانين وثلاثمئة توفي الحسن بن إبراهيم البصري، المعروف بابن زولاق الفاضل المؤرخ.

---

(١) كاخ: إحدى حدود خراسان، والظاهر أنها كاخك بالكاف (منه ره).

وفي السنة نفسها جرى فتح «بست» وابتداء دولة الغزنويين، وكان ذلك بسبب أن نوح بن المنصور الساماني لمّا تسلّم الملك بعد أبيه تمرد عليه أمراء خراسان، فكتب إلى الأمير سبكتكين، وكان صاحب شرطة «غزنة» أن يكفيه شرّهم. وفي سنة أربع وثمانين وثلاثمئة أسند الأمير نوح إمارة بعض خراسان إلى سبكتكين، وبعضها إلى ابنه، وفي يوم الجمعة الثالث من شهر رجب سنة سبع وثمانين وثلاثمئة توفي الأمير نوح.

وبعد وفاته تسلّم المنصور بن نوح الإمارة، وفي سنة تسع وثمانين وثلاثمئة توفي المنصور، وانقرضت دولة السامانيين، بعد أن امتدّ حكمهم مئة سنة واثنتين وستة شهور، وكان ملكهم يمتد من حدود ديار بكر الترك حتى حدود الهند وفارس والعراق، ودار ملكهم كانت «بخارى».

وسامان من نسل بهرام جوبين من أيام ما قبل الإسلام، وكان أبو سامان راعياً للإبل، وكان لسامان بعض الاعتبار لدى الخليفة المعتمد، وكان المعتمد قد أعطى ما وراء النهر بمجمله إلى ولده المنصور. وهذا نقلاً عن بعض التواريخ، والله العالم.

وفي سنة ثمان وثمانين وثلاثمئة توفي في «بست» حمد بن محمد الخطابي البستي، وينتهي نسب حمد إلى زيد أخي عمر بن الخطاب، والخطابي في الأدب والعلم والزهد كان شبيهاً بأبي عبيد القاسم بن سلام، وله تصنيفات بديعة منها: «غريب الحديث» و «معالم السنن» في شرح سنن أبي داود.

وفي سنة إحدى وتسعين وثلاثمئة توفي الحسين بن أحمد المعروف بابن الحجاج الشاعر الإمامي ومادح أهل البيت، ودفن إلى ما دون قدمي الإمام موسى بن جعفر عليه السلام كما أوصى، وقد أوصى أيضاً بأن يكتب على لوح قبره: ﴿وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِۚ﴾.

وقد رثاه جماعة كالسيد الرضي وغيره، وكان معدوداً في درجة امرىء القيس، ومن قصائده القصيدة المعروفة: «يا صاحب القبة البيضا على

النجف». وله في صدد هذه القصيدة قصة لطيفة لا مجال لذكرها. جزاه الله خير الجزاء.

وفي سنة إحدى وتسعين وثلاثمئة أيضاً قتل حسام الدولة مقلد بن المسيب أول حكّام بني عقيل، وكان حاكماً على الموصل والشام وحلب والأنبار، وكان مقتله على يدي أحد مواليه.

وجاء نقلاً عن «تاريخ مصر» أن حسام الدولة كان من الشعراء المجيدين، وكان فاحش الرفض، حتى نقل عنه أنه أوصى أحد الحجاج بأن يسلّم له على النبي صلى الله عليه وآله وسلم حال وصوله إلى المدينة، وأن يقول له: لولا أن الشيخين مدفونان إلى جواركم لكنت - على الرأس والعين - قدمت لزيارتكم.

لكن العلاّمة الحلّي في الإجازة الكبيرة التي أعطاها لبني زهرة روى أن مقلد بن المسيب بعث برسالة وقحة فيها كفر إلى قبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وقد قام المبلّغ بتبليغها، لكنه رأى في نومه رسول الله وأمير المؤمنين عليهما صلوات الرحمان، وقد قام أمير المؤمنين بقتله، فدوّن تاريخ هذا المنام. ولما رجع من الحجاز علم أن مقلد بن المسيب قتل في نفس الليلة.

وإجمالاً فمن أحفاده شرف الدولة بن قريش، وكان ملكاً كريماً فاضلاً حليماً، ويقال إن ابن حيوس الشاعر مدحه بقصيدة من أبياتها:

أنت الذي نفق الثناء بسوقه   وجرى الندى بعروقه قبل الدم

عندما سمع شرف الدولة هذا الشعر نهض واقفاً وأمر لابن حيوس ببساط وقال له: اجلس وأكمل قصيدتك، وبعد أن أتمّها أمر بإقطاعه الموصل وانتفاعه بمردودها.

وقيل إن شخصاً سأله حاجة وقال له: «أيها الأمير لا تنس حاجتي»، فقال: «إذا قضيتها نسيتها».

وفي سنة اثنتين وتسعين وثلاثمئة توفي ببغداد أبو الفتح عثمان المعروف بابن جني الموصلي النحوي صاحب «اللمع» وغيره.

وفي سنة ثمان وتسعين وثلاثمئة توفي بهراة بديع الزمان الهمداني أحمد بن الحسين الفاضل الشاعر الإمامي، وهو المبدع للمقامات.

حكي أنه مات بالسكتة وعجّل دفنه، فأفاق في قبره، وسمع صوته بالليل، فنبشوا قبره فوجدوه قد قبض على لحيته ومات من هول القبر. وللبديع الرسائل البديعة، والنظم المليح، فمن رسائله:

«الماء إذا طال مكثه ظهر خبثه، وإذا سكن متنه تحرك نتنه، وكذلك الضيف يسمج لقاؤه إذا طال ثواؤه، ويثقل ظله إذا انتهى محله، والسلام».

ونقل أنه كان من غاية مهارته بالكتابة والإنشاء يبدأ بآخر الكتاب والأرقام، ويكتب إلى أن ينتهي بأوله، بعكس الجمهور، وناهيك به فضلاً وكمالاً.

وجاء في «الدر المسلوك»: في سنة ثمان وتسعين وثلاثمئة توفي أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري صاحب «الصحاح» بنيسابور، اعتراه وسوسة فصعد إلى سطح الجامع القديم وقال: أيها الناس، إني عملت في الدنيا شيئاً ثم انقلب عليّ، فسأعمل للآخرة أمراً لم أُسبق إليه، وضمّ إلى جنبيه مصراعي باب وشدّهما بخيط، وصعد مكاناً عالياً، وزعم أنه يطير، فوقع فمات.

وفي سنة أربعمئة توفي في بخارى أبو الفتح البستي علي بن محمد الكاتب والشاعر المعروف، «وهو المشهور بجودة الشعر والكلمات الرشيقة، والألفاظ البديعة».

فمنها: «من أصلح فاسده أرغم حاسده»، «من أطاع غضبه أضاع أدبه»، «من سعادة جدّك وقوفك عند حدّك».

ومن شعر البستي:

إذا تُحدّثُ في قوم لتؤنسهم ... بما تُحدث من ماض ومن آت

فلا تعد لحديث إن طبعهم موكّل بمعاداة المُعادات

وله قصيدة طويلة مشتملة على مواعظ وحكم أوردها بتمامها كمال الدين الدميري في «لغة الثعبان من حياة الحيوان» مطلعها:

زيادة المرء في دنياه نقصان وربحه غير محض الخير خسران

ولأبي الفتح البستي أيضاً كما في «السلافة»:

وإني غريب بين بست وأهلها وإن كان فيها جيرتي وبها أهلي
وما غربة الإنسان في شقة النوى ولكنها والله في عدم الشكل

وفي سنة إحدى وأربعمئة توفي أحمد بن محمد بن عياش صاحب «مقتضب الأثر في عدد الأئمة الاثني عشر». كان جدّ ابن عيّاش جدّه وأبوه من وجوه أهل بغداد، وكان هو من مشايخ أهل الحديث، إلا أنه اختلّ في آخر عمره، وهو شيخ رواية أبي القاسم علي بن محمد بن علي الخزاز القمي صاحب «كفاية الأثر في النصوص».

وفي سنة ثلاث وأربعمئة توفي ببغداد محمد بن الطيّب المعروف بالقاضي أبي بكر الباقلاّني البصري، ناصر طريقة أبي الحسن الأشعري، والباقلاّني نسبة إلى الباقلاّء وبيعها، «وكان الباقلاّني معروفاً بالمناظرة».

وفي سنة ثلاث وأربعمئة أيضاً قتل سلطان استرآباد وتوابعها الأمير ابن الأمير قابوس بن وشمكير الملقب بشمس المعالي، وكان قابوس معروفاً بالفصاحة والبلاغة، وكان خطه خط النسخ يكتبه على أوراق جيدة، وكان الصاحب بن عباد كلما وقع نظره على خطه قال: «هذا خط قابوس أم جناح طاووس» وكان سفّاكاً، الأمر الذي دعا جيشه إلى الخروج عليه وسجنه حتى سنة ثلاث وأربعمئة حيث قتل في محبسه.

وفي سنة أربع وأربعمئة توفي بهاء الدولة بن عضد الدولة الديلمي، وحل محله ابنه سلطان الدولة.

وكان بهاء الدولة ملكاً على العراق والأهواز منذ سنة تسع وسبعين

وثلاثمئة، وقد «استوزر سابور بن أردشير، فأنشأ هذا الوزير في كرج بغداد خزانة كتب وقفها على إفادة الناس. قال ياقوت: لم يكن في الدنيا أحسن كتباً منها، كانت كلها بخطوط الأئمة المعتبرة، وأصولهم المحررة».

وفي سنة خمس وأربعمئة توفي محمد بن عبد الله النيشابوري المعروف بالحاكم، صاحب «المستدرك على الصحيحين» وغيره.

وفي السادس من المحرم سنة ست وأربعمئة توفي السيد الأجلّ الشريف، والعنصر اللطيف، محمد بن الحسين المعروف بالسيد الرضي ذي الحسبين، نقيب العلويين، وشريف أشراف بغداد.

وهذا السيد الكبير هو أخو السيد المرتضى، وكان معروفاً بعظمة الشأن، وعلوّ الهمّة، وفصاحة اللسان. كانت وفاته قبل أخيه السيد المرتضى، وشهد تشييعه فخر الملك الوزير وجميع الأعيان والأشراف والقضاة، ولم يستطع السيد المرتضى لشدة جزعه وغصّته أن ينظر إلى جنازة أخيه، فلا غرو أنه لم يشهد تشييعه ودفنه، بل قصد الحرم المطهر لموسى بن جعفر عليه السلام، وصلى فخر الملك على جنازة السيد الرضي، ودفنوه في بيته، وفي آخر النهار قام فخر الملك بإرجاع السيد المرتضى من الحرم إلى بيته.

وبعد فترة حُمل جثمان السيد الرضي إلى كربلاء حيث دفن عند قبر والده إلى جوار الإمام الحسين عليه السلام.

وللسيد الرضي تصنيفات كثيرة منها: «مجازات القرآن والمجازات النبوية» وكتاب «معاني القرآن»، ومن مجموعاته «نهج البلاغة»، وله أشعار كثيرة، وقد عمد جماعة من الأفاضل إلى أشعاره فجمعوها ودوّنوها، وأولوها عناية فائقة، وكانوا يقولون: هو أشعر قريش.

وفي سنة ست وأربعمئة أيضاً توفي ببغداد أبو حامد أحمد بن محمد الشافعي الإسفراييني، وقيل: كان يحضر درسه سبعمئة متفقّه، وروي أنه قابله بعض الفقهاء في مجلس المناظرة بما لا يليق، ثم أتاه في الليل معتذراً إليه، فأنشده:

جفاءٌ جرى جهراً لدى الناس وانبسط وعـذرٌ أتـى سـرّاً فـأكّـد مـا فـرط
ومـن ظـنّ أن يـمـحـو جـلـيَّ جـفـائـه خـفـيُّ اعـتـذارٍ فـهـو فـي أعـظـم الـغـلـط

وفي الثامن والعشرين من ربيع الأول سنة سبع وأربعمئة قتل أبو غالب محمد بن علي الواسطي، الملقب بفخر الملك وزير بهاء الدولة بن عضد الدولة، وقيل: لم يحظ آل بويه ـ بعد ابن العميد والصاحب بن عباد ـ بوزير بعظمة فخر الملك، ونوادر حكاياته كثيرة.

«قيل إن رجلاً شيخاً رفع إلى فخر الملك المذكور قصة سعي بهلاك شخص، فلما وقف فخر الملك عليها قلبها وكتب في ظهرها:

«السعاية قبيحة وإن كانت صحيحة، فإن كنت أجريتها مجرى النصح فخسرانك فيها أكثر من الربح، ومعاذ الله أن نقبل من مهتوك في مستور، ولولا أنك في خفارة من شيبك لقابلناك بما يشبه مقالك، ونردع به أمثالك، فاكتم هذا العيب، واتّق ممَّن يعلم الغيب».

ونقل القاضي نور الله (ره) في «المجالس» أن فخر الملك كان في غاية الكرم، جواداً باذلاً حسن العطاء، كثير الصلات والصدقات، حتى أنه كان يكسو ألف فقير في اليوم، وهو أول من وزع الحلوى على الفقراء ليلة النصف من شعبان، وكان يميل إلى التشيع.

وفي سنة سبع وأربعمئة قتله سلطان الدولة[١] بالأهواز، وقيل نقلاً عن ابن كثير الشامي أنه كان وزيراً لسلطان الدولة، وأنه هو من بنى سور الحائر الشريف في مشهد الإمام الحسين عليه السلام، انتهى.

ونقل عن كتاب «أنس الجليل» أنه في سنة سبع وأربعمئة، في شهر ربيع الأول وقعت النار في مشهد الحسين عليه السلام من جهة بعض القناديل المتبركة، وجاء الخبر بأنه حدث في الركن اليماني من المسجد الحرام أيضاً

---

(١) سلطان الدولة: هو ابن بهاء الدولة بن عضد الدولة الديلمي.

انكسار، وسقط الجدار المقابل لقبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وانهدمت القبة الكبيرة التي هي على صخرة بيت المقدس، وهذه من أعجب الاتفاقات.

وفي سنة عشر وأربعمئة توفي أحمد بن موسى المعروف بابن مردويه الأصبهاني، العالم السنّي المعروف.

وفي النصف من شهر صفر سنة إحدى عشرة وأربعمئة توفي الشيخ الحسين بن عبيد الله بن إبراهيم بن الغضائري، وجه الشيعة، وشيخ مشايخهم، صاحب «الرجال».

وقال كثيرون: إن ابن الغضائري مطلق صاحب رجال أحمد: هو النجل الجليل للحسين بن عبيد الله، وقد بسط صاحب «روضات الجنات» الكلام في هذا المقام، فعلى الراغبين الرجوع إليه هناك.

وفي سنة إحدى عشرة وأربعمئة أيضاً توفي الفردوسي صاحب «الشاهنامة»، ودفن بطوس.

وفي سنة ثلاث عشرة وأربعمئة في ليلة الجمعة الثالثة من شهر رمضان توفي الشيخ الأجلّ السعيد أبو عبد الله محمد بن محمد بن النعمان، الملقب بالمفيد، والمعروف بابن المعلم.

وهذا الشيخ الكبير معروف بفضائله ومناقبه الكثيرة، وقد اعترف العامّة والخاصّة بفضله، واغترفوا من بحر علمه، ألّف ما يقرب من مئتي كتاب، وقال ابن حجر العسقلاني: إن للشيخ المفيد منّة على كل إمامي. وقال الخطيب: لقد أراح الله أهل السنّة بموته! وقيل: اجتمع في تشييعه ثمانون ألفاً من الشيعة.

وكان مولده يوم الحادي عشر من ذي القعدة سنة ست وثلاثين وثلاثمئة، وصلى عليه سيدنا المرتضى بميدان الأشنان، وضاق على الناس مع كبره، ودفن في داره طوال سنين، ثم نقل إلى مقابر قريش، ودفن بالقرب من جانب رجلي سيدنا وإمامنا أبي جعفر الجواد عليه السلام، إلى جانب قبر شيخه الأجلّ أبي

القاسم جعفر بن محمد بن قولويه القمي، وكان يوم وفاته يوماً مشهوراً لم يُر أعظم منه من كثرة الناس للصلاة عليه، وكثرة البكاء من المخالف له ومن المؤالف، ومدائح ذلك الشيخ الأجلّ أكثر من أن تكتب، وكفى في فضله التوقيعات المعروفة الصادرة عن إمامنا الغائب عجل الله فرجه، وعنوان بعضها:

للأخ «السديد والمولى الرشيد الشيخ المفيد أبي عبد الله محمد بن محمد بن النعمان أدام الله إعزازه».

وعنوان بعضها:

«من عبد الله المرابط في سبيله إلى ملهم الحق ودليله: بسم الله الرحمان الرحيم، سلام الله عليك أيها العبد الصالح، الناصر للحق، الداعي إليه بكلمة الصدق...» الخ.

وحكي أنه وجد مكتوباً على قبره بخطّ القائم عليه السلام:

لا صوّت الناعي بفقدك إنه   يوم على آل الرسول عظيم
إن كنت قد غُيِّبت في جدث الثرى   فالعدل والتوحيد فيك مقيم
والقائم المهدي يفرح كلما   تُليت عليك من الدروس علوم

وله مناظرات لطيفة، وحكايات مع القوم جيدة طريفة، منها مناظراته مع الثاني في آية الغار في عالم الرؤيا التي أوردها تلميذه الشيخ أبو الفتح الكراجكي في «كنز الفوائد»، ومنها مناظرته مع الرماني، وأوردها ابن إدريس في آخر «مستطرفات السرائر»، إلى غير ذلك:

وفي سنة أربع عشرة وأربعمئة توفي القاضي عبد الجبار المعتزلي صاحب «المغني».

وفي سنة ست عشرة وأربعمئة قتل أبو الحسن التهامي علي بن محمد الشاعر، والتهامي بكسر التاء: نسبة إلى تهامة، التي تطلق على مكة، ولهذا السبب كان يقال لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «التهامي».

وفي سنة ست عشرة وأربعمئة أيضاً توفي سلطان الدولة الديلمي.

وفي السادس عشر من شهر رمضان سنة ثماني عشرة وأربعمئة توفي أبو

القاسم الحسين بن علي الوزير المغربي، وكان رجلاً فاضلاً وعاقلاً وشاعراً وشجاعاً، قليل النظير في فن الوزارة، وله مصنفات كثيرة منها: كتاب «الخصائص» في علم القرآن، وأمّه فاطمة بنت أبي عبد الله محمد بن إبراهيم بن جعفر النعمان صاحب كتاب «الغيبة».

وفي سنة عشرين وأربعمئة توفي ببغداد علي بن عيسى المعروف بالربعي النحوي، والربعي بالتحريك: نسبة إلى ربيعة.

وفي سنة إحدى وعشرين وأربعمئة، في شهر ربيع الآخر، أو بعد ذلك بسنة توفي بغزنة السلطان محمود بن سبكتكين الغزنوي، وكان للسلطان محمود حظ عظيم من الملك، تسلّط على الكثير من البلاد حتى أنه فتح قسماً من بلاد الهند، وهزم «بت» المعروف بـ «سومنات»، وقصة سومنات طويلة. وبصعود السلطان محمود انقرضت الدولة السامانية، وكانت في بلاد ما وراء النهر وخراسان. وقد امتدّ حكمهم مئةً وستّ سنوات وستة شهور وعشرة أيام.

كان أبو السلطان محمود سبكتكين من الأمراء، وكان أبو الفتح البستي كاتبه، ولما توفي السلطان محمود حلّ محلّه ابنه محمد، لكنه انصرف عن تدبير شؤون مملكته بانهماكه في الملذات، فعزله الرعية ثم سجنوه وعينوا محله أخاه السلطان مسعود، وفي أيامه علا شأن السلاجقة واشتد أمرهم، وخاضوا معه حروباً انتهت بمقتله سنة ثلاثين وأربعمئة، واستولى السلاجقة على الممالك، وكان أولهم طغرل بك كما ستأتي الإشارة.

نقل ابن خلكان أن السلطان محمود سبكتكين كان حنفي المذهب، ميالاً إلى الطريقة الشافعية، فجمع الفقهاء في مرو وطلب إليهم ترجيح أحد المذهبين، فاتفق الفقهاء على أداء ركعتين من الصلاة وفق المذهب الشافعي، وركعتين وفق مذهب أبي حنيفة، فأيهما رضي عنه السلطان رجّحوه.

قام «القفّال المروزي» أحد فقهاء مرو فتوضأ وصلى ركعتين بشروطهما وأركانهما من طهارة وستر وقبلة، ملتزماً بالسنن والآداب، ثم قال: هذه صلاة الشافعي.

ثم قام لأداء الصلاة وفق مذهب أبي حنيفة، فأتى بجلد كلب مدبوغ فلبسه، ولطخ طرفاً منه بالنجاسة، ثم توضأ بشراب التمر بطريقة منعكسة، ونظراً لأن الوقت كان صيفاً فقد تجمع عليه الكثير من الذباب والبعوض، ثم إنه توجه إلى القبلة وكبّر للإحرام بالفارسية ودونَ نيّة، ثم عوضاً عن أن يتلو آية قرأ ورقتين بالفارسية، ثم ضرب رأسه بالأرض مرتين كما يضرب الديك منقاره بالأرض، دون فاصل ودون ركوع ثم أتى بالتشهد، وختم عمله بضرطة وقال: هذه صلاة أبي حنيفة!!.

قال السلطان: لئن لم تكن هذه صلاة أبي حنيفة لقتلتك، لأنها صلاة لا يجيزها صاحب دين أو مذهب، كما أن فريقاً من الحنفية أنكروا عليه ذلك، فقال «القفّال»: أحضروا كتب أبي حنيفة، فأحضرت، وأمر السلطان أحد الكتاب، وكان نصرانياً، بأن يقرأها، وبعد التحقيق تبين أن تلك الطريقة التي أتى بها القفّال هي طريقة أبي حنيفة في الصلاة، فأمر السلطان بالإعراض عنه، ودخل في المذهب الشافعي.

وفي ذي الحجة من سنة إحدى وعشرين وأربعمئة توفي أحمد بن محمد بن الحسن الأصفهاني، الشاعر المعروف بالإمام المرزوقي، وعدّه ابن شهرآشوب من شعراء أهل البيت عليهم السلام.

خلافة عبد الله بن القادر القائم بأمر الله

في شهر ذي القعدة من سنة اثنتين وعشرين وأربعمئة، حين رحل القادر عن الدنيا، حل محله ابنه القائم بأمر الله، وقيل: كان يمتاز عن سائر الخلفاء بالإحسان والعدل وأداء الصدقات وقضاء الحاجات، واستقام له أمر الخلافة حتى أمسك به أرسلان[1] التركي البساسيري، وحمله إلى «عانة»، وألقى به في السجن، فكتب القائم قصته وبعث بها إلى مكة فعُلّقت على أستار الكعبة، فقام طغرل بك بالانتصار له من أرسلان، فقتله، وأعاد الخليفة مكرّماً إلى منصبه.

وفي أيامه، سنة ثلاث وعشرين وأربعمئة توفي الشيخ الجليل أحمد بن عبد الواحد بن أحمد البزاز، المعروف بابن عبدون، «وهو المعروف بابن الحاشر، ويكنى أبا عبد الله، كثير السماع والرواية».

وفي سنة ثلاث وعشرين وأربعمئة أيضاً توفي ببغداد ابن البواب[2]

---

(١) كان أرسلان في بدء أمره مملوكاً لبهاء الدولة بن عضد الدولة الديلمي، وعلا شأنه شيئاً فشيئاً، وقوي أمره، وأمسك بحبل أمور المملكة وشؤونها، وخطب باسمه على منابر العراق وغيره، وكان الملوك يخافونه حتى قتله طغرل بك سنة إحدى وخمسين وأربعمئة.
وروي أنه لما استولى البساسيري، أي أرسلان التركي، على بغداد أضاف إلى الأذان «حيّ على خير العمل» وأغار على دار الخلافة، وأقام عمارة عالية على القبر المنوّر للإمامين الهمامين الهادي والعسكري عليهما السلام بسامراء، ويقال في وجه تسميته بالبساسيري إنه لما كان غلاماً لأحد أكابر «فسا» وكان أهل فارس يدعون أهل «فسا» بالبساسير، ذلك أن «فسا» كانت في الأصل «بسا»، وسير بمعنى أرض مثل «گرمسير» وتعني الإقليم الحار، ويقال في الكتب العربية لأهل فسا: فسوي (منه ره).

(٢) لقب بابن البواب لأن أباه كان بواباً لبني بويه (منه ره).

علي بن هلال الكاتب، وهو الذي عرف بحسن خطه، وكان ابن مقلة أول من غيّر الخط الكوفي، وعلي بن هلال نقّحه وهذّبه.

وفي أوائل سنة سبع وعشرين وأربعمئة توفي أبو إسحاق أحمد بن محمد النيشابوري المفسر المعروف بالثعلبي، صاحب كتاب «التفسير» و «العرائس». «وكان هذا الرجل إما شيعياً أو قليل التعصب، ونقل في تفسيره كثيراً من أحاديثنا، ولهذا نقل العلامة المجلسي عنه في البحار، وفيها[1] توفي عبد الله بن أحمد الشافعي الملقب بالقفّال المروزي، الفقيه المعروف.

وفي سنة ثمان وعشرين وأربعمئة في الخامس من جمادى الآخرة، توفي مهيار الديلمي الشاعر الشيعي المعروف، وكان مهيار مجوسياً ومن أبناء أنوشروان العادل، وأسلم على يد السيد الرضي.

وفي سنة ثمان وعشرين وأربعمئة أيضاً، أو سنة سبع وعشرين وأربعمئة توفي بهمدان أبو علي الحسين بن عبد الله بن سينا، المعروف بالشيخ الرئيس.

وكان ابن سينا نادرة عصره في علمه وذكائه، وصنف كتاب «الشفاء» في الحكمة، و «الإشارات» و «القانون» في الطب، وغير ذلك، ومن شعر ابن سينا في الطب:

اسمع جميع وصيتي واعمل بها   فالطب مجموع بنظم كلامي
أقلل جماعك ما استطعت فإنه   ماء الحياة يُصبّ في الأرحام
واجعل غذاءك كلّ يوم مرة   واحذر طعاماً قبل هضم طعام

وقيل في تاريخ ولادته ووفاته شعراً بالفارسية:

---

(١) ضبط والدي المرحوم في كتاب «الكنى والألقاب» وفاة القفّال المروزي سنة سبع عشرة وأربعمئة، ويرد هنا، احتمال الاشتباه، وعلى أي حال فقد تركنا هذه الجملة على حالها

(علي ابن المؤلف).

حجة الحق أبو علی سینا در شجع (۳۷۳) آمد أز عدم بوجود
در شصا (۳۹۱) کرد کسب جمله علوم در تکز (٤٢٧) کرد اینجهان بدرود

وفي الحاشية تعريب لهذين البيتين[١].

ثم اعلم أن ابن سينا كان معاصراً للحكيم الماهر أبي علي أحمد بن محمد بن يعقوب بن مسكويه (كنفطويه) الرازي الأصل، الأصفهاني المسكن والخاتمة، صاحب «طهارة الأعراق» الذي مدحه المحقق الطوسي بقوله:

بنفسي كتاباً حاز كل فضيلة وصار لتكميل البريّة ضامنا

«كلاهما معاصران للحكيم المتألّه علي بن الهيثم الملقب ببطليموس الثاني، العالم الماهر في فنون الحكمة، والرياضي صاحب التصانيف الكثيرة، والذي قد حكي فيه أنه عرض له حين موته إسهال دموي، فكان كلما يعالج نفسه ينتج بالعكس إلى أن آيس الحياة فقال: آه، ضاعت الهندسة وبطلت المعالجة وعلوم الطب، ولم يبق إلا تسليم النفس إلى باريها، ثم امتدّ بنفسه إلى القبلة وقال: إليك المرجع والمصير، رب عليك توكلت وإليك أنيب».

وأما ثانويّته (دعوته بالثاني) فباعتبار بطليموس الحكيم المهندس الرياضي اليوناني، صاحب كتاب «الثمرة في علوم النجوم» و «المجسّطي» المشهور في الهيئة، الذي قد حرره المحقق الطوسي، وشرحه أيضاً كثرة من مهرة الرياضيين، وقيل إن بطليموس كان تلميذ جالينوس، وجالينوس تلميذ بليناس، وبليناس تلميذ أرسطو، وأرسطو تلميذ أفلاطون، وهو تلميذ سقراط، وهو تلميذ أبقراط، وهو تلميذ جاماسب، وجاماسب أخو كشتاسب، وهو من تلامذة لقمان الحكيم عليه السلام.

وفي سنة تسع وعشرين وأربعمئة توفي عبد الملك بن محمد المعروف

---

(١) إن ابن سينا باعليّ حجّة في شجع(٣٧٣) جاء من العدم لوجود
كسب التعلم في شصا (٣٩١) بجدارة في تكز (٤٢٧) غادر عالم التنكيد
(المعرب)

بالثعالبي النيشابوري مؤلف «فقه اللغة وسرّ الأدب» و «يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر». قيل في وصف كتابه:

أبيات أشعار اليتيمة أفكار أبكار القديمة
ماتوا وعاشت بعدهم فلذاك سميت اليتيمة

وفي السنة نفسها كان الظهور الأول لمملكة السلاجقة، وكان أول ملوكهم طغرل بك، وكان أول مكان استولوا عليه هو طوس.

وفي سنة ثلاثين وأربعمئة توفي الحافظ أحمد بن عبد الله الأصفهاني، المعروف بأبي نعيم صاحب كتاب «حلية الأولياء».

ويقول الفاضل الخبير الميرزا عبد الله الأصبهاني في «رياض العلماء»: أبو نعيم هو الجد الأعلى للمجلسيين عليهما الرضوان، والظاهر أنه كان من علماء الشيعة، غير أنه كان يمارس التقية، والله العالم.

وفي سنة ثلاثين وأربعمئة أيضاً انقرضت دولة آل بويه، وبدأت دولة السلاجقة، وقيل إن حكم آل بويه امتدّ إلى سبع وعشرين ومئة سنة.

وفي سنة إحدى وثلاثين وأربعمئة توفي العالم الحكيم العارف ناصر خسرو، المعروف بالجامع للعلوم الظاهرية والباطنية، ومراتب الحكمة والعرفان، تلميذ علي بن جعفر المعروف بأبي الحسن الخرقاني، المتوفى سنة ثمان وثلاثين وأربعمئة، وذكر أن ناصر خسرو بلغ في الرياضة حداً صار معه قادراً على تناول الطعام مرة في الشهر، وكان ذا مهارة بالغة في تسخير الجان، وقبره في «بدخشان»، وله أشعار بالفارسية تشرح مبلغ ما بلغه من رياضة وقدرات.

وفي سنة اثنتين وثلاثين وأربعمئة في سلخ جمادى الأولى توفي أبو العباس جعفر بن محمد المعروف بالمستغفري النسفي السمرقندي الخطيب الحنفي، وهو صاحب كتاب «طبّ النبي» صلى الله عليه وآله وسلم المعروف، والذي ذكره العلامة المجلسي في «البحار»، وأمر الخواجة نصير الطوسي في «آداب المتعلمين» الدارسين بالرجوع إليه، وله كتب أخر.

وفي الرابع عشر من صفر سنة أربع وثلاثين وأربعمئة أعلن أبو طاهر

المنجم الشيرازي لأهل تبريز أنه سينزل بسكان المدينة بلاء عظيم في تلك الليلة بسبب الزلزال.

وبناءً على إعلامه انقادت زمرة لتحذيره فغادرت، بينما فريق آخر لم يتحرك، وقد اتفق أن حدث زلزال في تلك الليلة، ودفن تحت التراب ما يناهز الأربعين ألفاً. وقد ورد هذا في «مجالس المؤمنين» نقلاً عن كتاب «حبيب السير».

وفاة السيد المرتضى (علم الهدى)

في سنة ست وثلاثين وأربعمئة، في شهر ربيع الأول، توفي السيد الأجلّ النحرير ذو المجدين أبو القاسم الشريف علي بن الحسين بن موسى بن محمد بن موسى بن إبراهيم بن موسى بن جعفر عليهما السلام، المشهور بالسيد المرتضى، والملقب بعلم الهدى، وكان شريف العراق، والمجتهد على الإطلاق، ومرجع فقهاء الآفاق، انتفع وينتفع علماء الإمامية من علومه، منذ أيامه وحتى هذا الزمان، وهو ركنهم ومعلمهم، ألف كثيراً من الكتب، وكان كتابه «الغرر والدرر» موضوع توصيف ومديح علماء العامة إلى حدٍّ لم يصفوا به أي كتاب من كتب علماء الإمامية، كما أن علماء العامة جميعهم قد مدحوا السيد ومجّدوه وقالوا: هو أعلم الناس بالعربية.

وقال العمري النسابة الإمامي: إن بيت آباء السيد أجلّ بيت من بني الكاظم عليه السلام، وعدّه صاحب «جامع الأصول» مجدد مذهب الإمامية في رأس المئة الرابعة.

وذكر ابن أبي الحديد في شرحه على النهج: إن الشيخ المفيد (ره) رأى في منامه أن فاطمة عليها السلام جاءته بالحسن والحسين عليهما السلام وقالت له: يا شيخي علّم ولديّ هذين الفقه، ثم جاءت في الصباح فاطمة[1] أم السيد

---

(١) كانت فاطمة أم السيدين بنت أبي محمد الحسين بن أحمد بن الحسن، المكنى بأبي محمد، والملقب بالناصر الكبير، ملك بلاد الديلم والجبل، وهو ابن علي بن الحسن بن علي بن عمر بن علي بن الحسين بن أبي طالب عليهم السلام (منه ره).

المرتضى والرضي بهما إليه وقالت ذلك، وهي مشهورة، وكذا الرؤيا التي رآها عند منازعته مع السيد المرتضى (ره) ومضمونها أنه قال: يا شيخي ومعتمدي، الحق مع ولدي.

وحكي أنه كان للسيد من الأموال والأملاك ما يتجاوز عن الوصف، قيل: كان يدخل عليه من أملاكه في كل سنة أربعة وعشرون ألف دينار، وخلّف من كلّ شيء ثمانين، حتى أن عمره كان ثمانين سنة وثمانية أشهر.

وعن الشهيد الثاني قال: ذكر أبو القاسم التنوخي صاحب السيد: حصرنا كتبه فوجدناها ثمانين ألف مجلد من مصنفاته ومحفوظاته ومقروءاته، فمن أجل ذلك سمي بالثمانيني.

وبالجملة فهو في جمعه بين الدنيا والآخرة مصداق قول الصادق عليه السلام لإسحاق بن عمار وأخيه إسماعيل: «وقد يجمعهما الله لأقوام» يعني الدنيا والآخرة.

وحكي أنه لمّا كانت العامّة في زمن الخلفاء، تشتتت مذاهبهم في الفروع واختلاف الآراء وتفرّق الأهواء، بحيث لم يمكن ضبطها، فقد كان لكل واحد من الصحابة والتابعين ومن تبعهم إلى تلك الأعصار مذهب برأسه، التجأوا إلى تقلّبها، فأجمعوا على أن يجمعوا الناس على بعض المذاهب، فاتفقت كلمة رؤسائهم وعقيدة عقلائهم على أن يأخذوا من أصحاب كلّ مذهب خطيراً[1] من المال؛ فالحنفية والشافعية والمالكية والحنبلية لوفور عدتهم جاؤوا بما طلبوه، فقرّروهم على عقائدهم، وأجمعوا على صحة خصوص هذه الأربعة، وبطلان غيرها، وكان ذلك في عصر السيد، فرأى السيد الخليفة، وكان هو القادر بالله وواطأه على أن يأخذ من الشيعة مئة ألف دينار ليجعل مذهبهم في عدة تلك المذاهب، وترتفع التقية، فتقبل الخليفة، ثم إنه بذل لذلك من عين ماله ثمانين ألفاً، وطلب من الشيعة بقية المال فلم يفوا به، فلم يدخل مذهب الشيعة في تلك المذاهب.

(١) الخطير: المقدار المماثل (المنجد).

وكان السيد (ره) نحيف الجسم، حسن الصورة، ويدرّس في علوم كثيرة، ويجري على تلامذته رزقاً، فكان للشيخ الطوسي أيام قراءته عليه كل شهر اثنا عشر ديناراً وللقاضي ابن البراج كل شهر ثمانية دنانير، وكان قد وقف قرية على كاغد[1] الفقهاء، وتولى نقابة النقباء وإمارة الحجاج بعد أخيه الرضي، وهو منصب والدهما.

وقد تتلمذ على السيد الجمّ الغفير من علمائنا كالشيخ الطوسي، والمتكلم الفقيه أبي يعلى سلار بن عبد العزيز الديلمي، وأبي الصلاح تقي بن نجم الحلبي، والسيد عماد الدين وخليفة المفيد والجالس مجلسه السيد أبي يعلى محمد بن الحسن الجعفري، والشيخ أبي الفتح محمد بن علي الكراجكي، والشيخ أبي الحسن سليمان الصهرشتي، وأبي عبد الله جعفر الدرويستي، والمفيد النيشابوري، وغيرهم من الأجلّة رضوان الله عليهم أجمعين.

وبالجملة ففضائل السيد أكثر من أن تحصر وتعدّ، وكان نصير الدين الطوسي، كما حكي عنه، إذا جرى ذكر السيد في درسه يقول: صلوات الله عليه، ويلتفت إلى القضاة والمدرسين ويقول: كيف لا يصلى على السيد المرتضى!.

ومات السيد في بلد الكاظمين، ودفن في داره، ثم نقل إلى جوار جدّه الحسين عليه السلام، ودفن عند أخيه وأبيه في المحل المعروف بـ «إبراهيم المجاب» وهو جدّه وابن الإمام موسى الكاظم عليه السلام، وقبر إبراهيم في الحائر مشهور. كذا نقل عن العلامة الطباطبائي بحر العلوم (ره) وكان القبر الواقع في أواخر الرواق فوق رأس الحرم المطهّر.

وفي سنة ست وثلاثين وأربعمئة أيضاً توفي ببغداد محمد بن علي الطيب، المعروف بأبي الحسين البصري المعتزلي.

وفي سنة ثمان وثلاثين وأربعمئة توفي أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي المفسّر المشهور.

---

(١) كاغد: القرطاس (فارسية).

وفي الثالث من ربيع الأول سنة تسع وأربعين وأربعمئة توفي أحمد بن عبد الله بن سليمان المعروف بأبي العلاء المعرّي، الشاعر الأديب المعروف، وكان قد عمي من الجدري في سن الثالثة أو الرابعة، وقال في صدد ذلك:

أبا العلا بن سليمانا إن العمى أولاك إحسانا
لو أبصرت عيناك هذا الورى لم ير إنسانك إنسانا

وكان ـ على المشهور ـ مرمياً بالزندقة والإلحاد، ومكث مدة خمس وأربعين سنة لا يأكل اللحم، ومناظراته مع السيد المرتضى، وحكايات جودة فهمه وعلمه مشهورة، نقل أنه دخل ذات يوم على السيد المرتضى رضي الله عنه فعثر برجل، فقال الرجل: من هذا الكلب؟ فقال أبو العلاء: الكلب من لا يعرف للكلب سبعين اسماً! فقرّبه المرتضى فوجده علّامة. ثم إنه قد جرى في بعض الأيام ذكر المتنبي في خدمة السيد فتنقّصه المرتضى وذكر معائبه، فقال المعرّي: لو لم يكن للمتنبي من الشعر إلا قوله: «لك يا منازل في القلوب منازل» لكفاه فضلاً وشرفاً، فغضب المرتضى وأمر بإخراجه من مجلسه. ثم قال: أتدرون أي شيء أراد بذكر هذه القصيدة فإن للمتنبي أجود منها، إنما أراد قوله:

وإذا أتتك مذمّتي من ناقص فهي الشهادة لي بأني كامل

وله أيضاً مع السيد محاجّة بالرمز في مراتب التوحيد وقدم العالم، فليطلب في أواخر كتاب «الاحتجاج».

وبالجملة فقد كان المعرّي[1] نسيج وحده في العربية، ضربت آباط الإبل إليه، وكان يقول: أتمنى أن أرى الماء الجاري وكواكب السماء، حيث كان

---

(١) وللمعرّي:

ألم تر أنّ العجز قد زوّج ابنه ببنت التواني ثم أنقدها مهرا
فراشاً وطيّاً ثم قال لها ارقدي فإنكما لا بد أن تولدا فقرا

أخذه من قول أمير المؤمنين عليه السلام: «إن الأشياء لما ازدوجت ازدوج الكسل والعجز فنتجا بينهما الفقر (منه ره).

أعمى، والمعرّي نسبة إلى معرّة النعمان، وهي قرية من قرى أرض الشام، بالقرب من حماة.

وفي سنة تسع وأربعين وأربعمئة أيضاً ـ كما جاء في «مرآة الجنان» لليافعي ـ توفي الشيخ العالم الثقة أبو الفتح محمد بن علي الكراجكي، رأس الشيعة وتلميذ السيد المرتضى والشيخ المفيد، ومن تصنيفاته كتاب «كنز الفوائد» وكتاب «التعجب». وينقل في «كنز الفوائد» الكثير عن الشيخ المفيد، وله تصنيفات أخر.

وفي سنة خمسين وأربعمئة توفي الثقة الجليل القدر الشيخ أبو العباس أحمد بن علي بن أحمد المعروف بالنجاشي، صاحب كتاب «الرجال» المعروف، وقيل إن نسبه الشريف ينتهي بسبع مراتب إلى عبد الله النجاشي والي الأهواز.

«وكان الشيخ النجاشي (ره) شيخاً بهيّاً ثقة، صدوق اللسان عند المخالف والموافق، وقد يرجح قوله على قول الشيخ (ره) مع التعارض».

وفي سنة خمسين وأربعمئة أيضاً توفي علي بن محمد المصري المعروف بالماورديّ، الفقيه الشافعي، صاحب «الحاوي» و «أدب الدين والدنيا» وغيرهما، قيل: لم يُظهر تصانيفه طيلة حياته كي لا يشوب نيّة القربة عنده شائب.

وفي سنة أربع وخمسين وأربعمئة توفي محمد بن سلامة المعروف بالقضاعي، الفقيه الشافعي، صاحب كتاب «الشهاب».

وفي بداية سنة خمس وخمسين وأربعمئة توفي إسماعيل السرقسطي المقرىء النحوي الأندلسي.

وفي الثامن أو الثامن عشر من شهر رمضان سنة خمس وخمسين وأربعمئة توفي بالري محمد بن ميكائيل بن سلجوق المعروف بطغرل بك، أول ملوك السلاجقة، وأصلهم مما وراء النهر بالقرب من بخارى، وقوي أمرهم واستولوا على بلاد كثيرة.

تزوج طغرل بك ابنة القائم بأمر الله، وبعد وفاة طغرل بك أصبح ألب أرسلان محمد بن داود بن ميكائيل بن سلجوق ملكاً، وحكم تسع سنين، وفي العاشر من ربيع الأول سنة خمس وستين وأربعمئة تمّ قتله، ودفن بمرو عند قبر طغرل بك وأبيه داود. وألب أرسلان هو الذي بنى مشهداً على قبر أبي حنيفة، وبنى مدرسة ببغداد أنفق عليها أموالاً كثيرة.

و «ألب» بفتح الهمزة وسكون اللام المركّبة مع «أرسلان»، لفظ تركي ويعني الشجاع الأسد.

وبعد ألب أرسلان تسلم ابنه ملكشاه الحكم، ومحاسن أيام حكمه كثيرة، زوّج ابنته من الخليفة المقتدي بالله، وفي السادس عشر من شوال سنة خمس وثمانين وأربعمئة فارق الحياة، فاقتسم ثلاثة من بنيه المملكة بعده. أولهم السلطان سنجر، والآخر بركياروق، وثالثهم أبو شجاع محمد، ولكن المشار إليه كان مشاركاً في حكم السلطان سنجر، وكان أخواه كتابعين له.

وفي سنة خمس وتسعين وأربعمئة خُطب باسمه على المنابر، وبعد بركياروق أصبح الحكم خالصاً له، وفي الرابع والعشرين من ذي الحجة سنة إحدى عشرة وخمسمئة كانت وفاته، هذا والمقام لا يتسع لذكر التفاصيل عن حكم السلاجقة.

وفي سنة ست وخمسين وأربعمئة توفي علي بن أحمد المعروف بابن حزم الأندلسي، المشهور بغزارة العلم، وصاحب كتاب «المحل»، وابن حزم هو الذي كان يستخف بالعلماء المتقدمين والمتأخرين، وكان يحتقرهم فلا يراعي احترامهم، فلا جرم أن قال أحمد بن العريف بحقّه: «كان لسان ابن حزم وسيف الحجاج بن يوسف شقيقين».

وفي سنة ثمان وخمسين وأربعمئة توفي علي بن إسماعيل المعروف بابن سيده اللغوي المعروف، وفي العاشر من جمادى الأولى من هذا العام توفي أحمد بن الحسين المعروف بالإمام البيهقي الشافعي، صاحب السنن» وغيره. و «بيهق» تقع بالقرب من نيسابور على بعد عشرين فرسخاً منها.

«وكان البيهقي قليل التعصب، له على الشافعيّة حق عظيم، وهكذا له على الشافعي منّة عظيمة لما صنّف في نصرة مذهبه».

وفاة الشيخ الطوسي

في ليلة الاثنين الثانية والعشرين من المحرم سنة ستين وأربعمئة توفي شيخ الطائفة ورئيس الإمامية، فخر الأعاجم، أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي نوّر الله ضريحه.

«وكان الشيخ (ره) جليل القدر عظيم المنزلة، عارفاً بالرجال والأخيار والفقه والأصول والكلام والأدب، وجميع الفضائل تنسب إليه، صنف في كل فن من فنون الإسلام، وهو المهذب للعقائد في الأصول والفروع، والجامع لكمالات النفس في العلم والعمل، وكان مرجع فضلاء الزمان ومربّيهم، حتى حكي أن فضلاء تلامذته الذين كانوا مجتهدين يزيدون على ثلاثمئة فاضل من الخاصة، ومن العامة ما لا يحصى، والخلفاء أعطوه كرسيّ الكلام، وكان ذلك لمن كان وحيد عصره، وعلّامة دهره، وكان ذلك ببغداد، ثم هاجر إلى مشهد أمير المؤمنين صلوات الله عليه خوفاً من الفتن التي تتجدد ببغداد، وأحرقت كتبه وكرسيّ كان يجلس عليه».

وله تأليفات كثيرة في التفسير والأصول والفروع وغيرها، منها كتابا «التهذيب» و «الاستبصار» المشهوران في جميع الأعصار. دفن (ره) بداره، وهي الآن مسجد معروف بـ «مسجد الطوسي» بقرب الحفرة العلوية، لا زالت مهبطاً للفيوضات السبحانية.

وفي سنة إحدى وستين وأربعمئة احترق المسجد الجامع بدمشق.

وفي سنة ثلاث وستين وأربعمئة توفي يوسف المعروف بابن عبد البر الشافعي، صاحب كتاب «الاستيعاب»، كما توفي أحمد بن علي المعروف بخطيب بغداد صاحب «تاريخ بغداد».

وقد قيل: «كان عبد البر حافظ المغرب، والخطيب البغدادي حافظ

المشرق، وماتا في سنة واحدة». وقبر الخطيب ببغداد يقوم قرب قبر بشر الحافي في باب الحرب.

وفي السنة نفسها توفي محمد بن الحسن بن الحمزة الجعفري، «وكان هو خليفة الشيخ المفيد والجالس مجلسه، متكلم فقيه»، كما توفي في تلك السنة سلار بن عبد العزيز الديلمي الجيلاني، مؤلف «المراسم» وتلميذ السيد المرتضى.

وفي سنة خمس وستين وأربعمئة قتل ألب أرسلان، وحلّ محله ابنه جلال الدولة.

وفي تلك السنة توفي الشيخ أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري الصوفي، تلميذ وصهر أبي علي الدقاق، ودفن بنيسابور بالقرب من قبره، والقشيري هو مؤلف «الرسالة القشيرية الكبيرة» التي كتبها لطوائف العرفاء والصوفية، و «قشير» كزبير أبو قبيلة من العرب.

وفي سنة ست وستين وأربعمئة ارتفع ماء دجلة ثلاثين ذراعاً فأغرق بغداد، ودمّر مئة ألف بيت أو أكثر، وهلكت نفوس وأموال كثيرة.

وفي سنة سبع وستين وأربعمئة قتل علي بن الحسن المعروف بأبي الحسن الباخرزي الشاعر المشهور، وذلك في مجلس أنسه، ومن مؤلفاته كتاب «دمية القصر وعصرة أهل العصر» في ذيل «يتيمة الدهر» للثعالبي. وباخرز، بفتح الخاء المعجمة وتقديم الراء المهملة الساكنة على الزاي: اسم ناحية من نواحي نيسابور، مدحه المحقق الطوسي برباعيّة معروفة.

وفي سنة سبع وستين وأربعمئة أيضاً توفي القائم بأمر الله، وعلّة موته أنه فصد ونام، وخلال نومه فتح موضع الفصد ونزف دمه بكثرة حتى تلاشت قوته وهلك. وكثرت الوقائع في أيام خلافته، وقد سبقت الإشارة إليها باختصار.

وروي أن قحطاً شديداً نزل بمصر في أيامه، حتى أنه لم يُر قحط مثله منذ زمان يوسف الصدّيق حتى ذلك الزمان، واستمر سبع سنين، ووصل الأمر

حدّ أن الناس كانوا يأكلون بعضهم، وبيع قرص الخبز بخمسين ديناراً، وبلغت قيمة الكلب خمسة دنانير. وحكي أن امرأة شوهدت تغادر قاهرة مصر وهي تحمل مدّاً من الجواهر وتنادي: من يشتري مدّ الجواهر هذا بمدّ من الحنطة؟! فلم توفّق إلى مشترٍ!.

يقول المؤلف: ذكر الفاضل الماهر السيد محمد الباقر في «الروضات» - في ترجمة الملاّ إسماعيل الخاجوئي، نقلاً عن الآغا هادي، نجل الملاّ محمد صالح المازندراني - أنه نقل في بعض مجامعه حكاية قحط مصر في سنة خمس وستين وأربعمئة، ثم قال: في أيامنا سنة أربع وثلاثين ومئة وألف وقع قحط مماثل بسبب فتنة الأفغان وحصارهم لأصفهان ثمانية أشهر، حتى بلغ ثمن منّ الحنطة - ويبلغ ثمانية عشر رطلاً عراقياً - خمسة وخمسين توماناً (أي ما يعادل ألف درهم).

وبلغ الأمر حدّاً نفدت معه الحنطة والأرز وسائر الحبوب، فراح الناس يأكلون اللحم حتى نفد لحم الضأن والبقر والخيل والبغال والحمير، فأكل الناس لحم الكلاب والقطط، ثم راحوا يأكلون لحوم الأموات! واستفحل الأمر حتى صار الناس يقتل بعضهم بعضاً لهذا الغرض، وشاع الموت والقتل حتى بلغ عدد من هلك في اليوم الواحد ألف ألف نفس، أما الأملاك والحاجيات فقد هبطت قيمها إلى ربع العشر، وقسماً بربّ الكعبة ليس في ذلك القول مبالغة أو جزاف «أعاذنا الله من مثله».

يقول المؤلف أيضاً: اتصلت بداية ظهور الأفاغنة بنهاية دولة الصفويين، وقد انقرضت دولتهم في أيام الأفاغنة. ومع أن الحديث عن الصفويين خارج عن المقام فلا بأس في الإشارة إليهم باختصار.

الدولة الصفوية

كان ملوك الصفويين تسعة، حكموا ما ينوف على مئتي عام، وروّجوا معتقدات الشيعة والمذهب الجعفري، وكان أولهم الشاه إسماعيل الأول،

وينتهي نسبه إلى الشيخ صفي الدين أبي الفتح إسحاق الأردبيلي الموسوي، الذي ينتهي نسبه إلى الحمزة بن موسى الكاظم عليه السلام. وقد خرج الشاه إسماعيل في مبدأ الأمر في بلاد «جيلان» مع جماعة من مريديه من الصفوية ومريدي آبائه العرفاء الراشدين، وذلك سنة ست وتسعمئة، وكان عمره أربعة عشر عاماً، وراح يقاتل حتى فتح بلاد آذربيجان واستولى عليها، وأعلن قيام السلطنة، وأمر بإظهار مذهب الإمامية.

ولما بلغ التاسعة والثلاثين من العمر وافته المنية، فتسلم السلطة ابنه الشاه طهماسب، وكان ذلك يوم الاثنين التاسع عشر من شهر رجب سنة ثلاثين وتسعمئة من الهجرة، وقد حكم أربعاً وخمسين سنة، وجعل من قزوين داراً لسلطنته، وكان معاصراً للشيخ البهائي وأبيه الشيخ حسين (ره).

وتبوأ الحكم بعده ابنه الشاه إسماعيل الثاني، وكان على طريقة أهل السنّة ومذهبهم، وقد أساء إلى أهل الإيمان وعلمائهم وسادتهم، فلا جرم أن الحق تعالى لم يمهله، فهلك بالخناق وهو في مجلس طربه، ولم يحكم أكثر من سنة واحدة.

فتسلم الحكم بعده أخوه السلطان محمود المكفوف، المعروف بالشاه خدابنده (عبد الله) الثاني، ودام حكمه عشر سنين، وخلفه ابنه الشاه عباس الأول، المعروف بالماضي، وامتد حكمه بكمال الأبّهه والجلال أربعاً وأربعين سنة.

وتسلم الحكم بعده حفيده الشاه الصفي الأول ابن ابنه الصفيّ الميرزا الشهيد، ودام حكمه أربعة عشر عاماً، وتوفي بقم، وجاء بعده ابنه الشاه عباس الثاني، ودام حكمه ستاً وعشرين سنة، وخلفه ابنه الشاه الصفيّ الثاني المعروف بالشاه سليمان.

وبعده جاء ابنه الشاه السلطان الحسين، وكان آخر ملوك الصفويّين، وقد اتصلت دولتهم بفتنة الأفاغنة ومحاصرتهم لأصفهان كما مرّ، ولما غلب أهل المدينة على أمرهم أعلنوا استسلامهم، وفتحوا بوابات المدينة، فانثال الأفاغنة

إلى المدينة، وأهرقوا دماء جمع من أعيان الصفويين وعظمائهم، وسجنوا السلطان الحسين مع بنيه وإخوته، وكان ذلك سنة سبع وثلاثين ومئة وألف.

وفي السنة نفسها توفي الفاضل الهندي، وبقي السلطان في محبسه حتى هلك السلطان محمود الأفغاني، وحل محله السلطان الأشرف، وكان ذلك في الثامن من شعبان من السنة نفسها، فأمر بهدم خمسمئة حمام ومدرسة ومسجد، ولما لحظ فتوراً وضعفاً في حكمه تحرك من أصفهان بعد أن أمر بقتل السلطان الحسين في محبسه، وترك دون غسل وتكفين، وأسر أهله وعياله، وصودرت أمواله، وكان ذلك في الثاني والعشرين من المحرم سنة أربعين ومئة وألف، وبعد مدة حمل الناس نعشه الشريف إلى قم هيث ووري الثرى بالقرب من آبائه إلى جوار الفاطمية، لا زالت مهبطاً للفيوضات الربّانية «والله العالم».

خلافة عبد الله بن القائم

المقتدي بأمر الله

بعد وفاة القائم بأمر الله سنة سبع وستين وأربعمئة قام ابنه أبو القاسم عبد الله المقتدي بأمر الله بتسييرشؤون الخلافة، وكان رجلاً عالي الهمة، يعدّ من نجباء بني العباس، ومن محاسن أعماله طرده للغواني والخاطئات من بغداد، ومنع دخول الحمام دون مئزر، وأمر بهدم أبراج الحمامات صوناً للنساء وحفظاً لناموسهن، وفي أيامه سنة ثمان وستين وأربعمئة توفي بنيسابور أبو الحسن الواحدي علي بن أحمد، صاحب التفاسير: «البسيط» و «الوسيط» و «الوجيز» وغيرها.

وفي سنة إحدى وسبعين وأربعمئة، أو أربع وسبعين وأربعمئة، على قول، توفي الشيخ المقدّم الأديب عبد القاهر بن عبد الرحمان الشافعي الجرجاني، النحوي البياني المشهور، وهو صاحب مؤلفات، منها: «شرح الإيضاح» و «إعجاز القرآن» و «العوامل المئة» وغيرها، وهو من تلامذة ابن جني والصاحب بن عباد وغيرهما.

و «جرجان» قريبة من «طبرستان»، والتي هي «استراباد» ونواحيها، وهي مما بناه يزيد بن المهلب بن أبي صفرة، وقد قام جماعة بشرح «عوامل جرجان» أمثال القطب الراوندي، والملاّ محسن أديب النحوي تلميذ قوام الدين القزويني، والفاضل الهندي، وابن الخشاب، وأنفسنا.

وفي سنة ثمان وسبعين وأربعمئة توفي بنيسابور إمام الحرمين عبد الملك بن الشيخ عبد الله الجويني الشافعي، أستاذ الغزالي وغيره، وبعد

عدة سنين حمل جثمانه إلى كربلاء ودفن عند والده، ونقل أن والده كان قد اشترى أمه، وكانت جارية، بالمال الحلال، وكان يطعمها من جنى يديه. ولما ولد إمام الحرمين أوصى أمه أن لا ترضعه حليباً آخر من غيرها، لما للحليب من تأثير في الطفل.

واتفق أن أمه ضعفت عن إرضاعه، فكان يبكي، فرقّت له إحدى النسوة من الجوار فأرضعته مقداراً من الحليب، فلما حضر أبوه وعلم بالأمر حمله مقلوباً، وراح يضغط على بطنه بصورة متواصلة حتى قاء ذلك الحليب. وقال الأب: إن موت ابني أهون عليّ من فساد طبعه بحليب الأخريات، ونقل أنه كان يصاب أحياناً بفتور حين مناظراته فكان يقول: هذا من بقايا ذلك الحليب.

أقول: إن للحليب أثراً بالغاً في طبيعة الطفل، وقد مرّ معك عند الحديث عن الحسن البصري أن فصاحته كانت ببركة ثدي أم سلمة زوج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

قال ابن خلكان: وغلّقت الأسواق يوم موته، وكسر منبره بالجامع، وكان تلامذته قريباً من أربعمئة نفر، فكسروا محابرهم وأقلامهم، وأقاموا على ذلك عاماً كاملاً.

وفي التاسع من شعبان سنة إحدى وثمانين وأربعمئة توفي عزّ المؤمنين أبو القاسم عبد العزيز المعروف بابن برّاج، الفقيه الإمامي، مؤلف مجموعة من الكتب الفقهية مثل: «الكامل» و «الموجز» و «المهذب» وغيرها.

«وكان من تلاميذ السيد المرتضى، والشيخ الكراجكي، وأبي الصلاح الحلبي، وكان قاضياً على طرابُلُس (بضم الموحدة واللام) مدينة بساحل الشام قريبة من بعلبك، ويستفاد من «الدرة البهية» أن من ألقاب ابن البراج: الحافي. قال في مبحث صلاة الميت:

والخلع للحذاء دون الاحتفا — وسنَّ في قضائه الحافي الحفا

وفي حدود سنة إحدى وثمانين وأربعمئة توفي الشيخ أبو إسماعيل

الخواجة عبد الله الأنصاري الصوفي، وهو من أحفاد أبي أيوب الأنصاري، وصاحب رسالة «المناجاة» الفارسية، و «الكلمات الحكيمة». ووري الثرى في بقعة «كازرگاه» في هراة.

وفي سنة ثلاث وثمانين وأربعمئة توفي علي بن محمد المعروف بابن المغازلي، الفقيه الشافعي، صاحب «المناقب والذخائر».

وفي سنة خمس وثمانين وأربعمئة قتل الحسن بن علي الملقب بنظام الملك الطوسي، وزير ملوك السلاجقة (السلطان ملك شاه السلجوقي) وكان نظام الملك يولي اهتماماً كاملاً بالفقهاء والصوفية، وهو أول من أنشأ مدرسة، وحذا الآخرون حذوه في بناء المدارس.

وفي سنة سبع وثمانين وأربعمئة مات المقتدي موت فجاءة، وقيل إن جاريته شمس النهار دسّت له السم.

خلافة أحمد بن المقتدي المستظهر بالله

بعد رحيل المقتدي حلّ محله ابنه المستظهر بالله أبو العباس أحمد، وقيل إنه كان رجلاً ليّن الجانب، كريم الأخلاق، محباً للعلماء والصلحاء.

وفي أيامه، في سنة ثمان وثمانين وأربعمئة توفي ببغداد محمد بن أبي نصر فتوح بن عبد الله بن حميد الأندلسي، المعروف بالحُمَيْدي، صاحب كتاب «الجمع بين الصحيحين». والحميدي (بضم المهملة وفتح الميم) ينسب إلى جده حُميد.

وفي سنة اثنتين وتسعين وأربعمئة هاجم الفرنجة بيت المقدس، وبعد حصار امتد إلى شهر ونصف قتلوا من أهلها ما يربو على سبعين ألفاً، ودكّوا مشاهدها فحولوها إلى أطلال، وجمعوا اليهود في كنائسهم وأحرقوها عليهم، فلجأ جماعة منهم إلى الهرب إلى بغداد، وأشاعوا من المظالم ما بكت له أعين الناس.

وفي تلك السنة، أو في سنة ثمان عشرة وخمسمئة على قول، تمّ نقل مصحف عثمان من طبريّة إلى جامع دمشق كي لا يستولي عليه الكفار، وخرج الناس لاستقباله، وأودع المصحف الخزانة الشرقية في مقصورة المسجد الجامع بدمشق، وقد كتب ذلك المصحف على الجلد، وقيل إن عثمان لم يكتبه، بل إن مصاحف عثمان كتبت بخط زيد بن ثابت بأمر من عثمان.

وفي سنة اثنتين وتسعين وأربعمئة أيضاً قتل مجد الملك أبو الفضل، أسعد بن محمد القمي البراوستاني وزير السلطان بركياروق، وكان مقتله على يد الجند، وقد ووري الثرى في جوار الحسين عليه السلام.

ومن آثاره: قبّة الأئمة الأربعة بالبقيع، و «جهار طاق» القبة الرباعية

لعثمان بن مظعون (ره)، ومشهد الكاظمين عليهما السلام، ومشهد السيد الجليل عبد العظيم الحسني (ره) بالري، وغيرها من مشاهد السادة العلويين والأشراف الفاطميين عليهم السلام.

وفي سنة ثمان وتسعين وأربعمئة توفي ببروجرد ركن الدين ابن ملك شاه بن ألب أرسلان السلجوقي، أخو السلطان سنجر، وكانت ممالك كثيرة تحت تصرفه.

وفي السنة نفسها، أو في سنة خمس وتسعين وأربعمئة على قول، شيدت «الحلّة السيفيّة» كما صرح ابن خلكان في شرح أحوال الأمير صدقة بن المنصور المزيدي الأسدي[١]، الملقب بسيف الدولة، ومن هنا عرفت بـ «الحلة السيفية».

وفي مطلع سنة أربع وخمسمئة توفي ببغداد علي بن محمد المعروف بـ «الكياهراسي» والكيا بكسر الكاف: يعني كبير القدر، والكيا من فقهاء الشافعية، وقد جوّز لعن يزيد بن معاوية، على العكس من الغزالي كما تقدم في شرح أحوال يزيد.

وفاة الغزالي ونبذة عن أحواله

في سنة خمس وخمسمئة توفي محمد الغزالي الطوسي الشافعي، مؤلف «إحياء العلوم» وغيره، وكانت سنّه أربعاً وخمسين سنة، ومن هنا قال الشاعر:

خمسين عاماً زد عليها أربعاً   عاش الغزالي في مدار حياة
هي عمره، ووفاته من بعدها   في خمسة من بعد خمس مئات[٢]

---

(١) سلالة بني أسد الجليلة، ويقال لهم المزيدية أيضاً، كانت لهم إمارة في عراق العرب، وكانوا شيعة كلهم، ومنهم سيف الدولة باني الحلّة، وكان رجلاً حليماً كريماً عفيفاً شجاعاً، وكانت داره ببغداد ملجأً آمناً للخائفين (منه ره).

(٢) تعريب:
نصيب حجة الإسلام ازين سراى سپنج   حيات پنجه وچار ووفات پانصد وپنج
(المعرّب).

والغزّالي بتشديد الزاي، وقيل بتخفيفها أيضاً: ينسب إلى «غزالة» وهي قرية من قرى طوس، وعلماء السنّة يلقبون الغزالي بحجة الإسلام، ويثنون عليه بالغ الثناء، وتصانيفه في غاية الجودة والكمال، وكتابه «إحياء العلوم» قمة في كتب الأخلاق. كان مولده بطوس سنة خمسين وأربعمئة، وتتلمذ هناك وفي نيسابور على إمام الحرمين، ولقي نظام الملك الوزير بعد ذلك فكان نظام الملك لا يغفل عن احترامه، وقد فوّض إليه التدريس في نظاميّة بغداد.

وفي سنة أربع وثمانين وأربعمئة صار إلى بغداد، فما إن عرف أهل العراق ما يمتاز به من كمال وفضل حتى عشقوه، وبقي هناك عشر سنوات، وكان يحضر درسه ما يقرب من ثلاثمئة من أعيان أهل العلم، لكنه اختار الزهد والاعتزال، وذهب إلى دمشق، وهناك قام بتصنيف «الإحياء»، ثم سافر إلى مصر والإسكندرية، وبعدها قفل راجعاً إلى طوس حيث اشتغل بالتصنيف.

وحين اختار الغزالي العزلة كتب إليه الوزير يلتمس منه الحضور إلى بغداد، لكن الغزالي طلب منه إعفاءه في جواب شاف بعث به إليه، كما ذكر القاضي نور الله في «المجالس» وغيره، وقيل إنه كتب في أواخر عمره «المنقذ من الضلال» ردّاً على ما يعتقده الشيعة من عصمة الأئمة عليهم السلام. ومن معاصري الغزالي عمر بن الخيام النيسابوري الحكيم وصاحب الأشعار المعروفة.

وفي سنة عشر وخمسمئة توفي يحيى بن عبد الوهاب محمد بن إسحاق بن محمد بن يحيى بن منده، المعروف بابن منده الأصفهاني المحدث، صاحب «التصنيفات» وابن منده من بيت علم وحديث، وكان آباؤه جميعاً من أهل الحديث والفضل.

وفي سنة اثنتي عشرة وخمسمئة توفي الخليفة المستظهر بالله بالخانوق.

خلافة الفضل بن المستظهر

المسترشد بالله

بعد المستظهر تبوّأ ابنه أبو منصور الفضل المسترشد الحكم محله، وكان رجلاً شجاعاً مهيباً شهماً، وذكر أنه بعد المعتضد لم يكن من الخلفاء أكثر شهامة منه. وقد نشب نزاع بينه وبين السلطان مسعود ابن أخي السلطان سنجر. وبعد معركة بينهما أسفرت عن هزيمة المسترشد ووقوعه في الأسر مع جماعة من خاصّته، تمّ اقتيادهم إلى قلعة قريبة من همدان، وحبسوا هناك.

ضجّ أهل بغداد لهذه الواقعة، وخرج الناس يبكون، كما خرجت النسوة حاسرات ينحن على الخليفة، ومنع الناس من إقامة صلوات الجماعة، وحطموا المنابر، وارتفعت الأصوات بالاستغاثة.

إذ ذاك كتب السلطان سنجر إلى ابن أخيه يقول: حال وصول كتابي إليك عليك بإعادة المسترشد إلى مقرّ حكمه بكل احترام وإجلال. قبل السلطان مسعود ما طلب منه، وأعاد المسترشد إلى بغداد باحترام وتبجيل، وما إن وصل موكبه إلى «مراغة» حتى هاجم سبعة عشر رجلاً من الفدائيين خيمة المسترشد وقتلوه مع القوم من خاصته، فلما بلغ نبأ مقتله بغداد خرج أهلها ينوحون ويلطمون وينشدون قصائد الرثاء له، وقد جرت هذه الواقعة في السادس عشر من ذي القعدة سنة تسع وعشرين وخمسمئة.

وفي عهد المسترشد، في سنة ثلاث عشرة وخمسمئة، أو بعد ذلك بسنة، قتل ظلماً فخر الكتّاب الحسين بن علي الأصبهاني المعروف

بالطغرائي، وكان يلقب بالأستاذ، وكان وزيراً للسلطان مسعود السلجوقي، وله ديوان شعر، ومن أحسن شعره قصيدته المعروفة بلاميّة العجم، ومطلعها:

أصالة الرأي صانتني عن الخطل   وحلية الفضل زانتني لدى العطل

قال هذه القصيدة ببغداد في وصف أحواله، والشكوى من زمانه.

يقول المؤلف: لو كان الطغرائي في زماننا لنفر من هذا العصر، ولبثّ الشكاوى ودبّج القصائد في هذا الباب، ولتحسّر على تلك الأيام والعصور. ولعلّ من المناسب هنا إيراد عدّة أبيات من لاميّته، نهديها إلى الأفاضل، وقد اهتم بعض الأفاضل بتلك القصيدة أيما اهتمام، فشرحوها بكاملها، ومنهم صلاح الصفدي.

قال الطغرائي ولله درّه:

ما كنت أوثر أن يمتدّ بي زمني   حتى أرى دولة الأوغاد والسفل
تقدّمتني أناس كان شوطهم   وراء خطوي ولو أمشي على مهل
هذا جزاء امرىء أقرانه درجوا   من قبله فتمنّى فسحة الأجل
فإن علانيَ مَن دوني فلا عجب   لي أسوة بانحطاط الشمس عن زحل
فاصبر لها غير محتال ولا ضجر   في حادث الدهر ما يغني عن الحيل
أعدى عدوّك أدنى ما وثقت به   فحاذر الناس واصحبهم على دخل
فإنما رجل الدنيا وواحدها   من لا يعوّل في الدنيا على رجل
وحسن ظنك بالأيام معجزة   فظنّ شراً وكن منها على وجل
غاض الوفاء وفاض الغدر وانفرجت   مسافة الخلف بين القول والعمل
وشأن صدقك عند الناس كذبهم   وهل يطابق معوجّ بمعتدل
فيم اقتحامك لجّ البحر تركبه   وأنت يكفيك منها مصّة الوشل
ملك القناعة لا يخفى عليه ولا   يُحتاج فيه إلى الأنصار والخول
ترجو البقاء بدار لا ثبات لها   فهل سمعت بظلّ غير منتقل؟

ثم اعلم أن الطغرائي نسبة إلى من يكتب الطغراء، وهي (الطرّة) التي

تكتب في أعلى الكتب فوق البسملة بقلم غليظ، تتضمن نعوت الملك الذي صدر الكتاب عنه، وألقابه. وهي لفظة أعجمية.

وفي شوال سنة خمس عشرة وخمسمئة توفي بمرو الحسين بن مسعود بن محمد الفراء، المعرف بمحيي السنة البغوي، صاحب كتاب «المصابيح» في الحديث، و «معالم التنزيل» في التفسير، و «التهذيب» في الفقه، و «شرح السنّة» وغيرها.

وفي سنة ست عشرة وخمسمئة توفي القاسم بن علي بن محمد البصري، المعروف بالحريري، صاحب «المقامات» و «درّة الغواص في أغلاط الخواص». وقيل إن الحريري وضع المقامات بدعوة وأمر من وزير المسترشد عميد الدولة[1] وأول مقامة وضعها مقامة «الحراميّة» حيث يُسأل أبو زيد السروجي (بطل مقاماته) في مسجد بني حرام (اسم قبيلة) والمسجد مليء بالأفاضل، فتسترعي انتباههم فصاحة أبي زيد وبلاغته، وتوقعهم في الحيرة، وتكون مدار أحاديثهم. وقد أنشأ الحريري مقامته تلك في هذا الباب، ولما عرضها على الوزير أعجب بها وأمره بمتابعة هذا العلم على المنوال نفسه، فوضع الحريري أربعين مقامة عرضها على الوزير، فأنكرها بعضهم حسداً، وزعموا أنها من وضع شخص آخر، فقام الحريري بحبس نفسه منفرداً ووضع عشر مقامات أخرى فصار مجموعها خمسين مقامة. وقد امتدح الزمخشري مقامات الحريري فقال:

أقسم بالله وآياته ومعشر الخيف وميقاته
إن الحريري حريّ بأن تكتب بالتبر مقاماته

---

(١) عميد الدولة شرف الدين أنوشروان هو ابن خالد القاشاني الذي قال عنه ابن كثير: هو وزير الخليفة المسترشد، كما كان وزير السلطان محمود الغزنوي أيضاً، وكان رجلاً عاقلاً مهيباً عظيم الخلقة كريماً شيعي المذهب، وكتب الحريري «المقامات» باسمه وبإشارة منه، وله قصائد في مدحه. توفي سنة إحدى وثلاثين وخمسمئة (منه ره).

إن كل من له إحاطة بمقامات الحريري يعلم ما هي درجته من الفضل والكمال، ويعلم كثرة اطّلاعه وطول باعه، وما أكثر ما اهتم أهل الفضل بمقاماته وأكثروا من شروحها.

ومبدع المقامات هو بديع الزمان الهمداني، والحريري نسج على منواله، أما الحارث بن همّام، الاسم المذكور في صدر المقامات فالمراد به الحريري نفسه.

«وهو مأخوذ من قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «كلكم حارث، وكلكم همّام». الحارث: الكاسب. والهمّام: الكثير الاهتمام، وما من شخص إلا وهو حارث وهمّام، لأن كل واحد كاسب ومهتم بأموره، وحكي أن الحريري كان مولعاً بنتف لحيته عند الفكرة».

وفي سنة ست عشرة وخمسمئة أيضاً توفي علي بن أبي زيد محمد النحوي الشيعي الإمامي، المشهور بالفصيح الاسترآبادي، وكان يقال له الفصيح لملازمته قراءة كتاب «الفصيح»، وهو من مصنفات ثعلب في علم النحو.

وفي سنة ثماني عشرة وخمسمئة توفي أبو الفضل أحمد بن محمد الميداني النيسابوري الأديب، ومن مؤلفاته كتاب «السامي في الأسامي» وكتاب «مجمع الأمثال»، وكلاهما كتابان معروفان وجيدان. وقد وقعت بين الميداني والزمخشري واقعة لطيفة لا أميل إلى ذكرها.

والميداني نسبة إلى الميدان، وهي بالفتح اسم محلة في نيسابور، والبيتان الآتيان ينسبان إلى الميداني المشار إليه:

تنفّس صبح الشيب في ليل عارضي فقلت عساه يكتفي بعذاري
فلما فشا عاتبته فأجابني أيا هل ترى صبحاً بغير نهار

وفي سنة عشرين وخمسمئة توفي بقزوين أحمد بن محمد بن الطوسي الغزالي أخو أبي حامد الغزالي، قد اختصر أحمد كتاب «إحياء العلوم» للغزالي

في مجلد واحد أسماه «إحياء الإحياء». كما أن المرحوم المحدث الكاشاني من علماء الإمامية اختصره أيضاً وهذبه وأسماه «المحجة البيضاء في تهذيب الإحياء»[1].

وفي سنة خمس وعشرين وخمسمئة توفي الحكيم العارف الكامل المعنوي، وأستاذ المولوي صاحب «المثنوي» أبو المجد المجدود بن آدم المشهور بالسنائي الشاعر الغزنوي، هكذا قال صاحب «الروضات» نقلاً عن بعض الأفاضل. وقال بعضهم: إن وفاته كانت سنة خمس وخمسين وخمسمئة بعد وفاة الأنوري الشاعر بأربع سنوات.

ويظهر من جملة من أشعار الحكيم السنائي أنه كان من الشيعة ومحبي أهل البيت عليهم السلام. ويمكن الرجوع إلى «مجالس» المرحوم القاضي نور الله (ره) والله تعالى هو العالم.

---

(١) نقل ابن أبي الحديد في «شرح نهج البلاغة» أن أحمد الغزالي كان واعظاً مفوّهاً، قدم إلى بغداد وراح يعظ أهلها. «وكان يتعصّب لإبليس ويقول إنه سيّد الموحّدين، وقال يوماً على المنبر: من لم يتعلّم التوحيد من إبليس فهو زنديق، أمر أن يسجد لغير سيده فأبى:

ولست بضارع إلا إليكم   وأما غيركم حاشا وكلاّ

ونقل عنه من أمثال ذلك كثير (منه ره).

خلافة الراشد بالله

بعد مقتل المسترشد في السادس عشر من ذي القعدة سنة تسع وعشرين وخمسمئة حل محله ابنه أبو منصور جعفر الراشد، وقيل إنه لما ولد كانت فتحة مقعده مغلقة ففتحها الأطباء، وفي أيامه سقطت نار من السماء بالموصل فأحرقت عدة مواضع من المدينة مع الكثير من الدور، كما ظهرت في بغداد عقارب طيارة أخافت الناس وقتلت العديد من الأطفال.

وذكر أيضاً أن نفوراً وقع بين الراشد والسلطان مسعود، فلا جرم أن أعدّ الراشد جيشاً كبيراً لحربه، وفي ذي الحجة من سنة ثلاثين وخمسمئة دخل السلطان مسعود بغداد، فمالت إليه قلوب الرعية، ثم أغار على دار الخلافة، وجمع كثيراً من الشهود أمام القضاة فشهدوا جميعهم أن الراشد ذو سيرة سيئة، وأنه يريق دماء الناس دون سبب، وأنه يقترف المنكر، الأمر الذي دعا قاضي قضاة المالكية ابن الكرخي إلى إصدار حكم بخلعه، لكنه فرّ إلى أصفهان وحاصرها، لكن مجموعة من الفدائيين أغاروا عليه فقتلوه، وكان مقتله سنة اثنتين وثلاثين وخمسمئة.

خلافة أبي عبد الله محمد المقتفي لأمر الله

في اليوم الذي شهد خلع الراشد انفرد عمه أبو عبد الله بالحكم، وكان يلقب بالمقتفي لأمر الله، والسبب أنه قبل أن يتبوأ سدة الحكم بستة شهور أو ستة أيام رأى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في منامه فبشّره بالخلافة وقال له: «فاقتف بي»، فلا جرم أنه لزم طريق العدل حين استقر له أمر الخلافة.

وفي أيامه، في سنة ثمان وثلاثين وخمسمئة توفي في «زمخشر» فخر خوارزم أبو القاسم محمود بن عمر المعتزلي، المعروف بجار الله الزمخشري، وزمخشر كغضنفر قرية من قرى خوارزم، ويقال للزمخشري جار الله لأنه اختار مجاورة مكة لفترة، وكانت إحدى قدميه قد بترت لتأثّرها بالبرد في بعض أسفاره ببلاد خوارزم، فكان يستعين بالعصا في مشيه.

ومصنفاته كثيرة منها: «الكشاف» في تفسير القرآن، و «الفائق» في تفسير الحديث، و «أساس البلاغة» في اللغة، و «الأنموذج» في النحو، و «نصائح الكبار» و «نصائح الصغار» وكلاهما في الزهد والمواعظ. ونقلت عن الزمخشري أشعار لطيفة، منها ما قاله في رثاء شيخه أبي مضر المنصور:

وقائلة ما هذه الدرر التي تساقط من عينيك سمطين سمطين
فقلت هو الدرّ الذي كان قد حشا أبو مضر أذني تساقط من عيني

وفي كتاب «نصائح الكبار» وهو خمسون مقامة، ففي المقامة الأخيرة منها، وهي في الخمول، قال بضعة أبيات يخاطب بها نفسه:

اطـلـب أبـا قـاسـم الـخـمـول ودع   غـيـرك يـطـلـب أسـامـيـاً وكـنـى
شـبّـه بـبـعـض الأمـوات نـفـسـك لا   تـبـرزه إن كـنـت عـامـلاً فـطـنـا
ادفـنـه فـي الـبـيـت قـبـل مـيـتـتـه   واجـعـل لـه مـن خـمـولـه كـفـنـا
عـلّـك تـطـفـي مـا أنـت مـوقـده   إذا أنـت فـي الـجـهـل تـخـلـع الـرسـنـا

ومن أشعاره في «الكشاف»، في تفسير سورة البقرة، والتي أوصى أن تكتب على لوحة قبره:

يـا مـن يـرى مـدّ الـبـعـوض جـنـاحـهـا   فـي ظـلـمـة الـلـيـل الـبـهـيـم الألـيـل
ويـرى مـنـاط عـروقـهـا فـي نـحـرهـا   والـمـخّ فـي تـلـك الـعـظـام الـنـحّـل
اغـفـر لـعـبـد تـاب عـن فـرطـاتـه   مـا كـان مـنـه فـي الـزمـان الأول

ومن تصانيفه «ربيع الأبرار»، ومن يراجع هذا الكتاب سيتّضح له أنه كان رجلاً منصفاً، وقد توسّم البعض فيه أنه شيعي، وذلك من لحاظ بعض أقواله «والله العالم».

وهذه بعض الأشعار التي تنسب إليه:

كـثـر الـشـك والـخـلاف وكـلّ   يـدّعـي الـفـوز بـالـصـراط الـسـويّ
فـاعـتـصـامـي بـلا إلـه سـواه   ثـم حـبّـي لأحـمـد وعـلـيّ
فـاز كـلـب بـحـبّ أصـحـاب كـهـفٍ   كـيـف أشـقـى بـحـبّ آل الـنـبـي

وفي سنة تسع وثلاثين وخمسمئة توفي ببغداد أبو منصور الموهوب ابن أحمد البغدادي الأديب المعروف بابن الجواليقي، وكان معاصراً لهبة الله ابن الصاعد، المعروف بابن التلميذ النصراني، الماهر في الطب، والذي كان من خاصة المتقي بالله. وابن الجواليقي هو الذي كتب «التتمّة» على «درّة الغواص» للحريري، والموسومة بـ «التكملة».

وفي السادس والعشرين من شهر رمضان سنة اثنتين وأربعين وخمسمئة توفي السيد هبة الله بن علي البغدادي المعروف بابن الشجري، النحوي اللغوي الإمامي، ودفن في كرخ بغداد.

وفي سنة أربع وأربعين وخمسمئة هطل دم من السماء فصبغ الأراضي، وبقي أثره على ملابس الناس.

وفي تلك السنة توفي القاضي عِياض المغربي، المحدث الأديب النحوي، وله مصنفات في شرح «صحيح مسلم» وتفسير غريب الصحاح الثلاثة: «الموطأ» و «صحيح مسلم» و «صحيح البخاري» وغير ذلك. وعياض على وزن رياض.

وفي سنة سبع وأربعين وخمسمئة توفي السلطان مسعود السلجوقي. وفي السنة نفسها توفي الشاعر الأنوري، ودفن في بلخ.

وفي سنة ثمان وأربعين وخمسمئة توفي محمد بن عبد الكريم الشهرستاني الأشعري، صاحب «الملل والنحل».

وفي جمادى الآخرة من السنة نفسها توفي أحمد بن منير الشامي، الشاعر الإمامي. قال ابن خلكان: قبره في جبل جوشن بحلب. وقد زرت قبره ورأيت مكتوباً على لوح قبره:

من زار قبري فليكن موقناً أنّ الذي ألقاه يلقاه
فيرحم الله أمرأً زارني وقال لي يرحمك الله

وله قصيدة لطيفة في إظهار تعشّقه بغلامه المسمى بتتر، أوردها بتمامها القاضي نور الله في «مجالس المؤمنين».

وفي سنة ثمان وأربعين وخمسمئة أيضاً ـ وفقاً لبعض الأقوال ـ توفي بسبزوار الشيخ الأجل الأقدم السعيد، والحبر الفقيه الفريد، أبو الإسلام أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي العالم المفسّر المحدّث، والثقة الجليل. وحمل جثمانه الشريف إلى أرض الأقدس حيث ووري الثرى هناك، وقبره الشريف معروف في الموضع المشهور بـ «قتلگاه» (المقتل) حيث جرى في أواخر دولة الصفويين قتل عام بأمر من عبد الله خان الأفغان (ملكهم) وتمّ دفن الشهداء هناك، وسمي الموضع بهذا الاسم تبعاً لذلك.

وهذا الشيخ الجليل هو والد أبي نصر الحسن بن الفضل صاحب «مكارم الأخلاق» وجدّ أبي الفضل علي بن الحسن صاحب «مشكاة الأنوار»، وسلالته كانوا من العلماء.

ومن تصانيف أبي الإسلام الطبرسي كتاب «مجمع البيان» و «جوامع الجامع». وقيل إنه لما وضع تفسير المجمع لم يكن قد رأى «الكشاف» وبعد تأليفه المجمع رأى الكشاف فسرّه ذلك، ثم ألف الجوامع بعد ذلك وضمّنه لطائف الكشاف وفوائد المجمع، وبعد ذلك كتب تفسيراً آخر مختصراً عن كليهما.

ومن تصانيفه أيضاً: «الآداب الدينية» و «أعلام الورى بإعلام الهدى» على نهج «إرشاد» الشيخ المفيد، ونسبته إلى «الإرشاد» كنسبة «مثير الأحزان» لابن نماء، إلى «اللهوف». والعجب أن «ربيع الشيعة» للسيد ابن طاوس نظير «إعلام الورى» دون تفاوت، كما يروي صاحب «الروضات».

وإجمالاً فمحامد أمين الدين الطبرسي أكثر من أن تكتب، ومقالته في الرضاع معروفة، وهي قوله بعدم اعتبار اتّحاد الفحل في نشر الحرمة، وكذا قوله بأن المعاصي كلها كبيرة، وإنما يكون اتصافها بالصغيرة بالنسبة لما هو أكبر.

وعن «الرياض» قال: «ومن عجيب أمر هذا الطبرسي، بل من غريب كراماته ما اشتهر بين الخاص والعام أنه قد أصابته السكتة فظنّوا به الوفاة، فغسلوه وكفنوه ودفنوه، ثم رجعوا، فلما أفاق وجد نفسه في القبر مسدوداً عنه سبيل الخروج من كل جهة، فنذر في تلك الحالة أنه إذا نجا من تلك الداهية ألّف كتاباً في تفسير القرآن، فاتفق أن بعض النباشين قصده لأخذ كفنه، فلما كشف عن وجه القبر أخذ الشيخ بيده، فتحير النباش دهشة مما رآه، ثم تكلم معه فازداد به قلقاً، فقال له: لا تخف، أنا حيّ وقد أصابتني السكتة، ففعلوا بي هذا.

ولما لم يقدر على النهوض والمشي من غاية ضعفه حمله النباش على عاتقه، وجاء به إلى بيته الشريف، فأعطاه الخلعة وأولاه مالاً جزيلاً، وتاب على يده النباش، ثم إنه وفى بعد ذلك بنذره الموصوف وشرع في تأليف «مجمع البيان» انتهى.

ومع هذا الاشتهار ما وجد في مؤلف أحد قبله، وقد تنسب هذه القضية إلى المولى فتح الله الكاشاني، ويقال إنه ألّف بعد نجاته من تلك الواقعة تفسيره الكبير المسمى بـ «منهج الصادقين» والله العالم.

ثم اعلم أن هذا الطبرسي غير أحمد بن علي بن أبي طالب الطبرسي صاحب كتاب «الاحتجاج على أهل اللجاج» شيخ ابن شهرآشوب السروي والمعاصر له في الزمان، والمقارب له في الشأن، وإن اشتبه الأمر في ذلك على البعض.

والطبرستان هي المازندران، وقد توجه النسبة إلى «طبريّا» أيضاً على غير القياس، بخلاف الطبراني فإنه نسبة إلى طبريّة الأردن من بلاد الشام.

وفي سنة ثمان وأربعين وخمسمئة أيضاً توفي الشيخ الأجلّ قطب الدين سعيد بن هبة الله بن الحسن الراوندي، كما هو مثبت في لوح قبره الشريف. غير أن الصحيح، وما هو منقول في «البحار» عن مجموعة الشيخ الشهيد، هو أن تاريخ الوفاة هو الأربعاء الرابع عشر من شوال سنة ثلاث وسبعين وخمسمئة. ومزار هذا العظيم في البلدة الطيبة قمّ، في الصحن الجديد، في الطرف الأسفل فيما يلي قاعدة الحرم الفاطمي المطهر، لا زال مهبطاً للفيوضات السبحانية.

ولهذا الشيخ تصنيفات كثيرة مثل «شرح النهاية» و «خلاصة التفسير» و «الخرائج» و «الجرائح» و «فقه القرآن» و «الدعوات» و «منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة».

ومشايخه كثر. من جملتهم، الشيخ أبو علي الطبرسي، وعماد الدين

الطبري، وغيرهما. كان أبناؤه من الأفاضل والعلماء، ويعود أصله إلى «راوند» في كاشان، التي خرج منها كذلك ضياء الدين أبو الرضا السيد فضل الله بن علي الحسيني الراوندي، تلميذ أبي علي بن الشيخ، وصاحب «ضوء الشهاب في شرح الشهاب» و «النوادر» و «الأربعين» وغيرها. وكثيراً ما يختلط الأمر بين مؤلفات هذين العظيمين بسبب اشتراكهما في الانتساب إلى «راوند».

واعلم كذلك أن قطب الدين يمكن أن تطلق على جماعة من العلماء.

أولهم: قطب الدين الراوندي.

الثاني: العالم الخبير والماهر الأديب أبو الحسن محمد بن الحسين البيهقي السبزواري النيسابوري، المعروف بقطب الدين الكيدري، صاحب «الإصباح» في الفقه، و «الحدائق» في شرح نهج البلاغة، و «مباهج المهج في مناهج الحجج» الذي اختصره الملاّ حسين الكاشفي ووسمه بـ «بهجة المباهج»، وكان فراغه من شرح نهج البلاغة أواخر شعبان سنة ست وسبعين وخمسمئة.

الثالث: الشيخ العالم الأجلّ أبو جعفر محمد بن محمد البويهي والراميني، المعروف بالقطب الرازي والقطب التحتاني، لتفريقه عن القطب الذي كان معه في المدرسة النظامية، وكان له مكان في الغرفة، والقطب الرازي صاحب «المحاكمات» و «شرح المطالع» و «الشمسية» و «الحاشية على قواعد العلاّمة» وغيرها. وهو ينسب إلى بابويه القمي، أو إلى آل بويه، وهو من علماء الإمامية، توفي بدمشق سنة ست وستين وسبعمئة.

الرابع: قطب الدين محمد أشكوري لاهيجي، تلميذ المحقق الطوسي، وصاحب كتاب «محبوب القلوب».

الخامس: قطب الدين المشهور بالقطب المحيي محمد كوشكناري، أستاذ المتكلم الحكيم الملاّ جلال الدواني المعروف.

السادس: العلامة الشيرازي محمود بن مصلح الشافعي الفارسي، شارح

«مختصر ابن الحاجب» والقسم الثالث من «المفتاح» و «كلّيات ابن سينا» وغيرها، وتلميذ الخواجة نصير الدين الطوسي، وخال الشيخ السعدي.

وفي سنة اثنتين وخمسين وخمسمئة توفي بمرو السلطان سنجر بن ملك شاه بن ألب أرسلان السلجوقي، وكان حاكماً على مملكة خراسان وما وراء النهر، وكان يخطب باسمه في العراقين، وكان يلقب بالسلطان الأعظم معز الدين، ونقل أنه جمع في خزائنه أموالاً لم يكن مثلها في خزائن أيّ من ملوك الأكاسرة، وكان في صعود مستمرّ حتى سنة ثمان وأربعين وخمسمئة حيث نشب قتال بينه وبين طائفة من الأتراك، فاستولوا على نيسابور، وقتلوا خلقاً كثيراً، وأسروا السلطان سنجر، ثم تسلط خوارزم شاه على مرو.

بقي السلطان سنجر في الأسر خمس سنين، ثم تخلص من أسره وعاد إلى خراسان، وكان في صدد تشكيل مملكة حين لم يمهله الأجل، وبموته تمّت للسلاجقة السيطرة على خراسان بعد أن استولى عليها خوارزم شاه.

نعود إلى الحديث عن أخبار المقتفي لأمر الله، ففي أيامه خلصت الرئاسة في بغداد للخلفاء دون منازع، بعد أن كانت الخلافة بالنسبة إليهم فيما سبق مجرد اسم.

وفي أيامه أيضاً وقعت زلازل عظيمة، كما حدث في خراسان قحط شديد حتى أن أحدهم قتل شخصاً من السادة العلويين، وطبخ لحمه، وراح يبيعه في السوق. فلما اكتشف الناس أمره قتلوه.

ومن مآثر المقتفي أعمال التجديد في الكعبة. وقال الدميري: صنع المقتفي لنفسه تابوتاً من عقيق ليدفن فيه، وكانت وفاته في شهر ربيع الأول سنة خمس وخمسين وخمسمئة.

خلافة يوسف بن محمد المستنجد بالله

بعد رحيل المقتفي حلّ محلّه ابنه أبو المظفر يوسف المستنجد، وكان ذلك سنة خمس وخمسين وخمسمئة من الهجرة، وذلك وفقاً لما رآه في منامه. فقد نقل ابن خلكان أن المستنجد رأى في نومه في حياة أبيه أن ملكاً نزل من السماء وكتب على كفّ يده أربعة حروف «خ»، فلما أفاق استدعى معبّراً قصّ عليه منامه، فقال له المعبر: تعبيره هو أن الخلافة ستصل إليك سنة خمس وخمسين وخمسمئة، وهكذا كان.

كان للمستنجد إلمام تام بعلم الأسطرلاب وآلات الفلك، وقوله الأشعار البديعة والنثر البليغ ومن أشعاره:

عيّرتني بالشيب وهو وقار ليتها عيّرت بما هو عار
إن تكن شابت الذوائب مني فالليالي تزينها الأقمار

كان المستنجد متّصفاً بالعدل، وقد سعى سعياً حثيثاً للإمساك بالمفسدين وحبسهم، وقيل إنه أمسك برجل كثير الإفساد وحبسه، فلما تقدّم رجل يشفع له ويعرض تقديم عشرة آلاف دينار للخليفة لقاء إطلاقه، قال المستنجد: أنا على استعداد لتقديم عشرة آلاف دينار لك على أن تأتيني بمثله فأحبسه وأريح الناس من شرّه.

كانت وفاته في الثامن من ربيع الثاني سنة ستّ وستين وخمسمئة، أو ستّ وسبعين وخمسمئة على قول.

وفي أيامه، سنة تسع وخمسين وخمسمئة توفي جمال الدين أبو جعفر محمد بن علي بن أبي المنصور الأصفهاني، وزير قطب الدين مودود الزنكي صاحب الموصل، فحمل جثمانه لنقله إلى المدينة، فبادر جماعة من القراء إلى مواكبة الجثمان كي يقرأوا له القرآن عند كل منزل أو مدينة يمرّون بها، فكانوا

يدعون الناس إلى الصلاة عليه فيلبّون. ولما بلغوا الحلّة واجتمع الناس للصلاة عليه اعتلى شاب موضعاً عالياً وأنشد بصوت عالٍ:

سرى نعشه فوق الرقاب وطالما   سرى جوده فوق الركاب ونائله
يمرّ على الوادي فتثني رماله   عليه وبالنادي فتثني أرامله
بفيك الثرى لم تدر من حلّ في الثرى   جهلتَ وقد يستصغر الشيء جاهله

ثم بلغوا بجنازته مكة وطافوا بها، ولما بلغوا المدينة دفنوه إلى جوار قبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، يفصل بينهما خمس عشرة ذراعاً.

وجمال الدين هذا هو الذي جدّد بناء مسجد الخيف بمنى، وبنى جانب الكعبة بالحجارة، وقدم أموالاً كثيرة للمقتفي بالله ولأمير مكة كي ينجزا هذا العمل، وبنى مسجداً على جبل عرفات مع درج يوصل إليه، وبنى هناك أحواضاً للماء، كما بنى سوراً للمدينة المعظمة، ومرابط كثيرة، وجسراً فوق دجلة عند جزيرة ابن عمر من الحجارة والحديد وملاط الصاروج. وقبل أن يُتم بناءه لبّى داعي الحق.

وفي سنة ستين وخمسمئة توفي الشيخ عبد القادر بن محمد جنكي دوست الجيلاني، وقبره في بغداد، وتاريخ ولادته «عشق» ووفاته «عشق كمّل» وكان الصوفية وأهل السنّة يعتقدون به تمام الاعتقاد، ويدعونه بباز الله الأشهب، والغوث الأعظم، وشيخ العارفين، وقطب الزمان. ويروون عنه كرامات وادّعاءات كثيرة شبيهة بادعاءات محيي الدين بن عربي.

فممّا حكي عنه قوله: «عثر الحجاج ولم يكن من يأخذ بيده، ولو أدركت زمانه لأخذت بيده». وقال أيضاً: «أعطيت الآن سبعين باباً من العلم اللدنّي، سعة كل باب ما بين الأرض والسماء».

وحكي عنه أيضاً قوله: «سلمت لي الأرض شرقاً وغرباً، سكنى وغير سكنى، برّاً وبحراً وسهلاً وجبلاً، وكلهم يخاطبوني بالقطبية».

وإجمالاً فهم ينسبونه إلى الإمام الحسين عليه السلام عن طريق «موسى الجون». غير أنه نقل عن صاحب «عمدة الطالب» وغيره من علماء الأنساب

أنهم أنكروا وقالوا: ليس الأمر كذلك، والشيخ نفسه[1] لم يدّع ذلك، وليس المقام مناسباً للتفصيل، والله العالم.

وفي سنة اثنتين وستين وخمسمئة توفي بمرو أبو سعيد عبد الكريم بن محمد السمعاني المروزي الشافعي، المؤرخ النساب، صاحب «الأنساب والتواريخ» المشهور، و «تذييل تاريخ بغداد» وغيرها. و «سمعان: بطن من تميم».

وفي سنة ثلاث وستين وخمسمئة توفي أبو القاسم الحسين بن محمد بن الفضل، المعروف بالراغب الأصفهاني، والمعروف باللغة والعربية والأدب والحديث والشعر وغيرها، والراغب، ولو أنه معدود من علماء الشافعية، لكنه رجل منصف قليل التعصب، ينقل كثيراً عن أهل البيت الأطهار عليهم السلام، ويعبّر عن سيّد الولاية دائماً بأمير المؤمنين عليه السلام.

وقد ألّف كثيراً من كتب الأدب وتفسير القرآن والأخلاق، منها كتاب في الأخلاق نظير كتاب «الأخلاق» للناصري. ومن أشعاره المنقولة عن ذلك الكتاب:

زصد هزار محمد كه درجهان آيد   يكى بمنزله جاه مصطفى نشود
وگرچه عرصهٔ عالم پراز على گردد   يكى بعلم وسخاوت چه مرتضى نشود
جهان اگرچه ز موسى وچوب خالى نيست
يكى گليم نگردد يكى عصا نشود[2]

ومن مصنفاته أيضاً كتاب «المحاضرات» المشتمل على نوادر وحكايات طريفة وغيرها.

---

(١) قال تاج الدين بن محمد بن الحمزة بن زهرة الحسيني في ذكر موت بني الحسن: والشيخ عبد القادر كان رجلاً جليلاً صالحاً، لم يدّع هذه النسبة، وادّعاها أحفاده، وهو من بطون يشتبّر من فارس. والله أعلم (منه ره).

(٢) تعريب لأشعار الراغب مع بعض التصرف:

لو أنّ ألف محمد قد أرسلوا   فعظيمَ شأن المصطفى لن يبلغوا
لو أنّ ملء الكون مِثلاً من علي   فعظيمَ علم المرتضى لن يبلغوا
لو أنّ ملء الكون موسى والخشب   قدرَ الكليم مع العصا لن يبلغوا

خلافة المستضيء بنور لله

بعد أن فارق المستنجد الحياة حلّ أبو الحسن (أبو محمد الحسن ـ خ ل) علي المستضيء محلّ أبيه، ونقل أنه كان جواداً كثير الخيرات والصدقات، ولما استقر له أمر الخلافة خلع ألفاً وثلاثمئة خلعة على أرباب الدولة، وفي أيامه انقرضت دولة بني عبيد في مصر، وصاروا يخطبون باسمه، وعادت دولة بني العباس فازدهرت في مصر وديار اليمن بعد مضيّ مئتين وخمس عشرة سنة على وجودها، وفي عهده فاضت مياه نهر دجلة فأغرقت بغداد، كما طغت مياه نهر الفرات فأتلفت المزارع والقرى، ومع ذلك فقد تلفت مزرعة «الدجيل» من نقص الماء!!.

وفي سنة سبع وستين وخمسمئة توفي عبد الله بن أحمد البغدادي، المعروف بابن الخشّاب، يقول السيوطي: كان الخشاب لا مبالياً في الحفاظ على الناموس، كان يلعب الشطرنج ويكثر من المزاح، وكانت ملابسه رثة قذرة على الدوام، ولم يختر لنفسه زوجة، ونقل السيوطي شرحاً لعدم تديّنه لا يعنينا ذكره.

وفي تلك السنة توفي البوري الشافعي والقرطبي إمام القراء.

وفي سنة ثمان وستين وخمسمئة توفي أبو المؤيد أحمد بن محمد المكي الحنفي، المعروف بالأخطب الخوارزمي، معاصر الزمخشري.

وفي غرّة شوال سنة تسع وستين وخمسمئة توفي سعيد بن المبارك، المعروف بابن الدهّان النحوي البغدادي. وابن الدهّان لقب جماعة من النحاة.

في سنة ثلاث وسبعين وخمسمئة توفي بخوارزم محمد بن محمد بن عبد الجليل البلخي العمري، المعروف برشيد الوطواط، والمنسوب إلى عمر بن الخطاب، كاتب السلطان خوارزم شاه الهندي، ومؤلف «حدائق السحر في دقائق الشعر».

وفي سنة ست وسبعين وخمسمئة توفي ببغداد أبو الفوارس سعد بن محمد بن الصيفي المعروف بـ «حيص بيص» الشاعر، ودفن في مقابر قريش ووجه تلقيبه بحيص بيص أنه رأى الناس يوماً في حركة مزعجة بأمر شديد فقال: ما للناس في حيص بيص، فبقي عليه هذا اللقب، ومن شعره:

ملكنا فكان العفو منا سجيّة .... (الأبيات)

وفي سنة خمس وسبعين وخمسمئة، أو خمس وتسعين وخمسمئة على قول: توفي المستضيء بنور الله.

خلافة أحمد بن المتسضيء الناصر لدين الله

لما ودع المستضيء الدنيا حل محله ابنه أبو العباس أحمد الناصر لدين الله، وذلك في غرة ذي القعدة سنة خمس وسبعين وخمسمئة، أو خمس وتسعين وخمسمئة على قول، وكان الناصر راجح العقل فطناً شهماً، ولما استقر في منصبه أمر بكل شراب أن يراق، وبآلات اللهو واللعب أن تكسّر، فلا جرم أن عمرت البلاد جرّاء عدله، وزادت أرزاق الناس.

كان الناس يفدون إلى بغداد للتبرك، وحكم الناصر مدة فاقت خلفاء بني العباس كافة، وقد عين الجواسيس والعيون بحيث تواجدوا عند كل سلطان، وكانوا يطلعونه على كل ما يستجد من أمور، حتى اعتقد الناس أن الناصر كان من أهل الكشف وذوي الاطلاع على المغيبات، وقال بعضهم إن الجان يقومون بخدمته، وكان ملوك أكابر مصر والشام إذا ذكروا اسمه تكلموا ببطء وهدوء من هيبته، وعاش في عز وجلال حتى فارق الحياة.

قيل إن الناصر[1] كان شيعي المذهب ميالاً إلى الطريقة الإمامية على خلاف آبائه، حتى أن ابن الجوزي السني سئل في محضره: من أفضل الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟ فلم يجرؤ على التصريح باسم أبي بكر بل أجاب مواربة فقال: «أفضلهم بعده من كانت بنته في بيته»، وهذا الجواب كما لا يخفى يتضمن احتمالين:

---

(١) كان للناصر كتاب، قال العلامة (ره) في «كشف اليقين»: من رواية الخليفة الناصر من بني العباس، وروينا كتابه عن السيد فخار بن المعد الموسوي. . الخ (منه ره).

أحدهما: أن المراد من كانت ابنة النبي صلى الله عليه وآله وسلم في بيته، والمقصود أمير المؤمنين عليه السلام.

والاحتمال الآخر: أن ابنة الشخص الأفضل في بيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ويكون المقصود أبا بكر.

وهذا الجواب من لطائف الأجوبة، وكما هو معروف فقد سئل ابن الجوزي عن عدد الخلفاء فأجاب بقوله: «أربع، أربع، أربع» فحملها أهل السنّة على التأكيد، وحملها الشيعة على الأئمة الاثني عشر صلوات الله عليهم.

وكتب ابن خلّكان في ترجمة الملك الأفضل علي بن يوسف صاحب دمشق وغيرها: إن صلاح الدين يوسف، وزير المصريين جعل الملك الأفضل علياً ولياً لعهده، فلما توفي وصار علي أمير دمشق نشب نزاع بينه وبين أخيه عثمان الذي كان يلقب بعزيز مصر، وانتهى الأمر إلى أن أخاه عثمان وعمه الملك العادل حاصراه في دمشق وانتزعاها منه، فكتب الملك الأفضل إلى الناصر يشكو إليه أخاه وعمه لانتزاعهما دمشق منه وضمن رسالته هذه الأبيات:

مولاي إن أبا بكر وصاحبه ... عثمان قد غصبا بالسيف حق علي
وهو الذي كان قد ولاه والده ... عليهما فاستقام الأمر حين ولي
فخالفاه وحلا عقد بيعته ... والأمر بينهما والنص فيه جلي
فانظر إلى حظ هذا الاسم كيف لقي ... من الأواخر مالاقى من الأُول

فجاءه جواب الناصر وفي أوله:

وافى كتابك يابن يوسف معلناً ... بالود يخبر أن أصلك طاهر
غصبا عليّاً حقه إذ لم يكن ... بعد النبي له بيثرب ناصر
فاصبر فإن غداً عليه حسابهم ... أبشر فناصرك الإمام الناصر

يظهر أنه في أيام الناصر سنة اثنتين ثمانين وخمسمئة قد اجتمع الكواكب السبعة في الميزان، فحكم أبو الفضل الخوارزمي المنجم وآخرون بأن العالم إلى خراب بسبب الريح العاصفة، فشرع الناس بحفر المغائر تحت الأرض

وتخزين الماء والطعام فيها، وتهيّؤوا لاستقبال هبوب الأعاصير في الليلة الموعودة، لكن في تلك الليلة التاسعة من جمادى الآخرة لم تهب أي ريح بل هبّ نسيم لطيف حتى أنهم أضاءوا الشموع، وكان الهواء ساكناً حتى أنه لم يحرك شعلة المصابيح، فانبرى الشعراء ينظمون الشعر بهذه المناسبة، ومن أشعار أبي الغنائم محمد بن المعلم التي قالها في هذه الواقعة:

قل لأبي الفضل قول معترف ... مضى جمادى وجاءنا رجب
وما جرت زعزع كما حكموا ... ولا بدا كوكب له ذنب
قد بان كذب المنجمين وفي ... أي مقال قالوا وما كذبوا؟
مدبر الأمر واحد أحد ... ليس لسبع لحادث سبب
لا المشتري سالم ولا زحل ... باق ولا زهرة ولا القطب
فليبطل المدّعون ما وصفوا ... في كتبهم ولتخرق الكتب

وفي سنة ست وسبعين وخمسمئة توفي أحمد بن محمد بن إبراهيم بن سلفة صاحب المصنفات المعروفة، والمشهور بالحافظ السلفي، والسلفي منسوب إلى جدّه «سلفة» وهي لفظة أعجمية بمعنى ثلاث شفاه، بسبب أن إحدى شفتيه كانت مشقوقة، وقال بعضهم إن سلفي بفتح السين نسبة إلى طريقة السلف.

وفي سنة سبع وسبعين وخمسمئة توفي عبد الرحمان بن محمد المعروف بابن الأنباري، النحوي الأنباري، والأنبار كانت قديماً بلدة إلى جانب الفرات، وفي السابق كانت الأنبار طعام كسرى[1]، بينها وبين بغداد عشرة فراسخ، ويطلق ابن الأنباري على جماعة أشهرهم ذلك الرجل، وهو صاحب مؤلفات كثيرة، وكان معروفاً بالزهد والورع وكثرة العلم.

وفي سنة ثمان وسبعين وخمسمئة توفي فخر الأجلّة وشيخ فقهاء الحلّة

(١) هكذا وردت، ولفظة أنبار فارسية معرّبة عن لفظة عنبر وتعني المخزن (المعرّب).

محمد بن أحمد بن إدريس الحلي العجلي الفقيه الأصولي صاحب كتاب «السرائر»، وكان ابن إدريس لا يعمل بأخبار الآحاد، وأول من وضع بناء الطعن والاعتراض على الشيخ الطوسي، كما طعن على العلامة الحلي (ره) كثيراً.

وجاء في «منتهى المقال»: وكان في تلك الأزمنة أن ابن إدريس توفي في ريعان الشباب ولم يكن قد بلغ الخامسة والعشرين، ويقولون: هذا لأنه أساء الأدب مع الشيخ الطوسي (ره).

لكن رأيت في «البحار» نقلاً عن خط الشيخ الشهيد أن ابن إدريس وافى حدّ البلوغ سنة ثمان وخمسين وخمسمئة، وتوفي سنة ثمان وسبعين وخمسمئة، وبناءً عليه يكون قد بلغ الخامسة والثلاثين من عمره.

أما في الرسالة المشهورة للكفعمي في «وفيات العلماء» فبعد أن ذكر وصول ابن إدريس حدّ البلوغ سنة ثمان وخمسين وخمسمئة ذكر نقلاً عن ولده صالح أنه قال: توفي والدي ظهر يوم الجمعة الثامن عشر من شوال سنة ثمان وتسعين وخمسمئة، فيبلغ عمره بناءً على ذلك خمساً وخمسين سنة تقريباً، والله العالم، انتهى.

واعلم أن من معاصري ابن إدريس الشيخ الثقة الجليل سديد الدين أبا الفضل شاذان بن جبرئيل القمي نزيل المدينة، الذي من مؤلفاته كتاب «الفضائل» المعروف، الذي ينقل عنه العلامة المجلسي (ره) في «البحار»، ويتضمن الكثير من نوادر الأخبار والمعجزات الطريفة، كحديث مفاخرة الزهراء مع أمير المؤمنين عليهما السلام، ومفاخرة الإمام الحسين مع أبيه عليهما السلام، وحديث تكلم سلمان مع الميت في مرض موته بالمدائن، وغير ذلك.

وشاذان المذكور يروي عن أبيه جبرئيل، وعن أبي جعفر محمد بن أبي القاسم بن محمد المعروف بعماد الدين الطبري صاحب كتاب «بشارة المصطفى لشيعة المرتضى» وكتاب «الزهد والتقوى» وغيرهما.

وفي سنة إحدى وثمانين وخمسمئة توفي الحكيم الخاقاني الشيرواني الشاعر العجمي المعروف، وهو في طبقة الحكيم النظامي الشاعر المعروف، وينسب إلى شيروان، وهي بلدة بناها أنوشيروان وسماها باسمه.

وفي سنة ثلاث وثمانين وخمسمئة روي أن أول يوم من السنة مع أول يوم من الأسبوع وأول يوم من السنة الشمسية وأول السنة العربية قد توافقت، وأن الشمس والقمر كانا في برج واحد، وهذا من المصادفات العجيبة، وفي تلك السنة فتح السلطان صلاح الدين بيت المقدس مع كثير من بلاد الشام، وانتزعها من أيدي الفرنجة.

وفي سنة خمس وثمانين وخمسمئة توفي السيد الجليل الفقيه عز الدين الحمزة بن علي بن أبي المحاسن الزهري الحسيني المعروف بأبي المكارم بن زهرة، وينتهي نسب هذا السيد الجليل باثنتي عشرة واسطة إلى الإمام الصادق عليه السلام، وكلهم من السادة الأجلّاء، وبنو زهرة من البيوت الشريفة وكثيرون منهم من أحفاد وبني أعمام أبي المكارم الفقهاء، ومن جملتهم: السيد علاء الدين أبو الحسن علي بن محمد بن علي بن الحسن بن زهرة الذي أجازه العلّامة الحلي (ره) مع ابنه أبي عبد الله الحسيني وأخيه السيد بدر الدين محمد، الإجازة الكبيرة المعروفة بإجازة بني زهرة.

وإجمالاً فبنو زهرة بيت جليل من بيوتات حلب، وأشهرهم ابن زهرة المذكور وهو شيخ وأستاذ الشيخ شاذان بن جبرئيل القمي، وصاحب «السرائر»، والشيخ محمد بن مشهدي وغيرهم، ولابن زهرة مصنفات منها: «غنية النزوع إلى علمي الأصول والفروع» والنزوع بضم النون هنا بمعنى الاشتياق.

وفي حدود سنة خمس وثمانين وخمسمئة أيضاً توفي الشيخ منتخب الدين علي بن عبد الله الرازي صاحب «الفهرست» المعروف في أحوال علماء عصر الشيخ الطوسي حتى زمانه، وينتهي نسب هذا الشيخ الجليل إلى الحسين بن علي بن بابويه القمي، والشيخ الصدوق رئيس المحدثين عمه الأعلى، ومشايخه أكثر من أن يحصروا.

وفي غرة ذي الحجة من سنة ست وثمانين وخمسمئة ولد الشيخ الأديب المؤرخ المتكلم عبد الحميد بن بهاء الدين محمد المدايني الأصولي المعتزلي الحكيم المعروف بابن أبي الحديد، هو من شرح «نهج البلاغة» لحساب مكتبة الوزير مؤيد الدين محمد بن محمد بن عبد الكريم القمي، وقال في بداية شرحه:

«الحمد لله الذي تفرّد بالكمال، إلى أن قال: وقدّم المفضول على الأفضل لمصلحةٍ اقتضاها التكليف».

وكان ابن أبي الحديد منصفاً في المحاكمة بين الفريقين، وهو بين علماء أهل السنّة بمنزلة عمر بن عبد العزيز بين الخلفاء الأموية، وله مؤلفات، وله أيضاً القصائد السبع المعروفة في فضائل أمير المؤمنين عليه السلام، التي شرحها نجم الأئمة الشارح الرضي الاسترآبادي الإمامي (ره).

وكان ممن عاصر ابن أبي الحديد السيد الأجل شمس الدين فخار بن معدّ الموسوي صاحب كتاب «حجة الذاهب في ردّ تكفير أبي طالب» وكان من عظماء وقته وكبراء زمانه في الدين والدنيا فخراً وفخارة، بحيث لم يخل منه سند من أسانيد علمائنا الأطياب، وفخار: بفتح الفاء وتخفيف الخاء المعجمة، كما أن اسم أبيه معدّ كمرو مرادفاً لاسم أبي العرب معدّ بن عدنان، وقد أرسل السيد فخار كتابه «حجة الذاهب» إلى ابن أبي الحديد بعد تصنيفه، فكتب على ظهره ما يؤذن بمدح أبي طالب من غير أن يصرّح بإسلامه، على ابن أبي الحديد ما يستحقه، ومات السيد في سنة ثلاثين وستمئة، ويروي السيد فخار عن يحيى بن الحسن المعروف بابن البطريق الحلي الإمامي صاحب «العمدة» و «المناقب»، وبطريق ككبريت: القائد من قواد الروم تحت يده عشرة آلاف رجل.

وفي الثاني والعشرين من شعبان سنة ثمان وثمانين وخمسمئة توفي الشيخ الأجل الأعظم قطب المحدثين محمد بن علي بن شهرآشوب السروي المازندراني صاحب «المناقب» وغيره، ودفن خارج حلب في أعلى الجبل

المعروف بـ «جبل الجوشن» في الموضع الذي فيه قبر ابن منير الشاعر الإمامي الذي توفي سنة ثمان وأربعين وخمسمئة، وقد سبق أن أشرنا إليه، وإلى أن ابن شهرآشوب من شيوخ الشيعة.

ولكن علماء العامة أيضاً اعترفوا بفضله وأجلّوه، وكتبوا في التراجم عن أحواله، واستحسنوا كثرة علمه وعبادته وخشوعه وتهجده، وقد ذكر أنه كان دوماً على طهارة، وحين كان يكتب «المناقب» كان يجمع عنده ألف كتاب عن المناقب، وبهذه البضاعة كلها يقول في بداية «المناقب»:

«فوفقت في جمع هذا الكتاب، مع أني أقول: مالي «وللتصنيف والتأليف مع قلة البضاعة، وعظم شأن هذه الصناعة.. الخ».

ولهذا الشيخ الجليل مشايخ كثر، ومن جملة مشايخه المتكلم الأمين أبو جعفر الرابع عماد الدين محمد بن علي بن محمد الطوسي المعروف بابن حمزة الطوسي، الذي من مؤلفاته: «الوسيلة» في الفقه، و «الكتاب الرابع في الشرائع»، وكتاب «ثاقب المناقب» في معجزات الحجج الطاهرة، وهو في طبقة تلاميذ أبي علي بن الشيخ الطوسي، وكان معاصراً للشيخ الثقة الجليل المفضال أبي علي محمد بن الحسن الواعظ الفارسي النيسابوري الشهيد الملقب بالفتال، مصنف «روضة الواعظين» وكتاب «التنوير في معاني التفسير» وقد استشهد على يدي أبي المحاسن عبد الرزاق رئيس نيسابور الملقب بشهاب الإسلام.

وفي سنة تسعين وخمسمئة توفي القاسم بن فيرة المقرىء النحوي المعروف بالشاطبي، إمام القراءة وصاحب القصيدة المعروفة الموسومة بـ «الحرز اليماني ووجه التهاني» في القراءات، وقد شرح تلك القصيدة جماعة من الفضلاء منهم علي بن محمد الشافعي علم الدين السخاوي، والشاطبي ينسب إلى «الشاطبة» إحدى بلاد الأندلس.

وفي سنة ست وتسعين وخمسمئة توقف الماء في نيل مصر، وعمّ القحط والغلاء حتى راح الناس يأكل بعضهم بعضاً فلا يبقون على ميت،

وشاع أكل الأموات حتى أنهم كانوا ينبشون القبور ويستخرجون الأموات منها ويأكلونها، وتفرق أهل مصر في الشتات وهلك الكثيرون منهم جوعاً، وكان السائر في الطرقات لا تقع عيناه ولا قدماه إلا على ميّت أو على محتضر، وقد هلك أهل القرى والبراري بكاملهم حتى لم يبق منهم حي، وبيع الكثيرون من الأحرار والأطفال، واستمر هذا القحط عدة سنوات.

وفي سنة سبع وتسعين وخمسمئة حدث زلزال عظيم في مصر والشام، ودمر الكثير من الأمكنة والبيوت، وفي شهر رمضان من تلك السنة توفي ببغداد عبد الرحمان بن علي المعروف بأبي الفرج ابن الجوزي الحنبلي، وأبو المظفر يوسف بن قز أوغلي[1] صاحب «التذكرة» و «التاريخ» هو سبطه الذي توفي بدمشق في أواخر سنة أربع وخمسين وستمئة، وذكر أن ابن الجوزي كتب بخطه كتابات كثيرة، وأنه جمع البقايا المتخلفة عن بري أقلامه التي كتب الحديث بها، وكان أوصى بأن يسخّن ماء غسله بتلك البقايا، فلما توفي سخنوا ماء غسله بتلك البقايا فكفت وزادت.

ونسب ابن الجوزي ينتهي بست عشرة واسطة إلى القاسم بن محمد بن أبي بكر، وهو صاحب مؤلفات كثيرة، ونوادر حكاياته كثيرة أيضاً، «وهو رأس الأذكياء، وله قضية لطيفة مع امرأة تحت منبره حيث تفوه بكلمة: سلوني قبل أن تفقدوني، من أرادها فليطالع الصراط المستقيم».

وفي سنة تسع وتسعين وخمسمئة توفي الزاهد العابد أبو عبد الله محمد بن أحمد القرشي المغربي، ذكره ابن خلّكان وقال: كانت له كرامات ظاهرة، ومزاره في بيت المقدس ظاهر يقصد للزيارة والتبرك به، انتهى ملخصاً. والظاهر أن الرجل هو الذي ينسب إليه حكاية: أن من خاف على نفسه وجع البطن فوضع كفه على بطنه وقال ثلاثاً: الليلة ليلة عيدي، ورضي الله عن سيدي أبي عبد الله القرشي لم يصبه ذلك الألم إن شاء الله.

---

(١) قز أوغلي: لفظ تركي يعني ابن الأخت (منه ره).

وفي سنة إحدى وستمئة تغلّب الفرنجة على مدينة القسطنطينية وطردوا الروم منها، وبقيت في أيديهم وتحت تصرفهم حتى سنة ستين وستمئة حيث استعادها الروم منهم.

وفي الثاني من المحرم سنة خمس وستمئة توفي أبو الحسين ورّام بن أبي فراس الحارثي الشيخ الزاهد الصالح، وهو جد السيد ابن طاووس وصاحب كتاب «تنبيه الخاطر» المعروف بمجموعة ورّام، وهو ينقل في هذا الكتاب الكثير عن المخالفين وخاصة عن الحسن البصري.

وفي سنة ست وستمئة توفي بالموصل ابن الأثير صاحب «جامع الأصول».

قال شيخنا البهائي في «كشكوله»: كان ابن الأثير مجد الدين أبو السعادات صاحب كتاب «جامع الأصول» و «النهاية» في غريب الحديث، من أكابر الرؤساء، محظياً عند الملوك، وتولّى لهم المناصب الجليلة، فعرض له مرض كفّ يديه ورجليه فانقطع في منزله، وترك المناصب والاختلاط بالناس، وكان الرؤساء يغشونه في منزله، فحضّر إليه بعض الأطباء والتزم بعلاجه، فلما طببه وقارب البرء، وأشرف على الصحة دفع إليه شيئاً من الذهب وقال: امض لسبيلك، فلامه أصحابه على ذلك وقالوا: هلا أبقيته إلى حصول الشفاء، فقال لهم: إنني متى عوفيت طلبت المناصب، ودخلت فيها، وكلفت قبولها، وأمّا ما دمت على هذه الحالة فإني لا أصلح لذلك، فأصرف أوقاتي في تكميل نفسي، ومطالعة كتب العلم، ولا أدخل معهم في ما يغضب الله ويرضيهم، والرزق لا بد منه، فاختار عطلة جسمه ليحصل له بذلك الإقامة على العطلة عن المناصب، وفي تلك المدة ألف كتاب «جامع الأصول» و «النهاية» وغيرهما من الكتب المفيدة.

وابن الأثير تطلق على عدة أشخاص:

أحدهم: هذا الشخص وهو مبارك بن محمد بن محمد بن عبد الكريم صاحب «النهاية» و «الإنصاف في الجمع بين الكشف والكشاف» و «جامع

الأصول»، وجامع الأصول كتاب يجمع بين دفتيه جميع أحاديث الصحاح الستة للعامة وهي عبارة عن صحيح البخاري، وصحيح مسلم، وموطأ مالك، وسنن النسائي، وجامع الترمذي، وسنن أبي داود السجستاني.

والآخر: علي بن محمد بن محمد بن عبد الكريم مؤلف كتاب «كامل التواريخ»، و «أسد الغابة في معرفة الصحابة»، الذي توفي في أيام المستنصر سنة ثلاثين وستمئة.

والثالث: نصر الله بن محمد بن عبد الكريم الملقب بضياء الدين الذي توفي سنة سبع وثلاثين وستمئة.

وفي سنة ست وستمئة أيضاً في يوم عيد الفطر توفي بهراة الفخر بن الخطيب محمد بن عمر المعروف بالفخر الرازي صاحب «التفسير الكبير» وغيره.

وفي سنة ثمان وستمئة اجتاح التتار بلاد المسلمين وفعلوا ما فعلوا كما ذكر ابن الأثير في «الكامل»، وقد امتازت فتنتهم عن فتنة بخت نصّر ويأجوج ومأجوج وجميع الفتن الأخرى، وتراجع هناك.

وفي سنة عشر وستمئة توفي علي بن محمد المعروف بابن خروف النحوي، وفي تلك السنة أيضاً توفي عيسى بن عبد العزيز المعروف بالجزولي، «وكان الجزولي إماماً في علم النحو، كثير الاطلاع على دقائقه وغريبه وشاذه، وصنف فيه المقدمة التي سماها بالقانون، والجزولي بضم الجيم والزاء وسكون الواو: نسبة إلى الجزولة، وهي بطن من البربر».

وفي سنة عشر وستمئة أيضاً توفي بخوارزم الناصر بن عبد السيد الفقيه المعتزلي الحنفي الأديب النحوي المعروف بالمطرّزي، نسبة إلى مطرِّز كمنجّم، وله مؤلفات منها: «شرح مقامات الحريري»، وكانت ولادته بخوارزم، ولهذا السبب لقّب بخليفة الزمخشري.

وفي سنة ست عشرة وستمئة توفي الشيخ أبو البقاء عبد الله بن الحسين

العكبري البغدادي الضرير، النحوي الحنبلي، وأبو البقاء فقد بصره من الجدري، ومع كونه ضريراً فقد ألف كتباً وشروحاً كثيرة منها كتاب «التباين في إعراب القرآن» المعروف بـ «تركيب أبي البقاء»، و «عكبر» بضم المهملة وسكون الثاني وفتح الموحدة: بليدة على شاطىء دجلة، فوق بغداد بعشرة فراسخ، ومنها الشيخ المفيد (ره).

وفي سنة ثماني عشرة وستمئة في شهر صفر قتل بخوارزم على يد عسكر المغول أحمد بن عمر الصوفي المعروف بنجم الدين الكبري، والمكنى بأبي حباب صاحب كتاب «منازل السائرين» وغيره.

وفي سنة ثماني عشر وستمئة أيضاً جرى قتل عام في نيسابور على يد المغول، ويقولون: إن صهر جنكيزخان «تغاجار» أمر من قبل «توليخان» بفتح نيسابور، فحاصرها، وفي اليوم الثالث من الحصار أصابه سهم فمات في الحال، فلما بلغ توليخان خبر ذلك، بعد القتل العام الذي جرى في مرو وسرخس، قدم إلى نيسابور، فبعث أهل نيسابور بالقاضي ركن الدين علي كي يشفع لهم عند توليخان، فلم يستمع إلى شفاعته، وقام بحصار نيسابور في الثاني عشر من صفر، وفتحها بعد أربعة أيام من الحصار، ودخل المغول المدينة فقتلوا حاكمها مجير الملك، وساقوا نساءها ورجالها إلى الصحراء وقتلوهم عن آخرهم، واقتصّت ابنة جنكيزخان لمقتل زوجها بتدمير أبنية المدينة بالكلّية، وسلّطوا الماء على المدينة سبعة أيام بلياليها ثم حرثوها وبذروها بالشعير، وقال صاحب «حبيب السير»: إنه باستثناء العورات والأطفال فقد قتل ألف ألف وسبعمئة وسبع وأربعون ألف نفس، والله العالم.

وفي سلخ شهر رمضان سنة اثنتين وعشرين وستمئة توفي الناصر العباسي، وقد ابتلي قبل وفاته بسنتين بمرض الفالج، وامتد حكمه سبعاً وأربعين سنة، ومن الأبنية التي شيدها: بقعة العباس والأئمة الأربعة عليهم السلام بالبقيع، كما بنت أمه سنة سبعين وخمسمئة قبة للحمزة في أُحد، كما بني بأمر من الناصر سنة ست وستمئة في سامراء بين الصفّة

والسرداب المقدس، شباك مع باب من خشب الساج، والباب لا يزال موجوداً إلى أيامنا سنة خمس وعشرين وثلاثمئة وألف، ولا يزال بأعلى درجة من الامتياز، ويعدّ حقاً من نفائس العصر في صناعة النجارة، مع أنه بعد هذا الزمن المديد ومع مرور الدهور لم يكن موضع اهتمام ومراقبة، وقد احترقت مواضع منه بالشمع والقناديل، فما يزال كأثمن الجواهر لألاءً وإشراقاً، وقد كتب عليه: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ * قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾.

هذا ما أمر بعمله سيدنا ومولانا الإمام المفترض طاعته على جميع الأنام أبو العباس أحمد الناصر لدين الله المبين، أمير المؤمنين وخليفة رب العالمين، الذي طبّق البلاد إحسانه وعدله، وغمر البلاد برّه وفضله، قرن الله أوامره الشريفة بالنجح والنشر، وجنوده بالتأييد والنصر، وجعل لأيامه المخلدة جداً لا يكبو جواده، ولرايته الممجدة سعداً لا يخبو زناده، في عز تخضع له الأقدار فتطيعه عواصيها، وملك تخشع له الملوك فتملّكه نواصيها، وبتولي المولوي الحسين بن سعد الموسوي الذي يرجو الحياة في أيامه المخلدة، ويتمنى إنفاق عمره في الدعاء لدولته المؤيدة.

استجاب الله دعوته في أيامه الشريفة السنية من سنة ست وستمئة الهلالية».

خلافة محمد بن الناصر الظاهر بأمر الله

في سنة اثنتين وعشرين وستمئة توفي الناصر، فحلّ محلّه ابنه أبو النصر محمد الظاهر بأمر الله، وكان حسن الهيئة نقي السيرة شاد للعدل والقسط بناءً ويقول ابن الأثير:

أظهر الظاهر العدل والقسط فأعاد سنّة العمرين، وإن قيل إنه لم يأت بعد عمر بن عبد العزيز خليفة مثل الظاهر، فالقول صحيح، وإجمالاً فقد ردّ الأموال المغصوبة على أصحابها، وأطلق السجناء من قيودهم، ومنح العلماء والصلحاء ليلة عيد النحر مئة ألف دينار، وكان يقول:

«الجمع شغل التجار، وأنتم إلى إمام فعّال أحوج منكم إلى إمام قوّال، اتركوني أفعل الخير فيكم ما بقيت أعيش».

لكن مدة خلافته كانت قصيرة، فقد حكم تسعة شهور وبضعة أيام، ومات مقتولاً على يد حاجبه سنة ثلاث وعشرين وستمئة.

خلافة المستنصر بالله

لما ارتحل الظاهر عن الدنيا حل محله ابنه المستنصر بالله أبو جعفر المنصور، ولما استقر له الملك أقام بناء العدل والقانون ورفع من شأن أهل العلم والدين، وبنى المساجد والمراتب، كما بنى ببغداد، في الجانب الشرقي من دجلة، مدرسة لا مثيل لها ولا نظير، ووقف لها الكثير من الأوقاف، وعين لها أربعة مدرسين يدرّسون على المذاهب الأربعة، كما بنى مشفى، وجمع جيشاً عظيماً لحرب التتار، وقيل إن عدد جنده بلغ مئة ألف فارس، حارب التتار بهم فهزمهم، وفي يوم الجمعة العاشر من جمادى الآخرة سنة أربعين وستمئة فارق الحياة.

يقول المؤلف: لقد سبق منا القول في ذيل تاريخ المقتدر بالله، الخليفة العباسي الثامن عشر، إنّ كل سادس من خلفاء بني العباس ينتهي إما مخلوعاً أو مقتولاً، وإما مقتولاً ومخلوعاً، وقد استمر الأمر على هذا المنوال حتى المستنصر بالله الخليفة السادس والثلاثين، فلم يكن بالمقتول ولا بالمخلوع، نعم، بعد المقتدر، إذا عدّ عبد الله بن المعتز المرتضي بالله في عداد الخلفاء، كما يقول الدميري، فالقاعدة محكمة وفي محلها، وإلا فستنتقض تلك القاعدة.

يمكن أن يقال كما يقول الدميري، مع أن المستنصر لم يخلع من الخلافة غير أن جيش التتار تنامت قوته في أيامه، وانتهكوا العديد من بلاد المسلمين، فهذا أعظم وأتم من الخلع، ذلك أنه لم تقم لبني العباس بعدها قائمة في العراق، فبعد المستنصر لم يكن لبني العباس من خليفة سوى واحد

هو المستعصم، الذي قتل، وانقرضت بقتله خلافة بني العباس في العراق، وذلك سنة ستّ وخمسين وستمئة، كما سيأتي ذكره إن شاء الله تعالى.

وفي أيام المستنصر سنة أربع وعشرين وستمئة توفي جنكيزخان بعد أن بذر من الفتن في ديار الإسلام مِن قتلٍ وأسر وإغارة وتخريب للبلاد، وخاصة بلاد العجم، ما لا يحصى، وقد ذكر ذلك ابن أبي الحديد على سبيل الاختصار في شرحه لكلام أمير المؤمنين عليه السلام في نهج البلاغة: «**كأني أراهم قوماً كأن وجوههم المجانّ المطرّقة**». يقول ابن أبي الحديد: منذ زمان آدم حتى عصرنا لم تجر واقعة كهذه. وعلى من يطلب التفصيل الرجوع إليه هناك.

وفيه قال: «ثم ساروا إلى نيسابور ففعلوا به ما فعلوا بمرو من القتل والاستئصال، ثم عمدوا إلى طوس فنهبوا وقتلوا أهلها، وأخربوا المشهد الذي به علي بن موسى الرضا عليه السلام، والرشيد هارون بن المهدي.

وفي سنة ست وعشرين وستمئة توفي ياقوت الحموي صاحب «معجم البلدان» و «معجم الأدباء» و «معجم الشعراء» و «مراصد الاطّلاع» وغيرها.

وكان أولاً مملوكاً لتاجر ببغداد يعرف بعسكر، وكان ياقوت متعصباً على مولانا أمير المؤمنين عليه السلام، وأراد الناس أن يقتلوه لذلك، فانهزم من بغداد إلى حلب والموصل، ثم خراسان وغيرها، وكان يميل إلى مذهب الخوارج.

وفي سنة سبع وعشرين وستمئة توفي فريد الدين الشيخ العطار.

وفي سنة ثلاثين وستمئة توفي بالموصل علي بن محمد المعروف بابن الأثير الجزري، ومن مؤلفاته كتاب «كامل التواريخ» الذي ابتدأ فيه تواريخ السنين من أول الزمان حتى آخر سنة ثمان وعشرين وستمئة، وله كذلك «أنساب السمعاني» الذي كان ثمانية مجلدات اختصرها إلى ثلاثة، ولأن ولادته كانت سنة خمس وخمسين وخمسمئة في جزيرة ابن عمر فكان يقال له الجزري، وهذه الجزيرة بلدة في شمال الموصل يحيط بها دجلة كما الهلال.

وفي سنة إحدى وثلاثين وستمئة توفي أبو الحسن الآمدي علي بن محمد الأصولي الحنبلي ثم الشافعي، و «آمد» بمدّ الهمزة والميم المكسورة إحدى بلاد «ديار بكر»، وفي السنة نفسها توفي محمد بن أبي بكر المعروف بابن الخباز.

وفي مطلع سنة اثنتين وثلاثين وستمئة توفي أبو حفص شهاب الدين[١] عمر بن محمد السهروردي الشافعي الصوفي، وينتهي نسبه إلى محمد بن أبي بكر، وكان مرجع طريقة، وممن أدركه الشيخ السعدي، ونقل كلمتين من وصاياه أوردهما شعراً، مضمونه:

قال سعدي بـ «بستانه»: لقد محضني السهروردي نصيحتين، إحداهما: غضّ عن عيوب الآخرين بصرك، وثانيتهما: احذر العجب والتكبر.

و «سَهْرَوَرْدْ»: بلدة تقع بالقرب من «زنجان» وفي «أنساب السمعاني» جاءت بضم السين.

وفي سنة ثمان وثلاثين وستمئة توفي «قدوة العارفين أبو عبد الله محمد بن علي بن محمد المتكرر ثلاثاً، المغربي الأندلسي، ثم المكي، ثم الشامي الملقب بمحيي الدين بن العربي، كان من أركان سلسلة العرفاء، وأقطاب أرباب المكاشفة والصفاء مماثلاً للشيخ عبد القدر الجيلاني، والمدفون بصالحية دمشق، صاحب «فصوص الحكم» وكتاب «الفتوحات المكية» وغيرهما، ولعلمائنا فيه كلمات تدل على انحرافه عن مذهب الحق، وابتلائه بالوسوسة والخيال، وتنطقه بالخرافات الكثيرة، فراجع كتاب «بشارة الشيعة» للمحدث الكاشاني، وكتاب «مقامع الفضل» في جواب من سأله عن أدلة القائلين بوحدة الوجود.

---

(١) قبر الشيخ شهاب الدين المقتول في «كلات» في موضع يقال له سرود، ولعل سرود هي سهرورد (منه ره).

ولكن صاحب «المجالس» أظهر تشيعه، كما هو دأبه، ونقل عن الفاضل الدميري صاحب «حياة الحيوان» عن الذهبي، عن الشيخ فتح الدين اليعمري، عن الشيخ أبي الفتح القشيري أنه قال: سمعت الشيخ عز الدين بن عبد السلام يقول وقد سئل عن ابن العربي، فقال: شيخ سوء كذاب، فقيل له: وكذاب أيضاً؟ قال: نعم، تذاكرنا يوماً نكاح الجن فقال: الجن روح لطيف، والإنس جسم كثيف، فكيف يجتمعان؟.

ثم غاب عنا مدة وجاء في رأسه شجة، فقيل له في ذلك فقال: تزوجت امرأة من الجن فحصل بيني وبينها شيء فشجتني هذه الشجة، ثم قال: قال الإمام الذهبي، وما أظن ابن العربي تعمد هذه الكذبة وإنما هي من خرافات الرياضة. انتهى.

ونقل عنه أنه كان له يد طولى في علم الحروف، ومن استخراجه: إذا دخل السين في الشين ظهر قبر محيي الدين، فلما دخل السلطان سليم الشام تفحص عن قبره وعَمَره بعد الاندراس، ومنه ما أنشد في ظهور القائم عليه السلام:

إذا دار الزمان على حروف   ببسم الله فالمهديّ قاما
إذا دار الحروف عقيب صوم   فأقروا الفاطمي منه السلاما

وذكر في الباب الثلاثمئة والستة والستين من «الفتوحات» صفات إمامنا المهدي صاحب الأمر عليه السلام وعلامات ظهوره في قوله: إن لله خليفة يخرج من عترة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من ولد فاطمة عليها السلام يواطىء اسمه اسم رسول الله. وله في الباب ٣١٨ وغيره منها كلام في الرد على أهل الرأي والقياس كأبي حنيفة وأضرابه، لا يناسب المقام نقله.

خلافة المستعصم بالله وزوال دولة بني العباس

في سنة أربعين وستمئة توفي المستنصر فحلّ محله ابنه أبو أحمد عبد الله المستعصم، وهو آخر خلفاء بني العباس الذين حكموا في العراق، وامتد حكمهم خمسمئة وأربعاً وعشرين سنة، ولما استقر المستعصم على كرسي الحكم أسند تسيير أمور المملكة إلى وزيره مؤيد الدين العلقمي[1] القمي، وانشغل هو باللهو بالحمام واللعب والطرب والملذات، وفي أيامه أغار أبو بكر ابنه على محلة الكرخ ببغداد، حيث مساكن الشيعة، وأسر جمعاً غفيراً من السادة، ويقال إنه أسر ألف بنت من العلويات وغيرهن، فلا جرم أن مؤيد الدين الوزير العلقمي انصرف إلى العمل على زوال دولة بني العباس ما لم يتولّ الحكم واحد من بني أمير المؤمنين صلوات الله عليه، فاتصل خفية بالتتار وكاتبهم وأغراهم بالاستيلاء على بغداد وقتل المستعصم، بعد أن فرق جيشه عنه.

حملة هولاكو على بغداد ومقتل المستعصم

وفي سنة ست وخمسين وستمئة تحرك هولاكو[2] مع جيش التتار نحو

---

(١) الوزير العلقمي اسمه أبو طالب محمد بن علي بن محمد (منه ره).

(٢) هولاكو خان من أولاد جنكيزخان المغولي، ويظهر من مكتوب المحقق الطوسي (ره) إلى أمير الحلّة والذي كان في موكبه أن ورود هولاكو إلى بغداد كان سنة خمس وخمسين وستمئة، وحسب ما نقل عن «الكشكول» أن المحقق الطوسي (ره) كتب إلى أمير الحلّة:
أما بعد فقد نزلنا بغداد سنة خمس وخمسين وستمئة، فساء صباح المنذرين، فدعونا مالكها إلى طاعتنا فأبى، فحق عليه القول فأخذناه أخذاً وبيلاً، وقد دعوناك إلى طاعتنا، فإن أتيت فروح وريحان وجنة نعيم، وإن أبيت فلا سلطان منك عليك، فلا تكن كالباعث على حتفه بظلفه، والجازع مارن أنفه بكفه، والسلام. (منه ره).

بغداد، وقد وردها يوم عاشوراء، قال الوزير العلقمي للمستعصم: إن ملك التتار يرغب بتزويج ابنته من ابنك الأمير أبي بكر، وتبقى أنت في منصب الخلافة، وسيكون معك كما كان السلاجقة مع آبائك، فإن رأيت في هذا مصلحة فيحسن أن نقصد منازلهم ونبرم معهم الصلح والتواصل، كي نحقن دماء الناس ونفض النزاع بالمصالحة.

ولما كان المستعصم يفتقر إلى الرأي والتدبير فقد جازت عليه خدعة الوزير وتركت أثرها العميق في نفسه، فخرج بصحبة الأعيان وأكابر الدولة والعلماء قاصداً منزل هولاكو، فأفسح لهم هولاكو مكاناً في خيمة، واستدعى الوزير علماء بغداد وفقهاءها ليكونوا شهوداً في مجلس الصلح، ولما التأم الجمع شهر التتار سيوفهم وضربوا أعناقهم، ثم انثالوا إلى داخل بغداد بسيوفهم المشرعَة يهرقون دماء الناس طيلة أربعين يوماً وذكر أنهم قتلوا منهم ما يربو على ألفي ألف وثلاثمئة ألف نفس، وجرت دماء الناس أنهاراً تصب في دجلة، وقد وضعوا المستعصم وابنه في جولقين وراحوا يركلونهما بالأقدام حتى هلكا، وقيل إنهما وضعا في آلة لسحق الجصّ فسحقتهما حتى هلكا، وكانت هذه الواقعة في الثامن والعشرين[١] من المحرم سنة ست وخمسين وستمئة وفقاً لما ورد في مادة (دم).

وقال الدميري: إن الأمر كان شديد الوطأة على الناس بحيث لم تتوفر فرصة لأحد كي يكتب تاريخ موت المستعصم ودفن جسده.

قال الذهبي: لا أحسب أن أحداً قام بدفن الخليفة، وكان البلاء عظيماً بحيث لم ير مثيل له في أي مكان.

وجاء في أخبار الدول نقلاً عن صاحب «الطيوريات» أنه لما وضع

(١) أشار السيد ابن طاووس (ره) إلى أن هذه الواقعة جرت في الثامن والعشرين من محرم الإقبال (منه ره).

كعب بن زهير الشاعر قصيدة «بانت سعاد» لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قدم له بردته منحة، وبقيت تلك البردة عند كعب حتى زمان معاوية الذي أعطاه بها عشرة آلاف درهم فأبى. ولما توفي كعب بعث معاوية لأبنائه بعشرين ألف درهم وأخذ البردة منهم.

بقيت البردة عند الخلفاء تنتقل من خليفة إلى من يليه، وكانت موضع اهتمامهم وعنايتهم، يضعونها في الأعياد على أكتافهم ويتبركون بها، حتى وصلت إلى المستعصم.

وفي ذلك اليوم الذي خرج فيه المستعصم للقاء هولاكو كانت البردة على كتفيه، وفي يده قضيب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فلما قتل هولاكو المستعصم أحرق البردة والقضيب، وطرح رمادهما في دجلة وقال: إني لم أفعل ما فعلت بقصد الإهانة لكني أردت تطهير البردة والقضيب لأنهما مسّا أبدان الخلفاء.

وإجمالاً فقد قتل هولاكو من بقي من أبناء المستعصم واتخذ بناته أسيرات، وبقتل المستعصم زال حكم بني العباس في العراق، وعلى مدى ثلاث سنوات ونصف لم تقم لخليفة من بني العباس قائمة، وبعد ذلك عادت الخلافة العباسية إلى الظهور في مصر.

وفي أيام المستعصم سنة ثلاث وأربعين وستمئة توفي بدمشق علي بن محمد الملقب بعلم الدين السخاوي، النحوي المقرىء الشافعي، شارح الشاطبية، والسخاوي نسبة إلى «سخا» من أعمال مصر، وفي تلك السنة أيضاً توفي موفق الدين يعيش بن علي بن يعيش النحوي، المعروف بابن الصائغ.

وفي سنة خمس وأربعين وستمئة توفي عمر بن محمد المعروف بالشلوبيني الأندلسي النحوي، والشلوبين بلغة الأندلس: الأبيض الأشقر».

وفي سنة خمس وأربعين وستمئة أيضاً انتشر الطاعون في البصرة، وقال ابن الجوزي: استمر الطاعون أربعة أيام، فأهلك في اليوم الأول سبعين ألفاً،

وفي اليوم الثاني واحداً وسبعين ألفاً، وفي اليوم الثالث ثلاثة وسبعين ألفاً، وفي اليوم الرابع مات الناس جميعهم عدا آحاد منهم بقوا على قيد الحياة.

وفي سنة ست وأربعين وستمئة توفي بالإسكندرية عثمان بن عمر المالكي الكردي، المعروف بابن الحاجب، صاحب «مختصر الأصول» و «مختصر الفقه» و «الكافية» في النحو، و «الشافية» في الصرف وغيرها، «وكان أبوه جندياً كردياً حاجباً للأمير عز الدين الصلاحي».

والمشهور أن ابن الحاجب قتل في وقعة هولاكو ببغداد بعد أن احتال على إخفاء نفسه في وعاء كبير مملوء بالدم وموضوع على كرسي، لكن الخواجة نصير اكتشفه بالاستعانة بالرمل، والحكاية معروفة.

ومن أشعار ابن الحاجب المفيدة في المؤنث السماعي:

نفسي الفداء لسائل وافاني ... لمسائل فاحت كغصن البان
أسماء تأنيث بغير علامة ... هي يا فتى في عرفهم ضربان

موجز عن أحوال العلاّمة الحلي

وفي التاسع عشر من شهر رمضان سنة ثمان وأربعين وستمئة ولد آية الله جمال الملّة والحق والدين أبو منصور الحسن بن الشيخ الفقيه سديد الدين يوسف بن المطهر الحلي، المعروف بالعلاّمة، رفع الله مقامه، وكان (ره) ابن أخت المحقق الحلّي، وتصانيفه أكثر من تسعين، ونقل أن تصانيفه وزعت على أيام عمره الشريف من المهد إلى اللحد فجعل نصيب كل يوم منها كرّاساً.

وعن مولانا الآغا حسين الخوانساري قال: «حسبنا تصانيفه التي هي بين أظهرنا فصار بإزاء كل يوم ثلاثون بيتاً تخميناً، وله حكاية مليحة مشهورة في مباحثته مع المخالفين في مجلس السلطان الجايتو محمد المغولي الملقب بشاه خدابنده في أخذ نعله ونسبة سرقة نعل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى الأئمة الأربعة السنّية، وإنكارهم عليه بأنهم لم يكونوا في زمان الرسول

صلى الله عليه وآل وسلم حتى يسرقوا نعله، إلى آخر ما وقع منه (ره) في ذلك المجلس معهم بحيث غلب على العلماء السنّية وتشيّع الملك ببركته، وبعث إلى البلاد والأقاليم حتى يخطبوا باسم الأئمة الاثني عشر، وينقشوا أساميهم على أطراف المساجد والمشاهد، ولو لم يكن له (قده) إلا هذه المنقبة لفاق بها على جميع العلماء فخراً، فكيف ومناقبه لا تحصى، وهذه القضية معروفة بين الفريقين.

ففي بعض تواريخ العامة قال: ومن سوانح سنة سبع وسبعمئة إظهار خدابنده التشيع بإضلال المطهر.

وأنت خبير بان مثل هذا الكلام صدر من أي قلب محزون. مات (رحمه الله) بمحروسة الحلة في ليلة الحادي والعشرين من محرم سنة ست وعشرين وسبعمئة، ودفن في جوار أمير المؤمنين عليه السلام، وقد تلمذ على أبيه وخاله المحقق، وعلى المحقق الطوسي، وعلى ابن عمر الكاتبي القزويني صاحب «الشمسية» وغيرهم من علماء العامة والخاصة.

كتاب طبقات العلماء

وأصحاب الأئمة والشعراء

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة على محمد وآله الطاهرين. وبعد، فيقول المجرم المسيء «عباس القمي عفا الله عنه»:

حيث إن كتاب «تتمة المنتهى في وقائع أيام الخلفاء» يشتمل على مطالب كثيرة منها تعيين طبقات الخلفاء وأصحاب الأئمة والعلماء والشعراء وغيرهم، وإن معرفة الطبقات كانت أمراً عظيم الأهمية ولازماً، فقد كتبت هذه الفهرسة للكتاب، وجعلتها بحيث تكون كتاباً مستقلاً بذاته في الطبقات.

لا جرم أن كتاب «تتمة المنتهى» يصل بنا إلى ما بعد قتل المستعصم سنة ست وخمسين وستمئة، فأضفت إلى فهرسه طبقات العلماء صعوداً إلى زماننا، وفي ترجمة كل منهم كتبت مختصراً عن أحوالهم، ولكن نظراً لكثرة الانشغال والابتلاءات فلم أوفق إلى فرصة الاستيعاب للموضوع، واقتصرت على هذا المقدار الذي أمكنني الظفر به وآمل أن يعرف أهل العلم قدر ذلك، وألا ينسوا الداعي من دعاء الخير **«وما توفيقي إلا بالله»**.

وقائع المئة الأولى

السنوات بالأرقام

١٠ - في سنة عشر من الهجرة: تسلم أبو بكر بن أبي قحافة الخلافة، وكان ذلك سنة ست وثلاثين ومئة وستة آلاف من هبوط آدم.

١٢ - في سنة اثنتي عشرة: توفي زيد بن الخطاب، وأبو حذيفة، وسالم وثابت بن قيس خطيب الأنصار، وأبو دجانة، وأبو العاص بن الربيع صهر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

١٣ - في سنة ثلاث عشرة: توفي أبو بكر وخلفه عمر بن الخطاب.

١٤ - في سنة أربع عشرة: وفاة أبي عبيدة والد المختار، وأبي قحافة والد أبي بكر، وإحداث صلاة التراويح، وفتح الشام.

١٥ - في سنة خمس عشرة: وفاة عكرمة بن أبي جهل، والفضل بن العباس، وخالد بن الوليد، وعمرو بن أم مكتوم الأعمى، وأبي زيد الأنصاري، وسعد بن عبادة.

١٦ - في سنة ست عشرة: فتح الأهواز وجلولاء، ووضع التاريخ الهجري.

١٧ - في سنة سبع عشرة فتح تستر وجاسوس.

١٨ - في سنة ثماني عشرة: وفاة معاذ بن جبل، وأبي عبيدة بن الجراح، ووقوع طاعون عمواس بالشام، حيث هلك خمسة وعشرون ألف نفس، منهم بلال المؤذن.

١٩ - في سنة تسع عشرة: وفاة أبيّ بن كعب، وزينب بنت جحش، وأسيد بن خضير، وأبي سفيان بن الحرث بن عبد المطلب.

٢٠ - في سنة عشرين: فتح مصر والإسكندرية.

السنوات بالأرقام

٢١ ـ في سنة إحدى وعشرين: فتح نهاوند ودينور وهمدان وسائر الفتوحات، وولادة الحسن البصري، والشعبي.

٢٢ ـ في سنة اثنتين وعشرين: فتح أذربيجان وقزوين وزنجان وقومس وخراسان وبلخ وغيرها.

٢٣ ـ في سنة ثلاث وعشرين: مقتل عمر وخلافة عثمان بن عفان.

٢٥ ـ في سنة خمس وعشرين: فتح الإسكندرية وإفريقية.

٢٦ ـ في سنة ست وعشرين: ورود عثمان إلى مكة بقصد العمرة، وأمره بتوسعة المسجد الحرام.

٢٩ ـ في سنة تسع وعشرين: ذهاب عثمان إلى الحج، وصلاته القصر تماماً، وتوسعة المسجد النبوي الشريف.

٣٠ ـ في سنة ثلاثين: جمع المصاحف بأمر من عثمان، وكتابة عدد منها بعث بها إلى البلدان.

٣١ ـ في سنة إحدى وثلاثين: وفاة أبي سفيان بن حرب، والحكم بن أبي العاص، ومقتل يزدجرد آخر ملوك الفرس، وانقراض مملكة آل دارا.

٣٢ ـ في سنة اثنتين وثلاثين: وفاة العباس عم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وأبي ذر الغفاري (رضي الله عنه) وابن مسعود، وعبد الرحمان بن عوف.

٣٣ ـ في سنة ثلاث وثلاثين: وفاة المقداد(رضي الله عنه).

٣٥ ـ في سنة خمس وثلاثين: مقتل عثمان، وخلافة أمير المؤمنين علي صلوات الله عليه وعلى أولاده.

٣٦ ـ في سنة ست وثلاثين: وقوع حرب الجمل، ومقتل طلحة والزبير، وشهادة زيد بن صوحان (رضي الله عنه).

٣٦و٣٧ـ في سنتي ست وثلاثين وسبع وثلاثين: حرب صفين، وشهادة عمار بن ياسر، وخزيمة بن ثابت ذي الشهادتين، والمرقال رحمهم الله، وواقعة ليلة الهرير.

السنوات بالأرقام

٣٨ ـ في سنة ثمان وثلاثين: واقعة النهروان، وإيالة مصر إلى عمرو بن العاص، وشهادة محمد بن أبي بكر ومالك الأشتر (رحمهما الله).

٤٠ ـ في سنة أربعين: شهادة أمير المؤمنين وخلافة الإمام الحسن عليهما السلام.

٤١ ـ في سنة إحدى وأربعين: إمارة معاوية بن أبي سفيان وخلافته.

٤٣ ـ في سنة ثلاث وأربعين: وفاة عمرو بن العاص.

٥٠ ـ في سنة خمسين: شهادة الإمام الحسن عليه السلام.

٥١ ـ في سنة إحدى وخمسين: شهادة حجر بن عدي (رضي الله عنه).

٥٢ ـ في سنة اثنتين وخمسين: وفاة أبي موسى الأشعري.

٥٣ ـ في سنة ثلاث وخمسين: هلاك زياد بن أبيه.

٥٥ ـ في سنة خمس وخمسين: وفاة سعد بن أبي وقاص.

٥٧ ـ في سنة سبع وخمسين: ولادة الإمام الباقر عليه السلام، ووفاة عائشة، وأبي هريرة.

٥٩ ـ في سنة تسع وخمسين: وفاة أم سلمة، وسعيد بن العاص أمير الكوفة.

٦٠ ـ في سنة ستين: وفاة معاوية، وخلافة يزيد بن معاوية.

٦١ ـ في سنة إحدى وستين: واقعة الطف، وشهادة سيد الشهداء عليه السلام.

٦٣ ـ في سنة ثلاث وستين: واقعة الحرة، وإحراق بيت الله الحرام.

٦٤ ـ في سنة أربع وستين: وفاة يزيد، وخلافة معاوية بن يزيد، وعبد الله بن الزبير، ومروان بن الحكم.

٦٥ ـ في سنة خمس وستين: وفاة مروان بن الحكم، وخلافة عبد الملك بن مروان، وخروج شيعة الكوفة انتقاماً من قتلة سيد الشهداء عليه السلام، وشهادتهم في «عين وردة».

٦٦ ـ في سنة ست وستين: مقتل ابن زياد، والحصين بن نمير. وزمرة من رؤساء الشام.

السنوات بالأرقام

٦٧ ـ في سنة سبع وستين: مقتل المختار على يدي مصعب بن الزبير في الرابع عشر من شهر رمضان، ووفاة الأحنف بن قيس.

٦٨ ـ في سنة ثمان وستين: وفاة زيد بن الأرقم، وابن عباس.

٧٢ ـ في سنة اثنتين وسبعين: مقتل إبراهيم الأشتر، ومصعب بن الزبير في أراضي «مسكن» وإحضار رأس مصعب إلى عبد الملك ووضعه في قصر الإمارة بالكوفة، وأمر عبد الملك بهدم دار الإمارة تطيّراً، ووفاة البراء بن عازب.

٧٣ ـ في سنة ثلاث وسبعين: مقتل عبد الله بن الزبير على يدي الحجاج بن يوسف الثقفي.

٧٤ ـ في سنة أربع وسبعين: وفاة عبد الله بن عمر، وأبي سعيد الخدري، وسلمة بن الأكوع.

٧٥ ـ في سنة خمس وسبعين: وفاة شريح قاضي الكوفة.

٧٨ ـ في سنة ثمان وسبعين: وفاة جابر بن عبد الله الأنصاري (رضي الله عنه).

٨١ ـ في سنة إحدى وثمانين: وفاة محمد بن الحنفية، ووفاة عبد الله بن جعفر في السنة نفسها أو في سنة أربع وثمانين.

٨٣ ـ في سنة ثلاث وثمانين: الشروع ببناء دار الإيمان بقمّ.

٨٦ ـ في سنة ست وثمانين: وفاة عبد الملك بن مروان، وخلافة الوليد بن عبد الملك.

٨٧ ـ في سنة سبع وثمانين: وفاة عبد الله بن عباس.

٨٧ أو ٨٩ ـ في سنة سبع وثمانين أو تسع وثمانين: شروع الوليد بن عبد الملك ببناء المسجد الأموي بالشام، وتعمير المسجد النبوي الشريف بالمدينة.

٩٥ ـ في سنة خمس وتسعين: وفاة الإمام زين العابدين عليه السلام، وسعيد بن جبير، وسعيد بن المسيب، وعامة فقهاء المدينة، ومصير الحجاج الشقي إلى جهنم.

٩٦ ـ في سنة ست وتسعين: وفاة الوليد، وخلافة سليمان بن عبد الملك.

٩٩ ـ في سنة تسع وتسعين: وفاة سليمان، وخلافة عمر بن عبد العزيز.

وقائع المئة الثانية

السنوات بالأرقام

١٠١ - في سنة إحدى ومئة: وفاة عمر بن عبد العزيز، وخلافة يزيد بن عبد الملك.

١٠٢ - في سنة اثنتين ومئة: مقتل يزيد بن المهلّب بن أبي صفرة.

١٠٣ - في سنة ثلاث ومئة: وفاة عطاء بن يسار، ومجاهد بن جبير.

١٠٤ - في سنة أربع ومئة: وفاة وهب بن منبه، وطاووس اليماني، وعامر بن شراحيل المعروف بالشعبي.

١٠٥ - في سنة خمس ومئة: وفاة يزيد، وخلافة هشام بن عبد الملك، ووفاة كثيّر عزّة الشاعر الشيعي المعروف.

١٠٨ - في سنة ثمان ومئة: وفاة القاسم بن محمد بن أبي بكر.

١١٠ - في سنة عشر ومئة: وفاة الحسن البصري، وابن سيرين، وهمام بن غالب المعروف بالفرزدق، ووهب اليماني.

١١٤ - في سنة أربع عشرة ومئة: وفاة الحكم بن عتبة التبري الزيدي.

١١٥ - في سنة خمس عشرة ومئة: وفاة عطاء مفتي مكة.

١١٧ - في سنة سبع عشرة ومئة: وفاة السيدة سكينة، وقتادة المفسّر، وذي الرمّة الشاعر.

١١٨ - في سنة ثماني عشرة ومئة: وفاة علي بن عبد الله بن عباس جدّ السفاح والمنصور.

١٢٠ - في سنة عشرين ومئة: وفاة ابن كثير القارىء.

السنوات بالأرقام

١٢١ ـ في سنة إحدى وعشرين ومئة: شهادة زيد بن علي بن الحسين عليهما السلام.

١٢٢ ـ في سنة اثنتين وعشرين ومئة: وفاة أبي وائلة.

١٢٣ ـ في سنة ثلاث وعشرين ومئة: وفاة محمد بن مسلم المعروف بالزهري، الفقيه المدني التابعي.

١٢٥ ـ في سنة خمس وعشرين ومئة: وفاة هشام، وتولي الوليد بن يزيد بن عبد الملك، ومقتل خالد بن عبد الله القسري، ومقتل يحيى بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام في جوزجان.

١٢٦ ـ في سنة ست وعشرين ومئة: مقتل الوليد، وخلافة يزيد وإبراهيم ولدي الوليد بن عبد الملك، ووفاة يزيد بن الوليد، والكميت بن زيد الأسدي مادح أهل البيت عليهم السلام، وشهادة الإمام باقر العلوم عليه السلام.

١٢٧ ـ في سنة سبع وعشرين ومئة: مقتل إبراهيم، وتولي مروان بن محمد بن مروان بن الحكم.

١٢٧ أو ١٢٨ ـ في سنة سبع وعشرين ومئة أو ثمان وعشرين ومئة: وفاة جابر بن يزيد الجعفي والسدي.

١٢٩ ـ في سنة تسع وعشرين ومئة: وفاة عاصم بن أبي النجود القارىء.

١٣١ ـ في سنة إحدى وثلاثين ومئة: وفاة مالك بن دينار.

١٣٢ ـ في سنة اثنتين وثلاثين ومئة: مقتل مروان الحمار، وبداية حكم بني العباس، وأولهم أبو العباس السفاح.

١٣٥ ـ في سنة خمس وثلاثين ومئة: وفاة رابعة العدوية.

١٣٦ ـ في سنة ست وثلاثين ومئة: وفاة عبد الله السفاح، وخلافة أبي جعفر المنصور الدوانيقي.

١٤١ ـ في سنة إحدى وأربعين ومئة: وفاة أبان بن تغلب (رضي الله عنه).

السنوات بالأرقام

١٤٤ - في سنة أربع وأربعين ومئة: وفاة عمر بن عبيد شيخ المعتزلة.

١٤٥ - في سنة خمس وأربعين ومئة: مقتل عبد الله بن المقفع الزنديق، ومقتل محمد النفس الزكية، وإبراهيم.

١٤٨ - في سنة ثمان وأربعين ومئة: وفاة سليمان بن الأعمش، وابن أبي ليلى، وشهادة الإمام الصادق عليه السلام.

١٤٩ - في سنة تسع وأربعين ومئة: وفاة عيسى بن عمر الثقفي (رضي الله عنه)، وابن جريج.

١٥٠ - في سنة خمسين ومئة: وفاة أبي حمزة الثمالي، ومقاتل بن سليمان المفسّر، وزرارة بن أعين (رضي الله عنه) ومحمد بن مسلم الثقفي (رضي الله عنه)، ووفاة أبي حنيفة.

١٥١ - في سنة إحدى وخمسين ومئة: وفاة محمد بن إسحاق، ومقتل معن بن زائدة الشيباني.

١٥٤ - في سنة أربع وخمسين ومئة: وفاة أبي عمر العلاقاري.

١٥٧ - في سنة سبع وخمسين ومئة: وفاة الأوزاعي.

١٥٨ - في سنة ثمان وخمسين ومئة: وفاة المنصور، وخلافة المهدي محمد بن المنصور.

١٦١ - في سنة إحدى وستين ومئة: وفاة سفيان بن سعيد الثوري، ووفاة إبراهيم الأدهم البلخي أيضاً على قول، ووفاة حماد العجرة أيضاً.

١٦٩ - في سنة تسع وستين ومئة: وفاة المهدي، وخلافة موسى الهادي.

١٧٠ - في سنة سبعين ومئة: وفاة الخليل بن أحمد العروضي الإمامي، ووفاة الهادي، وخلافة هارون الرشيد.

١٧٣ - في سنة ثلاث وسبعين ومئة: وفاة الخيزران أم الهادي ومحمد بن سليمان العباسيين.

١٧٤ - في سنة أربع وسبعين ومئة: وفاة أبي علي شقيق البلخي.

السنوات بالأرقام

١٧٥ ـ في سنة خمس وسبعين ومئة: وفاة شريك بن عبد الله النخعي، ومعاوية بن عمار الكوفي.

١٧٩ ـ في سنة تسع وسبعين ومئة: وفاة مالك بن أنس، وعمرو بن عثمان المعروف بسيبويه، وواصل بن عطاء المعتزلي.

١٨٢ ـ في سنة اثنتين وثمانين ومئة: وفاة أبي يوسف القاضي، ويونس النحوي، وعلي بن اليقطين.

١٨٤ ـ في سنة أربع وثمانين ومئة: وفاة أحمد السبتي بن هارون الرشيد.

١٨٥ ـ في سنة خمس وثمانين ومئة: وفاة عبد الصمد عم السفاح، ويزيد بن مزيد الشيباني.

١٨٧ ـ في سنة سبع وثمانين ومئة: وفاة الفضيل بن العباس المرتاض.

١٨٨ ـ في سنة ثمان وثمانين ومئة: وفاة إبراهيم نديم الموصلي.

١٨٩ ـ في سنة تسع وثمانين ومئة: وفاة علي بن حمزة الكسائي، ومحمد بن الحسن الشيباني الحنفي، ومقتل جعفر البرمكي، وانقراض دولة البرامكة.

١٩٣ ـ في سنة ثلاث وتسعين ومئة: وفاة هارون الرشيد، وخلافة محمد الأمين.

١٩٦ ـ في سنة ست وتسعين ومئة: بدء خلافة المأمون.

١٩٨ ـ في سنة ثمان وتسعين ومئة: مقتل محمد الأمين، وخلافة عبد الله المأمون، ووفاة الحسن بن هانىء المعروف بأبي نواس الشاعر.

١٩٩ ـ في سنة تسع وتسعين ومئة: خروج أبي السرايا، ومقتل بعض الطالبيين.

وقائع المئة الثالثة

السنوات بالأرقام

٢٠٠ - في سنة مئتين: استدعاء المأمون للإمام الرضا عليه السلام إلى مرو ووفاة معروف الكرخي.

٢٠١ - في سنة إحدى ومئتين: وفاة فاطمة بنت موسى عليهما السلام.

٢٠٣ - في سنة ثلاث ومئتين: شهادة الإمام الرضا عليه السلام.

٢٠٤ - في سنة أربع ومئتين: وفاة هشام بن محمد المعروف بابن الكلبي النسابة، ومحمد بن إدريس الشافعي.

٢٠٦ - في سنة ست ومئتين: وفاة قطرب النحوي، والنضر بن شميل.

٢٠٧ - في سنة سبع ومئتين: وفاة الطاهر بن الحسين، والواقدي، والفراء الديلمي النحوي.

٢٠٨ - في سنة ثمان ومئتين: وفاة يونس بن عبد الرحمان (رضي الله عنه)، والفضل بن الربيع، والسيدة نفيسة بنت الحسن بن زيد بن الحسن عليه السلام بمصر.

٢٠٩ - في سنة تسع ومئتين: وفاة حماد بن عثمان، وحماد بن عيسى، ويحيى بن الحسين بن زيد بن علي عليه السلام، ومقتل ابن عائشة العباسي، وزواج المأمون من بوران.

٢١٠ - في سنة عشر ومئتين: وفاة صفوان بن يحيى.

٢١١ - في سنة إحدى عشرة ومئتين: وفاة المعمر بن المثنى النحوي المعروف بأبي عبيدة، ووفاة أبي العتاهية الشاعر.

السنوات بالأرقام

٢١٢ - في سنة اثنتي عشرة ومئتين: نداء منادي المأمون بأن لا يذكر أحد معاوية بالحسنى.

٢١٣ - في سنة ثلاث عشرة ومئتين: وفاة ابن هشام صاحب «السيرة» وإسحاق بن مرار الشيباني النحوي.

٢١٥ - في سنة خمس عشرة ومئتين: وفاة الأخفش الأوسط، وأبي زيد النحوي.

٢١٦ - في سنة ست عشرة ومئتين: وفاة الأصمعي عبد الملك بن قريب، ووفاة زبيدة أم الأمين.

٢١٧ - في سنة سبع عشرة ومئتين: وفاة محمد بن أبي عمير (رضي الله عنه) وخروج المأمون إلى مصر، وقتله لعبدوس، ثم توجهه من هناك لحرب الروم وتحقيقه فتوحات كثيرة.

٢١٨ - في سنة ثماني عشرة ومئتين: وفاة المأمون، وخلافة المعتصم أخيه.

٢١٩ - في سنة تسع عشرة ومئتين: شهادة الإمام محمد التقي عليه السلام، ووقوع أبي جعفر محمد بن القاسم الحسيني العلوي في الأسر.

٢٢١ - في سنة إحدى وعشرين ومئتين: وفاة أحمد بن محمد بن أبي النصر البزنطي.

٢٢٢ - في سنة اثنتين وعشرين ومئتين: مقتل بابك وأخيه عبد الله.

٢٢٣ - في سنة ثلاث وعشرين ومئتين: وفاة أبي عبيد القاسم بن سلام، وخروج المعتصم إلى حرب ملك الروم، وفتح «عمورية».

٢٢٤ - في سنة أربع وعشرين ومئتين: وفاة الحسن بن محمود السرّاد صاحب «المشيخة» والحسن بن علي بن فضال، وإبراهيم المعروف بابن شكلة.

٢٢٥ - في سنة خمس وعشرين ومئتين: وفاة أفشين في حبس المعتصم، وصالح بن إسحاق المعروف بالجرمي النحوي، وأبي الحسن المدايني علي بن محمد.

السنوات بالأرقام

٢٢٦ - في سنة ست وعشرين ومئتين: وفاة الأمير القاسم بن عيسى المعروف بأبي دلف، وبشر الحافي، ومحمد بن الهذيل المعروف بأبي الهذيل العلاف شيخ المعتزلة.

٢٢٧ - في سنة سبع وعشرين ومئتين: وفاة المعتصم، وخلافة هارون الواثق.

٢٢٨ - في سنة ثمان وعشرين ومئتين: وفاة حبيب بن أوس الطائي المعروف بأبي تمام الشاعر صاحب «الحماسة» وأحمد بن محمد بن عبد ربه صاحب «العقد الفريد».

٢٣١ - في سنة إحدى وثلاثين ومئتين: وفاة أبي عبد الله محمد بن زياد الكوفي المعروف بابن الأعرابي النحوي، ومقتل الواثق أحمد بن نصر الخزاعي.

٢٣٢ - في سنة اثنتين وثلاثين ومئتين: وفاة الواثق، وخلافة جعفر المتوكل بن محمد بن هارون.

٢٣٣ - في سنة ثلاث وثلاثين ومئتين: مقتل محمد بن عبد الملك الزيات الوزير، ووفاة يحيى بن معين.

٢٣٥ - في سنة خمس وثلاثين ومئتين: وفاة عبد السلام بن دغبان ديك الجن الشاعر الإمامي.

٢٣٧ - في سنة سبع وثلاثين ومئتين: وفاة ابن راهويه إسحاق بن إبراهيم، وحاتم الأصم البلخي.

٢٤٠ - في سنة أربعين ومئتين: وفاة أحمد بن أبي داود.

٢٤١ - في سنة إحدى وأربعين ومئتين: وفاة أحمد بن حنبل، وأبي جعفر محمد بن عبد الله الإسكافي المعتزلي، وفي ليلة السادس من جمادى الآخرة من السنة نفسها وقع (تناثر النجوم).

٢٤٢ - في سنة اثنتين وأربعين ومئتين: وفاة يحيى بن الأكثم.

٢٤٤ - في سنة أربع وأربعين ومئتين: وفاة ابن السكيت الإمامي، وثوبان بن إبراهيم ذي النون المصري، وأبي ملحم الشيباني اللغوي.

السنوات بالأرقام

٢٤٦ ـ في سنة ست وأربعين ومئتين: وفاة دعبل بن علي الخزاعي الشاعر الإمامي.

٢٤٧ ـ في سنة سبع وأربعين ومئتين: وفاة إبراهيم بن العباس الصولي الكاتب الشاعر، ومقتل المتوكل، وخلافة محمد المنتصر بالله بن المتوكل.

٢٤٨ ـ في سنة ثمان وأربعين ومئتين: وفاة سهل بن محمد المعروف بأبي حاتم السجستاني النحوي اللغوي، وبغاء التركي الكبير، ووفاة المنتصر بالله، وخلافة المستعين بالله أحمد بن محمد بن المعتصم.

٢٥٠ ـ في سنة خمسين ومئتين: خروج الحسن بن زيد الحسني في طبرستان، وخروج الحسن بن إسماعيل الحسيني المعروف بالكركي في قزوين، ووفاة الفضل بن مروان وزير المعتصم.

٢٥١ ـ في سنة إحدى وخمسين ومئتين: مبايعة أهل سامراء للمعتز بالله.

٢٥٢ ـ في سنة اثنتين وخمسين ومئتين: خلع المستعين لنفسه من الخلافة، وبداية الفتنة بين البلالية والسعدية بالبصرة، وانتهاؤها إلى ظهور صاحب الزنج، وخلافة المعتز بالله الزبير بن جعفر المتوكل.

٢٥٤ ـ في سنة أربع وخمسين ومئتين: شهادة الإمام الهادي عليه السلام.

٢٥٥ ـ في سنة خمس وخمسين ومئتين: خلع المعتز ووفاته، وخلافة المهتدي بالله محمد بن الواثق، ووفاة عمرو بن بحر البصري المعروف بالجاحظ، وخروج صاحب الزنج بالبصرة.

٢٥٦ ـ في سنة ست وخمسين ومئتين: مقتل المهدي، وخلافة المعتمد على الله أحمد بن جعفر بن المتوكل، ووفاة محمد بن إسماعيل البخاري صاحب «الصحيح»، والزبير بن البكار.

٢٥٧ ـ في سنة سبع وخمسين ومئتين: دخول صاحب الزنج البصرة، وقتله للبصريين، وكان منهم الرياشي النحوي.

٢٥٨ ـ في سنة ثمان وخمسين ومئتين: وفاة يحيى بن معاذ الرازي المعاصر لجنيد البغدادي، وخروج الموفق إلى حرب صاحب الزنج.

السنوات بالأرقام

٢٥٩ - في سنة تسع وخمسين ومئتين: انقراض دولة الطاهريين وابتداء دولة الصفويين.

٢٦٠ - في سنة ستين ومئتين: وفاة الإمام الحسن العسكري عليه السلام. والفضل بن شاذان، وأحمد بن محمد اليزيدي النحوي اللغوي، وحنين بن إسحاق الطبيب.

٢٦١ - في سنة إحدى وستين ومئتين: وفاة طيفور بايزيد البسطامي، ومسلم بن الحجاج النيسابوري صاحب «الصحيح».

٢٦٢ - في سنة اثنتين وستين ومئتين: الحرب بين المعتمد ويعقوب الصفار.

٢٦٤ - في سنة أربع وستين ومئتين: وفاة موسى بن بغاء، وإسماعيل بن يحيى المزني، ويونس بن عبد الأعلى.

٢٦٥ - في سنة خمس وستين ومئتين: وفاة أحمد بن الخصيب الوزير.

٢٦٧ - في سنة سبع وستين ومئتين: الحرب بين الموفق وصاحب الزنج، وقتله لصاحب الزنج.

٢٧٠ - في سنة سبعين ومئتين: وفاة أحمد بن طولون والي مصر.

٢٧١ - في سنة إحدى وسبعين ومئتين: وفاة بوران زوجة المأمون.

٢٧٣ - في سنة ثلاث وسبعين ومئتين: وفاة ابن ماجة القزويني.

٢٧٤ - في سنة أربع وسبعين ومئتين: وفاة أحمد بن محمد البرقي صاحب «المحاسن».

٢٧٥ - في سنة خمس وسبعين ومئتين: وفاة سليمان بن الأشعث أبي داود السجستاني صاحب «السنن».

٢٧٦ - في سنة ست وسبعين ومئتين: وفاة ابن قتيبة.

٢٧٨ - في سنة ثمان وسبعين ومئتين: وفاة الموفق بالله أخي المعتمد وولي عهده.

٢٧٩ - في سنة تسع وسبعين ومئتين: وفاة المعتمد بالله، وخلافة المعتضد بالله أحمد بن طلحة، ووفاة محمد بن عيسى الترمذي.

السنوات بالأرقام

٢٨٢ ـ في سنة اثنتين وثمانين ومئتين: وفاة أبي العيناء.

٢٨٣ ـ في سنة ثلاث وثمانين ومئتين: وفاة إبراهيم بن محمد الثقفي، وعلي بن علي الخزاعي أخي دعبل، والحرب بين المعتضد وهارون الشاري.

٢٨٤ ـ في سنة أربع وثمانين ومئتين: وفاة البحتري الشاعر، وولادة أبي الفرج الأصفهاني.

٢٨٥ ـ في سنة خمس وثمانين ومئتين: وفاة إبراهيم بن محمد البغدادي، ومحمد بن يزيد المبرد النحوي.

٢٨٦ ـ في سنة ست وثمانين ومئتين: وفاة أبي العباس محمد بن يونس الكوفي المحدث، وخروج أبي سعيد القرمطي بالبحرين.

٢٨٧ ـ في سنة سبع وثمانين ومئتين: خروج الداعي العلوي ومقتله، وبعث المعتضد بجيش كبير لحرب القرامطة.

٢٨٩ ـ في سنة تسع وثمانين ومئتين: وقوع جماعة من القرامطة في الأسر وقتلهم، ووفاة المعتضد، وخلافة المكتفي بالله علي بن المعتضد.

٢٩٠ ـ في سنة تسعين ومئتين: وفاة عبد الله بن أحمد بن حنبل، وابن الرومي الشاعر.

٢٩١ ـ في سنة إحدى وتسعين ومئتين: وفاة أحمد بن يحيى المعروف بثعلب النحوي، والقاسم بن عبيد الله الوزير.

٢٩٢ ـ في سنة اثنتين وتسعين ومئتين: وفاة عثمان بن جني النحوي، واستيلاء ابن الخليجي على مصر.

٢٩٥ ـ في سنة خمس وتسعين ومئتين: وفاة المكتفي، وخلافة المقتدر بالله جعفر بن المعتضد.

٢٩٦ ـ في سنة ست وتسعين ومئتين: مقتل عبد الله بن المعتز.

٢٩٧ ـ في سنة سبع وتسعين ومئتين: وفاة أبي القاسم جنيد البغدادي.

٢٩٩ ـ في سنة تسع وتسعين ومئتين: وفاة ابن كيسان النحوي أحمد بن إبراهيم.

وقائع المئة الرابعة

السنوات بالأرقام

٣٠٠ ـ في سنة ثلاثمئة: خروج أبي الرضا محسن بن جعفر بن علي الهادي عليه السلام ومقتله.

٣٠١ ـ في سنة إحدى وثلاثمئة: خروج الحسن بن علي العلوي الأطروش الناصر الكبير في الديلم وطبرستان، ومقتل أبي سعيد الجنابي كبير القرامطة، ووفاة ابن منده محمد بن يحيى، وسعد بن عبد الله الأشعري القمي.

٣٠٣ ـ في سنة ثلاث وثلاثمئة: وفاة أحمد بن علي بن شعيب النسائي صاحب «السنن»، وأبي علي الجبائي محمد بن عبد الوهاب كبير معتزلة البصرة.

٣٠٤ ـ في سنة أربع وثلاثمئة: وفاة السيد أبي محمد الأطروش، جد السيد المرتضى لأمه.

٣٠٦ ـ في سنة ست وثلاثمئة: وفاة أحمد بن إدريس الأشعري القمي.

٣٠٩ ـ في سنة تسع وثلاثمئة: مقتل حسين الحلاج.

٣١٠ ـ في سنة عشر وثلاثمئة: وفاة الزجاج النحوي إبراهيم بن محمد، ومحمد بن جرير الطبري المؤرخ، وابن السراج محمد بن السري النحوي.

٣١١ ـ في سنة إحدى عشرة وثلاثمئة: وفاة أبي زكريا محمد الرازي الطبيب صاحب «من لا يحضره الطبيب».

٣١٢ ـ في سنة اثنتي عشرة وثلاثمئة: مقتل علي بن الفرات الوزير، مع ولده محسن.

السنوات بالأرقام

٣١٣ ـ في سنة ثلاث عشرة وثلاثمئة: وفاة نفطويه النحوي إبراهيم بن محمد.

٣١٥ ـ في سنة خمس عشرة وثلاثمئة: وفاة علي بن سليمان الأخفش الصغير، وطغيان القرامطة، وغلبة الديلم على الري.

٣١٧ ـ في سنة سبع عشرة وثلاثمئة: خروج القرامطة إلى مكة وقتلهم للحجاج، ونقلهم للحجر الأسود إلى (هجر)، ووفاة أبي القاسم الكعبي عبد الله بن أحمد البلخي رئيس المعتزلة.

٣٢٠ ـ في سنة عشرين وثلاثمئة: وفاة المقتدر، وخلافة القاهر بالله محمد بن المعتضد.

٣٢١ ـ في سنة إحدى وعشرين وثلاثمئة: وفاة ابن دريد محمد بن الحسن الشاعر النحوي اللغوي الإمامي، وأبي هاشم الجبائي عبد السلام بن محمد رئيس المعتزلة.

٣٢٢ ـ في سنة اثنتين وعشرين وثلاثمئة: خلع القاهر، وخلافة الراضي بالله محمد بن جعفر.

٣٢٣ ـ في سنة ثلاث وعشرين وثلاثمئة: مقتل محمد بن علي الشلمغاني الملعون.

٣٢٦ ـ في سنة ست وعشرين وثلاثمئة: وفاة الشيخ أبي القاسم الحسين بن روح (رضي الله عنه) النائب الثالث لإمام العصر (عجل الله فرجه الشريف، وأرواحنا فداه).

٣٢٨ ـ في سنة ثمان وعشرين وثلاثمئة: وفاة شيخ المحدثين محمد بن يعقوب الكليني (رضي الله عنه) صاحب «الكافي»، وابن الأنباري محمد بن القاسم النحوي، وابن عبد ربه أحمد بن محمد الأندلسي صاحب «العقد الفريد»، ومحمد بن أحمد المعروف بابن شنبوز القارىء ومحمد بن علي بن الحسين مقلة الكاتب المشهور.

٣٢٩ ـ في سنة تسع وعشرين وثلاثمئة: وفاة الراضي، وخلافة المتقي بالله إبراهيم بن المقتدر، ووفاة الشيخ علي بن بابويه الصدوق الأول، ووفاة الشيخ أبي الحسن علي بن محمد السمري، النائب الرابع لإمام العصر عليه السلام.

السنوات بالأرقام

٣٣٢ - في سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمئة: وفاة ابن عقدة أحمد بن محمد بن سعيد الحافظ الكوفي.

٣٣٣ - في سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمئة (على قول): وفاة علي بن الحسين المسعودي وخلع المتقي، وخلافة المستكفي بالله عبد الله بن علي.

٣٣٤ - في سنة أربع وثلاثين وثلاثمئة: وقوع قحط شديد في بغداد، ووفاة جعفر بن يونس الخراساني البغدادي المعروف بالشبلي، وأبي الحسن الأشعري علي بن إسماعيل في غضون تلك السنة.

٣٣٥ - في سنة خمس وثلاثين وثلاثمئة: وفاة محمد بن يحيى المعروف بالصولي الشطرنجي.

٣٣٧ - في سنة سبع وثلاثين وثلاثمئة: وفاة عبد الرحمان بن إسحاق الزجاجي النحوي البغدادي.

٣٣٨ - في سنة ثمان وثلاثين وثلاثمئة: وفاة ابن النحاس أحمد بن محمد المصري النحوي، وعماد الدولة ابن بويه.

٣٣٩ - في سنة تسع وثلاثين وثلاثمئة: وفاة المعلم الثاني محمد بن طرخان أبو نصر الفارابي التركي، وفي السنة نفسها رُدّ الحجر الأسود إلى موضعه.

٣٤٢ - في سنة اثنتين وأربعين وثلاثمئة: وفاة علي بن محمد أبي القاسم التنوخي المعتزلي قاضي البصرة والأهواز.

٣٤٣ - في سنة ثلاث وأربعين وثلاثمئة: وفاة الشيخ أبي جعفر محمد بن الحسن بن الوليد شيخ القميين.

٣٤٤ - في سنة أربع وأربعين وثلاثمئة: وقوع زلزال شديد بمصر، ووفاة أبي بكر الجعابي الحافظ محمد بن عمر ببغداد.

٣٤٥ - في سنة خمس وأربعين وثلاثمئة: وفاة أبي عمرو الزاهد المطرز محمد بن عبد الواحد البغدادي اللغوي.

السنوات بالأرقام

٣٥٢ ـ في سنة اثنتين وخمسين وثلاثمئة: وفاة أبي القاسم الكوفي علي بن أحمد بن موسى المبرقع صاحب «الاستغاثة»، والحسن بن محمد المهلبي وزير معز الدولة الديلمي، وفي تلك السنة، في يوم عاشوراء، أمر معز الدولة الديلمي أهل بغداد بإغلاق الدكاكين والأسواق، وأمر الطهاة بطبخ الطعام، وأمر بنصب القباب في الأسواق وإقامة مآتم سيد الشهداء عليه السلام.

٣٥٣ ـ في سنة ثلاث وخمسين وثلاثمئة: وفاة إسماعيل بن حماد الجوهري صاحب «صحاح اللغة».

٣٥٤ ـ في سنة أربع وخمسين وثلاثمئة: مقتل المتنبي الشاعر أحمد بن الحسين.

٣٥٥ ـ في سنة خمس وخمسين وثلاثمئة: وفاة الحاكم المحدث النيسابوري، والمنصور الساماني، وولادة السيد المرتضى.

٣٥٦ ـ في سنة ست وخمسين وثلاثمئة: وفاة معز الدولة أحمد بن بويه، وسيف الدولة علي بن عبد الله بن حمدان، وكافور الإخشيدي، وأبي علي القالي، وأبي الفرج علي بن الحسين الأصفهاني.

٣٥٧ ـ في سنة سبع وخمسين وثلاثمئة: وفاة الحارث بن سعيد بن حمدان أبي فراس الشاعر.

٣٥٨ ـ في سنة ثمان وخمسين وثلاثمئة: وفاة الحسن بن الحمزة العلوي المرعشي، وناصر الدولة الحسن بن عبد الله بن حمدان.

٣٦٠ ـ في سنة ستين وثلاثمئة: وفاة الأستاذ محمد بن العميد القمي، وسليمان بن أحمد الطبراني صاحب «المعجم الكبير» في أسماء الصحابة.

٣٦٢ ـ في سنة اثنتين وستين وثلاثمئة: وفاة القاضي النعمان المصري.

٣٦٣ ـ في سنة ثلاث وستين وثلاثمئة: خلع المطيع لله، وخلافة الطائع لله عبد الكريم بن المطيع.

٣٦٦ ـ في سنة ست وستين وثلاثمئة: وفاة ركن الدولة الحسن بن بويه الديلمي.

السنوات بالأرقام

٣٦٧ ـ في سنة سبع وستين وثلاثمئة: وفاة القاضي محمد بن عبد الرحمان المعروف بابن قريعة، ومقتل عز الدولة الديلمي.

٣٦٨ ـ في سنة ثمان وستين وثلاثمئة: وفاة أبي غالب الزراري أحمد بن محمد بن سليمان، والشيخ محمد بن أحمد بن داود القمي، صاحب «المزار»، والحسن بن عبد الله السيرافي النحوي.

٣٦٩ ـ في سنة تسع وستين وثلاثمئة: وفاة أبي القاسم جعفر بن محمد بن قولويه القمي.

٣٧٠ ـ في سنة سبعين وثلاثمئة: وفاة ابن خالويه الحسين بن أحمد النحوي، ومحمد بن أحمد الأزهري الهروي اللغوي.

٣٧٢ ـ في سنة اثنتين وسبعين وثلاثمئة: وفاة فناخسرو عضد الدولة الديلمي (رضي الله عنه).

٣٧٧ ـ في سنة سبع وسبعين وثلاثمئة: وفاة أبي علي النحوي الحسن بن أحمد.

٣٧٩ ـ في سنة تسع وسبعين وثلاثمئة: وفاة شرف الدولة الديلمي.

٣٨١ ـ في سنة إحدى وثمانين وثلاثمئة: خلع الطائع لله، وخلافة أحمد القادر بالله، ووفاة رئيس المحدثين أبي جعفر محمد بن علي بن بابويه القمي (رضي الله عنه).

٣٨٤ ـ في سنة أربع وثمانين وثلاثمئة. وفاة علي بن عيسى الرماني النحوي، والمحسن بن علي القاضي التنوخي.

٣٨٥ ـ في سنة خمس وثمانين وثلاثمئة: وفاة كافي الكفاة إسماعيل الصاحب بن عباد (رضي الله عنه)، والدارقطني علي بن عمر، وابن سكرة الشاعر محمد بن عبد الله.

٣٨٦ ـ في سنة ست وثمانين وثلاثمئة: وفاة محمد بن علي الواعظ أبي طالب المكي.

٣٨٧ ـ في سنة سبع وثمانين وثلاثمئة: فتح «بست» وابتداء الدولة الغزنوية.

٣٨٨ ـ في سنة ثمان وثمانين وثلاثمئة: وفاة حمد بن محمد الخطابي.

السنوات بالأرقام

٣٩١ ـ في سنة إحدى وتسعين وثلاثمئة: وفاة ابن الحجاج الشاعر الحسين بن أحمد الإمامي (رضي الله عنه)، ومقتل حسام الدولة العقيلي.

٣٩٢ ـ في سنة اثنتين تسعين وثلاثمئة: وفاة ابن جني عثمان النحوي.

٣٩٨ ـ في سنة ثمان وتسعين وثلاثمئة: وفاة بديع الزمان الهمداني أحمد بن الحسين مبدع المقامات.

وقائع المئة الخامسة

السنوات بالأرقام

٤٠٠ - في سنة أربعمئة: وفاة أبي الفتح البستي علي بن محمد الكاتب الشاعر.

٤٠١ - في سنة إحدى وأربعمئة: وفاة أحمد بن محمد العياشي صاحب «مقتضب الأثر».

٤٠٣ - في سنة ثلاث وأربعمئة: وفاة أبي بكر الباقلاني محمد بن الطيب، ومقتل قابوس بن وشمكير الأمير بن الأمير.

٤٠٤ - في سنة أربع وأربعمئة: وفاة بهاء الدولة بن عضد الدولة.

٤٠٥ - في سنة خمس وأربعمئة: وفاة الحاكم محمد بن عبد الله النيسابوري صاحب «المستدرك على الصحيحين».

٤٠٦ - في سنة ست وأربعمئة: وفاة السيد الرضي، وأحمد بن محمد الإسفرايني.

٤٠٧ - في سنة سبع وأربعمئة: مقتل محمد بن علي فخر الملك وزير بهاء الدولة بن عضد الدولة الديلمي (رضي الله عنه).

٤١٠ - في سنة عشر وأربعمئة: وفاة ابن مردويه أحمد بن موسى الأصفهاني.

٤١١ - في سنة إحدى عشرة وأربعمئة: وفاة الحسين بن عبيد الله الغضائري، والفردوسي صاحب «الشاهنامة».

٤١٣ - في سنة ثلاث عشرة وأربعمئة: وفاة الشيخ المفيد محمد بن محمد النعمان.

٤١٦ - في سنة ست عشرة وأربعمئة: مقتل أبي الحسن التهامي علي بن محمد الشاعر، وسلطان الدولة الديلمي.

٤١٨ - في سنة ثماني عشرة وأربعمئة: وفاة الحسين بن علي الوزير المغربي.

السنوات بالأرقام

٤٢٠ ـ في سنة عشرين وأربعمئة: وفاة علي بن عيسى الربعي النحوي.

٤٢١ ـ في سنة إحدى وعشرين وأربعمئة: وفاة السلطان محمود بن سبكتكين الغزنوي، والإمام المرزوقي أحمد بن محمد الشاعر.

٤٢٢ ـ في سنة اثنتين وعشرين وأربعمئة: وفاة القادر بالله، وخلافة عبد الله القائم بأمر الله.

٤٢٣ ـ في سنة ثلاث وعشرين وأربعمئة: وفاة ابن عبدون أحمد بن عبد الواحد، وابن البواب علي بن هلال الكاتب.

٤٢٧ ـ في سنة سبع وعشرين وأربعمئة: وفاة الثعلبي أحمد بن محمد النيسابوري، والقفَّال عبد الله بن أحمد المروزي.

٤٢٨ ـ في سنة ثمان وعشرين وأربعمئة: وفاة مهيار الديلمي، والحسين بن عبد الله بن سينا الشيخ الرئيس.

٤٢٩ ـ في سنة تسع وعشرين وأربعمئة: وفاة الثعالبي عبد الملك بن محمد، وبداية ظهور الدولة السلجوقية.

٤٣٠ ـ في سنة ثلاثين وأربعمئة: وفاة أبي نعيم الأصفهاني أحمد بن عبد الله، وانقراض دولة آل بويه.

٤٣١ ـ في سنة إحدى وثلاثين وأربعمئة: وفاة الحكيم ناصر خسرو العلوي.

٤٣٦ ـ في سنة ست وثلاثين وأربعمئة: وفاة علي بن الحسين الموسوي السيد المرتضى، وأبو الحسين البصري المعتزلي محمد بن علي.

٤٤٩ ـ في سنة تسع وأربعين وأربعمئة: وفاة أبي العلاء المعري أحمد بن عبد الله، ومحمد بن علي الشيخ الكراجكي.

٤٥٠ ـ في سنة خمسين وأربعمئة: وفاة الشيخ النجاشي أحمد بن علي، والماوردي علي بن محمد.

٤٥٤ ـ في سنة أربع وخمسين وأربعمئة: وفاة محمد بن سلامة القضاعي.

٤٥٥ ـ في سنة خمس وخمسين وأربعمئة: وفاة إسماعيل السرقسطي، وطغرل بك أول الملوك السلاجقة.

السنوات بالأرقام

٤٥٦ ـ في سنة ست وخمسين وأربعمئة: وفاة ابن حزم علي بن أحمد الأندلسي.

٤٥٨ ـ في سنة ثمان وخمسين وأربعمئة: وفاة ابن سيدة اللغوي علي بن إسماعيل، والإمام البيهقي أحمد بن الحسين.

٤٦٠ ـ في سنة ستين وأربعمئة: وفاة شيخ الطائفة محمد بن الحسن الطوسي.

٤٦٣ ـ في سنة ثلاث وستين وأربعمئة: وفاة يوسف بن عبد البر، والخطيب البغدادي أحمد بن علي، وأبي يعلى محمد بن الحسن، وسلار بن عبد العزيز الديلمي.

٤٦٥ ـ في سنة خمس وستين وأربعئمة: مقتل ألب أرسلان، ووفاة عبد الكريم القشيري الصوفي، ووقوع قحط بمصر.

٤٦٧ ـ في سنة سبع وستين وأربعمئة: وفاة علي بن الحسن الباخرزي، ووفاة القائم بأمر الله، وخلافة المقتدي بأمر الله عبد الله بن القائم.

٤٧١ ـ في سنة إحدى وسبعين وأربعمئة: وفاة الشيخ عبد القاهر الجرجاني.

٤٧٨ ـ في سنة ثمان وسبعين وأربعمئة: وفاة إمام الحرمين عبد الملك بن عبد الله الشافعي.

٤٨١ ـ في سنة إحدى وثمانين وأربعمئة: وفاة عبد العزيز بن البراج، والخواجة عبد الله الأنصاري.

٤٨٣ ـ في سنة ثلاث وثمانين وأربعمئة: وفاة ابن المغازلي علي بن محمد.

٤٨٥ ـ في سنة خمس وثمانين وأربعمئة: مقتل نظام الملك الحسن بن علي الطوسي وزير ملوك السلاجقة.

٤٨٧ ـ في سنة سبع وثمانين وأربعمئة: وفاة المقتدي، وخلافة المستظهر بالله أحمد بن المقتدي.

٤٨٨ ـ في سنة ثمان وثمانين وأربعمئة: وفاة الحميدي محمد بن أبي النصر.

٤٩٢ ـ في سنة اثنتين وتسعين وأربعمئة: غلبة الفرنجة على بيت المقدس، وإفسادهم هناك، ووفاة أسعد بن محمذ القمي الوزير (رضي الله عنه).

٤٩٨ ـ في سنة ثمان وتسعين وأربعمئة: وفاة ركن الدولة ابن ملك شاه أخي السلطان سنجر، وبناء الحلة السيفية.

وقائع المئة السادسة

السنوات بالأرقام

٥٠٤ـ في سنة أربع وخمسمئة: وفاة علي بن محمد الكياهراسي.

٥٠٥ـ في سنة خمس وخمسمئة: وفاة محمد بن محمد الغزالي مؤلف «إحياء العلوم».

٥١٠ـ في سنة عشر وخمسمئة: وفاة ابن مندة يحيى بن عبد الوهاب.

٥١٢ـ في سنة اثنتي عشرة وخمسمئة: وفاة المستظهر، وخلافة المسترشد بالله الفضل بن المستظهر.

٥١٣ـ في سنة ثلاث عشرة وخمسمئة: مقتل الطغرائي الحسين بن علي الأصفهاني.

٥١٥ـ في سنة خمس عشرة وخمسمئة: وفاة الحسين بن مسعود محيي السنّة البغوي.

٥١٦ـ في سنة ست عشرة وخمسمئة: وفاة القاسم بن علي الحريري صاحب «المقامات»، والفصيحي علي بن محمد النحوي.

٥١٨ـ في سنة ثماني عشرة وخمسمئة: وفاة أبي الفضل أحمد بن محمد الميداني.

٥٢٠ـ في سنة عشرين وخمسمئة: وفاة أحمد بن محمد الغزالي.

٥٢٥ـ في سنة خمس وعشرين وخمسمئة: وفاة المجدود بن آدم الحكيم السنائي.

٥٢٩ـ في سنة تسع وعشرين وخمسمئة: مقتل المسترشد، وخلافة الراشد بالله جعفر بن المسترشد.

٥٣٢ـ في سنة اثنتين وثلاثين وخمسمئة: مقتل الراشد، وخلافة محمد المقتفي لأمر الله.

السنوات بالأرقام

٥٣٨ ـ في سنة ثمان وثلاثين وخمسمئة: وفاة محمود بن عمر الزمخشري.

٥٣٩ ـ في سنة تسع وثلاثين وخمسمئة: وفاة ابن الجواليقي الموهوب بن أحمد.

٥٤٢ ـ في سنة اثنتين وأربعين وخمسمئة: وفاة ابن الشجري السيد هبة الله بن علي النحوي.

٥٤٤ ـ في سنة أربع وأربعين وخمسمئة: وفاة القاضي عياض المغربي.

٥٤٧ ـ في سنة سبع وأربعين وخمسمئة: وفاة السلطان مسعود السلجوقي، وأنوري الشاعر.

٥٤٨ ـ في سنة ثمان وأربعين وخمسمئة: وفاة محمد بن عبد الكريم الشهرستاني، وأحمد بن منير الشاعر، وأمين الإسلام الطبرسي الفضل بن الحسن، والقطب الراوندي سعيد بن هبة الله.

٥٥٢ ـ في سنة اثنتين وخمسين وخمسمئة: وفاة السلطان سنجر بن ملك شاه بن ألب أرسلان.

٥٥٥ ـ في سنة خمس وخمسين وخمسمئة: وفاة المقتفي، وخلافة المستنجد بالله يوسف بن محمد.

٥٦٠ ـ في سنة ستين وخمسمئة: وفاة الشيخ عبد القادر الجيلاني.

٥٦٢ ـ في سنة اثنتين وستين وخمسمئة: وفاة السمعاني عبد الكريم بن محمد.

٥٦٣ ـ في سنة ثلاث وستين وخمسمئة: وفاة السهروردي عبد القاهر بن عبد الله.

٥٦٥ ـ في سنة خمس وستين وخمسمئة: وفاة الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني.

٥٦٦ ـ في سنة ست وستين وخمسمئة: وفاة المستنجد، وخلافة المستضيء بنور الله.

٥٦٧ ـ في سنة سبع وستين وخمسمئة: وفاة ابن الخشاب النحوي عبد الله بن أحمد، والبوري الشافعي، والقرطبي.

٥٦٨ ـ في سنة ثمان وستين وخمسمئة: وفاة أحمد بن محمد الأخطب الخوارزمي.

السنوات بالأرقام

٥٦٩ ـ في سنة تسع وستين وخمسمئة: وفاة ابن الدهّان سعيد بن المبارك النحوي.

٥٧٣ ـ في سنة ثلاث وسبعين وخمسمئة: وفاة محمد بن محمد البلخي العمري رشيد الوطواط.

٥٧٤ ـ في سنة أربع وسبعين وخمسمئة: وفاة حيص بيص سعد بن محمد.

٥٧٥ ـ في سنة خمس وسبعين وخمسمئة: وفاة المستضيء، وخلافة أحمد الناصر لدين الله.

٥٧٦ ـ في سنة ست وسبعين وخمسمئة: وفاة أحمد بن محمد السلفي.

٥٧٧ ـ في سنة سبع وسبعين وخمسمئة: وفاة ابن الأنباري عبد الرحمان بن محمد.

٥٧٨ ـ في سنة ثمان وسبعين وخمسمئة: وفاة ابن إدريس محمد بن أحمد الحلي.

٥٨١ ـ في سنة إحدى وثمانين وخمسمئة: وفاة الحكيم الخاقاني الشاعر.

٥٨٣ ـ في سنة ثلاث وثمانين وخمسمئة: ذكر أن أول أيام السنة، وأول أيام الأسبوع، وأول أيام السنة الشمسية، وأول أيام السنة العربية قد توافقت، وأن الشمس والقمر كانا في برج واحد.

٥٨٥ ـ في سنة خمس وثمانين وخمسمئة: وفاة أبي المكارم بن زهرة الحمزة بن علي الحسيني (رضي الله عنه)، والشيخ منتجب الدين علي بن عبيد الله الرازي.

٥٨٦ ـ في سنة ست وثمانين وخمسمئة، ولادة ابن أبي الحديد عبد الحميد.

٥٨٨ ـ في سنة ثمان وثمانين وخمسمئة: وفاة محمد بن علي بن شهرآشوب.

٥٩٠ ـ في سنة تسعين وخمسمئة: وفاة القاسم بن فيرة الشاطبي.

٥٩٦ ـ في سنة ست وتسعين وخمسمئة: توقف مياه النيل في مصر، ووقوع قحط وغلاء شديدين.

٥٩٧ ـ في سنة سبع وتسعين وخمسمئة: وقوع زلزال شديد في مصر والشام، ووفاة ابن الجوزي عبد الرحمان بن علي.

وقائع المئة السابعة

السنوات بالأرقام

٦٠٦ - في سنة ست وستمئة: وفاة ابن الأثير مبارك بن محمد صاحب «النهاية» و «جامع الأصول»، ووفاة محمد بن عمر الفخر الرازي.

٦٠٨ - في سنة ثمان وستمئة: غلبة جيش التتار على بلاد الإسلام.

٦١٠ - في سنة عشر وستمئة: وفاة ابن الخروف علي بن محمد النحوي، والجزولي عيسى بن عبد العزيز، والناصر بن عبد السيد المطرزي.

٦١٦ - في سنة ست عشرة وستمئة: وفاة أبي البقاء عبد الله بن الحسين.

٦١٨ - في سنة ثماني عشرة وستمئة: وفاة نجم الدين الكبري أحمد بن عمر.

٦٢٢ - في سنة اثنين وعشرين وستمئة: وفاة الناصر، وخلافة محمد الظاهر بأمر الله.

٦٢٣ - في سنة ثلاث وعشرين وستمئة: وفاة الظاهر، وخلافة المنصور المستنصر بالله.

٦٢٤ - في سنة أربع وعشرين وستمئة: وفاة جنكيزخان.

٦٢٦ - في سنة ست وعشرين وستمئة: وفاة ياقوت الحموي.

٦٣٠ - في سنة ثلاثين وستمئة: وفاة ابن الأثير علي بن محمد الجزري صاحب «كامل التواريخ».

٦٣١ - في سنة إحدى وثلاثين وستمئة: وفاة أبي الحسن الآمدي علي بن محمد، وابن الخباز محمد بن أبي بكر.

٦٣٢ - في سنة اثنتين وثلاثين وستمئة: وفاة عمر بن محمد السهروردي.

٦٣٨ - في سنة ثمان وثلاثين وستمئة: وفاة محمد بن علي محيي الدين بن العربي.

٦٤٠ ـ في سنة أربعين وستمئة: وفاة المستنصر، وخلافة عبد الله المستعصم.

٦٤٣ ـ في سنة ثلاث وأربعين وستمئة: وفاة علي بن محمد علم الدين السخاوي، وابن الصائغ يعيش بن علي النحوي.

٦٤٥ ـ في سنة خمس وأربعين وستمئة: وفاة الشلوبيني عمر بن محمد.

٦٤٦ ـ في سنة ست وأربعين وستمئة: وفاة ابن الحاجب عثمان بن عمر.

٦٤٨ ـ في سنة ثمان وأربعين وستمئة: ولادة العلاّمة الحلي الحسن بن يوسف.

٦٥٦ ـ في سنة ست وخمسين وستمئة: مقتل المستعصم، وانقراض دولة بني العباس.

٦٦١ أو ٦٧٢ ـ في سنة إحدى وستين وستمئة، أو في سنة اثنتين وسبعين وستمئة:

وفاة المولى جلال الدين محمد بن محمد المعروف بالمولى الرومي صاحب «المثنوي» في قصبة «قونو»، وأصله من بلخ، لكنه لما هاجر إلى بلاد الروم وتوقف في قصبة «قونو» أصبح يعرف بالرومي، وهو ممن أدركوا صحبة العطار، والسنائي، وشمس الدين التبريزي، وكتب «المثنوي» بأمر الأمير حسام الدين شلبي القونوي الرومي، وقد أشار إلى ذلك في شعره.

«ثم اعلم أنه أطرى في مدح المولى الرومي صاحب «مجالس المؤمنين» وجعله من خلّص شيعة آل محمد عليهم السلام، وأيّد ذلك بكونه من أولاد جلال الدين الداعي للدولة الإسماعيلية، وللمحققين معه كلام.

وبالجملة أمر الرجل أشهر من أن يذكر، وقد ذكره العلماء والعرفاء من الفريقين في تراجمهم».

٦٦٣ ـ في سنة ثلاث وستين وستمئة: وفاة علي بن المؤمن المشهور بابن عصفور، حامل لواء العربية والنحو بمملكة الأندلس.

وفاة السيد ابن طاووس ونبذة عن أحواله

في سنة أربع وستين وستمئة: وفاة السيد الأجلّ العالي المقام رضي الدين علي بن موسى بن جعفر طاووس آل طاووس، وينتهي نسبه الشريف إلى داود بن الحسن بن الحسن المجتبى عليه السلام، صاحب دعاء أم داود، وأما

أمه وأم أخيه السيد جمال الدين أحمد بن موسى صاحب «البشرى والملاذ» فهي بنت الشيخ المسعود ورّام بن أبي فراس.

وفضائل السيد (رحمه الله) في الزهد والعبادة وجلالة القدر وحسن التصنيف أظهر من أن تذكر، وأكثر من أن تحصر، ومن أراد أن يطلع على نبذ من زهده وتقواه فليراجع كتبه، لا سيما كتاب «كشف المحجة، وكان (رضي الله عنه) مستجاب الدعوة، وصاحب الكرامات الباهرة، وكان فصيحاً بليغاً، وبالجملة فإطالة الكلام في حقه إزراء بشأنه:

ليس يبقى بنا ولو كان منا فسكارى كلنا وهو النبيذ

في التاسع من ربيع الآخر سنة ثلاث وستين وستمئة توفي هولاكو خان بن تولي خان بن جنكيزخان مفني دولة بني العباس، وكانت تبريز دار سلطنته، كذا في «مجالس المؤمنين».

٦٧٢ - في سنة اثنتين وسبعين وستمئة: وفاة محمد بن عبد الله المعروف بابن مالك الأندلسي الشافعي، صاحب «الألفية» في النحو، وتصانيف أخرى، وقد جمع بعضهم أساميها في أبيات شعر.

وقد شرح «الألفية» جماعة من العلماء، من جملتهم ابن ماتن بدر الدين المعروف بابن الناظم، وجلال الدين السيوطي. وخالد الأزهري، وعبد الله بن عقيل، وجابر الأعمى، وعبد العزيز موصلي، وعمر بن المظفر الحلبي المشهور بابن الوردي، وابن الصانع الحنفي، ومحمد بن أبي الفتح الحنبلي، ومحمد بن سليمان المصري، ويوسف بن الخطيب.

وفاة الخواجة نصير الدين الطوسي ونبذة عن أحواله

وتوفي في السنة نفسها، في يوم الغدير، سلطان المحققين وبرهان الموحدين المحقق المتكلم الحكيم المتبحر، حجة الفرقة الناجية، الخواجة نصير الحق والملة والدين محمد بن محمد بن الحسن الطوسي، قدس الله رمسه، صاحب كتاب «تجريد العقائد» و «شرح الإشارات» ومصنفات جمة، أصله من «جهرود» من موضع يقال له «شاره» من قرى قم، كان مولده الشريف في «طوس» لهذا
أصبح يعرف بالخواجة نصير الطوسي، ومدفنه في البقعة الكاظمية المنورة، في ذلك الموضع الذي أعدّه الناصر العباسي لنفسه، ولم يوفق لأن يدفن فيه، فدفن في الرصافة.

وذكر أنه قيل له عند وفاته: سنحمل جنازتك إلى النجف، قال: أخجل من الإمام موسى عليه السلام إن أوصيت بحمل جنازتي إلى النجف.

وكانت له في دولة هولاكو خان مكانة رفيعة، وبعد فتح بغداد ومقتل المستعصم انشغل بأمر (الرصد) مع مجموعة من الفضلاء، وحكايته معروفة بالتفصيل، وله أشعار لطيفة.

وقيل نقلاً عن صاحب «المقامع» أن الخواجة كان يركب سفينة في سفر، وكان ركاب السفينة يعدّون ثلاثين راكباً منهم خمسة عشر مسلماً، وخمسة عشر يهودياً، واتفق أن السفينة اضطربت وأشرفت على الغرق، فوافق أهل السفينة على إجراء قرعة فيما بينهم، فمن جاءت القرعة باسمه رموه في البحر، فأجلسهم الخواجة على شكل دائرة، واقترعوا تسعة فتسعة فخرجت القرعة بأجمعها على أسماء اليهود، فرموهم في البحر، وهكذا هلك اليهود عن آخرهم. وهذه الحكاية نقلها صاحب «المقامع» شعراً في جوابه عمن سأله، وهذا مضمونه.

«ولو أحصينا من الترك أربعة، ومن الهندوس خمسة، واثنين من

الروم، وعراقياً واحداً، وأضفنا ثلاثة أيام وليلة، ونهاراً وليلتين، إلى اثنين من البزاة، وغربان ثلاثة، وآخر كنجم سهيل، وأضفنا إلى المجموع غيمتين وقمرين، وآخر كما الدخان، ثم احتسبنا المجموع تسعاً فتسعاً، إذاً لسقط اليهود.

وفي هذين البيتين أيضاً إشارة لهذه الواقعة اللطيفة، وأريدَ أن ترمز الحروف المنقوطة إلى اليهود، وغير المنقوطة إلى المسلمين في أحد البيتين:

ولـمـا فـتـنـت بـلـحـظ لـه　　أزلت فما خفت من شامت

والأمر في البيت الثاني على عكس البيت الأول:

والله يـقـضـي بـكـل يـسـر　　ويحفظ الضيف حيث كانا

٦٧٣ - في سنة ثلاث وسبعين وستمئة: وفاة السيد الأجل أحمد بن موسى بن طاووس (رضي الله عنه).

٦٧٦ - في ربيع الثاني من سنة ست وسبعين وسبعمئة: وفاة الشيخ الأجل الأفقه الأعظم، ومولانا المعظم، شيخ الطائفة بغير جاحد، وواحد هذه الفرقة وأي واحد، أبي القاسم نجم الدين جعفر بن الحسن الحلي المعروف بالمحقق، صاحب «الشرائع» و «المعتبر» و «النافع» وغيرها. وهذا الجليل خال العلامة الحلّي، ومزاره الشريف بالحلّة، وتاريخ وفاته هو الآتي: «زبدة المحققين رحمه الله».

وقد تتلمذ على المحقق جماعة من أكابر العلماء كالسيد عبد الكريم أحمد بن طاووس مؤلف «فرحة الغري» والسيد محمد بن علي بن طاووس الذي ألف أبوه من أجله كتاب «البهجة لثمرة المهجة»، والشيخ الحسن بن أبي طالب اليوسفي الآبي صاحب كتاب «كشف الرموز» في شرح «النافع»، والوزير أبي القاسم علي بن الوزير محمد بن العلقمي الشيعي وزير المعتصم.

وفي السنة نفسها أكمل الشيخ عماد الدين الطبري الحسن بن علي بن محمد المازندراني كتاب «مناقب الطاهرين» وهذا الشيخ

الجليل كان معاصراً للمحقق والعلامة، وصاحب كتب شريفة في الفقه والحديث وغيرهما، ومنها كتاب «كامل السقيفة» المعروف بـ «كامل البهائي» لأنه أهداه إلى مجلس الوزير المعظم بهاء الدين محمد بن الوزير شمس الدين محمد الخويني المشهور بصاحب الديوان، متولي حكومة ممالك إيران في أيام سلطنة هولاكو خان المغولي، وكتاب «الكامل» في مثالب أعداء أهل البيت عليهم السلام، وفي بيان التولي، والكتابان كلاهما كما السيف والرمح على المخالفين، ويزيدان على ثلاثين ألف بيت.

٦٧٩ - في سنة تسع وسبعين وستمئة: وفاة الفيلسوف المحقق والحكيم المدقق العالم الرباني ميثم بن علي البحراني صاحب «شروح نهج البلاغة» و «شرح مئة كلمة» و «رسالة في الإمامة» وغيرها، وهو صاحب الحكاية المعروفة «كُلْ يا كميّ»، وينسب بعض العلماء إليه كتاب «الاستغاثة في بدع المحدثة» والحق أن «الاستغاثة» تأليف علي بن أحمد الكوفي، وقبر ابن ميثم في قرية «هلتا» من بلاد البحرين، وذكره صاحب «مجمع البحرين» في مادة «مثم»، وقد اعترضوا عليه بأنه كان من الأنسب ذكره تحت مادة «وثم»، وعن بعض العلماء: «إن ميثم حيثما وجد فهو بكسر الميم، إلا ميثم البحراني فإنه بفتح الميم».

٦٨١ - في سنة إحدى وثمانين وستمئة في السادس والعشرين من شهر رجب: توفي بدمشق أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر بن خلّكان الإربلي، المؤرخ المشهور صاحب التاريخ المعروف بـ «وفيات الأعيان»، وابن خلّكان من أحفاد يحيى البرمكي، ووجه تسمية جدّه بخلّكان، بفتح الخاء وتشديد اللام المكسورة هو أنه كان ذات يوم يفتخر على أقرانه بمفاخر آل برمك فقالوا له: «خلّ كان جدي كذا، كان نسبي كذا» أي دع عنك مفاخر الأجداد والنسب، واذكر مفاخرك أنت:

إنّ الفتى من يقول ها أنا ذا   ليس الفتى من يقول كان أبي

كان ابن خلكان في غاية التعصب والنصب، وكان أشعرياً في الأصول، شافعياً في الفرع، مارس القضاء بمصر، وألف كتاب «الوفيات» هناك حوالى سنة أربع وخمسين وستمئة، والحق أنه كتبه بإتقان، وقد ذكر فيه تراجم مشاهير التابعين ومن بعدهم حتى زمانه، وقد كتب صلاح الصفدي تذييلاً عليه مسمّى بـ «الوافي بالوفيات».

وفي السنة نفسها توفي عبد الرحمان بن عبد الله بن أحمد المعروف بأبي القاسم السهيلي النحوي، صاحب «شرح الجمّل» وكتاب «الإعلام بما في القرآن من الأسماء والأعلام» وغيرهما، وكتاب «الإعلام» كتاب لطيف، وقد نقل صاحب «الروضات» نبذاً عنه في ترجمة السهلي.

٦٨٥ أو ٦٩٢- في سنة خمس وثمانين وستمئة، أو اثنتين وتسعين وستمئة: توفي القاضي ناصر الدين عبد الله بن عمر الفارسي البيضاوي الأشعري الشافعي، المفسّر المتكلم الأصولي، صاحب التفسير المعروف المسمى بـ «أنوار التنزيل وأسرار التأويل» وفي الحقيقة فإن «تهذيب الكشاف» و «التفسير» هذا كانا من دواعي صعوده في الدولة المغولية، ودواعي مزاولته للقضاء في «البيضاء» بطريقة فصلت في مكانها.

«وله تأليفات أخر كـ «شرح مختصر ابن الحاجب» و «شرح المصابيح» للبغوي، وله كلام لطيف في ذبح بقرة بني إسرائيل يشير إلى ذبح بقرة النفس، وأثره أن يحيا حياة طيبة، وقد أخذ منه الشيخ البهائي المحشي له في «نان وحلوا» أي: «الخبز والحلوى».

٦٨٦ - في سنة ست وثمانين وستمئة: توفي الشيخ الأجل نجم الأئمة رضي الدين محمد بن الحسين الأسترآبادي المعروف بالشارح الرضي الإمامي، وهو صاحب «الشروح على الكافية والشافية» و «سبع قصائد» ابن أبي الحديد، في مدح أمير المؤمنين صلوات الله عليه.

وفي السنة نفسها توفي بدر الدين محمد بن محمد بن مالك الأندلسي النحوي، المعروف بابن الناظم، شارح «ألفية» أبيه، وصاحب «شرح الكافية واللامية».

٦٨٩ - في سنة تسع وثمانين وستمئة، في ليلة عرفة: توفي الشيخ الجليل الفقيه يحيى بن أحمد بن يحيى بن الحسن بن سعيد الهذلي ابن عم المحقق جعفر بن الحسن بن يحيى، المعروف بابن سعيد الحلي صاحب «جامع الشرائع» و «نزهة الناظر في الجمع بين الأشياء والنظائر» مات في الثلث الأول من ليلة عرفة، وله حكاية مع عمه المحقق حين حضر الحلة نصير الدين الطوسي في سلطنة هولاكو خان، وكان (رضي الله عنه) ورعاً فاضلاً.

٦٩٣ - في سنة ثلاث وتسعين وستمئة، في شهر شوال توفي السيد الأجل غياث الدين عبد الكريم بن أحمد بن موسى بن جعفر أبناء طاووس صاحب كتاب «الشمل المنظوم في مصفى العلوم» وكتاب «فرحة الغري»، حكى صاحب «الروضات» عن رجال ابن داود: «إن السيد عبد الكريم اشتغل بالكتابة واستغنى من العلم أربعين يوماً، وعمره إذ ذاك أربع سنين». فلاحظ.

وقائع المئة الثامنة

السنوات بالأرقام

٧١٠ـ في سنة عشر وسبعئمة: توفي بتبريز القطب الشيرازي محمد بن مسعود بن مصلح الفارسي الشيرازي الملقب بلعلامة. ووري الثرى بالقرب من قبر البيضاوي، ومن مصنفاته: «شرح مختصر ابن الحاجب» و «شرح المفتاح» و «شرح كليات ابن سينا» وغيرها، وكان القطب في البداية تلميذاً للكاتبي.

حين قدم المحقق الطوسي إلى قزوين ونزل في دار الكاتبي، الذي رغب في تقديم خدمة للمحقق، فألحق قطب الدين بخدمته، كما اختار القطب ملازمة الخواجة أيضاً، واستفاد الكثير من علومه، وبلغ العلاّمة حداً في العلم حتى قيل: «وكان بينه وبين ابن أخته الشيخ السعدي مطايبات، وكانا في زمن دولة الأتابك الأعظم سعد بن زنكي، ولهذا نسب إليه السعدي تخلصاً.

٧١١ـ في شعبان من سنة إحدى عشرة وسبعمئة: وفاة محمد بن مكرم المصري صاحب «لسان العرب»، جمع فيه بين «التهذيب» و «المحكم» و «الصحاح» و «الجمهرة» و «النهاية» وغيرها، ومن نظمه:

بـالله إن جـزت بـوادي الأراك وقبّـل عيـدانهُ الـخضـر فـاك
ابعث إلى عبدك من بعضها فــإنــه والله مــالــي ســواك

٧٢٦ـ في الحادي والعشرين من المحرم سنة ست وعشرين وسبعمئة: توفي آية الله العلامة الحلي (رضي الله عنه) بمحروسة الحلة، ودفن في جوار أمير المؤمنين عليه السلام بالنجف، واسمه المبارك جمال الملة والحق والدين أبو منصور الحسن بن الشيخ الفقيه السديد سديد الدين

يوسف بن علي بن المطهر، وكان أخوه علي بن يوسف صاحب «العدد القوية لدفع المخاوف اليومية»، وكان والد العلّامة أستاذه الأقدم في التفقه والأدب والأخلاق، وكان فاضلاً فقيهاً متبحراً، وهو الذي ميزه المحقق من بين تلاميذه عند الخواجة نصير الدين الطوسي في الحكاية المعروفة.

واعلم أنه كان في طبقة العلّامة زكريا بن محمود القزويني صاحب كتاب «عجائب المخلوقات» وكان من أعاظم أهل السنّة ومحدثيهم الحفّاظ، وفي طبقته أيضاً السيد علي بن الحسين الباقي صاحب كتاب «اختيار المصباح».

٧٣٥ ـ في سنة خمس وثلاثين وسبعمئة: توفي الملّا عبد الرزاق الكاشي، العارف الصوفي صاحب «التأويلات» و «شرح فصوص ابن عربي» و «شرح منازل السائرين» للخواجة عبد الله الأنصاري.

وهو غير المولى عبد الرزاق بن علي اللاهيجي الجيلاني القمي الملقب بالفياض، ختن المولى صدر الشيرازي صاحب «گوهر مراد» و «شرح الشوارق» وغيرهما، وهو والد الميرزا حسن صاحب «جمال الصالحين في أعمال السنة» و «شمع اليقين في الإمامة»، وهو أيضاً غير المولى عبد الرزاق بن مير الجيلاني صاحب «شرح قواعد العقائد» للمحقق الطوسي.

٧٣٩ ـ في سنة تسع وثلاثين وسبعمئة: توفي بدمشق قاضي القضاة محمد بن عبد الرحمان القزويني الأصل، المشهور بالخطيب الدمشقي صاحب «تلخيص المفتاح» للسكاكي، الذي كتب عليه التفتازاني شرحيه المعروفين بـ «المطول» و «المختصر» في علمي البيان والمعاني.

٧٤٥ ـ في سنة خمس وأربعين وسبعمئة: توفي أثير الدين محمد بن يوسف الأندلسي المكنى بأبي حيّان النحوي، كان من أقطاب سلسلة العلم والأدب، له تصانيف كثيرة، قيل إنه مال إلى مذهب أهل الظاهر وإلى محبة علي بن أبي طالب عليه السلام، وكان كثير الخشوع والبكاء

عند قراءة القرآن، وهو غير أبي حيّان التوحيدي علي بن محمد المتهم بالزندقة والإلحاد كما عن ابن الجوزي، قال: زنادقة الإسلام ثلاثة: ابن الراوندي، وأبو حيّان التوحيدي، وأبو العلاء المعري، وأشرهم على الإسلام أبو حيّان. انتهى.

وأبو حيان التوحيدي هو الذي عمل كتاباً في مثالب أبي الفضل بن العميد، والصاحب بن عبّاد، وله كتاب: «الحج العقلي إذا ضاق الفضا عن الحج الشرعي»، وكأنه نظير ما كتبه الحسين بن منصور الحلاج في كيفية حج الفقراء من اختراعات نفسه، فصار عمدة السبب في قتله.

٧٤٩ - في سنة تسع وأربعين وسبعمئة: توفي عمر بن المظفر الحلبي الشافعي المعروف بابن الوردي.

٧٥٤ - في سنة أربع وخمسين وسبعمئة: توفي ابن أخت العلاّمة السيد عميد الدين عبد المطلب بن محمد بن علي بن الأعرج الحسيني الحلي المدفون بالغري، كان من أهل بيت العلم، وأبوه وجده وأخوه كلهم علماء، له«شرح تهذيب الأصول» وغيره من شروحه على كتب خاله، وهو غير عميد الرؤساء هبة الله بن حامد راوي «الصحيفة السجادية» بقوله: حدّثنا.. فإنه أقدم، وكان من تلاميذ السيد فخار بن معدّ الموسوي (قده).

٧٥٦ - في سنة ست وخمسين وسبعمئة: توفي في سجن كرمان القاضي عضد الدين عبد الرحمان بن أحمد الفارسي الإيجي الشافعي الأصولي المتكلم، صاحب «شرح مختصر ابن الحاجب» وصاحب «المواقف» الذي شرحه المير السيد شريف، وغيرهما.

وكان هو من علماء دولة السلطان الجايتو محمد المعروف بالشاه خدابنده، وكان قاضي القضاة بشيراز، وجرت له محنة مع صاحب كرمان فحبسه بالقلعة فمات مسجوناً.

٧٦٠ - في سنة ستين وسبعمئة: توفي جمال الدين عبد الله بن يوسف بن أحمد المصري الحنبلي المعروف بابن هشام صاحب «مغني اللبيب

عن كتب الأعاريب» المشهور في حياته، وابن هشام يطلق على جماعة كثيرة منهم: عبد الملك بن هشام صاحب «السيرة»، ومنهم يوسف بن هشام الحنبلي، وهو أيضاً صاحب «المغني» في النحو.

٧٦٧ ـ في سنة سبع وستين وسبعمئة: توفي بدمشق أبو جعفر محمد بن محمد البويهي الرازي، المعروف بالقطب الرازي، والقطب التحتاني، وهو منسوب إلى سلاطين بني بويه كما عن المحقق الكركي، أو إلى بابويه القمي كما نقل عن الشيخ الشهيد، وأصله من ورامين الري، وكان يقال له: القطب التحتاني لتمييزه عن القطب الآخر الذي كان زميلاً له في حجرته في المدرسة النظامية.

والقطب الرازي صاحب «المحاكمات» و «شرح الشمسية» و «شرح المطالع»،

و «الحاشية على قواعد العلّامة» وغيرها، وهو من تلامذة العلّامة الحلي، وقد كتب «القواعد» بخطه، وكتب له العلّامة إجازة على الوجه الخلفي للقواعد. هذا والقطب الرازي أجاز الشيخ الشهيد، وقال الشيخ الشهيد وآخرون: كان من علماء الإمامية، وكانوا يجلّونه، كما يجلّه ويوقره علماء السنّة أيضاً، وذكروه في تراجمهم، تتلمذ عليه المير السيد شريف وغيره، لكن صاحب «الروضات» حكم بمخالفته، وأصرّ على كونه من العامّة، وقد ذكر كلامه شيخنا المحدث الطبرسي النوري، وانتصر له في خاتمة «المستدرك» معترضاً على صاحب «الروضات»، فيرجع إلى ذلك هناك.

وقد استوطن القطب الرازي دمشق في أواخر أمره، وتوفي هناك، وكان معاصراً لابن تيمية الحراني صاحب «المناهج السنية في رد الشيعة والقدرية» كما كان من معاصري قاضي القضاة علي بن عبد الكافي السبكي، الشافعي الأشعري، الذي برع في أغلب العلوم، ويجله علماء العامة كثيراً، ويدعونه بقدوة الأئمة وحجة الفضلاء، وتلميذه صلاح الدين الصفدي شارح «لامية العجم» وصفه بأكثر من ذلك، وقد

نشبت بين القطب والسبكي منازعات ومباحثات في العلوم، والقطب الرازي هو غير القطب الشيرازي المتوفى بتبريز سنة عشر وسبعمئة.

٧٦٨ـ في سنة ثمان وستين وسبعمئة قيل إنه توفي الشيخ عبد الله بن أسعد اليافعي المكي، العالم بالعلوم الظاهرية والباطنية، صاحب التاريخ المعروف بـ «مرآة الجنان وعبرة اليقظان» و «روض الرياحين في حكايات الصالحين» وغيرهما.

٧٦٩ـ في سنة تسع وستين وسبعمئة: توفي قاضي القضاة عبد الله بن عبد الرحمان المعروف بابن أبي عقيل، المنسوب إلى عقيل بن أبي طالب، المصري الشافعي الفقيه النحوي شارح «الفقيه» والمدفون عند الشافعي، «قرأ عليه الشيخ سراج الدين البلقيني وتزوج بابنته، وللسيوطي حاشية على الشرح المذكور موسومة بالسيف الصقيل على عنق ابن أبي عقيل».

وفاة فخر المحققين ونبذة عن أحواله

٧٧١ـ في سنة إحدى وسبعين وسبعمئة: توفي رأس المدققين وفخر المحققين أبو طالب محمد بن الحسن بن يوسف بن المطهر العلاّمة، صاحب كتاب «الإيضاح في شرح القواعد وشرح التهذيب» و «نهج المسترشدين» و «مبادىء الأصول» وغيرها «أجوبة مسائل السيد مهنا»، وكان والده العلاّمة (رضي الله عنه) يعظمه ويثني عليه ويعتني بشأنه كثيراً، حتى أنه ذكره في صدر جملة من تصنيفاته الشريفة، وقال في حقه: «جعلني الله فداه، ومن كل سوء وقاه» وغير ذلك، قيل إنه فاز بدرجة الاجتهاد في السنة العاشرة من عمره الشريف.

وحكى السيد الجزائري كما عن شرحه على (يب) ما ملخصه: إن مولانا العلاّمة وولده فخر المحققين كانا مع السلطان خدابنده مصاحبين له في السفر والحضر، وكان ذلك السلطان يتوضأ للصلاة قبل وقتها، فدخل عليه العلاّمة يوماً فسأله عن ذلك، فقال: أَعِدْ كل

صلاة صليتها على ذلك المنوال، فلما خرج من عنده دخل عليه فخر المحققين فسأله أيضاً عن تلك المسألة فقال له: أعد صلاة واحدة وهي أول صلواتك على ذلك الحال، وذلك أنك لما توضأت لها قبل دخول وقتها، وصليتها بعد دخوله كانت فاسدة، فصارت ذمتك مشغولة بتلك الصلاة، فكلما توضأت بعد تلك الصلاة كان وضوؤك صحيحاً بقصد استباحة الصلاة، لأن ذمتك مشغولة بحسب نفس الأمر، ففرح السلطان بذلك، وأخبر العلاّمة بقول ولده فاستحسنه، ورجع إلى قول ولده. ولكن المحققين عابوا على العلاّمة رجوعه عن قوله بأن الوضوء الذي وقع من السلطان قبل الوقت إنما وقع بقصد استباحة الصلاة المستقبلة لا الفائتة، وإنما الأعمال بالنيات، فلا ينصرف إلى ما في ذمته بل إلى ما سيفعله من صلوات.

٧٧٦ـ في سنة ست وسبعين وسبعمئة: توفي الشيخ المتبحر شمس الدين محمد بن عبد الرحمان المعروف بابن الصانع، الحنفي النحوي صاحب شرح «الألفية» وشرح «قصيدة البردة» وغيرهما، وهذا اللقب يطلق على جماعة كثيرة.

في التاسع من جمادى الأولى من تلك السنة كانت شهادة مولانا السعيد والركن العميد تاج الفقهاء، شمس الملّة والدين أبو عبد الله الشيخ محمد بن مكي العاملي الجزيني (الكسكيني) قتل بالسيف، ثم صلب، ثم رجم، ثم أحرق بالشام ببلدة دمشق في دولة «بيدمرو» وسلطنة «برقوق» بفتوى المالكي برهان الدين، وعباد بن جماعة الشافعي، بعد أن حبس في القلعة الدمشقية سنة كاملة، ومصنفاته كثيرة: منها: «اللمعة» التي صنفها في سبعة أيام، وما كان يحضره غير المختصر النافع.

ثم اعلم أن ممن يروي عن الشيخ الشهيد الفاضل المقداد بن عبد الله السيوري الحلي الأسدي، صاحب «شرح نهج المسترشدين» و «الباب الحادي عشر» و «كنز العرفان» و «التنقيح».

والسيوري، بضم السين مع الياء المخففة: نسبة إلى السيور قرية من قرى الحلة، واحتمل صاحب «الروضات» أن تكون البقعة الواقعة في برية شهروان، المعروفة بقبر المقداد مدفن هذا الرجل الجليل، لما أن رفات المقداد بن الأسود الكندي كان بالجرف على ثلاثة أميال من المدينة، فحمل على الرقاب حتى دفن بالبقيع، والله العالم.

٧٩٢ - في سنة اثنتين وتسعين وسبعمئة توفي بسمرقند المحقق المدقق الملاّ سعد بن عمر التفتازاني الهروي الشافعي، ودفن بسرخس، ومصنفات المحقق التفتازاني كثيرة من جملتها «المطوّل» الذي شرحه في سن العشرين و «شرح الشمسية» و «المقاصد» وشرحها، و «شرح التصريف» و «حاشية الكشاف» وغيرها، ويقال إن الملاّ سعد قال هذا الشعر يهجو أحد معاصريه:

ولست جديراً أن تكون مقدماً   وما أنت إلا نصف ضدّ المقدّم

وضدّ المقدم المؤخر، والمراد نصفه: خر (أي حمار).

وفي هذه السنة أيضاً توفي الخواجة الحافظ الشيرازي، ومزاره بشيراز، وقد قمت بزيارته.

وقائع المئة التاسعة

السنوات بالأرقام

٨٠٨ ـ في سنة ثمان وثمانمئة، في الثالث من جمادى الأولى توفي الشيخ الفاضل المحيط كمال الدين محمد بن موسى بن عيسى الدميري المصري الشافعي، صاحب «حياة الحيوان» ومختصره، و «شرح المنهاج» وغيرها، وللدماميني «شارح المغني» أيضاً شرح مختصر لـ «حياة الحيوان» سماه بـ «عين الحياة».

٨١٦ ـ في سنة ست عشرة وثمانمئة: توفي بشيراز شريف الدين علي بن محمد الحسيني الحنفي الجرجاني الاسترآبادي المشهور بالمير السيد شريف الفاضل المعروف، صاحب «شرح مواقف القاضي عضد» و «التعليقات على الشمسية» وعلى «المطول» وغيرها، وصاحب «صرف مير وكبرى» وغيره، معاصر سعد الدين تفتازاني، وكان تلميذاً لقطب الدين الرازي، وفي مذهبه اختلاف، وأكثر علماء الشيعة يعدونه سنّياً، وعده القاضي نور الله من حكماء مذهب الشيعة وعلمائهم، مستشهداً بتصريح تلميذه السيد محمد نور بخش، وتنصيص الشيخ محمد بن أبي جمهور الأحسائي، وقال ما معناه: «ما الحاجة إلى نور القمر في ليل التجلي».

أما ابنه السيد شمس الدين محمد فشيعي إمامي، وأمّا ابن السيد محمد الميرزا محمد علي المعروف بالميرزا مخدوم الشريفي فسنّي وناصبي، وهو من أضلّ السلطان الشاه إسماعيل الثاني وجعله سنّياً، وكتب كتاباً في الرد على الشيعة موسوماً بـ «نواقض الروافض».

والقاضي نـور الله، نوّر الله مرقده، كتب رداً عليه أسماه «مصائب

النواصب»، وابن الميرزا مخدوم أبي الفتح شريفي صاحب «آيات الأحكام» شيعي إمامي، وهو مصداق لـ ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ كما أن أباه مصداق لـ ﴿وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾.

وإجمالاً فقد ذكر أنه لما شارف المير السيد شريف على الموت قال له ابنه: أوصني يا أبي، فقال له: ابق على ما أنت عليه، وقد نظم الولد مضمون كلام أبيه شعراً.

٨١٧ـ في سنة سبع عشرة وثمانمئة: توفي مجد الدين محمد بن يعقوب بن محمد الفيروزآبادي الشيرازي، صاحب «القاموس» وغيره، جاور بمكة، وصنّف بها «القاموس» ومات بزبيد من ديار اليمن.

واتفق في تلك السنة أن ولد عبد الرحمان بن أحمد بن محمد الدشتي الفارسي، الملقب بالملاّ الجامي، والمعروف بشيخ الإسلام على لسان أهل السنّة، و «جام» من بلاد ما وراء النهر، وهناك ولد الجامي.

وله مؤلفات منها: كتاب «النفحات» في طبقات الصوفية، ومنها: شرحه على «الكافية» المعروفة بـ «الفوائد الضيائية»، وقد شرحه باسم ولده ضياء الدين، وكان الجامي من أعاظم علماء النحو والصرف والحديث والعروض والمعمى وغيرها، وكان شاعراً مجيداً بالعربية والفارسية والملمعات وتخلصه أيضاً الجامي، وبه تتصل سلسلة الصوفية النقشبندية.

وكان في الظاهر حنفياً أشعرياً، بل قيل: كان ناصبياً، كما صرح بذلك القاضي نور الله[1] والآغا محمد علي صاحب «المقامع» وغيره،

(١) قال السيد الشهيد القاضي نور الله في «المجالس» في ذكر بلدة «جرجان»: أهل جرجان مشهورون بالتشيع، وبالتقلب في ذلك، ويؤيد هذا أنه يذكر عن الملاّ الجامي (عليه ما عليه) أنه فوجىء ذات يوم برجل غريب، فسأله من أنت؟ قال: أنا سيد وطالب علم واسترآبادي، فقال له الملاّ الجامي: الاختصار في الكلام مطلوب، فعليك أن تقول كافر مطلق، وننتهي أنا وأنت من هذا القيل والقال. (منه ره).

وقد ذكر في المقامع كلاماً متعلقاً به، نعم ذكر السيد الأمير محمد حسين الحسيني الخاتون آبادي سبط العلاّمة المجلسي أنه كان في الباطن شيعياً، ولكن كان يتقي.

وله أشعار يخاطب بها الدهر مبدياً تأفّفه من نزاع السنّة والشيعة ويقول: يتساءلون: ما هو مذهب الجامي؟ فألف شكر أني لست كلباً سنّياً ولا حماراً شيعياً. ومن نوادره ما حكي أنه أنشد بحضرة جماعة من الظرفاء هذا البيت لنفسه، ومضمونه: لأنت في روحي وفكري وعيني، فكل ما يبدو لعيني أتمثله أنت.

فقال له أحدهم: هب أن حماراً ظهر لك! فقال: أتمثله أنت كذلك.

ويذكر القاضي نور الله نقلاً عن القاضي المير حسين، شارح ديوان أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال شعراً يذم الملاّ الجامي ومضمونه:

ذاك الإمام ولي الله بالحق، واسمه أسد الله الغالب، غير أن اثنين كانا مصدر أذى وإزعاج له، أحدهما جاهل، والآخر أحمق، وكلاهما يحملان اسم عبد الرحمان، أولهما ابن ملجم، وثانيهما الجامي.

٨١٩ - في سنة تسع عشرة وثمانمئة: توفي الأستاذ العلاّمة محمد بن أبي بكر ابن قاضي القضاة عبد العزيز الحموي الشافعي المتكلم الأصولي، صاحب «الحواشي» وتصانيف كثيرة، والمعروف بابن جماعة، وهو غير عبّاد بن جماعة الشافعي الآمر بقتل الشهيد الأول (رضي الله عنه).

٨٢٧ - في سنة سبع عشرين وثمانمئة، في شهر شعبان منها: توفي بكلبرجة الهند بدر الدين محمد بن أبي بكر بن عمر الإسكندري المصري المالكي، المعروف بالدماميني، صاحب «شرح التسهيل» و «الحاشية على «المغني» المسمى بـ «تحفة الغريب في حاشية مغني اللبيب» وحاشيته أفضل من حاشية الشمني لأنه بنى على التحقيق والتدقيق، بخلاف الثاني الذي هو أشبه بالتاريخ.

٨٣٧ - في سنة سبع وثلاثين وثمانمئة: توفي إسماعيل بن أبي بكر، صاحب كتاب «عنوان الشرف» ومجموعه في الفقه، لكنه خرج بإطار أربعة كتب أخرى في النحو والتاريخ والعروض والقوافي، «وقد أبدع في تأليفه، وقد نسج على منواله الفاضل السيوطي كتاب «النفحة المسكية والتحفة المكية» في كراسة في يوم واحد، ومن علمائنا الشيخ فرج الله محمد بن إبراهيم الجوزي صاحب كتاب «الرجال» وغيره، معاصر شيخنا الحر العاملي».

٨٤١ - في سنة إحدى وأربعين وثمانمئة: توفي الشيخ الجليل أحمد بن محمد بن فهد الحلي، مؤلف «عدة الداعي» و «التنقيح» وغيرهما، قبره بكربلاء مزار ومعروف، واعلم أن ابن فهد ينقل في «العدة» عن «الإرشاد» للديلمي أي الحسن بن أبي الحسن محمد الواعظ الديلمي، وليعلم أن طبقة الديلمي أعلى من ابن فهد، بل هو معاصر للعلاّمة أو الشهيد، كما عن قول بعضهم، والديلم مدينة «رودبار» وأطراف مازندران.

٨٥٢ - في سنة إحدى وخمسين وثمانمئة: توفي أحمد بن علي بن حجر العسقلاني الأصل، المكي المسكن، الشافعي المذهب، مؤلف «فتح الباري بشرح صحيح البخاري» و «الإصابة» و «الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة» وغيرها، وكان معاصراً لأحمد بن تيمية الناصبي، المعروف بشيخ الإسلام المبدع صاحب «منهاج السنّية» في الرد على «منهاج الكرامة» للعلامة (رضي الله عنه)، وهو مؤسس مذهب الطائفة الوهابية، وما بين ابن تيمية وابن حجر نفور شديد، ولم يجوّز ابن حجر إطلاق شيخ الإسلام عليه، ولابن الآلوسي كتاب في المحاكمة بين هذين الأحمدين موسوم بـ «جلاء العينين في المحاكمة بين الأحمدين»، ونظراً لميله لابن تيمية فهو يصرّ - على الرغم من ابن حجر - على دعوته بشيخ الإسلام.

واعلم أن ابن حجر يطلق على شخصين، وكثيراً ما اختلط الأمر بينهما، وسيأتي الحديث عن ابن حجر المتأخر في سنة أربع وتسعين وتسعمئة سنة وفاته.

٨٥٥ ـ في سنة خمس وخمسين وثمانمئة: توفي بدر الدين محمود بن أحمد، المعروف بالفاضل العيني، صاحب «شرح الشواهد» الكبير والصغير، و «شرح البخاري» و «طبقات الحنفية» وغيرها.

٨٧٢ ـ في سنة اثنتين وسبعين وثمانمئة في السابع عشر من ذي الحجة: توفي أحمد بن محمد، المعروف بالشمني المحشي المغني، أستاذ السيوطي.

٨٧٦ ـ في سنة ست وسبعين وثمانمئة: توفي الشيخ محمد بن علي الجباعي، جد شيخنا البهائي محمد بن الحسين بن عبد الصمد الشيخ محمد، وقد رأيت مجموعة الشهيد بخطه.

٨٧٧ ـ في سنة سبع وسبعين وثمانمئة: توفي الشيخ علي بن محمد بن يونس البياضي، صاحب «الصراط المستقيم» ومختصر «المختلف» و «مجمع البيان» و «صحاح اللغة» وغيرها.

٨٧٩ ـ في سنة تسع وسبعين وثمانمئة: وفاة محيي الدين محمد بن سليمان الرومي، المعروف بالشيخ الكافيجي أستاذ الملاّ جلال السيوطي، صاحب التصانيف الكثيرة، قال السيوطي: «لازمته أربع عشرة سنة فما جئته مرة إلا وسمعت منه من التحقيقات والعجائب ما لم أسمعه قبل ذلك، وقال: أما تصانيفه في العلوم العقلية فلا تحصى».

وقائع المئة العاشرة

السنوات بالأرقام

٩٠٢ - في سنة اثنتين وتسعمئة توفي المحيي الملاّ جلال الدين محمد بن أسعد الدواني المتكلم الحكيم، (دوان، كهوان: قرية من قرى كازرون شيراز) ويتصل نسبه بأبي بكر، وكان في أول أمره من أشاعرة أهل السنّة، لكنه اهتدى والحمد لله وكتب كتاب «نور الهداية» وصرّح فيه بتشيعه، وله أشعار كثيرة معروفة في السمو بالإسلام ومدح النبي وأمير المؤمنين صلوات الله عليهما.

٩١٠ - في سنة عشر وتسعمئة: توفي الفاضل الأديب الملاّ الحسين بن علي الواعظ الكاشفي البيهقي السبزواري الشيعي، زوج أخت العارف الجامي، صاحب «تفسير القرآن» و «روضة الشهداء» في المقتل، ونتيجة لقراءة تلك الروضة فقد دعي القراء بقراء الروضة، أي: قراء روضة الشهداء، لأنهم كانوا في أول الأمر يقتصرون على قراءة روضة الشهداء، ومع الأيام تطور هذا الأمر حتى وصل إلى ما نراه في أيامنا.

ومن مؤلفات الفاضل الكاشفي أيضاً: «مخزن الإنشاء» و «أسرار القاسمي» و «أخلاق المحسني» و «أنوار السهيلي» وغيرها.

وفي تلك السنة توفي المتبحر الأديب جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمان بن أبي بكر السيوطي الشافعي، وسيوط وأسيوط، كخدود وأخدود: من قرى صعيد مصر، وكان للسيوطي مصنفات كثيرة في كل فن، وكان حسن العبارة.

ونقل عن السيد علي خان الشيرازي (رضي الله عنه) أنه قال: «كان السيوطي شافعياً لكنه رجع عن التسنن واستبصر، وقال بإمامة الأئمة

الإثني عشر، وصار شيعياً إمامياً، وختم الله له بالحسنى، وقال (رضي الله عنه): رأيت كتاباً من مصنفاته ذكر فيه رجوعه إلى الحق، واستدل فيه على إمامة مولانا علي بن أبي طالب عليه السلام بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بلا فصل»انتهى.

وكان له مشايخ كثر ومنهم الشمني شارح «المغني».

٩١١ - في سنة إحدى عشرة وتسعمئة: ولد الشهيد الثاني (رضي الله عنه).

٩١٨ - في أوائل سنة ثماني عشرة وتسعمئة: ولد الشيخ الحسين بن عبد الصمد والد شيخنا البهائي، معاصر الشاه طهماسب الصفوي، وشيخ الإسلام في بلدة قزوين.

٩١٩ - في سنة تسع عشرة وتسعمئة: توفي بالمشهد الرضوي المقدس الملاّ سلطان علي الذي اشتهر بخط النستعليق (النسخ والتعليق) وكان تلميذاً للأمير علي العلوي التبريزي واضع خط النستعليق، وقد تحدث عن أحوال الأمير علي في شطر من منظومة له.

٩٣٥ - في سنة خمس وثلاثين وتسعمئة: توفي عبد الصمد والد الشيخ حسين العاملي.

٩٣٧ - في سنة سبع وثلاثين وتسعمئة: توفي الشيخ الأجل علي بن الحسين بن عبد العالي الكركي، المعروف بالمحقق الثاني، والشيخ العلائي، وهو مؤلف «جامع المقاصد» و «نفحات اللاهوت» وغيرهما، تلميذ الشيخ علي بن هلال الجزائري وهو تلميذ ابن فهد الحلّي، وقيل في تاريخ وفاة المحقق: إنه مات في يوم غدير خم من سنة أربعين وتسعمئة. وهو يطابق هذه العبارة: «مقتداي شيعة»، وهو غير الشيخ علي بن عبد العالي الميسي المعاصر له المتوفى سنة ثمان وثلاثين وتسعمئة.

ثم اعلم أنه كان من تلامذة المحقق الكركي الملاّ علي بن الحسن الزواري. أستاذ المولى فتح الله الكاشاني، وكان للزواري تفسير كبير فارسي، وترجمة هذه الكتب: «نهج البلاغة» و «كشف الغمة» و «مكارم الأخلاق» و «الاحتجاج» و «عدة الداعي» وغيرها.

وكان أيضاً من تلامذة الشيخ علي الكركي السيد شرف الدين علي الحسيني الأسترآبادي، المتوطن بالغري، صاحب كتاب «تأويل الآيات الباهرة في فضل العترة الطاهرة» وكتاب «الغروية في شرح الجعفرية».

وكان ممن عاصر الشيخ الكركي الشيخ الفاضل المحقق محمد بن الشيخ زين الدين علي بن إبراهيم، المعروف بابن أبي جمهور الأحساوي الهجزي، صاحب كتاب «غوالي اللآلي» و «زاد المسافرين» و «شرح ألفية الشهيد» و «شرح الباب الحادي عشر» و «كتاب المجلي» على مذاق الصوفية، رسالة في مناظرته مع الملاّ الهروي.

وممن عاصره أيضاً الشيخ مفلح بن الحسين الصيمري الفاضل الفقيه، تلميذ الشيخ أحمد بن فهد، وصاحب «شرح الشرائع» و «شرح الموجز» و «مختصر الصحاح» و «جواهر الكلمات في العقود والإيقاعات» وكان ابنه الشيخ حسين أيضاً عالماً فاضلاً جليلاً كثير العبادة، المتوفى بسلماباد إحدى قرى البحرين مفتتح شهر محرم الحرام سنة ثلاث وثلاثين وتسعمئة، والصيمر كحيدر، وقد يضم ميمه: بلد بين الأهواز وبلاد الجبال، على خمس مراحل من الدينور.

٩٣٨ - في سنة ثمان وثلاثين وتسعمئة: توفي الشيخ علي بن عبد العالي الميسي العاملي.

٩٤٣ - في سنة ثلاث وأربعين وتسعمئة: توفي عصام الدين إبراهيم بن محمد بن عربشاه، المنطقي المتكلم الأديب، شارح «الكافية» وغيره.

٩٤٨ - في سنة ثمان وأربعين وتسعمئة: توفي السيد المتأله المتكلم الأمير غياث الدين المنصور بن السيد الكبير الأمير صدر الدين محمد بن إبراهيم بن محمد الحسيني الدشتكي الشيرازي، صاحب المدرسة المنصورية بشيراز، كان والده أيضاً جامع المعقول والمنقول، وولداه صدر الدين محمد وشرف الدين علي أيضاً من أهل العلم والورع، ومن أحفاده السيد علي خان الشيرازي شارح «الصحيفة» و «الصمدية»، ينتهي نسبهم إلى زيد بن علي بن الحسين عليهما السلام.

ومن خصائصهم الحديث المسلسل بالآباء عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «نحن بنو عبد المطلب، ما عادانا بيت إلا وقد خرب، ولا عادانا كلب إلا وقد جرب، ومن لم يصدّق فليجرب» ومن أراد الإطلاع على حالهم فعليه بكتاب «مجالس المؤمنين».

٩٥٩ - في سنة تسع وخمسين وتسعمئة: ولد الشيخ الحسن، صاحب «المعالم»، نجل الشهيد الثاني، وهو خال المير السيد محمد صاحب «المدارك»، والشيخ الحسن والسيد محمد كانا من تلامذة المقدس الأردبيلي، كما تتلمذا على الملاّ عبد الله اليزدي والسيد علي بن الحسين الصائغ صاحب «المدارك» أيضاً.

٩٦٦ - في سنة ست وستين وتسعمئة: وقعت شهادة شيخنا زين الدين، الشهيد الثاني رحمه الله، تاريخها «مثوى الشهيد الجنة»، وقال شيخنا البهائي:

تاريخ وفاة ذلك الأوّاه   الجنة مستقره والله

وكان الشهيد الثاني: أجداده وأولاده وأحفاده من أهل العلم، فهو بمنزلة النقطة المتوسطة المحاطة بدائرة المعارف والعلوم، وله تصنيفات كثيرة جيدة، وتلامذته كثر، فممّن تتلمذ عليه وحاز على حظٍ وافر من خدمته: محمد بن علي بن الحسن العودي (رضي الله عنه) وألف رسالة في أحوال أستاذه الشهيد سماها «بغية المريد من الكشف عن أحوال الشيخ زين الدين الشهيد».

وقال بعد الثناء عليه: ولقد شاهدت منه سنة ورودي إلى خدمته أنه كان ينقل الحطب على حمار في الليل لعياله، ويصلي الصبح في المسجد، ويشتغل بالتدريس بقية نهاره. وفي «أمل الآمل»: أنه ألّف «الروضة البهية» في ستة أشهر وستة أيام، قتل (رضي الله عنه) في طريق القسطنطينية عند ساحل البحر.

في الثامن من ربيع الأول سنة أربع وثمانين وتسعمئة: توفي الشيخ حسين والد شيخنا البهائي بالبحرين في قرية «هجر»، وينتهي نسبه الشريف إلى الحرث الأعور الهمداني(بسكون الميم) من خواص أصحاب

أمير المؤمنين عليه السلام. وكان للشيخ حسين ولدان: الشيخ محمد البهائي وعبد الصمد، الذي ألف له أخوه «الصمدية» وللشيخ البهائي قصيدة لطيفة في مرثية والده (رحمهما الله) من أشعاره:

يا ثاوياً بالمصلى من قرى هجر
كسيت من حلل الرضوان أصفاها
أقمت يا بحر بالبحرين فاجتمعت
ثلاثة كنّ أمثالاً وأشباها
حويت من درر العلياء ما حويا
لكنّ درّك أعلاها وأغلاها

٩٨٨ ـ في سنة ثمان وثمانين وتسعمئة: توفي العالم الكامل الجليل المفسر الملاّ فتح الله بن الملاّ شكر الله شارح كتاب «نهج البلاغة» و «احتجاج الطبرسي» وتفسيرات القرآن المجيد بالفارسية، كان عالم زمان الشاه طهماسب الصفوي، تاريخ وفاته: «ملاذ الفقهاء».

ومعروف بين الناس أنه تنسب إليه حادثة إصابته بالسكتة ودفنه وإخراج النباش له من القبر، غير أن صاحب «روضات الجنات» نقل هذه القصة في أحوال أمين الدين الشيخ أبي علي الطبرسي صاحب «مجمع البيان» وقال: هذه الحكاية اشتهرت بنسبتها إليه، وهي من كراماته.

٩٩٣ ـ في شهر صفر سنة ثلاث وتسعين وتسعمئة: توفي أحمد بن حجر المكي المتأخر صاحب «الصواعق» وغيره، وابن حجر هذا غير أحمد بن علي بن حجر العسقلاني من علماء المئة الثامنة، ومؤلف كتاب «الدرر الكامنة في أحوال علماء المئة الثامنة» ومن مؤلفاته كذلك «فتح الباري بشرح البخاري» وكتاب «الإصابة»، وهو أول من كتب كتاباً في علم الدراية، وابن حجر المتأخر شديد النصب والعداوة، بخلاف الأول، وكثيراً ما يقع الاشتباه بينهما، وخصوصاً في مؤلفاتهما.

وقائع المئة الحادية عشرة

السنوات بالأرقام

١٠٠٩ - في سنة تسع وألف: توفي السيد الأجل شمس الدين محمد بن علي بن الحسين الموسوي العاملي الجبعي، صاحب «مدارك الأحكام في شرح عبادات شرائع الإسلام» وصاحب «المدارك» ابن أخت الشيخ حسن صاحب «المعالم» وأخو السيد نور الدين لأبيه، أخي صاحب «المعالم» لأمه.

١٠١١ - في سنة إحدى عشرة وألف: توفي الشيخ حسن صاحب «المعالم».

١٠٢٠ - في سنة عشرين وألف: توفي الشيخ عبد الصمد أخو شيخنا البهائي في محيط المدينة وحمل نعشه إلى النجف الأشرف.

١٠٢١ - في سنة إحدى وعشرين وألف: توفي العالم الكامل الزاهد الملاّ عبد الله بن الحسين التستري ساكن أصفهان، وصاحب مدرستها الكبيرة في جنب مسجد «نقش جهان»، كانت وفاته بأصفهان في شهر المحرم، واجتمع في تشييعه ما يقرب من مئة ألف نفر، وكان الناس ينوحون ويبكون كما في يوم عاشوراء، ووري الثرى إلى جوار إسماعيل بن زيد بن الحسن عليه السلام، وبعد سنة حمل إلى كربلاء، وهو تلميذ المقدس الأردبيلي، وأستاذ المجلسي الأول وغيره.

ومن مؤلفاته: كتاب «شرح القواعد»، وقيل عن زهده إنه لم يرتكب المباح أبداً، وإن كل ما كان يعمله إما يكون واجباً أو مستحباً، وقيل إنه كان قد اشترى عمامته بأربعة عشر (شاهياً) واعتم بها أربع عشرة سنة.

وقال المجلسي الأول: ذهبت يوماً مع أستاذي الملاّ عبد الله إلى خدمة الشيخ أبي البركات الواعظ في الجامع العتيق بأصفهان، وكان معمراً بلغ ما يقرب المئة عام من عمره، فلما وردنا عليه راح يتكلم، ومن جملة أقواله: إنني أروي عن الشيخ علي المحقق دون واسطة، ثم إنه أعطى إجازة لجناب المولى، ثم أمر بكأس من شراب السكر فأحضرت ووضعت أمام المولى، فلما نظر إليها المولى قال: أنا لست مريضاً، وهذا الشراب إنما هو للمرضى أيضاً، فتلا أبو البركات: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ﴾ ثم قال: أنت رئيس المؤمنين، وهذه خلقت بسبب المؤمنين، لكن المولى اعتذر وقال: لم يخطر لي حتى الآن أن شراب السكر يعطى لغير المرضى.

وهذا الملاّ هو غير الملاّ عبد الله بن محمود التستري الخراساني عالم زمان الشاه طهماسب الصفوي، الذي تقاطر الأزبكيون سنة سبع وتسعين وتسعمئة إلى مشهد فأخذوه واقتادوه إلى بخارى وما وراء النهر، وهناك تباحث مع العلماء فتغلب عليهم جميعاً، ثم قال لهم: أنا شافعي، لكنهم لم يقبلوا قوله وأردوه شهيداً بالخناجر وغيرها، ثم أحرقوا جسده.

١٠٢٨ ـ في سنة ثمان وعشرين وألف: توفي بشيراز السيد الجليل أبو علي السيد ماجد بن هاشم بن علي البحراني، ناشر علم الحديث، ودفن في بقعة «شاه جراغ»، صاحب الأشعار الرائقة المتعلقة بالتاسع من ربيع الأول، وغيره، صاحب كتاب «سلاسل الحديد»، وهذا السيد من مشايخ المحدث الكاشاني الملاّ محسن الفيض، ومن شعره:

جرت عيوني شيباً وهو لا عجب
تجري العيون لوقع الثلج في القلل

وفي تلك السنة أيضاً توفي بمكة المعظمة مولانا المعظم الميرزا محمد بن علي الأسترآبادي أصلاً، والساكن في الغري. والمجاور بمكة، والمدفون بها، له كتاب «الرجال» الكبير والمتوسط والصغير، و «شرح آيات الأحكام» وغيره، وكان (رضي الله عنه) فقيهاً متكلماً

ثقة ورعاً زاهداً، ودكره العلامة المجلسي (رضي الله عنه) في باب من تشرّف بلقاء الحجة عليه السلام في الغيبة الكبرى، وصورته أنه قال (رضي الله عنه):

كنت ذات ليلة أطوف حول البيت إذ أتى شاب حسن الوجه فأخذ في الطواف، فلما قرب مني أعطاني طاقة ورد أحمر في غير أوانه، فأخذت منه وشممته وقلت له: من أين يا سيدي؟ قال: من الخرابات. ثم غاب عني فلم أره، والخرابات هي جزيرة المغرب من البحر المتوسط، منها الجزيرة الخضراء، كما عن «أنساب السمعاني» و «القاموس» وغيرهما.

١٠٣٠ - في سنة ثلاثين وألف: توفي بمكة المعظمة، ودفن قرب قبر السيدة خديجة عليها السلام الشيخ الجليل ابن الفقهاء، وأبو الفقيهين فخر الدين محمد بن الشيخ حسن بن الشهيد الثاني (رضي الله عنه)، وكان هذا الشيخ المعظم مجاوراً بمكة، وتتلمذ على السيد محمد صاحب «المدارك» وعلى الميرزا محمد الأسترآبادي الرجالي، وشرح كتابي «التهذيب» و «الاستبصار» وكتب حواشي على كتاب «شرح اللمعة» و «المعالم» و «أصول الكافي» و «الرجال الكبير» و «المختلف» و «اثني عشرية» والده، وعلى «المدارك» و «المطوّل» وغيرها، وكان له أشعار رائعة. وفي السنة نفسها توفي الشيخ الأجل العلامة شيخنا بهاء الملة والدين محمد بن الشيخ حسين العاملي الحارثي، حاله في الفقه والعلم والفضل والتحقيق والتدقيق وجلالة القدر ورشاقة العبارة أظهر من أن تذكر، وفضائله أكثر من أن تحصر، ذكره صاحب «السلافة» وأثنى عليه ثناءً بليغاً، له كتب مفيدة جيدة كـ «الحبل المتين» و «مشرق الشمسين» و «الخلاصة» و «الكشكول» و «الصمدية» «التهذيب» و «الزبدة» و «مفتاح الفلاح» و «الأربعين» إلى غير ذلك، وهي كثيرة مشهورة في الآفاق، وله أشعار لطيفة بالعربية والفارسية، توفي بأصبهان، ثم نقل قبل الدفن إلى المشهد الرضوي، وقبره هناك معروف.

وكان شيخنا البهائي معاصراً للسيد الفاضل الجليل حامي حوزة الإسلام القاضي نور الله بن السيد شريف الدين الحسيني المرعشي التستري، صاحب كتاب «مجالس المؤمنين» و «إحقاق الحق» و «الصوارم المهرقة» و «مصائب النواصب» و «الحاشية على البيضاوي» وعلى «شرح مختصر العضدي» وغيرها. قتل (رضي الله عنه) بأكبر آباد في الهند بسبب تأليف «إحقاق الحق» (نوّر الله مرقده).

١٠٣٣ - في سنة ثلاث وثلاثين وألف: توفي بمكة المعظمة العالم الفاضل الملاّ محمد أمين الأسترآبادي الأخباري، صاحب «الفوائد المدنيّة».

وفي السنة نفسها ولد شيخنا الأجل المحدث الشيخ محمد بن الحسن بن علي بن محمد، المعروف بالشيخ الحرّ العاملي المشغري، أحد المحمدين الثلاثة، مؤلف كتاب «الوسائل» وغيره، كتبت أحواله في «أمل الآمل»، وقال في «الروضات»: حكي أنه في أحد أسفاره إلى العجم يريد خراسان ذهب إلى أصفهان. ولقي هناك كثيراً من علمائها ومنهم العلامة المجلسي (رضي الله عنه) وأعطى كل منهم إجازة للآخر بالرواية عنه، ويحكى عن قوة نفسه أنه ورد يوماً على الشاه سليمان الصفوي، ودون إجازة اتخذ له مجلساً على طرف المسند الذي يجلس عليه السلطان، فلما رأى السلطان أن مسلكه يتّسم بالجرأة وعرف من هو سأله: يا شيخنا، ما الفرق بين حُرّ وخر؟ (خر بالفارسية تعني الحمار) فأجاب الشيخ بداهة: مسند واحد، مسند واحد.

كانت وفاته في المشهد المقدس، وقبره في صحن الإمام الرضا عليه السلام في إحدى حجرات الصحن، قرب المدرسة المعروفة بمدرسة الميرزا جعفر.

وبيت بني الحرّ بيت كبير من العلماء، فوالد الشيخ الحر وأجداده جميعاً من العلماء والفقهاء، وكذلك بنو أعمامه، يحسن الرجوع في ذلك إلى «أمل الآمل».

واعلم أن من معاصريه العالم الفاضل الميرزا محمد بن الملاّ محمد

رضا القمي، صاحب التفسير الكبير المعروف بـ «كنز الدقائق» ويشتمل على أحاديث أهل البيت، ووجوه الأعاريب واللغات والقراءات ودقائقها، وهو أحسن التفاسير، ويقرب من مئة وعشرين ألف بيت.

١٠٣٥ ـ في سنة خمس وثلاثين وألف: توفي الشيخ لطف الله بن عبد الكريم بن إبراهيم بن علي بن عبد العالي الميسي، ساكن أصفهان، كان معاصراً للشيخ البهائي، صاحب المسجد المعروف في ميدان شاه أصفهان، وكان الشيخ لطف الله من أسرة علم، وقد كتبوا تاريخ وفاته بالفارسية:

جـون دولام ازنـام أو سـاقـط كـنـى
سـال تـاريـخ وفـاتـش زآن شـمـار

ومعناه: إذا أسقطت من اسمه لامين
فـتـاريـخ وفـاتـه مـن ذلـك الحـسـاب

ومراده من اسم الشيخ لطف الله، واللام المشددة في لفظ الجلالة، ويحسب على هذا مرتين.

١٠٤٠ ـ في سنة أربعين وألف (١٠٤١ ـ خ ل): توفي السيد الجليل أعجوبة دهره الآغا السيد محمد الباقر بن المير محمد الحسيني الأسترآبادي المعروف بالمير داماد كان والده المبرور ختناً لشيخنا المحقق علي بن عبد العالي الكركي. وكان (رضي الله عنه) معاصراً لشيخنا البهائي وبينهما ألفة.

ونقل أنه لم تفت منه نوافله مدة تكليفه، واشتهر أنه لم يأو إلى فراشه للاستراحة مدة أربعين سنة، وكان يقرأ كل ليلة خمسة عشر جزءاً من القرآن، وكان معاصراً للمير أبي القاسم الفندرسكي الحكيم المدفون بأصفهان.

١٠٥٠ ـ في سنة خمسين وألف: توفي الحكيم المتأله المولى محمد بن إبراهيم المشهور بالملاّ صدرا صاحب «الأسفار» و «شرح الكافي» و «تفسيرات» وغيرها، وكان من تلاميذ شيخنا البهائي والسيد الداماد. والمرحوم الملاّ صدرا أبو زوجة الفيض الكاشاني، والملاّ عبد الرزاق

اللاهيجي، ووالد الميرزا إبراهيم المرحوم صاحب «الحاشية على شرح اللمعة» وكتاب «تفسير العروة الوثقى».

١٠٥٩ - في سنة تسع وخمسين وألف: توفي الشيخ محمد بن علي بن محمد الحرفوشي. العاملي الكركي الفاضل العالم الأديب، صاحب الشروح على «الزبدة» و «التهذيب» في النحو، و «صمدية الشيخ البهائي» و «قواعد الشهيد» وغيرها. وينسب إليه أنه قد أدرك المعمر المغربي الملقب بابن أبي الدنيا، والمسمى بعلي بن عثمان بن الخطاب اليماني، الذي اشتهر أنه شرب ماء الحياة، وأدرك صحبة أمير المؤمنين عليه السلام، وروى عنه الحديث، وشهد معه صفين، وأدرك الحسن عليه السلام بساباط المدائن، والحسين عليه السلام بوادي كربلاء، فأدرك الشيخ المعمر في بعض مساجد الشام، واستجاز منه فأجازه رواية أصول الحديث والعربية والكتب الأربعة، وكان الشيخ الحرفوشي معاصراً للسيد محمد بن محمد بن القاسم الحسيني العاملي، صاحب «الاثني عشرية في المواعظ العددية».

١٠٦٠ - في سنة ستين وألف: توفي الملاّ علي تقي كمرهي صاحب رسالة في تحريم صلاة الجمعة، وحرمة استعمال الدخان، وفي الرد على نوح الأفندي في الأمر بقتل الشيعة.

وفي السنة نفسها توفي بالنجف الأشرف السيد الجليل شرف الدين علي بن حجة الله الشولستاني، أستاذ العلامة المجلسي (رضي الله عنه) (وشولستان تقع بين شيراز والبنادر).

١٠٦٢ - في سنة اثنتين وستين وألف: ولد الشيخ الفقيه أعجوبة الدهر مولانا محمد بن تاج الدين الحسن الأصفهاني المعروف بالفاضل الهندي، كانت وفاته سنة سبع وثلاثين ومئة وألف كما سيأتي ذكره.

١٠٦٤ - في سنة أربع وستين وألف: توفي بمكة الشيخ زين الدين بن محمد بن الحسن بن الشهيد الثاني، أستاذ رواية الشيخ الحر العاملي (رحمة الله عليه).

وفي السنة نفسها توفي السيد السند الوزير الحسين بن الميرزا رفيع الدين الآملي الأصفهاني في أشرف مازندران، ويعرف هذا السيد بسلطان العلماء وخليفة السلطان، وصاحب الحاشية على شرح اللمعة والمعالم وغيرهما، ووزير الشاه عباس الماضي وصهره، واستمر في الوزارة حتى عهد الشاه عباس الثاني حيث توفي، وحواشيه في نهاية الإتقان والإيجاز (رضي الله عنه).

١٠٧٠ - في سنة سبعين وألف: توفي المجلسي الأول الملاّ محمد تقي والد العلامة المجلسي (رضي الله عنه)، وشارح «الفقيه» و «الصحيفة» وغيرهما، وقبره بأصفهان إلى جنب مسجد الجمعة.

١٠٧١ - في سنة إحدى وسبعين وألف: توفي الملاّ عبد الله التوني البشروي، ساكن خراسان في كرمانشاهان، وقد دفن عند بلشاه على يمين الطريق، وهذا الشيخ صاحب «الوافية في الأصول» الذي شرحه السيد صدر الدين القمي والسيد محسن الأعرجي، وأخوه هو الشيخ أحمد كاتب «الحاشية على المعالم» و «الرسالة في الرد على الصوفية»، كان رجلاً عالماً، وكانت وفاته بعد الملاّ عبد الله.

١٠٨٠ أو ١٠٨٢ - في سنة ثمانين وألف، أو اثنتين وثمانين وألف: توفي السيد الفاضل الحكيم المتكلم رفيع الدين محمد بن السيد حيدر الطباطبائي، المعروف بالميرزا رفيعا النائيني من توابع أصفهان، كان (رضي الله عنه) من أعاظم علماء دولة الشاه صفي الصفوي، وكان صاحب «الشجرة الإلهية في أصول العقائد» بالفارسية، وهو من مشايخ العلامة المجلسي (رضي الله عنه) والمدفون بتخت فولاد أو بأرض البابا ركن الدين، وهو غير المولى رفيع الدين محمد بن المولى فتح الله الواعظ القزويني تلميذ المولى خليل القزويني صاحب كتاب «أبواب الجنان» المتوفى في شهر رمضان سنة تسع وثمانمئة وألف، والظاهر اتحاده مع المولى رفيع الدين الآخر الذي هو صاحب كتاب «الجملة الحيدرية».

١٠٨١ - في سنة إحدى وثمانين وألف: توفي العالم الفاضل الصالح الآخوند الملاّ صالح السروي المازندراني، ودفن بأصفهان في مقبرة المجلسيين، ومن مؤلفاته «شرح أصول الكافي» والحاشية على «المعالم» وهو صهر المجلسي الأول، وأبو زوجة محمد الأكمل، وجدّ الآغا البهبهاني لأمّه، وهو والد الآغا هادي الذي وافاه أجله في فتنة الأفاغنة.

١٠٨٤ - في سنة أربع وثمانين وألف: تهدّمت القبة المباركة للإمام الرضا عليه السلام مع مآذن المسجد، وذلك بسبب زلزلة حدثت هناك.

قال الشيخ أحمد، أخو الشيخ الحر العاملي المتوطن بخراسان في «الدر المسلوك»:

«وفي سنة أربع وثمانين وألف في شهر ربيع الأول بعد العصر كانت زلزلة عظيمة بخراسان وقعت منها قبة الرضا عليه السلام ومنارتا المسجد الجامع والبيوت والجدران، وأهلكت جماعة من الناس تحت الحيطان، وتبعها زلازل عديدة في مدة مديدة أخف منها، وخرج أكثر الناس إلى الصحارى، فأمر الشاه سليمان بإعادة قبة الرضا عليه السلام، فأعيدت على الأساس القديم، ورمّم ما استهدم من الحضرة والمسجد، وبذل في ذلك مالاً عظيماً، وزاد الذهب في الهلال والقبة ابتغاءً لوجه ربه» انتهى.

قلت: وقد أشير إلى هذا الهدم والبناء في الكتيبة الواقعة في أطراف القبة المباركة فوق الأترجّات الأربع، وهي إملاء المحقق الخوانساري وهذه عبارتها:

«من ميامن منن الله سبحانه الذي زين السماء بزينة الكواكب، ورصع هذه القباب العلى بدرر الدراري الثواقب، أن استسعد السلطان الأعدل الأعظم، والخاقان الأفخم الأكرم، شرف ملوك الأرض حسباً ونسباً، وأكرمهم خلقاً وأدباً، مروّج مذهب أجداده الأئمة المعصومين، ومحيي مراسم آبائه الطيبين الطاهرين، السلطان بن السلطان السلطان بن

السلطان شاه سليمان الحسيني الموسوي الصفوي بهادر خان، بتذهيب هذه القبة العرشية الملكوتية، وتزيّنها وتشرف بتجديدها وتحسينها إذ تطرّق إليها الانكسار، وسقطت لبناتها الذهبية التي كانت تشرق كالشمس في رابعة النهار، بسبب حدوث الزلزلة العظيمة في هذه البلدة الطيبة الكريمة، في سنة أربع وثمانين وألف، وكان هذا التجديد الجديد سنة ست وثمانين وألف، كتبه محمد رضا الإمامي».

وأما الكتيبة الواقعة في القبة المطهرة فوق الأترجات فهي هذه:

«بسم الله الرحمان الرحيم، من عظائم توفيقات الله سبحانه أن وفق السلطان الأعظم، مولى ملوك العرب والعجم، صاحب النسب الطاهر النبوي، والحسب الباهر العلوي، تراب أقدام خدّام هذه العتبة المطهرة اللاهوتية، غبار نعال زوّار هذه الروضة المنورة الملكوتية، مروّج آثار أجداده المعصومين السلطان بن السلطان أبو المظفر شاه عباس الحسيني الموسوي الصفوي بهادر خان، فاستسعد بالمجيء ماشياً على قدمه من دار السلطنة أصفهان إلى زيارة هذا الحرم الأشرف، وقد تشرف بزينة هذه القبة من خالص ماله، في سنة ألف وعشر، وتمّ في سنة ألف وست عشر.

وفي أسفلها بالخط الثلث الخفي: عمل كمال الدين محمود في خمس عشرة وألف، ثم بخط النستعليق الخفي: كتبه علي رضا العباسي».

١٠٨٥ ـ في سنة خمس وثمانين وألف: توفي الشيخ المحدث فخر الدين بن محمد بن علي بن أحمد بن الطريح النجفي، المعروف بالشيخ الطريحي، صاحب «مجمع البحرين في تفسير غريب القرآن والحديث» و «المنتخب في مجمع المراثي والخطب» في المقتل، و «جامع المقال في تميز المشتركات من الرجال» وغير ذلك.

وكان (رضي الله عنه) محدثا عالماً فاضلاً، عابداً ورعاً زاهداً، وولده الشيخ صفي الدين، وأولاد أخيه وأقرباؤه كلهم علماء أتقياء صلحاء، وكان هو (رضي الله عنه) من مشايخ العلامة المجلسي

(رضي الله عنه) وقد طعن في السن جداً، وألّف «مجمع البحرين» في أوان توجهه إلى مشهد مولانا الرضا عليه السلام ولكن كتاب «المجمع» لم يكن محيطاً بتمام اللغة العربية وغريب الحديث، كما يعرفه من له علم وتميّز.
دفن في النجف الأشرف في المقبرة المعروفة.

١٠٨٩ ـ في سنة تسع وثمانين وألف: توفي المحدث الجليل مولانا الملاّ خليل بن غازي القزويني، صاحب «صافي شرح الكافي» بالفارسية، وشرح آخر بالعربية وغيرهما، ومن جملة النعم الإلهية على هذا الأحقر أنه دخل في مجال هذا الفقير قطعة من «شرح الكافي» بالفارسي للملاّ خليل بخط بعض تلامذته، وبتصحيحه، حيث كتبها له، وقد كتب ذلك المرحوم بخطه أيضاً في ظهر تلك النسخة: لقد أعطيت هذه النسخة إلى ولدي أحمد، وزينتها بختمي، وسجع ختم ذلك المرحوم: «العلم خليل المؤمن»[١].

والملاّ خليل أستاذ الآغا رضا القزويني، وكان بينه وبين الملاّ محمد طاهر القمي ـ صاحب «الرسالة في الرد على الصوفية» و «حكمة العين» و «الأربعين في فضائل أمير المؤمنين» عليه السلام ـ نفور وبغضاء، كما نقل (والله العالم).

١٠٩٠ ـ في سنة تسعين وألف: توفي الملاّ محمد الباقر بن محمد المؤمن، المعروف بالمحقق السبزواري، صاحب «الكفاية» و «الذخيرة» و «مفاتيح النجاة»، وذلك المرحوم هو زوج أخت المحقق الخونساري، وكان معاصراً للشيخ علي سبط صاحب «الدر المنثور».

وللشيخ علي تشنيعات عليه في رسالته المعمولة في الغناء، غفر الله لهما، ودفن المحقق السبزواري في أرض خراسان، عليه الرحمة والرضوان.

---

(١) هذه النسخة موجودة الآن في المكتبة الشخصية للمرحوم المحدث القمي (علي ابن المؤلف).

١٠٩١ ـ في سنة إحدى وتسعين وألف: توفي العالم العارف الكامل الحكيم المتأله، والمحدث الجليل الفقيه محمد بن الشاه مرتضى بن الشاه محمود، المشهور بالملاّ فيض الكاشاني، المدفون بكاشان في القبة المعروفة بالكرامات.

وكان هو وأبوه وإخوانه وولده وابن أخيه من أهل العلم، وبالجملة فبيتهم بيت شريف، وهو أفضلهم، وكان له حظ عظيم في جودة التصنيف وتطبيق الظواهر بالبواطن، ومشربه قريب من مشرب الغزالي، وقد ذهب إلى شيراز بعد التفاؤل بالقرآن وبالديوان، ومجيء آية النفر، والأبيات المصدرة بقوله عليه السلام: «تغرّب عن الأوطان».

وتتلمذ في شيراز على السيد ماجد البحراني المدفون في بقعة أحمد بن موسى بن جعفر عليهما السلام المعروف بالشاه جراغ، وتتلمذ في المعقول على المولى صدر الدين الشيرازي، وكان ختناً للمولى صدرا، كما أن المولى عبد الرزاق اللاهيجي الفياض أيضاً كان ختناً له، وكان الفيض معاصراً لصاحب «الذخيرة» وبينهما موافقة كثيرة، وكان الشيخ علي الشهيدي معانداً لهما، ونقل أن المولى محمد طاهر القمي كان أيضاً معانداً للفيض، لكنه تاب إليه واعتذر منه بقوله: يا محسن قد أتاك المسيء، والحكاية معروفة.

وله مؤلفات كثيرة: وقد كتب رسالة في تعيين مؤلفاته وعدد أبياتها، وكان (رضي الله عنه) من مشايخ جملة من الأجلاء، منهم العلامة المجلسي (رضي الله عنه) وله كلمات لطيفة في مذمة الصوفية، كما أن لصهره النبيل المولى صدرا (رضي الله عنه) رسالة في ردهم سماها «كسر الأصنام الجاهلية في كفر جماعة الصوفية».

وبالجملة كان المحدث الكاشاني (رضي الله عنه) من أرباب العلم والفهم والمعرفة والمكاشفة، والمتبعين للرسول وآله عليهم السلام، الحكيم الرباني والعارف الإيماني، ولم يكن الفقير الصوفي وإن رمي بالتصوف، حاشاه ثم حاشاه، بل هو من العرفاء الشامخين، والعلماء المحدثين، وله أشعار رائقة.

١٠٩٦ ـ في سنة ست وتسعين وألف: توفي العالم الفاضل محمد بن الحسن، المعروف بالآغا رضا القزويني المحدث الإخباري، صاحب كتاب «لسان الخواص» و «قبلة الآفاق» و «تاريخ علماء قزوين»، كان تلميذاً للملاّ خليل، ومعاصراً للعلامة المجلسي (رضي الله عنه) والشيخ الحر العاملي.

١٠٩٨ ـ في سنة ثمان وتسعين وألف، في التاسع والعشرين من شهر رمضان منها: توفي المحقق المدقق العلامة الملاّ الميرزا محمد بن الحسن الشيرواني، المتوطن بأصفهان، صهر المجلسي الأول، والمدفون بخراسان في المدرسة المعروفة بمدرسة الميرزا جعفر، صاحب «الحواشي على المعالم» و «شرح التجريد» و «شرح المطالع» و «شرح مختصر العضدي» غيرها.

وكان من علماء أواخر الصفوية، أستاذ صاحب «الرياض» الذي يعبّر عنه بأستاذنا العلامة، وكان معاصراً للسيد الحكيم مؤمن بن الأمير محمد زمان الحسيني التنكاباني المازندراني، صاحب كتاب «تحفة المؤمن» المعنون باسم الشاه سليمان الصفوي.

١٠٩٩ ـ في سنة تسع وتسعين وألف، في آخرها: توفي بأصفهان علاّمة البشر والعقل الحادي عشر الآغا الحسين بن جمال الدين محمد، المعروف بالمحقق الخونساري صاحب «شرح الدروس». يقوم قبره الشريف في تخت فولاد، قرب بقعة البابا ركن الدين، قيل إن تاريخ وفاته: «ادخلي جنّتي» وفيه نظر لا يخفى.

وفي السنة نفسها توفي أيضاً السيد السند الآغا السيد الحسين بن المير إبراهيم بن المير محمد المعصوم، ووري الثرى بقزوين.

وقائع المئة الثانية عشرة

السنوات بالأرقام

١١٠٠ - في سنة مئة وألف، في شهر شوال منها: توفي العالم الفاضل الآغا الميرزا علاء الدين كلستانه أخو زوجة العلامة المجلسي (رضي الله عنه) شارح «نهج البلاغة» وغيره.

١١٠٣ - في سنة ثلاث ومئة وألف: توفي الشيخ علي بن الشيخ محمد بن الشيخ الحسن بن الشهيد الثاني بأصفهان، وهو أخو زين الدين أستاذ الحر العاملي.

ومن تصنيفات الشيخ علي: «الدر المنثور» وشرح كتاب «العقل والعلم» للكافي، و «حاشية شرح اللمعة» ورسالة في تحريم الغناء وردّ على صاحب «الذخيرة»، ورسالة في ردّ الصوفية وغيرها، وقد عاش ما يقرب من تسعين سنة.

وكان معروفاً بالشيخ علي الصغير بالنسبة إلى الشيخ علي بن عبد العالي المحقق الثاني.

١١٠٧ - في سنة سبع ومئة وألف: توفي السيد المحدث المتتبع الماهر السيد هاشم بن سليمان بن إسماعيل الحسيني البحراني التوبلي، الفقيه، المفسر المحدث الرجالي، صاحب التصانيف الكثيرة، كتفسير القرآن المسمى بـ «البرهان» و «معالم الزلفى في النشأة الأخرى» و «مدينة المعجزات» و «سلاسل الحديد» وملخص «شرح النهج» لابن أبي الحديد، و «غاية المرام» في فضائل أمير المؤمنين والأئمة عليهم السلام وغير ذلك، وقد أمر ناصر الدين شاه المرحوم بترجمة «غاية المرام» وطبعه.

١١١١ - في سنة إحدى عشرة ومئة وألف: توفي مروّج المذهب الجعفري، وفخر الشيعة ومحيي الشريعة، العالم الرباني مولانا محمد الباقر بن محمد تقي الأصفهاني، المشتهر بالمجلسي المطلق، أو بالمجلسي الثاني، وشهرته بين الطائفة أغنتنا عن ترجمته، وكتب شيخنا المحدث النوري (طاب رمسه) رسالة في أحواله سماها بـ «الفيض القدسي في أحوال العلامة المجلسي» وتاريخ وفاته ما مؤدّاه: «قدوة الدنيا هوى» وأيضاً: «عالم العلم ارتحل عن العالم» وأيضاً: «باقر العلم سار إلى الجنان» إلى غير ذلك.

وأحسن ما أنشد في هذا المقام قول بعضهم بالفارسية، ولله درّه:

ماه رمضان چه بيست وهفتش كم شد

تـاريـخ وفـات بـاقـرا عـلـم شـد

فانظر إلى بحر البلاغة، بل معجزتها حيث تضمّن مضمون هذا البيت يوم الوفاة وشهرها وسنتها من غير ارتكاب ضرورة ولا إطناب.

ومرقده الشريف الآن ملجأ الخلائق بأصبهان، وكانت سنيّ عمره ثلاثاً وسبعين سنة، وتاريخ ولادته: «جامع كتاب بحار الأنوار».

١١١٢ - في سنة اثنتي عشرة ومئة وألف: توفي السيد السند والركن المعتمد السيد نعمة الله الجزائري الشوشتري (رضي الله عنه) صاحب المؤلفات الرائقة.

وكان من تلامذة العلامة المجلسي (رضي الله عنه) وله اختصاص به، وكان حفيده السيد عبد الله بن السيد نور الدين علي بن السيد نعمة الله من أفاضل أهل العلم والحديث في عصره، وهو زمن اختلال الدولة الصفوية، وله إجازة ذكر فيها تفصيل أحواله وأحوال والده وجدّه، وأحوال جملة من المشايخ، وله شرح على «نخبة الفيض» وله «الأنوار الجنية» و «الذخيرة الباقية» وغيرها، وهو غير السيد عبد الله بن محمد رضا العلوي الحسيني الكاظمي، المعروف بشبّر، صاحب التصانيف الكثيرة التي جملة منها في ترجمة كتب العلامة المجلسي (رضي الله عنه) بالعربية، وهو تلميذ الشيخ جعفر النجفي، والسيد علي الرياضي، والشيخ أحمد الأحسائي.

ثم اعلم أن من جملة مشايخ السيد نعمة الله: الشيخ عبد علي الحويزي الساكن بشيراز، صاحب كتاب «نور الثقلين» جمع فيه أحاديث الحجج الطاهرة في تفسير الآيات. الذي نسج على منواله الميرزا محمد القمي كتاب «كنز الدقائق»، والسيد هاشم البحراني تفسيره «نور الأنوار» وللشيخ عبد علي أيضاً «شرح لامية العجم»، وكان الشيخ عبد علي إخبارياً صلباً وظاهرياً بحتاً، ومن غريب ما يسند إليه أنه كان يعمل بما ينسبه الأصحاب في كتبهم الفقهية إلى القيل، ويقول: إنه من أقاويل مولانا الصاحب عليه السلام، ألقاها بين الطائفة ليكون فيهم، نظير ما ينسب إلى المولى خليل القزويني (رضي الله عنه) في «مرسلات الكافي».

١١١٥ - في سنة خمس عشرة ومئة وألف: توفي العالم الفاضل المرحوم الشيخ جعفر بن عبد الله الحويزي الأصل، والكمرئي المولد، والأصفهاني المسكن، والنجفي المضجع، صاحب الحاشية المعروفة على «شرح اللمعة». وذلك المرحوم هو تلميذ المجلسي الأول، والمحقق السبزواري، والآغا حسين الخونساري رحمهم الله، وأستاذ محمد الأكمل والد الآغا البهبهاني، الحاج الملاّ محمد الأردبيلي، صاحب «جامع الرواة»، والسيد الجليل قوام الدين محمد بن محمد المهدي القزويني، صاحب «المنظومات» و «القصارى».

١١٢٠ - في سنة عشرين ومئة وألف: توفي السيد علي خان الشيرازي، السيد النجيب والجوهر العجيب، ابن نظام الدين أحمد، المنتهي نسبه إلى زيد بن علي بن الحسين عليهما السلام بستّ وعشرين واسطة في البين، صاحب «شرح الصحيفة» و «شرح الصمدية» و «الدرجات الرفيعة» و «سلوة الغريب» و «أنوار الربيع» وغيرها. وقد أخذ في حياته من شرحه على «الصحيفة» معاصره الفاضل الجيلاني ونسبه إلى نفسه، فأحرق لذلك قلب السيد فلم يملك عنان قلمه فصرّح بخيانته في آخر الشرح بعبارات فصيحة لطيفة.

١١٢٤ - في سنة أربع وعشرين ومئة وألف، في يوم الغدير: توفي العالم الرباني المولى محمد بن عبد الفتاح التنكابني المازندراني المشهور بـ «السراب»، تلميذ المحقق الخراساني صاحب «الذخيرة»، ومن تصانيفه: «سفينة النجاة» في أصول الدين، و «ضياء القلوب» في الإمامة، وله الحواشي على «الذخيرة» و «آيات الأحكام» للأردبيلي، و «المدارك» و «شرح اللمعة» و «المعالم».

نقل صاحب «الروضات» عن بعض الصلحاء والعلماء من أحفاده حكاية طولانية عن المرحوم الملاّ محمد السراب أنه في أحد أسفاره لزيارة الأئمة عليهم السلام رأى شخصاً من الجن يلازم ركابه، ولما سأله عن السبب قال: لقد نذرت الذهاب إلى الزيارة بصحبة أحد العلماء مشياً على الأقدام، قال: ولم تأخذ الطعام في منازل القافلة في حين أنك لا تأكل؟ قال: أقدّمه لفقراء القافلة، قال: فما هو طعامكم؟ قال: كلما رأيتُ وجهاً مليحاً وبدناً صبيحاً التصقت بصدره وشممته فأكتسب منه القوة، فذلك هو قوتنا وقوّتنا، فكلما رأيتَ أحداً مختلاً مصاباً بالصرع فاعلم أن هذا من أثر التصاق أبداننا به، وعلاجه أن يؤخذ ماء السذاب (شجر شوكي) فإذا مزج بالخل كان أفضل، ويقطر هذا في فتحة أنف المصروع، فإذا فعلوا ذلك مات الجني. وشفي المصاب بإذن الله تعالى.

وانقضت على هذا مدة وردنا بعدها على أحد أرباب الشأن في إحدى المراحل، فاستضافنا وقام على خدمتنا، وكان عنده ديك أبيض، اقترب مني رفيقي الجني وقال لي: سل صاحب البيت أن يذبح ذلك الديك لطعامنا، فلما عرف رغبتنا ذبح الديك.

ولم يمض وقت على ذلك حتى سمعنا ضجة وأصوات بكاء من أهل بيت ذلك الرجل، الذي هرع نحونا حزيناً، سألناه عما جرى فأجاب: ما إن ذبحت الديك حتى غشي على إحدى بناتي وغدت أشبه بالمجنونة، وأمرها يحيّرنا، فقلت: لا تخف ولا تجزع، فعلاجها

عندي، ثم أمرت بإحضار شيء من السذاب، فمزجته بالماء، ثم قطرت بضع قطرات منه في إحدى فتحتي منخرها، وفي الحال قامت الفتاة صحيحة سالمة، وسمعت صوتاً لم أر صاحبه يقول: آه؛ لقد أسلمت نفسي إلى الموت بكلمة واحدة قلتها، وسرّ أفشيته للإنس من بني آدم! وبعدها لم أعد أرى ذلك الجني، وتأكد لي في الطريق أنه كان نفسه قد تعرض للفتاة ثم هلك.

إنها حكاية عجيبة، والعهدة على ناقلها، ولكن مما لا شك فيه أن الديك الأبيض نافع لدفع الجن، كما ورد في الروايات.

١١٢٥ ـ في سنة خمس وعشرين ومئة وألف: توفي المحقق المدقق الآغا جمال الدين بن المحقق الآغا حسين الخونساري، صاحب الحاشية على «شرح اللمعة» التي كتبها بغاية الإحكام والإتقان والتحقيق، مزاره الشريف في بقعة تخت فولاد عند قبة المرحوم أبيه، التي بناها الشاه سليمان الصفوي.

١١٢٩ ـ في سنة تسع وعشرين ومئة وألف: توفي الآغا حسين بن الملاّ الحسن الديلماني الجيلاني بأصفهان، وهو شارح «الصحيفة» الذي أخذها عن شرح الصحيفة للسيد علي خان.

١١٣٠ ـ في سنة ثلاثين ومئة وألف: توفي العالم الفاضل الماهر الميرزا عبد الله بن عيسى الأصفهاني المشهور بالأفندي، مؤلف «رياض العلماء وحياض الفضلاء» و «الصحيفة الثالثة السجادية»، وكان تلميذاً خاصاً للعلامة المجلسي (رضي الله عنه).

وهو المعبر عن المجلسي بالأستاذ الاستناد، وعن السبزواري بأستاذنا الفاضل، وعن المحقق الخونساري بأستاذنا المحقق، وعن المدقق الشيرواني بأستاذنا العلامة، (رضوان الله عليهم).

١١٣٥ ـ في سنة خمس وثلاثين ومئة وألف: توفي الملاّ عبد الله بن صالح السماهيجي البحراني الإخباري، بعكس والده، في بهبهان في سنة فتنة الأفغان، وهذا الشيخ صاحب مؤلفات منها: كتاب «الصحيفة العلوية»

التي استدركها محدثنا النوري (طاب ثراه) أيضاً وأتبعها بكتابة «الصحيفة العلوية الثانية».

١١٣٧ - في سنة سبع وثلاثين ومئة وألف: توفي الشيخ الفقيه، أعجوبة دهره بهاء الدين مولانا محمد بن تاج الدين الحسن بن محمد الأصفهاني الملقب بالفاضل الهندي، لأنه كان في بداية أمره أيام صغره في بلاد الهند، وله مؤلفات كبيرة مثل: «كشف اللثام» و «شرح اللمعة»، و «شرح قصيدة السيد الحميري» و «تفسير القرآن» و «شرح العوامل» و «تلخيص الشفاء» وغيرها.

ونقل عنه أنه قال: فرغت من تحصيل العلوم، منقولها ومعقولها، ولم أكمل ثلاث عشرة سنة، وشرعت في التصنيف ولم أكمل اثنتي عشرة سنة. . الخ.

يروي عن والده، وهو عن شيخه الثقة المولى حسين علي بن المولى عبد الله التستري، عن والده، وقبر الفاضل الهندي في شرقي بقعة تخت فولاد، كان من علماء أواخر الصفوية، ومات في أيام فتنة الأفاغنة.

١١٥٠ - في سنة خمسين ومئة وألف: توفي الشيخ أحمد بن إسماعيل الجزائري بالنجف الأشرف، وهو صاحب «آيات الأحكام» و «شرح التهذيب» وغيرهما.

١١٥١ - في سنة إحدى وخمسين ومئة وألف، في الثالث والعشرين من شوال توفي (على قول): السيد الجليل المير محمد حسين نجل المير محمد صالح، وسبط العلامة المجلسي (رضوان الله عليهم).

١١٦٠ - في سنة ستين ومئة وألف، في العشر منها: توفي سيدنا الأجل السيد صدر الدين الرضوي القمي، صاحب «شرح الوافية»، وحكاية البحث بينه وبين السيد أبي القاسم جعفر بن الحسن الموسوي جدّ صاحب «الروضات» بمنى معروفة، عندما رأيا شخصاً يحمل سكيناً وهو يقول: الناس يقدمون البقر قرباناً للإله، وأنا أقدم نفسي قرباناً، قال هذا وحزّ رأسه، فوقع ميتاً.

وكان أخو السيد الصدر، السيد إبراهيم من العلماء أيضاً، وكان السيد الصدر معاصراً للسيد نصر الله الحائري المدرس في الروضة الحسينية، على ثاويها ألف سلام وتحية، رأس الأذكياء والفقهاء، استشهد في القسطنطينية، وهو الذي أرسله نادر شاه بهدايا إلى الكعبة، وأرسله سفيراً إلى سلطان الروم فقتل.

١١٧٣ - في سنة ثلاث وسبعين ومئة وألف، في الحادي عشر من شعبان: توفي الملاّ إسماعيل المازندراني الخاجوئي، شارح «المدارك» وغيره.

١١٧٨ - في سنة ثمان وسبعين ومئة وألف: ولد الميرزا محمد بن عبد النبي الإخباري، المعاصر للشيخ جعفر عرب، وبينهما منافرات، وردّ عليه الشيخ برسالة لطيفة، وكان الميرزا عالماً عريفاً له مصنفات كثيرة.

١١٨٠ - في سنة ثمانين ومئة وألف: ولد المرحوم الحاج الملاّ محمد إبراهيم الكرباسي، صاحب «النخبة» و «الإشارات» وغيرهما، تلميذ العلامة بحر العلوم، والشيخ جعفر، والسيد محسن الكاظمي، والآغا البهبهاني، والمحقق القمي، والملاّ مهدي النراقي (رضي الله عنهم).

١١٨٦ - في سنة ست وثمانين ومئة وألف: توفي العالم الأجل، والشيخ الأفقه الأعظم، العالم الرباني يوسف بن الشيخ أحمد آل عصفور الدرازي البحراني، صاحب «الحدائق الناضرة» و «الدرر النجفية» و «لؤلؤة البحرين» و «الكشكول» و «سلاسل الحديد في تقييد ابن أبي الحديد»، والرد عليه في «شرحه على النهج»، وذكر في أوله مقدمة شافية في الإمامة تصلح أن تكون كتاباً مستقلاً نظير كتاب «كاشف الغطاء» للشيخ جعفر الكبير.

«وله أيضاً كتاب «النفحات الملكوتية في الرد على الصوفية» وعدّ منهم المولى محسن الكاشاني، وغير ذلك، وكان يميل إلى الإخبارية بعكس والده، فإنه كان مجتهداً أصولياً صرفاً كثير التشنيع على الإخباريين. وكان أبوه أيضاً من تلامذة الشيخ سليمان الماحوزي، وكان العلامة البهبهاني ينكر على طريقة الشيخ يوسف، ويشدد النكير

على من حضر في مجلس إفاداته، بحيث نقل أن ابن أخته الفاضل السيد علي، صاحب «الرياض»، كان من خوفه يدخل على ذلك الجناب بالليل ويقرأ عليه متخافتاً لا جهراً.

وبالجملة كان الشيخ يوسف عديم النظير في تخلقه بأكثر المكارم من سلامة الجنبة، وجودة السليقة، ومتانة الطريقة، ورعاية الإخلاص في العلم والعمل، والتحلي بالصفات الشريفة، والتخلي عن الرذائل.

وكتابه «الحدائق الناضرة في أحكام العترة الطاهرة» كتاب جليل لم يُعمل مثله، وكان مجاوراً لمولانا أبي عبد الله الحسين عليه السلام، ودفن في جواره مما يلي الشهداء، قيل في تاريخ وفاته: «قرحت قلب الدين بعدك يوسف» وهي من قصيدة في مرثيته مطلعها:

«يا قبر يوسف كيف أوعيت العلى»

١١٩١ - في سنة إحدى وتسعين ومئة وألف: توفي السيد السند السيد حسين بن السيد جعفر جدّ صاحب «الروضات» وشيخ إجازة بحر العلوم والمحقق القمي (رحمهم الله).

١١٩٧ - في سنة سبع وتسعين ومئة وألف: توفي العالم الجليل الحكيم الرباني، جناب الملاّ محمد بن الملاّ محمد رفيع الجيلاني، المعروف بالبيدآبادي الأصفهاني، وكان معاصراً للمولى محمد علي المازندراني، مؤلف «توضيح الاشتباه».

وقائع المئة الثالثة عشرة

السنوات بالأرقام

١٢٠٩ ـ في سنة تسع ومئتين وألف: توفي الشيخ الأجل الأكمل، الأستاذ الأكبر، المولى محمد الباقر البهبهاني الحائري (رضي الله عنه)، كانت ولادته الشريفة بعد خمس أو ست سنوات من وفاة العلامة المجلسي (رضي الله عنه) مدفنه الشريف فيما يلي الشهداء، في الرواق الشرقي الحسيني سلام الله عليه، والدته ابنة الآغا نور الدين بن جناب الملاّ صالح المازندراني، ووالدة الآغا نور الدين آمنة بكم ابنة المجلسي الأول، لهذا فهو يعبّر عن المجلسي الأول بجدّي، وعن المجلسي الثاني بخالي (رضي الله عنه).

سئل (رضي الله عنه): بم بلغت ما بلغت من العلم والعزة والشرف والقبول في الدنيا والآخرة؟ فكتب في الجواب: لا أعلم من نفسي شيئاً أستحق به ذلك، إلا أني لم أكن أحسب نفسي شيئاً أبداً، ولا أجعلها في عداد الموجودين، ولم آل جهداً في تعظيم العلماء والمحمدة على أسمائهم، ولم أترك الاشتغال بتحصيل العلم مهما استطعت، وقدمته على كل مرحلة أبداً.

١٢١٢ ـ في سنة اثنتي عشرة ومئتين وألف: توفي سيد الفقهاء المتبحرين، إمام المحدثين والمفسرين العلامة الطباطبائي السيد مهدي بن السيد مرتضى بن السيد محمد الحسني الحسيني، المعروف ببحر العلوم، صاحب الكرامات الباهرة[١]. أصل جدّه من بروجرد، والسيد محمد

---

(١) المرحوم الآغا الحاج الميرزا أبو الفضل (رضوان الله عليه) قال في ألقاب بحر العلوم: صاحب =

جدّه ابن بنت المجلسي الأول وابن أخت المجلسي الثاني، فمن هنا أن بحر العلوم يعبّر عن العلامة المجلسي الأول (رضي الله عنه) بالخال المفضال، ومعروف أن بحر العلوم وصل إلى خدمة إمام الزمان (عجل الله فرجه) تكراراً، ونقل من بركات مباحثاته مع أحبار اليهود أن جملة منهم فازوا بشرف الإسلام، ونقل أنه في إحدى السنين تشرف بالحج إلى بيت الله، فلما لم يدرك وقت الحج توقف في مكة ودرّس بالمذاهب الأربعة، حتى قال في حقه بعض علماء السنة: لو كان حقاً ما يقول الشيعة الإمامية في مهدوية ولد الإمام العسكري عليه السلام لكان هذا السيد المهدي هو ذلك الإمام القمقام.

له تصانيف مفيدة: منها: «الدر» و «عقوده الاثنا عشر في المرثية» وكتاب «المصابيح» في الفقه و «الفوائد الرجالية» ومقدار من شرح «الوافية»، وله أرجوزة سنيّة في فضل الزمان يقول في أولها:

يا طالباً فضائل الزمان ... اتل لذاك سورة الرحمان
تجد بها الرحمان فيه فضّله ... أجمله طوراً وطوراً فصّله

إلى تمام ستة وأربعين بيتاً أواخرها:

كأنه في لونه الياقوت ... فكله فهو للقلوب قوت
وحسبه فضلاً وفخراً وكفى ... أنْ خير ياقوت به قد عُرفا
هذا ثنائي حين جاش جيشي ... وإنّ وصف العيش نصف العيش

وله تلامذة كبار كالسيد جواد العاملي، والحاج الملاّ أحمد النراقي، والشيخ أحمد الأحسائي، والسيد محسن الكاظمي، والشيخ عبد علي أستاذ العالم الكرباسي وغيرهم، توفي بوطنه النجف الأشرف، ودفن في المسجد المعروف بالطوسي قريباً من مرقد الشيخ الطوسي (رضي الله عنه)، وبجنبه مرقد ولده الفاضل الجليل السيد محمد رضا.

= الكرامات الباهرة والمعجزات القاهرة، وقال: رأيت هذا اللقب بخط الشيخ الأعظم صاحب «الجواهر» في الإجازة التي رقمها للشيخ عيسى الزاهد (منه ره).

قيل في تاريخ وفاة بحر العلوم كلام من أربع فقرات توالت في هذا المصراع: «يغرب غربي غريب بغريب» وقيل أيضاً: «قد غاب مهديّها جداً وهاديها». وله أخ جليل هو صاحب العزة والجلال والعظمة، الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر السيد المجواد الآغا السيد محمد جواد، وهو جد صاحب «المواهب السنيّة في شرح الدرة البهية» السيد الفاضل الآغا ميرزا محمود بن الأميرزا علي تقي بن السيد محمد جواد، شارح منظومة عم أبيه، وصاحب «مسلي القلوب» نظير «مسكن الفؤاد» ونقل أن والد بحر العلوم (رضي الله عنه) رأى في منامه ليلة ولادة ولده أن مولانا الرضا عليه السلام أرسل شمعة مع محمد بن إسماعيل بن بزيع وأشعلها على سطح دارهم، فعلا سناها ولم يدرك مداها.

١٢١٥ - في سنة خمس عشرة ومئتين وألف: توفي الشيخ أبو علي محمد بن إسماعيل المازندراني الأصل، والحائري المولد والمسكن والمدفن، صاحب كتاب «منتهى المقال في علم الرجال، وألف كتابه المذكور بإشارة أستاذه السيد محسن الكاظمي وهو زبدة كتاب «منهج المقال» مع تعليقات المولى البهبهاني عليه، ومشتركات المقدس الأمين الكاظمي مع إسقاط المجاهيل.

وكان تاريخ وفاته قبل غلبة الوهابية على الحائر الشريف بسنة، فإن القتل العام الذي صدر عن الجماعة الوهابية (لعنهم الله) كان في سنة ست عشرة ومئتين وألف.

١٢٢٠ - في سنة عشرين ومئتين وألف: توفي العالم الفاضل الشيخ أسد الله الكاظمي صاحب «مقابس الأنوار في أحكام النبي المختار» صهر الشيخ جعفر النجفي (رضوان الله عليهما).

وفي السنة نفسها ولد السيد الفاضل الآغا السيد محمد باقر الأصفهاني، صاحب «روضات الجنات».

١٢٢٦ ـ في سنة ست وعشرين ومئتين وألف: توفي السيد السند الآغا السيد جواد بن السيد محمد علي صاحب «مفتاح الكرامة ـ شرح قواعد العلامة» وهذا السيد الجليل تلميذ بحر العلوم، ووحيد البهبهاني، وأستاذ الشيخ محمد الحسن صاحب «جواهر الكلام».

١٢٢٧ ـ في سنة سبع وعشرين ومئتين وألف: توفي أستاذ الفقهاء الأجلّة، وشيخ مشايخ النجف والحلّة الآغا الشيخ جعفر بن الشيخ الخضر النجفي مؤلف «كشف الغطاء» المعروف أنه كتبه في سريره في أحد أسفاره، ولم يكن لديه إذ ذاك كتاب في الفقه غير «القواعد» للعلامة، خرّج منه الأصولين والفقه إلى آخر الجهاد، وله ـ في الطعن على الميرزا محمد بن عبد النبي النيسابوري الإخباري ـ رسالة لطيفة سماها بـ «كشف الغطاء» أيضاً، وله أولاد كلهم من العلماء والفقهاء، وهم موسى وعلي والحسن (رضي الله عنهم).

١٢٣٠ ـ في سنة ثلاثين و مئتين وألف: توفي الحاج الملاّ محمد حسن بن الحاج محمد معصوم القزويني الحائري الشيرازي الخاتمة، صاحب شرح «البداية» للشيخ الحر، و «رياض الشهادة في ذكر مصائب السادة» و «نور العين» مختصر «رياض الشهادة».

١٢٣١ ـ في سنة إحدى وثلاثين ومئتين وألف: توفي العالم المجتهد الفقيه، جناب الميرزا أبي القاسم بن الملاّ محمد حسين الجيلاني الجايلقي، نزيل قم، المعروف بالمحقق القمي، صاحب «القوانين» و «الغنائم» و «سؤال وجواب» غيرها.

وكان معاصراً للسيد علي صاحب «الرياض» وبينهما تنافر، وماتا في سنة واحدة، وكان (رضي الله عنه) فقيهاً ورعاً جليلاً، كثير الخشوع، غزير الدموع، دائم الأنين، باكي العينين، طيب المعاشرة، جيد الخط، قليل الحافظة، وكان مكبّاً في تحصيل العلم حتى نقلت في حقه الحكاية المعروفة عن الشمعة والطاسة، تتلمذ على العلامة البهبهاني حتى أجاز له في الرواية والاجتهاد.

وبالجملة فإنه أجلّ من أن يوصف ببيان، ومزاره في مقبرة قمّ المعروفة وبالكرامات مشهورة، قيل في تاريخ وفاته: «نقطة مشگين رباي ازناف مشگين غزال» وتعني: «نقطة مسكيّة اللون مأخوذة من سرّة غزال مسكيّة» وتساوي «١٢٣١».

وفي تلك السنة توفي السيد السند السيد علي بن السيد محمد صاحب «رياض المسائل في بيان أحكام الشرع بالدلائل» وهو شرح نافع معروف بـ «الشرح الكبير»، وله أيضاً «شرح المختصر» و «شرح المفاتيح» وغيرها. وهو (رضي الله عنه) ابن أخت العلامة البهبهاني، وله منافرة مع المحقق القمي (رضوان الله عليهم) والعجب أنه كان أصولياً واشتهر كتابه في الفقه، بخلاف المحقق القمي صاحب «القوانين».

ودفن عند خاله في الرواق المطهر الحسيني، ويروي عن خاله، ويروي عنه جماعة كالسيد محمد باقر الرشتي المعروف بحجة الإسلام، والفاضل الكرباسي، والحاج المولى محمد جعفر الإستراَبادي، والشيخ أحمد الأحسائي، والشيخ أبي علي الرجالي وابنيه السيد محمد والسيد مهدي وغيرهم (رضوان الله عليهم)، والحاج المولى محمد تقي القزويني صاحب «المجالس» وهذا هو المعروف بالشهيد الثالث، استشهد في سنة سبعين ومئتين وألف، وأخوه الحاج المولى محمد صالح كان أيضاً من الفضلاء، صاحب «مخزن البكاء» المتوفى في حدود سنة سبعين ومئتين وألف.

وفي غضون السنة نفسها توفي السيد الأجل السيد محسن بن السيد حسن الكاظمي الأعرجي، المعروف بكثرة الورع والتقوى، تلميذ السيد صدر الدين القمي، وأستاذ الحاج السيد محمد باقر الرشتي، والسيد حيدر العاملي وغيرهم، ومن مؤلفاته: «المحصول في علم الأصول» و «شرح الوافية» و «المنظومة» الشبيهة بـ «نزهة» ابن سعيد الحلي، و «المراثي الفاخرة». وإجمالاً فقد كان (رضي الله عنه) في غاية الورع والتقوى والزهد والإنصاف، وكان له ولد فقيه صالح توفي في حياة أبيه.

السنوات بالأرقام

١٢٣٢ـ في سنة اثنتين وثلاثين ومئتين وألف: توفي الملاّ علي الأكبر بن محمد باقر الإيجي الأصفهاني، الفقيه المتكلم بأصفهان، والمدفون في مقبرة تخت فولاد، مؤلف «زبدة المعارف» ورسالة في أن صلوات النوافل بسلام واحد، وردّه على السيد باقر، وغير ذلك من الرسائل الفقهية.

١٢٤٠ـ في سنة أربعين ومئتين وألف، في شهر رجب: توفي الحكيم الرباني الملاّ علي النوري الأصفهاني الموطن، كان بينه وبين المحقق القمي مكاتبات جمة، مكتوبة في أجوبة مسائله المشهورة، كان (رضي الله عنه) حسن الاعتقاد، مواظباً على السنن والآداب المأثورة، وكان يصلي خلف السيد محمد باقر الرشتي، وله حواش وتعليقات شريفة في الحكمة والكلام، وله تفسير سورة التوحيد يزيد على ثلاثة آلاف بيت، وله رد على البادري، مات بأصفهان، وحمل نعشه إلى النجف الأشرف، ودفن في عتبة باب الطوسي تحت موضع نعال الزوار.

١٢٤٢ أو ١٢٤٣ـ في سنة اثنين ومئتين وألف، أو في سنة ثلاث وأربعين ومئتين وألف: توفي الشيخ الأفقه الأكبر الأفخر الشيخ موسى بن الشيخ جعفر (رضوان الله عليهما).

١٢٤٣ـ في أوائل سنة ثلاث وأربعين ومئتين وألف: توفي الشيخ أحمد الأحسائي البحراني، ووري الثرى بالمدينة في جوار أئمة البقيع، وكان الشيخ أحمد معروفاً بكثرة العبادة، وقيل في حقه «من نظر إلى عباداته مدحه، ومن نظر إلى عباراته قدحه».

١٢٤٤ـ في سنة أربع وأربعين ومئتين وألف: توفي العالم الفاضل الكامل، جناب الحاج الملاّ أحمد بن الملاّ مهدي النراقي، كانت وفاته في «نراق» نتيجة وباء عام، وحمل نعشه إلى النجف حيث ووري الثرى في الصحن المطهر خلف موضع رأس أمير المؤمنين عليه السلام.

وكان (رضي الله عنه) سراجاً وهاجاً ويمّاً عجاجاً، له كتب مفيدة كـ «المستند في الفقه» و «عوائد الأيام» و «شرح التجريد» و «أساس

الأحكام» و «مناهج الوصول إلى علم الأصول» و «مفتاح الأحكام في الأصول» و «معراج السعادة» في الأخلاق، و «الخزائن الطاقديس»[1] و «الرد على البادري».

وكان أبوه المولى مهدي بن أبي ذرّ أيضاً عالماً فاضلاً كاملاً، له كتاب «معتمد الشيعة في أحكام الشريعة» و «لوامع الأحكام» و «جامع السعادات» و «مشكلات العلوم» و «أنيس التجار» ورسالة في أصول الدين وغيرها.

١٢٤٨ ـ في سنة ثمان وأربعين ومئتين وألف: توفي الشيخ الأجل الشيخ محمد تقي مؤلف «هداية المسترشدين» أخو صاحب «الفصول» الشيخ محمد حسين.

١٢٦٠ ـ في سنة ستين ومئتين وألف، في الثاني من ربيع الأول: توفي السيد السند الفقيه الجليل حجة الإسلام السيد محمد باقر الرشتي بأصفهان. وهو صاحب مؤلفات نفيسة.

١٢٦١ ـ في سنة إحدى وستين ومئتين وألف: توفي جناب الشيخ محمد حسين صاحب «الفصول في علم الأصول» وقبره الشريف بكربلاء قرب الصحن المطهر، عند ذلك الباب الذي يتوجهون خلاله إلى زيارة العباس عليه السلام.

١٢٦٢ ـ في سنة اثنتين وستين ومئتين وألف: توفي بالوباء الذي اجتاح العراق جناب السيد إبراهيم صاحب «الضوابط» وغيره. ودفن بكربلاء، وقبره الشريف يقابل قبر الشيخ محمد حسين صاحب «الفصول».

وفي شهر ذي القعدة من تلك السنة توفي بالنجف الأشرف الشيخ محمد حسن نجل الشيخ جعفر الكبير، مرجع الدرس والتدريس بالنجف الأشرف، وكان هذا الشيخ معاصراً للشيخ محمد حسن صاحب «جواهر الكلام» وكلاهما كانا متقاربين في السن.

---

(١) الطاقديس: شبيه بالسقف والقوس، وهو اسم تخت كسرى أبرويز (المعرّب).

السنوات بالأرقام

١٢٦٣ - في سنة ثلاث وستين ومئتين وألف: توفي السيد صدر الدين محمد بن السيد صالح العاملي الأصفهاني صهر الشيخ جعفر النجفي، ووري الثرى بالنجف الأشرف.

وفي العاشر من صفر من تلك السنة توفي جناب الحاج الملاّ جعفر الإستراَبادي بطهران، وحمل نعشه إلى النجف الأشرف ودفن في الإيوان في الصحن المطهر.

١٢٨١ - في سنة إحدى وثمانين ومئتين وألف، في الثامن عشر من جمادى الآخرة: توفي الشيخ الأعظم الأعلم الأجل، رئيس العلماء والمجتهدين، شيخ الطائفة، الشيخ مرتضى بن محمد أمين التستري الدسفولي، المتوطن بالنجف الأشرف، تلميذ الفاضل النراقي، صاحب التأليفات الرشيقة أمثال: «المكاسب» و «الرسائل» و «الطهارة» و «الصلاة» وغيرها، بحيث إن مرجع درس وأبحاث كتب ذلك المرحوم، والشيخ المطلق على ألسنة العلماء، يعود فعلاً إلى ذلك العظيم.

يقع قبره الشريف في الصحن المطهر بالنجف الأشرف قرب باب القبلة (رضون الله عليه) وأسأل الله تعالى أن يحشرنا معه ومع سائر العلماء الإمامية.

كتبه الفاني عباس بن محمد رضا القمي (عفا الله عنهما).

كانت خاتمة طبع كتاب «تتمة المنتهى» بتاريخ ربيع الثاني سنة سبع وتسعين وثلاثمئة وألف من الهجرة. برأسمال الكتبي داوري، وحقوق الطبع محفوظة للناشر.

فهرس

مقدمة الكتاب ٥
مقدمة المؤلف ٩
خلافة أبي بكر بن أبي قحافة ١٢
خلافة عمر بن الخطاب ١٤
خلافة عثمان بن عفان ومقتله ١٧
خلافة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام ٢٢
بيان قتاله للناكثين والقاسطين والمارقين ٢٢
موجز عن وقعة الجمل ٢٢
موجز عن وقعة صفين وشهادة عمار وغيره ٢٨
موجز عن وقعة النهروان ٣٨
شهادة محمد بن أبي بكر ومالك الأشتر ٤٢
شهادة أمير المؤمنين عليه السلام ٤٣
خلافة الإمام الحسن المجتبى ٤٦
حكم معاوية بن أبي سفيان ٤٧
موجز عن حال أبويه ٤٧
إمارة يزيد بن معاوية ٦٣
موجز عن قبائح أعماله ٦٤

واقعة الحرة وإحراق البيت ٦٦
جواز لعن يزيد والرد على مخالفة ذلك ٧٢
خلافة معاوية بن يزيد بن معاوية ٨١
حكم عبد الله بن الزبير ٨٢
دولة مروان بن الحكم ٨٦
حكم عبد الملك بن مروان ٩٢
مقتل المختار بن عبيد الثقفي ١٠٠
مقتل مصعب بن الزبير ١٠١
مقتل عبد الله بن الزبير ١٠٣
حكم الوليد بن عبد الملك بن مروان ١١٣
خلافة سليمان بن عبد الملك بن مروان ١١٧
خلافة عمر بن عبد العزيز بن مروان ١٢٠
خلافة يزيد بن عبد الملك بن مروان ١٢٣
حكم هشام بن عبد الملك بن مروان ١٢٧
شهادة زيد بن علي بن الحسين عليهما السلام ١٣٣
دولة الوليد بن يزيد بن عبد الملك ١٣٧
مقتل يحيى بن زيد بن علي بن الحسين عليهما السلام ١٤١
حكم يزيد وإبراهيم ابني الوليد بن عبد الملك ١٤٥
حكم مروان بن محمد بن مروان ١٤٨
القراء السبعة ورواتهم ١٤٩
خروج أبي مسلم الخراساني ١٥٠
مقتل مروان بن محمد ١٥٣
آيات وأحاديث في مثالب بني أمية ١٥٦

خلفاء بني العباس وسيرتهم ونوادر أيامهم ١٦٣
خلافة أبي العباس السفاح ١٦٥
خلافة أبي جعفر عبد الله المنصور ١٧٠
مناظرة هشام بن الحكم مع عمرو بن عبيد ١٧١
الرواة الذين أجمع العلماء على تصحيح ما يرد عنهم من أحاديث ١٨١
شهادة عبد الله بن الحسن بن الحسن عليه السلام ١٨٨
مقتل محمد بن عبد الله بن الحسن (النفس الزكية) ١٩٧
مقتل إبراهيم بن عبد الله بن الحسن (قتيل باخمرى) ٢٠١
خلافة المهدي العباسي محمد بن عبد الله المنصور ٢١٢
أحوال عيسى بن زيد بن علي بن الحسين عليهما السلام ٢٢٣
خلافة موسى بن المهدي الملقب بالهادي ٢٢٩
خلافة هارون الرشيد ٢٣٤
مقتل جعفر البرمكي وانقضاء دولة البرامكة ٢٤٩
خلافة محمد الأمين بن هارون ومقتله ٢٥٥
خلافة عبد الله المأمون ابن هارون ٢٦١
خروج أبي السرايا ومقتل بعض الطالبيين ٢٦٨
خروج محمد بن الإمام جعفر الصادق عليه السلام ٢٧٤
خلافة أبي إسحاق إبراهيم المعتصم ٣٠١
بناء بلدة سامراء بأمر من المعتصم ٣٠٢
الأسير أبو جعفر محمد بن القاسم الحسيني العلوي ٣٠٤
خلافة أبي جعفر هارون الواثق ٣١٤
خلافة جعفر بن محمد بن هارون الملقب بالمتوكل ٣١٨
منع المتوكل الناس من زيارة الحسين عليه السلام ٣٢٧

خلافة المنتصر بالله ومحمد بن جعفر المتوكل ٣٣٣
خلافة المستعين بالله أحمد بن محمد بن المعتصم ٣٣٧
خروج بعض الطالبيين ومقتلهم ٣٣٩
خلافة المعتز بالله ابن المتوكل ٣٤٤
خلافة المهتدي بالله ٣٤٨
خروج صاحب الزنج بالبصرة ٣٥٠
خلافة أحمد بن جعفر المعتمد على الله ٣٥٤
خروج يعقوب بن ليث الصفار ٣٥٨
خلافة المعتضد بالله أحمد بن طلحة ٣٦٦
خروج الداعي العلوي ٣٧٣
خلافة المكتفي بالله علي بن المعتضد ٣٧٧
خلافة جعفر بن أحمد المقتدر بالله ٣٨٠
خروج الحسن بن علي العلوي المعروف بالأطروش ٣٨٢
مقتل الحسين بن منصور الحلاج ٣٨٤
إغارة القرامطة على مكة ومقتل الحجاج ٣٨٩
مقتل المقتدر بالله ٣٩١
خلافة محمد بن أحمد القاهر بالله ٣٩٢
خلافة محمد بن جعفر الراضي بالله ٣٩٤
رد الراضي بالله فدكاً إلى ورثة الزهراء عليها السلام ٣٩٥
مقتل الشلمغاني ونبذة عن أحواله ٣٩٦
خلافة إبراهيم بن المقتدر المتقي بالله ٤٠٢
وفاة ابن بابويه ونبذة عن أحواله ٤٠٢
نص التوقيع الشريف لإمام الزمان عليه السلام إلى ابن بابويه ٤٠٢

(السفراء الأربعة) نواب إمام الزمان عليه السلام ٤٠٦
خلافة عبد الله بن علي المستكفي بالله ٤١١
خلافة الفضل بن جعفر المطيع لله ٤١٢
دولة الديالمة وسلطانهم ٤٢١
خلافة عبد الكريم بن المطيع الطائع لله ٤٢٥
خلافة أبي العباس أحمد القادر بالله ٤٣١
خلافة عبد الله بن القادر القائم بأمر الله ٤٤٦
وفاة السيد المرتضى (علم الهدى) ٤٥٠
وفاة الشيخ الطوسي ٤٥٦
الدولة الصفوية ٤٥٨
خلافة عبد الله بن القائم المقتدي بأمر الله ٤٦١
خلافة أحمد بن المقتدي المستظهر بالله ٤٦٤
وفاة الغزالي ونبذة عن أحواله ٤٦٥
خلافة الفضل بن المستظهر المسترشد بالله ٤٦٧
خلافة الراشد بالله ٤٧٢
خلافة أبي عبد الله محمد المقتفي لأمر الله ٤٧٣
خلافة يوسف بن محمد المستنجد بالله ٤٨٠
خلافة المستضيء بنور الله ٤٨٣
خلافة أحمد بن المستضيء الناصر لدين الله ٤٨٥
خلافة محمد بن الناصر الظاهر بأمر الله ٤٩٧
خلافة المستنصر بالله ٤٩٨
خلافة المستعصم بالله وزوال دولة بني العباس ٥٠٢
حملة هولاكو على بغداد ومقتل المستعصم ٥٠٢

موجز عن أحوال العلامة الحلي ٥٠٥
كتاب طبقات العلماء وأصحاب الأئمة والشعراء ٥٠٧
وقائع المئة الأولى ٥٠٨
وقائع المئة الثانية ٥١٢
وقائع المئة الثالثة ٥١٦
وقائع المئة الرابعة ٥٢٢
وقائع المئة الخامسة ٥٢٨
وقائع المئة السادسة ٥٣١
وقائع المئة السابعة ٥٣٤
وفاة السيد ابن طاووس ونبذة عن أحواله ٥٣٦
وفاة الخواجة نصير الدين الطوسي ونبذة عن أحواله ٥٣٧
وقائع المئة الثامنة ٥٤٢
وفاة فخر المحققين ونبذة عن أحواله ٥٤٦
وقائع المئة التاسعة ٥٤٩
وقائع المئة العاشرة ٥٥٤
وقائع المئة الحادية عشرة ٥٥٩
وقائع المئة الثانية عشرة ٥٧١
وقائع المئة الثالثة عشرة ٥٧٩
الفهرست ٥٨٧